232.9: C21hAm
الاب لكاي
حياة سيدنا يسوع المسيح
FEB 11 1172
232.9: C21hAm
JAFET LIB.
E 8 AUG 1990

LA VIE

DE

N.-S. JÉSUS-CHRIST

PAR

L'ABBÉ. E. LE CAMUS

DOCTEUR EN THÉOLOGIE, VICAIRE GÉNÉRAL HONORAIRE

TRADUITE

PAR

Mr L'ABBÉ P. MOBARAK

PRÉFET DES ÉTUDES

AU

COLÈGE DE LA SAGESSE

Cat. May 1936

232.9
C21hAm
c.1

حياة

سيدنا يسوع المسيح

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

تأليف

حضرة العالم العامل الاب لاكامي الفرنساوي الملفان
في اللاهوت والوكيل الاسقفي

ترجمها الى العربية

الخوري بطرس مبارك الماروني اللبناني
مدير الدروس في مدرسة الحكمة
عفي عنه

اجاب توما وقال له « ربي والهي » (يوحنا ٢٠ : ٢٨)

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

48708

طبع في بيروت في المطبعة الادبية سنة ١٩٠١

Cat. May 1936

BISHOP'S UNIVERSITY LIBRARY

تقديم الكتاب

الى غبطة السيد الجليل المفضال الموصوف باصالة الراي
ورجاحة العلم والكمال مار الياس بطرس الاول بطريرك
انطاكية وسائر المشرق على الطائفة المارونية

ايها السيد الملفان

ان خطبكم ومناشيركم الرعائية التي قدطالما حرضتم فيها رجال الاكليرس على الاهتمام برفع شأن العلوم المقدسة ونشرها بين ابناء الطائفة ليزيدوا تحمساً في ديانتهم الكاثوليكية وتكثر بين ايديهم اسلحة الدفاع عن حوزة الحقيقة تجاه العلم الكاذب الذي امتدت وشائجه الى هذه الديار قد كانت المحرّك الاول لولدكم هذا على ترجمة كتاب حضرة العالم المشهور الآب لاكامي الفرنسوي الذي اودعه تاريخ حياة مخلصنا الالهي مطبقاً اياها على مقتضيات العلم الحديث والاكتشافات الجديدة

وليقيني ان غبطتكم تباركون هذا العمل لما يترتب عليه من الفوائد الصحيحة رفعته الى مقامكم العالي وفياً ته ظلّ رعايتكم السامية

وانا واثق انكم تجيزونه بعضدكم وتنشيطكم الثمينين

اولاً لان الكتاب من اكمل التآليف التي صنّفت للآن بهذا المعنى فقد تضمّن بيان ما غمض تفسيره من الآيات والحوادث وتحليل ما أشكل من المعاني وردّ كل شبهة يعترض بها على كتاب الله وجميع ذلك بعبارة قريبة التناول · ولهذا ما كاد ينجز طبعه حتى احلّه العلماء في كل اوربة المحل الاول بين التصانيف التي تقدمته في سائر اللغات على اختلافها

وثانياً لان الجرائد والمجلات الكاثوليكية في كل الدنيا اجمعت على القول بانه اثر نفيس من اثار العلم الفرنساوي يحق لكل كاثوليكي ان يفتخر به · وردٌ مفحم لكل ما جاء في كتاب رنان من الضلالات المنكرة

وثالثاً لان حضرة المؤلف العالم اخذ لهذا العمل العظيم الأهبة اللازمة فصرف خمس عشرة سنة في الجدّ والتنقيب والاستفادة من الاكتشافات والمباحث الجديدة حتى جاء تأليفه شهادةً ساطعة على سمو مداركه وغيرته وغزارة معارفه وهكذا استحق بنوع خصوصي ثناء ابينا الحبر الاعظم البابا لاون الثالث عشر الذي بالغ في مديح تقواه حوبه الحارّ للديانة

واخيراً لشدة الافتقار في بلادنا الى مثل هذا الكتاب النفيس ولا ريب ان غبطتكم ترون لدى الاطلاع عليه نفس ما رأته مجلة «التمدن الكاثوليكي» التي قالت «ان ترجمة هذا الكتاب الى سائر اللغات هي من اجلّ المشروعات الخيرية ومن يتجشم هذه المشقة فانه يقدم اجود الخبز لمن يتضوّرون جوعاً

فتنازل اذاً ايها السيد العلاَّمة وارضَ عن هذه الترجمة التي احسب اني خدمت بها رغبتك الحارّة في انماء روح الفضيلة وتعظيم قدر المعارف

وفي الختام أبتهل الى الله تعالى مصدر كل خير ان يمنح شخصك الاثيل عمراً مديداً لنصرة الديانة والعلم بمنه وكرمه

ولد غبطتكم المطيع
الخوري بطرس
مبارك

مقدمة المترجم

بسم الله المتجسّد لخلاصنا

حمداً لمن فدانا بدمه على عود الصليب الكريم · فانقذ جنسنا البشري وطهره من الذنب القديم · واتخذ جسدنا البالي فالبسه عدم البلا بلاهوته · وظهر بين الناس وديعاً كالحمل مع عظم جبروته · اما بعدُ فيقول الخوري بطرس مبارك الماروني اللبناني احد تلامذة مدرسة سان سلبيس الباريزية انه اذا كان الكَتَبَة في كل زمان ولا سيما في العصر الحالي قد اشتغلوا بتدوين سير العظماء الذين يقتدى بافعالهم · ويحتذى على مثالهم · رغبةً منهم في إحياء تذكارهم · وتنوير المطالعين بضياء آثارهم · فكيف الظن بحياة اله قادر · واقنوم ثانٍ طاهر · تنازل من علو سمائه · مصداقاً لمقال انبيائه · وعاش ثلاثاً وثلاثين سنةً مثالاً لافضل الفضائل · ودستوراً لا تقدر على تحدّيه القبائل · فانار الكون ومن فيه بالمعجزات وترك لنا غرائب التعاليم والآيات · فكان ولا مشاحة ايرادها للمطالع خير خدمة وطنية لما يتوقف عليها من بعثة الفوائد الروحية والعلمية · كيف لا والاطلاع على اسرار حياة فادينا من اهمّ ما سُطّر في كتاب · بل من أفضل ما تشوقت الى استطلاعه الالباب فتغتذي الانفس بالوقوف عليه من الباب الحياة · وتعلم ان فداءه لنا من اهمّ ما روى الرواة · فضلاً عن ان جميع حوادث حياته كانت في بلادنا الشرقية · وكشف آثار اعماله الخطيرة فيه الفوائد العلمية · فلا غروَ اذا كان السعي وراء هذا المسعى الحميد من اصعب المقاصد · وان تكن مناهله من اقرب الموارد · لانه اذا كانت معرفة افكار انسان مثلنا

من ادق المصاعب. فكيف معرفة أعماق قلب ابن الله منبع العجائب والغرائب وبذلك يتبين فضل المؤلف الذي طبّق هذه السيرة الالهية على مايقتضيه العلم الحاضر وتطلبهُ الانفس التقية. من الامور الطبيعية والروحية. مقتصراً على قليل من كثير بالنسبة الى كتابه الكبير الذي خاض فيه عباب المباحث وحل مشاكلها. وتطرق الى استقصاء جميع مسائلها. حتى لم يبقَ في النفس حاجة. ولا لسائل لجاجة. فجاء هذا المختصر فذلكة للمطوّل المشهور. وقد حوى انواع المباحث وحلها في قليل من السطور. وكلاهما يشهدان له بطول الباع في التأليف. ودقة الوضع والتصنيف. و يبرهنان عن صادق ايمانه القويم بالاله القادر العليم. ولذلك زففت احدهما المختصر لاهل التقى. فليكرموا هذا الاثر المنتقى. وقد توخيت في تعريبه سهولة العبارة لاقرّب على المطالع مورده واقصد مع المؤلف مقصده والله المسؤول ان يثيب مؤلفه خير الجزاء وان يتلقى بالشكر عمله هذا القراء. والله من وراء هذا العمل. وعليه المعوّل والمتكل. واليه مرجع الامور في كل حال و بيده حسن الابتداء وخير المآل

ترجمة

الكتاب الذي ارسله الى المؤلف قداسة الحبر الاعظم البابا لاون الثالث عشر

ايها الولد العزيز السلام والبركة الرسولية

تلقينا بمزيد المسرة نسخة من تأليفكم المسمى «حياة سيدنا يسوع المسيح» قدمتموها لنا كأمارة على احترامكم البنوي. و باطلاعنا عليه وجدنا فيه برهاناً على حسن تقواكم وحمية غيرتكم على عمل الخير. لانه اتضح لنا جلياً لدى وقوفنا عليه

كل ما عانيتم من التعب في استقصاء هذا الموضوع السامي وكل ما تجشمتم من مشقة البحث والتنقيب حتى استطعتم ان تقدموا للقراء صورة الفادي متلألئة بالانوار السماوية التي من شأنها ان تثير في قلوب المؤمنين شعلة الحب الالهي

فنثني عاطر الثناء على مشروعكم هذا السامي ونشكر لكم الشكر الجزيل لما نراه من ضرورة استمالة انظار الناس — خصوصاً في عصرنا الحالي الذي كثرت فيه المذاهب الفاسدة وتفاقم فيه الشر — الى ذلك الانموذج الالهي عين الجمال والحق كي يرتشفوا من معين تعليمه الصافي و يعتصموا بعروة كنيسته الوثقى التي أسسها هو نفسه على الارض حباً بخلاص البشر الذين كانوا هالكين

ولما كانت اشغالنا العديدة تحول دون رغبتنا الزائدة في التلذذ بمطالعة تأليفكم الاغر عزمنا مع ذلك ان نوجه اليكم كتابنا هذا عاجلاً رغبةً في ان لانؤجل اهداءنا لكم عاطفة حبنا ونحرمكم زماناً المدح الذي يستحقه اكرامكم لنا وحبكم الحار نحو الديانة

وعليه نرفع اكف الضراعة لله القادر على كل شيء ان يوازر بفائض نعمته جميع مشروعاتكم الخيرية و يؤيد ويوطد بآلائه الخاصة غيرتكم على مجده تعالى ويمنحكم الجزاء الذي تستحقونه . وعربوناً على خالص انعطافنا الابوي نمنحكم من صميم الفؤاد يا ولدنا العزيز بالله بركتنا الرسولية

أعطي في رومة بالقرب من كنيسة القديس بطرس في ٢٨ نيسان سنة ١٨٨٤ وهي السنة السابعة لحبريتنا

البابا

لاون الثالث عشر

رسالة غبطة البطريرك الياس بطرس الحويك الى المترجم

البركة الرسولية تشمل حضرة ولدنا الخوري بطرس مبارك المحترم

غب وفور الاشواق الى مشاهدتكم على كل خير. وصل الينا تحريركم مع اوّل كرّاس طُبع من ترجمتكم لكتاب حياة سيدنا يسوع المسيح للعالم العامل الأب لاكامي الفرنساوي المحترم المشتمل على أتدىم ترجمة هذا المؤلف لنا اذ نشطكم اليها على ما تذكرون ما القيتموه في اقوالنا ومناشيرنا من التحريض على مثل ذلك لنشر الحقائق الانجيلية والذود عن مبادىء الدين الكاثوليكي. فسرنا جدّاً هذا المشروع الذي اقدمتم عليه ولاقى لدينا اعظم قبول لاهمية موضوع هذا الكتاب وندرة وجود مثله في العربية وعظم منزلة مؤلفه الفاضل بين علماء هذا العصر وعظيم ما يترتب عليه من الفائدة لمطالعيه. ولا غروَ بانكم ستفرغون سبكه في قالب يروق للجميع مطابقٍ لاصله الفرنساوي ولاصول اللسان العربي لمعرفتكم جيداً اللغتين على السواء فيكون لكم ذلك اثرًا جيلاً وللدين خدمة جليلة ولابناء وطنكم تحفة نفيسة ولذلك فنحن ليس نجيز لكم فقط طبعه بل نثني عليكم كثيرًا به ونسأله تعالى ان يأخذ بيدكم في هذا العمل ويباركه ويثيبكم عليه اجزل ثواب ويجعله باكورة لغيره من الاعمال المفيدة التي هي اعظم ما يذخره الانسان في دنياه لاخراه وعربونًا لمزيد توفيقكم نمنحكم من صميم الفؤاد بركتنا الرسولية تكرارًا في ٨ اذار سنة ١٩٠٠

الياس بطرس الحويك
البطريرك الانطاكي

دعاء ليسوع الناصري

الكلمة المتأنس ابن الله وابن البشر

ايها السيد

لما كان بين الناس من يرغبون في الوصول الى الحقيقة بواسطة العلم وقفت لمثل هولاء كتابي الاول اعني به تاريخ ظهورك على الارض واذا كان قد تسنّى لي ان ابيّن فيه جمال صورتك المتألق باشعة الطبيعتين الالهية والانسانية فامنحني الآن ان اقدم هذا التاريخ المختصر الى ذوي السذاجة والمتواضعين الذين هم اخوتك في الغريزة حتى يستطيع الفاعل والحرّاث ان يراك كما انت دون ادنى زينة وكما نظرك الرعاة في مغارة بيت لحم والسامرية على بئر يعقوب والجموع على شواطئ بحيرة الجليل. ولاشك انك ترغب في إظهار ذاتك كذلك الى كافة الشعب المؤمن بك

لعمري ان احسن خدمة يمكن صنيعها نحو بشريتنا الشقية التي يتنازعها ما لا يحصى من الاحتياجات الدنيوية وتتجاذبها المآرب المتنوعة انما هي ولامشاحة تقربها من الله ابيها ومنك انت مخلصها. وعليه فالى هذا الشعب تحمل هذه الاسطر السلامَ والرجاء الصالح. الى هذا الشعب الذى بسبب بعده عنك يئنّ تحت احمال الشقاء في هذا الوادي وادي البكاء والعذاب. الى هذا الشعب الميال طبعاً الى الحب ولم يعد يجد في هذا العالم صديقاً صدوقاً بعد فقدك ولا خلاً يخلص له الوداد بعد مغادرته اياك. الى هذا الشعب الذي ينظر الى المستقبل بعين الآيس بسبب ما لاقاه ويلاقيه في حاضره وماضيه من تصرّم حبال آماله وكذب مواعيد الزمان له. اخيرًا الى هذا الشعب الذي لا يتوقع ملكا على الارض بل يرجو افراح العالم الآتي فيك ايها السيد لانك السميع المجيب

القسم الاول

من حياة سيدنا يسوع المسيح

حداثة يسوع الناصري

الفصل الاول

تمهيد

ظهور الله متأنساً — الكتب التي تخبر بذلك — مكان ظهوره جغرافيا ودينياً وادبياً

اذا اسلمنا بوجود اله ذاتي الوجود خالق الكون واب لبشريتنا فلا تبقى صعوبة للتسليم بامكان ظهوره بشراً مثلنا بل يضحي ذلك امراً ضرورياً في حكم العقل الصائب وخصوصاً على افتراض حقيقة سقطة الانسان الاول . و يثبت ذلك انتظار جميع الشعوب على اختلاف مذاهبهم ونحلاتهم ومآربهم لذلك الرسول الالهي استاذ الحق وميزان العدالة ومثال القداسة ومعيدها الى هذا العالم . نعم تغيرت الآراء وتضاربت المذاهب في صفات مشتهى الشعوب هذا غيرانّ الرجاء الوطيد في مجيئه لم يتغير البتة . وقد قامت معرفة الآثار القديمة شاهدةً بحقيقة ما ذكر خصوصاً في عصرنا الحاضر بعد ان احييت العلوم الحديثة معارف وتواريخ الاعصر الغابرة واطلع الخلف على اخبار تمدن السلف

اما ايمان اسرائيل بمجيء المخلص المنتظر فكان اثبت واوطد من جميع الآمال والرغائب في بقية الشعوب والامم . وقد رسخ هذا الايمان المكين في قلب كل فرد من افراد تلك الامة رغماً عن تقلب الاحداث فاعتقدوا انه منها يخرج

الوسيط العظيم بين السماء والارض المسيح حامل السلام والخلاص. نعم اثرت اقوال الانبياء تباعاً لمواعيد الآباء والانسان الاول في انتشار وتمكين هذا الايمان القوي في قلب الشعب اليهودي غير انه بعد ما سكت الانبياء استمرّ الشعب على ما كان عليه من الشوق الوافر لمرأى المخلص* فهذا كان موضوع رغائبه الوحيد ومحط آماله الفريد. وكان كلما تعالت فوق راسه المصائب وثقلت عليه مظالم الاعداء يشتد أزرهُ بطلب الانتصار الاخير وتقوى آماله بدنو الاجل المسمى والتملص من ايدي الظلام. وايم الحق لقد خرج المخلص من سلالة تلك الامة في حين كانت على وشك الخراب المبين

نعم خرج من سلالة اليهود ذلك الرجل الذي فتح العالم بامره ليس بضرب الحسام البتار بل بسمو مباديه وفضائله وموته مصلوباً حباً ببني البشر. وهذا الفتح العظيم الذي لم يسبق له نظير في تواريخ الملوك قد تمّ على وجه البسيطة بوسائل ضيعت تدابير الحكمة البشرية واستمرّ رغماً عن جميع المصاعب الادبية والمادية التي قامت لمضادّته واتصل الى حيث لم يتصل فتح قبله. فلم تقتصر ولايته على الاجساد بل امتدت ايضاً الى باطن النفس. ومما يزيد العجب والدهشة هو ان هذا الحادث المذهل في نوعه لم يعتره تغيير قط منذ تسعة عشر جيلاً وفي حين ان الاشياء العالمية قد توالت عليها التقلبات الكثيرة فباتت نسياً منسياً ما زال فاتح تلك الاعصر الغابرة ملك العصر الحاضر وسلطانه. ولا بدع في ذلك لان البشرية قد عرفت فيه صفات المخلص المنتظر ولم تعد تنتظر بعده آخر. وها نحن نجعل موضوع كلامنا تاريخ حياة هذا المخلص العظيم والفاتح المنقطع النظير الذي غلب العالم بالسلم والمحبة. ولكن من اين لنا المواد الكافية لتتميم هذا العمل الخطير واقدم ما نقلته لنا العصور الخالية هي خطب قليلة نجدها مدونة في سفر اعمال الرسل الذي كتب بعد الاناجيل الثلاثة الاولى. غير ان ذكر يسوع الحي الباقي في الكنيسة التي اسسها هو على الارض وتممها الروح القدس بفعله الخاص

في الانفس بكمل نقص ما تركه لنا المتقدمون· لان التلامذة اخذوا يقصون اعمال وتعاليم وآلام السيد المسيح منذ خرجوا من علية صهيون يوم العنصرة· ومن ذلك الوقت بشروا ايضاً بانتصاره على الموت وقيامته العجيبة وفسروا مبادئه السامية وحدَّدوا اهمّ العقائد الدينية واذاعوا مفاعيل النعمة في العالم كلهِ وبرهنوا كونه وسيطاً ومعلماً للامم· فوالحالة هذه كل الآثار الكتابية تُعدّ غير كافية لكتابة تاريخ كامل لولا ما بذله الرسل وابناء الكنيسة الاولية من الاجتهاد والرغبة في حفظ كل ما يتعلق بمؤسس هذه الكنيسة الجامعة· بنوع انه لما اوشك عصر الرسل ان ينتهي سالباً معه الشهادة الحسية التي هي اكثر تاكيداً قام التقليد العمومي مخبراً بظهور الاله متأنساً· فتألف اذن تاريخ ظهور ابن الله للبشر منذ ذلك الوقت

والحق يقال انه منذ النصف الثاني من الجيل الاول للمسيح شرع في كتابة هذا التاريخ المهم اربعة رواة منهم اثنان عاشا مع المسيح· وكتاب كل منهم يدعى انجيلاً· ومن اربعة الاناجيل هذه ثلاثة: انجيل متى ومرقس ولوقا تتشابه لفظاً ومعنى حتى يخال للمطالع انها من مؤلف واحد لما بينها من شديد الارتباط والمماثلة· ومن قابل بين هذه الاناجيل الثلاثة الاولى وجد فيها اثنتين واربعين فقرة بالنص الواحد وفوق ذلك يتفق انجيل القديس متى مع انجيل القديس مرقس في اثني عشر موضعاً· وانجيل القديس لوقا يحتوي على اربع عشرة فقرة تضارع كل المضارعة ما جاء في انجيل القديس متى وعلى خمس وردمثلها في انجيل القديس مرقس· بنوع ان القديس متى لم يتفرَّد عن بقية الانجيليين الاَّ بايراد خمسة اخبار لا وجود لها في غير انجيله والقديس مرقس في خبرين لا غير والقديس لوقا في تسعة منها· وذلك التشابه الغريب الناتج عن مقابلة اخبار الانجيليين بعضها مع بعض حمل على تسمية كتبهم باسم واحد اي اناجيل او جداول

وهذه الاناجيل او الجداول تنقل لنا خبر اعمال وتعاليم السيد المسيح على طريقة واحدة وذلك مما يؤكد انهم نقلوا عن بعضهم او وردوا منهلاً واحداً وهذا هو الاصح فكتبوا ما كتبوا بعد ان تناقلوا تلك الاخبار شفاهاً مدةً من الزمان. وهذا يفسر ما نجده في تلك الاناجيل من التشابه والتباين والاتفاق والاختلاف معاً والزيادة والنقصان التي لا تخفى على المطالع البصير بين تلك النصوص الواحدة. ولا ريب ان في هذا برهاناً قاطعاً على ان الاخبار المدونة الآن في الاناجيل كانت شفاهية قبل ان تسجل في الكتب لان ذلك التشابه في مواضع شتى والاختلاف في غيرها انما هو نتيجة التقليد الشفاهي اولاً

ولكل من هذه الاناجيل مزية ينفرد بها عما سواه: فانجيل القديس متى مثلاً بما انه كتب في بلاد فلسطين ولاهل هاتيك البلاد يأتي بما يهم اليهود خاصة فيستشهد الكاتب باقوال انبياء العهد القديم قصد ان يضطر امرائيل للتسليم بمجيء المسيح الذي ابى اليهود ان يعرفوه. اما القديس مرقس فبما انه كتب انجيله في عاصمة الرومان اعتنى بنوع خصوصي ان يستفيض في الكلام عن معجزات المخلص وبذل وسعه في تمثيل قوة ذلك العجائبي العظيم بابلغ ما يمكن من اللفظ طبقاً لما كان يعهده في الشعب الروماني من الميل الزائد الى ما عظم واشتهر من الاعمال المدهشة. وعليه فمن خلال كلامه تلمع صورة يسوع بالنظر الى كونه ربّ الطبيعة ومسلطاً على شرائعها ومذللاً لجبروته الابالسة وقابضاً بيده على الموت والحياة. اما القديس لوقا فكتب بشارته لليونانيين واذ كان وثني الاصل ومهنته التطبيب ادخل في انجيله عن المسيح عنصراً علمياً جديداً وانتقد انتقاداً مدققاً على الشهادات التي اوردها الانجيلان الاولان قبله فجاء كتابه متمماً نقص السلف وكلف نفسه عناء البحث والتنقيب عن كل ما عرفه معاصروه عن يسوع متبعاً في ما اورده مقتضيات المكان والزمان على قدر الامكان. وذلك لانه لم يرَ ولم يسمع بنفسه ما كان رآه وسمعه سالفاه عن السيد المسيح.

ولما كان القديس لوقا قد تتلمذ للقديس بولس تشرّب مبادئه العمومية واعتنى ببثها في خلال كتابه وترجم عن دقائق افكار معلمه بما يشف عن عظم مراحم المخلص نحو الامم الاجنبية التي دعاها الله لتقوم مقام الشعب الاسرائيلي الجاحد نعمة ربه

ان هذه الاناجيل الثلاثة المذكورة آنفاً كتبت قبل خراب اورشليم نحو السنة ٥٥ و٦٤ للمسيح اي عند ما شعر الرسل والمبشرون بضرورة كتابة تاريخ مجيء وحياة يسوع المسيح ليقرأوها على رؤوس الاشهاد في المجتمعات المسيحية وكان ذلك بعد ما امتدت بشارة الانجيل في بعض انحاء العالم بواسطة الرسل وخصوصاً بواسطة غيرة رسول الامم ورسائله العديدة الى الكنائس المختلفة

اما القديس يوحنا الحبيب فلم يشرع في كتابة ترجمة سيده إلاّ بعد ذلك العهد بزمان . ولم يستند فيما كتب الى الاخبار التي كانت تتداولها الالسنة واصبحت وتنشر الانجيل المكتوب فقط بل اخذ من بئر علمه العميقة وابان كون يسوع هو ابن الله الازلي الوجود . فجاء كتابه عبارة عن حبه الحار الخالص لسيده . و يشعر القاري عند اول وهلة ان ذلك الرسول لم يتكلف نشر ما كانت تطويه ضلوعه من صدق الوداد والتعلق بسيده بل كان يكفيه ان يطلق العنان لقلمه كي يجري عفواً من فيضان فؤاده نهر ذلك الحب الحقيقي . ولهذا قد تحرى ان يبسط لنا في انجيله اسرار قلب معلمه الغامضة ويكشف الحجاب عن روح المخلص الداخلي اكثر من ان يكلمنا عن حياته البشرية . وزعم البعض انه قصد بذلك تتمة الاناجيل السابقة واظهار ما كتموه عنا ولكن الارجح والاصح ان غايته بذلك مقاومة مبادىء الايبونيين المادية وتخيلات المذهب الافلاطوني المناقضة لتعاليم الدين المسيحي القويمة لان المنتمين الى تلك المذاهب الفاسدة كانوا يقاومون انتشار الدين المسيحي اشد مقاومة . و بما انه كتب انجيله الطاهر نحو السنة الثمانين للمسيح اذ كان مقيماً في اسية الصغرى

وكان جلّ قصده فيه ايضاح تعاليم السيد المسيح اللاهوتية اكثر من بيان اخبار حياته الطبيعية فقد مهد المجال لكتبة حياة ذلك المخلص وسهل لهم الطريقة لتعيين الزمان الذي فيه أتى يسوع بتلك الحقائق السامية الواردة في الاناجيل الباقية

فسنداً الى اقوال هذه الاثار التاريخية المدعوة اناجيل نوضح ونبين ما هو يسوع المسيح وماذا عمل وعلم . ولكن كما ان أخذ صورة شخص واحكام مطابقة الرسم لهيئة الموضوع لابدَّ فيه من ان يكون الموضوع قريباً من المصور هكذا احكام فهم حياة المسيح ومعرفته كما هو حقيقة يستلزم منا ان نقترب اليه بالفكر ومتى رأيناه يعمل ودرسنا جيداً المكان والزمان اللذين ظهر فيهما حينئذ يتجلي لنا جمال صورته العجيب و يظهر لنا يسوع حياً بالنظر الى طبيعتيه الالهية والبشرية ومن ثم ترتب علينا لنفهم حياة المسيح ونذوق عذو بتها وننتفع من مطالعتها ان نتكلم ولو بايجاز عن المكان والزمان اللذين قضى فيهما يسوع حياته البشرية وان نلمح الى احوال الحياة التي عاش بينها بالنظر الى الدين والاحكام والعادات

ان البلاد التي اختارها يسوع ليقضي فيها حياته هي نقطة جغرافيا متوسطة بين قارّات العالم القديم الثلاثة العظيمة فكانت من ثم جاذبة لاكثر الشعوب تمدناً في اسيه واوربة وافريقية وتدعى ارض فلسطين او الارض المقدسة

وهذه الارض نجدٌ يرتفع فوق سطح البحر نحواً من ٨٠٠ متر ومساحته لا تقل عن ١٣٠٠ فرسخ مربع وهو حاصل من تشعب سلسلة جبال متجهة من الشمال الى الجنوب حتى تتصل بسلسلتي جبال متحاذيتين تفترقان عند اقتران جبل لبنان بجبل الشيخ . وفي ذلك الوادي الخصب الفاصل بين هاتين السلسلتين المتآزيتين يجري نهر الاردن ماراً في بحيرة الحولة ثم في بحيرة جنامر البديعة المنظر ومن هناك ينساب متعوجاً كالافعى بين تلك الهضاب الخضراء الى ان يصب في البحر الميت او بحر لوط . ولهذا فان المروج المخصبة قليلة الوجود في بلاد

فلسطين. على ان هذه الارض المجدبة آلان كانت تحرث وتأتي بالخصب في غابر الايام وكان التراب الذي مسكته الصخور في قمم الجبال او على سفحها تنبت فيه الاعشاب النضيرة عند سقوط المطر و يعطي غلالاً غزيرة كما لم يزل ذلك ظاهراً في لبناننا العزيز. فالكرم والتين والزيتون كانت تاتي باثمار لذيذة نافعة. و بين هاتيك الصخور وعلى تلك الجبال الوعرة وفي سفحها كانت القطعان تجد لها مرعى خصيباً والنحل ازهاراً يجتني منها العسل و بالنتيجة كان الشعب الذي اعطاه الله ارض كنعان مسكناً رغد العيش الاَّ متى اغضب الرب بآثامه فتصير السماء فوقه نحاساً وتجف ارضه فلا تعود تعطي غلاتها او فاجاته الشعوب المجاورة بغزواتها فتضحي ارضه ساحة للقتال وتشتغل يده بالحرب عوض الحراثة فتقحل الاراضي وتحدث المجاعة. ولم يكن قاطنو تلك الجبال ميالين للمنازعات وشن الغارات بل كانوا اهل قناعة محبي السكينة. اما الامور السياسية فلم تكن لتخطر لهم ببال فكان الله اصطفى ذلك الشعب وحصره في تلك الجبال ليعيش منفرداً ومنقطعاً عن الامتزاج مع الاجانب بغية ان يحفظه كالنار تحت الرماد و بواسطته يشرفي الزمان المقبول والمعين في احكامه الثابتة النيران آلاكلة المزمعة ان تحرق العالم القديم وتقيم على رماده العالم الجديد

وقد اعدت العناية الربانية ادبياً ومادياً كل ما كان شأنه ان يصور ذلك الشعب و يمنع عنه سريان فساد البشر الآخرين وتكريم معبوداتهم الكاذبة: فمن جهة كانت شرائعه وامياله الطبيعية وتقليداته وديانته كحاجز عظيم تحول بينه و بين مخالطة بقية الشعوب المجاورة. ومن جهة اخرى قد احاطته الطبيعة بسور حصين لا يستطيع الاجانب ان يتعدوه مطلقاً: فمن حوله كانت قائمة نظير حراس لا تنام الشطوط البحرية الوعرة المسالك والجبال الراسخة والسهول الواسعة القحلة

وذلك الشعب كان من ذرية ابرهيم ابي المؤمنين وخليل الله ومحط بركاته

وكليمه تعالى وقد كلمه سبحانه مشافهةً وبواسطة انبيائه من موسى الذي اخرجه من عبودية مصر الى الانبياء المتأخرين الذين وعدوه بملك العالم عندما تأتي ساعة الرأفة . ولهذا وهو في وسط العذاب وتتابع المصائب كان يحسب نفسه اعظم الشعوب واشرفها . والحق يقال ان بقية الشعوب لم تقوَ وتعظم الا لتجعل سبيلاً وتمهد طريقاً لسطوة ذلك الذي كان مزمعاً ان يخرج من ذرية هذا الشعب كما يشهد التاريخ. ولما دخل بنو اسرائيل ارض الميعاد كان الشعب منقسماً الى اثني عشر سبطاً وكانت القضاة اولاً ثم الملوك تحكم بين اسرائيل الى ان حصل انشقاق الاسباط العشرة فانحصرت السلطة في مملكتين صغيرتين مملكة الشمال ومملكة الجنوب وكانت الاحوال تنقلب عليهما بين بؤس ورخاء حسب صدق ايمانهما وعدمه نحوجوقا (الكائن) واذ كان الرب يسأم من آثام الملوك والشعب كانت حينئذٍ تبتدئ ايام الحداد السوداء واوقات المحن العمياء كجلاء بابل والمصائب المتلونة والخضوع المذل تحت نير عبودية الاجانب. فبعد ظلم واستبداد الملوك الاشوريين جاءت حكومة خلفاء الاسكندر المكدوني ثم حكومة قياصرة رومة فقبضوا على فلسطين بيد حديدية ثقيلة . ومن ذاك الحين انمحى اسم الاسباط الاثني عشر عن وجه البسيطة وحالت الاحوال ولم يبقَ ذكر لما مضى سوى بطون التواريخ وبعض الأُسر الممتازة وانقسمت اذ ذاك البلاد الى اربع مقاطعات

اولاً : مقاطعة بيرية الممتدة في عبر الاردن وهذه دخلها الاجانب اكثر من بقية المقاطعات الآتي ذكرها . ولم يكن سوى الاقليم الذي سُميت باسمه المقاطعة كلها مأهولاً باليهود

ثانياً : السامرة الواقعة في وسط البلاد الكنعانية وهذه المقاطعة هي اقل عصبية مما سواها وكان قد سكنها اولاً بعض ممن اتوا من بلاد بابل ثم انحاز اليهم الجاحدون من آل اسرائيل وامتزجوا مع البابليين الاولين وتألبوا جميعاً

حول هيكل هناك مقارن لهيكل اورشليم وانتموا الى بدعة شبيهة بالشعب المختلط الذي كان يمارسها ٠ ولم تكن تخلو تلك المقاطعة من بعض مدن عامرة كان السكان يتمتعون فيها بسعة العيش بسبب صلاتهم التجارية مع الغير وخصب تربة الهضاب الحالين فيها

ثالثًا : الجليل وهذه المقاطعة هي اوسع البقية مساحةً واقواها رجالاً تكتنفها الجبال الشجراء ويأوي اليها شعب رثّ الحال غير انه شجاع وقد اتخذ له التعلق بشريعة موسى شعارًا والنخوة الوطنية ديدنًا وكنت تراه مملوءًا غيرةً نحو الهيكل وكله عصبية وحماسة في ساحات الوغى محاماةً عن الامة ٠ وكانت تمتد هذه المقاطعة من جبل حرمون الى بحيرة جنّاسر وفيها اجمل المواقع البديعة واخصب السهول الفسيحة واهنى وارغد معيشة

رابعًا : اليهودية وهي اشهر تلك المقاطعات ولو انها اصغرهنّ لانها تحتوي على المدينة المقدسة والهيكل العظيم ومقر رئيس الكهنة وبالنتيجة انها كانت محور آمال اسرائيل الدينية ومحط رغائبه الجنسية وينبوع ومبدأ الحركة الادبية والمادية فيه ٠ واورشليم عاصمة هذه المقاطعة كانت قائمة على رابية ناتئة نحو العلا فوق واديين عميقين تكتنفها الجبال مثل الحلقة ٠ وكان يُخيَّل للناظر الى اسوارها المنيعة وابراجها المحصنة وقصورها المتينة انها مدينة حربية وواقع الحال انها كانت المدينة المقدسة أُم ومركز العواطف الدينية وكان هيكلها العظيم يفوق علوًا على جميع قصورها كما ان جوفًا كان قد استغرق افكار اهلها فامتدت اليه اعناقهم ونحوه مالت قلوبهم وكأنَّ السماء كانت هناك مُكبة على الارض لتعانقها ٠ وكان اليهود يؤمون المدينة المقدسة من فلسطين وجميع اقطار المسكونة فيأتون من كل صوب ليسجدوا في بيت الرب ويقدموا الضحايا لله المتعال ٠ وقد بذل الاجانب كل ما في وسعهم لاستئصال ذلك التمسك المفرط بالدين من قلوب الاسرائيليين فذهبت اتعابهم ادراج الرياح واستمرت السلطة الدينية المحرك

الاول لاعمال ذلك الشعب. وتمكنت هذه الروح التقوية اولاً واستحكمت عراها في قلب الامة اليهودية حتى حصرت الجسد بعينه ضمن شرائع وترتيبات شتى لم يعد له حق التملص منها . ومن ذلك نجمت تلك السطوة العظيمة التي نالها الكتبة والفريسيون فاضحوا بعدئذٍ اكبر مقاومين لانتشار بشارة الخلاص وتعاليم الناصري . فالكتبة او مفسرو الشريعة اضافوا الى الشريعة بتفاسيرهم الفاسدة اصنافاً من الترتيبات التي لا طائل تحتها . اما الفريسيون فكانوا يفاخرون بحفظ تلك الترتيبات بكل دقة ليظهروا للناس عظم تقواهم واما باطنهم فكان مملوءًا خطفاً وشراً و بما ان هؤلاء تطرفوا في تعظيم وحفظ تلك الترتيبات الخارجة وتركوا اوامر الشريعة الجوهرية ثارت في قلوب الصدوقيين اللادرية نار الغضب فقاوموا محرفي الشريعة وقصد هؤلاء ان يتملصوا من الترتيبات الزائدة فاهملوا الشريعة عينها دفعةً واحدة واسلموا ذواتهم للملاذ والملاهي العالمية

اما الناسيانيون قاطنوا الجبال المجاورة لبحر لوط فسلموا من تطرق الفريسيين والصدوقيين واستمروا محافظين على ممارسة الشريعة كما يجب حتى انهم توصلوا الى ممارسة الفقر والعفة الطوعيين ووضعوا الاخاء والمساواة المطلقة بين بعضهم موضع العمل

وكان اكبر داعٍ لنفوذ اصحاب الكلمة في اسرائيل كثرة المجامع في مدن وقرى فلسطين لانه بواسطة كهنة ورؤساء تلك المجامع العديدة كان اعضاء المجلس العالي يبلغون اوامرهم وينشرون افكارهم بين الشعب كله . وكان اعضاء هذا المجلس واحداً وسبعين عضواً جميعهم منتخبون من روساء اصحاب الرتب الكهنوتية الاربع والعشرين ومن الكتبة والقدماء وكان رئيس المجمع نفس رئيس الكهنة فهولاء كانوا اصحاب الامر والنهي في اسرائيل . ولهذا جميع الذين ارادوا ان يتسلطوا على اسرائيل بذلوا ما في وسعهم اولاً لاذلال والغاء ذلك المجلس العظيم لعلمهم ان فيه مركز القوة ومقر الجامعة والجنسية اليهودية . فلما اراد

هيرودس الكبير ان يوطد اركان ملكه على فلسطين لم يكتف بذبح اولاد ملوك الاسمونيين فقط بل امات ايضاً جميع اعضاء ذلك المجلس ورجع فألفه حسب مراده ومشربه موقناً انه بذلك يضرب الجنسية اليهودية ضربة قاطعة . وقد حقق واقع الحال امانيه اذ خمدت بعدئذٍ حمية المجلس و بردت غيرته على خير الوطن والامة حتى ان اعضاءه بعد موت هيرودس طلبوا مساعدة قياصرة رومة للتخلص من جور واستبداد اولاد ذلك الملك الظلوم ولقد فاتهم انهم بصنيعهم هذا كانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار فخالاً عين القيصر الروماني ارخيلاوس حاكماً على اليهودية وايدومة والسامرة لكنه لم يلبث طويلاً حتى نفاه اوغسطوس الكبير بسبب كثرة التشكيات التي بلغته بعدم كفاءته في ادارة شؤون الاحكام وضمّ القيصر ولايته الى مقاطعات المملكة الرومانية وجعلها تحت إيالة حاكم سورية

في اثناء تلك التقلبات وتنازع الاحكام بين الرومانيين واولاد هيرودس على اليهودية والجليل و بينما كان الرومان يحكمون على اليهودية واولاد هيرودس فيلبس رئيس ربع على القسم الاكبر من مقاطعات عبر الاردن وانتيباس رئيس ربع في بيرية والجليل وُلد يسوع المسيح في اواخر ايام هيرودس الكبير وعاش ومات لاجلنا . فالايام كانت صعبة والمعيشة مرة وافق السياسة دائماً مغطى بغيوم سوداء كجنح الليل تتهدد الناظر اليها بانقضاض الصواعق القتالة . فما اصعب الحياة على قلب وطني حقيقي يرى بلاده العزيزة تتنازعها ايدي الاجانب وليس له سوى ان يئن تحت ثقل نير عبوديتهم . وقد زاد الطين بلة وكان باعثاً قوياً لانحطاط الجنسية اليهودية وتوحيد الكلمة فيها استقلال الحكام المدنيين بتعيين رئيس الكهنة وتنزيله متى شاؤوا فمن ذلك ان واليريوس غراتوس غيَّر بالتتابع اربعة روساء كهنة في مدة ثلاث سنين خلفاً لحنان الذي كان انزله عن وظيفته . وعلى هذا النمط خراباً خربت الامة اليهودية وتوصلت وقتئذٍ الى درجة من الذل لامزيد عليها ونُزع القضيب الزمني والروحي من يهوذا و بحسب اقوال

الانبياء كانت تلك الساعة هي التي يظهر فيها المسيح المنتظر. وهكذا كان حقيقة

الفصل الثاني

ظهور نبي في برية اليهودية — تاريخ ولادته العجيب —وعظه وتعميده على شواطئ الاردن — خروج اهل اورشليم وسكان اليهودية الى يوحنا — وفد من قبل المجلس اليه

طالع متى ف ٣ عد ١ — ١٢ . مرقس ف ١ عد ١ — ٧ . لوقا ف ٣ عد ١ —٨ وف ١ عد ١ — ٢٥ وعد ٥٧ —٧٠ . يوحنا ف ١ عد ٦ — ٢٨

في السنة الخامسة عشرة من ملك طيباريوس قيصر والثمانين بعد السبعمائة من بناء رومة ظهرت فجأة حركة دينية عظيمة في جميع انحاء فلسطين وكان المسبّب لذلك ظهور رجل في برية اليهودية يكرز بالتوبة . ونظير بقية الانبياء كان لباسه وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه الجراد وعسل البرّ وشرابه الماء الزلال ولم يذق مسكرًا لانه كان قد نذر الزهد والنسك وإرسال الشعر وكان له من العمر نحو ثلاثين سنة . غير ان العزلة والانفراد كانا قد شدّدا عزمه ورفعا نفسه فوق الاهواء البشرية وكان يقينه بصدق ارساليته من الله يُعطي كلامه قوة لا مزيد عليها حتى انه كان يكفي النظر الى شخصه لاخذ المثل الحسن . وبكل حق وصواب كان يدعو ذاته « صوتًا صارخًا في البرية » وحقًا كان يرتجس ذلك الصوت في القفار نظير زئير الاسد وكانت الجماهير تُقبل عليه من كل صوب لتراه وتسمع كلامه . وقد ذكر يوسيفوس المؤرخ هذا الانقلاب الفجائي العظيم الذي كان قد احدثه كلام النبي المذكور في الشعب اليهودي طبقًا لما اشار اليه الانجيليون . واسم النبي يوحنا . وهاكما نعرفه

عن اخبار نشأته وكرازته

قال القديس لوقا البشير : كان في ايام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة ابيًا وامرأته من بنات هرون اسمها اليصابات . وكان كلاهما بارّين امام الله سائرين في جميع وصايا الرب واوامره بغير لوم ولم يكن لها ولد لانّ اليصابات كانت عاقرًا وكانا كلاهما قد تقدما في ايامهما ولم يبقَ لهما مجال للامل بالولادة وكان ذلك داعيًا لهما الى الحزن والكدر لانّ كل يهودي كان يرى في عُقر امرأته علامة على غضب الرب عليه وبالنتيجة كان الزوجان يعتبران ذاتيهما متروكين من الرب نظير اسرائيل وكانا ينظران الى مستقبل شيخوختهما بعين الحزن والكآبة

وفيما كان زكريا يئن تحت ثقل هذه الافكار المكربة صعد يومًا الى اورشليم حتى يكهن في نوبة فرقته امام الله . فاصابته القرعة على عادة الكهنوت ان يدخل وقتئذٍ هيكل الرب ويبخر في بيت قدسه . وحسب شريعة موسى كان يُقدَّم البخور مرتين في النهار صباحًا ومساء ابَّان الصلاة العمومية ليكون رمزًا اليها بصعوده نحو العلاء . فالعناية الربانيـة التي تدبر رحى اعمالنا بقوة لا ترد وحكمة لا تدرك ارتأت لتجازي ثبات خادمها الامين ان تفاجئه بخبر مفرح وعجيب وقت خدمته في الهيكل

وكان قد تفرد زكريا بين اقرانه الكهنة بسمو فضائله وعواطف قلبه النقية: فكان قوي الايمان ابي النفس قلبه وافكاره متجهة دائمًا نحو العلا ولذلك وجد أهلاً لقبول آيات الرب لانه لا شركة لله مع الانسان المنهمك بخيرات الارض فلا يسمع الله صوت الانسان في الضوضاء والملاهي العالمية بل على الانسان ان يمهد السبل لمناجاة العلي بالانقطاع عن ملذات العالم والترفع عن الماديات وجمع الحواس .

فبينما كان الشعب جاثيًا يصلي في هيكل الرب تقدم زكريا وبيده المجمرة

وقلبه يطفح من عواطف الوقار والهيبة للخدمة التي كان يمارسها. فما اجمل وما اسمى نفس الكاهن الحقيقي الذي يباشر باستحقاق وظيفة الوساطة بين الله قدير رحوم وشعب يضرع اليه بقلب نقي متواضع فلا شك ان نفسه تمتد وتتسع على قدر اتساع حاجات الشعب عينه. نعم عظيمة ومخيفة هي وظيفة من يمس السموات ليعطفها نحو الارض وكم هذا التصور من شانه ان يحمل الكهنة على اعتبار شرف درجتهم وتقديس ضمائرهم ليكونوا اهلاً لتلك الخدمة الالهية

ولما دخل زكريا بيت المقدس كان عن يمينه مائدة خبز التقدمة وعن يساره المشكاة ذات سبعة انوار وامامه هيكل البخور الموشى بصفائح الذهب. واذا بملاك الرب وقف عن يمين مذبح البخور على مقربة من مائدة خبز التقدمة. فكان ذلك دلالة على حسن طالع ذلك النهار. فاضطرب زكريا حين رآهُ كما هو شأن كل رؤيا سماوية تفوق طبعنا الحقير فعندها يظهر كالشمس ضعفنا وذلنا بازاء القوة والعظمة الالهية والضد يُظهر بمقابلة الضد. فقال له الملاك: «لا تخف يا زكريا فان طلبتك قد استُجيبت فامرأتك اليصابات ستلد ابناً فتسميه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج ويفرح كثيرون بمولده لانهُ يكون عظيماً امام الرب. ولا يشرب خمراً ولا مسكراً ويمتلىء من الروح القدس وهو في بطن امه وهو يتقدم امامه بروح ايليا وقوته ليردّ قلوب الآباء الى الابناء والعصاة الى حكمة الابرار ويعدّ للرب شعباً كاملاً»

فالملاك اذن لم يكن منذراً بالعدل والغضب بل مبشراً بالنعمة والبركات فيحق لزكريا ان يفرح ويبتهج عوض ان يخاف ويضطرب. لان رغائب قلبه واماني اوشكت ان تتمّ واقعياً بعد ان كانت تصرمت حبال آماله بالحصول عليها طبيعياً. وفي اسم الولد يوحنا (الرب يصفح) دلالة على ما عسى ان يكون له من النفوذ الديني والادبي بين ظهراني قومه ولهذا تسبب ولادته فرحاً ليس فقط ضمن دائرة عائلته بل في جميع اسرائيل . وبالحقيقة فان يوحنا سيكون عظيماً

امام الرب بفضائله اذ يترك ملاذ الدنيا وشأنها وتحت لباسه الخشن يخفي نفساً اية تحيي فضائل السلف بعد ان اضحت نسياً منسياً. وامام الشعب بسلطته الادبية يردُّ الى قلوب الابناء عواطف الآباء البطاركة القدماء

نعم ستقوم موانع تعرقل مساعيه وتحول دون مقاصده الخيرية ولكنه مثل ايليا الغيور سيجود بحياته قصد ان يوقظ من غفلته قلب ذلك الشعب الذى اوشك الله ان يزوره برحمته

من البديهي ان مواعيد الملاك كانت تواجه رغائب زكريا الحارة وتفوقها بمراحل ولكن بالضعف بشريتنا فان ذلك الكاهن وجدها اعظم من ان تُصدَّق ولهذا تراه يتردد في تصديقها قائلاً للملاك: «بمَ اعلم هذا فاني شيخ وامرأتي قد تقدمت في ايامها»

وكم من الابرار طلبوا قبل زكريا الكاهن الصديق علامة تكفل لهم صدق وعد الرب ولم يحسب ذلك عليهم اثماً. وكم مرة اراد العلي نفسه ان يعطي عفواً كفالة لصدق مقاله قصد ان يعضد ايمان من يختبرهم. فلماذا الملاك اذاً يؤنب الآن زكريا على تردده وعدم ثقته بصدق مقاله؟ خصيص بالله الفاحص القلوب والكلى والعالم بسرائر الافكار ان يحكم الحكم المستقيم في مثل هذه الظروف ويجازي او يؤنب كلاً حسب استعداده الداخلي. فلربما وجد اثنان يقولان الكلام نفسه و يفعلان الفعل عينهُ ويكون بون شاسع بين داخل الواحد وداخل الاخر وتكون مسئولية الواحد غير مسئولية الاخر لانه يوجد في كل عمل ادبي محل للظروف المخففة او المثقلة الجرم وهذه لا يعرفها بالحصر الا الله وحده. اوليس من المتعارف ان الذنب على قدر المعرفة. وعليه فان ابرهيم وجدعون قد وجدا عذرًا امام العلي لقلة ايمانهما واما زكريا فحسب اثيماً للسبب ذاته ولهذا اجابه الملاك قائلاً: «انا جبرائيل الواقف امام الله وقد أُرسلت لاكلمك وابشرك بهذا». ومن هنا يظهر ثقل الجرم. نعم ان جبريل هو خادم العلي

ولكن الريب بصدق وعده يهين الله ذاته بشخص رسوله وفوق ذلك فان الريب وقع على بشارة برهن فيها العلي رأفته وقدرته نحو خادمه الامين. فزكريا عوضاً عن ان يقدم الشكر الجزيل لم يوضح غير الشك والريب. ولهذا قال له الملاك: « وها انك تكون صامتاً فلا تستطيع التكلم الى يوم يكون هذا لانك لم تصدق كلامي الذي سيتم في اوانه »

وكان كل جمهور الشعب يصلي خارجاً منتظرين زكريا متعجبين من ابطائه داخل بيت المقدس. لان البخور كان يحرق عاجلاً فيرجع الكاهن نحو الشعب مبشراً اياهُ بعدم حدوث ما يكدّر. فلما رجع ذلك الشيخ ولم يمكنه ان يتكلم علم الشعب انه رأى رؤيا في الهيكل وكان يشير اليهم بالاشارات وبقي ابكم غير ان امارات الفرح والابتهاج كانت تلوح للناظرين من ملامح وجهه واستمرَّ يتمم خدمته لان خرسه العجيب لم يحدث فيه عجزاً عنها. ولما تمت ايام خدمته مضى الى بيته موقناً ان الرؤيا التي رآها لم تنشأ عن مفعول التصور العصبي بل هي عين الواقع. ولقد جاءت الحوادث برهاناً على حصولها واقعياً اذ استمر زكريا صامتاً تسعة اشهر وهو عينه صار أباً وهكذا تم الوعد والوعيد في اوانهما كما قال الملاك

ومن بعد تلك الايام حبلت اليصابات حقيقة فاختبأت خمسة اشهر اما خجلاً من الناس بسبب كبر سنها واما محافظةً على الجنين وكانت مدة انفرادها تشكر الله على عظم رافته نحوها. ولما تأكد حبلها ظهرت لزميلاتها وهي تردد هذه الكلمات: « هكذا صنع بي الرب في الايام التي نظر اليَّ فيها ليصرف عني العار بين الناس ». وفي الشهر السادس بعد الحبل به ارتكض ذلك الجنين في بطن امه اجلالاً لمن كان هو مزمعاً ان يكون سابقه. وفي الشهر التاسع وُلد فأتى الانسباء والاصدقاء والجيران زرافات ووحداناً الى بيت زكريا لتهنئة تلك الاسرة الكريمة بفيضان رحمة الرب عليها. وبعد ثمانية ايام لولادته حان

الوقت لاختتان الصبي فاتفق الجميع ان يسموه زكريا على اسم ابيه . غير ان اليصابات احتجّت وقالت كلا لكنه يدعى يوحنا . فقالوا لها ليس احد من عشيرتك يدعى بهذا الاسم . فاصرّت على اختيارها الاول لانها ولا ريب كانت قد عرفت يقيناً من زوجها ان تلك هي ارادة الله . ثم أومأوا الى ابيه ماذا يريد ان يسميه فطلب لوحاً وكتب فيه « اسمه يوحنا » فتعجبوا كلهم وعلموا ان ذلك اختيار العلي فلا مشاحة . وفي الحال انفتح فاه وانفكّ عقد لسانه وتكلم مباركاً الله . وحلّ خوف مقدسي على قلوب مواطنيه محل العجب والدهشة لانهم شعروا بمساعدة الرب علناً بيت زكريا

وقد امتدّ هذا الخبر العجيب حالاً في جبال اليهودية وتناقلته الالسن وكان كل من سمع به يحفظه ويردده في قلبه وتحدّث كل ناد بما عسى ان يكون الصبي لان يد الرب كانت معه . فانتشرت شعلة التعجب والدهشة حتى التهمت نفس زكريا فامتلأ من الروح القدس وحينئذٍ انشد قائلاً ذلك النشيد النبوي الذي كان موضوع تأمله حين كان صامتاً لا يأتي ببنت شفة «: مبارك الرب اله اسرائيل لانه افتقد وصنع فداء لشعبه واقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه كما تكلم على افواه انبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر بان يخلصنا من اعدائنا ومن جميع مبغضينا . ليصنع رحمة الى آبائنا ويذكر عهده المقدس القسَم الذي حلف لابرهيم ابينا ان ينعم علينا بان نجو من ايدي اعدائنا فنعبده بلا خوف بالقداسة والبر جميع ايام حياتنا »

فما اجمل واسمى هذا الكلام وما احقه بنفسٍ اسرائيلية قد اخذت منها ثورة الهيام بمجيء المخلص كل مأخذ فافاضت من خزائن لبها هذا النشيد العجيب ثم اردف الكاهن كلامه مسترسلاً الى ما عسى ان يكون ابنه العزيز في مستقبل الحين قائلاً : « وانت ايها الصبي نبيّ العلي تدعى لانك تسبق امام وجه الرب لتعد طرقه وتعطي شعبه علم الخلاص لمغفرة خطاياهم » . ويختم زكريا نشيده

باسداء واجب الشكر مبشرًا باشراق شمس ذلك النهار السعيد المزمع ان يتدفق نوره الساطع على العالم باسره قائلاً : « باحشاء رحمة الهنا الذي افتقدنا بها المشرق من العلاء ليضيء للجالسين في الظلمة وظلال الموت ويرشد اقدامنا الى سبيل السلامة » وعلى النمط المذكور ترجم زكريا بفصاحة سماوية عما كانت تكنّه طي الضلوع القلوب الورعة في اسرائيل . وبالاصالة عن نفسه والوكالة عن الجميع حيّا بزوغ فجر ذلك اليوم المنتظر منذ عهد قديم

وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح والجسد وكان يعيش عيشة نسكية في براري جبال اليهودية الى ان ترعرع فانفرد في القفار وهناك شبت تلك النفس الابيّة واستحكمت قواها . لان الخلوة كانت ولن تزال مدرسة الرجال العظام ومربيتهم . ففيها تختمر الافكار السامية وتحت جوها الصافي تظهر حقائق العالم المزمع باجلى بيان . وكان يوحنا كل مدة انفراده يردد بافكاره سلسلة التنبيهات التي كان قد وجهها الانبياء الى اسرائيل من قبل . واصواتهم كانت تدوي دائمًا في اذنيه مقرونةً باصوات الطبيعة والهامات الوحي الالهي حتى اضحى قدوة النساك ونموذج الانبياء

اما برية يهوذا فهي تلك الارض الجرداء الممتدة غربي البحر الميت الى مسافة جملة فراسخ . وقد حرقت نار الشمس تربتها والصواعق ذهبت بنضارتها حتى لا تكاد تقع عين الناظر اليها الاّ على بعض شجيرات ضعيفة منثورة هنا وهناك لا تهزّ منها الريح سوى أعطاف بعض اغصان قلائل ذبلت اوراقها من شدة الحر وقلة الرطوبة . هناك ضرب الصمت الابدي أطنابه فلا عاد يسمع سوى نعيق الغراب وعواء الوحوش الضارية . هناك تفقد العين ملذة مناظر المياه المنعشة فلا ترى غير بعض جداول ناشفة تجري فيها السيول الجارفة ابان الشتاء الى البحر الميت ذي المياه الزفتية اللون والكريهة الرائحة . هناك في احدى تلك المغاور التي صنعتها يد الطبيعة في سفح تلك الجبال الوعرة . هناك انفرد يوحنا

اي في تلك الارض الحاملة اللعنة الى يومنا هذا . هناك خراب الطبيعة كان يمثل لعيني ذلك الناسك ضربات عدل الخالق الهائلة ومن جرى تأملاته في وسط ذلك الخراب اكتسب يوحنا روح القوة والغيرة روح ايليا كما يدعوها الملاك . وبالحقيقة ان يوحنا نظرًا لضنك معيشته وقوة فضيلته كان اشبه بانبياء العهد القديم اكثر منه باولياء العهد الجديد لان هيأته الخارجة ولبسه وكلامه كان صورة دخيلته فكان يردّ الى التوبة ولكن بكلام له قوة الصواعق خلافًا للين كلام المخلص الحقيقي . على ان الصفات التي جمعها السابق بشخصه جعلته مثالاً كاملاً في مهنته . فان تلك الفضيلة التي شأنها ان تكره الغير على اكرامها وتلك القوة التي تسحق القلوب المتحجرة وذلك التجرد الذي لا يخشى مقاومة اهواء الشعب المنحرفة ولا يخاف هتك آثام الكبرياء كل ذلك كان يجعل يوحنا شخصًا شديد النفوذ عظيم المهابة والوقار لا نظير له في تاريخ الايام الحاضرة

وعند ما خرج يوحنا من القفر ذهب توًّا الى شواطىء الاردن على مقربة من مصب هذا النهر في بحر لوط . ولما كانت يد الرب معه كان يعظ بالتوبة ويعمد رمزًا الى غفران الخطايا والتوبة . ولا يخفى ان التوبة الحقيقية ليست هي فقط النظر في المستقبل بقصد الاصلاح والاقلاع عن الاثم والرذيلة بل ان التوبة حتى تكون فعلاً ادبيًا كاملاً يلزمها مع ما تقدم ان يصحبها الاسف على ارتكاب الشر فيما مضى مقرونًا برغبة التعويض عنه باحتمال القصاص المفروض . وبناء على ذلك كان يطلب يوحنا اثمارًا تليق بالتوبة . وكان لكلامه وقع عظيم جدًا في قلوب سامعيه حتى ان الرؤساء انفسهم كانوا يتهافتون عليه مع عامة الشعب ليسمعوا كلامه ويعتمدوا من يده . الفريسيون والعشارون والكتبة والاميون والاغنياء والفقراء جميعهم شعروا بمفاعيل النعمة وكثير منهم كانوا يعترفون بخطاياهم جهارًا قبل قبول العماد

ولا غروَ فان تلك عادة عند اليهود : ان كل امرائيلي كان يعترف بخطاياه جهاراً قبل ان يقدم عنها ضحية الرضى في الهيكل بشرط ان لا تكون خطاياه ذنوباً تستحق الموت بحسب نص الشريعة . وكان علماء اللاهوت بين اليهود يقولون : ان الاقرار بالذنوب عن طيبة خاطر امر لازم وضروري لمغفرة الخطايا . وما هذا بغريب لاننا نجد التعليم نفسه من مذاهب الفلاسفة الوثنيين لانه من المعقول ان التائب حقيقةً بعد بغضه الاثم داخلياً يخطو ايضاً نحو البر باقراره بالشر ظاهرياً . ولما كانت الخطية بمثابة جرح للنفس فمن الضرورة فتح هذا الجرح لاخراج المادة المضرة الفاسدة منه فيشفى . وكان يوحنا يعمد المتعظين من كلامه علامةً على غفران خطاياهم ويستعمل عماد التغطيس رمزاً الى التطهير التام من الاثم والرذيلة ولم يسبقه احداً الى هذا العمل في سالف الايام . وكان يتطلب من الآتين اليه عواطف التواضع التي كان يصعب اتمامها على الشعب اليهودي لانه كان يعتبر ذاته ارفع واشرف الشعوب خصوصاً بعد ان تربى على ايدي الفريسيين المتعجرفين . ولهذا كان يصرخ بهم قائلاً « : يا اولاد الافاعي من دلكم على المرب من السخط الآتي . اثمروا اثماراً تليق بالتوبة . ولا تجعلوا تقولون ان ابانا ابرهيم . لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولاداً لابرهيم . ها ان الفأس قد وضعت على اصل الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمرة جيدة تُقطع وتُلقى في النار »

فلكي يظهر الصابغ صواعق غضبه لم يرَ بدّاً من ان يستعير الصور والتشابيه التي يراها حوله : فاي شيء هو اقبح من الافعى التي تختبىء تحت القش وبين الزهور لتجد سبيلاً يسهل لها القاء سمها فهكذا كان اولئك الخبثاء الذين كانوا يأتون لاقتبال العماد دون الاستعداد الكافي وبغير توبة حقيقية . واي شيء ايبس من الجلمود فمع ذلك قادر الله ان ينفخ فيه روح الحياة فيحيا ويصير ابناً لابرهيم . فهكذا هم الوثنيون فانهم موتى عن حياة النعمة كالصخر الجامد ولكن

قادر الله ان يخلق فيهم روح الخلاص ببشارة الانجيل فيصيرون شعباً جديداً لله وابناء الله يطرحون خارجاً . فالويل اذاً لابناء ابرهيم الكذبة فانهم لا يفلتون من حكم المسيح العادل فها ان الفأس موضوعة لتقطع كل اصل شجرة عقيمة لا تثمر

ولا ريب ان كلام الصابغ جرح كبرياء الفريسيين الذين كانوا يعتبرون نفوسهم ابناء ووَرثة الملكوت شرعاً ولذلك كان يرجع بعضهم عن شواطئ الاردن وقد ملك الحنق والغضب قلوبهم فينبذون تعليم الصابغ وعماده نبذ النواة واما البقية منهم الذين كانوا يستصوبون كلامه فقد اتوا يسألونه ماذا نصنع فاجابهم قائلاً : « من له ثوبان فليعطِ من ليس له » لان الصدقة هي احسن استعداد للشريعة المسيحية التي هي شريعة المحبة . والمستقيم القلب ليس بعيداً عن الله والنور يضيء سريعاً في النفس الرحومة الشفوقة

وجاء ايضاً العشارون ليعتمدوا وسألوا يوحنا قائلين ونحن ماذا نصنع يامعلم فاجابهم : « لا تستوفوا اكثر مما فُرض لكم » . لان المستخدم في جباية مال الحكومة لا يستطيع ان يتصدق من مال الحكومة انما فضله يكون اذا اكتفى بتحصيل الحق فقط وعدل في اجراء السلطة المعطاة له ولم يختلق مطاليب جديدة خارجة عن النظام طمعاً بجر مغنم شخصي . ثم جاء بعض من الجند وسألوه : ماذا نصنع نحن ايضاً . فلهولاء اجاب « لا تظلموا احداً ولا تفتروا عليه واقتنعوا بما تاتيكم به وظائفكم » والحق يقال ان ما يذنب به الجندي عادة انما هو سوء استعمال قوته المسلحة لسلب مال الفلاح المسكين او اغتياب الزملاء الابرار امام القواد والروساء الكبار ومن ثم يكون قد ذكرهم باهم فروض حالتهم . هذا مجمل الحقائق الادبية التي كان يكرز بها الصابغ وكان الناس يقبلون اليه بكثرة لاستماع كلامه ويتأهبون على هذا المنوال لمجيء المخلص الحقيقي يسوع المسيح

فذاع صيت يوحنا مع الايام واخذ القوم يتساءلون و يفكرون في قلوبهم لعله

هو المسيح . فشعر يوحنا بالامر ولهذا اجتهد من ذلك الحين ان يوجه افكار الشعب نحو الآتي الذي كان هو يعدُّ له الطرق قائلاً : « انا اعمدكم بالماء ولكن يأتي من هو اقوى مني . وانا لا استحق ان احلَّ سيور حذائه . وهو يعمدكم بالروح القدس والنار » . فهذا هو الفرق بين عمل الصابغ وعمل يسوع المسيح : اي ان يوحنا كان خادماً اميناً قد أُرسل ليكرز بالتوبة ويحرك القلوب للاقبال اليها بينما ان يسوع يعطي الروح القدس روح النعمة الى القلوب فيحرقها بنار المحبة لتصير اهلاً للملك السماوي . الاول يُعدّ طرق التقديس والثاني يحققه الاول يجمع الخراف والثاني يدخلها الحظيرة ولهذا كان يصرّح يوحنا : « اعدوا طريق الرب واجعلوا سبله قويمة . كل وادٍ يمتلي وكل جبل وتلٍّ ينخفض » . وعندما تكون سقطت عجرفة البعض واضمحل كفر الآخرين واستئصلت آثامهم حينئذٍ يدخل الملك باحتفال عظيم الى شعبه ويعاين كل ذي جسد خلاص الرب : لذلك كان المعمدان يهتف قائلاً « ها هو من بيده المذرى ينقي بيدره ويجمع القمح الى اهرائه ويحرق التبن بنار لا تطفأ » . ولا يخفى ان صاحب الكرم الذي يأتي الى كرمه وصاحب الحقل الذي يتفقّد غلاّته وسيد الشعب الذي يزور خاصته انما هو حسب نص التعليم اليهودي المسيح ابن الله . فالمسيح اذن هو عمنوئيل اي الهنا معنا كما تنبأ عنه اشعيا (٤٠ : ٩) حيث قال . « اصعدي الى جبل عالٍ يا مبشرة صهيون . ارفعي صوتك يا مبشرة اورشليم ارفعيه ولا تخافي قولي لمدائن يهوذا هوذا الهكم »

سبق القول ان الصابغ كان يكرز ويعمّد على مصب نهر الاردن وجميع القوافل التي كانت تمرّ من هناك كانت تسمع كلامه وتحمل اخباره فتنشرها في جميع انحاء اليهودية . فذاع خبره في كل مكان وتقاطرت عليه الزوار من كل صقعٍ وناد . فكان ذلك داعياً لاستلفات انظار السلطة الدينية نحوه . فارسل المجلس الاعلى وفداً من الكهنة واللاويين الى يوحنا ليسألوه من انت . بغية ان

يدفعوا الشعب اليه او يمسكوه عنه حسب ما يكون جوابه لهم · فعرف يوحنا انهم مضطربو البال بسبب الخبر المنتشر بين الشعب ان هذا هو المسيح · فاجابهم في بادىء الامر مبيناً ما ليس هو ولم يبادرهم بالجواب المطلوب معلناً من هو · ولكي يقطع دابر وسواسهم بشان شخصه اعترف قائلاً : « اني لست المسيح » · من المعلوم ان احب شيء للانسان المتكبر تثبيت الاشاعات التي ترجع لمجده وان كاذبة واصعب ضحية عليه تكذيبها · اما يوحنا فلم يلتفت الا للحق معلناً ان الشعب قد ضلّ في ظنه لانه ليس هو المسيح · فسالوه وقد قلّ صبرهم « اذن ماذا أ ايليا انت » فقال « لست اياه » · وحقاً لم يكن ايليا نفسه نزل من السماء بل كانت فيه روح ايليا وغيرته · فكرروا السؤال قائلين : النبيّ انت · لانه حسب مفاد التقاليد اليهودية ان نبياً غير ايليا اما اخنوخ او يشوع او ارميا كان مزمعاً ان يُرسل من السماء ليعد العهد المسيحي الجديد · وعلى هذا السؤال اجاب : كلا ومن ثم كل الاقاويل الشائعة بين الشعب بهذا الصدد كانت كاذبة ولا اساس لها ·

ومن البديهي ان تلك الجوابات السلبية لم تكن لتكفي ذلك الوفد وتقنعه بصلاحية ارسالية يوحنا ولهذا الحوا عليه قائلين : « فمن انت لنردّ الجواب على من ارسلونا · ماذا تقول عن نفسك » · حينئذٍ اجابهم : « انا صوت صارخ في البرية قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي » · وعلى هذا المنوال يواضع يوحنا نفسه حتى يدعو ذاته صوتاً تبدده الريح ولكنه صوت قد أُخبر عنه سابقاً صوت المبشر بقدوم السيد الحقيقي · هذا ما اراد يوحنا ان ينبه الافكار اليه ويثبت صحة ارساليته من قبل الله

اما المرسلون اليه فلم يفهموا قوة كلامه فعجبوا كيف كان يعلم تعاليم جديدة ويعمد من غير ان يكون لا المسيح ولا ايليا ولذلك اجابوه بحدة : « فلماذا تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي » · نعم لا يحل لاحد ذلك

الأ لمن أُعطيت له السلطة من الله وبما ان يوحنا لم يكن يدعي ذلك فكيف كان يصوّب عمله هذا ولذلك اجابهم قائلاً : « نعم انا اعمدكم بالماء ولكن بينكم من لستم تعرفونه . هو الذي يأتي بعدي وقد جُعل قبلي الذي انا لا استحق ان احلّ سير حذائه » . لعمري ان حضور منتظر الشعوب هو اثبت برهان على صلاحية عماد يوحنا لانه حسب اقوال الانبياء كان يوحنا مزمعاً ان يُعدّ له الطريق شرعاً .

لا يذكر لنا الانجيلي ما نتج عن تقرير ذلك الوفد وماذا كان حكم المجلس الاعلى بخصوص يوحنا الذي تابع خطته الأولى وبقي مجداً بايقاظ الشعب الاسرائيلي للتأهب الواجب لقبول الآتي . واستمرّ يعمد ويكرز لانه كان عرف بوحيٍ الهي ان المسيح سيظهر له بعلامة عجيبة وهو يعمّد .

الفصل الثالث

ظهور السيد المسيح لسابقه

يسوع الناصري يطلب العماد من يوحنا — رؤيا سماوية فوق راس المعتمد — يقين يوحنا بان يسوع هو المسيح

طالع انجيل متى ٣ : ١٣ — ١٧ . مرقس ٨ : ٩ — ١١ . يوحنا ١ : ٣٢ — ٣٤

§

يسوع الناصري يطلب العماد من يوحنا

لما أتت الساعة المعينة في احكام العناية نزل شاب من جبال الجليل اسمه يسوع ليعتمد مع اولاد اسرائيل وله من العمر ثلاثون سنة

وكان قد قضى زهرة عمره ضمن حانوت النجارة دون ان يعلم به احد . نعم رزانة

مسلكه ودماثة اخلاقه وحسن معاطاته وحكمته العجيبة كانت كافية لتستلفت إنظار اقرانه اليه وتعرب عن نفسه الابية ولكن مَن كان يظن ان المخلص سيخرج من الناصرة وانه يكون نجاراً

فدنا يسوع من السابق وطلب العماد . ومن يقدر ان يخبر عن الاحاديث التي دارت بين يسوع وسابقه ومن يستطيع ان يصف قوة عواطف المحبة التي كانت تسري بين قلبي يسوع و يوحنا . فكلما كان يوحنا يسمع كلام يسوع المملوء حكمة وعذوبة عن تقهقر وشقاء الشعب اليهودي ادبياً ومادياً كان يطير قلبه شعاعاً و يشعر بقوة عظيمة تدفعه للاعتراف ان مكلمه هو المسيح المنتظر . ولكنه كتم احساساته ولم يظهرها طمعاً باطالة لذة الحديث مع يسوع . و بينما كان هو يتكلم كانت تتجلى نفسه لأعين يوحنا اصفى من الجو وابهى من الكواكب والنجوم فيالها من غيرة آكلة على خلاص الانس و يالها من افكار سامية و يالها من كرامة اخلاق كانت تتدفق كالسيول من فمه الطاهر . كان يسوع يتكلم ورغماً عن تواضعه العميق كان كلام الحكمة البارز من فمه معرباً عن اعماق اسرار تدابير العناية ورأفتها نحو بني البشر الاشقياء . قد اخذ بمجامع قلب يوحنا وشدة حواسه بنوع انه لما حبس الكلام واراد ان يسقط في الماء ليعتمد انطرح الصابغ على قدميه وصرخ بتعجب « انا المحتاج ان اعتمد منك وانت تأتي اليَّ » أجل ان المعمد هو عادةً افضل من المعتمد الذي يطلب العماد ممن هو انضل منه ليصير شبيهاً ببرارته . ولكن يوحنا كان يشعر بذاته انه اقل برارة وفضلاً من يسوع ولهذا اقرَّ ان ليس له ان يعطيه العماد بل ان يقبله منه . فاجابه يسوع قائلاً :
« دعِ الآن فهكذا ينبغي لنا ان نُتمَّ كل برٍّ »

ان برارة يوحنا كانت قائمة بتتميم اوامر شريعة موسى واما برارة المسيح فباتباع وصايا تلك الشريعة الى ان يتسنى له تغييرها واكمالها . ولهذا اراد شرعاً ان لا يترك حرفاً من الناموس الى اليوم الذي فيه يُبطل كل القرابين بتضحية

ذاته على خشبة الصليب لاجل خلاص العالم. وليس لاجله بل لاجل العالم الذي يُمثله بامره اتى طالباً العماد من يوحنا لان غسله العالم اليوم بماء الاردن كان رمزًا الى تطهيره اياه باهراق دمه الزكي على الصليب . وعليه فبقبوله طوعاً الآن الصبغة من يوحنا اشار الى قبوله تلك الصبغة الدموية المزمع ان يقبلها من يد اليهود فداء للجنس البشري . وهنا تنتهي حياة الناصري الخفية وتبتدي حياته العمومية التي لم تكن الاَّ استشهاداً طويلاً وهذا معنى قوله « ان نُتمَّ كل برٍ »

§

الرؤيا السماوية فوق راس المعتمد

فقنع الصابغ من كلامه وعمده . يعجز القلم البشري عن ايضاح العواطف والافكار التي تسابقت وفتئذٍ الى قلب يسوع العالم باهمية ذلك العمل الذي كان بمثابة الحد الفاصل بين سكينة وهناء معيشته الماضية واضطراب وشقاء المستقبل ولا اضطراب البحر تحت تيار الارياح العاصفة ولهذا يضرب الانجيليون صفحاً عن ايضاح حالة نفسه في ذلك الوقت . غير ان القديس لوقا يخبرنا انه اسلم ذاته الى الصلاة وفيما كان يوحنا يتأمله متحيرًا مشدوهاً واذا السماء انفتحت ونزل عليه الروح القدس في صورة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً . « هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررتُ » .

§

يقين يوحنا بأن يسوع هو المسيح

ولم ينظر احد تلك الرؤيا السماوية سوى يسوع ويوحنا وشهد هذا بذلك ومن ذاك الوقت لم يعد عنده ريب في ان هذا هو المسيح واعترف به علانية وقال لاحاجة الى الانتظار بعدُ فها قد اتى المخلص وقد رآه مرأى العين . وهو هو

يسوع الناصري . وخصّص الايام الاخيرة من حياته مبشرًا اسرائيل به

وكان يسوع بالغًا من العمر وقتئذٍ نحوًا من ثلاثين سنة وهي السنّ التي فيها حسب ناموس موسى كان يحق للاوي ان يباشر خدمته الكهنوتية . وعند الشعوب المتمدنة يحق للشاب في الثلاثين من عمره ان يرقى الوظائف السياسية . وعليه فطبقًا للشرائع البشرية ولاحكام العناية يبتدي يسوع من الآن بعمله الخلاصي . على اننا قبل الكلام عن حياة يسوع العمومية من الضرورة ان نوضح من هو . وما هو اصله . وكيف قضى ايام حداثته

الفصل الرابع

ترجمة السيد المسيح منذ نشأته الى الثلاثين من سنه

— نسب يسوع المسيح — الحبل به العجيب — اقتران يوسف بمريم — ولادة يسوع في بيت لحم — ختانته — مجيء المجوس — تطهير مريم وتقدمة يسوع الى الهيكل — الهرب الى مصر — ايام حداثته في الناصرة وكيفية معيشته فيها الى الثلاثين من عمره

طالع يوحنا ١ : ١ — ١٨ . متى ١ : ١ — ٢٥ و ٢ : ١ — ٢٣ . ولوقا ١ : ٢٦ — ٥٦ و ٢ : ١ — ٥٢ و ٣ : ٢٣ — ٣٨

§

نسب يسوع المسيح

اول ما تتنبه له الخواطر في البحث عن انسان شهير السؤال عن نسبه اعني ابن من هو ومن هو . واما الانجيليون فيذكرون نسبين للسيد المسيح الاول الهي وازلي والثاني بشري وارضي لانهم عرفوا فيه طبيعتين طبيعة الهية وطبيعة بشرية

فجعلوا لكل طبيعة نسباً يوافقها . فيوحنا الحبيب يُرجع نسب المسيح الالهي الى حضن الآب الازلي قبل كل خليقة اذ قال « وفي البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » . وهاك مفاد كلامه بالاختصار: الكلمة كان قبل كل خليقة وبالنتيجة هو ازلي الوجود والكلمة كان عند الله اي مساوٍ له في الجوهر وان تميّز عنه في الاقنوم لانه لا شيء عند الله من الازل ما لم يكن الهاً ولهذا يُنتج الرسول من سابق كلامه . « وكان الكلمة الله »

« كل به كوّن وبغيره لم يكن شيء مما كوّن » . اي ان مبدأ الوجود الاول ومنبع الحياة الاول هو الآب ولكن لا شيء يبرز الى الوجود الحقيقي بدون الابن لان الابن حكمة الاب وهو الذي يعطي الصورة والجمال والحياة فهو اذاً يد عمل الآب وبه تمرّ قدرة الآب قبل ان تُوضع معلولاتها موضع العمل كما يمرّ التصور بالعقل ويوزن بميزان الحكمة قبل ان تأمر الارادة باجرائه . فكل موجود روحي او مادي بسيط او مركب لا يولد ما لم ينفخ فيه الابن روح الحياة وله عليه كل سلطان . فهو اذن مبدا الحياة الثنوي لكل موجود منظور او غير منظور .

« فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس » . كل موجود يستمد الحياة منه دون ان ينقص هو في شيء . وكما ان الشمس تضيء الموجودات بنورها لتظهرها الى اعين الجسد هكذا الابن يظهر الحقائق الى باصرة النفس . ولكن ماذا ينفع نور الشمس من كان اعمى او لا يريد ان يبصر وهكذا كان حظ الانسانية منذ سقطة الانسان الاول بالنظر الى الحقائق الدينية

ولذلك قال الكلمة هاءنذا انزل الارض واكلم بني البشر بلا واسطة وجهاً لوجه كي اجعل الانسان ابناً لله واقرّبه منه تعالى . وليس للحم والدم نصيب في هذه القرابة الروحية بل هي قرابة الايمان الحق . « والكلمة صار جسداً وحلّ فينا » وعاش بيننا وكان ينمو بالحكمة والنعمة امام الله والناس .

فهذا هو نسب يسوع الالهي · فهو ابن الله في الجوهر والطبع مولود الآب من الازل ولكنه غير مخلوق · اله من اله نور من نور· اله حق منبثق من اله قبل كل الدهور وهذا ما اراد الانجيلي يوحنا ان ينبه اليه صريحاً في ابتداء ترجمته عن حياة المخلص

وقد وافقه على ذلك الانجيليون الثلاثة الذين كتبوا قبله لانهم يدعونه « الهنا معنا عمنوئيل ابن الله » · غير انهم ضربوا صفحاً عن نسبه الالهي لان الزمان الذي كتبوا فيه لم يكن يتحمل ايضاح هذا النسب الازلي كما افاض فيه يوحنا الحبيب حذراً من القاء المعثرة في توحيد الله المطلق حسب تعليم اللاهوت اليهودي · وعليه قد اقتصروا على تبيان صلاحية ارسالية المسيح الالهية ولاجل هذه الغاية يوردون جميع اقوال الانبياء التي تمت في شخصه المقدس · وحبسوا كلامهم على ذكر نسبه الى داود لان ذلك كان احب شيء الى قلب الشعب الشعب اليهودي (اشعيا ١١ : ١)· وجميع الذين كانوا يريدون ان يظهروا حبهم الى يسوع كانوا يدعونه ابن داود مثل الرسل وعميان اريحا والمرأة الكنعانية وسكان اورشليم · ولاثبات هذا المعتقد نرى ان البشيرين متى ومرقس يضعان شجرة نسب المسيح مبينين انه من نسل داود غير انهما لا يتبعان خطاً واحداً في ذكر فروع تلك الاسرة منذ داود فصاعداً و لكل غاية يصعب علينا ايضاحها والانجيليون الثلاثة الباقون عندهم ان يسوع هو ابن مريم العذراء حقيقة وليس ابن يوسف الا بالتربية على ان يوسف هو الحلقة التي توصل يسوع بنسل داود · وهل لقب مربٍ ليسوع ظهر كافياً للقديس متى فجعل يسوع من نسل داود وهل اكتفى بتسمية يوسف ابا مربياً يسوع ؟ · وهل مريم هي من سلالة داود راساً بواسطة هالي كما يشير القديس لوقا ؟ وهل وجد القديس مرقس برهاناً على نسب المسيح الى داود اقوى من نسب لقب مربٍ مكنةً من تسمية يسوع ابن داود ؟ كل هذا ممكن وقريب من الاحتمال ·

ومما يستحق امعان النظر الخطة التي اتبعها القديس مرقس في كلامه عن نسب يسوع المسيح · فانه يفيض في الكلام مبيناً وجوه المشابهة بين يسوع وادم طرفي هذا النسب · والحال ان هذه المقابلة المطابقة لتعليم القديس بولس الرسول تؤدي منطقياً الى الكلام عن الحبل العجيب بيسوع المسيح · فكما خلق الانسان الاول من لاشيء · هكذا لزم ان يوجد ناسوت آدم الثاني دون مباشرة رجل وفي هذا وذاك نسمة من روح العلي نفخت فيهما روح الحياة · وكما ان القادر على كل شيء اخذ من تراب الارض فخلق الانسان الاول ليظهر نسبة الاصل بينه وبين المادة التي دعي آدم الاول لتشريفها ورفعها الى مشاركة الروح هكذا أخذ نقطة من دم البشرية فخلق يسوع ليشرك الفادي بالبشرية التي اتى ليطهرها ويصلحها ويشركها بحياته الالهية · وعلى هذا النمط لم يكن ليسوع ابٌ سوى الله وحده كما انه تعالى كان وحده اباً لآدم الانسان الاول · فهذا هو تاريخ الحبل العجيب بيسوع المسيح

§

اقتران يوسف بمريم

كانت في ناصرة الجليل عذراء من بيت داود اسمها مريم من سبط يهوذا وهي نسيبة سبط لاوي ومن ذوي قرابة اليصابات وزكريا الذي كان من فرقة الكهنة · هذا كل ما نعلمه من الكتاب المقدس عن هذه العذراء المجيدة

ولم تظهر مريم على مرسح التاريخ الانجيلي الا عند ما خُطبت الى يوسف سليل داود مثلها · ولما لم يكن لها اخوة التزمت حسب الشريعة ان تتزوج برجل من عائلتها · وفضلاً عن ذلك فان اطوارها الحسنة وفضائلها السامية وجمالها المقرون بالتواضع العميق كل ذلك كان كافياً لاستمالة القلوب اليها · ولا حجة لمن يزعمون ان يوسف كان كهلاً لما افتكر ان يقترن بمريم بل جميع قرائن الحال

تشير الى خلاف ذلك لانه حسب تدبير العناية الالهية كان يوسف مدعوًّا ليقوت العائلة المقدسة من ثمرات شغل يديه ويظللها بكنف حمايته ويبعد كل غيبة ونميمة عن شخص اطهر النساء ٠ والحال ان ذلك ليس مستطاعًا للكهل٠ وضلَّ عن جادة الصواب من صدَّق دون تنقيب اقوال الكتب المحرَّفة وفاته ان لا محل للخوف من ضعف الطبع البشري ما دام الرب قد شدَّده وامره قائلاً « استمرَّ بتولاً مع عذراء تكرست بنعمة العلي» ومن سبر الطبع البشري عرف ان البتولية ليست ثمرة الكهولة بل هي ثمرة الفضيلة وحدها

فصنع يوسف اذًا حسب عوائد عصره٠ اي انه لما شبَّ فكر نظير اقرانه في كيف يؤسس بيته ٠لان البتولية لم تكن عند اليهود على ما هي عليه الآن من الشرف العظيم ولقد تبع ميل قلبه باختياره مريم خطيبة لهُ ٠ نعم تفوتنا معرفة تفاصيل الامور الاولية لاتمام الخطبة ولكننا نعلم يقينًا ان مريم كانت مخطوبة الى يوسف لما نظر اليها العلي وكانت في بيت اهلها او عند احد ذوي قرباها عائشة بخوف الله تاركة لله تدبير امرها ملقيةً على الرب همها ٠ وصارت خطيبة لرجل دون ان تهتم بما عساه يكون عليها من الواجبات ٠ فمن الناس من ينشغفون بحب الله فتستغرق افكارهم التأملات في الملاذ العلوية فيخسرون كل اهتمام في الارضيات ٠ ومن هولاء كانت مريم العذراء فقد سبق العلي وملأها من فيض انعامه اما هي فجاوبت هاتيك النعم الغزيرة ولهذا استحقت محبة العلي اكثر من جميع البشر وصارت مهبطًا لروحه القدوس وأُمًّا لابنه الوحيد ٠ لانها جمعت في شخصها المجيد ايمان الاباء الاولين واشواق الانبياء وامال السلف وتقوى العذارى والعابدات فكل هذه الفضائل ازهرت ونمت في نفس البتول مريم حتى انه لم يعد على الارض نفس اطهر واقدس من نفسها سوى نفس يسوع ابنها

§

ولادة يسوع في بيت لحم

لما حل الاجل المسمى من قبل انشاء العالم لخلاص البشر ارسل الرب من لدنه رسولاً الى الناصرة في الجليل الى ابنة اسمها مريم ليكاشفها بامر افتداء العالم ويقترحه عليها. وعند ما دخل اليها جبرائيل الملاك الحامل بشرى الكلام وجد الابنة منفردة تصلي فقال لها: «السلام عليك يا ممتلئة نعمة الرب معك». فما ابسط واحب واجمل هذا الكلام الموجه الى الابنة المتواضعة. لا يدعو لها جبرائيل بالحصول على النعمة بل يحقق وجودها فيها و يمدح مريم لاتحادها الوثيق مع الله فكان ذلك داعياً لعجب واندهاش تلك الابنة التي لم تقدّر درجة الكمال التي وصلت اليها ولهذا اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى ان يكون هذا السلام وما هو مؤدّاه؟ فقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريم فانكِ قد نلتِ نعمة عند الله»

فلكي يخفف وطأة الخوف عليها يدعوها باسمها وفي الوقت نفسه يبين لها عظم منزلتها الحاضرة في عيني الرب ومجدها الاثيل في المستقبل اذ قال: «وها انتِ تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع». فمريم اذن تعطي الى المسيح كل ما خصت الطبيعة بالأم اعطاءه الى ولدها. ففي احشائها كما في ارض جيدة يزرع وينبت جذع داود ومن حضنها تخرج زهرة البشرية خروجها من فلك نقي. ثم قال الملاك. «وهذا سيكون عظيماً وابن العلي يدعى وسيعطيه الرب الاله عرش داود ابيه و يملك على آل يعقوب الى الابد. ولا يكون لملكه انقضاء»

فيالها من بشارة عجيبة ادهشت العذراء النقية وكيف ان ما تاقت اليه جميع نساء اسرائيل اوشك ان يتم فيها. سيولد منها ولد وهذا الولد يدعى حقيقة ابن الله. غير ان هذا الشرف وان عظيماً لا يخلو من ان يقلق العذراء بالنظر الى بكارتها وهذا ما املى على لسانها ذلك السؤال العجيب في سذاجته: «كيف

يكون هذا وانا لا اعرف رجلاً » اي اني عذراء والى الآن لم اعرف رجلاً . نعم كان اهلها خطبوها الى يوسف ولكنها تعلن الآن انها لا تريد ان تعرف رجلا وان مزاجها اللطيف لا يألف المباشرة اللحمية مهما كانت حلالاً لها شرعاً . حينئذ اسرع الملاك وسكن روعها باظهاره لها خفايا ذلك السر الطاهر بقوله : « ان الروح القدس يحل عليكِ وقوة العلي تظللك ولذلك فالقدوس المولود منكِ يدعى ابن الله » . فلا تخافي اذن يا مريم لان الأب الذي هو العامل الاهم في الحبل الطبيعي لا دخل له في هذا الحبل العجيب فالروح القدس يقوم بعمله هذا وهو يظللك بقدرته العلوية لايجاد هذه الخليقة الجديدة . وهو يختار من احشائك تلك الجرثومة المقدسة الراقدة فيها و يوقظها جاعلاً اياها مخصبة . وعليه فبكل حق وصواب المولود منك ابن الله يدعى لانه لا أب له حتى في الناسوت ايضاً غير الله

وكانت مريم تسمع كلام الملاك باصغاء واحترام ولم تطلب منه علامة سماوية تكفل صدق مقاله على ان الملاك جزاءً لايمانها الحي وحبها الحار اعطاها علامة اذ قال لها : « وها ان اليصابات نسيبتك قد حبلت هي ايضاً بابن في شيخوختها وهذا الشهر هو السادس لتلك المدعوة عاقراً . لانه ليس امر غير ممكن لدى الله » . والحق يقال ان الشرائع التي سنّها العلي لتنظيم حركات الطبيعة ليست سلاسل حديدية تكبل يديه بل هي اسلاكٌ طائعة لبنانه يديرها كيف شاء طبقاً لمآرب حكمته وحنوه . فبحق قال الملاك : « ليس امر غير ممكن لدى الله »

فكل كلمة من كلام الملاك كانت تخرق نفس مريم كما يخرق شعاع الشمس البلور الصافي فيضمحل غيم ارتباكها وهتفت قائلة : « ها انا امة الرب فليكن لي بحسب قولك » . كلام عجيب في حقيقته الوضعية تقف عنده الخواطر متحيرة . كلام لم يكن في وسع بشر ان يجده في موقف كهذا غير مريم اقدس واطهر المخلوقات . كلام جمع بين التواضع والتسليم المطلق والامل الوطيد . تدعو ذاتها

أمة اي خادمة في الوقت الذي فيه يبشرها الملاك انها تكون أمًّا لله . وتسلم ارادتها تسليماً مطلقاً في الوقت الذي كان امر خلاص العالم وعدمه مرهونين بين شفتيها . وبقولها « فليكن كقولك » كان ما قاله الملاك وصار حالاً وانصرف من عندها الملاك حاملاً الى السماء ذلك الجواب العجيب المملوء ايماناً وحباً وخضوعاً .
اما العذراء فمكثت صامتة تنتظر تتميم وعد الملاك لها . ولا شك انها كانت غرقى في بحر الهواجس والتأمل فيما عساه ان يكون لها في مستقبل الايام من المجد والفخر وكم من سيوف الاحزان كانت مزمعة ان تجوز في قلبها . ونسمع صدى تلك التأملات حينما تفيض بنشيدها ناشرة ما كانت تطويه ضلوعها . لكنها كتمت في الوقت الحاضر حبلها الالهي تواضعاً منها وسدًّا لافواه الاشرار الذين يجهلون كلام الله فيسلقونها بالسنة حداد

وفضلاً عن ذلك كان على مريم ان تخبر اولاً يوسف عن ارسالية الملاك اليها وقبولها ما اقترحه عليها لو كان تمَّ اقترانها به لان ذلك من شانه ان يمس حقوق الزواج . وهب ان يوسف كان له مع مريم نفس الصلات الودية التي نراها الان بين الخطيب وخطيبته لكان اطلع على هذا الحادث العجيب وقرأ على جبين خطيبته امارات التأثير التي تركتها الرؤيا في تلك النفس النقية . ولكن بما ان اهل مريم كانوا قد وعدوا يوسف بها ولم تكن هي قرَّرت افكارها بعد ولم تسلمه مفاتيح قلبها اعتبرت ذاتها حرة بالنظر اليه ولهذا فتشت عن شخص اخر لتبوح له بما صنع بها الرب من العجائب . فوقفت انظارها على نسيبتها اليصابات لانها كانت فقدت امها وكان الملاك اتى بذكر اليصابات عند ما بشرها بالمخلص وقد حبلت باعجوبة بعد ان كانت عاقراً ومن ثم كانت قادرة ان تفهم ذلك السر العجيب اكثر من سواها

وفي تلك الايام قامت مريم ومضت مسرعة الى الجبل الى مدينة يهوذا مدينة الكهنة حيث كان قاطناً زكريا وامرأته اليصابات . فقطعت مريم المسافة الطويلة

التي بين الناصرة والجبال الممتدة جنوبي اورشليم دون ان تشعر بتعب البتة او تبالي بما يسببه غيابها من القلق لأهلها . ولما دخلت الى بيت زكريا وهي على ما كانت عليه من الفرح الزائد وملامح النعمة تلوح على محياها البسام احيت بمرآها السعيد آمال اليصابات التي كانت عرفت بقرب مجيء المخلص ولما طرق صوت سلامها اذن اليصابات شعرت هذه باضطراب عظيم في جسمها كما لو مرّت عليها شرارة كهربائية وفي الحال ارتكض الجنين في بطنها كما ينتفض العصفور بلله القطر او كما تنتعش الطبيعة عند اول بزوغ اشعة الشمس عليها. فلم تعد تقدر اليصابات ان تتماسك عن اظهار عواطفها فسلمت نفسها الى الهام الروح القدس وهتفت صارخة كما يصرخ الانبياء عادة عند ما تشرق عليهم الحقائق الغامضة فيرون في اسرار الله ما لم تره عين بشر ويسمعون ما لم تسمعه اذن: « مباركة انتِ في النساء ومباركة ثمرة بطنك . من اين لي ان تأتي اليَّ ام ربي »ومن ثم صار التجسد امرًا مقررًا عند اليصابات لانها شعرت بتأثيره العجيب اذ قالت: «فانه عند ما بلغ صوت سلامك الى اذنيَّ ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني . فطوبى للتي آمنت لانه سيتم ما قيل لها من قبل الرب» . وكانت مريم تصغي الى كلام التهنئة هذا مُرجعةً اليه تعالى المجد الذي يحصل لها منه لانه تعالى سبب كل ذلك . وليست باحتياج الى وحي خصوصي من الروح القدس نظير اليصابات لتستفيض بالكلام عن السر المكنون في احشائها وليس لها الا ان تفتح فاها ليجري من شفتيها ينبوع الشكر والحمد فيأتي الكلام صاغرًا لها مترجمًا بادق الاساليب عن اسمى التصورات واجملها

ومن امعن النظر في تسبحة مريم تأكد ان المتكلمة هي ملكة رفيعة الشان وعروس الروح القدس لان في كلامها ما يسحر الالباب النقية الخائفة الرب . وهاك استهلالها الشائق: « تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي . لانه نظر الى تواضع امته » تبتدي مريم باعلان كون ابتهاجها ورغبة شكرها لله على

نعمه الفائضة قد سبيا تهللها العظيم فرتلت ترتيل المجد والسجود وعظمت الرب صانع تلك العجائب فيها مظهرة خضوعها التام لمشيئته وتسليمها ذاتها لارادته. وروحها مهبط النعم السماوية ومقر الافكار التقوية ووسيلة الصلات مع العالم الغير المنظور رقصت طرباً عند ما مستها يد الرافة والخلاص فرفعتها من ذلها وحقارتها وجعلتها اهلاً لاستجلاب نظر السماء اليها

الى ان تقول : «فها منذ الان تطوبني جميع الاجيال لان القدير صنع بي العظائم واسمه قدوس ورحمته الى اجيال واجيال للذين يتقونه » فكأن مريم مع ما هي عليه من حداثة العمر ووهن القلب وضعة الوطن شعرت بعظم منزلتها المستقبلة في اعين العالم باسره فتنبأت عن سمو كرامتها في الاعصر المقبلة بما يدعو الى العجب والدهشة من تأكيد المقال وثبات الجاش وقد اتت الحوادث التالية مصداقاً لكلامها و برهاناً يصدع رداء الشك في حصولها غير انها تقرّ انها ليست سوى قاعدة حقيرة لذلك العمل الالهي العظيم ولهذا حتى في معظم تهللها تُرجع كل فخر ذلك العمل الخطير الى الله الذي يرمق اتقياءه بعين الرافة ويحطم اعداءه

ثم تستأنف الكلام قائلةً : «صنع عزًّا بساعده وشتت المتكبرين بافكار قلوبهم . حطّ المقتدرين عن الكراسي ورفع المتواضعين . اشبع الجياع خيراً والاغنياء ارسلهم فارغين »

هذا ما اجتهد الانجيل ان يدخله في عقولنا وما يكرره لنا بصور مختلفة ان من هو لا شيء اي الضعيف ينتصر على من هو كل شيء اي القوي

لا يريد الله ان يظن الانسان ان الرب محتاج الى مساعدته لتكميل اعماله بل يلزمنا ان نعرف ذلنا ونقرّ بحقارتنا ونكفر بذواتنا حتى يأتي العلي ويرفعنا . فها ان الفريسيين المتكبرين واغنياء الارض وهيرودس والقياصرة جميعهم تُركوا جانباً واختار الرب ابنتين من اسرائيل ليظهر بهما عظائم اعماله .

فالعجرفة اذن والاستبداد في رقاب العباد واموالهم قد مضت ايامها لان الرب يمقتها ولا يميل قلبه الا الى المتواضعين ولا يرفع سوى ذوي الحقارة والفاقة واسرائيل الامين في خدمته يختبر ذلك بقبوله مواعيد آبائه بينما ان الاعداء يُسحقون كالفخار. وذلك مآل هذه الكلمات الاخيرة: «عضد اسرائيل فتاه فذكر رحمته كما كلم آباءنا لابرهيم ونسله الى الابد»

ليس لنا في الانجيل الطاهر غير هذا الوجه يدلنا على داخل حياة مريم العذراء الروحية ولكن اي اشعة ساطعة الضياء تنبعث منه فتُظهر للعيان غنى تلك الشعائر والعواطف الروحية. وكأنَّ حبسها الكلام عن نشر ما اوحي اليها من السماء كان سبباً لاطلاق العنان الى عواطفها واندفاع فرحها دفعة واحدة كاندفع المياه الغزيرة من بطون الجبال بعد ان تكون حُبست فيها زمناً. ولهذا تراها تستعمل صورة شعرية لاظهار عواطف التقوى والتواضع والفرح المقدس التي كانت مخزونة في قلبها. فمن اين للآباء والانبياء ان يباروها بالحمية والابتهاج عند ما تنبأ عن الانقلاب الديني العظيم المزمع ان يصير فمثلهم كانت تحب شعبها واقد ختمت تسبحتها بهتاف وطني محرك للغاية

ومكثت مريم عند نسيبتها اليصابات نحو ثلاثة اشهر تقضي معظم اوقاتها في صلاة الشكر والسجود وكان زكريا وامرأته يساعدانها على ذلك و يقتسمان فرحها ولم ترجع الى الناصرة الا بعد ان حضرت ولادة يوحنا وتطهيره وفرحت مع الاهل والجيران وهناك كانت تنتظر من العناية الالهية حل مشكل حالتها الادبية في اعين البشر

اما يوسف فلاحظ حبل خطيبته لان الامر لم يعد مخفياً. وبما انه كان يجهل مجيء الملاك وما حدث في بيت زكريا ارتبك جداً في امره. هل يشكك بطهارة خطيبته ؟ فتشجبه نقاوة سيرتها الماضية وملامح الفرح والابتهاج التي كانت تلوح على وجهها وصفاء عيونها كانت ترفع من افكاره كل شبهة الاثم

ولكن هل يكذّب عينيه ؟ فما العمل ؟ فمن جهة كان يشق عليه العتاب ومن اخرى لايرى معقولاً ان يقبل المصيبة بدون فحص. اخيراً لجأ الى استقامة قلبه واتباع مشورة الفطنة والسلامة نعزم ان يطلق الحرية لخطيبته دون عياط وصياح لان ما يربطه الكلام هو يحلّه تاركاً للايام تفسير ما لا يمكنه فهمه الآن

وليس احد غير الله كان قادراً على حل هذا المشكل العظيم الاهمية. ففي احدى الليالي بينما كان يوسف غرقاً في بحر من الهواجس المكربة واذا بملاك الرب يقول له في الحلم: « يايوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ امرأتك مريم لان المولود منها انما هو من الروح القدس . وستلد ابناً فتسميه يسوع لانه هو الذي يخلص شعبه من خطاياهم » . فكان لكلام الملاك وقع عظيم في قلب يوسف فتبددت حالاً غيوم ارتباكه وانجلت له الحقيقة وزالت جيوش الهم والكدر عن قلبه وصفت كؤوس افراحه فتيقن طهارة خطيبته وفقه كيف هي عروس الروح القدس وانفتحت عيناه وقتئذٍ على الدور المهم الذي خصته به التدابير الالهية في عمل الخلاص الخطير وعرف ان من واجباته ان يحافظ على شرف مريم باقترانه واتخاذها له امرأةً شرعية وان يحترمها بمنزلة هيكل للروح القدس وان يكون ابًا ومربيًا ليسوع . فآمن يوسف وقبل طوعاً ما كلفه به الملاك وعند انتباهه صنع كل ما امره به واخذ مريم مثل امرأته وصان شرفها من شر السنة الاشرار

وعاش يوسف كاخ مع عروسه واستمرّت مريم عذراء بعد ذلك كما قبل وهذا هو تعليم الاعتقاد الكاثوليكي منذ القدم وقد عزّز هذا الاعتقاد الانجيليون جميعهم بتسميتهم يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا اخوة المسيح مع انهم اولاد عمه كلاوبا سلف والدته . فلو كان ليسوع اخوة حقيقيون لما كانوا تركوا ذكرهم وذكروا اولاد عمه انهم اخوته . وفضلاً عن ذلك فهل من المعقول ان

يسلم يسوع وهو على الصليب أُمه مريم الى يوحنا الحبيب لو كان لامه مريم اولاد اخرون غيره ؟ كلا ومن المحال ان عروس الروح القدس تصير زوجة لرجل ترابي وكأن يسوع بكر مريم قد استغرق كل قوى احشاء امه كما تستغرق احياناً ثمرة واحدة غاية في اللذة او زهرة متناهية الجمال كل قوى الشجرة فلا تعود تحمل غيرها · وزد على ذلك ان الانسان مهما كان شريرًا يعتبر بالطبع الحيا كل لمسكن الآلهة فكم بالاحرى كان جديرًا بذلك يوسف البار الخائف الرب فمن امقرر انه قد احترم عروسه ذلك الهيكل المبارك حيث استقر ظل الرب الحي وكان اذن يوسف البتول الاول من ذلك السبط المجيد المدعو من الله لخدمة الكنائس بالبرارة والطهارة وصار انموذج البتولية الى معسكر كهنة العهد الجديد اولئك الابطال الذين منذ اجيال عديدة يقضون حياتهم بالتأمل في الاسرار التي يخدمونها و يمسونها بايديهم نابذين عنهم ظهريًا مطاليب اللحم والدم · وعليه قد اقترن يوسف بعروسه مريم كما يقترن الكاهن الكاثوليكي بالكنيسة اعني قصد ان يضحي نفسه لاجلها و يتفانى بخدمتها وعلى هذا القصد تقدم يوسف لخدمة مريم وحفظ شرفها

ومكث العروسان ينتظران بضعة اشهر تتميم المواعيد الالهية و يتبادلان عواطف المحبة والامل والاحترام · على انـه كان مخجلاً لمريم ان تلد بين ظهرانيّ معارفها قبل مضي تسعة اشهر من اقترانها بيوسف وان كان حسب نص الشريعة الموسوية يعدُّ شرعيًا الولد الذي يُحبل به ابَّان الخطبة · ولكن الرب قد تكفل برفع هذا العار عنها · فصدر امر من اغوسطس قيصر وكان ذلك بامر الله القابض على عنان الامور البشرية أجبر العائلة المقدسة ان تنتقل من الناصرة الى بيت لحم حيث لم تكن مريم العذراء معروفة وحيث كان المسيح مزمعًا ان يولد حسب اقوال الانبياء

وفي تلك الايام صدر امر من اوغسطس قيصر بان يكتتب جميع قاطني

المملكة الرومانية كل في مدينة عائلته او سبطه . وبما ان اليهودية كانت وقتئذ تحت ايالة الدولة الرومانية فقد عمّها ذلك الامر كبقية الاقاليم الرومانية . ولهذا صعد يوسف ايضاً من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لانه كان من بيت داود ومن عشيرته . وهل كانت مريم ملزومة بالحضور مع يوسف لانها كانت وحيدة وتستحضر فرعاً من عائلتها او ان الرومانيين كانوا يطلبون ايضاً اكتتاب النساء بعلة انهم كانوا ياخذون منهنّ مال الدم ؟ فلا فرق بذلك اذ من المؤكد ان مريم صعدت مع يوسف الى بيت لحم غير مبالية باتعاب ومشقات الطريق الطويلة . وفرحها الوافر بقرب تتميم المواعيد عند وصولها الى بيت لحم كان يخفف عنها وطأة تعب السفر

ولما وصلا الى بيت لحم وجدا جمّاً غفيراً كان سبقهما وبعضهم نزلوا عند اصدقائهم والبعض ملأُوا المنزل الذي كان بناه كمهام بن برزلاي من جلعاد على طريق القوافل النازلة الى مصر (ارميا ٤١ : ١٧)

وكان ذلك المنزل على الشكل المستعمل من مثله الى يومنا هذا مؤلفاً من بوّابة كبيرة وساحة واسعة لايواء البهائم وبعض غرف صغيرة تسكنها الغرباء فمريم ويوسف لم يجدا محلاً في المنزل المذكور نظراً لازدحام الاقدام فيه فلجأا الى مغارة محاذية له تأوي اليها البهائم وقت الشتاء . وبينما كانا هناك تمت ايام ولادة مريم فولدت ابناً ولفته بيديها واضجعته في مذود البهائم . فيا لهُ من مهد اضجع فيه ابن الله وما اشبهه بالصليب عرش ملك العالم ومخلصه . وايم الله ان في ذلك من التنافي والطباق بين القوة الحقيقية والضعف الظاهر وبين العظمة غير المتناهية المحجوبة والحقارة المنظورة والذل الذي ليس تحته ذل لآيات لا يدركها عقلنا وتقف عندها احكم تدابيرنا البشرية . ولكن المسيح قد جمع بين طرفي نقيض والّف في شخصه بين العظمة الالهية والشقاء البشري ليعلمنا التواضع واحتقار الذات وزوال خيرات الارض . فاي انموذج ضد تعجرفنا

واجتهادنا في تحصيل المجد الباطل نجده فيه وهو على ما هو عليه في مذود حقير واي مشورة نقتبسها منه لجنوننا الفاحش في اعتبار الملذات والمال والشرف. فيا ايها الانسان المائت اتحسب ذاتك في رغائبك الاثيمة اكثر حكمة من الملك؟ انظر وتأمل وافعل هكذا. على انه فيما كان البشر مشتغلين عن ولادة يسوع ولم يفتكر به احد على الارض تحركت السموات واسمعت الملائكة اصوات تراتيل المجد لله والرجاء الصالح لبني البشر فسمعهم رعاةٌ كانوا ساهرين على رعيتهم هجعات الليل في الابراج المشرفة على البادية فخافوا خوفاً عظيماً واذا بملاك الرب وقف بهم ومجد العليّ اشرق حولهم وقال لهم الملاك: «لا تخافوا فها انذا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع البشر. انه قد وُلد لكم اليوم مخلص وهو المسيح الرب في مدينة داود. وهذه علامة لكم: انكم تجدون طفلاً ملفوفاً مضجعاً في مذود»: وظهر بغتةً مع الملاك جمهور الجند السماويين يرتلون تراتيل السلام واصلاح ذات البين بين السماء والارض فوق مهد موجد السلام المصلح العظيم ويسبحون الله قائلين: «المجد لله في العلا وعلى الارض السلام للناس الذين بهم المسرَّة»

فسمع الرعاة باندهاش تراتيل الفرح الصادرة من العالم الغير المنظور تراتيل شأنها ان تنبه بني البشر للقيام بواجباتهم نحو سر التجسد العجيب. لعمري عليهم ان يرفعوا نحو السماء هتاف التعجب والشكر حتى يخرق هتافهم فسحات الجو ويصل الى عرش الأب السماوي لانه قد صدرت رسالات الصلح والامان التى بعث بها الآب الازلي بتجسد ابنه الوحيد الى بشريتنا فصار على الانسان ان يحسن استقبالها اذا اراد ان يخلص

وعند ما زالت الرؤيا السماوية واصبح الرعاة وحدهم متحيرين قالوا بعضهم لبعض: «لنمضِ الى بيت لحم وننظر هذا الامر الواقع الذي اعلمنا به الرب» ان اصحاب القلوب المستقيمة يتبعون دون تردد اشارة السماء ونظراً الى سلامة

ضميرهم لا يخالج قلبهم امكان وقوع الغش فيها . فجاؤوا مسرعين الى بيت لحم وكم كان فرحهم عظيماً عندما شاهدوا صحة ما بشرهم به الملاك اذ رأوا مريم ويوسف والطفل مضجعاً في المذود ولربما كان معهم بعض الاصدقاء الذين باتوا مثلهم في المغارة قرب المنزل . وسمعوا جميعهم الكلام الذي اخبر به الرعاة ولما سمعوا تعجبوا الا مريم لانها كانت عالمة بكل ذلك فكانت تحفظ هذا الكلام كله وتتفكر به في قلبها

وبعد ان قضوا قليلاً من الزمان يتجاذبون اطراف الاحاديث المقدسة عن الصبي وتوطيد الآمال بالخلاص رجعوا الى مواشيهم والسنتهم تترطب بكلام الشكر والحمد لله الذي تذكر شعبه اسرائيل ونظر اليه بعين الرأفة . وكان الوقت شتاء حسب التقليد العمومي في شهر طابت اي كانون الثاني وحسب التواريخ التي هي أكثر احتمالاً في اواخر سنة ٧٤٩ من بناء رومة وفي نحو السنة الثالثة لموت هيرودس الكبير الملقب بالعسقلاني

§

ختانة يسوع

ولما تمت ثمانية ايام بعد ولادة الطفل اقتضى ختانه إتماماً للوصية وباتمام هذا الطقس صار الصبي يهودياً وعُرف شرعاً انه من ذرية ابرهيم وهرق باكورة ذلك الدم المزمع ان يحيي العالم . وتم الختان حسب عوائد اليهود في المغارة عينها ان صح ان يوسف ومريم تربصا هناك الى ما بعد مجيء الرعاة بمدة دون ان يجدا محلاً اخر يأويان اليه لان الختان كان يصير في البيت لا في الهيكل وكان الاب يختن ابنه وعليه فيكون يوسف ختن يسوع وطبع في جسده تلك العلامة الخارجة التي كانت تميز ابناء شعب الله من سائر الشعوب

وكان الاب ايضاً يعطي اسماً لولده وقت الختان ولكن الله كان سبق وعيّن

ان المولود من مريم يسمى يسوع الذي معناه الله يخلص . لعمري ان في هذا الاسم سرًّا عظيم . نعم شاع هذا الاسم بين شعب اسرائيل بعد ايام يسوع ولكن أليس من الجنون الفاحش ان يعطى هذا الاسم بقصد الى ولد نجار حقير في اليوم الثامن من عمره . فما عساه كان يرجى من مثل هذا الصبي الناصري في امر خلاص العالم المهم . وفوق ذلك لما دون الانجيليون معنى هذا الاسم اين كانت مفاعيل الخلاص التي كان العالم يتوقعها من ابن مريم لعمري ان في ذلك نبوة واضحة مخبرةً بوقوع شيء قبل حدوثه ولم تتم بنوع جلي الا في مستقبل الاجيال . وهل تمت حسب ما أُخبر بها من قبل . نعم . وكل من طالع التواريخ عرف ان يسوع خلص العالم امس ويخلصه الآن وسيخلصه لا محالة في العصور المقبلة

وقد لُقب يسوع بلقب المسيح اي الممسوح منذ القدم . فيسوع كان اسم الشخص والمسيح اسم عمله الرسمي . يسوع يدل على الشخص المفرد التاريخي والمسيح لقب شرف . وقد جمعت العادة الاسمين معًا وجعلتهما غير منفصلين وقد علَّم بولس الرسول المسيحيين الاولين ان يستعملوهما معًا في الكلام الدارج . ومنذ تلك الايام الى يومنا هذا كم نطق بهما من البشر في الفرح والحزن . في الايمان والرجاء . امام المضطهدين والمحاكم . في المشاهد والمعارك على كوم الحطب المجموعة لحريقهم . في التجارب في السر وفي العلانية . في السرَّاء والضرَّاء حتى يمكن القول انه لا اسم تحت السماء غير اسم يسوع المسيح التمت اليه الانفس الفاضلة والابية والغيورة فصار رمزًا اليها وواسطة للخلاص

§

دعوة المجوس

لقد ابتدأ يسوع عمل الخلاص منذ المهد فدعا اليه اولاً عامة الشعب والاميين الفقراء بشخص الرعاة المساكين كما سبق الكلام لان هولاء هم عرضة

للمحن ومشقات الدهر اكثر من غيرهم وبالنتيجة هم احوج الى الخلاص ممن سواهم. ثم دعا اليه في شخص المجوس خاصةً البشر والعلماء اصحاب المنزلة الكبرى والنفوذ العظيم في افكار معاصريهم. وكان يوجد في بلاد الكلدانيين وطن ابرهيم بضعة رجال فلاسفة دأبهم البحث عن الحقيقة في درس الطبيعة وامعان النظر في التنقيب عن ايجاد الاسباب للحوادث الظاهرة. فالى اولئك الكهنة المتنورين اشار يسوع ايضاً بالمجيء اليه. وكما ارسل ملاكه ليدعو الرعاة في بيت لحم مخاطباً اياهم بكلام بشري هكذا جعل النجم يخاطب المجوس بكلام السماء. ولما كان هولاء كهنة زورواستر يراقبون حركة النجوم و يدرسون تاريخ الطبيعة بما لهذه العلوم من العلاقة مع لاهوت مذهبهم. وقد دعوا ملوكاً عن جهل او فساحةٍ في الكلام لانهم لم يكونوا سوى كهنة محبي الحكمة ولم يلبسوا على رؤسهم غير تيجان العلم والدين. لم يجد الرب صعوبة في دعوتهم اليه لان ذكر العذراء وتجديد البشرية بواسطة سوذيه العظيم المقوّض اركان الشر كان مكرراً مراراً عديدة في كتب ديانة زورواستر. ولا شك ان الكتب المقدسة والنبوات المخبرة بمجيء المسيح كانت وقعت وقت سبي بابل بين ايدي اولئك الكهنة الحكماء واطّلعوا عليها وذلك يفسر لنا كيف حوّل اولئك الحكماء العارفون برجاء اسرائيل انظارهم نحو اورشليم عند اول اشارة لحظوها. «يسعى كوكب من يعقوب و يقوم صولجان من اسرائيل ...» (عدد ٢٤ : ١٧)

وظهرت علامة دعوة المجوس في الفلك اي في كتاب مباحثهم الاعتيادي ولم تكن العلامة حادثة فلكية قانونية كالتئام نجمين جمعتها دورتهما الفلكية في نقطة واحدة بنوع انهما ظهرا واحداً بل حادث جديد لم يأتِ له العلم بمثيل وكان يشبه العمود الناري الذي درّب مسير اسرائيل في البرية اكثر من شبهه بنجم خصوصي. وكان ذلك الجسم المضيء يسير قريباً من الافق لينير اقدام المسافرين ويدلهم على المنزل حيث كان يسوع. ولم يتبع في مسيره خطة دوران عالمنا

الفلكي لانه كان يمشي من الشمال الى الجنوب من اورشليم الى بيت لحم . وهل كان ذلك النجم منظورًا من غير المجوس ام لا ؟ تلك مسألة لم يخطر على بال المبشرين حلها لنا لانها بعيدة عن الغاية المقصودة منهم . فمها كان الامر نعلم العلم اليقين انه حالما وقع نظر المجوس على ذلك الضياء العجيب تركوا كل شيء وتمشوا نحو اليهودية قصد ان يفتشوا فيها عن المسيح

ولا غروَ اذا كان تعجبهم عظيماً عندما وصلوا الى اورشليم ووجدوا المدينة غير مكترثة وبعيدة عن الاشتغال بتلك العواطف الدينية التي حملتهم مع كونهم اجانب وكفرة على ترك بلادهم والجولان في بلاد غريبة . فسألوا بحدة : « اين هو المولود ملك اليهود » . وقد ارادوا باطلاق لقب ملك على المسيح ان يُخجلوا شعبه الخاص ويوبخوه على عدم اكتراثه وجهله الغير المعذور . اما هم فكانوا على ثقة من ان ذلك الملك وان ظهر عند اليهود كان مزمعاً ان يمد سلطته الى اقاصي الارض ولم يكونوا هم سوى نوّاب الوثنيين اجمعين

ومن مجرد سؤالهم ظهر انهم كانوا تأكدوا ولادة ذلك الملك ولهذا شفعوه بالسبب قائلين . « فاذّا رأينا نجمه في المشرق فوافينا لنسجد له » . فهذا الكلام من أُناسٍ اشتهروا بالعلم والحكمة كان له وقع عظيم في اورشليم حتى بلغ مسامع الملك هيرودس فاضطرب عند سماعه لاسيما وانه كان امر بقتل اولاده خوفًا من وجود من يزاحمه على العرش . فاخفى ذلك الشيخ الماكر خوفه واضمر الشر اذا تحقق الخبر. فجمع المجلس ورؤساء الكهنة والكتبة اي علماء اسرائيل واستخبرهم اين يولد المسيح فقالوا له : « في بيت لحم اليهودية لانه هكذا كتب بالنبي (ميخا ٥ : ٢) « وانتِ يا بيت لحم ارض يهوذا لستِ الصغيرة في رؤساء يهوذا لانه منكِ يخرج المدبر الذي يرعى شعبي اسرائيل »

ثم دعا هيرودس المجوس لمقابلة خصوصية وبلغهم جواب المجلس له وسألهم عن الوقت الذي ظهر فيه النجم لاول مرة حتى اذا لزمه التخلص فيما بعد من ولد

تسبب حياته خطراً للعرش يكون قد سبق واعدّ الاحتياطات اللازمة لذلك . اما في الوقت الحاضر فاكتفى باظهار عدم المبالاة بكلام المجوس والهزء بما كانوا يرددونه امامه من شرح الادلة الفلكية . وارتأى انه من السياسة وقتئذٍ ان يدع المجوس وشأنهم . والحق يقال ان صنيعه هذا كان احسن طريقة لاطفاء الخبر حاليًا ولاتباع آثار الولد سرًّا عند مسيس الحاجة . فوصى المجوس ان يتابعوا بحثهم عن الصبي وان يأتوه بالخبر الصحيح بعد ان يجدوه لانه كان يريد حسب قوله ان يذهب هو ايضاً الى بيت لحم ليسجد له اي ليقتله

ان مظاهرات هيرودس وعدم اهتمام اعضاء المجلس كانت من شأنها ان تلقي الفشل في قلوب المجوس . علامَ هم الغرباء الاجانب تركوا اوطانهم وعيالهم واسرعوا ليسجدوا الى ملك اليهود واليهود اصحاب المواعيد لا يعبأون بالخبر اذا سمعوه ولا يهتمون ان يخطوا خطوة واحدة ليظهروا له احترامهم ؟ فيا أعجب العجاب . ومع هذا كله لم يتزعزع ايمانهم الحي وعندما تخلصوا من مقابلة هيرودس اسرعوا عند المساء وتأهبوا للمسير تحت جنح الليل . واذا بالنجم قد اشرق عليهم بعد ان كان غاب زمناً عن ابصارهم ليثبّت ايمانهم القوي وظل سائرًا امامهم الى بيت لحم حيث وقف وارسل اشعته حول المنزل الذي كان فيه المولود . فدخل حالاً المجوس ووجدوا الطفل وامه مريم يظللها جمال سماوي فخرّوا ساجدين ليسوع رافعين اليه ما انطوت عليه افئدتهم من الاكرام والاجلال . وفتحوا كنوزهم ووضعوا امام قدميه هداياهم ذهباً ومرًّا ولباناً . هدايا وان تكن مستعملة في الشرق فلا تخلو من الدلالة على انهم ارادوا بها ان يكرموا في يسوع الملكَ والالهَ والانسانَ . ولا ريب ان الاحاديث التي دارت بينهم وبين مريم انارت عقولهم ولاشت كل ما كان امكن ان يبقى من الشك في ضميرهم . ففقهوا حينئذٍ مكر هيرودس الظالم وعرفوا مقاصده الخبيثة بتوصيته لهم ان يرجعوا اليه بعد ان يكونوا وجدوا الصبي موضوع تفتيشهم فعزموا ان يرجعوا

بطريق آخر وشدّد عزمهم هذا ما أُوحي اليهم في الحلم موعزًا اليهم بالعود الى اوطانهم دون ان يعرجوا على المدينة المقدسة . وهكذا صنعوا

فرجع المجوس اذن الى اوطانهم حاملين بشرى الاتحاد والاخاء وانه من الآن فصاعدًا قد زالت الحواجز الفارقة بين اليهودي والوثني واليوناني والبربري وصار الجميع مدعوين ليكونوا شعبًا واحدًا ورعية واحدة لراعٍ واحد

§

تطهير مريم

حسب ناموس موسى ان كل امرأة حبلت فولدت ذكرًا تكون نجسة سبعة ايام لحكم طمثها وفي اليوم الاربعين من ولادتها تأتي الى الهيكل لتطلب تطهيرها . واذ كان الصبي بكرًا يدعى مقدسًا للرب اي مكرّسًا لخدمة العلي

فكما ان الله كان طلب باكورة اثمار الارض والبهائم الاهلية هكذا يطلب الان بكر العائلة ليوطد في قلوب بني اسرائيل سلطته وحق ملكه عليهم . فالبكر كان مخصوصًا به تعالى اكثر من اختصاصه بالأب وخدمة الديانة كانت مختصة بالابكار الاّ ان الشريعة خصصت خدمة الدين باللاويين عوضًا عنهم (العدد ٣ : ١٢ — ١٣) بشرط ان تقدم لله البكور في الهيكل ويقدم بدلاً عن كل نفس منهم خمسة مثاقيل (٧٥ فرنك تقريبًا) فهذه التقدمة كانت رمزًا الى تملك الكاهن الولدَ باسم الرب ولا يرده الى اهله الا بعد تقدمة البدل عنه وهذا كان كافيًا لحفظ حقوق الرب على العائلات عند اليهود

اذن لما تمت ايام تطهير مريم صعدت هي ويسوع تحت حماية يوسف الى الهيكل . صعدت الام لتطهر من نجاستها كما هو مكتوب والابن ليقدَّم الى الرب . لعمري ان تتميم هذه الرتبة لم يكن له محل في الحادث الحاضر . لان مريم كانت بريئة من كل رجس اذ لم تحبل وتلد كبقية النساء وبما ان يسوع كان حقيقة ابن الله وكاهنه الحقيقي لم يكن باحتياج الى ان يكرّس له . على ان مريم فضلت

تتميم الشريعة على عدمه نظراً الى تواضعها ولئلا تُشهر اسرار التجسد قبل اوانها فحضرت الى الهيكل نظير امرأة دنسة ووقفت على الباب حيث رشّها الكاهن بالدم وقدمت كفارةً عنها تقدمة الفقير المحتاج فرخي حمام او زوجي يمام اذ لم يكن في وسعها تقدمة الحمل نظير الاغنياء. وهكذا طهرت شرعاً من وصمة النجاسة التي كانت براءٍ منها

وقُدِّم الصبي ايضاً للرب فكان كالذبيحة امام الهيكل وحلّه الكاهن بعد ان اخذ الرهن عنه خمسة مثاقيل ولا ريب ان الكاهن كان يجهل ان ذلك المقدَّم نفسه لله كان منتخباً لتمثيل البشرية جمعاء وتقديمها لخدمة الله. وان يسوع كان حبراً عمومياً وحده قادراً على اصلاح ذات البين بين السماء والارض وليس في وسع سبط لاوي باجمعه ان يقوم مقامه ولهذا جاء ذلك اليوم ليكرس ذاته ضحية الكهنوت

واوشكت الرتبة ان تنتهي دون ان يحدث ما يرفع ستار التمويه عن وجه الحقيقة. ومسَّ الكهنوتُ القديم البالي المتمسك بترتيبات الفريسيين الفارغة قدوسَ القديسين دون ان يشعر بعظمته. فاوحى الروح القدس الى شخصين بارّين تقيين ان يتكلما بدل الكهنة ويرحبا بمجيء مخلص اسرائيل. وكان في اورشليم رجل اسمه سمعان حذيق تقي وكان من الاسرائيليين الابرار الذين كانوا يأسفون على مخالفات الاسرائيليين للشريعة وخضوعهم لنير عبودية الاجانب وكان يطالب الله غالباً باكمل مواعيده فأوحي اليه سرًّا انه لا يذوق الموت حتى يعاين مسيح الرب. وكان سمعان يسهر بعين لا تعرف الملل لمجيء ولو عن بعد الرسول السماوي الذي طال تجيئه. فبالهام الهي دخل وقتئذٍ الى الهيكل فوجد بكراً أُتي به ليكرَّس للرب. وفي الحال اذ تفرّس بالصبي وامه شعر باختلاج باطني وسأل من اين آتٍ هذا الصبي فقيل له من بيت لحم. بيت لحم منها يخرج المسيح المنتظر وفوقها وقف ذلك النجم العجيب مرشد اقدام

المجوس. فطلب ان يحمل الصبي هنيهةً على يديه لينظره عن قرب وفيما كان يتفرس فيه قال له الروح القدس سرًّا : « ها قد انجزت وعدي فانك حامل مخلص اسرائيل » . وفي الحال تجدد ايمان الشيخ وارتفعت عيناه نحو السماء شاكرًا نعم الرب وتدفق قلبه حمية وانشد : « الآن تطلق عبدك ايها الرب على حسب قولك بسلام . فان عيني ابصرتا خلاصك الذي اعددته امام وجوه الشعوب كلها نورًا ينجلي للامم ومجدًا لشعبك اسرائيل » . وهكذا وجد ذلك الشيخ بالهام الروح القدس العبارات الفصيحة والجمل البليغة ومعاني الانبياء القدماء الدقيقة . يعرف ذاته خادمًا ويعترف بسيادة الرب فحمل ثقل الحياة ما زال يريد الرب ان يحيا حتى يرى ظهور المخلص والآن اذ نظر مرأى العين وسيط الخلاص لليهود والشعوب جميعها يطلب الاعفاء من خدمته ليذهب ويستريح منضمًّا الى آبائه

وكان يوسف ومريم يُنصتان الى كلامه متعجبين . وبعدئذٍ التفت اليهما ذلك الشيخ المكرم وقد احنت ظهره السنين الطوال وباركهما واذ عرف بروح النبوة ان مريم وحدها كانت شريكةَ الدم مع يسوع بينما ان يوسف لم يكن أبًا له الا بالتربية قال لمريم امه : « ها ان هذا قد جُعل لسقوط وقيام كثيرين في اسرائيل وهدفًا للمخالفة . وانتِ سيجوز سيف في نفسك حتى تكشف افكار من قلوب كثيرة » . ولقد تمّ كل ذلك حسب نبوة سمعان الشيخ بنوع يذيب الجماد فسيكون يسوع منذ الشروع بالعمل وابتداء حياته العمومية حجر شك للبعض وسبب نهوض الباقين من غفلة الاثم وينتصب العكران في طريقه فيرتفع على الصليب علامةَ انتقام في اعين المبغضين وحب مفرط في قلوب المصافين . وسيجوز في قلب مريم وهي تحت ذلك الصليب تقاسي عذاب الموت ليس فقط سيف بل سيوف من الحزن . وسيجوز تاثير هذا الحادث المفجع من الشعب اليهودي الناكر الجميل والعاتي الرقبة الى البشرية طرًّا الى قلب ابناء الله اينما كانوا . فنرى في

الوقت الحاضر الشعوب المجموعة حول الصليب بعضها يسقط و بعضها يقوم ولم يزل المسيح في كل عصر ومصر علامة الخلاف للفلسفة والعلم للفصاحة والخطابة للسياسة وللافكار باسرها · فلا يترك للانسان سبيلاً في معرفته الى الوقوف وعدم الاكتراث بل يحرك اعماق القلوب فيظهر ما هي منطوية عليه من الخير او من الشر · فمن ليس معه يكون عليه ومن لا يحبه يبغضه و بالنتيجة لقد تمت نبوة سمعان بالحرف الواحد ونظره خرق حجاب المستقبل حتى كتب تاريخ الحوادث المتعلقة بجربة الانسان قبل وقوعها

وكانت ايضاً في احدى زوايا الهيكل مدة تتميم الرتبة حنة النبية ابنة فنوئيل من سبط اشير · هذه كانت قد تقدمت في الايام كثيراً وكانت قد عاشت مع رجلها سبع سنين بعد بكوريتها ومضى عليها وهي ارملة نحو اربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل متعبدة بالاصوام والصلوات ليلاً ونهاراً والبشير يصفها بالنبية لانها كانت قبلت الهام الروح القدس وكانت تنتظر على الارض جزاء حياة طويلة مملوءة من الفضائل فهذه حضرت ايضاً في تلك الساعة لتعترف للرب وتحدث عنه كل من كان ينتظر خلاص اسرائيل · فالبشير لم ينقل الينا كلام المحبة والسرور الذي فاهت به وقتئذٍ حنة القديسة بل يكتفي بالقول عنها انها مثل سمعان الشيخ شكرت الله على منته العظيمة وكانت تحدث عن المسيح امام كل من كان يتوقع خلاص اسرائيل ولربما بواسطتها وصل الينا خبر تلك الرتبة على النمط الذي ذكرناه

ومهما كان من الامر فان الاخبار التي شاعت في تلك الآونة عن يسوع وتناقلتها السنة الجمهور اخذت من الاهمية مأخذاً عظيماً حتى بلغت الى مسامع هيرودس · فهذا الملك الهرم تذكر وهو على فراش الموت في قصر اريحا ان المجوس لم يرجعوا عليه برجوعهم فاضطربت افكاره وقدّر وجود دسيسة عظيمة عليه في آخر حياته ولا بدع فان الايام الماضية كانت اذاقته من مرارتها ما

جعله عديم الركون كثير الظنون. نعم لم يرهبه الولد في نفسه لكنه خاف من خطر تحزّب الشعب له نظرًا لما كانوا يشيعون عنه وهو في المهد من الحكايات وما كانوا يعلقون عليه من الآمال الوطنية. فهذا الفكر سلب راحته ونبه في قلبه الذي كان يزداد شراسة مع ازدياد العمر وقرب اللحد غريزة الميل الى هرق الدماء. فذلك الشقي من قُدّ قلبه من جلاميد الصخور كان قتل الكهنة وعظماء مملكته وغرّق صهره وذبح اولاده اسكندر وارسطوبولس وانتيبطرس وعمومته وحماه واصدقاءه وحماته الكسندرة وخنق امرأته مريمنا الجميلة رغماً عن حبه المفرط لها. وكل ذلك لم يروِ عطشه لسفك الدماء بل كان يزيده قساوة بربرية. وذكر التاريخ انه افتكر ان يحبس جميع اشراف ورؤساء عيال مملكته في مشهد اريحا ليقتلوا يوم موته لانه كان يقول: «على هذا النمط يوجد اناس يبكون في مأتمي» فلا غرو اذن اذا كنا نراه الان عند اول وسواس يلجأ الى استعمال اقسى الوسائل الدموية. وقد رأى اعتبار الشعب ان هذا الولد الصغير سيكون ملك اسرائيل سبباً كافياً لان يغرّق اطفالهم في نهر من الدماء ويصرّم حبال آمالهم حتى اذا كان وُلد المسيح حقيقة يموت طفلاً ولكي يكون موته اكيداً يقتل جميع الاطفال من سنتين فما دون. لان قتل الطفل موضوع تلك الاقاويل لا يكفي لتسكين الخواطر الوطنية فلربما تنتمي الى غيره ممن ولدوا بالقرب من بيت لحم ولكن اذا قتل جميع الاطفال يخمد هيجان الشعب ويستطيع حينئذٍ ان يقول لليهود: «اما ان مسيحكم لم يولد واذا كان وُلد فقد مات في المهد».

هذه كانت مقاصد ذلك الملك الهرم الذي صيغت جبهته من صفحات الحديد. وللوقت اصدر امرًا بتنفيذ مآربه الاثيمة. على ان الله يستهزئ بسياسة الاشرار ويجعل احكم تدابيرهم تذهب ادراج الرياح. فبعد ان رجعوا من زيارة الهيكل ذهب يوسف بعائلته الى بيت لحم قصد ان يستوطن هناك لان صاحب

الصنعة معاشه من يديه يقيم عادة حيث يجد رزقه . والحال ان كل ما جرى حول يوسف النجار من اخبار الرعاة وزيارة المجوس كان من شانه ان يستميل اليه قلوب الشعب و يوطد آماله بوجود الشغل والبلوغ الى حالة مرضية من سعة العيش وامكان التملك هناك في مدينة اجداده . ومن ثم كان يسهل على مأموري هيرودس الماكر ان يمسكوا الصبي و يجعلوه من عدد الاطفال المقتولين حينئذٍ تراءى ملاك الرب ليوسف في الحلم لان هذا الخادم الامين كان يهدأ اناء الليل ايضاً في ثقل المسئولية التي كان يحملها وناداه في الحلم قائلاً « قم فخذ الصبيّ وامه واهرب الى مصر وكن هناك حتى اقول لك فان هيرودس مزمع ان يطلب الصبي ليهلكه » . ففي الحال نهض يوسف واخذ الصبي وامه ليلاً وانصرف الى مصر

§

الهرب الى مصر

وكانت حدود مصر لا تبعد عن بيت لحم سوى مسافة يومين . وسفر اسبوع واحد كان كافياً لبلوغ العائلة المقدسة الى قلب تلك البلاد الغنية ملجإ من اناخ عليهم الدهر بكلكله وعضهم الجوع بنابه الحادّ وثقلت عليهم يد الظلام من اهل فلسطين . ومع تواتر الايام كان أُلف مهاجرو اليهود مستعمرة مهمة ليس فقط في الاسكندرية حيث كانوا ثلث الاهالي بل في مدينة هليوبولي ايضاً حيث كانوا تألبوا عصابات عصابات حسب صنائعهم المتنوعة . فانحاز يوسف عند وصوله الى احدى تلك العصابات من العملة كي يجد حالاً معاش عائلته . وذهب البعض الى ان هدايا المجوس كانت كافية لمصرف العائلة وقت السفر . وحسب الاخبار والاقاويل الشائعة ان العائلة كانت في غنىً عن كل ذلك لانه طول الطريق كان النخل ينحني عنوًا فوق المسافرين الفخام مقدماً لهم اثماره الشهية . وكانت النمورة والوحوش الضارية تأتي فتسجد لابن الله والورد يزهر تحت خطواته

وفي تلك الاثناء كانت اوامر هيرودس تتم بكل دقة. وكان يوجد في بيت لحم التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة الاف نفس من العشرين الى الثلاثين طفلاً من سنتين فما دون ولم يسلم واحد منهم. ولكن هل ذُبحوا جميعاً في وقت واحد وفي محل واحد او بالتتابع و بوسائط ومحلات مختلفة؟ لا نعلم ولربما ان هيرودس الماكر عرف ان يخفي اليد الاثيمة التي كانت تذهب بحياة اولئك الاطفال الابرياء وكانت نفس ذلك العاتي تتملص وتتنفر من جسده الخبيث عقيب مرض مرعب. فكانت قرحة خبيثة ترعى احشاءه المنتنة والدود ينهش لحمه وهو حي. وفضلاً عن هذه الآلام الجسدية كان يقاسي عذاب وخز الضمير وكل الشرور التي ارتكبها مدة حياته كانت تتسابق تترى الى ذهنه وتزيد في عذابه اضعافاً. اخيرًا انشبت فيه المنية اظفارها بعد خمسة ايام لقتله ابنه انتيبطرس وهو في السبعين من عمره بعد أن حكم اربعاً وثلاثين سنة

§

كيفية معيشة يسوع في الناصرة الى سن الثلاثين

فلما مات هيرودس تراءى ملاك الرب ليوسف في الحلم وهو في مصر واعلمه بموت هيرودس طالب نفس الصبي ومن ثم صار ممكناً له ان يرجع الى وطنه. ففي الحال قام يوسف واخذ الصبي وامه وجاء الى ارض اسرائيل واذ دخل حدود فلسطين عرف ان اركيلاوس قد ملك مكان ابيه فخاف ان يذهب الى هناك لان هذا الملك افتتح حكمه بقتل ثلاثة الاف رجل من رعاياه. على ان هيرودس انتيباس الذي حكم الجليل كان بعكس ذلك حليماً رأوفاً نحو شعبه. فرجع يوسف عن قصده الاول بالاقامة في بيت لحم وقصد الناصرة حيث توطن مع عائلته. وعلى هذا المنوال حمى الله ابنه في ذهابه وايابه ليس فقط من شرّ المضطهدين الاشرار بل من صداقة واكرام محبيه الغير المرتبة. فهربه الفجائي من غضب هيرودس الى مصر وبعده عن المحل الذي تمت فيه تلك

المعجزات جعل الرعاة ينسون تراتيل الملائكة وحمل الانفس الصالحة على الريب في كون الذي يخاف من غضب ملك ترابي هو الاله المنتظر · لان الايمان يكتسب بصعوبة لكنه يذهب بسرعة وتلك الآيات السماوية امست بعد قليل في عقول الكثير ين اضغاث احلام · مات سمعان الشيخ وحنة النبية ولم يرث احد ايمانهما الحار ودُفن بدفنهما ذكر يسوع في بيت لحم واليهودية وصارت الناصرة المدينة الحقيرة من حيث لايخرج شيء فيه صلاح موطناً ليسوع الى عمر الثلاثين سنة

والآن يتعزّى قلب الزائر المسيحي عند ما يرى في وسط الخراب الذي يغطي الاراضي المقدسة بلدة المخلص لم تزل عامرة مأهولة ولم تندرس آثار الناصرة كما اندرست كفرناحوم وغيرها من المدن العامرة بسبب التقلبات التي طرأت على تلك البلاد · لعمري ان مدينة الناصرة هي اليوم كما كانت في غابر الايام ولا بدع فان بعدها عن الطرق المطروقة والمدن العظيمة قد حماها من طوارق الحدثان · فلم تزل في موقعها الجميل حيث كانت ايام يسوع المسيح تنقضي في تلك الارض الواسعة في وسط الجبال المشرفة على مرج اسدريلون · هناك ترى في سفح تل صغير بيوتها المبنية من الحجر الابيض مرتفعة بين الصبير والزيتون والتين والسرو والليمون والدفلى · وكل عمارها يظهر حديث البنيان لكنه على الهيئة القديمة مربع الشكل عليه درج خارجي وسقف من التراب الممزوج دلغاناً وله طابق علوي قليل النوافذ · اسواقها غير نظيفة و بدون ترتيب يحيطها من الجانبين بعض من الحوانيت لحدادة وندف القنب والنجارة وكل ذلك على الطرز القديم ولم تزل الآلات عينها تستعمل منذ الفي سنة ويُخيَّل للناظر الى تلك الحوانيت انه في ايام يوسف النجار و ينسى ما مرَّ من الاجيال الطوال · عند ما يرى جميع اعضاء العائلة تطلع عند المساء الى السطح الى الصلاة او السهر يقول في ذاته : هكذا كان يصنع يوسف ومريم من قبل · وعند ما يسرح طائر

الطرف في سفح ذلك التل المبنية عليه المدينة ويرى الاولاد يلعبون ويمرحون وهم لابسون قمصان الصوف او الشيت الملونة يتفكر ان يسوع كان يلعب مثلهم على الصخور عينها. وعند ما ينظر وقت الغروب بنات ونساء الناصرة ذاهبات الى العين القديمة زرافات زرافات ليملأن جرارهن يخال انه ينظر بينهن عذراء يهوذا

وقد حاولنا مراراً ان نمثل الحالة والهيئة التي عاش فيهما يسوع ثلاثين سنة في الناصرة بواسطة ملاحظاتنا حالة ومعيشة العملة في الوقت الحاضر لان الحاضر في هذه الديار التي لم يعترها تغيير كما ذكرنا ينبيء جلياً عن الماضي. والحال ان من لاحظ ان حانوت النجار ينفتح عادة على السوق من الامام ويمتد الى الداخل بشكل انبوب غالباً معقود بحجر وخلف الباب يرى بعض الآلات من الطرز القديم معلقة في الحائط او مجموعة في صندوق غير محكم الغلق قد اخذ منه القدم النصيب الوافر وهيئة الكل تشير ان حرفة النجارة لم تخط خطوة الى قدام بل هي كما كانت منذ عهد بعيد. ويشاهد قطعاً من الجميز او الارز مرمية هنا وهناك في ارض الحانوت مع بعض آلات الحراثة واحياناً يرى في آخر الدكان بعض حاجات المطبخ يستعملها النجار عند الحاجة اذا كان يرقد في حانوته لان العامل في غالب الاحيان يفضل الرقاد خارج حانوته وهاك كيفية معيشته هناك: عند المساء اذا صعدت الى الدرج الخارجي المؤدي الى السطح ترى اكبر اولاد صاحب المهنة جالسين امام موقدة مؤلفة من ثلاثة حجار موضوعة في الفلاء قرب الحائط وفوقها قدر قد اسود دائرها من الدخان المتصاعد من النار. ثم تأتي امراة تلوح على محياها البسام ملامح الطهر وسلامة القلب هذه هي ام العائلة. ولقد وسمها الدين المسيحي بالوداعة وسماً لاينزع عنها يذكرك مرآها العذب ونظرها المنخفض بمريم العذراء. وها هي راجعة من العين حاملة الجرة على كتفها او على راسها لتسقي اولادها وزوجها ماء بارداً على العشاء.

وعند وصولها تجيل نظرها لترى اذا كان كل شيء باقياً حسب ما تركته واول ما تهتم به ان تفرش الحصير على السطح حيث يجلس الجميع وقت العشاء عند الغسق . واذا بالطفل يدعوها اليه من المهد بصراخه فحينئذ تسرع اليه وتركع على ركبتيها بحذاء السرير وترضعه لبنها بحنو والدي لا يوصف . وفيما هم على تلك الحال واذا بالاب يرجع من حانوته مبتسم الثغر منشرح الصدر فينسى كل تعب النهار عندما يرى اولاده وامرأته ينتظرون قدومه بفروغ صبر

هكذا كانت عيشة العائلة المقدسة . وبعد ان ارضعت مريم الطفل يسوع مدة سنتين من لبنها الطاهر فطمته فاجتمع اليها حسب عادة اليهود جيرانها وانسباؤها ليهنئوها . وكان يبقى الولد شرعاً تحت ولاية امه خمس سنين وبعدئذٍ يصير الاب يعتني بتربيته فيعلمه شريعة الله ويمرّنه على المهنة التي يتعاطاها . ففي هذا العمر اذن دخل يسوع لاول مرة الى حانوت يوسف ابيه ليتعلم مهنته . وكم يلذ لنا ان نتامله بعين الايمان يقدّم الى مربيه يد المساعدة في اشغاله . فباي انتباه واحترام كان يسمع تعليمات يوسف وباي لطف ولياقة كان يقدم له مطاليبه ثم باي عيون مملوءة من الحب والحنو كان يوسف ومريم يراقبان حركات يسوع وهما اللذان كانا قد عرفا عنه كل الخبر

واذا كان صموئيل وسليمان قد درسا الشريعة على اساتذة كرام فان يسوع لم يأخذها لا عن أستاذ ماهر ولا عن معلم مكتب صغير ولهذا كان اندهاش اهل الناصرة عظيماً لما سمعوه يقرأ ويفسر الكتاب كانه قضى حياته في درس الشريعة . ولاريب عندنا نحن المسيحيين فيما يرتئيه الانجيليون اي انه تعلم كل ذلك من ذاته ولا غرو فتلك نتيجة طبيعية عن الايمان بالتجسد الالهي وبيانها سهل لانه اذا كان كلمة الله صار انساناً حقيقةً في يسوع المسيح فمن الضرورة ان يكون قد استقر فيه بمثابة نبراس تستنير به دائماً نفسه البشرية لتهدي البشر الى ميناء الخلاص وتوقي خطواتهم من العثرات . ولكن كيف كان تأثير الشخص

الالهي في طبيعة المسيح البشرية ؟ هذا هو سر الاتحاد الاقنومي في يسوع المسيح. وهنا تقوم اعظم المشاكل في وجه اللاهوتي الذي يخوض في البحث عن حل هذه المسألة. فاذا لم يحسب ان يسوع المسيح كان انساناً كاملاً كما كان الهاً كاملاً او كان الهاً كاملاً كما كان انساناً كاملاً فانه يُهمل جزءاً جوهرياً من جزءي شخصه الالهي و بالفعل نفسه يثلم وجود التجسد الحقيقي بمقتضى الايمان الكاثوليكي. فالطريق الامينة في هذا البحث ان يتمسك المسيحي بهذا الاعتقاد وهو ان في يسوع كمال الطبيعتين الالهية والبشرية معاً حقيقة وليس على سبيل المجاز او الظاهر فقط. فكان الهاً نظير ابيه السماوي وانساناً مثلنا في ما خلا الخطية. وكما ان الطبيعة الالهية لم تصغر وتنحطّ باتحادها مع الطبيعة البشرية هكذا هذه لم تستغرقها الطبيعة الالهية باتحادها بها بل كملتها فقط. واستمرّت معها بوجود الاتحاد الاقنومي كاملة غير انها اكتسبت من ذلك الامتزاج العصمة عن الخطا والضلال ولكنها بقيت بشرية نظير طبيعتنا لتصير انموذجاً لنا يمكننا الاقتداء به.

فطبقاً لهذه المبادي اللاهوتية الراهنة يقول القديس لوقا البشير مشيراً الى تقدم الولد الالهي « انه كان ينمو بالحكمة امام الله والناس ». وكأنه يقول ان الولد مع علمه الغير المحدود الذي يشارك به اباه لم يتخذ ولم يظهر منه الا ما مست الحاجة اليه وانطبق على شرائع نموه الطبيعي. ولهذا لا يوجد في شخصه شيء موضوع في غير محله. فانه لما كان ولداً صغير السن لم يتكلم ولم يفعل نظير كهل كبير بل اكتفى ان يكون ولداً كاملاً في الصفات التي توافق عمره لان اظهار معارف تفوق طاقة سنه كان شانه ان يذهل و يخيف لاان يجمل و يحسن. ولهذا كان يتقدم ببيان كنوز العلم الموجودة فيه مع تقدم السنين ونسبة معاطاته مع البشر وتحنكه في معارك الدهر. وهكذا كان علمه البشري يزهو ويزهر رويداً رويداً طبقاً لارادة ابيه السماوي. ولعمري انه في صدق امتثاله لمشورات الطبيعة

الالهية المستقرة فيه كان قائماً كل استحقاق طبيعته البشرية وفي هذا يقدّم ذاته لنا انموذجاً عملياً نقتدي به نحن المنتمين اليه.

ولقد اخطأ كتبة الاناجيل المحرّفة بتشخيصه لنا متصفاً بخلال تفوق طاقة سنه كصنع العجائب الباهرة منذ نعومة اظفاره لانهم بذلك جعلوه شخصاً هيوليًا غريباً عن طبعنا وليس في وسعنا الاقتداء به. اما صاحب الانجيل الحقيقي والبشير الطاهر فقد صوّره لعيوننا كما هو في الحقيقة بقوله: «كان خاضعاً لامه ولمار يوسف». وكان خضوعه هذا واحتشامه وتقواه داعياً لاستمالة السماء والارض اليه. وقد قدّس هذا العمر المحبوب وصار نموذجاً للاحداث بواسطة استعماله الفضائل التي تليق بهذه السن

كل يعلم ان يسوع في عمر الاثنتي عشرة سنة دخل في دور جديد سواء كان بالنظر الى حياته الادبية او بالنظر الى حياته الطبيعية. ففي ذلك الحين اظهر يسوع لاول مرة امام الجمهور ما كانت تنطوي عليه نفسه من الكمال ورفعة الافكار وعمق العواطف الدينية فكان اعلان باطنه الفجائي رابطاً عجيباً بين مشاهد ولادته وعماده المجيدة و بين ما عسى ان يكون منه في المستقبل القريب و برهن لكل ذي بصيرة ان النيران الالهية وان كانت الى ذلك الوقت مكنونة تحت الرماد فلم تزل مشتعلةً في قلب ابن مريم البتول

وكان كل رب بيت من اليهود يصعد كل سنة الى اورشليم في مدة الاعياد الفصحية والعنصرة والمظال ليحضر الاحتفالات الدينية في الهيكل. وكان ملتزماً بذلك منذ السنة الثانية عشرة من عمره اي من سن البلوغ. اما النساء فكنّ معتقات من الزام هذه الوصية. ولكن التقيات منهنّ كنّ يذهبن يسجدن للرب في المدينة المقدسة مع رجالهنّ. فصعد اذن يسوع مع يوسف ابيه لانه اصبح ابن الشريعة ورافقتهما مريم في هذه الزيارة لانه كان عذباً لديها جداً ان تشارك ولدها في زيارته هذه الى هيكل الرب. وقضى يسوع سبعة ايام العيد

بانشغاف مقدس وكانت نفسه تتأثر بلين من عذوبة التأملات في عظائم الدين اليهودي. ومن الرموز الماضية والحاضرة كانت افكاره تنتقل وتحوم نظير النسر فوق الحقيقة الواقعية المزمعة ان تتم قريباً. ولما آن وقت الرحيل ومغادرة ذلك المحل المحبوب منه شعر ان قلبه يتفطر من كثرة الحزن. وفيما كان ابواه يتأهبان للرجوع نحو الجليل مع رفاقهما توجه هو سراً نحو الهيكل وبقي هناك يذيع الحقيقة التي اتى لاعلانها على الارض

ومن المعلوم ان عدد الزوار كان كثيراً يؤمون اورشليم ويرجعون الى اوطانهم زرافات زرافات منهم مشاة ومنهم ركبان على الابل والاتن وفي الطريق كانوا ينقسمون فِرَقاً فِرَقاً الرجال الى الامام والنساء والاولاد كل فئة على حدة نحو الوراء وجميعهم يرتلون الزبور ليقدسوا زيارتهم. وكان يسوع محبوباً عند الجميع وكلهم يودّون ان يسمعوا كلامه العذب فكان في ذهابه الى اورشليم ينتقل من جماعة الى اخرى ليرضي الجميع وهذا يفسر لنا كيف ان ابويه سافرا يوماً كاملاً دون ان يعرفا مع اي فئة هو ومع ذلك كانا مستريحي البال من جهته لاعتقادهما انهُ يكون مسروراً اينما وُجد نظراً لمعرفتهما اعزاز الجميع لهُ فان يوسف كان ماشياً مع الرجال ومريم برفقة النساء وعليه فيوسف كان يقدّر ان الولد مع امه وهذه تظنه مع ابيه. وفوق كل ذلك ان يسوع كان صار فتياً وبالنتيجة قادراً على ان يدبر نفسه. ولما وصلوا عند المساء الى بيرون حسب افادة تقليد قديم واجتمعوا جماهير جماهير قبل ان يناموا احصوا بعضهم فلم يجدوا يسوع بينهم. فمن يقدر ان يصف اضطراب يوسف ومريم على فقد يسوع. فلم يعرفا النوم تلك الليلة وقبل الفجر قفلا راجعين الى اورشليم حيث وصلا بعد الغروب فباتا تلك الليلة وفي الصباح اخذا في البحث والتفتيش عمن كان هادىء الجأش مستريح البال ولم يجداه بسبب كثرة الجموع الا ثالث يوم جالساً في احد المجامع الثلاثة التي كان يجتمع فيها العلماء ليفسروا الشريعة للشعب ولربما في

المحل المدعو الحجارة المنحوتة . فوجداه اذًا جالساً بين العلماء ولكن في محل الحضور وليس على كراسي العلماء . وقد تلمذ يسوع ثلاثة ايام عند علماء الشريعة فادهشهم توقد ذهنه وكدليل على سرورهم قد خصصوا لهُ محلاً بين الحضور واضحى مطمح نظر الكل . وكان تعليم الربانيين بالسؤال والجواب . وهذا النسق ذاته يمشي عليه علماء اليهود في كل اورشليم الى يومنا . فانهم يلقون السؤالات على الحضور ومتى عجزوا عن حلها يأخذون هم في تفسيرها والجواب عليها . واحياناً يطلبون من الغير ان يقترحوا عليهم بعض مسائل ليظهروا معرفتهم لكُنهِ الشريعة . فلما شرع يسوع في الكلام تعجب الجمهور من وضوح وسداد جواباته وتوقيع سؤالاته . ولا بدع اذا دهش مستحضروا الطقوس اليهودية من كلام الحكمة البارز من فم ذلك الفتى الناصري

ولا ريب في ان يوسف ومريم كانا عارفين ماذا كان ذلك الولد المسلَّم لهما ومع ذلك كانا قد تعودا ان ينظراه طائعاً محتشماً متواضعاً خجولاً ولهذا عند ما وجداه في تلك الحالة يجادل العلماء بهتا . فيوسف بقي متحيرًا صامتاً لكونه لم يكن ابًا حقيقياً بل مربياً ليسوع اما مريم فلم تتمالك ان تؤنبه بعذوبة ولين والديّ وكأنها كانت تريد ان تعتذر عن سهوها الوقتي عن ولدها فقالت له «يا ابني لمَ صنعت بنا هكذا ها ان اباك وانا كنا نطلبك متوجعين» . فلو كان قلب الام يستعمل دائمًا القياس المنطقي عند ابراز عواطفه لكنا نخطئ . اشتغال بال مريم على ولدها لانها كانت على يقين بان ولدًا مثل ابنها لا يضيع . غير ان شواعر الحنو الوالدي تسبق غالبًا حكم العقل . ولهذا يذكّر يسوع امه بلياقة ان قلقها ليس بمحله قائلاً : «لماذا تطلبانني الم تعلما انه ينبغي ان اكون فيما هو لأبي» . فهذه اول كلمة وصلت الينا من الكلام الذي نطق به المسيح . وهي مع ايجازها تعلن لنا ماهية نفس ذلك الغلام الذي لا يعرف ابًا حقيقياً غير الله ولا شغلاً لائقاً به غير شغل الله ولا محلاً يجب ان يُسأل عنه فيه سوى بيت الله . وبالنتيجة فان

هذه العبارة مختصر الانجيل اذ لا تبرهن فقط واقعية التجسد الالهي بل تبين موضوعه الخاص وغايته القصوى اعني انتشار وتوطيد ملكوت الله على الارض اما يوسف ومريم فلم يفهما وقتئذٍ مؤدى الكلام الذي قاله لهما غير ان مريم حفظته في قلبها وتعجبت بعدئذٍ اذ جاءت الحوادث بنوع عجيب مصداقاً بصدع رداء الشك في حصوله واقعياً

ثم نزل يسوع مثال الخضوع مع ابويه الى الناصرة وكان « يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة» وهذه هي الكلمة الوحيدة في الانجيل كله التي تفيدنا عن نموه المادي وتفهمنا ان الولد اضحى فتياً وتعاطى مهنة ابيه بالتربية وكانت النجارة في اغلب الظن . ومن ثم استمرّ يسوع مدة ثماني عشرة سنة يتعاطى صنعة النجارة و يصنع ما يصنعه اليوم نجارو الناصرة من عمل ابواب وموائد وصناديق وما شاكل ذلك من ادوات البيوت والحراثة . وكان يسوع لا يمتهن هذه المهنة لاجل تضييع الوقت او التسلية او لاجل كسب المعاش فقط بل كان منصبًّا عليها مثل ابيه حابساً جميع اوقاته للعمل بها ليقاوم كبرياء البشر الذين يعتبرون اصحاب المهن والصنائع من طبقة سافلة بين درجات الحياة الاجتماعية . واراد بعمله هذا ان يبين ان الشغل مهما كان دنياً ليس بعيب على الرجل ولا يحط بمقام نفس ابية . لعمري ان السواد الاعظم من الناس مضطرون بحكم الضرورة الى استعمال الحرف والاشغال اليدوية وهل يحط بشرف الانسان تتميم عمل ملزوم به بحكم العناية الالهية ؟ كلا بل في الانصباب عليه يظهر المرء علو همة ونشاطاً وفي النجاح فيه بنشر ما تنطوي عليه طبيعته من ثروة التفنن في الشغل . وكما ان الفقر ليس رذيلة بل احياناً يساعد الفضيلة هكذا الشغل . على ان الشقاء او الحاجة التي هي ثمرة الاثم والاسراف او نتيجة عدم الاهلية فهذه وحدها تعدّ ذلاً وحقارة في اعين البشر والحق . ولهذا لم يخجل يسوع بان يظهر فقيراً ليثبت ان المال والشرف ليسا ضروريين لسعادة العيش ونفوذ كلمة المرء وتأثيرها على افكار

معاصريه. فمثله مع مسكنته أثّر بالانسانية اعظم تأثير. وفهم البشر كيف ان الفقر يأتلف مع السعادة والمجد وليس في الشغل شيء معيب بحق الانسان وحاطّ بشانه منذ رأوا مصلح البشرية ماسكاً بيده القدوم والمنشار وقد بلل عرقه ثرى محل عمله

غير ان العقل يقف متحيرًا عند هذه المدة من حياة المخلص اي من السنة الثانية عشرة من عمره الى ابتداء حياته العمومية. فلا شك انه كان عالماً لماذا اتى الى العالم ومع هذا كيف قضى ثماني عشرة سنة من عمره صامتاً وترك زهرة شبابه وربيع حياته مع ما فيه من فيضان الحياة دون ان يخرج في شيء عن عادة جمهور عامة الناس كانه خامل العزيمة بنوع ان معاشريه ومخالطيه لم يشعروا في كل تلك المدة بما كان عليه من علو الهمة وسمو المدارك ورفعة الطبع بينما انه كان قادرًا ان يغنينا اثناء تلك المدة بالتعاليم المفيدة والنصائح النافعة

وبما ان الاناجيل لا تذكر لنا شيئاً عن حياة يسوع في الحقبة المذكورة غير ما المعنا اليه من قول لوقا البشير صار علينا ان نستدل من تلك الكلمات الوجيزة على كل ما يتعلق بتقدمه ادبياً ومادياً . وعليه نعلم انه كان في كل تلك المدة خاضعاً الخضوع التام الى مريم والى القديس يوسف ونستدل ان يوسف انتقل الى رحمة الله قبل ابتداء حياة يسوع العمومية ببضع سنين اولاً لاننا لا نرى له ذكرًا في احدى حوادث حياة يسوع العمومية وثانياً لان الناصريين يدعون يسوع في ابتداء حياته العمومية « النجار ابن مريم » وحسب ظاهر الحال ان يسوع خلفه في حرفته وكان يعول امه مريم بعرق جبينه

ولا يبعد ان العائلة المقدسة بعد فقد راسها انتقلت ونزلت في بيت كلاوبا اخي يوسف ومن هذا تأتى تسمية اولاد وبنات كلاوبا اخوة يسوع وفضلاً عن ذلك ان الانجيل المقدس يخبرنا ان اولاد هذه العائلة يعقوب و يوسى ويهوذا وسمعان لم يسرعوا الى تصديق ارسالية ابن عمهم المجيد. ولم يجد

يسوع بعد فقد يوسف صدًى لافكاره الا قلب مريم فقط فمعها وحدها كان يتحدث عن الماضي والمستقبل وفي قلبها الطاهر زرع اول بذار التبشير. وما خلا هذه المخاطبات الداخلية مع امه كان يسوع يجتهد بتحسين صلاته مع جميع الناس ليستجلب حبهم واعتبارهم كما كان يجتهد بمرضاة ابيه السماوي. ولا بدع ان مالت اليه القلوب لان البشر تميل طبعاً الى الشخص اذا جمع بين حسن الخلق وجمال الخلقة. والحال ان يسوع كان يسحر الالباب برقة مقاله ولين عريكته ولطافة حركاته وعلو مداركه ولا ريب ان جماله الداخلي كان يؤثر في حسن طلعته الخارجية. وتوجد عواطف داخلية لا يمكن النفس اخفاءها عن ذي عينين. وصاحب الاحساسات الرقيقة يفهم غالباً لغة المخلوقات الجامدة ويسمع احاجي تراتيلها العذبة حيث لا صوت. وعليه نحب ان نستحضر يسوع جالساً على التلال المشرفة على الناصرة ويده على ركبته ورأسه على يده غارقاً في بحر التأملات الواسعة بازاء جمال الطبيعة او جاثياً على ركبتيه امام ابيه السماوي ساجداً لالوهيته غير المحدودة. وكل شيء حوله كان يخاطبه بكلام تجهله بقية البشر. الشمس بغيابها وراء الامواج الزرقاء قبالة قم جبل الكرمل والنسيم المقبل من ربى لبنان وطنين البعوضة وتغريد العصفور وحفيف اوراق الشجر وزنبق الوادي ببياض ثوبه وشقائق النعمان بلونها الارجواني. الفراخ في اعشاشها والصبيان في العابهم الزارع الذي يبذر قمحه كل ذلك كان يظهر له مملوءًا من الله. وكان قلبه يمتد ويتسع عند ما يرى في تأملاته هذه الدينية اسم ابيه السماوي مكتوباً على جبين كافة الكائنات. ففي كتاب منظر الكائنات العظيم وجدت نفسه المكتنفة باشعة كلمة الله موضوع علمها البشري. ولكن في اقوال التوراة كان يجد اعظم سلوى. ولا عجب لانه ما تسنى لاحد ان يقرأها كما كان يقرأها يسوع اذ كان يجد ذاته في كل وجه منها وتحت كل عبارة من عبارات الانبياء. فكانت تنجلي له المعاني بضروبها وتنحل المشاكل ويقرب البعيد

ويهون الصعب ويرى فيها ما لا يخطر على قلب بشر . ولهذا اصحاب النقد ينكرون وجود ادنى مشابهة بين تعليم يسوع المسيح وتعاليم الربانيين اي علماء اليهود ويردون زعم القائلين ان تعاليم المسيح لم تكن سوى صدى اقوال اصحاب المذاهب المختلفة في ذلك الوقت . فاي نسبة بين تعليمه ومذهب الفريسيين الجامعين بين الرياء والعنف والمتشبثين بالطقوس الظاهرة فقط . واي شركة له بزعم الصدوقيين الكفرة الماديين الناكرين خلود النفس . واي مشابهة له مع الاثينيين القائلين بمبدا القدر واصحاب التقوى الغير مرتبة . لعمري ان تعليمه خاص بشخصه لا شريك له فيه . وعندما يأتي الوقت ليظهر للناس ما عنده تفيض نفسه بالتعاليم السامية نظير فيضان نبع غزير بعد ان تكون مياهه حُبست زماناً في بطن الارض . يتكلم وكل يفهم مقاله الجامع بين سمو المبادي وسهولة التعبير لان تعليمه موضوع لجميع الشعوب والامم من كبار وصغار واغنياء وفقراء وعلماء وجهلاء . لقد تكلم الفلاسفة لغات عصرهم اما يسوع فيتكلم بلغة ازلية . وتعليمه يكون عجيباً كاعماله

هذا ما نعلمه عن حياة يسوع المسيح الخفية وهو نزر قليل لان اثنين من الانجيليين الاربعة لم يذكرا لنا شيئاً عن حداثته وهما يبتدئان بالكلام عنه من عماده في نهر الاردن فصاعداً

الفصل الخامس

تجربة المسيح الادبية واظهار ذاته رسمياً الى اسرائيل

ذهاب يسوع الى البرية ليتأهب الى الدخول في حياته العمومية — ابليس هو العدو — التجارب الثلاث — اعتراف يوحنا المعمدان ان يسوع هو المسيح

طالع ١ً متى ٤ : ١ — ١١ . ٢ً مرقس ١ : ١ — ١٢ — ١٣ . ٣ً لوقا ٤ : ١ — ١٣ . ٤ً يوحنا ١ : ٢٩ — ٣٤ .

§

ذهاب يسوع الى البرية ليتأهَّب للدخول في حياته العمومية

ايم الحق ان ذلك الصوت الالهي الصارخ على شواطي الاردن « هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرتُ » هو الذي نادى بافتتاح العصر المسيحي . وكأنه كان يقول ليوحنا ها المسيح اقبل عليك بتقديمه الى اسرائيل وليسوع ان قد حضرت ساعة افتتاح حياته العمومية . ومن ثم عوض ان يرجع ذلك الشاب الناصري الى حانوت نجارته ذهب بالهام الروح القدس الى البرية حيث مكث صائماً اربعين يوماً دون ان يتكلم مع احد . وكان يقضي وقته بصلاة الشكر الى ابيه السماوي . و يستعد لتكميل ارساليته .

ومن زار ولو مرة تلك القفار الجرداء المنتشرة في برية يهوذا لا يمكنه ان ينسى تأثير الخوف والكآبة الذي تتركه في النفس هاتيك التلال الرملية والقمم الصخرية تتخللها المسايل الناضبة حيث يملك الموت الصامت وتهلك كل حياة بحرارة الشمس او بريح السموم المحرقة . فانفرد يسوع في احدى هذه المسايل الجافة او في قمة احدى هاتيك الجبال واستسلم بكليته الى الهامات الروح القدس منقطعاً عن العالم الخارجي . وتاهَ هناك متبحرًا بما عساه ان يكون واشتغف بتلك الافكار حتى نسي ان له جسداً يلزم ان يقوته و يحميه من انياب الوحوش الضارية . هكذا وُضع آدم في خلوة ليجرَّب في مروج العالم الاول على ان ذلك المكان لم يكن قفرًا بل فردوساً ومع ذلك وجد فيه ابونا الاول وسيلة للسقوط ونسي ما كان متوجباً عليه نحو الله ونحو ذريته صارفاً اهتمامه الى ارضاء الحواس

الخارجية . اما يسوع فيقضي وقته في التأمل في كمالات ابيه وحسن صلاته معه وبما يقتضيه انهاض البشر من السقطة الاولى . قد اهلكنا ابونا آدم بشراهة الحنك فيخلصنا يسوع بالصوم . آدم اطاع شهوة الجسد فيسوع لا يخضع الاَّ الى حركات الروح التقوية

فايُّ افكار كانت تتسابق الى تلك الروح التقية السامية ؟ وايُّ تراتيل شكر كان يترنم بها ذلك الابن الحبيب نحو الآب الذي مسحه مخلصاً ؟ فلكي نعلم ذلك لا بدَّ لنا من معرفة كُنهِ ذلك الاتحاد التام بين طبعه البشري والاقنوم الالهي . والحال ان ذلك يفوق طاقة عقلنا بدرجات . واذا كانت كلمة واحدة من الله الى قلب صديقٍ ما تجعله يطير فرحاً ويخرج عن دائرة الحس . فباولى حجة يسوع المتحد بالله اتحاداً جوهرياً كان حرياً بان ينسى مطاليب الحياة الارضية ليخصص ذاته للاهتمام بالحياة السماوية . ولا ريب ان نفسه كانت تارةً تشتغل بترانيم الفرح والسرور واخرى تلجأ الى هتاف المحبة . آونة تتلذذ براحة التأمل بالله وطوراً تنشغف باتحادها الجوهري معه تعالى . وعلى هذا النمط كانت تشبع منهُ سبحانه . وكان يسمع يسوع دائماً دعوة ابيه فيجيبهُ دون انقطاع « هاءنذا يا سيد جئت لاصنع مشيئتك »

حينئذٍ انجلت له الحقائق كالشمس وانتصب امامه عمل الخلاص بما فيه من الشقاء والمجد . لان ارادة الله التي اتى لاتمامها لا تشاء موت الخطاة بل ان يتوبوا فيحيوا . فعليه اذن ان يسعى وراء الهالكين ليخلصهم . والحال ان جميع البشر كانوا هالكين وبالنتيجة كان يترتب عليه ان ينفخ فيهم روحاً جديدة ويغير وجه الارض حتى يقلعوا عن الخطية فيصير جميع البشر ابناء ملكوت الله . وكان يلزمه ان يصل الى هذه الغاية دون ان يقوض اركان بقية الممالك الارضية . وعليه فانه يميز ملكه الروحي عن مملكة هذا العالم . فيفوق ملكه ما سواه ويمتد من اقاصي الارض الى اقاصيها ويضم جميع الشعوب والامم تحت شريعته ولا

يكون للمكه انقضاء · ولكن دون الوصول الى ذلك مشاكل ومصاعب · ورأى يسوع العوائق التي تحول دون البلوغ الى مقصده والمصاعب التي يضعها الاشرار في طريقة وقلة امانة وقساوة شعبه · وشعر بما كان ينتظره وراء الاكمة من المرارة والآلام والصلب · وهكذا كان تنتقل نفسه من عذوبة الفرح والابتهاج الى مرارة الخوف الكدر ·

واستمرت الغبطة والقلق والمحبة تتنازع نفس يسوع مدة اربعين يوماً · وكان عدد اربعين عدداً مكرساً عند اليهود : فكان يبقى اربعين يوماً في الهيكل من اراد ان يكفر عن خطاياه او يستغفر الله عن خطايا غيره · وهطلت مياه الطوفان مدة اربعين يوماً تباعاً · وتاه اسرائيل اربعين سنة في البرية كفارةً عن قلة امانته · وحدَّدت الشريعة اربعين ضربة لمعاقبة المجرم على ذنبه · وصام موسى وايليا اربعين يوماً · واستمرت توبة اهل نينوى اربعين يوماً · ولما تمت تلك الايام نحل جسد المسيح وعضه الجوع باسنانه الحادة فخارت قواه وكان ابليس واقفاً له بالمرصاد فانتهز هذه الفرصة ليجرّبه ·

§

ابليس هو العدو

ابليس هو عدو الله وعدو البشر · ومهما كان من امره في الابتداء فانا نجده لاول مرة في الفردوس الارضي يحاول اهلاك الانسان الاول وقد فاز بمرغوبه وها انا نجده الآن يستأنف الكرَّة على الانسان الجديد تابعاً خطته الاولى · ولا يصعب على من شاء المقابلة أن يقف على وجه الشبه بين تجربة ادم الاول وآدم الثاني فتظهر له وحدة الخطة الشيطانية في الحادثين · ففي كليهما يهجم ابليس على المحل الضعيف اعني على الحس والادعاء بالذات والشراهة · تسخطه حكمة تدابير العناية الالهية فيجتهد بمنع تكميل ارادة الله · هذا ما يتوخاه ويقصده دائماً · اما الوسائل التي يتخذها للوصول الى غايته فهي هي ذاتها كل

مرة اراد ان يوجد مقاومين لله تعالى. ومن امعن النظر في التجارب الثلاث التي جرَّب بها يسوع ينقشع له من خلالها انه كان يحاول بها منع عمل المسيح وخلاص البشر. قرَّر الرب باحكامه الثابتة ان عمل المسيح يتم بالكفر بالذات وخيرات الارض وبالايمان والمحبة والقداسة. اما هو فيرغب ان يجعل عمل المسيح عملاً ماديًا ارضيًا اي عمل تساط مرجعه المنافع الشخصية واساسه ارضاء الحواس بالمجد الباطل والعجائب المدهشة كما يتصوره اليهود الى يومنا هذا. ولكن على النجار الناصري وهو على ما كان من القدرة في اصطناع العجائب ان يترك المياه في مجاريها فيصير لا محالة الملك الزمني ايضاً المنتظر من ابناء جلدته.

§

التجارب الثلاث

اما تفاصيل التجارب فقد نقلها الينا الانجيليان متى ولوقا على ابسط اسلوب. فان حالة الجوع المدقع التي اتصل اليها يسوع بعد صيام اربعين يومًا كانت سببًا لتجربة ابليس الاولى. قال ابليس: « ان كنت ابن الله فمر هذه الحجارة ان تصير خبزًا ». من البديهي انه لا يليق بشأن شخص ليس فقط من خاصة الناس بل ابن الله ان يقتصر بنوع المعيشة على ما يكتفي به العامة او ان يقاسي مضض الجوع مَن اذا قال لحجارة البرية ان تصير خبزًا فتكون قيد كلمته. ومثل ابليس نسمع اعوانه الكفرة يقولون ليسوع عند آخر حياته: « ان كنت ابن الله فانزل عن الصليب ». على ان يسوع مع كونه الهًا لم يشأ في الاول كما في الاخر ان يتميز في نوع المعيشة عن كافة الناس. واذا كان بما انه المسيح لا يقبل الالم فكيف اذًا يتم الكفارة عن ذنوب البشر. وهل قائد الجيش لا يتألم بما انه قائد مثل بقية عسكره اذا حكمت الضرورة عليه وعلى لفيف معسكره بالعطش والجوع؟ وعليه فباطلاً يصوِّر ابليس الى يسوع انه ابن الله

وكونه كليّ القدرة على اخماد جوعه . فيكتفي يسوع بالجواب : « مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة من الله »(تثنية ٨ : ٣)

فعبثاً حاول ابليس اخراجه عن الحالة البشرية التي اختارها وبكلمة واحدة يظهر ثباته في تلك الحالة وعوضاً عن ان يستخدم قدرته لمنفعته الخصوصية فضَّل ان يكون انساناً نظير بقية الناس لا رغبة له سوى مرضاة الله الذي صرَّح بكونه ابنه وموضوع مسروره . وفضلاً عن ذلك هل كان ضروريّاً ان يلجأ الى عمل اعجوبة لاجل قليل من الخبز ؟ وهل الانسان لا يحيا الا بالخبز وحده ؟ اليست كلمة الله قوتاً جوهريّاً يشغل الانسان عن اكل الخبز ؟ ولهذا فانه يلقي على الله همه . والعناية التي تعرف ما يحتاج اليه تعوله ولا تترك ذاك الجسد الذي هو جزء جوهري لذلك الناسوت الالهي يهلك بالجوع

ولما رأى الثلاَّب ان قد خابت اماله وحبطت مساعيه ولم يقدر ان ينتصر على يسوع من جهة الحياة المادية غيَّر خطة الكرّ عليه وبادرهُ من حيث يسوع كان يرى ذاته اكثر تحصناً اعني من جهة ثقته بعناية ابيه به . لان الانسان يسيء التصرف غالباً بالصداقة على قدر ما يظن انها مؤلفة العرى بينه وبين صديقه فقد تخلص يسوع من التجربة الاولى نظراً لعظم ثقته بعناية ابيه فابليس الآن يغريه بالتطرف وسوء استعمال هذه الثقة عينها . فاتى به الى اورشليم واقامه على جناح الهيكل ظناً منه ان ذلك الموضع المشرف على كل المدينة كان اوفق محل للتجربة واراهُ انه لو القى بنفسه من ذلك العلو الشاهق الى حضيض الهيكل والى وادي حبرون ونظره الشعب اليهودي محمولاً على اجنحة الملائكة تكون تلك الاعجوبة الباهرة برهاناً قاطعاً في اعين الشعب على انه هو المسيح المنتظر . وقدَّر في فكره ان ما انكره يسوع عليه من صنع اعجوبة اول مرة يبين له بها انه ابن الله بعملهِ الآن امام اسرائيل الذي ينتظر مسيحه . فقال له المجرب : « ان كنتَ ابن الله فالقِ بنفسك من ههنا الى اسفل » ان هذه التجربة هي

غريبة في حد ذاتها ولكن بما ان يسوع قد اتخذ شريعة الله دستوراً لاعماله كلها اسند المجرّب ما عرضه عليه الى الكتاب قائلاً « لانه مكتوب (مزمور ٩٠ :١١) انه يوصي ملائكته بك لتحفظك وانها تحملك على ايديها لئلاً تصدم بحجر رجلك » . وكأنه يقول اذا كان الكتاب يعد الابرار بهذه المساعدة فكم بالحري يصدق ذلك الوعد بالنظر الى زعيمهم وسيدهم . واذا كان الرب يعتني هكذا باصفيائه فباولى حجّة بابنه الحبيب . وهنا يجمل بنا ان ننبه القارئ على ان المجرب الماكر لم يورد حرفية الكتاب بل ترك عمداً من كلام الكتاب ما يوافقه لانّ الله في المحل المذكور يوصي ملائكته بالصديق ليحفظوه في جميع طرقه والحال ان الوهدة التي يطلب من يسوع ان يلقي نفسه فيها ليست بطريق فلا يجوز ليسوع ان يلقي نفسه فيها دون ايعاز من ابيه ولو صنع غير ذلك لكان ادعاء منه واتكالاً باطلاً على مساعدة ابيه ولهذا فان يسوع يُفهم مفسر الشريعة الجديد بقوله «قد قيل ايضاً لا تجرب الرب الهك » (تثنية الاشتراع ٤ :١٦) فهذا الجواب الوجيز الذي تشتم منه رائحة الغضب لم يقنع ابليس بالصمت بل بادره ثالثةً وخال من رفض يسوع لصنيع العجائب ان ذلك لم يكن منه الاّ عن تقصير وعجز فشكّ بقدرته اذ رأى منه الضعف فعاد يجربه مثل انسان فاصعده الى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك الارض في لمحة من الزمان وقال : « اعطيك جميع سلطان هذه الممالك مع مجدها لانها قد دُفعت اليّ فانا اعطيها لمن اشاء . فان سجدت امامي يكون لك ذلك جميعه » فيظهر من كلام ابليس انه لا يدعي السلطة المطلقة على ممالك الارض بل يقرّ ان سلطته ثنوية وذلك يكفي كي يستطيع ان يولي عليها من يشاء بشرط ان يكون خاضعاً له . وكان يريد ان يتخلى عنها الى يسوع على شرط ان يصير هذا آلةً بين يديه على الارض وذلك جلّ مقصوده وغاية ما يتمناه . ولكن ليس بصحيح ان ابليس ينوب عن الله على الارض وحكمه فيها ليس الاّ اختلاساً وسرقة وقد اتى يسوع

الى العالم ليس ليكون خلفاً له في الملك على الارض بل انما جاء ليهدم ملك ابليس ويقوّض اركانه ولهذا يتخذ الوسائل المناقضة لتدابير الشيطان · ابليس يقدم المجد والعظمة ويسوع يطلب الذل والحقارة · ابليس يقترح عليه الغنى والافراح ويسوع يريد الفقر والعذاب · ذاك يحاول ان يبني ملكوت المسيح على اساس القوة والظلم وهذا يشيده على الضعف والرأفة · حينئذٍ انتهره يسوع قائلاً « اذهب ياشيطان فانه قد كتب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد (تثنية الاشتراع ٦ : ١٣) من المحال ان يُغش ابن الله ببهرجة كاذبة ولا تسطو على قلبه الآمال الفارغة نعم ستثقل عليه يد سلاطين هذا العالم ويوصلونه حتى الى الاستشهاد والصلب ولكن سيخرج من القبر منتصرًا ظافرًا على حين كان يُخيَّل لهم انهم استراحوا منه وابادوه ويعلن امام الكون اجمع ان الغلبة في كل حال للرب ويستمر الى الابد رغماً عنهم ملك العالم الحقيقي ومقوض اركان الجحيم

فانتصارات يسوع الثلاثة قد عوضت عن الانكسار الذي لحق بالانسانية في الفردوس الارضي فتكسرت اسلحة ابليس في قتال عدو لا يُجرح وردّ سهمه الى نحره وانعتق الانسان من عبوديته واضحى قادرًا متى اراد ان يدوس باخمص القدم نظير المخلص غرور الملذات والمجد وخيرات الارض · وقد سهل له المخلص الطريق ووضع بين يديه وسائط الظفر الفعَّالة · فخجل ابليس من انكساره وانصرف عنه الى زمان لان ذلك الشرير سيرجع وسيخدمه الحظ يوم يعلق يسوع على خشبة الصليب ولكن هناك تكون عليه ايضاً الضربة القاطعة لفساده والمخمدة انفاس نفوذه فيطرح سلاحه ويعترف بانتصار الحق وزوال ملكه الى الابد · وبينما كان ابليس هاربًا اتت الملائكة مسرعة الى حول الظافر العظيم وصارت تخدم فيه البشرية التي اشتركت الآن بانتصارهم الاول على اركون الابالسة واحاطوا بها نظير اخت عزيزة وجدت خارجة من حرب هائلة مكللةً بالمجد والانتصار

§

اعتراف يوحنا المعمدان بان يسوع هو المسيح

ولم يعد يوحنا ينظر ذلك المعتمد الذي حلَّ عليه الروح القدس وسمع لاجله ذلك الصوت السماوي وكان يتعجب من ابطائه ولم يبقَ عنده شبهة في ان المعتمد المشار اليه كان هو المسيح المنتظر. وكان يشعر مع الزمان بثقل ما هو متوجب عليه بصفة كونه سابقاً للمخلص وانه لا يستطيع قياماً بحق وظيفته اذا اقتصر على تمهيد الطرق بل عليه ان يعلن ذلك الى اسرائيل هاتفاً «ها هو المخلص»

اما يسوع فكان يأبى ان يدعو نفسه المرسل من قِبَل الله وان يدخل حظيرة الخراف الّا بواسطة يوحنا المقام عليها بواباً شرعياً من قبل الله ولهذا توجه بعد خروجه من البرية نحو الجليل وعرَّج في طريقه على بيت عبرة حيث كان يعمد يوحنا . فهذا لما رآه مقبلاً اهتزَّ طرباً وامتلأ من الروح القدس ففهم ان منتظر الشعوب اتى ليحمل خطايا العالم ويقدّم كفّارة عنها وليس كما كان يظن اليهود انه سيكون بطلاً ومفتتحاً وملكاً اعظم من داود وسليمان . ومن فرحه هتف قائلاً امام الجمهور «هوذا حمل الله الرافع خطيئة العالم»

ان الحمل عند كل الشعوب هو رمز الوداعة واللين يقاسي امر العذاب دون تشكٍ ويقاد الى الذبح وهو صابر ولكن ليس هذا فكر المعمدان بل معنى كلامه هو ان يسوع في صبره لا يشبه فقط الحمل المقود الى الذبح لكنه تحقيق وجود حمل الله الذي يُقدَّم ضحية عن خطايا العالم كما كان عند اليهود رمز الخروف الفصحي (الخروج ١٢ : ٢٣) وهكذا فان يوحنا يرى في المسيح الحمل المزمع ان يحمل على رأسه خطايا جميع البشر ليمحوها بتقدمة ذاته ضحية عنها. ولهذا فانه يعترف امام الجمهور بالوهيته قائلاً : «هذا هو الذي قلت عنه انه يأتي بعدي رجل قد جُعل قبلي لانه اقدم مني» . فاعتراف يوحنا بوجود المسيح قبله برهان قاطع على الوهية المسيح لان يسوع كان اصغر من يوحنا عمراً ولكنه كان يعمل

قبله بما انه اله فقط وهو سبب وجوده لانهُ قال بفم ملاخيا (٣ : ١) : « هأ نذا مرسل ملاكي فيهيئ الطريق امامي » . و يستأنف يوحنا الكلام قائلاً : « وانا لم أكن اعرفه لكن الذي ارسلني لاعمد بالماء هو قال لي ان الذي ترى الروح ينزل و يستقر عليه هو الذي يعمد بالروح القدس وانا عاينت وشهدت ان هذا هو ابن الله » .

فها قد بُلّغ اسرائيل رسمياً ان قد اتى المسيح وهو نفسه قد اظهر ذاته للشعب و يوحنا شهد به جهاراً ودلَّ عليه باصبعه قائلاً هذا هو يسوع الناصري . نعم قد تمَّ عملك ايها السابق فصار عليك ان تختفي فها هو ابن الله فافسح له المجال . . .

القسم الثاني

حياة يسوع العمومية

الفصل الاول

شروع يسوع في عمله المسيحي

انتخاب الرسل الاولين — المعجزة الاولى في قانا الجليل — طرد الباعة من الهيكل — المحاورة مع نيقوديمس — آخر شهادة من الصابغ — المسيح والسامرية .

طالع يوحنا ١ : ٣٥ و٤ : ٤٣

دعوة الرسل الاولين

ولما توارى يسوع عن نظر يوحنا بعد ان تقابلا اخيرًا على شاطئ الاردن صرف الصابغ كل ما في وسعه لتوجيه الحركة الدينية التي سببتها غيرته نحو يسوع . وبناء على ذلك فلما نظره في الغد ماشيًا صرخ : « هوذا حمل الله » . وكان يرافق يوحنا وقتئذٍ اثنان من تلاميذه فسمع التلميذان وفهما من مجرّد كلامه واشارته انه يومئ اليهما ان يتبعا يسوع فخضعا وتركاه وتبعا يسوع

واسم الاول اندراوس اخو سمعان واما الثاني الذي اخفى اسمه تأدبًا واحتشامًا فكان يوحنا الانجيلي . فلما شعر بهما يسوع التفت فرآهما يتبعانه فبادرهما بالكلام

قائلاً : « ماذا تريدان » . فاجاباه « رابي الذي تفسيره يامعلم اين تسكن » فهذه اول كلمة كلم بها التلميذ الحبيب يسوع ولم ينسها قلبه الودود بل احب ان يوردها بحرفها في بداية انجيله لكنه فسّر الى قرائه من اليونان معنى ذلك اللقب «رابي» الذي خصّ به المخلص في ذلك الحين . ولم يكن وقتئذٍ في وسع اندراوس و يوحنا ان يفهما كما تدل عليه كلمة « حمَل الكفّارة» كما كان دعاه وفهمه يوحنا المعمدان بروح النبوة لكنهما عرفا فيه صفة المعلم والمرشد الى طريق الحياة الجديدة ولهذا في الوقت نفسه الذي فيه يطلبان مواجهته سرّاً في محل اقامته يقدمان نفوسهما ليتتلمذا له . فقال لهما يسوع : «تعاليا وانظرا» فذهبا ونظرا حيث يسكن في احدى مغاور البرية او تحت خيمة مظللة بورق الاشجار او في ضيافة احد الاصدقاء وكانت الساعة العاشرة من النهار

يتبين من ظاهر الكلام ان تلك المقابلة كانت الحاملة لتوطيد عزم الانجيلي على البقاء مع السيد المسيح واستمر ذكرها حيّاً في ذاكرته كما يتبين من دقة اخباره عنها بكامل ظروفها فقضيا بقية النهار بمعية يسوع يسمعان كلامه . وماذا كان موضوع حديثه معهما ؟ لا نعلم ولكنّ النتيجة العملية التي ظهرت تؤكد لنا ان التلميذين ايقنا ان نجار الناصرة هو المسيح الذي بشر بقدومه الصابغ وانه هو المنتظر من اسرائيل رغماً عن ضعة وطنه وفقره .

وبعدئذٍ انصرفا فرحين وذهب كل منهما يفتش عن اخيه يبشره بما رأى وسمع فوجد اولاً اندراوس اخاه سمعان الذي كان ينتظر مثله بفروغ صبر خلاص اسرائيل فقال له : « قد اكتشفنا ماشيح الذي تأويله المسيح » . ومن ثم ليس اكتشاف الاشياء الجديدة خصوصياً بالعلم الطبيعي بل الايمان له ايضاً اكتشافات مفرحة عندما تحقق آماله . وقد لفظ اندراوس هذه الكلمة بابتهاج اشبه بابتهاج ارشيمد عندما اكتشف سنّة الثقل او كريستوف كولمبوس عندما اكتشف برّ امركة . ولما سمع اخوه سمعان اسرع ينظر بعينيه ذلك الذي

سبّب لاخيه هذا الابتهاج العظيم فوصل عند المساء ولما نظره يسوع عرف تلك النفس الكريمة المحجوبة تحت ظاهر الصياد الجليلي الخشن فقال له: «انت سمعان بن يونا انت تدعى كيفا الذي تفسيره الصفاة» . لعمري ان في اعطاء هذا الاسم الجديد الى سمعان نبوة صريحة عما عسى ان يكون له في مستقبل الايام غير انهم لم يدركوا كل معناها في ذلك الوقت . ولكنَّ يسوع سيرددها اذ يجعل ابن يونا الصخرة غير المتزعزعة التي عليها ستقوم الالفة الجديدة وتُبنى عليها الكنيسة الكاثوليكية التي لن تقوى عليها عواصف الشهوات وعلى جوانبها تتكسر امواج البدع وترتد الى الوراء مدحورة . اما المقصود منها هنا فهو بيان دعوة سمعان الى مصاف التلامذة . وهكذا صار جنود الملكوت السماوي ثلاثة والباقون يدخلون قريباً

وفي الغد اراد يسوع الخروج الى الجليل حيث كان يرغب ان يشرع في حياته العمومية . فوجد فيلبس الذي من بيت صيدا يتكلم مع اندراوس وسمعان اللذين كانا من ابناء وطنه فقال له: «اتبعني» وللحال تبعه ولم يلبث طويلاً حتى صار شريك ايمانهم وآمالهم وغيرتهم على اذاعة البشارة

وفي اثناء ذلك كان نثنائيل احد تلامذة يوحنا راجعاً الى بيته في قانا مفعماً من عواطف الدين فوجده فيلبس على الطريق وقال له: «ان الذي كتب عنه موسى في الناموس والانبياء قد وجدناه وهو يسوع بن يوسف من الناصرة» فمن هذه العبارة نستدل على موضوع حديث يسوع مع فيلبس ورفقائه . فان موسى والانبياء هم المصادر التي يرجع اليها يسوع دائماً في بيان شرفه المسيحي . ولكن غلط فيلبس بتسميته يسوع ناصرياً وابن يوسف على الاطلاق فيما ان الحقيقة خلاف ذلك ولو كان فهم جيداً شرح المعلم لكان موسى والانبياء قدموا له على المسيح دلالة اخرى احق واصدق غير ان فيلبس يحكم على الظواهر و يتكلم بحسب ما هو شائع بين الجمهور . والانجيليون انفسهم مع معرفتهم تاريخ الحبل

بيسوع وولادته الحقيقي يدعونه الناصري وابن يوسف طبقاً لما كان متعارفاً عند الجمهور

وكان نثنائيل لما وجده فيلبس يستريح قليلاً من تعب الطريق في ظل تينة وكان على الارجح يردد في ذهنه ارشاد يوحنا الصابغ · لعمري ان في الحياة الادبية اويقات لذة فيها النفس التي تطلب الله تجده بغتةً وتسمع صوته وتقتسم حياته بواسطة النعمة · فهذا ما حدث لنثنائيل في تلك الساعة ولهذا نراه يتعجب كيف ان يسوع عرف ذلك · وبلغ التعجب منه مبلغاً عظيماً حتى دعا يسوع ابن الله لانه علم اسرار افكاره · ولكنه بصفة رجل متعقل ومطلع على اقوال الكتب المقدسة توقف عند اثباتات فيلبس وقال : « أمن الناصرة يكون شيء صالح » · وبالحقيقة فقد نص الكتاب ان المسيح يولد في بيت لحم ويخرج من اورشليم لافتتاح العالم · فقال له فيلبس : تعال وانظر · وهو جواب يقطع سبيل الجدال لان من رأى بعينه ومس بيده واقعة موضوع بحثه فلا تبقى حينئذٍ حاجة للجدال في هل هو ممكن الحدوث او لا · وفي اعتقاد فيلبس ان النظر المجرد عن الغاية الى يسوع يكفي لمعرفته كما هو حقيقة

فاجاب نثنائيل الحاح فيلبس وتبعه ولما رأى يسوع نثنائيل مقبلاً اليه قال عنه بجهير الصوت : « هذا في الحقيقة اسرائيلي لاغش فيه » · اما نثنائيل فتظاهر انه غير مبالٍ بهذا المدح وقال ليسوع ببرودة : « من اين عرفتني » فاجاب يسوع غير مؤاخذٍ له على عدم لياقة حديثه · « اني قبل ان يدعوك فيلبس وانت تحت التينة رأيتك » وفي هذه الكلمة الاخيرة تلميح الى ماكان يفتكر به نثنائيل في اعماق ضميره ونحن نجهله اما نثنائيل ففهمه جيداً لانه وقف مبهوتاً · ولا عجب في ان يكون يسوع قد نظره عن بعد مصلياً او متأملاً ولكن العجب في أن نظر يسوع خرق اعماق قلبه وقرأ كل ما كان فيه من الافكار السرية بخصوص مجيء المخلص المحب للبشر والمصلح العظيم بين السماء والارض · فهذا

هو فوق مقدرة البشر واقوى من كل اعتراض ولهذا هتف قائلاً له : « يامعلم انت ابن الله انت ملك اسرائيل » . ومن كان نظره حاداً مثل نظر الرب انما هو ابن الله والحال ان ابن الله انما هو المسيح والمسيح هو ملك اسرائيل . فبكل حق وصواب اذن دعاه يسوع اسرائيلياً حقيقياً لانه يظهر حالاً واجب اعتباره لملكه الحقيقي . واردف يسوع كلامه بقوله : « لاني قلت لك اني رأيتك تحت التينة آمنت . انك ستعاين اعظم من هذا » . وهكذا يشجع يسوع امانته الحديثة بوعده له ببرهانات اقوى تثبت كونه ابن الله حقاً . ومن قبل اول اشعة النعمة عليه ان يُبقي عينه مفتوحة لقبول غيرها لان النعمة تنادي النعمة وعليه يستأنف يسوع الكلام قائلاً : « الحقَّ الحقَّ اقول لكم انكم سترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن البشر » . وهذه اول مرة يلقب يسوع نفسه بابن البشر مقابلة للقب ابن الله الذي لقبه به نثنائيل مبيناً انه ليس فقط الهاً بل انسان ايضاً وليس انساناً عادياً كباقي البشر بل الانسان المنتظر الذي أخبر عنه الانبياء وزعيم البشر الجُدُد و بالنتيجة المسيح وهذا اللقب هو اصغر الالقاب التي بها يدلنا على سمو طبعه لكنه هو الاحب الى بشريتنا لان اعظم اسباب المحبة التشابه و به يخفي طبعه الالهي ويجعل ذاته مثلنا واخاً لنا بالطبع ومخلصاً ونموذج القداسة

و بعدئذٍ توجه يسوع وتلاميذه نحو الجليل وعند وصولهم الى الناصرة عرفوا انه يُحتفل بعرس في قانا وكانت مريم ذهبت الى العرس وكان يسوع ومن معه ايضاً من المدعوّين . فذهبوا جميعاً الى العرس لان نثنائيل كان من بلدة العروس والبقية كانوا يرغبون في الذهاب الى شاطئ البحيرة حيث كانوا قاطنين وكانت قانا على طريقهم . وظاهر الامر ينبئ ان اهل العروسة كانوا من اعز أصدقاء العائلة المقدسة ومن ذوي قرابتها لان مريم لم تستنظر مجيء ابنها لتذهب الى العرس بل ذهبت قبل وصوله كما هو شان الاقارب فانهم يجتمعون

في محل الفرح قبل البعداء ٠ وكان من جملة الحضور اولاد عم يسوع الذين يدعون كما ذكرنا اخوته وقيل ان العروس كان احدهم وهو سمعان الرسول الذي دعي لذلك القانوي وكان ابن حلفى اخي يوسف خطيب مريم

ولا عجب اذا دعا يسوع من كانوا معه لمرافقته الى محل العرس ٠ فكان قد انتهز هذه الفرصة ليظهر الى الجمهور في بدء حياته العمومية اتساع صدره ورغبته في الامتزاج بافراح العالم ليقدسها وبلذات الارض ليطهرها ومع الخطاة ليردهم الى التوبة ٠

ولا تبعد قانا عن الناصرة الأ مسافة ساعتين على الاكثر والطريق بين القريتين سهلة تمتد في خلال تلك الجبال وهي الطريق التي كان صنعها الرومانيون مؤدية الى بحيرة طبرية ٠ والى يومنا هذا ينشرح الناظر بمشهد قرية كفر قانا المبنية في سفح الجبل ٠ ولم يزل يجري حتى الآن ذلك الينبوع القديم وراء هاتيك الاغراس من الصبير والرمان ٠ والى الآن تذهب العذارى منحدرات اليه تستقي ماء بجرارها لتملأ الاجاجين بينما ان امهاتهن يغسلن الاثواب فيها ٠ ووصل يسوع وتلاميذه عند المساء فاحدث وصوله محاطاً من تلاميذه فرحاً عظيماً بين الحضور واصحاب العرس ولم يلبثوا طويلاً حتى اخذ التلامذة يقصون على الحضور شهادة المعمدان ليسوع ومشهد العماد وخبر دعوتهم فشمل الفرح قلوب الجمهور بل تضاعف سرورهم ٠ ثم دعتِ الافراح الى شرب الراح ففرغت الخمر ولم يدرِ بذلك احد من الرجال ولكن مريم رغماً عن فرط ابتهاجها بالاحاديث التي كانت تسمعها عن وحيدها بقيت ساهرة على كل لوازم الاحتفال وفهمت من بعض حركات الخدَم ان قد فرغت الخمر ٠ ولا يخفى ما في ذلك من العار على العروس وقد جرى في وجه يسوع وتلاميذه ٠ عندئذٍ التفتت مريم الى يسوع التفاته ام وقالت على مسمع منه : « ليس عندهم خمر » ٠ فياله من طلب رقيق مطوي تحت نشر واقعة الحال المخجلة ٠ و بالحقيقة ان مريم كانت تطلب

من ابنها ان يمدّ يد المساعدة الى اصحاب الضيافة ولو باعجوبة . ففهم يسوع قوة كلامها ولكنه كي يعلمنا ان اهم واجبات من قُلّد وظيفة من الله ان لا يسمع الاَّ لما هو مفروض عليه ويصُم اذنيه عن سماع اقوال والديه وصوت اللحم والدم اجابها ببرودة . « ما لي ولكِ يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد » . وكأنه قال لها : لماذا تهتمي بالباطل استنظري لتري النتيجة فمتى وضعت يدي بالعمل يكون كل شيء . ولا ننكر ان في جوابه ما يمس احساسات مريم . ولربما كان ذلك ليظهر ثبات ايمانها او ليعلمنا ان الصلاة البارزة من نفس نقية لا تقنط بل ترجو دائماً حيث لا امل

ومهما كان من الامر فانا نعلم العلم اليقين ان مريم وجدت في جواب ابنها ما لا نقدر على ان نراهُ فيهِ نحن و برهانها انها بدون ادنى تردّد قالت للخدام : « مهما يأمركم به فافعلوه »

وكان هناك ست اجاجين من حجر موضوعة بحسب تطهير اليهود كبيرة الحجم تسع كل واحدة منها مترين او ثلاثة اعني من ستة وسبعين الى مائة وستة عشر ليترًا . فاومأ يسوع الى الخدّام ان : « املأُوا الاجاجين ماء » . فملأُوها الى فوق ليظهروا رغبتهم في تكميل وصيته . وبما انه ومن اتوا معه كانوا ستة اشخاص اراد يسوع ان يعوض على اصحاب الضيافة اضعاف ما خسروه عليهم . وفي الحال صارت الاعجوبة فاستحال الماء خمرًا صرفًا . فالقوة عينها التي تُنضج عنب الكرمة على رؤوس الجبال وتصنع منه الخمر هي ذاتها جعلته يوجد فجاءة في اجاجين الحجر . ومن يحول قطرات الندى الى خمر جيدة لا يصعب عليه ان يحوّل اليها مياه النبع الصافية . ولما كان هو وحده خالق الاسباب والعلل كان قادرًا عندما يشاء ان يوجد المعلولات دون وسائط وللوقت قال للخدام : « استقوا الان وناولوا رئيس المتكإ » وكان جل قصده لا ان يبين انه صنع كمية وافرة من الخمر بل انه قد صنع من الخمر

اجودها واطيبها ليتناولوا الحضور منها

يوجد عادة في الولائم العمومية سقاة يتولون امر الخدمة ورئيس موكول اليه امر تنظيمها وترتيبها وملاحظة حسن القيام بواجب الحضور فالى هذا ناول الخدّام اولاً مما استقوه من الاجاجين فلما ذاق طعم ذلك الشراب الزكي ولم يكن يعلم من اين هو دعا رئيس المتكإ وقال له بحدة: « كل انسان انما يأتي بالخمر الجيدة اولاً فاذا سكروا فعند ذلك ياتي بالدون · اما انت فابقيت الخمر الجيدة الى الآن » · فاذعن العروس لمقاله ولكن من اين انت تلك الخمرة الجيدة · فان الخدّام كانوا على يقين انهم ملأوا الاجاجين ماء خالصاً الى فوق ولم يضع احد فيها غير ذلك ولكن الحقيقة ميسورة وسهلة وهي انه قد تحول الماء خمراً جيدة · والحال ان في هذا الحادث خرقاً لنواميس الطبيعة و بالنتيجة اعجوبة ظاهرة وعلامة واضحة تبين مجد يسوع · وهذه الآية الاولى التي صنعها يسوع فآمن به تلاميذه · اما بقية الحضور فكان شاغلا البسط واللهو يشغلانهم عن الوقوف عند هذه الاعجوبة والتمعن بنتائجها المهمة وما لبثوا ان شكروا الساقي على الخمر الجيدة التي يقدمها لهم · ولا يلزم ان نستغرب عملهم هذا لانه أليس كل يوم يأكل و يشرب البشر من مخلوقات الرب دون ان يرفعوا عيونهم نحو العلا و يشكروه على عطاياه و يباركوا اليد التي توزع عليهم احساناته تعالى ·

وكان التلامذة الاولون يقطنون على شاطي بحيرة جناسر كما ذكرنا الى الجهة الشمالية الغربية اي في المقاطعة التي هي اكثر سكاناً واجود تربة من الجليل وكان ذلك الاقليم محط رحال المسافرين النازلين من سورية الى فلسطين ومن جبال حوران الى البحر · ومن ثم قد اختار يسوع تلك المقاطعة مجالاً لتبشيره لعلمه ان كلامه يقع هناك موقع القبول و ينتشر سريعاً الى كل جهة · فتوجه مع تلاميذه الى هناك وتبعه آله وامّه واخوته ليروا ما عسى ان يصنع فذهبوا تواً الى

كفرناحوم ونزلوا جميعاً على الارجح عند بطرس في بيت حماته لانه كان متزوجاً ولكنهم لبثوا هناك اياماً غير كثيرة. و يُستدل من الخبر ان نثنائيل كان يستظل بظل التينة وكان ذلك في فصل الربيع بالقرب من فصح اليهود. فصعد يسوع الى اورشليم قصد ان يختبر استعدادات القوم الدينية لانه كان يعلم ان سكان الجليل يسمعون كلامه ولكن لاجل نفوذ الاشياء الدينية كان من الضرورة ان يوجه تبشيره اولاً الى الكهنة ويهود اورشليم رغماً عما كان يعرف فيهم من سوء الاستعداد لاستماع كلامه . فانضم هو ومن معه الى احدى القوافل النازلة من الجليل واتى يحضر الفصح في اورشليم

§

طرد الباعة من رواق الهيكل

وكان يسوع صعد مراراً الى الهيكل ولاحظ كل ما كان يصنع فيه من الاشياء الحاطة بشأن ذلك المحل المقدس ولكنه كان يحضر في ما مضى مثل اسرائيلي بسيط ليس من خصائصه ان ينبه و يبكت اللاويين المسلّمين من قبل الشريعة ادارة شؤون بيت الرب على ما كان يجري فيه من قلة الأدب. اما الآن فيأتي اليه بصفة ابن يزور قصر ابيه و بمثابة سيد يدخل بيته. وكان في الهيكل عدة اماكن منها رواق فسيح كان خصيصاً بالدخلاء الذين كانوا يأتون لزيارة قدس الرب. ففي ذلك الموضع الى الجهة الجنوبية منه كان بعض من الباعة يتعاطون اشغالهم باذن الكهنة. وكان بعض من الصيارفة وضعوا موائدهم تحت صفوف القناطر الداخلية و باعة البقر والخراف والحمام صنعوا لهم اكواخاً من الخشب المصقول في خلال تلك القناطر المصنوعة من المرمر والحجارة الثمينة.

وما كانوا يبيعون هناك في الابتداء سوى الاشياء الضرورية للتقدمة كالبخور والخمر والزيت والملح وتوصلوا بعدئذٍ بتمادي الزمان الى ان يبيعوا الضحايا

التي كانت تُقدَّم في الهيكل بنوع ان ذلك المحل المخصص بالدخلاء اصبح مجتمعاً لباعة البقر والغنم وسوق اخذ وعطاء ومقراً للغش وجلب المكسب والخداع والكلام السفيه. فمشهد مثل هذا اثر كثيراً في قلب يسوع وشعر بما فيه من عدم اللياقة وانتهاك حرمة القدسيات فطارت نفسه شعاعاً واحمرت عيناه من الغيظ وصرخ بهم منتهراً اياهم واخذ بيده سوطاً من حبال واخرج جميعهم من الهيكل مع الخرفان والبقر ايضاً ونثر دراهم الصيارفة وقلب الموائد ولم يبقِ على احد بل طردهم كلهم الى الخارج غير انه لم يعامل باعة الحمام بالقساوة التي عامل بها الآخرين لانهم كانوا يبيعون ما هو خصيص بتقدمة الفقراء والمساكين بل قال لهم بوداعة: « ارفعوا هذه من هنا ولا تجعلوا بيت ابي بيت تجارة ». ولم يجسر احد ان يقاومه نظراً لهيبة سطوته وما استولى عليهم من الخجل من جرى تصرفاتهم القبيحة في المحل المقدس. فلما شاهد تلاميذه شجاعته والهيبة العظيمة التي لكلامه اطلقوا عليه ما كتب عن الصديق في (مزمور ٥٩) « غيرة بيتك اكلتني ». وتذكروا كيف قد تحقق ذلك النموذج النبوي في شخص المسيح. وفي ذلك برهان على زيادة ايمانهم بيسوع. اما اليهود فبعد مرور حركة التعجب والدهشة التي اخذت قلوبهم اولاً رجعوا فتمرمروا وتذمروا من تلك المعاملة القاسية. وما لبثوا ان طلبوا علامة تثبت ذلك الحق الواضح الذي استعمله يسوع قصد ان يقاوموه وينكروا الاعجوبة نفسها على فرض وقوعها وهكذا يضعوا حجاباً على النور الذي لا يحتاج الى برهان فقالوا: « اية آية تربنا حتى تفعل هذا ». فعرف يسوع افكارهم الخبيثة فاجابهم بما يفوق ادراكهم اذ قال لهم: « انقضوا هذا الهيكل وانا في ثلاثة ايام اقيمه ». ولم يرد يسوع ان يعطي ذلك الجيل الكافر العديم الامانة سوى آية يونان النبي. وبالحقيقة ان اثبت برهان يقدمه على قدرته غير المحدودة انما كان برهان قيامته من بين الاموات بعد ان يكون استمر في القبر ثلاثة ايام. فهذه الاعجوبة التي ستكون خاتمة عجائبه اقوى

حجة لاثبات ارساليته الالهية . لعمري ان من له حق الاستيلاء على الموت له بلا ريب حق السيادة على الهيكل ومن له استطاعة على استرجاع الحياة بعد الدفن له قدرة لا محالة ان يقيم بيت ابيه ولو رميماً

غير ان السامعين لم يفهموا معنى جوابه وبما انهم كانوا وقتئذٍ في الهيكل ظنوا ان مرجع كلامه عن الهيكل المادي وانه يريد نقضه بسبب تدنيسهم اياه بمتاجرتهم المحرمة فيه ثم يقيمه من جديد لائقاً بخدمة ابيه

اما كون الجسد هيكلاً فذلك التصور كان يفوق ادراكهم و بالاحرى لم يفقهوا ايضاً ان جسد المسيح هو اسمى واعظم هيكل لانهم كانوا يجهلون اتحاد الاقنوم الالهي بذلك الجسد الحاضر امامهم . ولذلك حملوا جوابه على نوع الهزء والازدراء . ولما كانوا ابعد من ان يهدموا الهيكل ليروا اذا كان نجار الناصرة يمكنه ان يقيمه بثلاثة ايام اكتفوا بالقول : « انه في ست واربعين سنة بُني هذا الهيكل افتقيمه انت في ثلاثة ايام » . فلم يجبهم يسوع بشيء ليردهم الى الصواب وهكذا غالباً كان يجيب بكلام صعب المأخذ من يسأله بخبث ومكر . اما اصحاب القلوب المستقيمة فيجدون في كلامه نوراً ساطعاً وتنجلي لهم الحقائق في حينها بعيدة عن كل ابهام

فلو كان المسيح استُقبل على غير ما ذكرنا في اورشليم ولو صادف عمله استحسان الجمهور وخضع الجميع لسلطته لكان اتبع خطة جديدة في حياته العمومية ولكن المقاومة العنيفة التي لاقاها هناك اظهرت ان ملك المسيح لا يقوم الا على اساس التواضع والجهاد والآلام . وترك يسوع الهيكل وصار يعظ في الاسواق واجتماعات الشعب فصادف كلامه اذناً صاغية واثرت العجائب التي كان يصنعها في قلوب الشعب وافكار الزوار فآمن به كثيرون حين شاهدوا الآيات التي صنعها . وكان الجميع يلهجون باسمه والسنتهم تترطب بالثناء عليه . اما هو فلم يأتمنهم على نفسه ولم يثق بتلك المظاهرات الوقتية . لكنه كان اذا لاحظ بين

الجمهور رجلاً مستقيماً يحسن معاملته ويطلعه على اسرار الانقلاب الديني الجديد كما جرى له مع نيقودمس الذي جاء يستشيره

§

المحاورة التي جرت بين يسوع ونيقودمس

وكان نيقودمس من اهم رجال اورشليم من فئة الفريسيين اصحاب النفوذ في ذلك الحين وكان عضواً مهماً في مجلس اليهود الاعلى شهيراً بعلم اللاهوت ومعرفة دقائق الشريعة . فجاء هذا الى يسوع ليلاً حذراً من ان يعرض بنفسه لخطر فقد استمالة قلوب الشعب اليه ومع ذلك لم يكن عمله هذا يخلو من بعض الشجاعة. فوجد يسوع وحده مع اخص تلاميذه ولا شك ان يوحنا كان بينهم شاهداً عيانياً اذ نقل لنا ذلك الحديث بكامله فافتتح نيقودمس الحديث قائلاً : « يامعلم نحن نعلم انك اتيت من الله معلماً لانه لا يقدر احد ان يعمل الآيات التي انت تعملها ما لم يكن الله معه » وكان نيقودمس ومثله كثيرون من اصحابه قد استدلوا ان يسوع اتى من الله بسبب الآيات التي اختبروها بذواتهم وذلك عين الصواب لان الاعجوبة هي علامة مداخلة الله بالعمل ومتى قامت الاعجوبة برهاناً على صحة كلام احد فلا ريب ان الله يكفل تحقيق وقوع ذلك الكلام وصحته . ويعترف نيقودمس بامكان وجود علم يفوق معرفة علماء الشريعة وذلك هو العلم الذي يعطيه الرب لاصفيائه. ولهذا يلقب نجار الناصرة بلقب معلم (رابي) وياتي ليستشيره بصفة معلم

فلو كان يسوع خفيف الراي سريع التحمس لكان اخذ منه الفرح كل مأخذعند ما رأى ذلك الاعتبار الذي يقدمه له اهم رجل في اورشليم بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن اصحابه ولكان اتخذ جميع الوسائل لاستمالته اليه. ولكن ما ابعده عن استخدام وسائط التمليق التي تلجأ اليها الحذاقة البشرية في مثل هذه الظروف . فلان" نيقودمس يأتي اليه بمثابة تلميذ عليه ان يسمع فقط

ومن ثم اجاب يسوع : « الحقَّ الحقَّ اقول لك ان لم يولد احد ثانيةً فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله » . فالجواب قاطع في ذاته ومؤدّاه انه من الضرورة ان يتجدد الانسان ولا يبقى فيه شيء من الانسان العتيق كي يستحق ان يقترب من ملكوت الله . وكأنه قال الى نيقوديمس بنوع خصوصي انه يلزمك ان تُقلع عن كل شيء لك وعن الاحترام الذي يقدمه لك الشعب وعن رفعة الشان بين اقرانك حتى تصير اهلاً لملكوت الله . فهذا المعنى الروحي المحض لا يفهمه سوى من توغل في درس الحياة الروحية . ولا ريب انه لم يدخل عقل نيقوديمس ذلك الفريسي الذي ليس فقط كان يظن ذاته اهلاً ليرى الملكوت بل كان على ثقة من الدخول الى ملكوت الله . ولهذا قصد الاستيضاح فقال ليسوع متهكماً : « كيف يستطيع ان يولد انسان وهو شيخ . لعله يقدر ان يدخل جوف امه ثانية ويولد » . — اجاب يسوع : « الحقَّ الحقَّ اقول لك ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله » . ويوضح الفرق الكائن بين الولادة الجسدية والولادة الروحية بقوله : « ان المولود من الجسد انما هو جسد والمولود من الروح انما هو روح »

وبالحقيقة ان المعمودية هي الباب للدخول في الالفة المسيحية . وبهذه العلامة تَسِم الكنيسة اولادها لتميزهم عمن سواهم والمعتمد يدفن في ماء التطهير الانسان العتيق اي اوزار الخطية والاميال المنحرفة ليحيا حياة جديدة بنعمة الروح القدس الذي ينفخ فيه الميل الى الفضائل والصلاح . ولكن اذا كان الامر كذلك فماذا يقدر ان يصنع اذاً نيقوديمس في امر ولادته الثانية اذ الروح القدس هو العامل الوحيد في هذه الولادة . ولهذا يتابع يسوع الكلام قائلاً : « لا تعجب من قولي لك انه ينبغي ان تولد ثانية . فان الروح يهبّ حيث يشاء وتسمع صوته الا انك لست تعلم من اين يأتي ولا الى اين يذهب هكذا كل مولود من الروح » . الارادة الحرّة وحدها لا تكفي لعمل الولادة الروحية بل

من الضرورة ان يعضد اجتهادنا روح النعمة . روح الرب يهب نظير عاصفة قوية و يسرع لمساعدتنا وبلمحة بصر يغيّرنا من حال الى حال من موت الخطية الى حياة النعمة . و يصعب على المرء القول من اين وكيف اتى لكنه يشعر به باطنيًّا و يعلم الانقلاب الذي حدث فيه دون ان يدرك برهانه الاخير

اما نيقودمس فلم يزد غير عميً وجهالةٍ ولهذا اجاب بحدة : « كيف يمكن ان يكون هذا » فاجابه يسوع باسماً « أ تكون معلماً في اسرائيل ولا تعلم هذا » مبيناً له برقة ان علم الحياة الجديدة يفوق تعاليم الربانيين الفارغة وقد اطلّع على هذا العلم التلامذة الذين حولها مع ما هم عليه من الجهل . ويستأنف يسوع الكلام قائلاً : « الحقّ الحقّ اقول لك اننا انما ننطق بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا » . وهنا أظهر يسوع وجه فرحه لكونه لم يعد وحده مستحضراً الكنيسة والالفة الجديدة فصار يتكلم بلسان الجمهور الذي انضمّ اليه بالايمان . نيقودمس اللاهوتي العظيم يبحث عن النور الذي قد وجده صيادو الجليل الاغبياء لان هولاء آمنوا بتواضع و بدون تنقيب اما اولئك ملافنة المجمع المتعجرفون فلا يستطيعون ان يقتفوا اثارهم حتى بالنظر الى العقائد الدينية المبنية على الاختبار الشخصي وشهادة الضمير واذا كانوا بمثل هذه العقائد لا يؤمنون فكم بالحري لا يؤمنون بالاسرار السامية التي يلزم تصديقها من مجرد اثبات الشهادة القولية وعليه يردف يسوع كلامه بقوله : « ان كنت قد قلت لكم الارضيات ولم تؤمنوا فكيف اذا قلت لكم السماويات تؤمنون » نظرًا لعدم امكان اثبات مثل هذه الحقائق السماوية لانه لم يصعد احدٌ الى السماء الاّ الذي نزل من السماء ابن البشر الذي هو في السماء

فصمت نيقودمس ولم يأتِ ببنة شفة نظرًا للتعجب الذي استولى عليه عند سماع اقوال يسوع السامية فرقّ يسوع عليه وعزم ان يبين له تمام الخطة المزمع ان يتبعها في امر افتداء البشرية فقال : « وكما رفع موسى الحية في البرّية

هكذا ينبغي ان يرفع ابن البشر لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » . فلينقطع اذن امرائيل عن البحث والتفتيش عن مسيح رفيع المجد والقدرة فان المسيح الحقيقي مخلص الشعب سيرفع على الصليب والرمز النبوي الى النادي الذي يأتي يسوع بذكره هنا هو كي المطابقة لواقع الحال . فكما ان الحية النحاسية لم تكن سوى صورة الحيات الحقيقية هكذا يكون ابن البشر صورة الخطاة الحقيقيين وكما ان تلك الحية كانت تمثل الحيات السامة لتمنع شر هذه هكذا يسوع كان يمثل على صليبه الخطاة ليمنع شر الخطية عنهم . اخيراً كما انه كان كافياً للامرائيلي ان ينظر الى الحية النحاسية كي يشفى من لدغ الحيات القتالة هكذا الخاطي الذي ينظر الى ابن البشر الذي صار خطية لاجل بشريتنا يتملص من ذنوبه ويحيا . لعمري ان هذا التعويض البدلي برهان على عظم حب الله للبشر . ولهذا فان يسوع يتابع الكلام قائلاً : « لأنه هكذا احب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » . ومن ثم فان الاب هو مبدا الخلاص ولم يغتصبه الابن للمغفرة بل صنع بافتدائه البشر مشيئة الآب لان الآب احبَّ العالم كما يحب الأب الطبيعي ابناً عقوقاً . احبه ليس نظراً لكونه من الطائفة او الامة الفلانية بل احبه بوجه الاجمال واحبه حتى بذل ابنه الوحيد لاجل خلاصه . وها هو يرسل ابنه الى العالم والعالم يقبله ويميته ليحقق بهذه الجريمة امر افتدائه . حقاً عجيبة هي رأفة وحنو العلي اذ يكفي لخلاص الانسان فعل ايمان حار بمن اماته هذا الانسان نفسه معلقاً على خشبة الصليب كما يقول هو نفسه في المحل المذكور : « انه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم » .

اتى يسوع ليخلص الكل فلا يهلك سوى من لا يريده ولا يقبله فعلى الانسان اذاً ان يختار لنفسه ما يحلو اما الخلاص بالايمان بيسوع المسيح واما

الهلاك بواسطة عدم الايمان به فما يختاره الانسان يُعطاه حتى لا يبقى لوم على الله بل اللوم كل اللوم على الجاحد نعمه تعالى لانه قال من فمه القدوس: «من آمن به فلا يدان ومن لا يؤمن فقد دينَ لانه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» وهذه صورة الدينونة « ان النور جاء الى العالم والناس احبوا الظلمة على النور لان اعمالهم كانت شريرة . لان كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يقبل الى النور لئلا تفتضح اعماله . فاما الذي يعمل الحقّ فانه يقبل الى النور لكي تظهر اعماله لانها مصنوعة في الله » . ففي هذه الكلمات الاخيرة مدح لحالة نيقودمس الادبية وحسب ظواهر الحال قد انقطع بينهما الحديث وافترقا . فرجع نيقودمس الى مسكنه مفكرًا بما سمعه من يسوع . على انه لم يجسر ان يقول علانيةً ماذا كان يفتكر فيه اي في يسوع وهو أمرٌ يحدث غالبًا للانفس المستقيمة الميالة الى الخير لكنّ الجبانة والحياء البشري يوقفانها عن تتميم مقاصدها الحسنة . لاننا لم نعد نسمعه قال شيئًا بخصوص يسوع سوى انه كي يخلصه من الموت لفظ بعض كلمات امام المجلس بحق يسوع لكنه لم يجسر وقتئذٍ على الوقوف عندها لئلا يؤاخذ من الجماعة ولم يظهر عزمه الأ عند بلية الجلجلة حينئذٍ ذلك الذي اتى ليلاً الى يسوع ليكلمه خجل من جبانته السابقة وتجرأ على ان يطلبه ميتًا من اعدائه وانضمّ الى يوسف بوليطي الذي من الرامة مرافقًا جثته الى القبر . فمنظر الصليب ذكره بالحية النحاسية المرتفعة في الفلاء وتحقيق ذلك الرمز الذي ذكره امامه يسوع ثبّت ايمانه بصحة كلام المسيح فاعلن حبه وتعلقه بيسوع وقتما كان الغير يكفرون به و يجحدون نعمه

§

شهادة الصابغ الاخيرة ليسوع

نجهل كم من الزمان مكث يسوع في اورشليم بعيد حديثه مع نيقودمس . والانجيلي يكتفي بعد سرد ذلك الحديث بان يورد لنا انه اقبل هو وتلاميذه

الى ارض اليهودية والارجح نحو اريحا حيث اعطى تلاميذه سلطاناً على ان يعمدوا كما كان يصنع يوحنا المعمدان قصد ان يقوّي الحركة الدينية. اما يوحنا فكان ترك شاطي الاردن الشرقي حيث كان يعمد سابقاً هرباً من غضب هيرودس الذي كان يوحنا يوبخه في شأن هيروديا امرأة اخيه وابتعد عن حدود حكمه الى عين نون بقرب ساليم . فاقترب منه يسوع اولاً ليشدد عزمه في مقاومة هيرودس ويثبت شجاعته على الاضطهاد الذي كان يعانيه من هذا الشقي ثم ليستدعي شهادة المعمدان الاخيرة على صلاحية ارساليته من قبل الله لان المعمدان كان اوشك ان يتمّ جهاده ويُقتل

فوجود يسوع وتلاميذه بالقرب من السابق واعطاؤُهم المعمودية مثله واقبال الناس عليهم حرّك روح الغيرة في قلوب تلامذة الصابغ فاتوا اليه قائلين « ذاك الذي كان معك في عبر الاردنّ الذي انت شهدت له ها انه يعمد والجميع يقبلون اليه » . غير ان تشكيهم لم يصادف ما كانوا يتوقعونه بل شعر يوحنا عند سماعهم بفرح عظيم والتفت اليهم قائلاً : « لا يستطيع الانسان ان يأخذ شيئاً ما لم يُعطَ له من السماء. انتم تشهدون لي باني قلت لكم انني لست المسيح بل انا مرسل امامه. من له العروسة فهو العروس واما صديق العروس الواقف يسمعه فهو يفرح فرحاً لصوت العروس. ففرحي هذا قد تمّ » . فالجمعية الدينية التي اهتم بتأليفها يوحنا لم تكن شيئاً آخر سوى خطيبة المسيح وليس هو الا الوسيط الامين والغيور بينهما فعندما مكّنته الحال من تسليم زمرة تلاميذه الى يسوع سرّ بعمله هذا فلم يبقَ عليه نظير الصديق الامين الا ان يقف وراء الباب ليسمع الكلام العذب من أفواه تلامذته القدماء بطرس ويوحنا واندراوس كلام المحبة الذي كان يدور بين المسيح وعروسته الكنيسة الجديدة وكانت نفسه تتهلل حبوراً عند نظره ان عمله قد تم طبق المراد. فصار عليه ان يتوارى عنهما ليطلقا العنان الى حبهما المتبادل وعليه يضيف الى ما سبق

« وله (اي ليسوع) ينبغي ان ينمو ولي ان انقص لان الذي جاء من العلاء هو اعلى من الكل والذي من الارض هو ارضي وبالارضيات ينطق » . ان اصل يسوع من السماء نظير طبعه وكلامه ولذلك لا عجب اذا فاق الجميع بسموّهِ لانه كما قال الصابغ عينه : « الذي اتى من السماء هو فوق الكل وبما عاين وسمع يشهد » فهذا الاعتبار كان من شأنه ان يستجاب الجميع الى يسوع ومع ذلك ليس احد يقبل شهادته فيالّلعجب العجاب كيف لا تسمع شهادة المرسل من الله الذي لا يتكلم الا بكلام الله والذي قبل من الله الروحَ بغير مقدار . ويختم ايليا الجديد كلامه على يسوع بالانذار والتهديد اذ قال : « الآب يحب الابن وقد جعل في يده كل شيء . من يؤمن بالابن فله الحياة الابدية . ومن لا يؤمن بالابن فلا يعاين الحياة ولكن غضب الله مستقرّ عليه » فهذه كانت خاتمة شهادات الصابغ ليسوع وهي واضحة كالشمس فان لم يقبلها اسرائيل فلا يكون ذلك الا لانه يصم أُذنيهِ كي لا يسمع و يغمض عينيه كي لا يبصر

فتحوّل يسوع بعدئذٍ عن تلك التخوم اطفاء لجمرة المغايرة من قلوب أَتباع المعمدان وملافاةً لشرّ الفريسيين وتوجه نحو الجليل حيث كان الامل معقوداً ان يجد قلوباً اكثر استعداداً لقبول كلام النعمة ووضع اساس ملكوت الله

§

يسوع المسيح والسامرية

وكان لا بدّ ليسوع ان يمرّ في السامرة لان الطريق المؤدية من هناك الى الجليل كانت اقرب مسافة ولكنها قليلة الامن وكانت قوافل اليهود قلما تمرّ من هناك بسبب الضغائن المتمكنة بين اليهود وسكان السامرة اما يسوع فلم

يعبأ بذلك بل فضل العبور من هناك ليبين منذ البدء ان بشارته كانت لجميع البشر دون استثناء فمشى هو ومن معه ولما وصلوا بالقرب من مدينة تدعى سوكار على مقربة من الضيعة التي اعطاها يعقوب ليوسف ابنه وقف هناك وكان الوقت صيفاً والحرُّ عظيماً عند الظهيرة وكان يسوع قد تعب من المسير وقد وجد المكان مظللاً باوراق الشجر والمحل رطباً فجلس يستريح على حافة البئر التي كان حفرها يعقوب في ذاك الوادي. وفيما كان التلامذة ذهبوا ليبتاعوا لهم طعاماً جاءت امرأة من السامرة لتستقي ماء فقال لها يسوع بحنو « اعطيني لاشرب » ومن المحتمل ان يسوع كان عطشان حقيقةً فاتخذ هذه الحاجة وسيلة لمكالمتها ولم يكترث بما عسى ان يكون من مبادرته بالحديث امرأةً سامرية مع علمه الاكيد بوجود البغضاء والمباعدة بين اليهود والسامريين جيرانهم ولهذا لم تكتم المرأة تعجبها من ذلك اذ عرفته من هيئة لبسه ولهجة كلامه انه يهودي فاجابت : « كيف تطلب ان تشرب مني وانت يهودي وانا امرأة سامرية » مظهرةً بخبث الامتهانَ الباطل والازدراء الغير المعقول الذي كان عند اليهود نحو السامريين وفي الوقت نفسه تبين انها لا تعبأ بذلك البتة. اما يسوع فلم يراجع السؤال لان العطش المادي لم يكن عنده ذا اهمية بل الامر المهم عطشه لاكتساب الانفس وتقويم اعوجاجها وعليه قال لها : « لو كنتِ تعرفين عطية الله ومن الذي قال لكِ اعطيني لاشرب لكنتِ انتِ تسأَلينه فيعطيكِ ماء حياً » . فهذه الكلمات الرزينة البارزة من قلب طاهر ونفس حنون تعلن حقيقة هذا المشهد العظيم لان القائل هو رجل الله والراعي الصالح والمرأة الموجه اليها هذا الخطاب انما هي النعجة التائهة من الحظيرة. آه لو كنتِ تعرفين ايتها المرأة المسكينة عطية الله والرأفة التي يعامل بها الآب العالم باعطائه اياه ابنه الوحيد. لو كنتِ تعرفين كيف ان هذه الرأفة عينها قد اهبّت كل شيء لاجل خلاصك. فلماذا اتيتِ في هذه الساعة لا قبلُ ولا بعدُ لتستقي

ماء من بئر يعقوب هذه؟ لعمري لست وحدك قد اخترت هذه الساعة بل نعمة الله قد حركتك وقادت خطواتك الى حيث المسيح ينتظرك ليُسمعك كلام الخلاص. هذه هي عطية الله لكِ

وفي الحال شعرت السامرية بتأثير كلام النعمة البارزة من فم ذلك المسافر. نعم انها ما فهمت قوة الكلام الذي قيل لها لكنها احست باطنياً بسمو آداب المتكلم معها فاجابته بكل احترام: «يارب انه ليس معك ما نستقي به والبئر عميقة فمن اين لك الماء الحي. العلك اعظم من ابينا يعقوب الذي اعطانا هذه البئر ومنها شرب هو و بنوه وماشيته» ولما كان يسوع قد اعتاد ان يرفع رويداً رويداً افكار سامعيه من التصورات الحسية الى اسمى الافكار الروحية تابع خطابه مستخدماً لابراز المعاني اجمل الصور وادق الرموز اذ قال: «كل من يشرب من هذا الماء يعطش ايضاً واما من يشرب من الماء الذي انا أعطيه له فلن يعطش الى الابد. بل الماء الذي اعطيه لهُ يكون فيه ينبوع ماء ينبع الى الحياة الابدية». فلم تفهم المرأة معنى كلامه بل خُيل لها انه يتكلم عن شيء مستحب للغاية فطلبت ان تستفيد منه عسى ذلك يمنع عنها العطش فتتخلص من تعب المجيء الى البئر كل يوم لتستقي ماء. فقالت له بلجاجة: «يا رب اعطني هذا الماء لكيلا اعطش ولا اجي استقي من ههنا». ولا غروَ ان في مقالها ما يشف عن رغبتها في الحصول على ما يريحها ولكن في الوقت نفسه يدل على انها اعتبرت في يسوع القدرة على عمل العجائب. ومن لا يترك حسنة بلا جزاء يجازي حالاً ايمانها باظهاره لها ان عنده لا فقط علماً باعطاء الحياة بل بسرائر القلوب والغيب وقد عرف اعماق قلبها وقال لها: «اذهبي وادعي رجلكِ وهلمي الى ههنا» ولم يكن قصد يسوع بدعوة رجلها ان هذا كان اهلاً لقبول تعليمه اكثر منها بل ليريها ان نظره الالهي قد خرق زوايا قلبها وعرف كل ما فيه. فصار اذا كلمها في شيء يكون لكلامه وقع اعظم في قلبها

فوقفت المرأة مبهوتة من اشارته اليها ولم ترد ان تعترف بحالتها الحرجة مع زوجها الحالي فاجابت بصوت ضعيف «انه لا رجل لي فقال لها يسوع قد احسنت حيث قلتِ انه لا رجل لي. لانه كان لكِ خمسة رجال والذي معك الآن ليس رجلكِ فبالحق تكلمتِ في هذا» . فنزل هذا الجواب نظير صاعقة قوية بلبلت افكارها ولكنها اثارت بشرارها بقية تفاصيل حياتها المظلمة وتحقق لديها ان قد عرف يسوع كل سريرتها وانه كان قادراً ان يدير سيف كلامه الحاد في احشائها لكنه تأدباً وشفقة منه عليها اكتفى بان يبين لها انها اذنبت في حق رجالها الخمسة الاول حتى تركوها والذي هو معها الآن ليس زوجها بل زوج امرأة اخرى وانها فاسقة بوجودها معه. اما تلك الشقية فلم تحاول ان تعتذر ولا بكلمة بل وقفت عند ذنبها واعترفت بتواضع بصدق مقاله اذ قالت له : «يا ربّ ارى انك نبي». وفي الحال غيرت موضوع الحديث وانتقلت الى الجدال مع يسوع في مبحث اخر كما هو شأن النساء الحاذقات فانهنّ يختلقنَ حالاً سبيلاً للتخلص مما يعود عليهنّ بالخجل والعار فالتفتت اليه قائلةً : «ان آباءنا سجدوا في هذا الجبل (واشارت بيدها الى جبل غريزيم) وانتم تقولون ان المكان الذي ينبغي ان يُسجد فيه هو اورشليم». فقبل يسوع ان يتبع سياق كلامها ويجيبها برأفةٍ «آمني بي ايتها المرأة انها تأتي ساعة تسجدون فيها للآب لا في هذا الجبل ولا في اورشليم». نعم ستلغى جميع الطقوس الخاصة بشعب او بامة لان الرب هو ابو الجميع ومتى تم الفداء يصير الانسان قادراً ان يسجد له و يدعوه في كل مكان. على انه اذا قابلنا مذهب اليهود مع مذهب السامريين نجد ان اليهود قد اقتربوا الى الحقيقة اكثر من جيرانهم السامريين كما قال لها يسوع : «انتم تسجدون لما لا تعلمون ونحن نسجد لما نعلم لانّ الخلاص هو من اليهود» لأن هؤلاء وحدهم عندهم الوحي بتمامه والهيكل الذي يعدّ ويؤهب لملكوت الله. اما السامريون فلم يقبلوا من الكتب المقدسة سوى كتب موسى ولهذا

استمروا بعيدين عن التقدم الديني الذي نجد ايضاحه في اسفار الانبياء والاسفار الحكمية. وزد على ذلك ان العقائد الدينية الجوهرية نفسها التي اخذها هولاء من اسفار موسى قد فسدت عندهم لامتزاجها مع طقوس وعقائد الاشوريين. بنوع ان دين الشعب اليهودي كان يفضل ولا ريب اعتقادات اهل السامرة الباطلة ومع ذلك ستنتهي هذه الافضلية عن قريب و يصير الكل في منزلة واحدة بالنظر الى الديانة الجديدة. وعليه يتابع السيد كلامه قائلاً « ولكن تأتي ساعة وهي الآن حاضرة إذ الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق لانَّ الآب انما يريد مثل هؤلاء الساجدين له. لانَّ الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا ». فهذه اذن تكون مزية الديانة الجديدة على غيرها اعني انها تكون ديانة الارواح. على انه لا يفهم بذلك انها تنافي وجود الكنائس والطقوس والكهنوت المادية بل ان كل هذه تساعد الانسان للسجود لله بالروح الجزء الاهم والجوهري فيه. يظن اسرائيل ان الانسان لا يستطيع ان يمجد الله الاَّ في الهيكل ومن الآن فصاعداً لا يُطلب من الانسان الا ان يجمع افكاره فيمجد الله و يسجد له في قلبه. و يكون في هذه الديانة الجديدة ذبائح وضحايا كما كان في القديمة ومثل دخان بخور العهد العتيق تصعد الصلوات نحو العلاء. وعلى مذابحها نضحي تجبرنا ومنافعنا الشخصية وملذاتنا البدنية وعليها نقدم عواطف حبنا وخضوع انفسنا فهذا اجل ما يطلبه منا الله لان الله روح هو ولا يحتاج الى دم الجدي والعجول بل يرتضي بالضحايا الروحية والحق يقال ان اعظم ضحية يمكن للانسان ان يضحيها لله هي ضحية نفسه

فهذه التعاليم النفيسة ذكَّرت المرأة السامرية بايام المسيح السعيدة التي يتوق اليها الشعوب بمجامع قلوبهم. وفكرت في ذاتها قائلة عسى ان يكون صاحب هذا الكلام السامي هو منتظر الشعوب. ولم تجسر ان تسأله علانيةً لكنها بحذاقة كلية جعلته يفهم فكرها باسلوب دقيق للغاية اذ قالت ليسوع : « قد علمت

ان ماشيح الذي هو المسيح آت . فمتى جاء ذاك فهو يخبرنا بكل شيء » .
كانت السامرية رغماً من ضعفها الطبيعي تستحق ان تسمع الحقيقة نظراً لحسن نيات قلبها فاجابها يسوع « انا المتكلم معك هو » . فالشهادة واضحة لا تحتاج الى بيان . فلو كان يسوع يتكلم مع اليهود الذين ينتظرون مسيحاً زمنياً عالمياً لما كان تكلم بمثل هذا الايضاح ولكن بما ان السامرية كانت تعتبر المسيح الآتي مستحضراً للحق اعلمها يسوع بحقيقة الواقع كما هي دون ادنى مواربة . ولا يندر وجود انتقال فجائي من اقصى الرذيلة الى اسمى درجات الفضيلة عند هاتيك النساء الضالات بسبب ضعف قلوبهنَّ . وغالباً متى ردَّ جبهنَّ الى محوره الحقيقي المستقيم يُغرِمْنَ بالخير نفس غرامهنَّ بالشر . رجع نيقودمس الى بيته بعد سماعه حديث المسيح بلا تحمس كما اتى بينما ان السامرية ترجع من امام يسوع وقلبها يطفح من الابتهاج واسرعت مجدة تبشر بما رأت وسمعت حتى هيجت جميع سكان البلد . ولكثرة فرحها تركت جرتها على فم البئر علامةً على تحمسها العظيم وقرب عودها الى يسوع ولئلا تعوقها في المسير . وكانت تصرخ عند وصولها غير مبالية ان تنبه الافكار الى سوء سيرتها : « هلموا وانظروا رجلاً قال لي كل ما صنعتُ أليس هو المسيح » فشاع خبر المرأة في جميع انحاء المدينة فاقبل اليه كثيرون

وفيما كان يتحدث مع السامرية رجع التلاميذ فتعجبوا كيف انه يتكلم مع امرأة وفكروا في نفوسهم ان الربانيين لا يتنازلون لمثل هذا لكنهم لم يجسروا ان يسألوه ماذا يطلب او بما يتحدث معها .

اما يسوع فكان غائصاً في بحر التأمل كيف ان الحقيقة التي يتبرأ منها اليهود تُقبل بانعطاف عند بقية الشعوب حتى انه لما اعد التلامذة الأكل لم يشعر هو بذلك فتقدموا اليه ينبهونه قائلين « يا معلم كُلْ » فقال لهم انَّ لي طعاماً آكله لستم تعرفونه انتم » . لعمري اليس تتميم الواجب والفوز على الضلال وعمل

الخير هو مأكل النفوس الابية؟ غير انَّ التلاميذ لم يفهموا ذلك بل قالوا فيما بينهم « لعلَّ احداً جاءه بما يأكل » . نعم لأن التغذية التي شعر بها من مجرد حديثه مع تلك المرأة اشبعته عن الأكل . فقال لهم يسوع : « ان طعامي ان اعمل مشيئة من ارسلني واتمم عمله » . وبالحقيقة متى اتم الرسول غاية ارساليته يشبع من الفرح والابتهاج

وفيما كان يسوع يتكلم مع تلاميذه واذا بالجمع اقبل من السامرة اليه ورأى رؤوسهم العديدة تتمايل فوق الزروع الصفراء فذكَّره ذلك المنظر وقت الحصاد وكيف نمى حالاً زرع النعمة في قلوب هولاء واصبحت نفوسهم بوقت قريب اهلاً لأن تُحصد وتخزن في اهراء ابيه السماوي . ودون ان يخرج عن موضوع تامله جرَّد في الحال امثولة يحسن بها غيرة تلاميذه الرسولية فقال : « الستم تقولون انه يكون اربعة اشهر ثم يأتي الحصاد ؟ وها انا اقول لكم ارفعوا اعينكم وانظروا الى المزارع انها قد ابيضت للحصاد والذي يحصد يأخذ الاجرة ويجمع ثماراً للحياة الابدية لكي يفرح الحاصد والزارع معاً » . متى نقَّت النعمة ارض النفس من اشواك الرذيلة حالاً ينجح زرع المبشر بالحق ويبيض للحصاد . وها يسوع الحاصد العظيم يلتذ بجزاء اتعابه مثل الحاصد الذي اتمَّ نهاره ومن فرحه يرى كأنَّ ذلك الحصاد الحي صار مخزوناً في اهراء ابيه ويفرح بوقت واحد نظير الزارع والحاصد وصاحب الغلة معاً . على ان الامر ليس كذلك تماماً بالنظر الى التلاميذ لأنَّ الزارع الحقيقي انما هو الكلمة المتجسد اما هم فيجمعون الحصاد ولكن وان تميز عمل الزارع عن عمل الحاصد فللعملين نتيجة واحدة وغاية واحدة وهي ان يُفرحا ربَّ البيت . غير ان عمل الحاصد جدير بالتعزية اكثر من ذلك وهذا يكون عمل الرسل ولهذا يتابع يسوع كلامه قائلاً : « وفي هذا يصدق ما قيل : ان واحداً يزرع وآخر يحصد . اني ارسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه فانَّ آخرين قد تعبوا وانتم دخلتم على تعبهم » .

ولم يلبث التلامذة ان استغلوا لاول مرة ثمرات التبشير لأن السامريين وصلوا جماهير جماهير واقبلوا على يسوع من اجل كلام المرأة وآمنوا به وطلبوا اليه بالحاح ان يُقيم عندهم فمكث هناك يومين. وكان هؤلاء السامريون باكورة نتائج التبشير الذي سيعطي اثمارًا كرمل البحر لا تعد ولا تحصى وشهادة حية على ان الفداء سيجد صدًى في الامم اكثر منه في قلوب اليهود. لان السامريين الكثيرين الذين اقبلوا اليه آمنوا به كما قالوا للمرأة : « ولسنا من اجل كلامكِ نؤمن الآن لانا نحن قد سمعنا ونعلم ان هذا هو في الحقيقة مخلص العالم »

ولم نعد نعلم ماذا صار بعدئذٍ بزرع الايمان هذا الذي حسب ظواهر الاشياء وقع في ارض جيدة ومن المحتمل ان الحركة الدينية التي حدثت في ما ولي من الايام في السامرة عند دخول الرسل اليها كانت مرتبطة بهذا التبشير الاول

الفصل الثاني

نتائج التبشير المختلفة في الجليل وفي اورشليم

نشأة الايمان في الجليل — شفاء ابن رئيس للملك في كفر ناحوم — عيد في اورشليم وابراء المخلَّع من بيت صيدا — حبس يوحنا المعمدان

طالع : يوحنا ٤ : ٤٣ و٥ : ٤٧ . لوقا ٣ : ١٩ — ٢٠ و ٤ : ١٤ متى ١٤ : ٣ — ٥ و ٤ : ١٢ مرقس ٤ : ١٧ — ٢٠ و ١ : ١٤

§

نشأة الايمان في الجليل

وبعد اليومين خرج يسوع من الناصرة واخذ طريقه متوجهًا توًّا نحو شواطئ بحيرة جناسر فاستقبله سكان تلك المحلات باعتبار عظيم لان زوار كفر ناحوم

والمدن المجاورة كانوا رأوه في اورشليم وقت العيد واخبروا باعماله العجيبة ٠ وكان الجليليون اعجبوا خصوصاً من مقاومة يسوع لسلطة الروءساء والآيات التي صنعها امامهم في اورشليم كانت توءملهم بنوال غيرها عندهم ٠ و بالنتيجة كان الجميع يتحدثون به و يتوقون لمرآه ولهذا ما كاد يصل الى قانا حيث صنع الاية الاولى حتى بلغ خبره كفرناحوم

§

ابراء ابن احد الروءساء لدى الملك هيرودس

وكان رئيس للملك ابنه مريض ولربما كان كوزا قيم هيرودس الملك ومن خدمة بلاطه او مناعم احد عشيري صباه فهذا اذ سمع ان يسوع قد جاء من اليهودية الى الجليل اسرع اليه واخبره ان فتاه مريض وقد قارب الموت وساله بالحاح ان ينزل الى كفرناحوم و يبرئ ابنه ٠ ولما كان سمع بعجائب يسوع السابقة تيقن انه قادر ان يصنع هذه ايضاً غيرانه كان يسأله ان ينزل الى كفرناحوم التي كانت تبعد عن قانا لا اقل من اربعين الف متر لظنه ان العجائب لا تصير الا بحضوره المادي الى المحل المذكور ومن ثم كان يجهل ان قدرة المسيح المطلقة لا تحتاج الى لمس ونظر المريض لتبرئه من مرضه ٠ فعدم التمعن في الاشياء وقلة الاستدلال من بعض الحوادث الى البعض الآخر والطمع في مشاهدة العجائب كل ذلك كان يحزن قلب المخلص ٠ ولا سيما عند تأمله في ان السامريين لم يطمعوا في طلب الآيات بل جل قصدهم كان البحث عن الحقيقة البارزة من فمه وانعطاف قلبه نحوهم واظهار رغبتهم في الخلاص اولاً ٠ اما سكان كفرناحوم فيطلبون العجائب اولاً كي يوءمنوا فالمسيح يجيب طلبهم ولكن كان الاجدر بهم ان يقنعوا بتعاليمه السامية اذ فيها برهان صلاحية ارساليته من الله ولهذا اجاب يسوع بحدة «ان لم تعاينوا الآيات والعجائب لا توءمنون» فهذا اللوم كان موجهاً لكافة الجمهور وللرئيس خصوصاً غير ان هذا لم يتوقف عن مراجعة

الطلب قائلاً ليسوع : « ياربُّ انزل قبل ان يموت ولدي . فقال له يسوع : « امضِ فان ابنك حيٌّ » فآمن الرجل بالكلمة التي قالها يسوع نظراً لما شعر فيها من القوة العظيمة ومضى .

وكانت الساعة السابعة من النهار فبدون ادنى عاقة ركب ذلك الرئيس وجدَّ في المسير نحو كفرناحوم وفيما هو منحدر استقبله غلمانه و بشروه قائلين ان ابنك حيٌّ . فاستخبرهم حالاً عن الساعة التي اتجه فيها الى العافية فقالوا له : « امس في الساعة السابعة فارقته الحمى فعرف الأب انها الساعة التي قال له فيها يسوع « امضِ فان ابنك حيٌّ » فآمن هو واهل بيته جميعاً وعلى هذا النمط ابتدأ الايمان الجديد يمتد في الجليل . وسنجد بعدئذٍ بين النساء التقيات اللواتي كنَّ يتبعن يسوع لاجل الخدمة امرأة كوزا قيّم هيرودس فان صحَّ انها ام الولد الذي شفاهُ من مرضه تكون قابلت المعروف بشكر لائق

§

صعود المسيح الى اورشليم او ابراء السقيم الذي من بيت صيدا

لا نعلم اي شهر كان وقتئذٍ من السنة ونجهل كم كان قد مضى من الزمان بعد عيد الفصح وهل مكث يسوع زماناً طويلاً في اليهودية حيث كان تلاميذه يعمدون . فلو امكننا معرفة ذلك لاستدللنا على العيد الذي صعد يسوع فيه ثانيةً الى اورشليم والارجح انه كان عيد العنصرة عند اليهود . فعاد يسوع الى اورشليم وقت العيد المشار اليه رغبة في ان يلاحظ الحركة الدينية وما يقال عنه بين الناس . ففي اثناء وجوده هناك مع بقية الجمهور وجد فرصةً مناسبةً لاظهار حنوه وقدرته غير المحدودة فلم يدعها تذهب ضياعاً . وكان في اورشليم عند باب الغنم بالقرب من المحل المدعو الآن القديسة حنه بركة تسمى بالعبرانية بيت حسدا اي بيت الشفقة وكان لها خمسة اروقة وكان مضطجعاً هناك جمهور كثير من المرضى من عميان وعرج و يابسي اعضاء ينتظرون

تحريك الماء لان الشعب كان يعتقد ان ملاكاً كان ينزل احياناً في البركة ويحرك المـاء . فالذي كان ينزل اولاً من بعد تموّج الماء كان يبرأ من كل مرضه .

وكان هناك بين المرضى رجل سقيم منذ ثمان وثلاثين سنة فلما نظره يسوع ملقىً على فراشه علم من كآبة منظره وضعف جسمه انه من زمان طويل يحاول الشفاء ولم يحصل عليه فرقَّ له يسوع وقال له : « اتحب ان تبرأ ؟ فاجاب السقيم يارب ليس لي انسان اذا تموّج الماء يلقيني في البركة . بل بينما اكون متقدماً ينزل قبلي آخر . فقال له يسوع قم احمل سريرك وامشِ . وللوقت برىء الرجل وحمل سريره ومشى . وكان ذلك اليوم سبتاً . فقال اليهود للذي شفي انه سبت فلا يحلّ لك ان تحمل سريرك . اما هو فاجابهم تاركاً مسئولية عمله المغاير للشريعة على عاتق الشخص الذي ابرأه اذ قال : «انّ الذي ابرأني هو قال لي احمل سريرك وامشِ » فسألوه عن الرجل الذي ابرأه فلم يعلم ان يجيبهم عن اسمه لان يسوع اعتزل عن الجمع الذي كان هناك . وبعد هذه اذ وجده يسوع في الهيكل حيث كان قد اتى يشكر الله على ابلاله من مرضه المزمن قال له : « ها انك قد عوفيتَ فلا تخطأ بعد لئلا يصيبك اعظم » فهذا الكلام يدلنا على ان مرض ذلك المخلع كان ناجماً عن توغله في الرذائل وعلى ان رغبة المسيح كانت ان يبرىء نفسه من مرض الرذيلة كما كان قد ابرأ جسده فللوقت عرفه المخلع وسأل عن اسمه وخرج من هناك يبشر اليهود ان الذي ابرأه انما هو يسوع

ولما عرف رؤساء اليهود ان الذي نقض السبت هو يسوع اضمروا له الشرّ واعتبروا ان من اهم واجباتهم المحاماة عن الناموس فاستعدوا لمقاومته اما يسوع فكان يرغب ان يدخل في الجدال معهم رغبة ان يوضح تعليمه بخصوص علاقاته مع الآب فاغتنم هذه الفرصة ولما أتوا اليه يسألونه عن صنيعه هكذا يوم

السبت اجابهم بقوة : « ان ابي حتى الآن يعمل وانا ايضاً اعمل » . وكانه قال لهم انتم تدّعون انه لا يجوز عملٌ يوم السبت لانّ الله بعد خلقه العالم مدة ستة ايام استراح يوم السبت ولكن ذهب عنكم ان راحة الله لم تكن سوى راحة نسبية اي بنسبة كونه كان يخلق وانقطع يوم السبت عن الخلق لكنه لم ينقطع البتة عن عمل العناية بالمخلوقات وحفظها في الوجود والحياة . فلو كان الله قد انقطع عن كل عمل يوم السبت كما تزعمون لكان ذلك يوم الخراب والدمار يوم انتهاء العالم وانقلاب الموجودات الى العدم . فيلزم اذن ان نقدّسوا السبت براحة نسبية نظير الله اي بعمل الخير والحسنات نحو البشر واذا كان الآب يعمل يوم السبت عمل حفظ الكائنات والاعتناء بالانسانية فالابن يمكنه ان يعمل ايضاً عمل الخير بابراء السقيم يوم السبت وإعادة صحته اليه .

فازداد اليهود حنقاً عليه وتآمروا على قتله ليس لانه كان ينقض السبت فقط بل ايضاً لانه كان يقول ان الله ابوه مساوياً نفسه بالله . فعزموا ان ينزلوا به قصاص المجدّف اي ان يميتوه . اما يسوع فلم يخف من تهديداتهم بل قابل عاصفة غضبهم بثبات جأش وبصدر من الفولاذ واستأنف الجدال موضحاً باجلى بيان نسبة العمل الضرورية الوجود بينه وبين ابيه السماوي اذ قال وهو رابط الجنان : « الحقّ الحقّ اقول لكم ان الابن لا يقدر ان يعمل من نفسه شيئاً الاّ ما يرى الآب يعمله لانه مهما يعمله ذاك فهذا يعمله الابن ايضاً على مثاله . لان الآب يحب الابن و يريه جميع ما يعمل » . فيعلن يسوع بهذه الكلمات دخيلة حياته الدينية و يوضح كيف ان نظرهُ موجهٌ دائماً الى الآب الذي لاجل حبه يُشرك الابن بعمله وكيف ان فضيلة الابن قائمة بحسن اقتدائه وتطبيق اعماله على ذاك النموذج السامي . الى ان قال : « وسيريه الآب اعظم من هذه الاعمال لتتعجبوا انتم . لانه كما ان الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن يحيي من يشاء . لان الآب لا يدين احداً بل اعطى الحكم كله للابن ليكرم

الابن جميع الناس كما يكرمون الآب » لعمري ان صفتي المحيي والديان انما هما صفتان جوهريتان من صفات الله سبحانه بالنظر الى خلائقه واذا كان اشرك بهما الابن واعطاه السلطان ليس فقط ان يشفي سقيماً واحداً وان يحيي ميتاً واحداً بل ان يعطي الحياة الابدية اولاً ثم يقيم الموتى كافةً في آخر الازمان ليدينهم علانيةً فلا ريب انه تعالى اسمه يشتهي ان يكرم الابن جميع الناس ويسجدوا له كما يسجدون للآب نفسه ولهذا يردف يسوع كلامه بقوله: « ومن لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي ارسله » وبالنتيجة ان محور الدينونة سيكون على كيفية معاملة الناس للابن فمن آمن وعمل لقيامة الحياة ومن لا يؤمن ويعمل لقيامة الهلاك وعليه قال يسوع ايضاً : « الحقَّ الحقَّ اقول لكم ان من يسمع كلامي ويؤمن بمن ارسلني له الحياة الابدية ولا يصير الى دينونة لكنه قد انتقل من الموت الى الحياة »

واسترسل يسوع في الكلام من قيامة الاجساد الاخيرة الى قيامة المؤمنين الادبية من الكفر فقال : « الحق الحق اقول لكم انها تاتي ساعة وهي الآن حاضرة يسمع فيها الاموات صوت ابن الله والذين يسمعون يحيون . لانه كما ان الآب له الحياة في ذاته كذلك اعطى الابن ان تكون له الحياة في ذاته . واعطاه سلطاناً ليجري الحكم بما انه ابن البشر . ولا تتعجبوا من هذا لانها تأتي ساعة يسمع فيها جميع من في القبور صوت ابن الله فيخرج الذين عملوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة » . الابن اذن هو كلي القدرة نظير الآب ولكن بما ان الابن قبل هذه القدرة من الآب فيعترف الابن انه آلة طائعة في يد ابيه بقوله هذا : « لا استطيع انا ان اعمل من نفسي شيئاً . كما اسمع احكم وحكمي عادل لاني لست اطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي ارسلني » . هذا ملخص علاقات الابن مع ابيه السماوي

وافاض يسوع في الكلام موضحاً براهين صدق ارساليته من الله بما افحم

الاخصام قائلاً : « وان كنت اشهد لنفسي فليست شهادتي حقاً انما الذي يشهد لي هو آخر وانا اعلم ان شهادته التي يشهد لي بها هي حق . انتم ارسلتم الى يوحنا فشهد للحق . واما انا فلا اقبل شهادة من انسان ولكنني اقول لكم هذا لتخلصوا انتم . ذاك هو السراج الموقد المنير وانتم احببتم ان تبتهجوا في نوره ساعة واما انا فلي شهادة اعظم من شهادة يوحنا لان الاعمال التي اعطى لي الآب ان اتممها هذه الاعمال بعينها التي انا اعملها هي تشهد لي بان الآب قد ارسلني . والآب الذي ارسلني هو شهد لي وانتم لم تسمعوا صوته قط ولا رأيتم صورته وكلمته ليست ثابتة فيكم لانكم لستم تؤمنون بالذي ارسله . انتم تبحثون بالكتب لانكم تحسبون ان لكم فيها الحياة الابدية فهي التي تشهد لي وانتم لا تريدون ان تقبلوا اليَّ لتكون لكم الحياة . اني لا اقبل المجد من الناس . لكنني عرفتكم ان ليس فيكم محبة الله . انا اتيت باسم ابي فلم تقبلوني وان أتاكم اخر باسم نفسه تقبلونه . كيف تقدرون ان تؤمنوا وانتم تقبلون المجد بعضكم من بعض ولا تبتغون المجد الذي من عند الله وحده . لا تظنوا اني اشكوكم عند الآب لان لكم من يشكوكم موسى الذي فيه رجاؤكم . فلو كنتم تؤمنون بموسى لكنتم تؤمنون بي لانه كتب عني . فان كنتم لا تؤمنون بكتبه فكيف تؤمنون باقوالي »

نعم هو عين الصواب ان يكون القاضي على اسرائيل من قبل الله ذلك الذي قد مهد الطرق لمجيء المسيح بشرائعه الرمزية مدة اثني عشر جيلاً فموسى نفسه يطلب يوم الدينونة وابراز الحكم على اسرائيل الذي تغاضى عن معرفة الحق

§

سجن يوحنا المعمدان

ان خطاب المسيح هذا الذي يشف عن كآبة نفس قائله يلمح الى حادث مهم جديد الوقوع وهو القاء يوحنا في السجن . واذا كان يوحنا سراجاً موقداً منيراً وقد اختفى ضوءه الآن فليس ذلك الا لأن بعض الاشرار قبضوا

عليه والقوه في السجن. فمنذ بضعة اشهر لم يعد يوحنا يحقق امنية حزب الكهنة فيه وذلك اولاً لان الوفد المرسل من قبل المجمع عاد غير ممتنٍ من جوابه ثانياً ان غيظهم قد احتدم عند ما سمعوهُ يشهد لنجار الناصرة انه هو المسيح لما في ذلك مما ينافي انتظار اسرائيل على خط مستقيم فارتابوا بصدق ارساليته وحكموا عليه بالغش والكذب وحاولوا القبض عليه فصعب الامر عليهم بسبب ميل الشعب اليه ولكن مكر الفريسيين لم يتأخر زماناً عن اختراع الحيلة فوسوسوا الى انتيباس بن هيرودس الذي كان يبغض يوحنا لاسباب شخصية فصادفت شكواهم وقعاً عظيماً عنده .

كان انتيباس هذا ابن هيرودس الكبير المدعو العسقلاني والسامرية مالتاش حاكماً على سورية والجليل وكان قد تزوج بابنة ملك بلاد العرب المدعو اريتا. لكنه لم يلبث معها زماناً حتى طلقها واخذ امرأة فيلبس اخيه. فهذا العمل القبيح هيج خواطر الشعب عليه وحمل اريتا على تجريد السلاح انتقاماً من انتيباس صهره. وكان اذ ذاك يوحنا يعظ في بيره ضمن حدود ولاية ذلك الفاسق فلم يسعه الحال الا ان يندد علانية بسوء سيرة انتيباس المشار اليه ويطعن في قبيح تصرفاته بلسان احدّ من السيف. ولم يكتفِ بالتبكيت عن بعد بل يظهر انه اسمع صوت تهديداته حتى داخل القصر وعكر صفو ملذات ذلك المجرم بتكراره له انه لا يجوز ان يتخذ امرأة اخيه . ولا بدع ان اغضب يوحنا بانذاره هيروديا نفسها واثار في قلبها شعلة الحقد عليه لانها خافت ان يذعن انتيباس لانذار يوحنا فيرعوي عن غيه فتدور عليها الدوائر فتنقطع حبال آمالها ولهذا اجتهدت ان تستلب بزيادة قلب انتيباس بما كان لديها من الوسائل الفتانة وفي الوقت نفسه تصوِّر له وقاحة يوحنا باشنع الالوان وتبين له ان وجوده انما هو خطر دائم على تمام حظها والتمتع بسعادة اجتماعها . فساعدها على ذلك طبع انتيباس نفسه الميال الى القساوة والشهوات البدنية . ولم تكن هيروديا الماكرة

تحتاج الى اكثر من ذلك لتصل الى غايتها باهلاك يوحنا. ولكن دسائس رؤساء الكهنة والفريسيين الخبيثة قد عجلت في القبض على يوحنا والقائه في السجن وكان انتيباس يبغضه نظرًا لتوبيخه اياه على رذائله ولكنه كان يجله باطنياً نظرًا لفضائله وصدق مقاله ومحبة الشعب له ولهذا اكتفى بوضعه في السجن تاركاً له بعض الحرية لان تلاميذه كانوا يأتون لزيارته في محبسه لكن مكر هيروديا مقرونًا بضعف انتيباس يصل اخيرًا الى غايته القصوى كما سيأتي بيانه .

فعرف يسوع ان زمان يوحنا قد مضى ونبراس حياته اوشك ان ينطفي ضوؤه وصار عليه وحده ان يقوم باعباء تأسيس ملكوت الله . واستدل ايضاً من بغض اهل اورشليم له ومقاومتهم لتعاليمه الخلاصية ان من واجباته ان يتنحى عن تخومهم ليقيم بيعته في غير ارضهم فصعد نحو الجليل

الفصل الثالث

يؤلف يسوع في الجليل اول عصابة جمعها لتأسيس الكنيسة

وعظه في مجمع الناصرة يذهب بلا ثمرة — اقامته في كفرناحوم — دعوة اربعة من التلاميذ ليصيروا صيادي الناس — اشفاؤه المتشيطنين في كفرناحوم وضواحيها —

طالع بشارة لوقا ٤ : ١٦ و ٥ : ١٦ ومرقس ١ : ١٦ — ٣٥ ومتى ٤ : ١٨ — ٢٢ و ٨ : ١٤ — ١٧ و ١ : ٤

§

في كيف ذهب وعظ يسوع في مجمع الناصرة بدون ثمرة

ان اسعد الايام في حياة يسوع العمومية واجداها نفعاً في عمله الخلاصي انما هي الايام التي كان يجول فيها مبشرًا في الجليل · فكان يسوع يفتح قلبه الى سكان تلك الجبال وهم كانوا يقبلونه بفرح وشكر و يسمعون كلامه ويذيعون اخبار الآيات التي كان يصنعها بينهم · وكل مسيحي يسرّ طبعاً متى تتبع اعمال المسيح في تلك البقعة ورأى نموّ وتقدم عمل الخلاص الالهي هناك ·

فحال رجوع السيد الى الجليل اخذ يبشر بقرب ملكوت الله في جميع الاندية والاجتماعات التقوية ويعظ بالتوبة وضرورة الايمان ببشارة الملكوت ويثبت لهم ان قد حضر زمان المسيح وجميع السامعين كانوا يذعنون لاقواله و يثنون عليه فطارت شهرته في كل تلك الانحاء · وكان يدخل الى المجامع ويعلّم ليس فقط في الاجتماعات الالزامية يوم السبت بل ايضاً يومي الخميس والاثنين في الاجتماعات التقوية لان سكان تلك القرى الاتقياء يذهبون عادة الى المجامع صباحاً قبل ذهابهم الى الشغل ليسجدوا لله في قدسه · وكل قرية وجد فيها عشرة اشخاص يعيشون من مداخيل املاكهم دون ان يضطروا الى شغل ايديهم لاجل معاشهم كانوا ملزومين ان يبنوا لهم مجمعاً ·

وكان في الناصرة مجمع كبير فاراد يسوع ان يعظ فيه اهل وطنه رغماً عما كان يعهده بهم من عدم الاستعداد لسماع كلامه · وقد مرّ قبلاً ذات يوم من امام المجمع ولم يرد ان يدخل اليه ولكن كي لا يُبقي لهم عذراً دخل هذه المرة حسب عادة الشعب يوم السبت ليصلي مع الجمهور · وكان اهل الناصرة تعودوا ان يروه في مثل هذه الاجتماعات التقوية دون ان يلاحظوا منه ما يميزهُ عن بقية مواطنيه

والمجمع هو عبارة عن بيت كبير مربع الشكل في آخر احدى جهاته بعض

درجات يصعد بها الى بيت المقدس نظير الخورس في كنائس النصارى وفي وسطه قبة تحتوي على كتاب الشريعة نظير بيت القربان في كنائسنا. وحول تلك الدرجات على الجانبين كانت محفوظة كرامي الرئيس والشيوخ والكاهن ووجوههم نحو الشعب الجالس في صحن المجمع حول منصة يصعدها مناوبةً كل من الكاهن والواعظ او القاري في دوره. وهذا ما نراه حتى اليوم عند اليهود. ولم يكن حق الخطابة بالشعب والوعظ محصوراً في الربانيين بل كل من شاء من الحضور ان يصعد منبر الخطابة كان يُسمح له غب الطلب. وكان الخطيب يقرأ اولاً متن الكتاب المقدس ثم يشرحه حسب مقدرته وسعة صدره وطول باعه في معرفة اللاهوت

فلما وقف يسوع النجار وطلب ان يقرأ تعجب الجميع ليس لانهم كانوا يجهلون الآيات التي صنعها في قانا وفي اورشليم وكفرناحوم لكن لعلمهم انه لم يدرس في احدى المدارس الكبرى ولم يتربَّ على يد استاذ ماهر بل في حانوت النجارة عند يوسف ابيه ولهذا لم يعتقدوا فيه الكفاءة ليقرأ قراءة اصولية وبالاحرى ان يفسر الكتاب. ومع ذلك لم يرفض الرئيس طلبه بل اشار اليه ان يتسلق منبر الخطابة فدفع اليه الوكيل او الخازن الملف المحتوي على سفر نبوّات اشعيا ولما فتح السفر وجد الموضع المكتوب فيه « ان روح الرب عليَّ ولاجل ذلك مسحني وارسلني لأبشر المساكين واشفي منكسري القلوب وانادي للمأسورين بالتخلية وللعميان بالبصر واطلق المهشمين الى الخلاص واكرز بسنة الرب المقبولة » (اشعيا ٦١:١—٢) ثم طوى السفر ودفعه الى الخادم وجلس دلالة على انه يريد ان يفسر الكتاب وكان هدوٌّ عظيم وعيون جميع الذين في المجمع كانت شاخصة اليه فجعل يقول لهم : « اليوم تمت هذه الكتابة التي تليت على مسامعكم ». واستفاض في الكلام على هذا الموضوع الموافق لواقع الحال. وكان مواطنوه وانسباؤه واصدقاؤه ورفقاء صباه هم العميان المساكين الذين اتى يسوع ليردَّ لهم البصر

وهم المأسورون الذين يرغب يسوع في تخليتهم واليهم كان يتوق ان يرسل باكورة الخلاص ولكن ان لم يبنِ ربُّ البيت فباطلاً يتعب البناؤون. وكان يسوع قادرًا ان يثبت الجزء الاول من قضيته: « ان روح الرب عليه » بشهادة يوحنا الصابغ الذي رأى وشهد ان الروح استقرّ على يسوع عند اعتماده في الاردنّ وبالآيات التي كان يصنعها. واما برهان الجزء الثاني من القضية المذكورة فواضح من الاعمال التي كان يسوع ابتدأ ان يعملها ومن استعداده لان يجود بالنفس والنفيس و يتفانى حبًا بخلاص البشر الاشقياء. كان ناموس موسى يأمر باطلاق الحرية للعبيد وارجاع الاملاك المبيعة لاصحابها كل خمسين سنة واما غاية عمل المسيح فكانت تجديد البشرية كلها ورفعها من سقطتها تحت عبودية الخطية والشهوات

على ان كلامه الذي كان يتدفق كالسيل وفصاحة عبارته مقرونةً ببلاغة المعاني حملت الجميع ان يشهدوا له بسمو المعارف و يتعجبوا من كلام النعمة البارز من فيه لكن لم يستمر ذلك التحمس زمانًا طويلاً بل انقلب حالاً الى نوع من الاستخفاف الذي غالبًا منبعه الحسد عند بعض الجيران والانسباء قال احد الحضور « اليس هذا ابن يوسف » فكان هذا السؤال المقصود سببًا للغير حتى يرشقوا يسوع ببعض سهام جارحة فعرف يسوع افكارهم فالتفت وقال لهم « لا شك انكم تقولون لي هذا المثل ايها الطبيب اشفِ نفسك. كل ما سمعنا انك صنعته في كفرناحوم اصنعه ايضًا ههنا في وطنك. كلاّ والحق اقول لكم انه ليس نبيٌّ مقبولاً في وطنه » وكأنه يقول لا تظنوا ان كونكم مواطنيّ وانسبائي يخولكم حقًا لمشاهدة مثل الايات التي صنعتها امام الغير وانما يحق ذلك لمن وافقت افكاره مقاصدي وآمن بمن ارسلني وعليه يسترسل في الكلام قائلاً: « في الحقيقة اقول لكم ان ارامل كثيرات كنَّ في اسرائيل في ايام ايليا حين اغلقت السماء ثلاث سنين وستة اشهر وحدث جوع عظيم في الارض كلها فلم

يُبعث ايليا الى واحدة منهن الا الى صرفت صيدا الى امرأة ارملة. وان برصاً كثيرين كانوا في اسرائيل في عهد اليشع النبي ولم يطهر احد منهم الا نعمان السوري». فلما سمع الناصريون ان يسوع كان يشبههم باليهود القدماء القساة القلوب الذين جحدوا نعمة ربهم و يجعل ذاته نظير اولئك الانبياء العظام الذين كانوا يؤنبون الشعب على خطاياهم امتلأوا كلهم غضباً فقاموا وطردوه من بينهم واخرجوه خارج المدينة واقتادوه الى قمة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه قصد ان يطرحوه الى اسفل احد الصخور و يميتوه قتلاً فكان ذلك العمل شاهداً عياناً على سوء استعداداتهم التي كان يسوع يبكتهم عليها . ولكنهم بينما اوشكوا ان يرموه الى اسفل اوقف غضبهم بغتة بآية اظهر فيها مجده فوقفوا مبهوتين ولم يجسر احد ان يرفع عليه يداً عادية اما هو فجاز فيما بينهم ومضى تاركاً لهم هذه الاعجوبة التي لم يكونوا يستحقون سواها

فخرج اذن يسوع وحده كمنفيّ من تلك المدينة حيث قضى معظم حياته مختفياً ولم يتبعه احد من اصحابه وعشراء صباه. ولا ريب انه التفت عن بعد مودعاً وطنه الناكر الجميل الكافر بالاحسان فوقع طائر نظره على البيت الذي تربى فيه وعلى ذلك السطح الذي ظلل طفوليته العجيبة وايام حداثته العذبة فوقف وتذكر و بكى . ثم قام حاملاً الى الغرباء كلام الخلاص الذي رفض استماعه اهل وطنه ونزل الى كفرناحوم حيث كان الامل معقوداً انه يصادف ارضاً اصلح واثبت لتأسيس كنيسته الجديدة . كيف لا وقد تنبأ اشعيا (٩: ١—٢) مخبراً ان النور سيشرق على تخوم زابلون ونفتالي ؟

§

دعوة اربعة من التلاميذ ليصيرهم يسوع صيادي الناس

فلما وصل الى بحيرة جناسر رأى سمعان بطرس واندراوس اخاه وقد تعبا عبثاً في الصيد مدة الليل كله وكانا يلقيان شباكهما لآخر مرة فصرخ بهما قائلاً

« اتبعاني فاجعلكما صيادي الناس » . وللوقت قرّبا سفينتهما الى الشاطيء وتركا الشباك وتبعاه . وجاز من هناك قليلاً فرأى يعقوب و يوحنا مع ز بدى ابيهما و بعض الأُجَراء يصلحون و يغسلون الشباك فدعاهما ايضاً ليس كما دعاهما منذ بضعة اشهر على ضفة الاردنّ . اذ لم يدعهما حينئذٍ ليتبعاه كما تتبع التلاميذ استاذها بل كما يذهب الصديق مع صديقه ولم يذهبا وراءه وقتئذ الا صدفةً والى زمان اما الان فانهما يقتفيان آثاره كفرض واجب عليهما ودائماً

فذاع خبره في تلك الانحاء فتقاطرت الجموع اليه وازدحم الناس حولهُ لسماع كلمة الله وهو واقف على شاطىء البحيرة واذ لم يعد في وسعه ان يسمع صوته الى كافة الحضور رفع نظره فرأى سفينتين راسيتين في البحيرة فاوعز ان يدنوا احدى السفينتين الى البر فركبها وكانت لسمعان بطرس . فهذا الحادث البسيط في الظاهر كان يشير الى مقاصد المسيح العتيدة ان تتم في اوانها بالنظر الى الافضلية التي كان مزمعاً ان يمنحها الى سمعان في الكنيسة . والحق يقال ان يسوع لم يبرح يعلم ويرشد كنيسته من ضمن سفينة سمعان بطرس منذ تسعة عشر جيلاً . فسأله يسوع ان يتباعد قليلاً عن البرّ وجلس يعلم الجموع من السفينة . فياله من مشهد بديع يأخذ بمجامع القلوب . اذ بينما كان الجمع المزدحم هناك يصغي الى كلام يسوع منهم جلوس ومنهم وقوف متوكئون على تلك الصخور البركانية كانت المياه تتماوج بلين على جانبي السفينة فيتمايل عجباً ذلك المنبر تحت قدمي يسوع . ومما كان يزيد بهجة المشهد صباح ذلك النهار النقي ومنظر الطبيعة الحي . فاي هيكل او اي قصر كان يضاهي ذلك المجتمع التقوي تحت جوّ عسجدي غاية في الصفاء تكتنفه المياه من كل جهة وتكلله التلال المكتسية بوشاح أخضر مختلف الالوان

ولما فرغ يسوع من الكلام قال لسمعان « تقدم الى العمق والقوا شباككم للصيد » . رغبة ان يبقي في افكارهم ذكراً لا يمحى لتأثير خطابه في قلوبهم

اكثر من ان يجازيهم على الخدمة التي قدموها له. وهكذا كان حنوه الابوي يعامل كلاً حسب مشربه وعليه فالى الصيادين المساكين كان يهيء صيداً عجيباً. فاجاب سمعان وقال له: يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نصب شيئاً ولكن لاجل كلمتك القي الشبكة » فسرعة سمعان للعمل باشارة المسيح برهان واضح على ايمانه الحي بقوة كلمة يسوع القادرة على كل شيء. وحالاً اشاروا الى شركائهم في السفينة الاخرى ان يأتوا و يعاونوهم فأتوا وملأوا السفينتين معاً حتى كادتا تغرقان. فعرف سمعان نظراً الى طول اختباره في الصيد ان في ذلك العجوبة باهرة فاعتراه الخوف والذهول هو وكل من معه لاجل صيد السمك العجيب الذي اصابوه فخرّ ابنَ يونا عند ركبتي يسوع قائلاً: « اخرج عني يارب فاني رجل خاطئ». فالتفت اليه يسوع لفتة اب رؤوف واعاد له بنوع خصوصي النبوّة التي كان سبق وكلمه بها قائلاً: « لا تخف فانك من الآن تكون صائداً للناس ». وكان الخوف والذهول قد استولى ايضاً على اندراوس و يعقوب و يوحنا فدعاهم يسوع كي يتبعوه مع سمعان فلما بلغوا بالسفينتين الى البر تركوا الشباك والسفينتين حتى السمك الذي اصطادوه وتبعوا يسوع نابذين ظهرياً كل علائق العائلة والاهل والاصدقاء.

§

اقامة يسوع في كفرناحوم

من المحتمل ان يسوع قضى ذلك النهار على شاطئ بحيرة جنّاسر بمعية التلاميذ الذين دعاهم ولما اقبل يوم السبت توجه الى كفرناحوم ليعظ الشعب في المجمع

اما موقع كفرناحوم فكان في سفح التل الداخل في البحيرة الموجود الآن بين عيمه وتين وتبيغه. والاقنية التي اكتشفها المؤلف منذ سنتين برهان قاطع على صحة ما تقدم ففيها كانت تسيل الى سهل جناسر مياه ذلك النبع

الشهير الذي اتى بذكره يوسيفوس. وكانت كفرناحوم محطاً لرحال القوافل تؤمها الغرباء من كل صوب للاخذ والعطاء في اسواقها وكانت رائجة فيها خصوصاً تجارة بواكير الاثمار والاسماك والحبوب المتنوعة. السوريون كانوا يأتون اليها بمنسوجاتهم الحريرية والبدو يجلبون اليها اصواف مواشيهم و يمتارون منها لوازم بيوتهم و بالاجمال كانت تلك المدينة مجتمعاً لتجار اليهود والوثنيين معاً. وكان فيها جمرك وفرقة من المحافظين بسبب وجودها على الحدود الفاصلة بين ولايتي فيلبس وانتيباس. فاستخار يسوع ذاك البلد محلاً لاقامته وكان يدفع جزية الراس. اما موقع كفرناحوم فكان من اجمل المواقع وابدعها فمن قمة ذلك الصخر العظيم المبنية عليه المدينة كان النظر يمتد الى ناحيتي الشمال والجنوب من مجدلا الى بيت صيدا جوليا ومن هناك يتطاير الى البعد فوق مياه البحيرة العسجدية اللون و يتلذذ برأى تلك الطيور غير المحصاة التي تحوم مرفرفةً فوق المياه. وعند المساء اذ يأخذ ظل التلال المجاورة ينحني فوق الماء نظير ستار حريري شفاف كان يشعر الناظر امام ذلك المشهد الجميل باندفاع باطني الى التأمل والهجس بالحقائق السامية ومن ثم يظهر لنا السبب الذي حمل يسوع على ان يستوطن هناك واي لذة كان يجد بايضاح الحقائق السماوية بازاء منظر طبيعي كهذا

اما بناء المدينة فكان من الحجر البركاني الاسود غير ان السكان كانوا قد اعتادوا ان يبيضوه بالكلس ومن انعكاس اشعة الشمس على الحيطان البيضاء وامتزاجها بالاشعة المنعكسة عن الصخور السوداء او عن المروج الخضراء كان يتألف في الهواء مشهد مثل قوس الغمام يدهش النظر. وكان الشعب الكثير يجول اسواق المدينة الضيقة معطياً اياها حركة حياة غير عادية في مدن الشرق. وكان يسوع يطوف و يكلم الجمع و يعظه كلما اتيحت له فرصة مناسبة الا انه كان يفضل ان يخاطبهم ايام السبوت في المجمع وكل من يسمع

كلامه كان يشهد ان تعاليمه اسمى من تعاليم الربانيين لان يسوع كان يختار المواضيع الدينية المهمة والمباحث العلمية ويفسرها لهم كمن له سلطان بما طبع عليه من الفصاحة والوضوح بينما ان الكتبة كانوا يضيعون اوقات الوعظ بجدالات لا طائل تحتها ولا فائدة عملية منها مكتفين بشقشقة اللسان وضم الكلمات بعضها الى بعض دون طائل

فبينما كان الشعب يعير كلام يسوع اذناً صاغية وهو يعلمهم في المجمع واذا برجل فيه روح نجس دخل المجمع وانساب بين جمهور السامعين و بقي صامتاً مدةً من الزمان يسمع وعظ يسوع. لكن الروح النجس الذي كان فيه لم يستطع ان يلبث زماناً طويلاً ساكتاً لان كل كلمة من خطاب يسوع كانت كسهم صائب في قلبه فصاح من حنقه بصوت الرجل المسكون « ما لنا ولك يا يسوع الناصري اتيت لتهلكنا. قد عرفتك من انت. انك قدوس الله » فبهت الجمع الحاضر وظلوا منتظرين ماعساه ان يكون. فعرف يسوع العدو ولم يكترث بشهادته وانتهره قائلاً: « اخرس واخرج من الرجل ». ففي الحال خبط ذلك الروح النجس الرجل في وسط المجمع وصاح بصوت عظيم وخرج منه دون ان يوقع فيه ادنى ضرر

فدهش جميعهم اذ رأوا القوتين العظيمتين اي يسوع والشيطان تتنازعان ملك الارض وكيف ان هذا اتى صاغراً بين يدي من أُعطي كل سلطة على الاجساد والارواح معاً. وكان الخوف والرعبة قد اعتريا الجميع وجعلوا يتساءلون قائلين: « ما هذا الامر وما هذا التعليم الجديد فانه يأمر ايضاً الارواح النجسة فتطيعه »

وخرج يسوع من المجمع والسنة الجمهور تترطب بالثناء عليه وذهب تواً الى بيت سمعان بطرس و بصحبته اندراوس و يعقوب و يوحنا. وكانت حماة سمعان مصابةً بحمى فاخبروه بأمرها وسألوه ان ينظر اليها و يشفيها. ومن كان

يشفق على الغرباء ويشفي امراضهم هل ينكر ذلك على تلميذه الحبيب ويردّ طلبه ؟ وللوقت دنا من فراشها واقامها آخذاً بيدها وفي الحال تركتها الحمى ورجعت قواها فصارت تخدمهم

§

إبراء المتشيطنين والمسقومين في كفرناحوم وضواحيها

وعند المساء بعد الغروب اذ انتهت راحة السبت احضروا الى يسوع كل من كان به سوء وجميع الذين بهم شياطين واجتمع السواد الاعظم من سكان المدينة عند باب بيت سمعان · فاضطرَّ يسوع ان يشتغل بهم الى قرب منتصف الليل فابرأ كثيرين من المعذَّبين بامراض مختلفة واخرج شياطين كثيرين· اما الذين لم يقفوا على اخباره الا متأخراً فعقدوا النية ان يأتوا اليه عند انبلاج الصباح· غير ان يسوع قام باكراً جداً قبل الفجر وذهب خفية الى مكان قفر وكان يصلي هناك

فعند الصباح اذ طلبوا يسوع ولم يجدوه في البيت اخذ سمعان وجمهور عظيم يفتشون عليه فلما وجدوه يصلي قال لهُ التلاميذ « ان الجميع يطلبونك » وفي الحال وصل جمهور عظيم واخذوا يصرخون : « لا تتركنا لا تبارحنا » فاجابهم يسوع بحنو : « لنسر الى القرى القريبة والمدن لاكرز هناك ايضاً لاني لهذا جئت » · ومشى امامهم وكان يكرز في مجامعهم في كل الجليل ويشفي امراضهم ويخرج الشياطين بقوَّة كلمته

وفي احدى هاتيك المدن الصغيرة ابرأ يسوع رجلاً ابرص وكان البرص مرضاً منتشراً جداً بين اليهود وقد سرى الى الشعب اليهودي ابان عبودية مصر وما برح يفتك فيهم فتكاً ذريعاً رغماً عن سعة العيش التي اتصل اليها اسرائيل بعد خروجه من مصر حتى انه ذهب بحياة عيال كثيرة · فاجتهد مشترعو ذلك الشعب في منع تفشي وسريان هذا المرض فسنوا شرائع قاسية

جداً على البرص رغبة ان يطهروا البلاد منه. منها ابعاد المضروب بالبرص عن مخالطة بقية الناس الى ان يصل المرض الى الدرجة التي فيها لا يعود يخشى من عدواه. وكانوا يضعون له الاكل والشرب في مكان معين فيأتي الابرص خفية فيأكل و يشرب دون ان يراه احد و يرجع الى مقره نظير وحش الغاب. وفي حدة المرض كان ينتفخ الجسم كله وتنتثر اظافر اليدين والرجلين ويخرج القيح الفاسد من العينين والانف والفم ويمرض الجسد من قمة الراس الى اخمص القدم. ففي هذه الحالة المكربة كان المبلو بالبرص ملزوماً ان يحضر امام الكاهن ليطهرُ. لانه متى وصل الداء الى هذه الدرجة يكون قد قلَّ خطر الموت وتمتنع العدوى

اما الابرص المحكي عنه في الانجيل فكان في حالة يرثى لها وكان المرض قد امتد في جسمه كله. ولما سمع بعجائب يسوع اسرع اليه دون ان يعبأ بتحريمات الشرائع. وفي الطريق كان يتحايد مشاهدة الناس ولما دخل بين الجمع تستر بنوع انه لم يشعر به احد حتى وصل وسجد عند قدمي يسوع ووجهه القبيح نحو الارض وقال: «يا سيدي ان شئت فانت قادر ان تطهرني». فتحنن عليه يسوع عندما رأى ايمانه القوي بقدرته وثقته العظيمة برأفته فنظر اليه نظرة الاب الشفيق ومدَّ اليه يده ولمسه فتعجب الجمع كيف انه يلمس الابرص دون ان يخاف من العدوى وقد فاتهم ان ربَّ الشريعة ليس تحت الشريعة وان المخلص في وسعه ان يلمس الابرص دون ان يتنجس منه وقال له بثبات جأش كمن يميت لفظة الشريعة ليحيي روحها: «قد شئتُ فاطهر». وللوقت ذهب عنه البرص وطهرُ. وصرفه يسوع سريعاً منتهراً اياه الاَّ يقول لاحد شيئاً لكنه اوصاه قائلاً: «امضِ فارِ نفسك لرئيس الكهنة وقدّم عن تطهيرك ما امر بهِ موسى شهادة لهم»

وكان سرور الابرص الذي شفاهُ يسوع من مرضه اعظم من ان

يختفي فما كاد يخرج من امام يسوع حتى جعل ينادي ويذيع بجهير الصوت خبر طهره · وكان يسوع اوصاه بالصمت حذراً من هيجان الشعب لئلا تفوته الغاية القصوى من ارساليته لانه لم يأتِ لصنع العجائب بل ليعلم ويخلص الجنس البشري · ولهذا نراه يتحاشى بعدئذٍ ان يدخل مدينة علانيةً بل بقي في الخارج في مواضع مقفرة غير ان الجماهير كانت تقبل اليه من كل جهة فاضطرَّ ان يركب سفينته ويدخل الى كفرناحوم

الفصل الرابع

ان رافة وقدرة يسوع يؤكدان نجاح وانتشار بشارته

بيان كون يسوع قادراً ان يحل الخطايا — فتح ابواب الملكوت الى العشارين — امتداد قدرة يسوع على شفاء الامراض وتسلطه على عناصر الطبيعة والشياطين والموت

طالع لوقا ٥ : ١٧ — ٣٩ و ٨ : ٢٢ — ٥٦ و ٧ : ١ — ١٧ · مرقس ٢ : ١ — ٢٢ و ٥ : ١ و ٦ : ٦ · متى ٩ : ١ — ٣٤ و ٨ : ٥ — ١٣ — ١٨ — ٢٣ — ٣٤ و ١٣ : ٥٤ — ٥٨

§

بيان كون يسوع قادراً ان يحل الخطايا

ولما ذاع خبر يسوع وتناقلت الالسن تعاليمه السامية تألفت لجنة من علماء الناموس والفريسيين وقصدوه من جميع قرى الجليل واليهودية ومن اورشليم الى كفرناحوم محل اقامته حتى يرقبوا اعماله وتعاليمه · وكان دأب الربانيين وهمهم في تلك الايام البحث عن اماكن الدعوات والاجتماعات ليأخذوا فيها المقام الاول

و يظهروا للناس معارفهم في المناقشات التي كانت تدور بين الحضور. فحالما عرفوا بوصول يسوع ونزوله في بيت سمعان اسرعوا ومعهم جمهور كبير الى حيث نزل يسوع. وللوقت امتلأ داخل البيت والرواق الخارج وصار ازدحام عظيم داخل البيت وخارجاً حتى لم يعد يوجد محل لاحد يضع فيه رجله لان الجميع كانوا يطلبون القرب من يسوع ليسمعوا كلامه. وفيما هم على تلك الحال واذا برجال يحملون مخلعاً على سرير. فحاولوا الدخول الى امام يسوع ليطلبوا منه شفاء ذلك العليل المسكين فلم يستطيعوا سبيلاً لسبب تكاثف الجمع على الابواب. غير ان الفرصة كانت مناسبة لاستجابة طلبهم ونوالهم مرادهم فعزموا ان لا يضيعوها سدًى فلجأوا الى حيلة مكنتهم من الوصول الى يسوع بطريقة لم تكن ببال احد. وذلك انهم صعدوا بالمخلع الى السطح فثقبوه ودلوه من بين اللبن مع سريره الى وسط المحفل الى قدام يسوع

ولا ريب ان ايمانهم كان حياً حتى انتصر على جميع المصاعب التي حالت امامه وتوصل الى ان وضع المخلع امام قدمي يسوع فكان فعلهم هذا بمثابة صلاة لا ترد. فقدّر يسوع ايمانهم هذا حق قدره وبهت الجمع الحاضر وايقن بحدوث اعجوبة عاجلاً على انهم تعجبوا كلهم لما سمعوا يسوع يقول للمخلع: «يا رجل مغفورة لك خطاياك» ولعمري ان شفاء الامراض الخارجية ليس هو الحد الاخير الذي تقف عنده قدرة المخلص لكنها تمتد الى ما هو وراء ذلك اي الى النفس الداخلية والى الضمير الباطني فتطهره وتُحييه بالنعمة رغماً عن جراثيم الموت التي القتها فيه الخطية المميتة. ولكن أليس ذلك العمل العظيم خصيصاً بالله وحده؟ لانه اذا كانت الخطية تهين العظمة الالهية فلا يحق لاحد غير الشخص المهان ان يغفرها ويسامح المجرم من غوائلها. ولم يختلف رأي الكتبة والفريسيين في هذا الصدد عن جادة الحق والصواب ولهذا جعلوا يفكرون و يقولون: «من هذا الذي يتكلم بالتجديف. من يقدر ان يغفر الخطايا الا الله وحده». والحق

يقال انه من الضرورة ان يكون المتكلم كما سبق اما مجدفاً حقاً واما الهاً حقاً . فعلم يسوع افكارهم واحب ان يجيبهم على قياسهم ذي الحدين ببرهان ماضي الشفرتين يضطرهم الى انتاج كونه الهاً حقاً لا مجدفاً وفي الحال اثبت برهانه بصنع العجائب ومن يصنع العجائب انما هو اله . وعليه التفت وقال لهم : « بماذا تفكرون في قلوبكم » . فبعد ان عرف في نفس المخلع وجود الخطايا والاستعدادات الكافية لنوال الغفران يخرق نظره الآن ألباب المناقشين ويرى فيها الصعوبات التي تلوح لهم والمشاكل اللاهوتيـة التي يجدونها ولهذا يردف كلامه بقوله لهم : « ما الايسر ان يقال مغفورة لك خطاياك ام ان يقال قم وامش » . لعمري ان الامرين يفوقان طاقة الانسان ولكنهما يسهلان على الله عزّ وجل . وعليه فلا مشاحة في ان يسوع صدق بدعواه ان له سلطاناً على ان يغفر الخطايا اذا جعل المخلع يمشي مستقيماً لانه يكون اثبت سلطانه على شفاء امراض النفس الداخلية بواقعية سلطانه على شفاء الامراض الجسدية . وكان الجمع الحاضر يستنظر بفروغ صبر ما عسى ان يكون . فان تمت الاعجوبة وقام المخلع ومشى امامهم يكون الانتصار ليسوع و يلحق الكتبة والفريسيين الخزي والعار والا يكون الامر بالعكس وتدور الدوائر على يسوع . ولما لم يجب احد على سؤال يسوع بل بقي الجميع صامتين قال يسوع بجهير الصوت : « ولكن لكي تعلموا ان ابن البشر له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا . ثم قال للمخلع لك اقول قم احمل سريرك واذهب الى بيتك » . وفي الحال انتعشت قواه وتحركت عضلاته وقام قدّامهم وحمل السرير الذي كان مضطجعاً عليه ومضى الى بيته على مرأى من الجمهور كله الذي اخذته الدهشة والحيرة عند ما رأى عجائب الله امامه

فالنتيجة ظاهرة وضرورية لا مناص منها . ان الله وحده قادر ان يحل الخطايا والحال ان يسوع يزعم بان له هذه السلطة عينها و يثبت زعمه باعجوبة

باهرة والاعجوبة هي اصدق شهادة من الله على صحة كلام انسان فاذاً يسوع المسيح هو اله حقاً. ففهم الجميع قوة هذا الاستدلال وخرج الكتبة والفريسيون مذعورين من امام يسوع اما الشعب فمجدوا اله اسرائيل قائلين: «لقد رأينا اليوم عجائب لم نرَ مثلها قط»

ثم ان من الحم اخصامه بعمل يدل على عظم قدرته غير المتناهية لم يلبث ان ادهشهم بعمل اخر يشفُّ عن عظم رافته غير المحدودة. ولا شيء كان ابغض الى اليهود من جماعة العشارين. فهذه العصابة المكلفة من الحكومة الرومانية بجباية الاعشار كانت في راي الكل عبارة عن الاستبداد الاجنبي والظلم والعسف. فاذا كان العشار وثنياً كان يُعتبر دنساً وان كان يهودياً فجاحداً وخائناً للدين والوطن. ولما كانت كفرناحوم على الحدود التي تمر بها القوافل العديدة كانت مقرّاً لعدد عظيم من اولئك العشارين. ومن المرجح ان كثيراً من هولاء كانوا قد سمعوا كلام يسوع في المجتمعات العمومية غير انهم لم يجسروا ان يأتوا اليه علانيةً نظراً لعدم استحقاقهم المشهور. وكان بينهم عشار اسمه لاوي او متى فهذا كان اقرب من جميعهم الى الحق وقد عرف فيه نظرُ المخلص استقامةَ قلبه وكان يستنظر فرصة مناسبة ليدعوه اليه

فاذ كان يسوع راجعاً نحو المدينة من شواطىء البحيرة حيث كان يجب ان يكرز مرَّ امام الجمرك فرأى لاوي بن حلفى جالساً عند مائدة الجباية. فهذا العشار لما وقع طائر نظره على يسوع وتلاميذه الذين كانوا يحيطون به احاطة الهالة بالقمر اخذت تتنازع فؤاده رغبة اصلاح حاله من جهة والاسف على ترك وظيفة يجرُّ منها مغنماً عظيماً من جهة اخرى. ولا غرو ان للنفس اوقاتاً تنضج فيها الافكار كما ينضج الثمر على الشجر فتمر عليها روح النعمة فتتناثر من ذاتها نظير الثمر الناضج في حضن الله. وكان لاوي قد وصل الى تلك الحالة لما نظره يسوع وقال له «اتبعني» وللوقت ترك العشار مائدة الجباية ومصلحته واصدقاءه وكل

شيء له وقام وتبعه كأنه لم يكن مستنظراً سوى هذه الدعوة. ومن المحتمل انه غير اسم لاوي واتخذ اسم متى (عطية الله) ذكراً لهذه النعمة التي حازها وهكذا يسميه ابناء الكنيسة الاولية. فيالها من عطية الهية حولت ذلك العشار الذي كان معدوداً كرذالة الهيئة الاجتماعية الى تلميذ المخلص ورئيس الالفة الجديدة

§

فتح ابواب الملكوت الى العشارين

واحتفاء بذلك الانقلاب العظيم أدب متى ليسوع مأدبة عظيمة في بيته دعا اليها جمعاً غفيراً من اصدقائه وموظفي الجباية رغبة في ان يقربهم الى يسوع وغيرة منه على خلاصهم. اما يسوع فقبل الدعوة بطيبة خاطر نظراً لما طبع عليه من الحنو والرافة رغماً عما كان في ظواهر الامر من التعريض بنفسه للملامة. و بالحقيقة لم يخلُ الامر من تذمر الفريسيين والكتبة الذين كانوا يراقبونه فاتوا الى التلاميذ وقالوا لهم: «لماذا تاكلون وتشربون مع العشارين والخطاة». فسمع يسوع تذمرهم وقال لهم: «لا يحتاج المتعافون الى طبيب لكن ذوو الاسقام» فاذا كان الفريسيون ابراراً وصديقين كما يزعمون فلا حاجة لهم الى المخلص لان هذا انما جاء ليدعو الخطاة الى التوبة. واردف كلامه بقوله: «اذهبوا وافهموا هذا اني اريد رحمة لا ذبيحة» نعم ان فعل الرحمة نحو القريب لهو اثمن في عيني الرب من الذبيحة التي هي اسمى دليل على تعلقنا بالله وسجودنا له ولهذا يصرف يسوع جهده في خلاص الضالين عن جادة الخير اكثر من اهتمامه بتقديم الذبائح في الهيكل. الانفس الهالكة تستنظره وهو لا يهملها وعليه يقول «اني لم آتِ لادعو صديقين بل خطأة الى التوبة»

تخزى ايضاً اخصام السيد له المجد في هذه المناقشة التي منها كانوا يرجون النصر والظفر ولكنهم لم يقنطوا بل استأنفوا الكرة عليه من وجه آخر.

فاتوا بتلاميذ يوحنا المعمدان وسالوه قائلين : « لماذا تلاميذ يوحنا يصومون كثيراً و يواظبون على الصلاة وكذلك تلاميذ الفريسيين وتلاميذك يأكلون ويشربون » . فمن مدة وجيزة كان موضوع الجدال على جلساء الوليمة والان يجرد الاخصام اعتراضهم من مادة الوليمة عينها . فاجابهم يسوع وهو رابط الجاش قائلاً : « هل تستطيعون ان تصوّموا بني العرس ما دام العروس معهم . كلاّ » . فبكل رقة وحكمة يورد هنا المخلص جواباً لتلاميذ يوحنا عين الصورة التي استعملها معلمهم سابقاً ليبين دوره الخاص بالنظر الى المسيح المنتظر من اسرائيل في عمل التجديد الديني . ثم سكت يسوع هنيهة وهتف بروح نبوي قائلاً : « ولكن ستأتي ايام يرتفع فيها العروس عنهم وحينئذٍ يصومون في تلك الايام » . نعم خاتمة جهاده على الارض معروفة لديه و يخبر بها اخصامه قبل حلولها . نعم ستأتي ايام يرتفع فيها العروس على خشبة الصليب والاشخاص الذين يخاطبهم الان ستكون ايديهم في العمل لتتميم تلك الفاجعة الهائلة . وحينئذ تأتي ايام الحزن والمحن والخوف على اولئك التلاميذ الذين يأكلون و يشربون فيُقادون امام المجالس والولاة و يحكم عليهم بالجلد والموت . وليس فقط بالصوم والدموع السخينة سيقيمون الكنيسة بل بالدم والاستشهاد . فلماذا اذن اخضاعهم من الآن لتلك التقشفات القاسية قبل الاوان فهذا من شانه ان يذهب بشجاعتهم و يقطع حبال آمالهم فتخور قواهم الادبية قبل ان يبلغوا الغاية المقصودة وعليه يسترسل يسوع في الكلام قائلاً : « ليس احد يشقّ رقعة من ثوب جديد و يجعلها في ثوب بالٍ . والا فيكون الجديد قد شُقّ والرقعة من الجديد لا توافق البالي » . ومؤداه ان الدين اليهودي اضحى نظير الثوب البالي فلا توافقه ولا تنفعه الرقعة من الديانة الجديدة وفضلاً عن ذلك ان الديانة المسيحية لا تتجزأ ليعطى منها قسم و يُترك الآخر . و يوضح يسوع فكره بمثل آخر قائلاً : « ولا يجعل احد خمراً جديدة في زقاقٍ عتيقة والا فتشق الخمر الجديدة الزقاقَ وتراق هي وتتلف الزقاقُ .

لكن ينبغي ان تُجعل الخمر الجديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً »· فليس اذاً من الصواب الزام التلاميذ الذين ما برحوا مملوئين من افكار الانسان العتيق بحفظ شريعة الدين المسيحي الروحية محضاً اذ ليس في وسعهم احتمالها بل كان على يسوع اولاً ان يطهر نياتهم المنحرفة و ينقي اميالهم الفاسدة ومن بعد ان يكون قد صاغهم من جديد يسلمهم مع بقية الوصايا شريعة الامانة وقهر الذات التي هي من اقوى آساس الدين المسيحي اما الان فآذانهم اللحمية تأبى سماع ما هو صعب على الطبيعة· ولهذا يقول يسوع : « ما من احد يشرب المعتقة و يريد الجديدة لانه يقول المعتقة اطيب »· فيظهر من خلال كلام السيد انه يريد ان يصير كلاً للكل ليكتسب الكل لله· وما كان يترك فرصة الا وينتهزها لايضاح حقائق بشارته الجديدة· ومن المعلوم ان القدماء كانوا يرغبون في اطالة الاحاديث على المائدة وعليه نرى يسوع غالباً يوضح ادق الحقائق الدينية وقت الأكل واحياناً اخرى يحل ابان الولائم اصعب الاعتراضات التي يأتي بها اخصامه ليجرّبوه

§

امتداد قدرة يسوع على شفاء الامراض وتسلّطه على عناصر الطبيعة وعلى الشياطين والموت

وما اوشك ان ينهي كلامه معهم الا ودنا اليه في بهو الوليمة رئيس مجمع وكانت تظهر على ملامح وجهه امائر الحزن واضطراب البال بالنظر الى ابنته الوحيدة التي اشرفت على الموت . فهذا عندما راى ابنته تخطفها يد الحمام طار صوابه وخرج يطلب يسوع اينما كان ولما وجده انطرح على قدميه وسجد له قائلاً بفروغ صبر : « ان ابنتي قد ماتت لكن هلمَّ فضع يدك عليها فتحيا » ولعمري ان طلبه إعادة الحياة الى ابنته طلباً صادراً عن ايمان حي يدلنا على التصور الذي كان لرؤساء الدين اليهودي في قدرة يسوع المسيح· فقام للوقت يسوع عن المائدة

ليظهر لنا انه يذهب الى محل الحزن والكدر بنفس الرغبة التي يذهب بها الى الولائم الفاخرة فتبعه ايضاً تلاميذه

فلما دخل السوق اجتمع حول يسوع جمهور كبير اتوا من كل صوب ليروا ماذا يكون من امر الابنة المشار اليها. واذا بأمراةٍ بها نزف دم منذ اثنتي عشرة سنة وقد انفقت كل ما لها على الاطباء دون ان تستفيد شيئاً. غير ان ما كانت تسمعه عن يسوع كان يجعلها تأمل الحصول على الشفاء من يده. ولكن ما الحيلة للوصول اليه واخباره سراً بحالتها مع ازدحام الجمع عليه لان الحشمة واللياقة كانتا تمنعانها عن اشهار مرضها علانيةً. ففكرت في نفسها ان فرصة ازدحام الجمع كانت مناسبة للغاية المقصودة منها لان امواج الجماهير المتألبة حول يسوع كانت تقذفها طبعاً حتى توصلها اليه دون ان يلحظها احد. وقالت في نفسها: «ان مسست اهداب ثوبه فقط برئت». وفي الحال انسابت بين تلك الجماهير حتى دنت من خلفه ومست طرف ثوبه وللوقت شعرت بارتعاش في كل جسمها بشرها بنوال الشفاء من مرضها المزمن. فعند ما شعر يسوع بلمس تلك اليد الشديدة الثقة بقدرته ورأفته ترك قوة فائقة الطبيعة تخرج منه وتشفي النازفة ثم قصد ان يعضد ايمان الجمع الحاضر باشهار تلك الآية الى الجمهور فالتفت وقال: «من مسّ ثيابي» فبُهت الجمع وارتدوا من حوله الى الوراء ولم يجبه احد بكلمة. فذلك السكوت قد نبه الافكار الى يسوع. اما بطرس فنظراً الى حدة طبعه والدالة التي كانت له على يسوع قال له: «ترى الجمع يزحمك وتقول من مسني» ولما كان بقية التلاميذ يرددون القول نفسه قال لهم يسوع: «بلى ان احداً لمسني لاني شعرت بالقوة التي خرجت مني» وفي الوقت نفسه ادار يسوع نظره في الجمع ليرى التي فعلت ذلك فخافت المرأة وارتعدت لعلمها بما حدث لها فانحازت على جهة من الجمهور وجاءت فخرّت على قدمي المخلص واعترفت علانية بنزف دمها وشفائها العجيب من مجرد مس طرف ثوبه. فاراد يسوع ان يظهر

للجمع ان شفاءها لم ينتج من مجرّد مسّها لثوبه فقط بل بالاحرى لانها مست قلبه الالهي بايمانها الحار فقال لها: «يا ابنة ايمانكِ أبراكِ. فاذهبي بسلام وكوني معافاةً من دائكِ» . ويؤكد لنا التقليد ان تلك المرأة قد اقامت امام بيتها في بنسياس محل ولادتها تمثالاً من النحاس يصوّرها جاثيةً تتضرع و يسوع واقفاً وعباءته على كتفه يمد اليها يده دلالة على شفقته عليها وشفائها من مرضها

وعلى هذا المنوال توقف يسوع في الطريق زماناً قبل ان يصل الى بيت يائيروس رئيس المجمع المشار اليه. وكان هذا الاب المنكود الحظ يلح على يسوع بالاسراع الى بيته بواسطة تنهداته وتضرعاته لان كل دقيقة كانت في عينيه اجيالاً. وقد صوّب واقع الحال لجاجته اذ فيما كان يسوع يتكلم جاء ذوو رئيس المجمع واخبروه ان ابنته قد لفظت روحها ومن ثمَّ قالوا له: «لماذا تتعب المعلم بعدُ». فوقع ذلك الخبر المشؤوم على ذلك الاب المسكين نظير صاعقة ضربت دماغه وعقلت لسانه ولم يعرف ماذا يصنع فنظر اليه يسوع ورقَّ لحاله وقال له: «لا تخف آمن فقط» واومأ الى الجمع ان يتربص في محله ولا يتبعه احد الا بطرس و يعقوب و يوحنا فهولاء الثلاثة وحدهم يكونون دائماً من الآن فصاعداً شهود اعماله العظيمة

ولما دخلوا بيت يائيروس وجدوا ضجيجاً وقوماً يبكون و يولولون كثيراً قد اقبلوا حسب العادة الى بيت الفقيدة ليشتركوا مع والديها بالحزن. وكان صوت العويل والبكاء والنحيب يرن في كل جهة. فالتفت يسوع وقال لهم: «لماذا تضجون وتبكون ان الصبية لم تمت ولكنها نائمة». و بالحقيقة ليس الموت عينه سوى رقاد خفيف بالنظر الى من بيده قدرة الله نفسها. اذ ليس له الا ان يقول فتنبعث الموتى من القبور وتخرج حية كانها كانت نائمة. وللوقت اخرج الجميع ولم يبق معه الا ابا الصبية وامها وتلاميذه ودخل الى حيث كانت الابنة مضطجعة وكانوا

قد البسوها ثياب الدفن فاقترب ربُّ الحياة من الصبية واخذ يدها وقال لها بالسريانية : « طليتا قومي » وتفسيرهُ يا صبية لكِ اقول قومي . فما اسمى هذا الامر المقول على جثة وابسطه بوقت واحد . والقديس بطرس الذي سمع ذلك باذنيه وشاهد بعينيه اورده بحرفه الواحد امام تلميذه مرقس البشير وهذا نقله الينا في انجيله الطاهر دون ان يغيره عن لغته الاصلية ليظهر لنا قوة تلك العبارة البارزة من شفتي المخلص . ومن البديهي ان كل من شاهدوا دُهشوا اشد الدهش عند ما رأوا يسوع يستخلص من مخالب الموت فريسته بقوة سلطانه . وفي الحال قامت الصبية ومشت بمرأى والديها والتلاميذ الذين كانوا معه وكادوا ان لا يصدقوا عيونهم بسبب الخوف والدهشة والفرح . اما يسوع فكان رابط الجاش بازاء تلك الاعجوبة نظير الطبيب الماهر الذي اسكن بدوائه نوبة عصبية . ولكي يتخلص من ملاقاة الجماهير واحتفالهم به اوصاهم كثيراً بان لا يعلم احد بهذا وامر بان تُطعم الصبية مآكل مقوية لها فصنعوا كما أمرهم وهكذا استطاع ان يذهب خفية الى شواطىء البحيرة . وهناك اذ اخذ الجمع يتقاطر اليه ركب سفينة وابتعد عن الشاطىء نحو اللجج فتبعه قسم من هناك والباقون مكثوا يستنظرونه في البر لعدم وجود السفن

من اجمل مناظر الدنيا والطف متنزّهاتها هو ولا ريب الجولان في بحيرة جناسر عند غروب الشمس فالامواج الخفيفة التي تعكس بتجعيدها الوان الشمس تظهر اولاً الى الناظر بلون الذهب الصافي والارجوان النقي ثم تميل رويداً رويداً الى السمنجوني الفتان كلما اختبأ النور وراء جبال طبرية ومجدل . ولا تلبث الكواكب اللامعة في الجو الصافي ان تتراءى في تلك المياه كما في مرآة نقية الزجاجة . وفوق كل ذلك سكون الطبيعة ورقة النسيم ورطوبة الهواء عند المساء تولد في النفس لذة تعجز عن وصفها الاقلام وتذيق الانسان طعم سعادة هيولية يشعر بها ولا يستطيع ان يعبر عنها . فبعد تعب ذلك النهار

الذي قضاه بين المناقشات الطويلة وعمل العجائب قصد يسوع ان يستريح على انفراد بين تلك المناظر الطبيعية البديعة التي تأخذ بمجامع القلوب وتخبر بجمال الله الخالق. اما النوتية الجليليون ففرحوا بضيفهم واخذوا يسيّرون سفينتهم فوق تلك الامواج الهادئة فانحاز يسوع الى موءخر السفينة واتكأ على وسادة احد النوتية وسلم ذاته الى النوم على حين كان سمعه يتلذّذ بضربات المجاذيف المتناوبة الحسنة الايقاع وطائر نظره يسرح في فسحات الجو الصافي متنعماً بمنظر الكواكب والنجوم اللامعة. اما التلاميذ فكانوا على جهة من السفينة يتحدثون بما جرى امامهم ذلك النهار وكان يتقوى ايمانهم و يشتد تعلقهم بمعلمهم وكانوا يسهرون بفرح جزيل على رقاد استاذهم الذي تخضع لكلام شفتيه الامراض والابالسة والموت نفسه. ان المرء يلتذ عادةً ان يرى من يحبه نائماً امامه خصوصاً اذا كان السهر على نوم الحبيب موكولاً الى المحب. فكل تنفس منه تعزية والراحة التي تلوح على جبينه بعد التعب تسلي المحب وتخفف عنه وطأة مشقة السهر عليه بل تجعله يلتذ بالمشقة. ففي مساء ذلك النهار كم من الناس كانوا يودون ان يشتروا راحة يسوع بسهرهم على رقاده مدة ذلك الليل

و بينما كان التلاميذ يتجاذبون اطراف الاحاديث الدينية بصوت منخفض اشتدت الريح وانذرت بوشك حلول عاصفة قوية. ولا يندر حدوث مثل هذه العواصف الفجائية الهائلة على تلك البحيرة بسبب كثرة الاودية والهضاب التي تحيط بها من الجهة الشمالية الشرقية ففي تلك الاودية العميقة تجتمع الاهوية وفي هاتيك المضايق تتضارب الارياح المتأتية من جبال حوران وحرمون والنجا والجولان وتنقض في تلك المجاري الطبيعية فتضرب شمالي البحيرة فتهيج وتموج مياهها الساكنة عادة وتبتلع غالباً قوارب الصيادين وكثيرًا ما تضيع في مقاومة الارياح حذاقة امهر البحارة فيلجأون الى الشواطىء القبلية التي هي في مأمن من هبوب الارياح اكثر من غيرها

ففيما هم سائرون أصابت البحيرة عاصفة هائلة نظير ما المعنا اليه وفي الحال تلاعبت الريح بالسفينة من كل جهة فامتلأت من الماء وشعر التلاميذ بقرب الخطر نظرًا لمعرفتهم البحارة فخافوا خوفًا عظيمًا . اما يسوع فبقي نائمًا . ثم اشتدت العاصفة حتى جعلت السفينة ومن فيها على يقين من الغرق المبين فحينئذٍ دنا التلاميذ الى يسوع وايقظوه قائلين : « يامعلم يامعلم قد هلكنا » : فقام يسوع ورأى العاصفة وبكل رزانة وهدوء انتهر الريح وهيجان الماء فسكنا حالاً وصار هدوء عظيم . فبهت التلاميذ عندما رأوا كيف ان كلمة يسوع كبحت في الحال جموح العاصفة وتعجبوا من فعله هذا اكثر مما كانوا شاهدوا من اعمال قدرته في النهار السابق . عندئذٍ امتلأت قلوبهم فرحًا وشكرًا وشجاعة . غير ان يسوع لم ينسَ انه وجد التلاميذ عند انتباهه من رقاده مضطربين جدًا فوبخهم على قلة ايمانهم لان الايمان الحي ينفي الخوف ولهذا قال لهم : « اين ايمانكم » . فخاف التلاميذ وتعجبوا وقال بعضهم لبعض : « من ترى هذا فانه يأمر الرياح والبحر فتطيعه » .

ثم ارسوا على شاطىء البحيرة الشرقي عند بقعة الجرجسيين وعلى الارجح بالقرب من فم وادي سمك حيث وجدت آثار خراب كبيرة . فلما خرج يسوع الى البر نظر رجلاً عريانًا به شيطان من زمان طويل يركض نحوه بين القبور الكائنة في منحدر التل القريب وكان يصرخ اليه وباطلاً كان ذووه يوثقونه بالسلاسل فكان يقطع الرباطات ويذهب يختبىء بين القبور فيتعرض الى المارين من هناك ويشبعهم ضربًا وشتمًا وكان دائمًا يصيح ويتهشم بالحجارة فهذا اذ رأى يسوع من بعد بادر اليه غير ان يسوع لما شاهده آتيًا عرف كل ما به قبل ان يصل وانتهر الروح النجس بان يترك فريسته فشعر ذلك الرجل انه امام من هو اقوى من الشيطان ولهذا عند وصوله الى يسوع خرَّ ساجدًا له وصاح بصوت عظيم قائلاً : « مالي ولك يايسوع ابن الله العلي » . ولما رأى ابليس ذاته

مضطرّ للخضوع الى امر من له كل سلطان اعترف بانكساره وطلب من يسوع قائلاً: «استحلفك بالله ان لا تعذبني». لعمري ان في حالة الشيطان الذي يشعر بضغط سلطان اعظم من سلطانه وفي توسلاته وخوفه من الرجوع الى الظلمة العميقة وتأسفه على الخروج من ذلك الرجل التعيس وتسمية نفسه بالجيون اي جوقة امرًا يحير افكارنا اذ ليس لنا علم ثابت بمملكة الشر ولا عندنا معرفة واضحة بعمل وخصائص كل من افرادها . فبعد ان قال ذلك الروح النجس اسمي جوقة سأل يسوع بلجاجة ألاَّ يرسلهم الى خارج البقعة . واذ كان هناك في سفح الجبل القريب قطيع عظيم من الخنازير يرعى فطلب الشياطين من يسوع ان يرسلهم الى الخنازير ليدخلوا فيها قصد ان يوقعوا مسئولية الخراب الذي سيحدث من عملهم على عاتق يسوع ولما كان الخنزير حيوانًا نجسًا وممنوعًا ظهوره في ارض اسرائيل قال لهم يسوع «اذهبوا» وبما ان يسوع كان يدعو نفسه راعي الخراف التي هي رمز الوداعة والطهر والامانة اذن الى الشيطان ان ينسب اليه الخنازير التي هي رمز النجاسة والشهوات السافلة والرذائل والقباحة . وفي الحال خرجت الارواح النجسة من ذلك المجنون الذي انتقل الى حياة جديدة ودخلت في الخنازير نظير عاصفة هائلة . فهاج القطيع وماج عند انقضاض تلك الارواح التي كانت تنخزه نخز الابر الحادة وصعد الى قمة ذلك الرس المشرف على البحيرة فوثب عن الجُرف الى البحر فاختنق وكان نحو الفين فلما رأى رعاة القطيع ما كان من الامر هربوا واسرعوا نحو المدينة ليعلموا اصحاب القطيع بما جرى . فخرج هولاء واتوا مسرعين الى حيث كان يسوع ليحققوا الخبر فوجدوا يسوع والمجنون جالسًا بالقرب منه صحيح العقل لابسًا اثوابه معافىً نظير بقية الناس وسألوا فاخبرهم الناظرون بما جرى للمجنون وبامر الخنازير فتعجبوا وبهتوا ومن خوفهم الاحترامي جعلوا يسألون يسوع نظير بطرس بعد صيد السمك ان ينصرف عن تخومهم .

ان النعمة من طبعها ان تكون اختيارية وليس اضطرارية فاراد يسوع بعمله هذا ان يترك اثرًا من اشعة نعمته في تلك البقعة المأهولة من سكان اكثرهم وثنيون واذ لم تأت الساعة المعينة لاهتدائهم في احكام العناية الربانية ما ارادوا ان يقبلوها بفرح بل رفضوها الى حين . فركب يسوع السفينة قاصدًا كفرناحوم ولما كان على اهبة السفر اخذ المجنون الذي اخرج منه جوقة الشياطين يسأله ان يكون معه ويقبلهُ بصفة تلميذ له فلم يدعه لكن قال له: « اذهب الى بيتك الى ذويك واخبرهم بما صنع الرب اليك وبرحمته لك » . والحق يقال انه كان مناسبًا ان يترك يسوع مثل وديعة في تلك البلاد المزمع ان يبشرها بالانجيل ليس فقط خبر مروره فيها بل برهانًا حيًا على رأفته وحنوه نحوها . وذلك البرهان انما كان ذلك المجنون الذي ابرأه ويخبرنا الانجيلي انهُ صار فاعلاً نشيطًا في التبشير لانهُ ذهب وطفق ينادي في المدن المجاورة بما صنع يسوع معه وكان الجميع يتعجبون

ورغماً عن مناقضة الفريسيين لتعاليم السيد المسيح وتذمرهم عليه كان جميع سكان كفرناحوم من العام والخاص يعدّونهُ مثل رجل عجائبي خارق العادة . ولهذا حالما نزل يسوع الى العبر ارسل اليه علانية قائد المئة اي جاويش حرس البلدة وفدًا وسأله ان يشفي عبده الذي كان ملقىً في بيته معذبًا بعذاب شديد

عادةً متى كان الخادم ذا امانة وغيرة على صالح بيت معلمه وقضى فيه ردحًا من الزمان يصير كواحد من اعضاء العائلة ويتعلق به معلموه ويضحي شريك حياتهم فيفرحون لفرحه ويحزنون لحزنه . وذلك يفسر لنا اضطراب قائد المئة عند نظره خادمه الامين قد اعتراه فالج واشرف على الموت . فلو كان ذلك القائد يهوديًا لما كان من العجب ان يلتجئ الى ذلك الطبيب العظيم الذي كان قد ابرأ قيّم الملك واقام من الموت ابنة يائيروس . غير انه كان وثنيًا ولكن ميله الى الاسرائيليين وبناءه للمجمع الكبير في المدينة كانا قد أمالا قلوب الجميع اليه

فهذا القائد عندمـا اظهر عزمه على الالتجاء الى يسوع طلبًا لشفاء عبده العزيز وابدى خوفه من عدم استجابة طلبه عرض عليه شيوخ اليهود الذين كانوا مقلدين خدمة المجمع وساطتهم. وفي الحال تألفت منهم لجنة واتوا الى يسوع يسألونه ان يأتي الى بيت القائد ويشفي عبده. واسندوا صلاحية طلبهم الى حب ذلك القائد لامتهم واحترامه الهم اذ بنى لهم مجمعًا. فاثر كلامهم في قلب يسوع لاستناده الى عاطفتي الوطنية والدين العزيزتين على قلب المخلص. فتبعهم يسوع حالاً. ويظهر ان القائد لم يكن يطلب ان يكلف يسوع للذهاب حتى بيته لانه علم من شفاء ابن قهرمان الملك ان كلمة من فم يسوع كانت كافية لشفاء عبده. ولم يكن يطلب اكثر من تلك الكلمة. ولهذا لما علم ان يسوع كان مقبلاً الى البيت ارسل اليه اذ كان غير بعيد بعض اصدقائه قائلاً له: « يارب لا تتعب نفسك فاني لا استحق ان تدخل تحت سقفي. من اجل ذلك لم احسب نفسي مستحقًا ان اجيء اليك. ولكن قل كلمة فيبرا فتاي ». وعلى هـذا المنوال بينما كان اليهود المتكبرين يعاملون نبيهم بجرية وعدم تكليف كان قائد المئة الوثني يشعر بما كان في طلب يسوع الى بيته لشفاء عبد من عدم اللياقة والاستخفاف ولهذا اعلن صريحًا كونه غير مستحق لقبول شخص هكذا عظيم تحت سقفه. ولو ظن ذلك لائقًا لما كان كلف الشيوخ ان يتكلموا عنه. ومن ثم عظيمًا كان تواضع هذا الرجل ولكن اعظم من ذلك كان ايمانه.

واعتبار قائد المئة لقدرة يسوع كان هكذا عظيمًا حتى انه كان يعتقد ان كلمة واحدة من فم القدوس هي كافية لشفاء عبده من مرضه العضال وهاك اساس برهانه وسياق استدلاله بالمقايسة العسكرية اذ قال: « اني انا رجل مرتب تحت سلطان ولي جند تحت يدي اقول لهذا اذهب فيذهب وللآخر ائتِ فيأتي ولعبدي اعمل هذا فيعمل ». فلماذا اذن لا تكون هـذه السلطة ذاتها ليسوع على العناصر الطبيعية ألم يثبت كونه ربها وسلطانها متى

شاء والم تخضع تلك القوى والعناصر الطبيعية لكلمته كما اراد ؟ ومن ثم انما هي نظير انفار العسكر تخضع لامر قائدها وتكون رهينة اشارته . وبالنتيجة كان يكفي ليسوع ان يقول كلمة واحدة ليكون مطاعاً من قوى الطبيعة دون اضطرار الى ان يخطو خطوة واحدة للذهاب الى محل المريض . وعليه فان اعتقاد ذلك الوثني بتسلط يسوع المطلق على الطبيعة كان صحيحاً كاملاً وقد عبر عنه بما يليق بصفة كونه قائداً حتى تعجب منه يسوع وقال الى الجمع الذي كان يتبعه : « اقول لكم اني لم اجد مثل هذا الايمان ولا في اسرائيل . اقول لكم ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق و يعقوب في ملكوت السماوات واما بنو الملكوت فيلقون في الظلمة البرانية . هناك يكون البكاء وصريف الاسنان » . فليفهم اذن اسرائيل ان السماء تغتصب بالايمان والاعمال الحسنة فقط وليس لشرف الحسب والنسب حظ في حق الدخول اليها والتفت يسوع الى قائد المئة وقال له : « اذهب وليكن لك كما آمنت » . فشفي فتاه في تلك الساعة .

فصنيع ذلك الوثني وحسن استقبال يسوع كان لهما دلالة مهمة في مقاصد يسوع المسيح . لانهما يدلان على ان الكنيسة ستبسط ذراعيها لتحتضن ليس فقط العشارين بل الوثنيين ايضاً . و بناء على ذلك كل انسان من اي قبيلة كانت ومن اي مذهب كان يمكنه من الآن فصاعداً ان يقرع باب الكنيسة فتفتح له ابواب الرحمة والرأفة .

وفيما كان يسوع راجعاً الى منزله سمع اعميين يصيحان و يقولان : « ارحمنا يا ابن داود » . فتغاضى عن صراخهما وظلّ متابعاً سيره قصد ان يمحص ثبات ايمانهما . اما هما فتبعاه حتى البيت ولم يفشلا من عدم اكتراثه الظاهر بهما ولما دخلا البيت التفت يسوع وقال لهما : « هل تؤمنان أني اقدر ان افعل ذلك . فقالا له نعم يا رب . حينئذ لمس اعينهما قائلاً : كايمانكما فليكن لكما »

فانفتحت اعينهما ونظرا ذلك الذي كانا يدعوانه ابن داود بايمان قوي اذ كانا لا يبصران · وباطلاً كان يسوع ينتهرهما قائلاً : « انظرا لا يعلم احد » فان معرفتهما الجميل كانت اعظم من ان تكتم · فشهرا ما صنع بهما يسوع في كل تلك الارض فاقبل عليه المرضى والمسقومون بكثرة من كل صوب وبينهم اخرس فيه شيطان · وخرسه لم يكن طبيعياً بل اما عن جنون او ان الروح النجس كان عقل لسانه عن التكلم · فصنع يسوع اشارة الى الروح النجس فخرج منه وللوقت انحلّ عقد لسانه وتكلم مستقيماً · فعندما شاهد الجمع تلك العجائب الباهرة صرخوا متعجبين وقائلين : « لم يظهر قط مثل هذا في اسرائيل »

ومن المحتمل ان يسوع عزم في هذه الفرصة ان يظهر ثانيةً في بلدته الناصرة الناكرة الجميل · ولربما خطر له ذلك الفكر لما اراد ان ينتقي اعوانه في بشارة الانجيل ومتوظفي كنيسته وخلفاءه فيها في مستقبل الايام · فخالج فؤاده البشري أسف شديد لعدم وجوده بين هولاء المنتخبين المقرّبين اليه بعض ذوي قرباه وعشراء صباه واصدقائه الاعزاء · وظواهر الحال كانت تبشره بالفوز هذه المرة تجاه اهل الناصرة · وفضلاً عن ذلك لم يكن آتياً وحده بل محاطاً من جمهور تلاميذه الذين كانوا يذيعون اخبار العجائب التي نظروها باعينهم ويكللون شخص يسوع باكليل من المجد بواسطة هيبتهم له وتعجبهم من عظيم اعماله · ولكن لسوء الحظ لا شيء يقوى على اوهام سكان المدن الصغيرة · نعم كان هذه المرة استقبال يسوع اقل برودة وجفاء من المرة الاولى غير ان النتيجة الدينية بقيت على ما كانت عليه · لانه اذ دخل يوم السبت الى المجمع وطفق يعلم الجموع كان لكلامه وقع عظيم في قلوب السامعين رغماً عن عدم حسن استعداد الحضور لسماع ارشاداته · لانهم لما سمعوا كلام الحكمة الخارج من فيه مملوءاً قوةً وخشوعاً ومطابقاً لمقتضى الحال بهتوا من تعليمه · على ان الاندهاش هذا عوض ان يثمر فيهم ثمار الايمان انحصر في ملذة السمع العقيمة ·

وقال بعضهم لبعض . « من اين لهذا هذا كله . وما هذه الحكمة التي أُعطيها والقوات التي يجري مثلها على يده . اليس هذا هو النجار ابن مريم واخا يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان . او ليست اخوانه عندنا هنا » . وعلى هذا المنوال كانوا يعددون اسماء اقرباء يسوع كأنَّ معرفة هولاء كانت تزيل او تنقص في اعينهم حقيقة اعماله العجيبة وتخفض من سمو تعاليمه . نعم لا ننكر ان عائلة المسيح كانت من ذوي الفاقة والاحتياج ولكن لماذا كل ذلك الاستخفاف فهل تعاب الجواهر الكريمة بظرفها والسيوف المواضي بغمدها . لعمري ان في ذلك برهاناً قاطعاً على فضل يسوع الشخصي ونجمة في جبين مجده اذ هو رجل عمله الخاص ومع ضعة نسبه قد توصل الى ما هو عليه من الحكمة وعلو المنزلة . اما هم فعوضاً عن ان يعرفوا فيه الهاً تحت ظواهر النجار الحقيرة اخذوا يشكون فيه ويستخفون باقواله . وبناء على ذلك قد حبطت آمال يسوع البشرية وغلت يديه القادرتين على كل شي قلة ايمان مواطنيه الذين سدوا ابواب قلوبهم ثانيةً في وجه النعمة الالهية الاتية اليهم فاعرضت عنهم النعمة ايضاً . لانها من طبعها لا تحل إلاَّ حيث يُكرم مثواها وتدع رافضيها يهيمون في وادي الغواية والضلال . فلما رأى يسوع ان كل مساعيه الصادرة عن حبه الاخوي نحو مواطنيه قد ذهبت سدى واغلقت الابواب في وجه رحمته نحوهم ردَّد ما كان قد سبق وقال وما قد ثبتت حقيقته تجارب الايام وذهب مثلاً : « انه لا يكون نبيٌّ بلا كرامة إلا في وطنه وبين اقاربه وفي بيته » . والحق يقال ان يسوع لم يستطع ان يصنع شيئاً هناك من القوات غير انه وضع يديه على مرضى قليلين فأبراهم على حين انه كان يتمنى لو ساعده الحال ان يظهر عظمة قدرته وكل حنو رأفته ، ولكن ما العمل فانَّ قساوة قلوبهم كانت عظيمة جداً حتى انها ادهشت يسوع بصلابتها كما يقول القديس مرقس

ولم يقض يسوع في الناصرة سوى ايام قلائل . لان الهواء الذي

استنشقه هناك كان يضايق قلبه الطافح من الحب نحو البشر والغيرة لمجده تعالى. فترك وطنه غير آسف عليه واخذ يجول و يعلم في القرى المحيطة حيث كان الجميع يحسنون استقباله و يستفيدون من كلامه وكانت العجائب تثبت تعاليمه وزرع الخلاص ينمو عند مروره

وفي اثناء جولانه أتى قرية نائين وهي من اجمل القرى موقعاً مبنية على هضبة في منحدر نهر حبرون الصغير تبعد عن الناصرة مسافة اربع ساعات لا غير. وقد درستها يد الايام نظير امثالها ولم يبقَ الآن سوى بعض بيوت حقيرة ومسجد صغير ابيض تدلُّ على موقعها القديم وتحيي اسمها الى يومنا هذا. وكان الوقت مساءً وقد انتشر الضبابُ فوق حقول ماجدّو التي سقتها دماء الابطال من قبل فأينعت. واشعة الشمس الذهبية كانت تصافح رؤوس التلال الجبلية في الجليل مظهرةً اسفها الزائد على فراقها قبل المغيب وراء قمم جبل الكرمل. والسكون السائد وقتئذٍ في الطبيعة كان يدعو طبعاً الى الراحة بعد التعب وكان الفلاحون يؤمون منازلهم في تلك الساعة التي فيها دخل يسوع وتلاميذه باب القرية واذا بضوضاء عظيمة وقعت على آذانهم وسمعوا بكاءً وعويلاً حول ميتٍ محمول الى اللحد بين جماهير كثيرة العدد وجميعهم يظهرون اسفهم على الفقيد حسب عادة البلاد بالصراخ الزائد والعويل المكرب وشق الجيوب وسدل الشعور ونقر الدفوف. وخصوصاً بما انَّ امَّ الفقيد كانت ترافق تلك المرة نعش وحيدها الى القبر وهي ارملة فذلك المشهد المؤثر قد حنَّن قلب يسوع على تلك الثكلى التي فقدت عضدها الوحيد في الدنيا. فاقترب اليها وقال لها: «لا تبكي» ثم دنا من النعش ولمسه فوقف الحاملون حالاً فقال: «ايها الشاب لك اقول قم» وللوقت سمعت صوتَ السماء تانك الاذنان اللتان كان الموت قد اصمهما عن سماع الاصوات الارضية. فاستوى الميت في الحال و بدأ يتكلم. فاخذه يسوع بيده وسلمه بحنوٍّ ابويٍّ الى أمه

فهذه الآية التي جرت امام شهود عديدين مشهود لهم بالصدق لا مردّ لها. لان جميع الذين حضروا كانوا على يقين من موت ذلك الشاب وكانوا ذاهبين به ليدفنوه وكلهم نظروه حياً يتكلم ويمشي. اذن لا مناص من الاعتراف بمداخلة قوة فائقة الطبيعة لتفسير هذين الحادثين الجليلين: الموت ثم الحياة. وعليه اقرّ التلاميذ انفسهم انهم لم يروا آيةً معجبة نظير هذه. واخذ الجمع الحاضر خوفٌ عظيم وعجب لا مزيد عليه ومجدوا الله قائلين. «لقد قام فينا نبيٌّ عظيم. وافتقد الله شعبه»

فلا مشاحة اذن في أنهُ قد حضرت ساعة افتداء اسرائيل

الفصل الخامس

كيف ان يسوع يشرع في تنظيم كنيسته بنوع ظاهر

لجاجة وفروغ صبر يوحنا المعمدان وهو في السجن — جواب يسوع — وضع اركان مملكته — تعيين رؤسائها وتسميته الرسل الاثني عشر

طالع لوقا ٨: ١٨ — ٣٨ و٦: ١٢ — ١٩ متى ١١: ١ — ١٩ مرقس ٣: ١٣ — ١٩ اعمال الرسل ١: ١٣

§

لجاجة يوحنا المعمدان وهو السجن

وذاع خبر الآيات التي كان يصنعها يسوع في كل اليهودية حتى بلغ مسامع يوحنا وهو في السجن فرقص فؤاده فرحاً وابتهاجاً لانه كان ينتظر بفروغ صبر توطيد اركان العصر المسيحي وليس ذلك طمعاً منه في النجاة من السجن والتنكيل بمضطهديه بل لظنه ان قد حضرت الساعة الموافقة لوضع مقاصد الخلاص بالعمل

وتدشين العصر المسيحي بوجه نهائي . تلك هي رغائب الناس اجمعين فلماذا الانتظار ايضاً . فالتردد في مثل هذه الظروف ربما يضر بايمان الكثيرين ويجعلهم يشكون في توطيد آمالهم . وبناء على ذلك ارتأى المعمدان ان يحمل يسوع على التصريح والاقدام على العمل فارسل اليه اثنين من تلاميذه يقول له : «أأنت الآتي ام ننتظر آخر»

§

جواب يسوع على هذا السؤال

واتفق انه في تلك الساعة التي وصل فيها الرسولان كان يسوع يشفي الكثيرين من امراض واوجاع وارواح شريرة ويهب البصر لعميان عديدين . فبعد ان استطلع منهما السؤال بما يليق من الاصغاء اومأ اولاً بيده الى من كان يشفيهم بقوة كلمته او بلمس بسيط فكان لحركة يده هذه وقع في اقناع الحاضرين اعظم من كلام افصح الخطباء . ثم زاد قائلاً : « اذهبا وأعلما يوحنا بما سمعتما ورأيتما ان العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصمّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشَّرون » . لا ريب انّ هذا الجواب كان مقنعاً وان لم يبين حقيقة مزية العصر المسيحي ويثبت وقوعها الا بنوع غير مستقيم . لانه اذا كان يسوع يتمم الاعمال التي تنسبها الانبياء للمسيح فلا ريب ان هو هو المسيح ولهذا يردف كلامه بقوله : « وطوبى لمن لا يشكّ فيّ » . فهذه الكلمات الاخيرة لم تكن موجهة الى يوحنا كما يظهر من ثناء يسوع عليه بل انما هي تلميح لحالة الريب والشك التي عرفها في افكار الرسولين من مجرد القاء السوءال السابق . وسيوضح افكاره في المعمدان بعد انصراف الرسولين . وما اراد ان يصنع ذلك امامهما لئلا يظهر مملقاً . لعمري ان ما يقوله يسوع عن يوحنا في هذا الموضع لهو اعظم مديح او بالاحرى لهو اجمل تأبين اذ قرب وقت زواله . فانه قال للجموع : « ماذا خرجتم الى البرية تنظرون أقصبةً

تحركها الريح أم ماذا خرجتم تنظرون. أ انساناً لابساً لباساً ناعماً. هوذا الذين في اللباس الفاخر والترف هم في قصور الملوك. ام ماذا خرجتم تنظرون. أ نبياً. نعم اقول لكم وافضل من نبيّ. ان هذا هو الذي كُتب عنه هاءنذا مرسل ملاكي امام وجهك يهيء طريقك قدامك »

يمدح يسوع فيما تقدم نشاط وثبات السابق ومعيشته النسكية و يوضح ويثبت صلاحية وموضوع ارساليته من قبل الله. فبين قصبات الاردن الضعيفة التي تتلاعب بها الريح وتلويها كيف هبت كان المعمدان وحده ثابتاً في مباديه نظير السنديانة العظيمة التي تقاوم هبوب الريح ولا تخشى صدمات العواصف الشديدة. وها هو يقاوم حتى اليوم غضب هيرودس نفسه. سواه يطأطىء راسه امام ولاة هذا العالم نظير القصبة امام الريح اما يوحنا فيفضّل ان يقدّم رأسه للذبح من ان يحنيه يوماً لغير الحق والعدل. ولعمري ان ثبات نفسه الابية وقوة كلامه ونسك معيشته كل ذلك خوّله تلك الشجاعة على ان يصرخ من عمق سجنه المظلم نحو هيرودس كفى يا هيرودس كفاك ذنوباً وجعل له السلطة ان يقول ليسوع: لماذا لا توطد اركان الملك المسيحي. وبكل حق وصواب يرفع يسوع شان المعمدان فوق الانبياء اسلافه لانه من المعلوم ان من كان موضوع نبوة الانبياء لهو اعظم منهم شرفاً لانه يكون هو السبب الاخير والغائي في كونهم انبياء وهو المقصود اولاً في عقل الله وان اتى متأخراً في حكم الزمان. وعليه زاد يسوع قائلاً: « فاني اقول لكم انه ليس في مواليد النساء نبيّ اعظم من يوحنا المعمدان » ثم توقف يسوع كمن طرأ على باله فكر جديد يريد ان يبديه قدام السامعين فقال: « ولكن الاصغر في ملكوت السماوات اعظم منه » اي وان يكن المعمدان هو اعظم انبياء العهد القديم فهو مع ذلك اصغر ابناء العهد الجديد. ولا يلاحظ المخلص في هذا الكلام الفضيلة الشخصية بل الشرف بوجه العموم. وبالحقيقة اذا قابلنا ابناء العهد القديم مع ابناء العهد الجديد نجد ان

كثيرين من اولئك فاقوا بفضائلهم الشخصية الكثيرين من هولاء ولكن اذا لاحظنا بين الفريقين نسبة الشرف فقط فلا شك ان الاول في العهد القديم يضحي الاخير في الجديد نظراً لعمق الوهدة الفاصلة بين العهدين · و برهانه هو ان الحقائق المسيحية قد اشرقت على قلب احقر المسيحيين بنوع اجلى مما كان يفهمها اعظم الانبياء قديماً · ثم ان احقر ابناء العهد الجديد انما هو اخو المسيح وور يث ملكوته بينما ان اعظم ابناء العهد القديم لم يكن الا خادماً له · و بياناً لما تقدم يستأنف يسوع الكلام قائلاً « ومن ايام يوحنا المعمدان ملكوت السماوات يُغصب والغاصبون يختطفونه · لان جميع الانبياء والناموس تنبأوا الى يوحنا » · واراد يسوع ان يعلن بذلك رسمياً الى السامعين ختام عصر الحكم الالهي وافتتاح العصر المسيحي الجديد وان نظرهم الى العصر الماضي ما بقي يجديهم نفعاً سوى ان يروا بالمقابلة تتيمه في العهد الجديد الحاضر وان من اهم واجباتهم الان الدخول عاجلاً في ملكوت الله · ولكي يظهر اهمية هذه الحقيقة الاخيرة يزيد قائلاً : « من له اذنان سامعتان فليسمع »

و يردف البشير كلامه بقوله : « فلما سمع جميع الشعب والعشارون مجدوا الله معتمدين بمعمودية يوحنا · اما الفريسيون ومعلموا الناموس فرفضوا مشيئة الله فيهم اذ لم يعتمدوا منه » · وعلى هذا النمط منذ البدء وافق عامة الناس والمتوسطون اشارة الله لهم بالدخول في ملكوته اما الخاصة ورؤساء الامة فظلوا خارجين عن الحركة الدينية المنتشرة في اسرائيل اذ وجدوا في كبريائهم سبباً لبعدهم وحجة لنفورهم · ولهذا يهتف يسوع قائلاً : « بماذا اشبّه هذا الجيل ومن يشبهون · يشبهون صبياناً جلوساً في السوق يصيحون بعضهم ببعض قائلين زمرنا لكم فلم ترقصوا نحنا لكم فلم تبكوا · جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم ان به شيطاناً · وجاء ابن البشر يأكل و يشرب فقلتم هوذا انسان اكول شريب للخمر محب العشارين والخطاة » · والحق يقال ان الرسولين

من قبل الله قد حرضا الاسرائيليين ليتبعوهما وهؤلاء لم يبالوا بهما بل استمروا على ما كانوا عليه مدعين ان يوحنا شديد القساوة و يسوع كثير الرحمة فمثلهم اذن مثل صبيان يصرفون وقتهم بالمماحكة والمجادلة و ينتهون بالتنافر والاختلاف بينما ان الرجال الاشداء واصحاب العزائم القوية يلبون نداء الداعي ويختطفون ملكوت الله عنوة . فهؤلاء هم الرجال واولئك انما هم الصبيان . وبهذا المعنى اضاف يسوع قائلاً : « وتبرأت الحكمة من جميع بنيها » . اي انه لسعد الطالع قد وجدت الحكمة رجالاً يسمعون صوتها و يلبون طلبها و بعملهم هذا يبررونها من كل لوم . نعم وُجد و يوجد رجالٌ لم توهن عزيمتهم قساوة يوحنا ولم تشككهم عذوبة ولين يسوع بل فقهوا ان لكل وقت عملاً ولكل عمل وقتاً فقبلوا ان يبكوا و ينوحوا حيناً مع يوحنا ويفرحوا و يلتذوا آخر مع المسيح . وهكذا قد اكتسبوا ملكوت السماء و برهنوا بفضائلهم حكمة تدابير الله الخلاصية واستحقوا ان يشاركوه تعالى في عمل التبشير . فبناء على طلب يوحنا وقطعه بان قد حضرت الساعة الموافقة للاخذ بالعمل رسمياً يشرع يسوع بتنظيم جيش الخلاص وبتعيين القواد الماهرين في صنعة تلك الحرب الغير الدموية

§

تعيين رؤساء الكنيسة وتسمية الرسل الاثني عشر

كل من يطالع الانجيل المقدس بتمعن يفقه عظم الاهمية التي علقها يسوع على انتخاب الرسل الاثني عشر فانه خرج وقتئذٍ معتزلاً الى جبل وقضى ليلته كلها في الصلاة لله او بالاحرى في المفاوضة العميقة مع ابيه لان الفروض البنوية كانت تقضي عليه ان يقدم الى ابيه باكورة هذا العمل العظيم عمل التبشير بالخلاص عبارة عن احترامه البنوي له . ولهذا اراد ان يشترك معه تعالى في ايجاد وانتقاء الاشخاص لهذا العمل الخطير لانهم مدعوون لمساعدته في الحال ولإحياء تعاليمهِ من بعده . فاخذ اسماء التلاميذ الذين هم اكثر امانة واشد

اخلاصاً واعظم حمية وعرضهم على ابيه . وعند الصباح رجع الى الجمهور ودعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وسماهم رسلاً وفقاً لارادة السماء

فكانوا اذن اثني عشر رسولاً على عدد اسباط اسرائيل الاثني عشر وعليه كل سبط كان له رسول يستحضره ومبشر له بالخلاص . وقد نقل لنا الانجيليون الثلاثة الاول مع سفر الاعمال اسماء الرسل تماماً دون ادنى خلاف الأ في اسم يهوذا فان البشيرين متى ومرقص يسميانه تداوس

ومن امعن النظر في هذه الاسماء على ما وردت عند الانجيليين الثلاثة سهل عليه ان يميز فيها ثلاث فئات ولكل منها رئيس واعضاء لا تتغير في ترتيبها الا في سرد اسماء بعض الاعضاء . فقد اختلف في ايرادها الانجيليون . و يظهر ان ترتيب سرد الفئات انما هو بالنسبة الى كثرة واهمية علائق الرسل مع السيد المسيح الاقرب بالاقرب . وعليه فان بطرس برأس الفئة الاولى اي فئة الرسل الممتازين بحبهم وتعلقهم بشخص المخلص وهم اندراوس و يعقوب ويوحنا . وفيلبس هو زعيم الفئة الثانية واعضاؤها هم برتلماوس ومتى وتوما . وزعيم الفئة الثالثة هو يعقوب بن حلفى ومنها سمعان المدعو الغيور و يهوذا اخو يعقوب ويهوذا الاسخر يوطي الذي اسلمه

ولا يخفى على المنتقد اللبيب ان ذكر سمعان بطرس في صدر قائمة اسماء الرسل عند الانجيليين اجمعين وفي اعمال الرسل ايضاً ليس هو نتيجة الصدفة والاتفاق ولا سببه كونه الاول في التلمذة ليسوع لان اندراوس و يعقوب و يوحنا قد سبقوه بالايمان والتلمذة . ومن ثم يلزم البحث عن سبب ذلك في حق الاولية على جميع زملائه في التلمذة . وسيأتي بيان اصل ونتائج هذه الاولية في محله ان شاء الله . اما الآن فنكتفي بايراد اللقب الاول الذي يلقبه به القديس متى و بتأييد كون صورة ابن يونا هي التي تستلفت الانظار اكثر من سواها من هيئات الرسل . فكان مثال الجليلي الصادق شجاعاً حتى الجسارة

والمخاطرة وودوداً حتى بذل النفس وتضحية الذات . هماماً مقداماً بصيراً غير انه كان متطرفاً في بعض هذه السجايا التي استجمعها فكان غالباً سريع العمل لانه كان يرى حالاً محل الصعوبة. معتداً بذاته بسبب مضاء عزيمته متقلباً لكونه سريع التأثر. ولكنه يبقى محبوباً حتى في عيوبه لانه في اثناء سقطاته نفسها كان يستمر شديد الحب والايمان والرجاء وقريباً من انسحاق القلب وتطهيره بدموع التوبة

وبعده يأتي اخوه اندراوس الذي استحق ان يشاهد المسيح ويحبّه قبل سائر الرسل .

اما يعقوب ويوحنا فقد اشتهرا اكثر من اندراوس ونالا التفاتاً اكثر منه اذ عاينا اهم اعمال حياة المخلص العمومية ولقبا بابني الرعد ليس فقط نظراً الى غيرتهما الآكلة بل ايضاً نظراً لتمعنهما باقوال السيد المسيح وتأملها بتعاليمه السامية التي كانت تؤثر فيهما اكثر من اعماله. فمن انجيل يوحنا يظهر لنا جلياً كم كان هذا التلميذ الحبيب يتمثل افكار معلمه التي اهي كثر سموّاً. ولقد اخذ هذان التلميذان عن امهما قلباً ودوداً . اما يسوع فكان يحب خاصةً يوحنا بسبب حداثة سنه

ولقد شاهدنا فيلبس من المدعوين الاولين لاتباع يسوع وانه آمن في الحال واضحى مساعداً للنعمة في دعوة نثنائيل الى النور وانه نظير الاربعة السابق ذكرهم من بيت صيدا .

اما برتولماوس او ابن تلماوس فينتمي طبعاً الى فيلبس لانه على الارجح لم يكن سوى نثنائيل وقد عرفنا استقامة ورزانة اخلاقه فيما سبق والمعنا الى رسوخ هذا الاسرائيلي الصادق في الدين ثم يذكر لنا متى او لاوي انه كان عشاراً ولا ريب انه كان احرز بعض المعارف لتعاطي مهنة الجباية ويستدلُّ من ظواهر دعوته انه كان عزوماً وكريم الاخلاق

واما توما رفيق متى فكان رصيناً ومحباً للجدال يسبق نظره الى الصعوبات في المسائل بطيء التصديق سريع الفشل غير انه متى انجلت له الحقيقة وطيد التمسك بها شديد الحماسة جوّاد بنفسه حتى تضحيتها حباً بعلمه

وكان يعقوب بن حلفى زعيم الفئة الثالثة وقد لقب بالصغير اما لقصر قامته واما لصغر سنه نسبة الى يعقوب بن زبدى . وكان ابن عم او ابن عمة يسوع. وقد اخذ نفوذاً عظيماً في حزب اليهود المسيحيين في اورشليم نظراً لحكمته ودرايته. وكانت له منزلة مهمة في المجمع الاورشليمي وعزّز مبادي بولس رسول الامم العمومية غير ان يهوذا اخاه لم يماثله بلين العريكة بل كان حادّ المزاج ولنا شاهد على ذلك الرسالة الباقية لنا منه . وتمييزاً له عن الاسخريوطي والماعاً الى حدة طبعه كُني بلابي اي ذي القلب وتداوس اي الشجاع الباسل

وسمعان المدعو الغيور كان احد زملاء يعقوب وكان كما تشير كنيته من حزب الوطنيين المدافعين عن حقوق الوطن ضد تسلط الاجانب على الاسرائيليين وعلى هذا النمط جمع يسوع في عداد رسله كل الاحزاب واصحاب المشارب المختلفة وألف بينهم وافاض على قلوبهم شرارة الحب والاخاء فتألبوا معاً على المناضلة عن الدين الحق ونبذوا ظهرياً الانسان القديم وخلقوا خلقة جديدة بالمحبة المسيحية

على انه لا بدّ لنا من ذكر من تنتهي باسمه اسماء تلك العصابة الجليلة وكنا نودّ ان يبقى اسمه طي الخفاء ولكن بما ان الضد يظهر حسنه الضدّ نذكره آسفين كما صنع الرسل انفسهم . نعني به يهوذا الاسخريوطي ذلك الخائن الذي وجد في خزائن نفسه الخبيثة ما حمله على بيع وتسليم معلمه الى الظلاّم الحسودين . فهذا الناكر الجميل المحب المال قد تلمذ للسيد المسيح عندما قبله الجليليون بالاحتفاء العظيم الذي كان يبشر بقرب تأييد الملك المسيحي . ولربما كانت غيرته في بادىء الامر على نجاح اعمال يسوع صادرة عن سلامة نية

وصفاء قلب وان تكن مقرونة برغبة جر مغنم شخصي من ذلك النجاح . لان عادة الاشخاص المحبين انفسهم على شاكلة يهوذا هي اظهارهم اولاً انهم لا يعيشون لذواتهم بل لخدمة القريب الى اليوم الذي فيه يدعون الغير أن لا يعيشوا الا لاجلهم . وفضلاً عن ذلك كان يهوذا ابن دباغ من قرية اسخريوط ذا نفس سافلة نظير عائلته لاتثني عزيمته عن حب مكسب دناءة ولا تلويه عن جرّ مغنم جريمة . وميله الطبيعي الى الاقتصاد وكسب المال حمل يسوع على ان يسلمه صندوق المصرف . فكان بينما هو يرجو التقدم العتيد في ملكوت الله يعزي قلبه حالياً بسرقة صندوق المال وهكذا كان شوك الطمع ينمو في فؤاده ويخنق زرع الايمان والمحبة حتى توصل رويداً رويداً الى ارتكاب افظع الجرائم . فكسى اسمه ثوباً من العار لم تفنه الايام والدهور واضحى اسمه مرادفاً للخيانة وقرين اللعنة عند كل الشعوب والامم

فجمع يهوذا الخائن في نفسه اللعينة بين الخبث الذي يبعِد طريق الشر عن بعد وبين الرئاء الذي يعرف ان يخفي المقاصد الخبيثة الى حينها وبين الحدة في شرب كأس الاثم دون ان يسأم . وعليه يقف هنا ايماننا الحي القوي بالوهية يسوع المسيح وقوف المنتقد ويسأل كيف ان يسوع الذي كان يعلم اعماق اسرار ذلك الرجل استطاع ان يقبلهُ في مصاف رسله القديسين ويسلمه صندوق النفقة

فلكي نفهم سرّ هذا الانتخاب العجيب في عيوننا علينا ان نعتبر تدابير العناية الالهية بالنظر الى افراد البشر . فان الله سبحانه مع سابق علمه الاكيد من خلال اعمالنا الحرة بما تؤول اليه حياتنا من الهلاك الابدي او الخلاص لايصنع مع ذلك خلاف ما صنع يسوع في هذا الحادث الخصوصي بالنظر الى يهوذا . وكأنَّ سابق علمه بعاقبة حياتنا لا يؤثر البتة في نوعية معاملته لنا بالنسبة الى وجودنا وعدمه او بالنظر الى اضطرار ارادتنا واغتصابها على عمل الخير . وذلك

لان علمه السابق بهلاكنا او خلاصنا ليس هو سبب هلاكنا او خلاصنا بل هو نتيجة سابق علمه باعمالنا الصالحة او الطالحة ومن ثم فكما ان سابق علمه تعالى لايؤثر في أعمالنا الشخصية الحرة هكذا سابق علمه برذلنا او بانتخابنا لا يؤثر في تدابير عنايته في خلقنا او تركنا في حيز العدم. والحال كما ان الله سبحانه يعطي الحياة والادراك وبقية القوى والسلطان احيانًا الى اناس سيُسيئون استعمالها لضرر عباده. هكذا حكم يسوع في انتخاب يهوذا على ظواهره الحاضرة نظير انسان تاركاً ما كان يعرفه عن مستقبله مثل اله. وفضلاً عن ذلك فان حذاقة ذلك الشقي التي ادخلته في مصاف الرسل قد اضحت واسطة لتكميل المقاصد السماوية بتسليمه معلمه . وهذا القدر كاف لتبرير انتخاب يسوع ليهوذا الاسخريوطي وقبوله اياه في مصاف الرسل تاركين الى اللاهوتيين الخوض في اسرار مسألة الانتخاب والرذل وتفسير احكام الله التي لا تدرك

وبعد ان اسلم يهوذا معلمه الى رؤساء اليهود شعر بعظم ذنبه وقبح صنيعه فصرخ يئساً « لقد اخطأت بتسليمي دماً زكياً » فكان اقراره هذا بالحق تعويضاً عن انكار سمعان وقسمه ثلاث مرات انه لايعرف يسوع. وقد وفَّقت العناية الالهية حدوثهما في وقت واحد لتستعيض عن نكران الواحد باعتراف الاخر

فهولاء هم الاثنا عشر تلميذاً الذين دعاهم يسوع ليقبلوا تعليمه الالهي وينشروه على رؤوس الملا . ومنذ ذلك الوقت اخذوا يتبعون آثار ذلك المعلم اينما ذهب وحيثما حلَّ ويعيشوا معه عيشة جمهورية . وشرع يسوع عندئذ يروّض افكار الرسل ويثقف قلوبهم واخلاقهم ويعدهم لمقاومة العالم واميالهِ ولا يخفى ما كان يلاقيه فيهم من الصعوبات الكلية لان اكثرهم علماً كان عشاراً والبقية كانوا من عامة الشعب تعودوا ان يكسبوا معاشهم بعرق الجبين . اربعة منهم كانوا صيادي سمك والآخرون قرويين . غير انهم كانوا ذوي قلوب مستقيمة طاهرة خلا يهوذا. فعلى هذه القلوب الحية كان المشترع العظيم

مزمعاً ان يكتب شريعة العالم الجديد · وعندما يتم عمله يأتي الروح القدس فينفخ فيهم روح العلم والمحبة والغيرة فتتطاير الواح تلك الشريعة اللحمية على اجنحة الرياح فتذيع في اربعة اقطار المسكونة التعاليم السامية التي تلقنوها من فم مخلص العالم

الفصل السادس

تعاليم يسوع لكنيسته

خطبة يسوع على الجبل — مجلة الشريعة الجديدة — وصيه الرحمة والخاطية في بيت سمعان الفريسي — جدال الفريسين — التعليم بالامثال على شاطي البحيرة

طالع متى ٥ : ١ و ٧ : ٢٩ و ١٢ : ٢٢ — ٥٠ و ١٣ : ١ — ٥٣ ولوقا ٦ : ٢٠ — ٤٩ و ٧ : ٣٦ — ٥٠ و ٨ : ١ — ١٨ و ١١ : ١٧ — ٣٦ — و ١٣ : ١٨ — ٢١ ومرقس ٣ : ١٩ و ٤ : ١ — ٣٤

§

خطبة يسوع على الجبل

من البديهي ان جمعية او عصابة لا تقوم بمجرَّد انضمام اعضائها بعضهم لبعض او بأخذها اسماً خاصاً يميزها عن بقية البشر بل انما تقوم باجتماع الكلمة ووحدة المبدا والغاية والروح · وهذه الوحدة هي ضرورية لقيام الجمعية ونموّها كما ان النفس هي ضرورية لحياة ونمو الجسد · وعليه لما كان يسوع يريد ان يؤلف كنيسته على صورته ترتب عليه اولاً ان يثبت فيها روحه و ينشر فيها تعاليمه الاعتقادية والادبية النظرية والعملية · وهذا ما صنعه في خطبه

واول خطاب هو الخطاب المدعو خطاب الجبل وعدا كون هذا الخطاب هو الاسبق بالنظر الى الزمان فانه الاهم ايضاً لانه يعلن رأي المخلص بالنظر

الى اهم المسائل التي تدور عليها الحياة الادبية اعني السعادة والبرارة والحكمة. وبكل حق وصواب يعتبر المتبصرون هذا الخطاب مثل مختصر الشريعة الجديدة

وحسب التقليد العمومي كان يسوع لما فاه بهذا الخطاب على الجبل المدعو قرون حتين بين قانا وكفر ناحوم ويوجد هناك حتى اليوم دائرة من الصخور الطبيعية جعلت الناس يتوهمون منذ امد مديد انه صار هناك اجتماع ذو اهمية كبرى. وكان الحضور عديدين وقد احاطوا بيسوع احاطة الهالة بالقمر والاكمام بالثمر فجلس يسوع في الوسط وبعده الرسل ثم التلاميذ وبعدهم الشعب كل فئة في محلها وكان الجمهور كله يستنظر بفروغ صبر كسر خبز الكلام. حينئذٍ فتح يسوع فاه امام اعضاء كنيسته واخذ يعلمهم بفرحٍ قائلاً: «طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السموات». يعطي يسوع الطوبى اولاً للانفس التي لا تعلّق قلبها في خيرات الارض بل هي ارفع منها شأناً فتزدري بها اذا كانت حاصلة عليها ولا تشتهيها اذا كانت محرومة منها. فلمثل هاتيك الانفس الابية حق في ملكوت السماء لانه لا تطير النفس مثل الحمامة نحو المساكن السماوية الا متى كانت عارية من عراقيل الماديات. وخسارة العالم والارضيات انما هي ربح السماء

«طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض» الوداعة هي زهرة المحبة التي شذا عرفها يوقف اليد العادية عن قطفها ولها الوعد من فم المخلص بحكم الارض. لانّ القوة الغاصبة واليد الحديدية لا تستقرّ زماناً طويلاً على الارض بل هي تسعى في حتفها بظلفها اذ تثور عليها اعوان الضحايا التي تكون قدمتها على مذبح الظلم فتتقوّض اركان ملكها ولا يبقى منها في بطون التواريخ سوى الذكرِ القبيح. اما الوداعة فهي القوة الحقيقية الثابتة وتعظم بقدر تأثيرها في القلوب. ومتى انتصرت عليها فانها تخفي غلبتها تحت طي الرأفة والحنو. فمن قبلها من الطبيعة او اكتسبها من الاستعمال فهو سعيد لانّ نفوذه في العالم يكون عظيماً واعظم من

ذلك يكون اجره عند الله لانّ جزاءه يكون ارض الميعاد في ملكوت الله ونوال الغلبة في الديار الخالدة.

« طوبى للحزانِ فـانهم يعزَّون » . اي ان الدموع وان سخية هي احياناً سبب للسعادة والنعيم . فاذا كانت مسببة عن خيبة امل فهي بمثابة برقع يُرفَع من امام نواظرنا فتنكشف لنا حقيقة الحياة بما هي عليه من الحزن وكآبة الروح واذا نتجت عن الندامة فتكون سرًّا يطهر النفس من وصمة الخطية. واذا تأتت عن الحب الحار فتحني السموات نحو الارض وتغتصب رحمة العلي واعظم شاهد هو التجسُّد الالهي لانه اتى الارض ليقول لمحبي الرب : « انا برهان على حب الله لكم » وللتائبين عن ذنوبهم « تكون مغفورة لكم » : وللباكين على جهالاتهم « انا اكون نوركم من الآن فصاعداً » وهكذا جميع الباكين الآن يُعزَّون .

« طوبى للجياع والعطاش الى البرّ فانهم يشبعون » اي ان العطاش الى البر انما هو علامة الانفس الابية. وليس في احتياجاتنا المادية ما يحاكي شدة نزوع الانفس الرفيعة اليه سوى الجوع والعطش. وما البرُّ الا مجموع الحق والخير والجمال التي تنزع اليها نفوسنا طبعاً وخلقت لتتمتع بها. فتحيا الروح وتقتات من هذا الخبز الالهي كما ان الجسد يحيا و يقتات بالمأكل والمشرب. نعم ان السواد الاعظم من البشر يفقدون هذه الشهوة السامية ويميلون آذانهم عن صراخ النفس الى تحقيق هاتيك الاماني الفائقة ولكن السعيد وحده هو من يطلب الله وبرَّه ولا ريب انه يحصل عليه ويشبع برؤيته تعالى

« طوبى للرحماء فانهم يرحمون » . اي من يحسن الى الغير يستحق ان يحسن اليه واذا كان قلبنا يحنُّ طبعاً على من اضحوا هدفاً للعذاب ويبذل قصارى الجهد في تسليتهم وازالة آلمهم كما استطاع فكم بالاحرى الله تعالى يتحنن علينا نحن المساكين الذين نئن تحت اثقال المصائب والشقاء، ويترأف علينا ويعزّينا. فبدون ريب ان لا شيء يؤثر في قلبه تعالى مثل نظره آبانا تشفق ونحسن الى

اخوتنا فيجازينا على عملنا هذا اضعافاً

« طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله » اي ان عين النفس نظير عين الجسد لا تنظر الاشياء الا اذا كانت نقية من كل كدر وان هذا يفسر لنا العلاقة الكائنة بين الرجاسة والظلم والكبرياء والكفر وكيف ان الدنس يقود طبعاً الى نكران وجود الله. فمهما كان اسم الوسخ الذي يلحق النفس فانه يمنع عينها عن عن النظر وبين العمى الروحي وفتور الايمان وجحد الدين لا توجد مسافة قدم. اما القلب النقي الطاهر فيرى الايمان سهلاً والنفس التي تنقت بحميم التوبة تجد الدين طبيعياً. فترى جميع الموجودات حولها السنة تحكي لها عن الله وتدعوها اليه سبحانه وتنظر صورته من خلال المخلوقات باسرها وتسمع صوته من وراء اصوات الطبيعة غير ان هذه المناجاة الطبيعية ليست سوى ظل العقيدة اذ تراه كما هو وجهاً بازاء وجه

« طوبى لفاعلي السلامة فانهم ابناء الله يدعون ». اي ان الله عزّ وجلّ هو ربُّ السلام ولا شيء يقدر ان يعكر صفاء سلامه الذي يعطيه الى المختار بن وعليه فاولاده الحقيقيون هم الذين لا يقلقهم امر من الامور لان السلام راسخ في قلوبهم وشهادة ضمائرهم السليمة ترفعهم فوق تقلبات اهواء الحياة. وكل من دنا منهم يشعر بعذوبة صفاء انفسهم و يستريح باشتراكه معهم في هذا السلام

« طوبى للمضطهدين من اجل البرّ فان لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم اذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من اجلي كاذبين افرحوا وابتهجوا فان اجركم عظيم في السماوات لانهم هكذا اضطهدوا الانبياء من قبلكم »

فهولاء هم اصناف الناس الذين يعطيهم يسوع الطوبى وهولاء هم اعضاء الكنيسة حسب فكر منشئها وهذا هو تاريخ المختارين . المتواضعو القلب والمضطهدون والحزان والكافرون بذواتهم و بحطام الدنيا وذوو الفضيلة هم الذين

تكتب اسماؤهم في سجل ملكوت السماوات . ومن هولاء فقط يلزم ان تنتخب ابناء الكنسة الجديدة . وفي هذه السجايا الحميدة فقط تجد الكنيسة عظم قوتها وفاعلية نفوذها ومن اراد ان يخلق لها قوة من غير الصبر والاحسان والمسكنة والرأفة والقداسة فانه يضرُّ بصوالحها الحقيقية و بنجاح مستقبلها

لعمري ان هذه الحقائق الغريبة تظهر مخالفة للراي العام ولكن اليس الصليب يعد جهالة اعظم من تلك مع انه سبب خلاص العالم . وكأن قد شعر يسوع بان جمهور السامعين لم يفهموا كنه فكره او لم يذعنوا لمقاله كل الاذعان ولهذا فانه يراجع الافكار عينها بصور اقوى و بلهجة اثبت اذ قال :

« لكن الويل لكم ايها الاغنياء فانكم قد نلتم عزاءكم » اي ان الاغنياء اخذوا نصيبهم خيرات الارض وهذه كان من شانها أن تشبع قلوبهم فعليها يعلقون آمالهم وهي موضوع هذيذهم وسرورهم وسعادتهم . وبالنتيجة يأخذ المال في قلوبهم محل الرب الصباووت . وهذا تجلبة الويل عليهم . لان الغنى يسهل طرق الرذيلة و يقسي النفس فيمسي الانسان لا يخاف من الله ولا يشغله شاغل عن اتمام شهواته فيتعبد للحواس وينبذ الابدية ظهرياً

« الويل لكم ايها المتشبعون فانكم ستجوعون » . اي أن الخلاعة التي تشبع الشهواني في هذه الحياة تعدُّ له جوعاً كابياً بعد الموت

« الويل لكم ايها الضاحكون الان فانكم ستنوحون وتبكون » اي ان الخزي والعار وخيبة الآمال تتوقع اولئك الذين يعيشون الآن بالبسط والانشراح والطيش فيلتهون عن الاختلاء بانفسهم ليتحققوا عظم شقائها

« الويل لكم اذا قال الناس فيكم حسناً فان آباءهم هكذا فعلوا بالانبياء الكذبة » اي ان شكران الناس عموماً انما هو تمليق محض فعوض الاصلاح ينتج عنه غالباً التهور في الاثم . لان الرسول الحقيقي يلزم ان يكون نظير المطرقة على رؤوس المجرمين ووخز الابرة الذي يعذب ضمائرهم وان صنع خلاف ذلك

فيكون خائناً لواجبات وظيفته . فليغضبوا عليه ويلعنوه و يضطهدوه فذلك شانه وعليه ان لا يعبأ باقوالهم

« انتم ملح الارض فاذا فسد الملح فبماذا يُملّح . لانه لا يصلح لشيء الا لان يطرح خارجاً وتدوسه الناس » اي كما ان الملح الطبيعي يمنع فساد الاطعمة هكذا الحقائق الدينية اذا سلمت من التشوّه فانها تحفظ العالم من جراثيم الفساد الحالة فيه وتوقيه من الهبوط الى دركات الهمجية . ولكن اذا دب الفساد اليها فتضحي كالملح الفاسد فلا تعود تجدي نفعاً للاصلاح فيدوسها الناس بالارجل وهناك تكون الطامة الكبرى والخراب الهائل

« انتم نور العالم . لايمكن ان تخفى مدينة مبنية على جبل . ولا يوقد سراج و يوضع تحت المكيال لكن على المنارة لينير على كل من في البيت » اعني ان الرسل لم يقبلوا نعمة التبشير ليخفوها في الظلام ولم يقبل التلاميذ نور الايمان ليحجبوه لان ما أُعطوه لم يكن لهم فقط بل لينيروا به الآخرين ايضاً الذين هم في الظلمة . وبروح نبوية يحيي يسوع بفرح الكنيسة المعبر عنها هنا بالمدينة المبنية على جبل والمنارة التي تنير السائرين في بحر هذا العالم المملوء من الاخطار . « هكذا فليضئ نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الحسنة و يمجدوا اباكم الذي في السماوات» لعمري ان الرجل الفضيل يحمل الناس على الايمان والاعتقاد بالفضيلة و بالشريعة الادبية وبالمشترع نفسه كما ان التلميذ يشرف معلمه والابن بمشابهته لابيه يشهر اسم ابيه وعليه يطلب يسوع من تلاميذه ان يكرزوا على الناس بمثلهم واعمالهم الحسنة

ولكن ما هي القداسة وما تقتضيه بحسب معنى الشريعة الجديدة . تلك مسألة يحوم فوقها طائر البصيرة في هذا الموضع . ولهذا يجيبنا يسوع عنها بعد ايراد ما سبق

يبتدئ يسوع مثبتاً كون اساسات القداسة لم تتغير بل هي باقية اليوم على ما كانت عليه بالامس . فانها لم تزل قائمة على مجموع الوصايا الادبية المنتشرة

في العهد القديم. اما الطقوس والرتب الموسوية فلا دخل لها لانها وقتية من طبعها وقد بلغت غايتها فالغيت وبناء على ذلك يقول يسوع: « لا تظنوا اني اتيت لاحل الناموس والانبياء. اني لم آتِ لاحل بل لاتمم. الحق الحق اقول لكم انه الى ان تزول السماء والارض لا تزول ياء او نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل ». لما كانت الشريعة الادبية مبنية على جواهر الاشياء كان برهان وجودها الاخير في طبع الله نفسه ولهذا لم يُلغِ منها يسوع حرفاً واحداً بل ترتب عليه ان يفسرها بشرائع وضعية اوضح منها فينفتح امام عيوننا افق اوسع وارحب نتدبر فيه حياتنا الادبية على الرحب والسعة. وكان الربانيون ومفسرو الشريعة قد قيدوا الناموس الادبي بالرتب المادية فأتى يسوع يردها الى أصلها الروحي. ولهذا يعلن اهمية الوصايا المزمع اعطاؤها والتي من شانها ان تظهر الفرق بين الماضي والمستقبل وتميز بين المسيحي واليهودي قائلاً:

«فكل من يحلّ واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلم الناس هكذا يدعى صغيراً في ملكوت السماوات واما من يعمل بها ويعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات » ان من يدعوه الله ليشاركه تعالى اسمه بحياته لا يستطيع بلا ذنب ان لا يلبي دعوته الى ذلك الشرف الاثيل وعلى قدر اجتهاد المرء باتباع طريق الكمال الموضوعة له بقدر ذلك يرضيه تعالى ويكرَّم من ابناء الله وعليه يستتبع يسوع كلامه قائلاً: « ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات » ومن ثم فما هو مزمع ان يزيده يسوع على الشريعة القديمة الزامي لكل من يريد الدخول في الكنيسة الجديدة. ومن لا يحفظه ويعمل به لا يدخل. فعلى كل انسان ان يفتح اذنيه ويؤهب قلبه. وها كم شروط القداسة او البرارة المسيحية

§

مجلة الشريعة الجديدة

قال السيد المسيح: «قد سمعتم انه قيل للاولين لا تقتل فانّ من قتل يستوجب الدينونة . اما انا فاقول لكم انّ كل من غضب على اخيه يستوجب الدينونة . ومن قال لاخيه راقا يستوجب حكم المحفل . ومن قال يا احمق يستوجب نار جهنم» . فيؤخذ من مجمل هذه الفقرة ان يسوع لا يذهب الى القول كما يوهم ظاهر الكلام ان المهين لقريبه يستحق قصاصاً اقوى من قصاص الذي يقتل . كلاّ بل كان قصده ان يعلن كونه يعتبر ذنباً ثقيلاً ما كان اليهود يعتبرونه كلا شيء، فلذلك قوّى العبارة وقال لليهود : حسب زعمكم القاتل وحده يستوجب قصاصاً واما انا فاقول ان الرجل البغيض والغضوب ايضاً يستوجب قصاصاً اعظم من قصاص المحافل الارضية لانه يستحق نار جهنم وذلك رغبة في ان يبين لهم ان الشريعة الحديثة لا تلاحظ اعمال الانسان الخارجية فقط بل ادبيات الافكار الداخلية ايضاً وسرائر القلوب ولا فرق فيها ان يبقى الغضب مكتوماً طي الضلوع او يظهر بالكلام الخارجي لان كليهما نتيجة علة واحدة وهي بغض القريب

فهذه الحزازات القلبية ضد القريب التي لا يحسبها اليهود ذنباً تُعدُّ جرماً في عيني الرب وتستوجب غضب السماء، ولهذا يردف يسوع كلامه بقوله : «فاذا قدمت قربانك الى المذبح وذكرت هناك انّ لاخيك شيئاً فدع قربانك هناك امام المذبح وامضِ اولاً فصالح اخاك وحينئذٍ ائتِ وقدّم قربانك» . اعني ان الله يسرُّ بتضحية كبريائنا وحقدنا اكثر مما يسرُّ بتقدمة الضحايا والقرابين وعليه يقول ايضاً : «بادر الى موافقة خصمك ما دمتَ معه في الطريق لئلا يسلمك الخصم الى القاضي و يسلمك القاضي الى الشرطي فتلقى في السجن . الحقَّ اقول لك انك لا تخرج من هناك حتى توفي آخر فلسٍ» . وهنا ينتقل يسوع الى المعنى الروحي وهاك مؤدي كلامه : «ان الانسان الذي يرفض موافقة خصمه

ما دام سائرًا معه في طريق هذه الحياة عليه ان يخاف من مفاجأة الموت له فيضحي امام الديان العادل الذي لا ينسى سيئة بلا عقاب فيجعله يعوض عن ضرر القريب الذي كان قادرًا ان يعوضه بسهولة ما دام حيًا بعذابات فادحة ولربما ابدية . فما اضيق الشريعة الجديدة ولكن ما اسمى آدابها فانها تقطع دابر الشرّ من اعمق عروقه

وينتقل يسوع من الوصية الخامسة الى السادسة متابعًا المقابلة بين ما قيل قديمًا وما يقول الآن : « قد سمعتم ما قيل للاولين لا تزنِ . اما انا فاقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه » . لعمري ان من قبل التجارب اللحمية وتوقّف فيها متلذذًا وتبع اهواءها ولكن دون ان يتسنى له ارتكاب الفعل الخارجي فقط فقد زنى في قلبه لا محالة . فالاثم قد حصل تمامًا امام الرب وان لم يُرتكب امام الناس . فعلى الانسان اذن السهر على حركات قلبه وشهواته المنحرفة ولهذا يقول السيد المسيح ايضًا : « فان شككتك عينك اليمنى فاقلعها والقها عنك . فانه خير لك ان يهلك احد اعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم . وان شككتك يدك اليمنى فاقطعها والقها عنك . فانه خير لك ان يهلك احد اعضائك ولا يذهب جسدك كله الى جهنم » . فالدواء اذن حادّ نظير الشر . والواسطة الوحيدة لاجتناب القضاء الابدي انما هي قطع دابر اعزّ الصلات والبعد عمن اصبح جزءًا منا ومنع العين عن النظر كي لا يسري الداء الى القلب وبتر العضو الفاسد حبًا بخلاص الجسد كله

« قد قيل من طلق امرأته فليدفع اليها كتاب طلاق . اما انا فاقول لكم من طلق امرأته الاّ لعلة زنى فقد جعلها زانية . ومن تزوج مطلقة فقد زنى » اعلم ان الزواج يجعل بين الرجل والمرأة عقدًا لا يحلّ ابدًا الاّ بالموت واذا كان موسى قد حلّ عرى الزواج فان شريعة الانجيل تشدّد وتوثق عراها من جديد . وبغير علة الزنى لا يجوز للرجل ان يطلّق امرأته . وان فعل لغير تلك

العله فيبقى مسؤولاً عن كل ما تصنعه هي من الشر سواء اقترنت برجل آخر اوعاشت بالاثم . ولا يكون براء مما تفعله المرأة من الشر الا من تحقق الخيانة عندها فطردهـا من بيته . لانه ليس من الصواب والعدل ان يستمر مسؤولا عن خيانة كان هو اول من ذهبت بحقوقه . ولكن هل يحلّ له ان يتزوّج ثانية بامرأة غيرها . فلا يجيب يسوع عن ذلك في هذا الموضع وسوف يفي هذا البحث حقه في محل آخر . غير انه برفضه حق الزواج ثانية للزانية نفسها يعلن لنا ليس فقط انه يريد لذلك ان ينتقم منها لاجل خيانتها بل انه يستمر حتى بعد الخيانة رابطٌ يقيدها عن الزواج وهذا الرابط متبادل بينها وبين زوجها يقيد حرية البار والمذنبة معاً

« قد سمعتم ايضاً انه قيل للاولين لا تحنث بل اوفِ للرب باقسامك . اما انا فاقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فانها عرش الله . ولا بالارض فانها موطئ قدميه . ولا باورشليم فانها مدينة الملك الاعظم ولا تحلف برأسك لانك لا تقدر ان تجعل شعرة منه بيضاء او سوداء . ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا ومازاد على ذلك فهو من الشرير » . ان القسم في ذاته انما هو نتيجة الخطيئة . اذ لا يُطلب منّا الاّ نظرًا لاعتقاد الغير بشرّ سريرتنا الطبيعي . ونحن لانقسم الا اما لاعتقادنا بضعفنا واما لسوء ظنّ الغير بنا . ويتابع يسوع شرح تعاليمه السامية متدرّجاً نحو اقصى الكمال المسيحي بحيث يصعب على الانسان الترابي اتباعه . غير ان ذلك ليس من ضروريات الخلاص بل يكفي الانسان للخلاص ان يكون ذا فضيلة اذا لم يكن كاملاً

وقال المخلص ايضاً « قد سمعتم انه قيل العين بالعين والسنّ بالسن . اما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الايمن فحوّل له الآخر . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فخلِّ له رداءك ايضاً . ومن سخرك ميلاً فامشِ معه اثنين . من سألك فاعطه . ومن اراد ان يقترض منك فلا تمنعه » . فهذه المشورات

المتضمنة كمال المحبة المسيحية لو أُخذت على حرفيتها واستعملت بدون افراز وبدون ملاحظة ظروف الحال من شأنها ان تشجع الشرير وتجرئه على عمل الشر. غير ان يسوع نفسه قد علّمنا بمثله كيف يجب علينا ان نتصرَّف في مثل هذه الظروف. فهو عوضاً عن ان يحوّل الخدّ الآخر الى الخادم الذي لطمه على خده الايمن قال له: « ان كنتُ تكلمت بسوءٍ فاشهد عليَّ بالسوء. وان بخيرٍ فلماذا تضربني ». ففي هذه الكلمات يضع يسوع بالعمل كل ما اشار به في تعليمه السابق فاستعمل الوداعة والصبر في ذلك الموقف الحرج موعظةً لنا حتى لانعامل المثل بالمثل ونقابل الشر بالشر. وعليه يزيد قائلاً

« قد سمعتم انه قيل أُحبب قريبك وابغض عدوَّك (العدو كل من كان غير يهودي) اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم وأَحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لاجل من يُعنتكم و يضطهدكم لتكونوا بني ابيكم الذي في السموات لانه يُطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين. فانكم ان احببتم من يحبكم فايُّ اجر لكم اليس العشارون يفعلون ذلك. وان سلمتم على اخوانكم فقط فايُّ فضل عملتم اليس الوثنيون يفعلون ذلك. فكونوا كاملين كما انَّ اباكم السماوي هو كامل ». فما اسمى هذا التعليم الذي لم يكن سمعه العالم من قبل ولعمري ان المسيحي الذي يمارسه انما يضحي صورة الرب الرؤوف على الارض

هذه هي اركان القداسة والبرارة المسيحية ولكن كي تكون طبق افكار يسوع المسيح وتظهر فيها اشعة الدين المسيحي باجلى بيان لا بدَّ لها من ان تكون مقرونة بالتواضع وسلامة القلب والفطنة وبناءً على ذلك يستأنف يسوع الكلام قائلاً: « احترزوا الاَّ تصنعوا برَّكم قدام الناس لكي ينظروكم والا فليس لكم اجرٌ عند ابيكم الذي في السموات ». فهذه الوصية لا تناقض الوصية السابقة: « فليضئ نوركم امام الناس ». لانها لا تحرّم على المؤمنين ان يضيء نورهم امام الناس اذ من واجباتهم ان يصنعوا كل ما في وسعهم لبنيان القريب ومجد الله. انما

تحرّم عليهم ان يصنعوا اعمالهم رغبة في ان يزيد مجدهم الخصوصي لانهم ان فعلوا ذلك يكونون قد قبلوا اجرهم من مديح الناس وخسروا اجرهم من قبل الله . ومن هذا المبدا ينتج يسوع ما يأتي : « اذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع والازقة لكي تمجدهم الناس . الحقَّ اقول لكم انهم قد اخذوا اجرهم » . فكلام يسوع يمثل لنا باوضح اسلوب حالة من يتصدقون على البائس حباً بالمجد الباطل وقصد اكتساب رضى ومديح البشر . فليس في ذلك ما يستحق المجازاة من الله لانَّ الغاية الفاسدة فيه قد افسدت العمل كله ولا يستحق المجازاة من الله الاَّ من تصدّق حسب قول يسوع المسيح هذا : « اما انت فاذا صنعت صدقةً فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك . لتكون صدقتك في خفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك » . اي ان البار الذي يجتهد باخفاء حسنة عن اعين البشر يتعزى بان عين الله ناظرة اليه وهو خير مديون واكرم مجازٍ . « واذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فانهم يحبون القيام في المجامع وفي زوايا الشوارع يصلون ليظهروا للناس . الحق اقول لكم انهم قد اخذوا اجرهم » . فهولاء يضيعون وقتهم بالباطل لانهم لا يخاطبون الله بصلواتهم بل البشر ولا يطلبون من السماء احتياجاتهم بل من الارض . « اما انت (يقول لك يسوع ايها المسيحي) فاذا صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصلِّ الى ابيك سرًّا وابوك الذي يرى السرّ هو يجازيك » . وبالحقيقة ان صراخ النفس الصاعد من الخفية يخرق السحاب بسهولة اذ يكون عرياً من عراقيل المآرب البشرية ويحنن قلب الآب السماوي لبعده عن كل ضوضاء خارجية . « واذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فانهم يظنون انه بكثرة كلامهم يستجاب لهم فلا تتشبهوا بهم لانَّ اباكم عالم بما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه » . ان الالهة حسب اعتقاد الوثنيين لا يصغون دائماً الى البشر وليس لهم علم سابق باحتياجاتهم . ولهذا من الضرورة ان يدعوهم البشر اولاً لاستماع صلواتهم ويوضحوا لهم احتياجاتهم

ويستميلوهم الى قبولها بكثرة الكلام وقوة الحجة . اما الاله الحقيقي فدائماً اذناه تنصتان الى تضرعاتنا ويرى مسكنتنا وشقاءنا ولا يحتاج الا لحركة قلبنا نحوه كي يمطر علينا من فيضان كرمه سوابغ نعمه . ولهذا لا حاجة الى كثرة الكلام معه فيكفي انين القلب وعاطفة اللب نحوه تعالى كي يستجيب دعاءنا

« واذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين . فانهم ينكّرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين . الحق اقول لكم انهم قد اخذوا اجرهم » كانت عادة الشرقيين ان يغتسلوا ويمشطوا شعورهم قبل الاكل ومن ظهر قدّام الناس بوجه عبوس وشعر مرخيّ او مرشوش بالرماد فتلك علامة انه صائم . فهذه الظواهر كانت تستجلب الانظار اليه والثناء العاطر على تقواه فيأخذ يميل عجباً ويشكر الله على عظم ورعه ولا ريب ان صياماً كهذا غايته المجد الباطل لا اجر له في السماء واما الانسان المسيحي فعليه ان يكون ارفع من كل ذلك ويتبع وصية سيده القائل : « اما انت فاذا صمت فادهن راسك واغسل وجهك لئلا تظهر للناس صائماً بل لابيك الذي في الخفية وابوك الذي ينظر في الخفية هو يجازيك »

وبعد ان اتم يسوع تعليمه عن التواضع المسيحي ينتقل الى الكلام عن الفطنة المسيحية ولما كان قد اوصى المسيحيين ان لا يعملوا حسناتهم قدام الناس بل في الخفية يوصيهم الآن ان لا يحكموا على القريب بحسب الظواهر قائلاً : « لا تدينوا لئلا تدانوا . فانكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم » فمن اعظم دواعي التعزية لقلب الانسان انما هي شهادة ضميره بانه عامل قريبه بالحنو والرأفة وانه سيعامل كذلك ان لم يكن على الارض فسوف يكون في السماء . ومن ثم لا نضيع اوقاتنا بانتقاد حياة الغير بل علينا ان نفتش عن معايب نفوسنا ونصلحها وعليه قال يسوع المسيح : « ما بالك تنظر القذى الذي في عين اخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك . ام كيف تقول لاخيك دعني اخرج القذى من عينك وها ان الخشبة في عينك . يا مرائي اخرج اولاً

الخشبة من عينك وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين اخيك »

على ان الفطنة تقضي ان لا نعامل البار والشرير معاملةً واحدةً ونثق بالصالح والطالح على السواء فعلى المبشر خاصة ان يراعي هذه الوصية و يحكم بفطنة وافراز على ما يستطيع السامعون احتماله من الكلام وما يوافق حالتهم من الارشاد حسب وصية يسوع القائل : « لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدّام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وترجع فتمزّقكم » اي انه ليس من السداد ان نلزم اولاً بممارسة المشورات الانجيلية ذوي الانفس السافلة والهمم الخاملة كما انه ليس من الحكمة تقديم المآكل الفاخرة لذوي المعد المعتادة المآكل الضخمة لانهم لا يعرفون ان يقدروها حق قدرها و بالاحرى تضرّ بهم كما تضر رياح الورد بالجعل فيدوسونها بارجلهم و يرجعون علينا باللوم والاهانة

§

وصية المحبة

و يختصر يسوع كل ما تقدم بوصية المحبة المسيحية المتبادلة بقوله : « فكل ما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوه انتم بهم . فان هذا هو الناموس والانبياء »

غير انه من البديهي انه يصعب على الانسان المحب ذاته والمتكبر طبعاً ان يحيد عن طريق البغض والنميمة والاغتياب والطمع ويتبع سبيل التواضع والكفر بالذات وخيرات الارض . ولكن ما العمل لا يوجد طريق غير هذا يؤدي الى السماء ومن اراد الغاية لا بد له من ارادة الواسطة وعليه يحرضنا يسوع قائلاً : « ادخلوا من الباب الضيق لانه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي الى الهلاك والداخلون فيه كثيرون . ما اضيق الباب واحرج الطريق الذي يؤدّي الى الحياة وقليلون الذين يجدونه » . فلا وهم اذن ولا تمويه . من اراد ان يتبع المسيح لا بد له من العبور في هذا المسلك الصعب والمضيق الحرج ليصل

الى الباب المؤدّي الى الحياة المسيحية اذ لا بدّ دون الشهد من ابر النحل ومن تسنى له البلوغ اليه يدخل الى ملك الحياة الابدية مقر السعادة والنعيم الدائم

ويسترسل يسوع في الكلام محرضاً المؤمنين به ان يحترزوا من التعاليم الغريبة الفاسدة وان لا يعيروها اذناً صاغية بل ينبذوها نبذ النواة قائلاً: « احذروا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم في الباطن ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنى من الشوك عنب او من العوسج تين. هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمرًا جيدًا والشجرة الفاسدة ثمرًا رديئاً. لا تستطيع شجرة صالحة ان تثمر ثمرًا رديئاً ولا شجرة فاسدة ان تثمر ثمرًا جيدًا » اعني ان مبدا الحركة وميزان اعمال الشعوب وتقدمهم لفي معتقدهم والحال ان طقوس الفريسيين وترتيباتهم الفارغة لم يصدر عنها سوى اعمال ممقوتة فاسدة كما يشهد العيان فاذن من سمع لهم فمثل اعمالهم يعمل والحال ان « كل شجرة لا تثمر ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار. فمن ثمارهم تعرفونهم. ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات لكن الذي يعمل ارادة ابي الذي في السموات » وهنا يبين يسوع ضرورة الاعمال الصالحة للخلاص وان الايمان وحده لا يكفي للسعادة الخالدة بل يلزم قرن الايمان بالاعمال وعليه يختم خطابه بقوله: « فكل من يسمع كلامي هذا و يعمل به يشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر فنزل المطر وجرت الانهار وهبت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط لان اساسه كان على الصخر » اي ان الاعمال دأبها ان تقوي الايمان وتعضده وغالباً هي الموصلة اليه فمن طابق اعتقاده واعماله تعاليم المخلص فذاك يخلص لا محالة فلا نوازل الدهر السوداء ولا الموت الفجاءي تقوى على خراب برج برارته وقداسته الذي شاده على صخرة الاعتقاد القويم والافعال المبرورة و يبقى واقفاً حتى وراء القبر و بيده اعماله الحسنة تدل على ما تصل اليه الفضيلة المبنية على صواب الايمان وحسن الاعمال معاً

« وكل من يسمع كلامي هذا ولا يعمل به يشبه رجلاً جاهلاً بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجرت الانهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً » ليس من الامر المستغرب وجود اناس يدهشون العالم بحرارة ايمانهم ويشتهرون باقوالهم وكتبهم المملوءة حكمة وغيرة على الايمان الصحيح ويتنبأون عن حلول المصائب بسبب افول نجم الايمان ويعملون العجائب بفصاحة اقوالهم ولكن يا للاسف ادخل الى مخادع قلوبهم وتتبع سرائر اعمالهم ترى البعد الشاسع والتناقض اللامع بين صحة ايمانهم وتاريخ اعمالهم السيئة ثم اصبر قليلاً ترَ هبوط تلك القصور المزخرفة المبنية على الرمل والرماد فعما قليل يسقط ذلك البنيان الشائق بقرقعة عظيمة ويتطاير دخان ذلك الصيت البعيد فيغطي وجه السماء فالويل اذن لتلك الاصنام الفارغة يوم تسودّ وجوه وتبيضّ اخرى

وعندما اتمّ يسوع كلامه بهت الجمع الحاضر من بلاغة وسمو تعليمه « لانه كان يعلمهم كمن له سلطان لا ككتبتهم والفريسيين »

§

مريم المجدلية في بيت سمعان الفريسي

ونزل يسوع من هناك قاصداً كفرناحوم وقبل ان يصل الى شاطىء البحيرة دخل قرية مجدلا الكائنة على مسافة ساعة من بحيرة طبرية على مدخل مرج جنامر. ولقد قامت فوق تلك الطلول والربوع البالية قرية المجدل المأهولة حالياً بالمسلمين دلالة على موقع تلك وحرصاً على الاسم من الضياع. غير ان حسن الموقع وجمال الطبيعة يحملان طائر الفكر على الحوم فوق هاتيك الربوع البالية الآن فيرى من خلالها ما كانت ابان شبابها ويتمثل تلك الجنائن الغناء والبساتين المخصبة تكسوها الزهور المختلفة الانوار ثوباً قشيباً عوض الشوك والعليق النابت فوقها اليوم. لانها كانت كما قال المؤرخ يوسيفوس فردوساً ارضياً. فوالحالة هذه يسهل للتصديق انه في بلدة نظير ما ذكرنا وتحت سماء من نار تخنث الاخلاق

وتفسد العوائد وتنحط الآداب. ولهذا يعزو الربانيون خراب تلك البلدة الى تفاقم فساد قاطنيها

ففي هذه البلدة سألَ يسوعَ احدُ الفريسيين المدعو سمعان ان يأكل عنده ولربما كان يسوع قد ابرأه من مرض كما يستدل من سياق الحديث الآتي. اما يسوع فدخل بيت الفريسي واتكأ وحسب ظاهر الحال كان استقباله بارداً نظراً لما كان عرف به يسوع من شدة المقاومة لتلك العصابة وما كان يرشقها به من اسهم اللوم الصائبة. فلم يحفل الفريسي بضيفه الكريم ولم يصنع له التبجيلات العادية عند وصوله اذ لم يقبّله ولم يغسل له رجليه حسب العادة المرعية وقتئذ وفضلاً عما بغسل الارجل من النظافة وراحة الجسم كان اليهود يعتبرونه طقساً لازماً للتطهير. وكان بعد الغسل يتقدم الخادم او صاحب الضيافة فيدهن شعر ولحية ضيفه بالزيت المعطر كما ان العادة اليوم ان يرشوا الضيف بماء الزهر وعند الأكل كان يقدم الى الضيف اناء مملوءاً من الماء ليطهر به يديه. فكل هذه الاصطلاحات قد تركت وقتئذ

وفيما هم متكئون حول مائدة الطعام على مرأى ومسمع جمهور عظيم من اهالي البلدة المذكورة واذا بامرأة خاطئة قد انسابت بين الجمهور فحدجها القوم بالابصار وتساءلوا عن سبب حضورها في ذلك الوقت وجسارتها على الدخول الى مثل ذلك المحفل. وكانت تلك البغيَّة ممن كبت بهم جياد الشيمة ورفعة النفس في اول ميدان الحياة فهوت في وادي الغواية واشباع شهوات القلب وغرور الشبيبة وخلع العذار كما هو دأب بعض المومسات اللواتي نزعنَ رداء الحياء بسبب سقطة مبدأها الضعف البشري فآلت بهنَّ الحال الى نفور العائلة والاصدقاء وحلول الفقر المدقع والانفراد والخجل فسلمنَ ذواتهنَّ الى كل شارد ووارد. والمجدلية التي عليها مدار كلامنا كانت مريم اخت لعازر ومرتا كريمة المحتد غير ان الظروف التي اشرنا اليها وتيار اهواء النفس

حملها على تسليم القلب الى الاهواء الفاسدة حتى انها ادهشت سكان البلدة بفساد سيرتها

فايُّ تذكارات صالحة او ايُّ وخز ضمير او كلمات مؤثرة قد تساتلت تترى في ذلك الحين الى نفس تلك الخاطئة فحركت بقايا الشهامة الراسبة في ذلك القلب . فهل كانت قد سمعت من فم المخلّص احدى تلك الكلمات العذبة التي شأنها ان ترفع النفس وتغيرها اكثر من اقسى التهديدات . وهل فاجأها في حال سوء اعمالها الماضية فوبخها واخرج منها السبعة الشياطين اي الخطايا الرئيسية فرجعت الى ذاتها . نعم وهذه اسهل وسيلة لفهم ما يأتي . وغالباً تنتقل تلك الانفس المتطرفة من التوغل في اوحال الخطية الى اسمى درجات الكمال ولنا شاهد في ما جرى لهذه الابنة الخاطئة . فانَّ التواضع العميق قد قام مقام المجد الباطل ومحبة الله شغلت قلبها عوض محبة الملذات العالمية والكفر بالذات سدَّ مسد التباهي والعجب في الجمال . فهذه الفضائل السامية قد ازهرت بغتة في قلب تلك الابنة واثمرت الاعمال الصالحة التي حملتها ان تأتي بقارورة طيبٍ غالي الثمن وتقف عند قدمي يسوع غير مبالية بسخرية الحضور الذين كانوا يرشقونها بسهام التقريع والكلام المرّ . فتقدمت تشقّ جماهير الناس مخفضة النظر ويعلو وجهها احمرار الخجل نظير الحمل للضحية . غير ان جمهور الحضور الذين كانوا يعهدون ما فيها ويجهلون تماماً الفوز الادبي الذي احرزته في الحرب التي تثيرها عليها الحواس لم يعتقدوا صدق اهتدائها فكانت السنتهم بمثابة سيوف حادة تقطع قلبها المنسحق بالتوبة الحقيقية وتزيد بالطين بلة

ولما نظرها القوم تتقدم نحو يسوع اخذوا يتساءلون ما عسى ان يكون من الامر . اما هي فتابعت السير الى ان وصلت عند قدمي يسوع لانه كان متكئاً على الاكل حسب عادة الشرقيين في ذلك الوقت وبدون ان تأتي ببنت شفة جثت على ركبتيها واخذت تذرف الدموع السخينة ندامة على ذنوبها الماضية

وتبلّ قدمي يسوع وتنشفهما بشعرها المسدول على كتفيها . ففمها الاثيم كان يتطهر بلثم جسد لم يتدنس قطعاً بحمأة الشهوات . وقلبها الذي كان مقراً للرجاسة كان يتفتت وينسحق نظير الملح ويحترق بنار الندامة على ما فات ليخلق خلقة جديدة بالنعمة . وعلى هذا النمط كل ما كان فيها آلة للشرّ قد استخدمته الآن واسطة للندامة وكل ما كان فيها احبولة لموت الخطية صار جرثومة لحياة النعمة والخلاص . ثم فتحت قارورة الطيب الذي اصبح صورة نفسها برائحته الزكية وشرعت تدهن به قدمي يسوع وتضمهما بحب الى صدرها . وان عملاً نظير هذا كان من شأنه ان يحرك في قلب الحضور عواطف الشفقة والتعجب من مفاعيل الندامة الحقيقية . ولكن الخبيث لا يزيد الا خبثاً اذ يتمثل الاشياء على شاكلته فذاك الفريسي عوض ان يتعظ بمثل الخاطئة التائبة فكر في نفسه وقال : « لو كان هذا نبياً لعلم من المرأة التي تلمسه وما حالها اذ هي خاطئة » . لانه حسب اعتقادات الفريسيين الباطلة من لمس شخصاً دنساً فقد تدنس هو ايضاً كمن لمس شخصاً مضروباً بالبرص . وبناء على ذلك اول فكر طرأ على ذهن سمعان الفريسي ان المعلم بسماحه للخاطئة ان تلمس وتلثم رجليه قد تدنس شرعاً ولم يخطر له في بال غير هذا الفكر الخبيث . ولهذا اراد المعلم ان يبين له انه اذا كان يجهل من هي تلك المرأة فانه كان يعرف حق المعرفة من هو الرجل الذي يكلمه فقال له : « ياسمعان عندي شيء اقوله لك . فقال قل يامعلم » . فانتهز يسوع هذه الفرصة ليبين قدام الحضور ان ما صنعته تلك المرأة انما هو جزاء فضله السابق عليها اما سمعان فلم يصنع شيئاً مقابلة لمعروف يسوع عليه لانه من سياق الكلام وقرائن الحال يستدل ان سمعان كان مديوناً ليسوع نظير المجدلية ولكن ليس بالدرجة نفسها وهذا مؤدى المثل الآتي : قال « كان لمداين مديونان على احدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . واذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما كليهما . فقل لي ايهما

يكون اكثر حباً له . فاجاب سمعان وقال : هو فيما اظنُّ الذي سامحه بالاكثر . فقال له يسوع بالصواب حكمت » . ومن ثمَّ قد تبررت عواطف الحب الحار التي اظهرتها المجدلية نحو المخلص اذ هي عبارة عن الشكر الحميم المقرون بالايمان الحي ولما كانت معرفة الجميل تدعو الى زيادة النعمة التفت يسوع الى المرأة واشار اليها بحركة الحنو والرأفة وقال لسمعان : « أترى هذه المرأة . انا دخلت الى بيتك فلم تسكب على رجليَّ ماء وهذه بلت رجليَّ بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . انت لم تقبلني وهذه منذ دخلت لم تكفَّ عن تقبيل قدميَّ . انت لم تدهن رأسي بزيتٍ وهذه دهنت قدميَّ بالطيب . لاجل ذلك اقول لك ان خطاياها الكثيرة مغفورةٌ لها لانها احبت كثيراً (فهذا كمال الرأفة الالهية) والتفت الى سمعان وقال : والذي يغفر له قليل يحبُّ قليلاً » . اي ان من الانفس من ترتفع دفعة واحدة نظير النسر من اسفل دركات الذلّ والهوان الى اسمى درجات الفضيلة وذلك لان أُمور الحياة الادبية والمحرك الاعظم للارتقاء فيها انما هو القلب وعليه فالنفس القادرة ان تحب اكثر من غيرها تلك تطير الى الله وتقترب منه اكثر من سواها . اما اصحاب القلوب الفاترة بالحب فانها تبقى نظير الحية تزحف على صدرها فوق الارض . هذا قاله يسوع ليعلمنا ان لا نزدري بالخطأة لانهم يستطيعون بلمحة عين ان ينتقلوا من حال الى حال ويصبحوا اعزَّ منا في عيني الرب اذ لا يُبحث في الحياة الروحية من اين اتى بل الى اين وصل ولهذا لا يكلم يسوع سمعان بخصوص نفسه وولادتها الروحية بينما انه يقول للخاطئة : « مغفورة لك خطاياكِ » فطهرت اذن في الحال من ادران آثامها وكلمة الله قد محت عنها وصمة الخطيئة التي كانت توسخ نفسها ورفعت عن رأسها ثقل ذنوبها الماضية لانه متى كان الله يغفر فمن يستطيع ان يمسك الخطايا واذا كان المهان نفسه يصفح عن الاهانة فمن يطالب بالحقوق ياترى . فكلام يسوع الاخير الذي فيه ينزل نفسه منزلة ابيه السماوي ويعلن كونه الهاً مثله جعل

المتكئين يتذمرون في قلوبهم عليه اما هو فبدون ان يعبأ بذلك قال للمجدلية « ايمانكِ خلصكِ فاذهبي بسلام » . فشعرت المرأة بانقلاب عظيم في داخلها. فزال عنها للحال اضطراب البال وصفت كؤوس انسها وحلّ الفرح بالله محلّ الهواجس والبلبال — ومن فرحها بكت عندما سمعت المعلم يقول لها « اذهبي » لان فرط حبها كان يقول بلسان حاله كلاً بل حسن لديّ ان امكث مع من اعاد لي الحياة . وبالحقيقة استمرت المجدلية منذ ذلك الحين تقتفي آثار المخلص واستحقت بصدق ندامتها وسمو فضائلها ان تدعى صديقة مخلصها

§

✻ جدال يسوع مع الفريسيين ✻

اذا قابلنا حنو يسوع وانعطافه نحو الخطأة التائبين مع معاملته القاسية بالنظر الى الفريسيين المتكبرين تبين لنا انه كان يفضل مسامرة ذوي الفاقة المتواضعين على اولئك لانه كان يجد فيهم استعداداً للايمان والكفر بالذات وتضحية النفس والنهوض الادبي للحياة الفائقة الطبيعية . ولكن اذا كانت معاشرة الخطأة في اعين الفريسيين تُعد ذنباً فكم بالحري تفضيلهم على الفريسيين . وما عتم ان شعر يسوع بغوائل مباديه . فانّ الفريسيين تآمروا عليه في الجليل واخذوا يشيعون الاقاويل الكاذبة وانه بار كون الشياطين كان يصنع الآيات على ان الشعب لم ينخدع باغتيابهم ولم ينقد الى كلامهم بل عندما سمع برجوع يسوع الى كفرناحوم مع تلاميذه خرج لملاقاته واستقباله باحتفاء عظيم . وكان عدد الشعب كثيراً جداً كما شهد القديس مرقس حتى انهم لم يتركوا ليسوع وتلاميذه فرصة ليتناولوا الطعام . وكان معهم اعمى واصم فابرأه يسوع ففرح الجمع الحاضر وقالوا : « لعلّ هذا هو المسيح ابن داود » . اما الكتبة فحنقوا من عدم انتماء الشعب اليهم وداخلهم روح الحسد والبغض فقالوا : « كلا بل فيه بعل زبوب . وانه برئيس الشياطين يخرج الشياطين » . نعم ان

هذه التهم أوهى من خيط العنكبوت ولكن الشعب سريع التقلب نظير الهواء وسريع التصديق · غير ان يسوع قد افحم اخصامه اذ دعاهم وقال لهم : «كيف يقدر شيطان ان يخرج شيطاناً · فانها اذا انقسمت مملكة على نفسها فلا يمكن لتلك المملكة ان تثبت · واذا انقسم بيت على نفسه فلا يمكن لذلك البيت ان يثبت · واذا قاوم الشيطان نفسه فقد انقسم فلا يمكن له ان يثبت بل يضمحل». فهذا البرهان هو قاطع كل جدال لانه من المحال ان يقاوم الشيطان نفسه · ويستأنف يسوع الكلام قائلاً : « وان كنت انا أُخرج الشياطين ببعل زبوب فابناؤكم بمن يخرجونهم » · لانه من المحاباة الظاهرة ان تنسب اعمال الرسل الى الله واعمال يسوع بدون ادنى سبب تنسب الى الشيطان ولهذا يقول ايضاً يسوع « وان كنت انا بروح الله أُخرج الشياطين فقد اقترب منكم ملكوت الله · ام كيف يستطيع احد ان يدخل بيت القوي وينهب امتعته الا ان يربط القويّ اولاً وحينئذٍ ينهب بيته » · ذلك كان حظ الشيطان في العالم فمنذ حلَّ فيه محل العلي تسلط في العالم كرجل قويّ في بيته فتعبدت له النفوس ورُفعت لاكرامه الهياكل والمذابح وخضعت لسطوته الرقاب والاجساد ثم دخلت في حوزته الانفس ايضاً وصار الكلُّ له وفي قبضة يده · وفيما هو يسرح ويمرح في جميع انحاء ملكه واذا برجل اشد منه بأساً وهذا هو ابن الله فاستظهر عليه وربطهُ بسلاسل من حديد ودخل بيته واسترجع كل ما قد سلبه ذاك بالمكر والحيل · فهذا هو مختصر تاريخ الفداء وتغلب الخير على الشر وانتصار الله على الشيطان ولقد تمَّ ذلك قدام عيونهم وهم بدل ان يفرحوا يتذمرون عليه ويشكون فيه

ثم التفت يسوع نحو من خمدت حميتهم الاولى فلازموا الحيادة وقال : «من ليس معي فهو عليَّ ومن لا يجمع معي فهو يفرّق» · لعمري لا يجوز لمن عرف المخلص ان يلازم الحيادة فمن لا يميل اليه فهو خصمه ومن لا يعتصب معه وتحت رايته الحياة الابدية فهو من الهالكين · والحال ان ذلك يكون حظ من اشرقت

عليهم النعمة يوماً ثم غطى بصرهم سحاب الشك والريب. لان ابليس له هجمات دونها هجمات الأسد والنمورة ويعرف ان ينتقي لاعماله اوقات بلبال القلب وارتباك الفكر لانه لا يمشي الا في الظلام فيختطف تحت جنح الليل الانفس التي كان خسرها . وعليه قال السيد المسيح . « ان الروح النجس اذا خرج من الانسان طاف في امكنة لا ماء فيها يطلب راحة فلا يجد فيقول حينئذٍ ارجع الى بيتي الذي خرجت منه فيأتي فيجده فارغاً مكنوساً مزيناً فيذهب حينئذٍ ويأخذ معه سبعة ارواح آخرين شراً منه . فيأتون ويسكنون هناك . فتكون اواخر ذلك الانسان شراً من اوائله» . فهكذا كل ما يكون قد صنعه الرب لتلك النفس من غفران خطايا وتزيينها بحلى الفضائل والاخلاق الحميدية كل ذلك يضمحل نظير الدخان مذ تفرغ النفس من يسوع المسيح لتعطي محلاً للشك والريب فيدخل الشيطان منتصراً وغالباً وتستمر غلبته الى الابد . فالويل اذن لمن يسببون بواسطة اقوالهم السفسطية وانكارهم الحقائق الدينية الراهنة الشك والريب في عقول المؤمنين لانهم يهدمون بذلك بناية الروح القدس في النفوس. ولهذا يهتف يسوع بحدة : « من اجل هذا اقول لكم ان كل خطيئة وتجديف يغفر للناس واما التجديف على الروح القدس فلا يُغفر» وذلك لانَّ الروح القدس هو الذي يتمم فينا اظهار واشراق شمس الحقيقة الالهية اذ هو النور الذي يجعل الله منظوراً امام اعين ضمائرنا . فمن قاوم هذا النور او وضع عليه حجاباً لئلا يضيء فيكون قتل الانسان ادبياً لانه بعمله هذا الخبيث يستنزف كل حس ديني من القلب ويجعل الظلام سائداً فيه . ويؤكد يسوع هذه الحقيقة بقوله : « من قال كلمة على ابن البشر يُغفر له . واما من قال على الروح القدس فلا يغفر له لا في هذا الدهر ولا في الآتي » .

فاذا ارتاب الانسان بحقيقة طبيعة يسوع الالهية وشكَّ في صلاحية ارساليته فان كان ذلك ناتجاً عن ضلال العقل او عن اوهام التربية لا عن عناد

خبيث فالانسان يكون اذ ذاك مذنباً حقيقة ولكن ذنبه يغتفر لانه لا يحجب عن قصد واختيار شعاع النعمة عن الوصول الى خلايا نفسه . فعندما تنقشع غيوم البلبال وتزول كدورة القلب تنفذ الى القلب اشعة النعمة فتعود المياه الى مجاريها وتنتعش تلك النفس بعد ذبولها . اما الشرير الحقيقي الذي ذنبه اعظم من ان يُغفر فانما هو من عرف تماماً فعل الروح القدس في النفس وتعمد هدمه ظلماً وعدواناً مماثلاً ابليس ما هو خصيص بروح الله . فهذا لا يستحق ان يرى النور السماوي لانه يطلب الظلام فيعطاه مؤبداً . ان الله يرقُّ على ضعف القلب ويشفق على ضلال العقل ويغفر للمتكبرين الذين يُرجى اصلاحهم الا انه يقسو على الخبيث الماكر ويمسك عنه المغفرة لانه يصير غير اهل لفعل التوبة التي توهبه للغفران . وعليه قال السيد في المحل المذكور : « اما ان تجعلوا الشجرة صالحة وثمرتها صالحة . وإما ان تجعلوا الشجرة فاسدة وثمرتها فاسدة . لانها من الثمرة تعرف الشجرة » .

ومن ثم اذا كان عمل الآيات وشفاء الامراض وابراء المتشيطنين عملاً صالحاً فمن الضرورة ان يكون العامل لذلك كله صالحاً . واذا نسبت كل هذه الآيات الى الشيطان فتكون الآيات نفسها فاسدة وشريرة لانه من المحال ان الشجرة الصالحة تثمر ثمرة فاسدة وان الشريرة تثمر ثمرة صالحة . ومن زعم الخلاف فقد جدَّف على الحق واجترح ذنباً لا يغفر وهذا ما يصنعه اخصام السيد المسيح ولهذا كان يقول لهم : « يا اولاد الافاعي كيف تقدرون ان تتكلموا بالصالحات وانتم اشرار وانما يتكلم الفم من فضل ما في القلب . الرجل الصالح من كنزه الصالح يخرج الصالحات . والرجل الشرير من كنزه الشرير يخرج الشرور . اقول لكم ان كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس يعطون عنها جواباً في يوم الدين . لانك من كلامك تتبرأ ومن كلامك يحكم عليك » . فتعجب الجمهور من قوة كلامه الذي كان يخرق نظير السهام الحادة قلوب اخصامه اذ كانوا يعهدون فيه الرقة واللين . اما الفريسيون

فبهتوا واذ لم يجدوا سبيلاً للتخلص امام الشعب قالوا : « لقد خرج عن الهدى ومحجة الرشاد » . واجتمع اليه جمٌ غفير اذ سمعوا بما هو جارٍ له مع الفريسيين فانتهز يسوع تلك الفرصة المناسبة لاخجال مناقشيه باجوبته المحكمة فكلل النصر المبين تلك المباحثة حتى دُهش الجمع الحاضر وصاح بفم تلك المرأة : « طوبى للبطن الذي حملك وللثديين الذين ارضعاك » فاجاب يسوع وقال لها : « طوبى للذين يسمعون كلمة الرب و يعملون بها » . فعندئذٍ التفت اليه بعض الفريسيين والكتبة و بقصد ان يخفوا خجلهم قالوا له : « يامعلم نريد منك ان ترينا آيةً من السماء » . وكان قصدهم بذلك ان يجربوه لانهم كانوا يعتقدون ان الآيات المصنوعة على الارض لا تُعتبر دائماً انها من الله بل قد تكون مفعول السحر ولكن الآيات التي تظهر من السماء فهذه وحدها حقيقةً من الله فينقطعون عن الجدال معه ففهم يسوع خبثهم ولهذا قال لهم : « ان الجيل الشرير الفاسق يطلب آية فلا يعطى آيةً الا آية يونان النبي لانه مثلما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ كذلك يكون ابن البشر في قلب الارض ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ » . فهذا جوابه للفريسيين فسيعطيهم آية ولكن على الارض وليس في السماء . صاموئيل أمر الرعد ان يقصف في غير أوانه . وانزل ايليا ناراً من السماء . اما ابن البشر فقد ابقى لذاته الغلبة على الموت نفسه فسوف يحطم قيوده و يخرج من القبر ممجداً . واذا كانت هذه الآية لا تكفي لاقتناع اخصامه فيكون قصدهم المماحكة فقط وعليه زاد السيد المسيح قائلاً : « فكما كان يونان آيةً لاهل نينوى هكذا ابن البشر يكون آيةً لهذا الجيل » . تاب اهل نينوى بانذار يونان الذي خلص من فم الموت بقوة ذراع الرب اما اسرائيل فلم يتب بكرازة يسوع الذي قام من بين الاموات . ولهذا يقول يسوع متأسفاً : « ملكة التيمن ستقوم في الدين مع هذا الجيل وتحكم عليه لانها اتت من اقاصي الارض لتسمع حكمة سليمان وههنا اعظم من سليمان »

وايّ نسبة بين حكمة سليمان وعلم ابن البشر الراسخ الا نسبة قطرة الى يمّ ومع ذلك فانّ ملكة سبا اتت من بلاد بعيدة دون ان تطلب آيةً من السماء وتحملت مشقات السفر ومخاطرهُ لترى وتسمع وريث داود بينما انّ اليهود يصمون اذانهم عن سماع حكمة المسيح الموجود بينهم ويطلبون آيةً ليصدقوه . فلا ريب ان نشاط تلك الملكة يشجب يوم الدين حماقة اليهود وعدم اكتراثهم « ورجال نينوى ايضاً سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويحكمون عليه لانهم تابوا بكرازة يونان وههنا اعظم من يونان » . ويبين يسوع سبب ذلك العناد بقوله : « سراج الجسد العين فاذا كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرًا . واذا كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً » . وبالحقيقة ان العين انما هي دليل الاعضاء باسرها ولكنها لا تقبل النور من الخارج الا اذا كانت سليمة . ومثل العين للجسد كمثل القلب للنفس فان العقل والارادة يستنيران من ضياء القلب اذا كان طاهرًا ويتدهوران في الظلام اذا كان فاسدًا وعليه يُنتج يسوع قائلاً : « فاحترز اذن ان يكون النور الذي فيك ظلاماً » وهذا منتهى الشقاء الذي يمكن الانسان ان يصل اليه . فباطلاً يطلب نور الوحي الالهي فلا يجديه نفعاً لان ذلك النور لا يستطيع ان يخرق باصرة النفس بسبب الاوساخ المتكاثفة عليها . وهذه حالة الفريسيين وقتئذٍ لان قلبهم كان مملوءًا خطفاً وشرًا

وفيما هو يتكلم ويجادل الفريسيين عرف اهله ما دار بينه وبين تلك العصابة من الخصام قدام الجموع الحاضرة فخافوا عليه من غوائل تعصب الفريسيين ونفورهم فاتوا يطلبونه قصد ان يخلصوه من بينهم. ووجود امه مريم يثبت جلياً ان جلّ قصد اقربائه ليس كما زعم البعض ان يأخذوه قسرًا واغتصاباً بل ان يحملوه على ترك ذلك المكان الخطر بتنبيههم اياه انه وتلاميذه لم يأكلوا الى تلك الساعة وقد فات الوقت . ويظهر ايضاً ان الجمهور كان عظيماً حوله حتى لم

يقدر اهله ان يكلموه الأ بواسطة آخر اذ : « قال له واحد انَّ امك واخوتك واقفون خارجاً يريدون ان يكلموك » .

اما يسوع فرغب ان يعلن في ان له قرابة غير القرابة البشرية وتلك اعز والزم من هذه فقال : « من امي ومن اخوتي » . ثم اومأ بيده الى لفيف التلاميذ الذين كانوا حوله ينصتون الى كلامه وقال : « هؤلاء هم امي واخوتي . لان كل من يعمل مشيئة ابي الذي في السموات هو اخي واختي وامي » . فمن يصنع مشيئة الآب يشترك في حياته الالهية ويصبح اخاً ليسوع المسيح وهذه القرابة الروحية انما هي اثبت وافضل من القرابة الجسدية لان حياة النفس افضل من حياة الجسد

وعلى هذا المنوال خرج يسوع هذه المرة ايضاً منتصراً من الجدال غير ان احتدام غيظ الفريسيين عليه كان ينذر بالعدوان اكثر من ذي قبل ولهذا شعر بمناسبة حبس اللسان عن الحديث معهم والانتقال الى الكلام بالامثال كي لا يفهم الأ من اعطيت لهم معرفة أسرار الحقائق السماوية

§

التعليم بالامثال على شاطىء البحيرة

المَثل انما هو مشكل او لغز يؤتى به قدام جمع حتى يتبارَوْا في حلهِ وادراك معناه ومن شأنهِ ان يخفي الحقيقة على خاملي الهمة الذين يتقاعدون عن التنقيب في حل اشكاله ولكنه يُرسخ الحقيقة في قلوب من توصلوا الى فهمه وحل عقده . ولايجاد المثل يكفي اختيار حادث ما من حوادث الطبيعة او طارىء من طوارىء الحياة العادية وتحت حجاب الاخبار عنه يخفي المتكلم الحقيقة الادبية او النظرية التي يريد اعلانها . ولقد احب الشرقيون في كل آن الاحاديث بالامثال . فيبتدي المتكلم باعلان فكره في قليل من الكلام ثم يسرد المثل مستجلباً اصغاء السامعين وحاملاً اياهم على استنتاج ما بقي مخفياً مما عُرف من الحقيقة . فاصحاب الذكاء وذوو النيات المستقيمة يحصلون المعاني

المقصودة · اما الخاملون واصحاب النيات الرديئة فيقنطون وغالباً يحملون الكلام على غير مؤداه · ولا يخفى ما في هذا النوع من التعليم من الوسائط الفعالة لإشراب العقل ارفع الحقائق سموًّا وترسيخها فيه نظرًا لانتباه الفكر ورغبته الطبيعية في معرفة الحقيقة المخفية تحت طي المثل

ولقد عوّل السيد المسيح في التعليم على النسق المشار اليه مخبرًا تلاميذه ما عسى ان يكون من امر ملكوت السموات وما هو عليه الآن · غير مبقٍ على ما سيلاقيه من الصعوبات وما سيمهده من العقبات · مظهرًا حبه للمسالمة ومقاصده الروحية محضاً خلافاً لاميال اليهود المادية صرفاً · ولكي يسمع صوته لفيف الجمهور المحدق به ويستطيع ان ينفرد عنه عند الحاجة صعد سفينة مربوطة على الشاطىء وفتح فاه يعلمهم قائلاً

« هوذا الزارع خرج ليزرع · وفيما هو يزرع سقط البعض على الطريق فاتت طيور السماء واكلته · والبعض سقط على ارض حجرة حيث لم يكن له تراب كثير فللوقت نبت اذ ليس له عمق تراب · فلما اشرقت الشمس احترق وحيث لم يكن له اصل يبس · وبعض سقط في الشوك فطلع الشوك وخنقه · وبعض سقط في الارض الجيدة فأعطى ثمرًا الواحد مئة والآخر ستين والآخر ثلاثين» واذ ذاك رفع صوته محرضاً الجمع على التأمل فيما يقوله هاتفاً « من له اذان سامعتان فليسمع »

واراد يسوع ان يبين بهذا المثل حالة تأثير كلمة الله في الانفس وتطبيق اختلاف مفعولها على اختلاف استعداد السامعين · فالزرع الذي سقط على الطريق لم يعطِ ثمرًا لسببين خارجيين فالبعض داسته ارجل المارين وما بقي اكلته طيور السماء · والذي سقط على ارض حجرة كان عقيماً كالاول لسببين ايضاً الواحد خارجي وهو حرارة الشمس والآخر داخلي وهو عدم وجود عمق تراب · اما الذي سقط بين الشوك فلم يعطِ ثمرًا لسبب واحد داخلي وهو أن

الارض كانت مشغولة بزرع آخر غريب · اخيرًا الذي اعطى غلات غزيرة فلانه وقع في ارض معتدلة التربة بين القساوة واللين ولم يمتزج معه زرع آخر من غير نوعه · وهذه الحالات الاربع التي ذكرها يسوع عن الزرع كانت تطابق حالات السامعين الاربع التي كان نظره الالهي قد رآها جليًا بالنظر الى اختلاف استعداد جمهورهم لاستماع كلامه الالهي · فقابل بين عقم كلمة الله في قلوب السامعين وبين الحقول المخصبة التي كانت تلوح لنظره في سفح تلك الهضاب المتاوحة له وللحاضرين · فمن ذلك المنظر الطبيعي اخذ يسوع موضوع المثل الذي اوردناه · وبعدئذٍ تنحى عن الجمهور قليلاً تاركاً اياهم يتبحرون في معناه الحصري

اما التلاميذ فلم يشحذوا قريحتهم طويلاً لايجاد معنى ذلك المثل وفضلاً عن ذلك فان ذكاءهم الطبيعي لم يكن يتجاوز حد الوسط فاختاروا اسهل طريقة للوصول الى المقصود اذ عندما انفردوا مع المعلم سألوه عن سبب تعليمه بالامثال وعن معنى المثل الذي سمعوه · فاجاب يسوع عن الاول قائلاً : « انتم أُعطيتم معرفة اسرار ملكوت السموات واما أولئك فلم يعطوا · لان من له يعطى ويزاد ومن ليس له فالذي له يؤخذ منه · فلهذا أُكلمهم بامثال لانهم يبصرون ولا يبصرون ويسمعون ولا يسمعون ولا يفهمون · ففيهم تتم نبوة اشعيا (٦ : ٩) المقول فيها : تسمعون سماعاً ولا تفهمون وتنظرون نظرًا ولا تبصرون · لانه قد غلظ قلب هذا الشعب وثقلت آذانهم عن السماع واغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم ولا يفهموا بقلوبهم ويرجعوا اليَّ فاشفيهم»

فهذه هي سياسة عدل الله بالنظر الى خبث الانسان : فمتى اغلق الشرير قلبه اختياريًا عن سماع الحقائق الالهية تظلم عينه ولا تعود ترى النور مهما كان لامعاً واذا رآه فلا تمعن النظر فيه · ويبتعد الرب عن تلك النفس آخذًا معه كل ما من شأنه ان يؤهبها لقبول الحياة الفائقة الطبيعة تاركاً اياها

وشأنها . ومن ثم تقسو عواطف تلك النفس المنكودة الحظ ويحل عليها ذلك المرض الادبي العضال اي فالج القلب . بيد ان الحقائق الفائقة سموًّا واسرار الحياة الالهية وتدابير العناية تنجلي كالشمس لذوي النيات الحسنة والضمائر المستقيمة ولهذا يقول يسوع لتلاميذه : « اما انتم فطوبى لعيونكم لانها تنظر ولاذانكم لانها تسمع . الحق اقول لكم ان كثيرين من الانبياء والصديقين اشتهوا ان يروا ما انتم راؤون ولم يروا . وان يسمعوا ما انتم سامعون ولم يسمعوا » . فقد استحق الرسل ان يفهموا الحقائق السماوية نظرًا الى حسن استعداد قلوبهم ونظرًا الى اهمية المقام المعد لهم في قيام الكنيسة

وفي الجواب على السؤال الثاني يظهر يسوع انعطافه الخاص نحو اتباعه الامناء قال : « الزرع هو كلمة الله والزارع هو الله » انه يوجد بين الزرع الذي يلقى في التلم وكلمة الله التي تلقى في النفوس تشابه بالنظر الى قوة النمو . فان لم يحُلْ دون نموها مانع فانهما يثمران الحياة غزيرة فالزارع الاول والحقيقي هو ابن الله وكلمة الآب الذي نزل الى العالم كالزرع الجيد بتجسده اولاً ثم ببشارته ولقد أعطى رسله ان يكونوا بعده زارعين تعاليم انجيله الخلاصية . « فالذين على الطريق هم الذين يسمعون ثم يأتي ابليس ويذهب بالكلمة من قلوبهم لئلا يؤمنوا فيخلصوا » . لعمري لا تستفيد من التعاليم الالهية تلك الانفس المستسلمة الى الطيش واللهو المنقادة الى جميع الاميال المعرضة الى كافة الاهواء العالمية اذ تتصلب من جرى كثرة المارين عليها فلا تعود اهلاً لقبول زرع الحياة فيمر عليها عمل النعمة ووخز الضمير دون ان يؤثرا فيها وعليه فانها تبقى مغلقة في وجه ذلك الزرع الالهي فتمر اباطيل العالم وابليس فتنزع الزرع عن سطحها وتتركها تتضوَّر جوعاً وتهلك بالاثم دون امل النجاة والخلاص

« والذين على الصخر هم الذين يسمعون الكلمة و يقبلونها بفرح ولكن ليس لهم اصل وانما يؤمنون الى حين وفي وقت التجربة يرتدون (عن الايمان) » .

ولسوء الحظ عديدة هي العقول السطحية التي تلتهي بالقشور الخارجة وتكتفي بالتصورات العصبية عوض الاشيا الجوهرية . فهولاء يتلقون الحقيقة بفرح حالما تلمع امام اعين بصيرتهم ويتمسكون بها بلهف غير ان ذلك لا يدوم طويلاً لان تلك الظواهر البراقة تخفي عمقاً يابساً صلباً مرصوصاً من الكبرياء ومحبة الذات ومن ثم لا تستطيع الحقيقة ان تتأصل فيها . وعند اول تجربة تجف بعد لدونتها كما يجف الحشيش متى لفحته ريح السموم المحرقة وتتطاير امام وجه عاصفة الشكوك كورقة في مهب الريح . فلا ينخدع بتلك الظواهر اللامعة سوى من كان عديم الخبرة بالامور اما الانسان العاقل فيعلم ان التصور دون ارشاد العقل الصحيح ورقة القلب دون الاعتقاد الباطني لا تصير المرء مسيحياً حقيقياً

« والذي سقط في الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون بالهموم والغنى وملذات الحياة فلا يأتون بثمر » . كثيرون ايضاً هم ذوو الاستعدادات الجيدة والطبائع الميالة للخير ولكنهم يترددون بين خدمة الله وطاعة العالم فتذهب حياتهم سدى بلا ثمرة . فاهتمامات الحياة وشوكة الشهوات وحب المال وخيرات الارض جميع ذلك كالشوك القوي ينبت وينمو في تلك الانفس ويخنق الزرعَ الجيد وعليقُ الاميال المنحرفة يعلو فوقه ويمنع عنه حرارة الشمس وباصوله المنتشرة في العُمق ينازعهُ الحياة فيجفُّ وييبس دون ان يعطي ثمراً

اخيراً « اما الذي سقط في الارض الجيدة فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد وصالح ويثمرون بالثبات الواحد مئة والآخر ستين والآخر ثلاثين » . لعمري انها لتعزية عظيمة لقلب الزارع الالهي وجود انفس طاهرة مستقيمة قد زينتها الطبيعة بمواهبها الغنية واخصبها قهر الاميال والكفر بخيرات الارض وسقتها امطار النعمة فاينعت واثمرت بغزارة . وهكذا فان ملكوت الله لا تمتد اصوله الا في القلوب النقية والمخلصة المحبة اما القلوب الفاسدة فيمر عليها مرّ الخيال دون ان يستقر فيها ويتجاوزها تاركاً اياها عرضة للشنار والموت

يد ان كلمة الله تقلب النفس الصالحة كما يقلب الحارث الارض دون ان يشعر المرء بمفعولها. وغالباً يقلق ويضطرب الصديق لعدم تقدمه بالفضيلة بينما تكون كلمة الله سائرةً سيرها الحثيث في النفس. وما ذلك الا نظير لحاجة الزارع الذي يطلب ان يرى حالاً سنبل القمح الذي بذره في الارض. فعلينا ان ندع كلمة الله تسير فينا سيرها العادي فلا بد من ان تثمر فينا اثمار الخلاص اذا لم نضع نحن عائقاً في وجهها يوقف نموها الطبيعي. لان الله لا يألو جهداً ولا ينام عن متابعة العمل في اعماق انفسنا. ثم مع الرغبة في الخير يهبنا القوة اللازمة على وضعه في العمل كما قال القديس بولس (الى اهل فيلبي ١:٦) «واني لواثق بان الذي ابتدأ فيكم العمل الصالح يتممه». وكما ان الزرع الذي يقع في الارض يبتلُّ اولاً ثم يختمر فيتضخم فيبرز اصولاً وبعد ذلك ينبت من الارض وينمو ويبيض دون ادنى تعب جديد من قبل الزارع هكذا الحياة الروحية تولد في قلوبنا وتتأصل ثم تنمو وتتدفق بالاعمال الصالحة واخيراً تثمر القداسة التي من شأنها ان تدهش الارض وتقبل اخيراً جزاها من السماء. فبعمل الله السري في انفس انقيائه تنتصر الكنيسة على جميع المصاعب وتفتتح العالم بأسره وتُقيم ملكوت الله الحسي على الارض وبانتشارها السريع والعمومي تبرهن الوهية مؤسسها

ثم هتف يسوع «ماذا يشبه ملكوت السماوات وبماذا اشبهه يشبه حبة خردل اخذها رجل وزرعها في حقله. فانها اصغر الحبوب كلها. فاذا نمت صارت اكبر من جميع البقول ثم تصير شجرة حتى ان طيور السماء تأتي وتستظل في اغصانها». ان صغر حبة الخردل كان جارياً عند اليهود مجرى المثل ومع ذلك تحتوي تلك الحبة الصغيرة على قوة نباتية غير اعتيادية. فانها تنمو وتكبر في بلاد فلسطين حتى تساوي احياناً شجرة التين. وربما حانت وقتئذٍ من المخلص التفاتة فوقع حائر نظره على شجرة منها نابتة في جنب احد الصخور المناوحة

له على منحدر تلك التلال القريبة فاتخذها وسيلة ليظهر المقابلة الموجودة بينه وبينها. فحبة الخردل الصغيرة هي عبارة عن شخص يسوع الذي قضى شطرًا عظيماً من حياته في حانوت الناصرة حقيرًا مجهولاً من الجميع ثم دعا لمعرفته اثني عشر تلميذًا اميين من عامة الناس ومات موت العار على انه مثلها ايضاً توجد فيه جرثومة الحياة بقوة لا نظير لها . عبثاً يودعه الظالمون القبر فنظير الحبة ينسف التراب ويذريه ويخرج من بطن الثرى شجرة عظيمة مخصبة تدهش الناظرين اليها. وهذه الشجرة انما هي الكنيسة. فتأتي الانفس الابية الطالبة العلم الحقيقي بالدين والرسوخ في القداسة والحياة الالهية فتغتذي من اثمارها الشهية وتستريح على اغصانها . والحق يقال انه منذ تسعة عشر جيلاً لم يمر في ساحة هذا العالم شيء عظيم من العواطف السامية او من الافكار الخيرية او من الشهامة والحمية الا وقد استظل بظل تلك الشجرة السرية فكان فيها على الرحب والسعة وجنى منها اجمل تصوراته واقوى دافع لاسمى وافيد امانيه.

وامتداد هذه الكنيسة وانتشارها السريع والمنظور في اقطار المسكونة كان داعياً لتغيير وترقي الالفة البشرية في معارج النجاح الادبي والمادي. وعليه قال ايضاً السيد له المجد : « يشبه ملكوت السماوات خميرة اخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة اكيال دقيق حتى اختمر الجميع » ان خاصة الخميرة ان تنشر الحرارة في كامل العجنة التي توضع فيها . فيختمر الكل معاً ويكتسب الخبز منها الخفة والمساميّة اللتين تجعلانه صالحاً للقوت. فيسوع او بالاحرى تعليمه هو خميرة الحياة الادبية في هذا العالم . والمرأة التي خبأتها في ثلاثة اكيال دقيق انما هي الكنيسة التي منذ تسعة عشر جيلاً تكرز بالمخلص وتبذر تعليمه في ثلاث قارات العالم القديم وبين ثلاثة اسباط البشر حتى تسنى لها تخمير الجميع وانقلاب الكل الى ما هو احسن. غير ان انتصارها المؤكد في المستقبل لا ينفي وجود

امتزاج بعض الاشرار بين اولادها في الوقت الحاضر. اذ من الممكن ان يستمر المرء شريراً حتى في حضن الكنيسة نفسها. ولربما وُسم الانسان بوسم الخلاص وكان مرذولاً وصبر الله في الزمان الحاضر لا ينفي عدله في المستقبل بل بالاحرى يستلزمه طبعاً كما يشير الى ذلك قول يسوع هذا: « يشبه ملكوت السماوات رجلاً زرع زرعاً جيداً في حقله. وفيما الناس نائمون جاء عدوه وزرع في وسط القمح زؤاناً ومضى. فلما نمى النبت واخرج ثمراً حينئذٍ ظهر الزؤان. فجاء عبيد رب البيت وقالوا له يا سيد ألم تكن زرعت في حقلك زرعاً جيداً فمن اين الزؤان؟ فقال لهم ان رجلاً عدواً فعل هذا. فقال له عبيده اتريد ان نذهب ونجمعه؟ فقال لهم لا لئلا تقلعوا الحنطة مع الزؤان عند جمعكم له. دعوهما ينبتان جميعاً الى الحصاد. وفي أوان الحصاد اقول للحصادين اجمعوا اولاً الزؤان واربطوه حزماً ليحرق. واما القمح فاجمعوه الى اهرائي ». فكان لهذا المثل وقع عظيم وتأثير حي في قلوب السامعين نظراً لتمثيله تماماً حالة العوائد المحلية ولهذا كان الرسل ينتظرون بفروغ صبر تفسيره ويطلبون بالحاح من المخلص مآله. نعم ان من عاش في اوربة لا تخطر له ببال خباثة الجار الماكر الذي يزرع في حقل جاره الزؤان. غير ان تلك العادة المشؤومة كانت جارية بين فلاحي ذلك العهد لاننا نرى ان الشريعة الرومانية قد حرمتها ووضعت القوانين الصارمة على مرتكبيها. والسياح في البلاد الشرقية كثيراً ما تكلموا عنها اذ عرفوها مرأى العين. وهذه العادة نفسها جارية في بلاد الهند. وكثيراً ما يحدث ان العدو يتهدد عدوه بزرع عشبة هي الرزّين او قريبة منها في حقله وهذه شانها ان تبطل الارض مدة بضعة سنوات. فينتهز العدو فرصة غياب عدوه و يزرعها في حقله. ولا يندر حدوث مثل ذلك في تلك البلاد الى يومنا هذا. فيضحي الزارع وعائلته عرضة للجوع والفاقة مدة من الزمان. ولكن من هو ذلك الشرير الذي يجسر على زرع الزؤان في ملكوت الله؟

وما هو المقصود من فصل الزؤان عن الحنطة في وقت الحصاد واحراق الاول وخزن الثاني ؟ هذا ما كان يطلب التلاميذ تفسيره بالحاجة

فعند ما ترك يسوع الجموع وجاء الى البيت دنا منه تلاميذه وقالوا له فسر لنا زؤان الحقل . فاجاب وقال لهم : « الذي زرع الزرع الجيد هو ابن البشر . والحقل هو العالم . والزرع الجيد هو بنو الملكوت . والزؤان هو بنو الشرير . والعدو الذي زرعه هو ابليس » . ومن ثم يبين ان عمل ابليس يقارن دائماً عمل الله . فيزرع يسوع في العالم الذي هو حقله لانه خالقه نسلَ الاخيار ويضع ذلك رائعة النهار بحب وتعب جزيل . اما ابليس الخائن فيتمم عمله بسهولة وتحت جنح الليل . لان عمل الشر اسهل من عمل الخير : وغالباً الضلال والخبث والرذيلة كل ذلك يبقى برهة مختفياً في حضن الكنيسة الى ان تظهره الظروف والتجارب والمحن . حينئذ تظهر ابناء الله وتتميز عن ابناء العدو وتفترق الاشرار من بين الصديقين . وهذا الفرق يظهر احياناً في هذه الحياة . وعملة الانجيل يطلبون الاقتصاص من اعدائهم بعجل اما السيد فلا يريد ذلك وهو صبور لانه ازلي ويطيل اناته عليهم يرعوون عن غيهم . وكم من الاشرار كانوا قد هلكوا الى الابد لو ضربتهم يد العلي عاجلاً . وهب انهم لم يرتدوا اليه تعالى فوجودهم يؤول الى امتحان فضيلة الابرار واظهار رونقها . ويبرهن العلي بانتظاره وقت الحصاد على رأفته وحكمته وازليته . ويستتلي يسوع كلامه قائلاً : « والحصاد هو منتهى الدهر . والحصادون هم الملائكة . وكما ان الزؤان يجمع ويحرق بالنار هكذا يكون في منتهى الدهر . يرسل ابن البشر ملائكته فيجمعون من مملكته كل الشكوك وفاعلي الاثم ويلقونهم في اتون النار . هناك يكون البكاء وصريف الاسنان . حينئذ يضيء الصديقون مثل الشمس في ملكوت ابيهم . من له اذنان سامعتان فليسمع » . فصور العذاب الدائم والسعادة الابدية تظهر هنا كما في محلات اخرى عديدة باجلى بيان .

ولاريب ان مراجعة هذه الحقيقة تكراراً انما هو بقصد ترسيخها في قلوب السامعين ورفع كل ظن في ان ذلك وهم اتي به للارهاب فقط . فلا ريب اذن سيقاسي الهالكون العذاب أليماً . وبكل صواب قد عبر عن ذلك العذاب بالنار الابدية كما يتلذذ الاخيار في النعيم والمجد الذي لا انقضاء له ولمعان الشمس ليس هو الا عبارة ضعيفة عن تلك السعادة . الاتون معدٌ للاشرار والسماء للابرار . زفرات المنفى لاولئك وافراح اللقاء لهولاء . فالامر اذن ذو اهمية كبرى . ولهذا يحرضنا يسوع بالمثلين الآتي ذكرهما ان نبذل ما في وسعنا لنكون من ابناء الملكوت السماوي ونتخذ لنا محلاً فيه ولو شق علينا ذلك ونحافظ عليه في هذا الزمان الحاضر لنستحق ان نحيا فيه مدى الابدية قال : « يشبه ملكوت السماوات ايضاً كنزاً مخفىً في حقل وجده رجل فخبأه ومن فرحه به مضى وباع كل شيء له واشترى ذلك الحقل » . هكذا متى وجدت النفس موضوع ايمانها في الانجيل الطاهر يلزمها ان تضحي للحصول عليه كما عزَّ لديها من راحة وملاذ ووظائف وغنى . لانهُ ما قيمة كل ذلك بالنسبة الى قيمة الثمن الموما اليه ومن ثم قال يسوع يلزم ان نقتدي بمثل « الرجل التاجر الذي يطلب لآلىء حسنة . فوجد لؤلؤة كثيرة الثمن فمضى وباع كل ماله واشتراها » . هكذا يلزم المتمعن بالامور والفيلسوف الذي يبحث عن الحقيقة فحالما يلوح بعد الجد والتنقيب امام بصيرته انسجام الحقائق المسيحية ويلمع امام عينه النقادة وضوح برهان التعاليم الانجيلية لمعان الالماس النقي عليه ان يغلق الكتب ويوقف البحث وينبذ الكبرياء ظهرياً ويكتفي ملتذاً بامتلاك الكنز المنقطع النظير الذي وضعته النعمة بين يديه . اذ متى وجده فقد وجد مصباح عقله ودليل ارادته وعزاء قلبه . فلا يعود فيلتفت الى الخزعبلات والاباطيل التي غشت حياته السابقة

وعليه اراد يسوع ان يترك تلاميذه منشغلي الافكار بالهذيذ بالابدية ولهذا يختتم كلامه معهم بمثل الصيد مبيناً فيه العواقب التي تتوقع الاخيار

والاشرار بعد مغادرة هذه الحياة قال : « وايضاً يشبه ملكوت السموات شبكةً القيت فجمعت من كل جنس. فلما امتلأت اطلعوها الى الشاطئ، وجلسوا وجمعوا الجيد في الاوعية والرديء رموا به خارجاً » . هذه تكون عاقبة بشارة الانجيل. الشبكة التي يلقيها الصيادون في البحر و يجذبونها من العمق بحبال مربوطة بطرفيها هي عبارة عن الانجيل الذي ينشره المبشرون بكد وصبر جزيلين في اقطار المعمور فيصل حتى الطبقة الواطئة من الشعب و يجمع بين عقده كل جنس اي من كل اسباط وطبقات البشر اخياراً كانوا ام اشراراً فتعطي الكنيسة الجميع دون فحص الدواخل احياناً علامة واسم وشريعة المسيحي غير انهُ تأتي الملائكة فتجذب سراً الشبكة رويداً رويداً الى الشاطئ، و يخرجونها من عمق اعماق بحر هذا العالم ومن بين امواجه المائجة حيث يمتزج الخير مع الشر و يطرحون ذلك الصيد الغزير مرتعداً على شاطئ، الابدية وهناك يصير التمييز العظيم. فيجمعون بحرص الجيد ويطرحون الرديء خارجاً بازدراء.

والتفت يسوع لتلاميذه وقال لهم : « افهمتم هذا كله. قالوا له نعم » . والحق يقال كان يصعب على يسوع ان يعلّم تلامذه سلسلة نواميس ونظام عواقب الكنيسة الروحي باسلوب حسي اكثر من هذا وعليه يختتم الكلام بقوله : « من اجل هذا كل كاتب متعلم في ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت يخرج من كنزه جدداً وعتقاً » فحسب هذه الوصية الاخيرة يقتضي ان يوفق خدمة الانجيل تبشيرهم حسب مقتضى ظروف المكان والزمان والاشخاص اذ يمكن تعليم الحقائق الانجيلية باساليب مختلفة. و يكفي الواعظ ان يتأمل فيها زماناً على خلوة ويفهمها جيداً حتى يتسنى له اظهارها بسهولة كيف شاء و يأتي الكلام طوع لسانه يرتفع و ينحط يهيج و يسكن يقنع و يلذ حسب طلبه وعلى هذا النمط يبرهن المبشر تقواه وعلمه معاً و يظهر اتحاده مع الله وذكاه

وبعد ان اتمَّ يسوع تعليمه على ملكوت السموات على النمط السابق ذكره

تنحى عن كفرناحوم وتخوم البحيرة وعاد الى جولانه مبشراً في القرى

الفصل السابع

معظم نفوذ يسوع عند شعب الجليل

عودة يسوع الى التبشير في الجليل—ارساله الاثني عشر—خوف هيرودس بعد قطعه راس يوحنا المعمدان — تكثير الخبز وميل الجمهور السياسي — كلام يسوع بخصوص خبز الحياة

طالع لوقا ٨: ١—٣ و ٩ ١—١٧٠ متى ١٠ :١ — ١٥—٤٠ — ٤٢ و١٤ : ١ — ٦ — ٣٦٠ مرقص ٦ : ٧ — ٥٦ ٠ يوحنا ٦ : ١ — ١٧

§

عودة يسوع الى التبشير في الجليل

ويقول الانجيليون ان يسوع كان يجول في المدن والقرى وهو يكرز الشعب في المجامع و يبشر بملكوت الله وبحلول العصر المسيحي وكان يهب الشفاء الى جميع المرضى الذين يقدمون له

فما اجمل مشهد تلك الكنيسة المنتقلة من محل الى آخر تحمل اينما توجهت وحيثما حلت مع بشرى الخلاص كنوز السماء الغنية ٠ وكان يسبق بعض الرسل نظير طلائع الجيش فيبشرون في المدن والقرى بقدوم النبي العظيم اليها ٠ ونساء تقيات كنَّ يتبعنَ يسوع وتلاميذه راكبات على البغال او الهوادج و يبذلنَ من اموالهن في خدمتهم النصوح ٠ ولم يكن في ذلك الامتزاج ما يوهم ادنى خطر بالنظر الى فضيلة المجتمع الرسولي ٠ اذ متى عرف الرجل سرائر حياة المرأة وتشفق

عليها ورفعها من ذلها وحقارة معيشتها السابقة حاملاً اياها الى اسمى الفضيلة وخاصة اذا كان قد ارشدها واوصلها الى كمال الحياة الروحية فلا يبقى خوف البتة على فقدان طهارته من مخالطتها. لانها تشعر اذ ذاك بانحطاطها بالنظر الى المحسن اليها و بالنتيجة تصبح كالنحلة التي سلبت حمتها فلا تعود تستطيع الى اللدغ سبيلاً . فتزول من قلبها رغبة الاعجاب والفتن بجمالها . ومعرفة الجميل تسلب من افكارها كل ميل الى الظفر بفضيلة الرجل . وحينئذٍ تقوم في نفسها الفاضلة عاطفة الاخاء الخالص مقام العشق وضروبه الفتانة. فتود بجامع قلبها ولكن عن اخلاص وصفاء نية باذلةً النفس والنفيس في خدمة الرجل متفانيةً في عمل الخير معهُ بصبرٍ لا يعرف الملل وكرم اخلاق لا يقف عند حد

والنساء اللواتي كنَّ يتبعن يسوع هنَّ ممن كان قد ابرأهنَّ من ارواح شريرة وامراض مختلفة . ونخص منهنَّ بالذكر مريم التي تدعى المجدلية ولقد وقفنا على سبب معرفتها الجميل للمخلص الذي اخرج منها سبعة شياطين اي انه نجاها من ثقل عبودية الشهوات التي افسدت شبيبتها وسربلت حياتها ثوب العار والفضيحة. ثم حنة امرأة كوزى قهرمان هيردوس التي كما ذكرنا سابقاً كانت ام الولد الذي ابرأه يسوع من المرض. ثم سوسنة التي لم يطلعنا الانجيليون على سيرتها واخر كثيرات يجتمعن فيما بعد تحت عود الصليب ويسرعن الى القبر مبرهنات بعملهنَّ ان قلب المرأة اجدر بالحب واثبت فيه من قلب الرجل وهو في أمنٍ من الضعف والسقطات التي تعتري احياناً قلب الرجل

ويستنتج من بعض ما جاء عن هؤلاء الصدّيقات الفاضلات انهنَّ من سريّات عيال اليهود الغنيات بالمال وبعضهن بالشرف ايضاً. فحنة كانت عائشة في البلاط الملوكي . اما سلومة ام يعقوب ويوحنا الرسولين فكانت امرأة صيادٍ عنده اجراء. وبعل مريم اكلاوبا كان من اصحاب الحرف. اخيراً مريم المجدلية كانت من اشرف عيال بيت عنيا . فهؤلاء النساء كنَّ

يخدمنَ يسوع وتلاميذه عند الحاجة . اذ يظهر انه كان من تدابير العناية ان المسيح يعيش من الصدقة . وكان مع الرسل صندوق تجمع فيه الصدقات و يصرف منه عند الاقتضاء على الرسل وعلى الفقراء الذين يطلبون مساعدة يسوع . الا ان تلك السيدات الفاضلات كنَّ يصرفن غالباً من جيبهنَّ على الرسل وقد اتخذنهم كاولاد او كاخوة

§

ارساله الاثني عشر

لم نقف على كامل التفاصيل المنبئة عن اسفار يسوع مبشراً في قرى ومدن الجليل ولكن نعلم ان النتائج كانت عظيمة . اذ كان يسوع يتأسف عند نظره الحصاد كثيراً ولايمكنه الحال من الذهاب الى جميع المحلات ليكرز و يعلم فيها. ولعلمه انها قد قربت الساعة التي فيها كان مزمعاً ان ينتقل ليبشر في اليهودية وفي اورشليم عزم ان يُشرك الاثني عشر في عمل التبشير الخطير فدعاهم اليه وقال : « الى طريق الامم لا تمضوا . ومدن السامريين لا تدخلوا . بل انطلقوا بالحري الى الخراف الضالة من آل اسرائيل » اي ان اول من يلزم ادخالهم في الملكوت انما هم ابناء الآباء ابرهيم واسحق و يعقوب . وفضلاً عن ذلك كان وقتئذٍ تبشير الوثنيين من الامور الكلية الصعوبة وكان الاوفق ترك ذلك العمل الى ما بعد حلول الروح القدس روح القوة والتجديد . حتى ان تبشير السامريين الذين كانوا الحد الاوسط بين الاسرائيليين والكفرة كان يحول دونه عوائق جمة لا يقوى الرسل غير المحنكين على دفعها في ذلك الوقت وهاك موضوع التبشير : « واذا ذهبتم فاكرزوا قائلين قد اقترب ملكوت السموات » اذ لم يكن في وسع الرسل عندئذٍ سوى الاخبار البسيط والشهادة بقرب ملكوت الله . اما التبشير السامي فكان فوق طاقتهم لانهم لم يكونوا احرزوا في ذلك الوقت معرفة حقائق الحياة المسيحية ولا يملك الا المالك . ومن ثم لم يكن في امكانهم الا ان

يهتفوا امام الشعب : ان المسيح هو ههنا . وحتى يكون لكلامهم وقع في قلوب السامعين كان من المحتم ان يصنعوا العجائب امامهم فلهذا قال لهم يسوع : « اشفوا المرضى اقيموا الموتى طهروا البرص اخرجوا الشياطين» . لعمريّ عندما يرى الشعب هذه الآيات تجري على يد الرسل يثق لا محالة بصدق مقالهم لان الاعجوبة انما هي كفالة يقدمها الله سبحانه عليه بياناً لواقعية كلام بشري . ومتى شاهد السامعون نزاهة الرسل يوقنون انهم لم يصنعوا ذلك لجرّ مغنم ما بل طوعاً لالهام الله . ولهذا يقول لهم يسوع . « مجاناً اخذتم فمجاناً اعطوا » . فعين العناية الالهية تكفي مؤنة لمبشري السلام . والله يعتني بخدمه فلا يعوزهم شيء . وعليه يستأنف يسوع الكلام قائلاً : « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا حذاء ولا عصاً . لانّ الفاعل مستحق اجرته » . اي ان المبشر عليه ان لا يقبل بدلاً عن الحقيقة سوى القوت الضروري . « واية مدينة او قرية دخلتموها فاسألوا فيها عمن يستحقكم» لان المبشر يشرّف البيت الذي يحلّ فيه . « وكونوا هناك حتى تخرجوا » . لانّ الانتقال من بيت الى آخر تُشتم منه رائحة محبة الترفه والخفة وكلاهما لا يليقان برجل الله . فضلاً عما في ذلك من الاهانة لصاحب الضيافة . ومن واجبات الرسول الحقيقي ان يكتفي بما يُقدم له كأنه من يد الله ويخاف ان يفضل ميله الطبيعي وراحته على ما قسمه له الرب .

ثم ان يسوع يزيد قائلاً « واذا دخلتم البيت فسلموا عليه قائلين السلام لهذا البيت . فان كان ذلك البيت مستحقاً فسلامكم يحلّ عليه » . اعني متى جاوب اصحاب البيت على سلام المبشر ووُجدوا اهلاً بفضائلهم لقبوله فتتم اماني المبشر في حينها وتحلّ بركات الرب على ذلك البيت وساكنيه . « وان كان غير مستحق فسلامكم يرجع اليكم » اذ ذاك يحفظ المبشر بركاته الى اناس اكثر اهلية من هذا . « ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم . فاذا خرجتم من البيت او من المدينة

فانفضوا غبار ارجلكم . الحق اقول لكم ان ارض سادوم وعامورة ستكونان اخف حالةً من تلك المدينة في يوم الدين » . اعزُ شيء لقلب يسوع واهم امر يشغله انما هو كيفية قبول مبشريه . فمن اكرم مثواهم يحسب له ذلك اجرًا عظيمًا ومن اغلق في وجوههم باب بيته يعدُ مجرمًا . وبيانًا لذلك قال ايضًا : «من قبلكم فقد قبلني ومن قبلني فقد قبل الذي ارسلني . من قبل نبيًا باسم نبي فاجرَ نبيّ ينال » من قات واضاف نبيًا فانه يساعده على تتميم وظيفته و بالنتيجة فانه يشترك في عمله و يقتسم اجره « ومن قبل صدّيقًا باسم صدّيق فاجرَ صدّيق ينال » فكم حمل هذا الفكر من الاغنياء على بذل الدرهم الرنّان في سبيل الخير وكم من الجمعيات الخيرية قد أُسست في العالم المسيحي على هذا المبدا وسهلت على خدمة الدين الغيُر الوصول الى تحقيق اعظم امانيهم الخيرية في وجه الدين والانسانية ؟ واخيرًا يظهر يسوع حنوه الابوي لتلاميذه الذين يشرعون في التبشير بفرح وافر قائلاً : « ومن سقى احد هؤلاء الصغار كاس ماء باردٍ فقط باسم تلميذ فالحقّ اقول لكم انه لا يضيع اجره » . وهذا القدر من التوصيات كافٍ للارسالية الاولى المزمعة ان تكون قصيرة المدة و بعيدة عن المخاطر

فذهب الرسل اذن اثنين فاثنين كما كان اوصاهم يسوع وطافوا المدن والقرى المجاورة منذرين بالتوبة ومبشرين بحلول ملكوت الله . وكانوا يطردون الشياطين ويبرئون المرضى . ولكي يقوّوا ايمان الضعفاء كانوا يلجأون الى الوسائل والعلامات الخارجة كالدهن بالزيت طبقًا لما كان قد اوعز اليهم المعلم فاثمر تبشيرهم وصار اسم يسوع على كل لسان حتى بلغ الى مسامع هيرودس فاضطرب قلبه جزعًا

§

خوف هيرودس بعد قطعه راس يوحنا المعمدان

ان هذا الملك كان قد اقترف جرمًا عظيمًا . والحال ان جزاء المجرمين هو ان يُعذَّبوا بلا شفقة بذكر فظيعتهم الدائم وان يقضوا حياتهم عرضةً للخوف والذعر

اذ يتخيّلون في السرّ والعلانية ان ذراع المنتقم العظيم مبسوطة دائماً فوق رؤوسهم وقد اوشكت ان تقبض عليهم. وكان يزيد الطين بلة والامر تفاقماً ما كان جارياً على السنة الجمهور وهو انه اذا لم يكن يسوع هو المسيح فهو نبيٌ ولربما هو ايليا او يوحنا المعمدان الذي قام من الاموات. فكانت تستك آذان هيرودس وترتعد فرائصه رعباً عند سماع هذا الاسم. وكان يطلب ان يرى يسوع تخلصاً من وخز ضميره او تفاؤلاً. وكان يردد القول لغلمانه: « ان هذا يوحنا المعمدان ومن اجل ذلك هذه القوات تُعمل به. قد قطعت انا راسه وها هو قد قام من الاموات »

نعم كان هيرودس قد امر بقطع راس يوحنا في ظروف يحمر منها وجه الآداب خجلاً وقد نقل الينا القديسان متى ومرقس خبر تلك الفاجعة كما ياتي: لما كان عيد مولده او جلوسه على العرش صنع هيرودس مأدبة فاخرة ودعا اليها عظماء مملكته وقواد الالوف واعيان الجليل. وعند انتهاء الوليمة صار تمثيل بعض روايات مضحكة من رقص خلاعي ترويحاً لنفس المدعوين. فاحتفاء بالعيد دخلت الى المرسح سلومة ابنة هيروديا ورقصت نابذة ظهرياً ما كان يفرضه عليها من التحجب حزنها على فقد ابيها. ولما كانت قد احرزت قصب السبق في مدرسة الاثم والخلاعة والاغواء فقد اعجبت بتعاطفها هيرودس والمتكئين اجمعين. فاظهاراً لفرط انشراحه ومسرته دعاها الملك الذي كانت لعبت براسه بنت الحان وقال لها على مسمع من لفيف المتكئين: « سليني ما اردتِ فاعطيكِ. وحلف لها ان مهما سالتِ مني اعطيكِ ولو نصف مملكتي ». والحق يقال ان العطية عطية ملك ولكن لاجل شيء دني سافل للغاية. ومن عظمة الوعد وحقارة السبب يستدل ان هيرودس صنع ذلك عن غير هدى. ولربما كان يتوهم ان الامر ينقضي بهدية ثمينة يقدمها الى سلومة ابان زفافها القريب على فيلبس رئيس ربع إيتورية (الجيدور) ولم يدرِ ذلك الشقي انه وعدها بارتكاب جريمة

منكرة. فخرجت حالاً الصبية الى امها لتسألها ماذا تقترح على الملك الجواد لان وعداً كهذا من فم ملك شأنه ان يعطي السائل ويجيره. غير ان هيروديا الماكرة قد قطعت حالاً بالمسألة ولقنت ابنتها الجواب. فانها لما كانت تخاف امراً واحداً وهو ان يطلقها هيرودس حين يقوى صراخ المعمدان على صوت شهوات ذلك الملك الاثيم لم تكن لتشتهي الا ان تخمد انفاس محامي الآداب العمومية ونصيرها. وللوقت دخلت سلومة الى بهو الوليمة باسمة الثغر وسألت: ليس عقداً من اللؤلؤ الغالي الثمن ولا تاجاً من الذهب بل قالت «اريد ان تعطيني على الفور راس يوحنا المعمدان في طبق». ولا مشاحة ان الضربة كانت قاطعة وكفؤاً لان تنبه هيرودس من سكرته. فاستحوذ عليه حزن شديد ولكن لقد سبق السيف العذل ولم يرد ان يصدها من اجل الوعد واليمين. وفضلاً عن ذلك اخذ المملقون من المتكئين يعضدون طلب الصبية حتى انهم انتصروا اخيراً على تردد ضمير الملك الذي ابانوا له ان موت يوحنا اقل ضرراً من حفظه حياً في السجن نظراً لتهييج الشعب معه وفوق ذلك ان يوحنا كان حليفاً لارتاس اذ كان يدافع عن ابنته التي طلقها هيرودس ظلماً. وارتاس كان قد شهر الحرب على الملك بهذا السبب ولا يخفى ما في ابقاء يوحنا حياً اثناء تلك الظروف من الخطر على المملكة لانه كان قادراً ان يثير حماسة الشعب ضد الملك. وبالنتيجة لا يصعب على اصحاب السياسة وجدان البراهين المقنعة عندما يريدون ان يحملوا السلطين على الظلم او الاستبداد فاذعن الملك هيرودس لتلك البراهين ولم يجسر ان يحنث بوعده من اجل القسم فاشار الى الحرس ان ينفذ سيافاً لياتي براس يوحنا على طبق. فخرج هذا للوقت ولم يلبث قليلاً حتى اتى براسه في طبق ودفع الى الصبية تلك الهدية المخيفة وهذه حملته ودفعته الى امها. ونجهل ما دار في ذهن هيروديا الفاسقة من الافكار عند مرآها راس خصمها غرقاً بالدم في الطبق. اما هيرودس فلم يسلُ ابداً تهديدات ذلك الفم

النصيح حتى بعد الموت . ومن ذلك اليوم كان ذكر مقتل يوحنا يتبعه اناء الليل واطراف النهار كشبح مرعب يقلق راحته . وكان يتخيّل انه ناظر اليه في كل مكان ويتوعده حتى انّ هيرودس كان يتمنى ان يعيده الى الحياة لو استطاع ليمحو عن يديه اثر الدم الذي هرقه ظلماً . وفي اثناء تنازع تلك العواطف المتضادة سمع هيرودس بخبر يسوع واعماله ونفوذه في الجليل فرغب ان يراه وكان يقول : « هذا هو فيخاف »

وعرف يسوع بذلك كله بينما كان محاطاً من الجمع الكثير على شطوط البحيرة واذ كان الرسل يجتمعون الى يسوع ويخبرونه بجميع ما عملوا وعلّموا . فلما بلغ مسامع الشعب ما جرى ليوحنا المعمدان وسمعوا تلاميذه يقصون عليهم خبر موته المفجع هاجوا وماجوا وحنقوا على هيرودس . ولو ان هيرودس حاول في ذلك الوقت ان يمسك يسوع لكان قد اتسع الخرق وثار الشعب كله معه . فحذراً من وقوع العراقيل السياسية عزم يسوع ان يذهب الى اراضي فيلبس وقال لتلاميذه : « هلموا وحدكم الى موضع قفر واستريحوا قليلاً » فركبوا سفينة تاركين الجماهير على الشاطئ وذهبوا الى البرية في تخوم بيت صيد الى الشاطئ الآخر من بحر الجليل

§

تكثير الخبز وميل الشعب السياسي

فعرف الجموع بمحل ذهابه بواسطة احد التلاميذ او بسبب ملاحظتهم سير السفينة فتبعوه من المدن ماشين بل سبقوا وصوله الى البرية بنوع انه لما وصل يسوع الى المحل المعين ابصر جمعاً غفيراً يستنظره فحيوا قدومه بالتجلة والاكرام . فشهد ذلك القطيع الذي كان يتبع آثار راعيه حرّك عواطف يسوع . وبدلاً من ان يستريح شرع حالاً يعلمهم ويغذي قلوبهم مخاطباً اياهم عن ملكوت الله وكان يشفي امراضهم . فمضى الوقت دون ان يشعروا به واشرفت الشمس على

المغيب فدنا الى يسوع تلاميذه وقالوا : « ان المكان قفر والساعة قد فاتت فاصرف الجموع ليذهبوا الى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً» فقال لهم يسوع لا حاجة الى ذهابهم اعطوهم انتم ليأكلوا . فقالوا له انذهب فنبتاع خبزاً بمئتي دينار ونعطيهم ليأكلوا » ولربما انهم ما كانوا يملكون هذه القيمة فضحك يسوع من ارتباكهم اذ كان عنده وسيلة لاشباعهم باقل من ذلك . لكنه كي ينبه الافكار الى الآية العظيمة التي ازمع ان يصنعها ويمتحن من جهة اخرى محبة الرسل عندما رأى حرصهم على ما يملكون من الدراهم فدعا اليه احدهم وقال له « يا فيلبس من اين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء » . وخاطب فيلبس خصوصاً لانه ادرى من غيره باحوال البلاد اذ كان من بيت صيدا وانما قال هذا ليجربه . فاجابه فيلبس مراجعاً قول ارفاقه ثم قال عن ثقة وخبرة « انه لا يكفيهم خبز بمئتي دينار حتى ينال كلٌ واحد منهم شيئاً يسيراً » فوالحالة هذه قال لهم يسوع « كم عندكم من الخبز اذهبوا وانظروا » . قال هذا ليثبت للجميع كونهم لم يحملوا خبزاً معهم وبالوقت نفسه يظهر باحسن طريقة حقيقة حصول الاعجوبة باشباع الجموع من خمس خبزات فقط وسمكتين اذ لم يعد محل للوهم والغش

ان الجماهير بسبب اسراعهم في المسير على شواطئ البحيرة لم ينتبهوا الى اخذ الزاد معهم ولم يشغل بالهم سوى فكر ملاقاة يسوع على الجانب الاخر ولهذا مع كل تلك الجماهير لم يجد التلاميذ بعد البحث والتفتيش سوى خمسة ارغفة من الشعير وسمكتين مع غلام . ويظهر من كلام اندراوس هذا ان الاثني عشر كانوا قد اهتموا جداً في البحث ولم يجدوا الا ما ذكرنا . ولكن ما هذا بالنظر الى كثرة الجماهير ؟ مع ذلك قال لهم يسوع : « هلمَّ بها الى هنا » وامر ان يجلس الجميع حلقة حلقة على بساط من عشب الربيع الاخضر فاتكأوا زمرة زمرة مئة مئة وخمسين خمسين على منحدر التل . وكان الوقت وقت الربيع في عيد الفصح فاراد المعلم ان يفتتح مع الجمهور الحاضر الفصح المسيحي ويسبق فيهيء المائدة

القصحية · فوقف في وسط تلك الوليمة وقوف الاب بين اولاده واخذ الخمسة الارغفة ونظر الى السماء وبارك وشكر وكسر وفي الحال وُجد الخبز والسمك بكثرة فاعطى تلاميذه ليقدموا لهم · فاكلوا جميعهم وشبعوا· وكان الآكلون خمسة الاف رجل ماعدا النساء والاولاد· وعند انتهاء الوليمة امر ان يرفعوا الكسر فرفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة مع ما فضل من السمكتين· وفي ذلك شاهد حسي على ان الجموع وجدوا في البرية وليمة عظيمة دون ان يلتجوا الى مئتي دينار فيلبس فلما عاين الجموع الآية التي عملها يسوع قالوا: « في الحقيقة هذا هو النبي الآتي الى العالم » واذ عرف يسوع بالروح انهم كانوا مصممين النية ان يأتوا ويختطفوه عنوةً ويقيموه ملكاً في اورشليم انصرف الى الجبل وحده ليستريح ويصلي

فانقضى الليل كله وقسم من الغد والشعب هاجس في هذه الامور السياسية ولم يسكن روعه البتة حتى اوشك الهيجان نفسه ان يتصل الى الرسل· فاسرع يسوع وهمّ عاجلاً بابعاد الاثني عشر عن الجمهور وبقي هو وحده بينهم قصد ان يصرفهم بعد ان يكون قد اقنعهم بالركون الى الهدو والسكينة· فركب الرسل سفينتهم عابرين في البحر الى العمق كمن عمد الى سفر بعيد· وكان المعلم قد اوعز اليهم سرًّا ان يقفوا ويستنظروا قدومه عند شاطىء البحيرة الشمالي امام بيت صيدا· ثم اخذ في إقناع الشعب ان يفتشوا لهم على مبيت يأوون اليه تلك الليلة مؤملاً اياهم انهم سيرونه في الغد· فاذعنوا لكلامه اذ شاهدوا سفر الرسل وحدهم ويسوع باقياً عندهم وقد مالت الشمس الى المغيب واخذ الظلام يخيم على الارض· وكان البحر هائجاً بهبوب ريح شديدة

ولكن بينما كان الشعب موقناً ان يسوع يصلي منفردًا على الجبل كان هو يجد في المسير تحت جنح الليل على شاطىء البحيرة ليدرك الرسل حسب ما قال لهم· وكان هولاء قد ادركوا المحل المعين منذ برهة غير انهم لم يستطيعوا الى

الدنو من البر سبيلاً بسبب شدة الريح التي كانت تقذفهم الى العمق وقد قضوا قسماً من الليل يحاولون النزول ولم يقدروا ولبثوا على تلك الحال حتى انقضت الهجعة الثالثة من الليل . فخيل لهم ان يسوع لو استمر مجداً في المسير من حين فارقوه الى تلك الساعة لوصل الى كفر ناحوم لا محالة . فهذا الفكر حملهم ان يقلعوا نحو كفر ناحوم محط رحالهم الاخير خصوصاً وقد أعيوا من مقاومة الزوبعة وصاروا يتمنون ان يدنوا الى البر في اي محل كان . وعند الساعة الثامنة بعد نصف الليل لم يكونوا جذّفوا الا نحو خمس وعشرين او ثلاثين غلوة اي اكثر من نصف البحيرة بقليل لان مساحة عرض البحيرة اربعون غلوة لا غير . فعرف يسوع انهم في ضيق شديد فشفق عليهم وذهب نحو من لم يستطيعوا عنوةً ان يأتوا اليه فعبر عن الارض الثابتة الى البحر ومشى فوق الامواج المائجة مشيهُ فوق اليبس . ولما دنا من السفينة اجتازها الى قدام كمن يريد ان يدلهم على طريق كفر ناحوم . ولما نظر الرسل شبح انسان ماراً في الظلام فوق الامواج المتضاربة اضطربوا وظنوا انه خيال ومن المخافة صرخوا . فاقترب منهم يسوع قصد ان يسكن روعهم امـا هم فارتعدوا بزيادة وللوقت كلمهم قائلاً : « ثقوا انا هو لا تخافوا » . فعرفوه حالاً واطمأنت قلوبهم وحاولوا القرب منه ليصعدوه اليهم اما هو فبقي ماشياً الى الامام فعجبوا من امره وفي الحال هتف بطرس مترجماً افكار الجميع : « يا ربِّ ان كنت انت هو فمرني ان آتي اليك على المياه » . مظهراً بذلك الشك والريب ليس بقدرة يسوع بل بحقيقة وجوده هناك . فقال « هلم » وفي الحال نزل بطرس من السفينة ومشى فوق المياه فرحاً لاشتراكه بالاعجوبة التي جعلت يسوع يستمر ماشياً على المياه . ولكن لشدة الريح وتصادم الامواج خاف وخسر الموازنة واوشك ان يغرق . وعندما يقل الايمان تبطل الاعجوبة . فانقطع اذ ذاك عن المشي وعمد الى السباحة بينما كان يسوع ثابت القدم فوق عباب البحر المائج كأنه يريد ان يثبت كون الايمان

الحي يقوى على جميع العناصر. وصاح بطرس حينئذٍ « يا رب نجني ». وللوقت مدَّ يسوع يده واخذه قائلاً له : « يا قليل الايمان لماذا شككت » وصعدا معاً الى السفينة التي كانت قد دنت منهما ثم سكنت الريح حالاً وتفرَّسوا فوجدوا ذواتهم قد بلغوا الشاطئ حيث كانوا قاصدين

فاثرت هذه الآية في افكار التلاميذ تأثيراً اعظم من تكثير الخبز وجاء الذين كانوا في السفينة وسجدوا امام المعلم قائلين : « بالحقيقة انت ابن الله ». وكان نزولهم الى البرّ في ارض جناسر فعرفه اهل ذلك المكان واتوا اليه بكل من فيه مرض وكان يشفيهم بحنو لا يعرف الضجر و يعزي المنكسري القلوب

على ان حزب المتطرفين الذين كانوا يحثون الشعب على المناداة بملك المسيح رجع في الغد الى برية صيدا بحماسة تفوق حماسة الامس. ولكن حبطت امالهم وخمدت حرارتهم عندما لم يجدوا يسوع هناك. فاستقصوا اخباره من بحرية كانوا قادمين من جهات طبرية فاخبروهم انهم رأوه على الشاطئ الاخر من البحيرة فركبوا حالاً قاصدين لقياه رغبةً في ان يظهروا حوله ما تكنه ضلوعهم من الاميال السياسية

§

خطاب يسوع على خبز الحياة

ولما وجدته تلك العصابة في احد مجامع كفرناحوم قالوا له : « يا معلم متى صرت الى هنا ». وانتعشت آمالهم العالمية بوجوده : فعلم يسوع بقصدهم واجابهم على سؤالهم حسب نياتهم الخفية اذ قال « الحقَّ الحقَّ اقول لكم انكم لم تطلبوني لانكم عاينتم الآيات بل لانكم اكلتم الخبز وشبعتم. اعملوا لا للطعام الفاني بل للطعام الباقي للحياة الابدية الذي يعطيكموه ابن البشر. لان هذا قد ختمه الآب الله ». اى ان يسوع لم يأتِ ليشبع ارباب الاحزاب بالعجائب الباهرة بل ليعلم و يثقف تلاميذه. فمن رام منه الخبز المادي عوض الحياة الفائقة

الطبيعة وحاول ان يقيم ملكاً على الارض من هو ملك السماء يكون قد جهل صبغته الحقيقية وحطّ منزلته الرفيعة. فقالوا له : « ماذا نصنع حتى نعمل اعمال الله ». مظهرين عجبهم كيف انهم مع تحزبهم له لا يعلمون الوجهة الدينية التي يريد يسوع تأسيسها على الارض. حينئذٍ اجابهم يسوع : « هذا هو عمل الله ان تؤمنوا بالذي ارسله ». اعني ان الله لا يتطلب اعواناً يجاهدون عنه بالسيف بل رجالاً يؤمنون. والعمل الذي يستنظره الله من البشر ما هو سوى الايمان. حينئذ رفع بعض الفريسيين الحسودين اصواتهم قائلين « اية آية تصنع لنراها ونؤمن بك. ؟ آباؤنا اكلوا المنّ في البرية كما هو مكتوب انه اعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا ». فكأنهم يقولون ليسوع : ان موسى مع اعترافه بفضل المسيح عليه استطاع ان يُشبع ليس فقط خمسة الاف رجل بل الشعب كله وليس مرة واحدة بل مدة اربعين سنة متوالية. ولم يعطهم خبز شعير بل خبزاً من السماء. فاصنع انت كذلك لنؤمن بك. وفي الحال اجاب يسوع على اعتراضهم قائلاً : « الحقّ الحقّ اقول لكم ان موسى لم يعطكم الخبز من السماء بل ابي هو الذي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لان خبز الله هو النازل من السماء والواهب الحياة للعالم» فهتف عفواً بعض الحضور مثل السامرية قائلين عن استقامة قلب : «يارب اعطنا في كل حين هذا الخبز» وللوقت رفع يسوع ستار التمويه وكشف الحجاب عن افكاره السامية وتكلم صريحاً بجهير الصوت وقال : « انا خبز الحياة. من يقبل اليّ فلن يجوع . ومن يؤمن بي فلن يعطش ابداً. لكن قلت لكم انكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون. كلّ من يعطينيه الاب فهو يقبل اليّ ومن يقبل اليّ لا اخرجه خارجاً. لاني نزلت من السماء لا لاعمل مشيئتي بل مشيئة الذي ارسلني. وهذه مشيئة الآب الذي ارسلني ان لا أُتلف من كل ما اعطاني شيئاً لكي اقيمه في اليوم الاخير». فعند هذه الايضاحات الصريحة التي كانت تمس ادق حاسيات اليهود وتصيبهم في حبة

القلب حدث تذمر ودمدمة بين السامعين وقالوا علناً بعضهم لبعض: «اليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن نعرف اباه وامه فكيف هـذا يقول اني نزلت من السماء»٠ فلم يجاوب يسوع على اعتراضٍ تمنعه الفطنة عن الخوض فيه اذ لو كشف النقاب عن اسرار الحبل به في موقفٍ كهذا لكان قد زاد الطين بلة وفتح مجالاً رحباً لشك مخاصميه فالتفت اليهم مزدجراً وقال لهم: «لا تتذمروا فيما بينكم» واستأنف الكلام على الحقيقة التي كان قد شرع في سردها دون ان يعبأ بحنقهم بل كان له ذلك سبباً لافاضة الكلام فيها قائلاً: «ما من احد يقدر ان يقبل اليَّ ما لم يجتذبه الآب الذي ارسلني وانا اقيمه في اليوم الاخير٠ قد كتب بالانبياء انهم يكونون باجمعهم متعلمين من الله٠ فكل من سمع من الآب وتعلم يقبل اليَّ٠ لان لا احد رأى الآب سوى الذي هو من الله فهذا قد رأى الآب»٠ المؤمنون اذن هم المختارون اولاً من الآب السماوي٠ فهو هو الذي يفتح ابواب قلوبهم ويؤهب نفوسهم اذ يستأسرهم تارةً بمفاعيل حنوه واخرى بعذوبة نعمته فيقدمهم مغللين الى الابن ولكن بسلاسل الحب والفرح وحينئذٍ يبتدي هذا بعمله الخاص فيهم فينير عقولهم بضياء تعليمه ويردهم الى حال البرارة بفدائه ويجدد حياتهم باتحاده بهم٠ ثم يتمم فيهم عمل التقديس الاقنوم الثالث الروح القدس الذي سوف يخبرنا عنه يسوع فيحفظهم ويثبتهم في البرّ والقداسة ويزين نفوسهم بمواهبه ويجعلهم هياكل يتمجدُ بها الله

وبياناً لذلك يستأنف يسوع الكلام بثبات جأش قائلاً: «الحقَّ الحقَّ اقول لكم من يؤمن بي فله الحياة الابدية٠ انا خبز الحياة٠ آباؤكم اكلوا المنّ في البرية وماتوا٠ هذا هو الخبز النازل من السماء لكي لا يموت كل من يأكل منه انا الخبز الحي الذي نزل من السماء٠ ان أكل احد من هذا الخبز يحيا الى الابد والخبز الذي ساعطيه انا هو جسدي لحياة العالم»٠ فهذه الكلمات الاخيرة تظهر

حسن التخلص والانتقال الى افكار جديدة. فمقابلة للخبز الذي اعطاه الآب على الارض يسلمنا الابن جسده عربونًا للقيامة. وبمثابة الطعام يقدم يسوع الى البشر الحقيقة التي تقوت النفس. وبمثابة اللحم والدم يخلق فينا الحياة الفائقة الطبيعة لانه افتدانا بتضحية ذاته لاجلنا. وبالنتيجة ان الانسان من الضرورة حتى يحيا ان يتحد بيسوع معلمًا و بيسوع فاديًا. فنتحد بيسوع معلمًا بالايمان الذي يشركنا بافكاره واما اتحادنا به فاديًا فلا يتم الا بالامتزاج الطبيعي بجسده المكسور والمذبوح لاجل خلاصنا

فلا غرو ان فات ادراك مثل هذه الحقائق السامية فهم جماعة يقفون عند قشور الاشياء دون ان يلجوا الى اللب. ولهذا نسمعهم يقولون: « كيف يقدر هذا ان يعطينا جسده لنأكله » غير ان جهلهم لم يوقف يسوع عن تعليمه بل فتح له مجالاً الى مزيد البيان والتصريح ان المقصود من كلامه هو المعنى الحرفي لا غير اذ قال: « الحق الحق اقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في انفسكم. من يأكل جسدي و يشرب دمي فله الحياة الابدية وانا اقيمه في اليوم الاخير. لان جسدي هو مأكل حقيقي ودمي هو مشرب حقيقي » اعني حتى يكون الاتحاد تامًا والحياة مكفولة لا يكفي ان يؤكل يسوع بالروح فقط بل يلزم ان يذوقه الفم حقيقة. ومن ثم اضحى ضروريًا للحياة الروحية أكل الضحية المقدمة عن الجنس البشري. ولكن هل يضطر الانسان اتمامًا لهذه الوصية ان يأكل و يشرب لحمًا ودمًا بشريًا؟ فرسم الافخارستيا يجيبنا عن ذلك. اذ بعد العشاء السري يصير جسد المخلص مأكلاً حقيقيًا ليس دمويًا بل سريًا. ودمه يضحي مشربًا حقيقيًا دون ان تشمئز منه النفس اذ يقدم للمسيحيين تحت شكل سري يعزي و يفرح القلب. وهاك اخيرًا نتائج الوليمة الغريبة والسماوية التي يدعونا اليها يسوع « من يأكل جسدي و يشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيه. كما ارسلني الآب الحي وانا احيا بالآب فالذي

يأكلني هو يحيا ايضاً بي » ان اصل الحياة ومنبعها الحقيقي هو الآب اذ هو الحيّ بذاته كما يدعوه المخلص · وهذه الحياة تزهو وتزهر بنوع منظور في الكلمة المتأنس · فوالحالة هذه من اكل جسد الكلمة المتأنس اشترك بما هو له وبالنتيجة اشترك بحياة الآب وعليه يكون قد اتحد بمن هو غير متناهٍ باقتسامه ذات الاتحاد الموجود بين يسوع وابيه · وبناء على ذلك ينتج المخلص قائلاً : « هذا هو الخبز الذي نزل من السماء ليس كالمن الذي اكله آباؤكم وماتوا · من يأكل من هذا الخبز فانه يعيش الى الابد » عندئذٍ عظم تعجب السامعين من مثل هذا الكلام وتحوّل تذمرهم الى حنق ووافقهم على ذلك بعض التلاميذ ايضاً وقالوا فيما بينهم : « هذا الكلام صعب من يستطيع سماعه » فعلم يسوع انهم يتذمرون من هذا فقال لهم : « اهذا يشككم فكيف اذا رأيتم ابن البشر صاعداً الى حيث كان اولاً ؟ » ان ما هو صعب سماعه يسهل نوعاً لو فقه السامعون انه لا يقصد بهذا الكلام اكل لحم مادي قابل التجزّي نظير لحم ضحية بشرية اذ من يصعد الى السماء بعد القيامة يصير غير قابل الموت ثانيةً · فيسوع يعطي ذاته حقاً ولكن بصورة سرية ويقدّم جوهر جسده ولكن تحت الاشكال السرية تذكرة لموته · ويهبنا ذاته تماماً باللاهوت والناسوت بنوع متعدد ولكن غير منقسم · وبهذا يظهر كونه الخبز السماوي اذ نزل من السماء ورجع اليها وبينما هو يؤكل على الارض مثل ذبيحة لا يزال ملكاً حياً وممجداً في السماء · ومن اراد ان يفهم مآل كلامه الغويص عليه بامعان النظر في هذه الكلمات الاتية « هنا الروح هو الذي يحيي واما اللحم فلا يفيد شيئاً والكلام الذي كلمتكم به هو روح وحياة » فعبثاً اذن تحاول الحواس ان تشعر بجسد يسوع المسيح فلا تستطيع الوصول الى ذلك البتة لانه جسد سري محجوب عنها وانما ذلك من خاصيات النفس ان تتلذذ به وتراه وتسجد له بمناولتها اياه · لعمري ان الافخاريستيا على ما هي عليه امر غير ممكن تصديق وقوعه طبيعياً

ولكن بالنظر الى ما هو فوق الطبيعة والالهي فهي الحياة على اسمى واكمل منوال يمكن تصوره. ويصعب جداً تصديق وقوعها الا على من اغمض عيون جسده ولم يسمع سوى ارشادات نفسه على حين تكون تحت طائلة نور الايمان واشغاف الحب

فيظهر مما تقدم ان لا شيء في تعليم يسوع المسيح من الآمال السياسية التي كانت تخامر قلب تلك العصابة التي كانت اجتمعت منذ بضعة ايام حول يسوع المسيح. ولهذا لما رفع يسوع الحجاب عن مقاصده الروحية صرفاً وتكلم صريحاً تركه اولئك وتفرقوا ايدي سبا

فحصل ما كان يتوخاه يسوع بكلامه وهو تنقية ملكوت السماء من كل زوان مضر ولكن لسوء الطالع لم يتناول ذلك التمييز بين المختارين الاخيار والمرذولين الاشرار جماعة الرسل ايضاً لان عددهم لم يخلُ من بعض الشر. ورغب يسوع ان يضطر ذلك المرائي على ان ينزع ثوب الخبث والرياء فالتفت الى الاثني عشر وقال لهم: «العلكم انتم ايضاً ترومون ان تمضوا» فاجاب بطرس بحماسته العادية عن الجميع: «يا رب الى اين نذهب. ان كلام الحياة الابدية هو عندك. وقد آمنا نحن وعرفنا انك انت المسيح ابن الله» ولم يقاومه احد مع انه كان يوجد بين الرسل من لا يذعن لهذا الحديث وهو يهوذا. واذ لم ينتبه اردف يسوع كلامه بعبارة تشفُّ عن كآبة نفس من شانها ان توقظ ذلك الشرير من غفلته لو كان اقل خبثاً قال: «ألم اكن انا اخترتكم انتم الاثني عشر وواحد منكم هو شيطان» فمرّت هذه الكلمة على قلب ذلك الماكر دون ان تحمله على الفرار من الباب الذي فتحه له يسوع

الفصل الثامن

صعوبة الايمان في الجليل

جدال عنيف مع الفريسيين — عزمهم على قتل يسوع — ذهاب يسوع نحو تخوم فينيقية — ايابه الى كفرناحوم مع استمرار وجود الخطر

طالع لوقا ٦ : ١ — ١١ · مرقس ٢ : ٢٣ — ٢٨ و ٧ : ١ و ٨ : ٢١ · متى ١٢ : ١ — ٨ و ١٥ : ١ و ١٦ : ١٢

§

جدال عنيف مع الفريسيين

وولي ذلك الخطاب على خبز الحياة شدَّة على الايمان في الجليل · فالجمع كان يتطلب مسيحاً زمنياً و يسوع قد صرَّح انه ليس هو واعلن انه لا يريد ان يكون ذلك · وللوقت خمدت الحمية في الشعب وتسنى للعدو ان يستأنف الكرة على يسوع · ولقد سهلت له المجال الى ذلك مخالفة يسوع لبعض ترتيبات الفريسيين الباطلة

كان يسوع مجتازاً يوم السبت بين الزروع وتلاميذه معه صائمين · و بحسب ترتيبات اليهود لا يجوز للاسرائيلي الحقيقي الا بداعي المرض ان يأكل شيئاً يوم السبت قبل ان يزور المجمع و يفي ما عليه من واجب العبادة لله · فجاع التلاميذ وجعلوا يقلعون سنبلاً و يفركونه بايديهم و يأكلون كما يصنع البعض الى ايامنا هذه · فرآهم الفريسيون وحنقوا ليس بسبب الخلس الذي كانت الشريعة تجيزه بل بسبب انتهاك حرمة السبت · فمنهم من آخذوا التلاميذ ووجهوا اليهم سهام اللوم قائلين لهم : « لماذا تفعلون ما لا يحل في السبوت » ومنهم من تشكوا رأساً من المعلم وقالوا له : « هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل

ان يُفعل في السبت ». أو ليس قلع السنبل وفركه بالايدي عملاً يدوياً نظير الحصاد والطحن؟ فلم يقف يسوع عند الجدال في امر صلاحية هذا التحريم وهل عملهم هذا يُعدّ عملاً يدوياً بل اجابهم قائلاً: « اما قرأتم قط ما فعل داود حين احتاج وجاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله في عهد اياثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل اكله الا للكهنة واعطى للذين معه » لعمري ان الشريعة الطبيعية لها التقدم على جميع الشرائع الوضعية وعليه فان الله يأمر الانسان ان يحيا اولاً ثم ان يحفظ الرتب الطقسية. وهذا ما فهمه داود واياثار الاسرائيليان الشهيران. وما كانا اقل معرفة بشريعة الله من الفريسيين ثم ان يسوع يسترسل في الكلام الى برهان اخر اقرب منالاً قائلاً: « او ما قرأتم في الناموس ان الكهنة في السبت يدنسون السبت ولا يكون عليهم ذنب» لان وظيفتهم في الهيكل تضطرهم الى مباشرة اعمال يدوية في حد ذاتها. ثم زاد على ماسبق: « وانا اقول لكم ان ههنا اعظم من الهيكل» ولا ريب انه كان يقصد بذلك نشر بشارة الانجيل وعليه فحسب منطوق برهان المقايسة كان يحل للرسل حتى يتمكنوا من تكميل عملهم هذا بسرعة ويمجدوا الله بتبشيرهم ان يقلعوا سنبلاً ويأكلوه يوم السبت كما كان يحل للكهنة ان يذبحوا الضحية ويقدموها ولهذا قال ايضاً « لو كنتم تعلمون ما هو اني اريد رحمة لا ذبيحة لما حكمتم على من لا ذنب له — ان السبت جعل لاجل الانسان لا الانسان لاجل السبت . فابن البشر اذن هو رب السبت ايضاً » واوقف عند هذا الحد مجال الجدال الاول ولكن لم يلبث طويلاً حتى حصل جدال آخر اهم واصعب اضطر المعلم ان يضرب دعوى تسلط الطقوس الفريسية الباطلة ضربة قاطعة

عرف واختبر الفريسيون ان تلاميذ يسوع لم يعبأوا بغسل الايدي قبل الاكل وكثيراً ما كانوا يتكئون على المائدة دون غسل ايديهم. مع ان الفريسين كانوا قد عمموا بتحريضاتهم وترتيباتهم هذه العادة بين اليهود وحددوا

بتعاليمهم الاعتناء اللازم وعدد وكيفية الغسل ايضاً ليس فقط قبل و بعد تناول الطعام بل عند الإياب من محل عمومي كالاسواق والاجتماعات العمومية وحينئذٍ يلزم ان تكون الايدي مرتفعة نحو العلا او منحنية نحو الارض حسب اقتضاء التطهير. وادخلوا في هذه العادة الثقيلة تطهير كؤوس وآنية الطبخ وغيرها لانهم كانوا يعتبرون انها تدنَّس من ادنى لمس خارجي وكل من لمسها يتدنس جسده و بواسطة الجسد تتدنس النفس ايضاً. و بناء على ذلك عندما نظروا التلاميذ لا يعبأون بيرتيباتهم صرخوا يا للكفر والوقاحة والشك و بعد ان لاموهم علانية اتوا الى المعلم وقالوا له بحدة: « لِمَ تلاميذك لا يجرون على سنة الشيوخ ؟ ولكن يأكلون الطعام بايدٍ نجسة » ظانين انهم يفحمونه باستنادهم الى قوة التقليد البشري. اما هو فاجابهم بسؤال آخر قائلاً: «وانتم لمَ تتعدون وصية الله من اجل سنتكم ؟ فقد قال الله اكرم اباك وامك وكذا من لعن اباه او امه فليُقتل قتلاً. وانتم تقولون (في تقليدكم) كل من قال لابيه او امه كل قربان مني تنتفع به (اي فليكن قرباناً لله كل مايمكنني ان اخدمكما به) فلا تدعونه يصنع لابيه او امه شيئاً البتة. فقد ابطلتم وصية الله من اجل سنتكم. ايها المراؤون حسناً تنبأ عليكم اشعيا القائل: هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلوبهم فبعيدة مني. فهم باطلاً يعبدونني اذ يعلمون تعاليم الناس ووصاياهم. لانكم تركتم وصية الله وتمسكتم بسنة الناس من غسل جرار وكؤوس واشياء اخرى كثيرة امثال هذه تفعلونها ». ثم دعا الجموع وقال « اسمعوا لي جميعكم وافهموا لا شيء مما هو خارج عن الانسان اذا دخله يمكن ان ينجسه بل ما يخرج من الانسان هو الذي ينجس الانسان. من له اذنان سامعتان فليسمع ». والحق يقال ان من اراد ان يختبر نفسه هل هو بار فلينظر ليس الى يديه بل الى قلبه. فهذا هو مختصر علم الآداب الحقيقي

فحنق الفريسيون من هذا الجواب المملوء شجاعة الذي لم يكونوا ينتظرونه

واضطرب بال التلاميذ من جرى ذلك ودنوا من يسوع وقالوا له : « اعلمت ان الفريسين لما سمعوا هذ الكلام شكوا » . فاجابهم يسوع بثبات جأش وسكينة بال : « كل غرس لا يغرسه ابي السماوي يُقلع » اعني ان كل تعليم ليس من الله وكافة العقائد المخترعة من العقل البشري تموت وتزول مع الانسان . وعما قليل تتلاشى ترتيبات الفريسيين ولا يبقى منها شيء ويهلك ذكرها مع انصار هذه الشيعة ثم زاد : « اتركوهم فانهم عميان قادة عميان . واذا كان اعمى يقود اعمى فكلاهما يسقطان في حفرة »

فبيناتٌ كهذه محكمة السبك والسداد كانت تفعم قلوب الرسل ابتهاجاً وتبدّد غيوم ارتباكهم وتبشرهم بالنصر المبين . غير انهم لم يفقهوا تماماً المبادي التي جاء بها يسوع لافحام اخصامه . فعندما اختلوا بالمعلم الالهي تقدم بطرس بلسان الجميع وسأله قائلاً : « فسر لنا هذا المثل » . وكان الاولى له ان يقول اوضح لنا هذه الكلمة او الفقرة لان يسوع لم يضرب لهم مثلاً وقتئذٍ . فقال يسوع : « أحتى الان انتم بلا فهم ؟ أما تفهمون ان كل ما يدخل الفم ينزل الى الجوف ويُدفع الى المخرج ؟ واما الذي يخرج من الفم فمن القلب يصدر وهو الذي ينجس الانسان . لانها من القلب تخرج الافكار الرديئة القتل الزنى الفجور السرقة شهادة الزور التجديف . هذه هي التي تنجس الانسان . واما الاكل بايد غير مغسولة فلا ينجس الانسان »

وفي السبت المقبل كان يسوع مزمعاً ان يدخل المجمع ليكرز حسب عادته . فعزم الفريسيون ان يقصدوه الى هنالك رغبة في ان يستأنفوا الجدال . وحدث انه كان بين الجمع رجل يده يابسة بسبب شلل طرأ عليه فانتبه اليه يسوع . وكان الفريسيون يراقبونه ليروا هل تصل معه الوقاحة الى حد ان يشفيه يوم السبت في نفس المجمع ووقت الصلاة العمومية

فقرأ يسوع في عيونهم شر سريرتهم وخبث ضمائرهم وأراد ان يخجلهم

ويلبسهم ثوب العار والشنار الذي يستحقونه. فقال للرجل اليابس اليد« قم الى الوسط ». والتفت الى الجمع الحاضر مخاطباً الجميع وطالباً منهم الجواب اللاهوتي على سؤال يقترحه عليهم وقال: « أخير يحلُّ ان يفعل في السبت ام شر؟ ان تخلص نفس ام تهلك؟ ». ولعمري من يهمل عمل الخير مع المقدرة عليه فقد ارتكب اثماً ومن لا يخلص قريبه من الموت وقد استطاع اليه سبيلاً فقد قتل. ولا ينجو المرء من احد هذين الامرين الا على شرط ان يكون خالياً من كل مسؤولية بالنظر للذي يهلك او يتعذب. ولا ينطبق هذا على يسوع المسيح الذي قُلِّد مع كل سلطان الزام وضعه في العمل لخير الانسانية كلها. فصمت الاخصام ولم ينطقوا ببنة شفة. فسرح يسوع فيهم رائد الطرف بغيظ وهو مغتم لعمى قلوبهم وتنهد قائلاً: « ايُّ انسان منكم يكون له خروف ان سقط في حفرة في السبت لا يمسكه ويرفعه؟ والانسان كم هو افضل من الخروف؟ ». فهذا الصوت الصادر من احشاء يسوع الابوية سقط نظير الصاعقة على رؤوس الفريسيين وكالبرق اللامع كشف عن محبتهم لذواتهم ستار التمويه والرياء. اذا وُجد خروف في خطر يحلُّ وصية السبت بعلة كونه يخصهم. ولكن خلاص رجل من العذاب لا يحلُّ وصية السبت لكونه قريبهم. فلا مشاحة اذن انهم خالون من حب كل خير عمومي ولا تهمهم سوى مصلحة انفسهم. ثم قال للرجل « امدد يدك » فآمن الرجل ان الآمر له القدرة على اعطائه الواسطة التي تمكنه من تتميم الامر. فمدها فعادت يده صحيحة كعادتها الاولى

§

عزم الفريسيين على قتل يسوع

فصعب الامر في اعين الفريسيين كيف ان يسوع قد اخزى كبرياءهم وانتصر عليهم في الجدال ثلاث مرات متوالية على حين ان الظروف كانت

تحقق لهم الامل بالظفر « فأمتلأوا سفهاً كما قال القديس لوقا وخرجوا من المجمع وفاوض بعضهم بعضاً فيما يفعلون بيسوع . وصمّموا ان يتخلصوا منه بالقتل. ولكنهم كانوا في حكم هيرودس ولم يجسروا على اتيان المنكر هناك دون مخابرته والاتفاق معه . فجنحوا الى المفاوضة السرية مع بعض اعوانه والمتقربين اليه

فاحب يسوع ان يحبط مساعيهم المنكرة ويفسد مقاصدهم الشريرة فابتعد عن كفرناحوم واختار حياة الرسول التائهة متجشماً صعوباتها آخذاً له وحش البر رفيقاً وطير السماء سميراً تائهاً بلا مأوى يسند اليه رأسه ليستريح من تعب الرسالة

§

ذهاب يسوع نحو تخوم فينيقية

وقد اخذ يسوع وجهة مسيره الجهة الشمالية الغربية مجتازاً هضاب الجليل الاعلى المخصبة الى ان وصل الى تخوم صور وصيدا. ولما كان قصده الفرار من ايدي اخصامه والابتعاد عن مطامع الشعب اظهر الى من نزل عندهم رغبته ان ان يعيش متنكراً . غير ان الظروف ابت الا اشهاره . فعرفت به امرأة من فينيقية سورية كانت لها بنت بها روح نجس . فهذه دنت من البيت حيث كان يسوع نازلاً وشرعت تصرخ « ارحمني ايها الرب ابن داود. فان ابنتي بها شيطان يعذبها جداً » . فهذا الصياح الحاد الصادر من اعماق قلب ام حنونة تشعر باطنياً بعذاب ابنتها لم يرقق قلب يسوع عليها بل ظلّ صامتاً. ولما كانت تزيد صياحاً مكررةً الطلب حنّ عليها قلب التلاميذ فتشفعوا بها قدام يسوع قائلين: « اصرفها فانها تصيح في اثرنا » مظهرين رغبتهم في اجابة سؤالها تحت طي عدم الاكتراث وحب التخلص من قلق صياحها. فسر يسوع من تشفعهم بامرأة وثنية واستبشر بزوال اوهامهم اليهودية . ولكي يختبرهم بزيادة

اجابهم بشوفة كانه يريد من نوع التهكم ان يتقلد صدى عواطفهم القديمة وقال: « لم أُرسل الا الى الخرفان الضالة من آل اسرائيل» . ولكن التلاميذ علموا ان تلك القساوة الظاهرة لا تلبث ان تترك مجالاً للرأفة والحنو اذ لا يقوى قلب الرجل الصالح على مقاومة دموع المرأة وخصوصاً اذا كانت تسأل بصفة ام . فاوماًوا للمرأة ان تدخل الى البيت فدخلت وسجدت قائلةً له « اغثني يارب » اما يسوع فظلَّ يختبئ وراء مبادي اليهود الضيقة كما لو كان متمسكاً بها حقيقة . فقال : « ليس حسناً ان يؤخذ خبز البنين و يلقى للكلاب » مردداً نفس الكلام الذي كان يستعمله التعصب اليهودي مع الكفرة فقد كان يدعي اليهود « ان الاسرائيليين هم اولاد الله اما الوثنيون فهم اولاد الكلاب » ولا ريب ان هذا الجواب القاسي كان من شانه ان يسبب القنوط في نفس السائلة ولكن قلب الكنعانية كان قلب امٍ وقلب الام لا يعرف الفشل واليأس وخصوصاً اذا كان مستنداً الى الايمان الحي والفهم الذي يعرف اساليب الكلام كما في الظرف الحالي . لان تلك المرأة عوضاً عن ان تقنط من كلام يسوع الجارح احساساتها قد استدركت كلمته وسبكتها بقالب على منتهى الظرف واللياقة يروقه سماعه فقالت « نعم يا ربُّ فانَّ الكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد اربابها » . فاظهرت اذن انها قبلت لاجل غرضها ما عزي اليها وايقنت في الوقت نفسه باجابة طلبها مبينةً مقدارهُ الطفيف للغاية . فلا تطلب خبزاً بل تكتفي بالفتات الضائع . ولا ترغب في الجلوس مع آل الوليمة بل تتمنى ان يُسمح لها بالجولان تحت المائدة لتلتقط ما يذهب سدىً . فلا مشاحة اذن ان في هذا الجواب من الايمان والبساطة والموافقة لمقتضى الحال ما يدهش ويحملنا على تكرار هتاف المخلص القائل : « يا مرأة عظيم ايمانك » واردف قائلاً ايضاً « فليكن لك كما اردت » و بالحقيقة شفيت ابنتها من تلك الساعة . فرأى الرسل من حرارة ايمان تلك المرأة ما عسى ان يدَّخر لهم من التعزية الدينية المذهب

الوثني في مستقبل الايام

ونزل يسوع من تخوم صور وصيدا الى شاطىء بحيرة جنامر مجتازاً في جبل لبنان بين تخوم المدن العشر الممتدة من دمشق الى جراذا والمتحالفة على المعاضدة ضد غزوات البدو تحت حماية رومة العظمى. واغلب سكان تلك المدن عبدة اوثان. فجعل يسوع طريقه من هناك ليعوّد الرسل حسن الصلات مع الوثنيين

وجاؤوه باصم اخرس وطلبوا منه ان يبرئه. واذ كان المريض لا يسمع استعمل يسوع معه الاشارات. فاخذه من بين الجمع على حدة وجعل اصابعه في اذني الاصم ووضع من رضابه على لسانه ثم نظر الى السماء ليفهمه ان الآية ستتم بقدرة العلي وتنهد وصاح بالسريانية «إفتَحْ اي انفتح» وكان الامر قيد كلمته وللوقت انفتح مسمعاه وانحل عقد لسانه وتكلم بطلاقة. فبهت الجمع الحاضر وطارت نفس الاخرس فرحاً وابتهاجاً. فعبثاً كان يسوع يوصيهم الا يقولوا لاحد خوفاً من ازدحام الجموع وكثرة المرضى. غير انهم كانوا كلما اوصاهم لايزدادون الا نداء بقدرته بنوع انه لم يمض قليل من الزمان حتى اضحى شاطىء البحيرة الشرقي مشهداً لاحتشاد الجماهير وعمل الآيات نظير ضواحي كفرناحوم. و باطلاً كان يغادرهم لينفرد في الجبال الوعرة فكانوا يأتون اليه من كل صوب. وهناك كان يجعل الخرس يتكلمون والمخلعين يمشون والعميان يبصرون و يشفي جميع الامراض حتى كان الجمع يهتف «يا للعجب العجاب» وكان اليهود الحقيقيون يفتخرون بمثله نبياً من امته يصنع تلك الآيات. والوثنيون كانوا يذعنون للحقيقة الواضحة و يمجدون اله اسرائيل

وفي اثناء ذلك جدد يسوع اعجوبة الخبزات وهذه المرة ايضاً تحنن على الجمع الذي كان يتبعه منذ ثلاثة ايام. فدنا من تلاميذه وقال لهم: «ان صرفتهم الى منازلهم صائمين يخورون في الطريق لان منهم من جاؤوا من بعيد فلا اريد

ان اصرفهم صائمين ». فقال له تلاميذه الذين لم ينسوا اعجوبة الخبز وقد رأوا حالاً ان المعلم يريد ان يكررها « من اين لنا في البرية خبز يشبع مثل هذا الجمع ». قالوا هذا ليحملوه نظير المرة الاولى على اظهار قدرته . غير ان هذه المرة وجدوا سبعة ارغفة وقليلاً من السمك وعدد الآكلين لم يكن الا نحو اربعة آلاف رجل وبعد ما اتكأ الجمع على الارض بارك يسوع الخبزات نظير الاول واكلوا جميعهم وشبعوا ورفعوا ما فضل من الكسر سبع سلاسل مملوءة

§

اياب يسوع الى كفرناحوم مع استمرار وجود الخطر

ولم يستمر يسوع هناك طويلاً كي لا يترك سبيلاً لهياج الشعب معه بل ركب حالاً السفينة واجتاز الى الشاطىء الآخر من البحيرة الى نواحي دلمانوتا او الى نواحي مجدل ليرى ماذا جرى بثورة الفريسيين عليه ويجسّ نبض الاحوال . فعرف عند وصوله ان جذوة غضبهم لم تنطفِ بعد اذ حالما عرفوا بقدومه اسرعوا اليه ليجربوه طالبين ان يريهم آية من السماء . فاجابهم متهكماً ان الاولى بهم ان ينظروا اولاً آيات الارض كتكميل النبوات والعجائب التي صنعها وقال لهم : « اذا كان المساء قلتم صحو لان السماء محمرة . وبالغداة اليوم مطر لان السماء محمرة كالحة . افتعلمون ان تميزوا وجه السماء وعلامات الازمنة لا تستطيعون ان تعرفوها ؟ ان الجيل الشرير الفاسق يطلب آية فلا يعطى آية الا آية يونان النبي » ثم ترك الذين اتوا ليجربوه وركب السفينة وذهب نحو الشمال

وعندنظره ابَّان السفر وراء تلك الشواطىء المعروفة منه وهاتيك الرؤوس الناتئة في البحيرة بيوت كفرناحوم وبناياتها وقد اخذ الليل يرخي فوقها سدوله تهافتت افكار الحزن والكآبة على نفسه كيف ان اخصامه يحاولون قتل نفوذه حتى في تلك البلاد التي سقاها بعرق جبينه وقلب تربتها بقوة كلمته وطهرها بعجائبه والتفت الى تلاميذه قائلاً : « انظروا وتحرزوا من خمير الفريسيين وخمير

هيرودس » فالمعنى المجازي المقصود بهذه العبارة ظاهر قريب المأخذ غير ان التلاميذ توهموا المعنى الحقيقي اذ كانوا قد سافروا دون ان يأخذوا معهم خبزًا فحملوا كلام يسوع على ظاهره وانه اراد ان يبكتهم على قلة ايمانهم و يحرضهم على ان لا يقبلوا طعامًا من اخصامه . ولهذا ونبهم بقوله لهم: «لماذا تفكرون ان ليس معكم خبز او حتى الان لا تفهمون ولا تعقلون؟ أو حتى الان قلوبكم عمياء؟ لكم عيون افلا تبصرون؟ ولكم آذان أفلا تسمعون ولا تذكرون ؟ اذ كسرت الخمسة الارغفة للخمسة الآلاف كم قفة مملوءة كسرًا رفعتم ؟ قالوا له اثنتي عشرة . واذ كسرت السبعة الارغفة للاربعة الآلاف كم سلة رفعتم من الكسر؟ قالوا له سبعًا . فقال لهم فكيف حتى الان لا تعقلون؟ وكيف لا تفهمون اني لا من اجل الخبز قلت لكم احذروا من خمير الفريسيين والصدوقيين » عندئذ فهم التلاميذ ان المقصود بالخمير هنا ليس الخبز المادي بل الاغتياب والحسد الخبيث المتصف بهما انصار تلك الشيع . اذ كان يسوع يعلم حق العلم ان لا شيء يؤثر في عقول الشعب مثل الثلب وعدم الاكتراث بالدين . وكان يعزو الى هذا الروح الخبيث الذي كان يبثه اولئك المكرة في قلوب الشعب كل الشر الذي كان يُصنع ضده في كفرناحوم شرٌّ كاد ان يلحق بالرسل انفسهم

الفصل التاسع

انتهاء الكرازة في الجليل

اختلاء يسوع في نواحي قيصرية فيلبس — اعلان ايمان الكنيسة بفم بطرس — توقع الصليب — التجلي — ظهور يسوع لآخر مرة في كفر ناحوم

طالع متى ١٦ : ١٣ و١٨ : ٠٣٥ مرقس ٨ : ٢٧ و٩ : ٠٥٠ لوقا ٩ : ١٨ و٩ : ٥٠

§

اختلاء يسوع في نواحي قيصرية فيلبس

فاوصلت السفينة يسوع وتلاميذه الى شمالي البحيرة حيث نزلوا في اراضي فيلبس واول بلدة وجدوها هي بيت صيدا ابولياس. وهي مدينة قائمة على ضفتي الاردن. على الجهة اليمنى القرية القديمة وعلى اليسرى المدينة الحديثة. وحالما دخل يسوع قدموا اليه اعمى وسألوه بالحاح ان يبرئه بواسطة لمسه اياه. فعمد يسوع الى اجابة طلبهم رغبة في ان يظهر لتلاميذه ان قدرته لم تنقص عن ذي قبل. ولكن كي يتحاشى احتشاد الجموع وكثرة مطاليب الشفاء اخذ بيد الاعمى واخرجه خارج البلدة الى البرية وشرع في ابرائه

ان هذا الاعمى لم يأتِ الى يسوع من تلقاء ذاته بل كان قد حمله الجمهور على ذلك. ومن ثم ايمانه بقدرة يسوع كان خفيفاً جداً فاقتضى الحال ايقاظ ايمانه اولاً. وهذا ما يفسر لنا عدم حدوث هذه الاعجوبة دفعة واحدة بل بالتدريج حسب ازدياد الايمان في قلب الاعمى. فتفل يسوع في عينيه ثم وضع يديه عليه وسأله: «أيبصر شيئاً» فرفع الاعمى طرفه وقال «ابصر الناس كاشجار تمشي». ومن كلامه هذا يستدل انه لم يولد اعمى وإلا لما استطاع ان يشبّه الناس بالاشجار التي لم يكن رآها قبل. فهذا التحسين في نظره ضاعف فيه رغبة الحصول على الشفاء التام وعظمت ثقته بقدرة طبيبه النطاسي. فعاد يسوع ووضع يديه على عينيه وللوقت اشرق ضياء الايمان على قلبه وانفتحت عينا جسده ورأى الاشياء جلياً. فاوصاه يسوع قائلاً له: «اذهب الى بيتك واذا دخلت القرية فلا تقل لاحد شيئاً». وعلى هذا المنوال كانت آلت الحال بيسوع ان لا يطلب شيئاً تعويضاً عن عمله الخيري

سوى الصمت عن اشاعة اخباره

ولم يلبث يسوع طويلاً هناك بل استأنف المسير نحو الشمال طالباً مخبأ امينا يلجأ اليه. فصعد الاردن وعبر جسر بنات يعقوب وقطع شاطئ بحيرة الحولة الغربي متابعاً المسير بين حدائق من الدفلي والبطم حتى ادرك الامكنة التي منها تخرج ينابيع ذلك النهر المقدس تاركاً وراءه قيصرية قصبة ارض فيلبس دون ان يعرج عليها. ولم نرَ ان يسوع احب زيارة المدن العظيمة ما خلا اورشليم واريحا. ولا ريب ان نفسه الابية كانت تأنف من الفساد والذل والعبادة السائدة عادة في المدن الكبيرة. وعلى الاخص في قيصرية وهي بعلكاد القديمة المكرسة لعبادة الاله بان ابن المشتري اله الحقول والقطعان فانها كانت تحيي بآثارها القديمة تذكارات مكربة وفي الحاضر كانت تسود فيها الخلاعة الوثنية. ولهذا لم يعرج عليها المخلص بل اكتفى ان يجول في القرى المجاورة ويكرز ببشارة الانجيل. ويظهر ان جل قصده كان ان يبعد الرسل عن المخالطات المضرة ويحملهم على التمعن بعقائد الايمان قبل التبشير به رسمياً امام الشعوب. وقد اختار لتلك الغاية محلاً موافقاً بين الهضاب الكائنة في منحدر جبل حرمون. ولا غرو ان تكون المعيشة التي عاشوها هناك بالتأمل والاختلاء الروحي قد جعلتهم يدرسون و يفهمون يسوع وفضائله وسمو طبيعته. وكان يسوع يتتبع بفرح نجاحهم في هذا الدرس. ولما عرفهم كفوًا القى عليهم ذلك السؤال المهم الذي عليه يتوقف كل مستقبل الانسانية الديني

§

اعلان ايمان الكنيسة بفم بطرس

وقبل ان يلقي عليهم السؤال اختلى تحت اعين ابيه مصلياً لاجل من كان مزمعاً ان يمتحن ايمانهم. وكان مضطرب الجنان. ولا عجب فان الله سبحانه مع علمه الاكيد في المستقبل ينتظر قلقاً خروج الانسان من التجربة. وعند ما

اتمّ الصلاة واحاط به التلاميذ قال لهم : « من تقول الناس ان ابن البشر هو ؟ » فهذا السؤال الفجائي دون ادنى تمهيد يشفّ عن رغبة يسوع في سماع الجواب · فقالوا « قوم يقولون انه يوحنا المعمدان وآخرون انه ايليا وآخرون انه إرميا او واحد من الانبياء الاولين قد قام » · وعليه لم يكن الشعب يعرفه انه هو المسيح وان اقرّ به انه انسان خارق العادة نظرًا الى تميم النبوات في اقواله واعماله · فكتم يسوع احساساته ولم يظهر كدره من جهل الراي العام لشخصه الالهي دأب الرجال العظام الذين يعرفون ان يتلقوا بصدر واسع وطلاقة وجه اعظم ضربات المصائب العمياء وكأنهم يجدون في عالم ضمائرهم السامي ما يزيل عنهم العار الذي يلحق بهم على الارض · فيسوع كان يجد في اتحاده باللاهوت ما يجعله اعلى وارفع من البشر السخيفة ويخفف عنه وطأة نكران الجميل من قبل المحسن اليهم · وفضلاً عن ذلك لم تكن تلك سوى اقاويل الغير اما الرسل فلم يبدوا رأيهم بعدُ مع انهُ هو المعول عليه فان كان قاصرًا عن الحقيقة تكون الكنيسة باقية في حيز الامل وان كان وافيًا بالمراد تكون اضحت حقيقة وضعية · ولهذا صار من الضرورة ان يضطر يسوع تلاميذه على ابداء رأيهم بالنظر الى هذه النقطة المهمة

وعليه التفت يسوع الى تلاميذه وملامح الهيبة والوقار المقرونة بعذوبة الحنو تلوح على محياه وقال لهم : « وانتم من تقولون اني هو » · ووقف فيما بينهم وقفة اب وقور بين اولاده يستنظر منهم الحكم في دعواه ولا شك ان مبهم لحظه كان يخرق في ذلك الوقت اعاق قلوبهم ليرى ما فيها · فتهيأ الجواب حالاً لبطرس نظرًا لسرعة خاطره الطبيعية ونهض في الحال وتكلم عن الجميع حسب عادته ولم يشأ ان يترك الكلام لغيره في هذا الظرف العظيم الاهمية وهتف مرتجلاً : « انت المسيح ابن الله الحي » · ولعمري انه يخيل لنا عند سماع هذا الجواب الحي اننا نرى يمين سمعان بطرس ممدودة نحو المعلم ليعطي بحركته هذه

قوة لاعترافه العجيب بالوهية يسوع. وكان لكلامه هذا رنة استحسان وصدى تسليم مطلق في قلوب لفيف التلاميذ

فيا له من مشهد عظيم خطير اهتزت له عواطف ذلك المعلم الالهي طرباً وحبوراً اذ لفظت فيه الكنيسة صورة قانون ايمانها الاول. ومن الآن فصاعداً لا تحدد عقيدة وتعتبر حقيقة دينية الا اذا نطق بها سمعان بطرس. وقد استحق له هذه الامتياز ما اظهره من حرارة الايمان وخلوص المحبة وطوع الشهادة. ومن المحتمل ان كثيرين من الرسل كانوا يؤمنون و يحبون نظير بطرس ولكن خوفهم وقلة تحمسهم جعلهم يترددون عن الجواب اما بطرس فبسبب تكلمه قبل الجميع قد نال حق وشرف الاولية بين جميع اقرانه وهذه المزية ستبقى معه مدى الدهر. فله الحق ان يعلم و يتسلط على الكنيسة كلها كما سبق يسوع ووعده عندما دعاه لاول مرة وسماه الصخرة. والآن يوجه اليه يسوع كلامه وقلبه يطفح من الفرح قائلاً: « طوبى لك يا سمعان بن يونا فانه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا لكن ابي الذي في السماوات ». وهكذا في مستقبل الايام يلجأ بطرس الى الوحي الالهي ليعين تعاليم الكنيسة العمومية ويحدد عقائد الايمان الحق ومن كان الله الذي لا يغش ولا يُغَش دليله الوحيد ومصباح ايمانه فانه يكون لا محالة في أمنٍ من الانقياد الى الاميال النفسانية او الى الضلال. وها هو يرى من الآن تحقيق امانيه لانهُ مقابلةً لشهادته العلنية للمعلم يعلن المعلم رسمياً امام الجميع ما يريد ان ينيله من الجزاء فقال له: « وانا اقول لك انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سابني كنيستي وابواب الجحيم لن تقوى عليها ». اي ان يسوع بعد مغادرته هذا العالم يتعذر عليه ان يبقى رئيس الكنيسة المنظور وان استمر رئيسها الغير المنظور وعليه فلا بدَّ له من خليفة على الارض يسلم اليه مقاليد الحكم والسلطة. والحال ان يسوع اراد ان يسند الكنيسة الى ذلك الرسول الذي اختاره والى خلفائه القانونيين كما يُسند البنيان الى

اساسه· وبالنتيجة فان رسوخ ذلك الاثر العظيم اعني الكنيسة متوقف على رسوخ وثبات الصخرة الاساسية· وبناء على ما تقدم من أنكر وجود نظام المراتب الكهنوتية في الدين المسيحي الذي بموجبه سمعان بطرس وخلفاؤه هم روساء الكنيسة شرعاً فقد هدم بنفس الفعل ركن اركان رسم تدابير الخلاص الالهي وانكر ما يثبته هذا المعلم وخرب حكم الفرد واقام على خرابه حكم الافراد والامة

ولم يكتف يسوع باعطائه الى بطرس اولية منفعلة فقط بجعله اياه اساساً يحمل برج الكنيسة بل اراد ان يمنحه ايضاً اولية فاعلية بالنظر الى التسلط والنفوذ على كامل القطيع. فيكون اذن حاكماً واساساً معاً· ولهذا اردف يسوع الكلام بقوله له: «وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكلُّ ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السماوات وكلما حللته على الارض يكون محلولاً في السماوات»· يسلم المفتاح عادةً الى ابي العائلة والى صاحب البيت او حاكم المدينة وعليه فاذا كانت الكنيسة الفة بشرية فيكون بطرس رئيسها· واذا اعتبرناها مملكة فيكون بطرس ملكها· واذا دعوناها رعية فيكون بطرس الراعي يقبل من يشاء من الخراف ويطرد من يشاء يعطي حق الوطنية فيها ويحرم منه كيف اراد· يفتح لمن يشاء باب البيت او يغلقه حسب ارادته وهذا البيت انما هو الكنيسة على الارض وهذه الكنيسة ستصير السماء في الابدية

§

توقُّع الصليب

ثم ان يسوع مع كل سروره اوصى تلاميذه ان لا يقولوا لاحد انهُ هو يسوع المسيح· ولكي يخمد ثورة تحمسهم شرع يكلمهم عن الآخرة المفجعة التي كانت معدَّة له في اورشليم حيث كانوا مزمعين ان يذهبوا عن قريب· وهناك قال لهم ينبغي لابن البشر ان يتألم كثيراً ويُرذل من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ويقوم بعد ثلاثة ايام ولكن لا تيأسوا ولا تضطرب قلوبكم

متى رأيتم هذا كله يتم؟ لان انتصار الاعداء يكون وقتياً وسيخرج ابن البشر ظافرًا بالموت ويقوم من القبر ويوطد اركان مجده الابدي. فان خاف الرسل بعد هذا التطمين يكون بلا ريب ايمانهم ضعيفاً

وكان بطرس جالساً بالقرب من المعلم عند ما فاه هذا بتلك الكلمات المحزنة فحمله حبه على ان يأخذه على حدة كي يزجره على ذلك فقال له: «حاشى لك يارب لا يكون لك هذا». فان تعلق بطرس الزائد بمعلمه كان يأبى ان يصدق انه سيحدث له كل ذلك الشر وكان يقطع بعدم امكان صيرورته بحسب تقادير البشر غير ملتفت الى مقتضيات العدل الالهي الذي كان يتطلب كفارة غير متناهية. ولم ينتبه الى ما المع اليه السيد المسيح بقوله «ينبغي لابن البشر ان يتألم كثيرًا الخ». وعليه فمن قصد ان يلوي المخلص عن تكميل تضحية نفسه عن العالم يبرهن على الاقل انه لم يفهم شيئاً من سر الفداء وعمل عمل الثلاأب الذي كان يجربه في العدول عن افتداء البشرية حذرًا من احتمال العذابات. فالتفت يسوع نحو بطرس الذي كان عظَّم شانه وزجره. وكما انه من هنيهة رفع مقامه لاجل الهام الهي فينزله الآن بسبب مشورة بشرية اذ قال له: «اذهب خلفي ياشيطان فقد صرت لي شكاً لانك لا تفطن لما لله لكن لما للناس». وقد وبخه يسوع علناً لانه كان يرى وراءه لفيف التلاميذ يرددون الافكار والاعتراضات عينها. وبناء على ذلك رجع الى بيان الحقيقة التي كان بصددها قبل هذا التونيب واشار الى الجمهور ان يقتربوا اليه وحينئذ قال: «من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني» وعلى هذا النمط من اراد ان يتتلمذ للانجيل عليه ان ينبذ عنه ظهريًا روح اليهود اي محبة الذات ويحمل على عاتقه علامة الموت والكفر بافراح العالم والانقطاع عن الشهوات وخلع الانسان القديم حتى تضحية الحياة الطبيعية نفسها لو مست الحاجة لذلك

فلما سمع الجمع تلك التعاليم الصريحة التي لا تقبل التأويل صرخوا قائلين

يا للغرائب اما يسوع فلم يعبأ باحتجاجهم وظلّ يشجع السامعين على اقتحام ضحية اهواء النفس قائلاً : « لانّ من اراد ان يخلص نفسه يهلكها ومن اهلك نفسه من اجلي يجدها » . ولعمري من اراد ان يحفظ حياته حسب مبادىء هذا العالم فانه يقتسرها على المعيشة الطبيعية الصرفة بعيدةً عن النور الحقيقي واعمال الفضيلة وأمل الابدية و يفضل عملياً الخيرات الفانية على ما لا نهاية له . يتعلق بحبال من عنكبوت و يركض وراء الظل الهارب فما يشتهيه لايعطاه و يموت جوعاً . ولكن من ضحى حياته شهادةً للحق وللتعاليم الصادقة والاعمال المبرورة فانه يكون على ثقة من ان يجدها مجدةً مدى الابدية في خاتمة حياته . واندفع يسوع في كلامه قائلاً . « فانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ ام ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه » . لعمري ايّ شيء يوازي هذا الكنز الثمين والدرة اليتيمة ؟ فكما يمكننا ان نربحه في هذه الدنيا لا نملكه الاّ زماناً يسيراً ثم يغادرنا اما نصيب النفس فلا يُنزع منها ولا يتغير ابداً سرمداً . وعليه يزيد يسوع : « لان ابن البشر مزمع ان يأتي بمجد ابيه مع ملائكته وحينئذٍ يجازي كل احد بحسب اعماله . الحقّ اقول لكم ان قوماً من القائمين هنا لايذوقون الموت حتى يروا ابن البشر آتياً في ملكه »

§

التجلي

انّ في هذا الكلام الاخير تلميحاً الى الحادث العجيب المزمع ان يتم قريباً اعني به تجلي الرب يسوع . اذ بعد مضي ستة ايام اخذ يسوع بطرس ويعقوب و يوحنا وصعد بهم جبلاً عالياً ليصلي هناك . فالمحلات العالية تقرّبنا لله طبعاً والاختلاء يحملنا على الصلاة . وكان الرسل اقتداء بمثل معلمهم قد سلّموا نفوسهم للصلاة ولكن لم يلبثوا طويلاً حتى استولى عليهم ملاك النعس وثقلت عيونهم فناموا . أما يسوع فكان بالقرب منهم غائصاً في بحر التأملات واشغاف الحب

وكانت نفسه تتلألأ بالانوار السماوية حتى ضاء جسده كله كالشمس . فنفسه كانت تكتسب من اتحادها باللاهوت ضياءها اللامع الذي اخترق مسام جسده كما يخترق ضياء الشمس البلور الصافي فظهر لامعاً من فيضان نور النفس المتدفق عليه والمكتنفه من كل جهة . حتى ثيابه اضحت وقتئذٍ شفافة وكانت تلمع بيضاء كالثلج بنوع انه لا يستطيع قصار على الارض ان يبيّض مثلها . وعلى الخصوص كان وجه المتجلي يسطع بجمال ابهى من القمر لان الوجه هو مرآة النفس ومنها يسري الجمال اليه اولاً . وفي الحال نزل بعض من سكان العالم العلوي ليشاهدوا تجلي ابن البشر فكوّن الضياء السماوي المنبعث منهم مع النور المتدفق من يسوع غمامةً بيضاء اكتنفت نظير مظلة سماوية تلك المقابلة الفخيمة التي لم يرَها العالم الارضي الا مرة واحدة . وكان عن يمين يسوع و يساره موسى وايليا مستحضرا مجد اسرائيل و بطلا العهد العتيق يسجدان لسيدهما و يتأملان فيه تتميم اقوال الانبياء و يخاطبانه بما عسى ان يكون له في اورشليم . اما يسوع فكان ينظر الى الصليب بفرح جزيل و بلسان حاله يعلم موسى انها توجد ميتة اشرف واكثر تعزية للقلب من ميتة الانشغاف بقبلة حب الازلي وايليا انه توجد آخرة اجمل من ان يُخطف المرء الى السماء في مركبة نارية الا وهي ان يكون على عود الصليب كفارةً عن خطايا العالم وفي اليوم الثالث يقوم ليدخل الى الاخدار السماوية دخول الظافر الحقيقي

ولم يستفق التلاميذ الا عند قرب انتهاء تلك المفاوضة فرفعوا عيونهم ونظروا ذلك المشهد العجيب . فعرفوا المعلم تحت تلك الظواهر الغريبة اما موسى وايليا فقد عرفوهما من اشارات التقليد اليهودي ومن احاديثهما مع يسوع على مسمع منهم . فايقنوا ان الناموس العتيق اتى يخضع للانجيل و يشهد ان جميع الرموز الماضية قد تمت في الحاضر . فادهشهم ذلك المنظر و بُهتوا متعجبين وكانوا يودون ان لا ينقضي ذلك الوقت السعيد ولهذا عند ما لاحظوا انه اوشك ان ينقضي

هتف بطرس مرتعداً قائلاً ليسوع : « يا ربُّ حسن لنا ان نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظالٍ واحدة لك وواحدة لموسى وواحدة لايليا ». ولم يكن يدري ما يقول حسب ملاحظة القديسين مرقس ولوقا لما كان اعتراه من الرعب. وفيما هو يتكلم واذا بسحابة لامعة اكتنفت شاهدي العهد العتيق وارجعتهما الى حيث اتيا. و بقي يسوع وحده وسُمع في الوقت صوت من السحابة يقول فوق راس يسوع : « هذا هو ابني الحبيب فله اسمعوا ». فخاف الرسل من تراكم هذه الآيات وشعروا بحضور الرب فتعفرت وجوههم خوفاً ورهبةً . حينئذٍ دنا يسوع منهم ولمسهم قائلاً : « قوموا ولا تخافوا » فتفرسوا واذا بالمعلم وحده وقد عاد منظره الى ما كان عليه سابقاً. وفي اليوم التالي وهم نازلون من الجبل اوصاهم « الا يخبروا احداً بما رأوا الا متى قام ابن البشر من بين الاموات » فشغلت بالهم هذه الكلمة الاخيرة « متى قام ابن البشر من بين الاموات » وفكروا في موضوع جدال يسوع الاخير مع اخصامه فسألوه قائلين : « كيف يقول الكتبة والفريسيون ان ايليا ينبغي ان يأتي اولاً » فاجاب يسوع وقال لهم : « ان ايليا يأتي اولاً ويرد كل شيء و يجري عليه — لكني اقول لكم ان ايليا قد جاء ولكنهم لم يعرفوه بل صنعوا به كلما ارادوا هكذا ابن البشر ايضاً مزمع ان يتألم منهم ». حينئذ فهم التلاميذ ان يوحنا المعمدان انما هو ايليا المقول عنه في الانبياء وحزنوا لعلمهم ان المعلم لم يرجع عن قصد تسليم ذاته الى اعدائه وانه لا يطلب الوصول الى الظفر الا بطريق الآلام والاحتقار والموت

وظلوا نازلين من الجبل بين اسوار الاشجار الخضراء في المناقب الضيقة الى ان وصلوا الى الوادي حيث كان بقية الرسل ينتظرونهم بفروغ صبر. فدُهشوا عند ما نظروا رفقاءهم محاطين من جمع كثير بينهم بعض من الكتبة يباحثون التلاميذ ويحاولون تهييج الشعب وفقاً لمآربهم ولكن عند ما رأى الجمع يسوع مقبلاً انذهلوا وابتدروا وسلموا عليه باحترام. فعرف يسوع من اعين الجميع

وخصوصاً من ظواهر الاتضاع التي كانت تلوح على وجوه التلاميذ ان اخصامه انتهزوا فرصة غيابه ليمتحنوا الرسل وقد ظفروا بهم . فوجه كلامه الى الكتبة وقال لهم بحدة : « فيم تباحثونهم » فلم يجب هولاء بكلمة . ولكن الحوادث كانت تنطق من ذاتها وتكفي لان تضر ليس فقط بسمعة الرسل بل بعمل يسوع ايضاً . ماذا كان جرى ؟ عندئذٍ انبرى واحد من الجمع وهو بين آمل وآئس وقال بجهير الصوت : « قد اتيتك بابن لي فيه روح ابكم وحيثما اخذه يصرعه فيزبد و يصرف باسنانه و ييبس . وقد سألت تلاميذك ان يخرجوه فلم يقدروا » فهذا ما كان يسبب حركة الشعب والتأثير الحاصل من الفريقين من جرى وصول يسوع

وفيما كان الاب ينهي كلامه ظهرت على جبهة يسوع ملامح الكدر والكآبة وهتف قائلاً : « ايها الجيل الغير المؤمن الى متى اكون عندكم ؟ وحتى متى احتملكم ؟ » وكأنه اراد ان ينبذ عنه عاطفة الحزن فقال : « هلمَّ به اليَّ » فاتوهُ به وحالما رآه الولد صرعه الروحُ فسقط على الارض يتمرغ و يزبد . وربما حصلت له هذه النوبة بسبب التأثير العصبي من منظر يسوع او من حنق ابليس الذي عرف ما يكون من الامر . فوقف يسوع فوقه ثابت الجاش غير مبال بما جرى وسأل اباه « منذ كم من الزمان اصابه هذا — منذ صباه وكثيراً ما القاه في النار وفي المياه ليهلكه . لكن ان استطعت شيئاً فتحنن علينا واغثنا — ان استطعت انت ان تؤمن فكل شيء ممكن للمؤمن » أجل ان في حكم يسوع الايمان والقدرة هما متلاقيان نظراً لما يسببه الايمان من الاتحاد بين المؤمن و بين الله القادر على كل شيء . فدهش الاب من هذه الكلمة الاخيرة التي تحوّل وقوع العجيبة الى قدرة الايمان . وكان يود ان يؤمن لو استطاع كي يحصل على مرغو به . وفي الحال تحركت في قلبه الوالدي عاطفة الايمان وترجم عنها بدموعه و يديه وشفتيه وصاح « اني اؤمن يا ربُّ فاعن قلة

ايماني » معلناً بقوله هذا تواضعه وخوفه من عدم كفاءة ايمانه لنوال الاعجوبة . وبلمحة بصر اخذ الجمع يتهافتون و يتبادرون الى يسوع ليروا ماذا سيكون . فلكي يمنع ازدحام الشعب حوله وقف يسوع وبسلطانه القادر على كل شيء انتهر الروح النجس قائلاً : « ايها الروح الاصم الابكم انا آمرك اخرج منه ولا تعد اليه من بعد » وللوقت صرخ الروح النجس وخبطه في الارض وأرغى وأزبد دأب العدو المنكسر عند مغادرته موقف القتال منهزماً . وكانت النوبة اقوى منها فيما مضى حتى غشي على الصبي وصار كالميت وقال كثيرون « انه قد مات » غير ان يسوع اخذ بيده واقامه وارجعه الى ذاته حياً معافى فبهت الجميع متعجبين من عظمة الله

ولما انفرد يسوع مع تلاميذه الى البيت حيث كانوا نازلين سألوه على حدة : « لماذا لم نستطع نحن ان نخرجه فقال لقلة ايمانكم فاني الحق اقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة الخردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يعسر عليكم شيء . وهذا الجنس من (الارواح النجسة) لا يخرج الا بالصلاة والصوم » لعمري ان الصلاة والصوم هما السلاح الوحيد الذي يقلب قوات الجحيم

§

ظهور يسوع لآخر مرة في كفرناحوم

وفي اثناء تلك الاعمال والآيات الباهرة لم ينفك يسوع عن التأمل والهذيذ الدائم بضحية الفداء وهذا ما حمله على التوجه نحو كفرناحوم ليودّعها الوداع الاخير وفي الطريق كان يحدّث تلاميذه عن هذا الموضوع رغبة ان يخفض عجرفتهم الناتجة عن احتفاء الشعب بعلمهم — لان اخلاقهم كانت متطرفة نظير اخلاق صبيان ينتقلون سريعاً من اعظم الحزن والضعف الى اقوى الفرح والحماسة . فقال لهم : « أودعوا انتم هذه الكلمات في آذانكم » لانه ستأتي ساعة المحن والتجارب

يوم اذلال ابن البشر المحتوم فلا يعود يجد التلاميذ عضدًا لايمانهم الا هذه التذكارات اعني بها « ان ابن البشر مزمع ان يسلَّم الى ايدي الناس فيقتلوهُ وفي اليوم الثالث يقوم » فهذه الكلمات المقولة برصانة وتأكيد اخمدت فيهم جذوة الفرح واشعلت في قلوبهم جذوة الحزن فظلوا صامتين طول الطريق وهابوا ان يسألوه خوف التطويل في موضوع محزن كهذا

ولما دخلوا كفرناحوم كان الاستقبال على جانب عظيم من البرودة والعداء خلافًا للعادة. فايقن الرسل بانقضاء زمن الاحتفالات السابقة وحلول اجل المصائب والمحن. وللوقت دنا الذين يجبون الدرهمين الى بطرس وقالوا لهُ بحدة « اما يؤدي معلمكم الدرهمين ؟ — قال بلى » ودخل حالاً الى البيت حيث كان يسوع ليطلب القيمة وقبل ان يتكلم بطرس سبقه يسوع قائلاً « ما تظن ياسمعان ممن يأخذ ملوك الارض الخراج او الجزية؟ أمن بنيهم ام من الغرباء؟ — قال من الغرباء — فقال يسوع فالبنون اذن احرارٌ » والحق يقال ان الجباة كانوا يطلبون اما جزية الهيكل واما جزية المدنية او الراس وعلى الحالين كان يسوع حرًّا. فأما الاولى فهو حرٌّ منها لانه بصفة كونه ابن الله فهو ربُّ الهيكل والمرء لا يدفع الجزية عن بيته. واما الثانية فهو حرٌّ ايضًا منها بصفة كونه ملك الملوك وهو الاصيل بالملك وملوك الارض ليسوا الا وكلاءُ فيها والوكيل تبطل سلطته متى حضر الاصيل ومن ثمَّ لا حق لهم بطلب الجزية منه. ولكن حذرًا من اضطراره الى اثبات الوهيته بآية ظاهرة عدل عن المكابرة وقال لبطرس : « ولكن لئلا نشككهم امضِ الى البحر وألقِ الشصَّ فاول سمكة ترفعها افتح فاها فتجد استارًا فخذه وادِّ عني وعنك » وعلى هذا المنوال يدفع الجزية حذرًا من ان يشكك ضعفهم غير انهُ يدفعها بنوع الهي اي باعجوبة

ومما يستحق ان تقف عنده الخواطر وتحوم فوقه طيور البصائر انما هو كيف يسوع قد دفع الجزية عنه وعن التلميذ الذي كان قد وعده بالقاء اعباء

السلطة اليه . فكأنَّ بطرس خليفته على الارض قد اضحى شخصاً واحداً مع يسوع . فهذا الحادث قد اعاد جدالاً عنيفاً دار بين الرسل اثناء الطريق . وموضوعه البحث عمن كان الاعظم من الرسل الاثني عشر في ملكوت السماوات . زهوٌ صبيانيٌ يدلنا على سخافة افكار اولئك الجليليين البسطاء . ففاجأهم ابان الجدال وسألهم « فيمَ كنتم تتباحثون في الطريق » فصمتوا اولاً واحجموا عن الجواب خجلين ولكن لعلمهم ان يسوع قد عرف افكارهم غير انه يريد ان يحملهم على الاقرار بها امامه عزموا على الاستفسار منه رأساً والقطع في موضوع جدالهم فقالوا له : « من الاعظم في ملكوت السماوات » وقد حرَّفوا في سؤالهم موضوع جدالهم السابق اذ جرَّدوه عن الشخصيات وجعلوه عمومياً محصوراً في من يكون الاعظم من الان فصاعداً في الأُلفة المزمع ان يؤسسها المخلص على الارض . فلكي يجعلهم يفهمون الجواب جيداً دعا يسوع صبياً وقبَّله بحنوٍ واقامه في وسطهم وقال : « الحقَّ اقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السماوات » لعمري قبل ان يعرفوا من يكون الاعظم في ملكوت السماوات من الضرورة ان يتأكدوا الدخول اليه والحال ان الابواب المؤدية اليه انما هي البرارة والاستقامة والكفر بالذات وسلامة السريرة . ولكن الطمع ورغبة التسلط والارتفاع كل ذلك يبعد عنه ومن ثمَّ من اراد ان يقف على حقيقة اساس العظمة بين الانفس فعليه بهذا المبدا الصحيح « من وضع نفسه مثل هذا الصبي فذاك هو العظيم في ملكوت السماوات . ان اراد احد ان يكون الاول فليكن اخر الكل وخادماً للكل » فالتواضع اذن وقهر اهواء النفس والمحبة هي نظير درجات يرتقي بها الانسان سلم التقدم في ملكوت السماوات وعلى قدر التواضع يكون الارتفاع

على انه يوجد في الكنيسة ارتفاع آخر وهذا لا يتعلق بالاستحقاق الشخصي بل هو هبة مجانية يعطيها الله من يشاء الا وهو الكهنوت المنوط به مباشرة خدمة

الانفس وهذه الوظيفة كما قلنا حق خصيص اعطاوه بالله وحده. فمن تقلدها يسود على بقية الناس لكن سيادته تكون مستعارة وسيادة المبشر والاسقف والكاهن ليست سوى سيادة المعلم نفسه الذي اختارهم لذلك. وعليه يسترسل يسوع في الكلام الى هذا قائلاً: «من قبل واحداً من هولاء الصبيان باسمي فاياي يقبل ومن قبلني فليس قابلاً لي انا بل للذي ارسلني» اي انه لا يوجد حصريًا في الكنيسة سوى كهنوت واحد وهو كهنوت المسيح والمبشرون ليسوا سوى خدّمة ذلك الكهنوت العظيم. و بالنتيجة فهو يكون الاول والثاني والثالث في ملكوت السماوات ومعاونوه لا يتقدمون فيه الا على قدر اتضاعهم ونبذ ما يتعلق بشخصياتهم ليظهر هو فيهم بقوة لاهوته. ذلك هو ملخص التعليم المسيحي بالنظر الى الاولية في الملكوت. الله هو كل شيء في خدمته وليس الانسان شيئًا الا بالله. فلما سمع الرسل تلك التعاليم السامية فقهوا انهم على ضلال مبين في افكارهم البشرية وعزموا ان يقروا بغلطة ارتكبوها حديثًا من هذا القبيل بسبب تعصبهم الاعمى. فتقدم يوحنا وقال: «يا معلم انّا رأينا واحداً لا يتبعنا يخرج الشياطين باسمك فمنعناه — فقال يسوع لا تمنعوه لانه ليس احد يصنع قوة باسمي ويقدر للحال ان يقول عليّ سوءًا» فمن كان يخرج الشياطين لا يخلو ان يكون إما رسولاً قد قبل وكالة التبشير بالانجيل رسميًا من المعلم أو ممن لمست قلوبهم النعمة فرفعتهم بالايمان الى الحياة الفائقة الطبيعة وعلى الحالين كان يلزم عدم معارضته في مباشرة خدمته و بالاحرى كان يقتضي اظهار الحب له ومعاضدته. فمن منعه يجرح احساساته و يشككه وعليه يقول المخلص: «ومن شكك احد هولاء الصغار المؤمنين بي فخيرٌ له لو طوّق عنقه بحجر الرحى وأُلقي في البحر»

اجل لا اقبح واسوء الطالع لا شيء اكثر شيوعاً من الحسد الذي يسقي الاعمال سماً زعافاً و يوقف حركتها و يقصر امتدادها ومن الغيرة العمياء التي تهدم اركان الحمية ولهذا يهتف يسوع قائلاً: «الويل للعالم من الشكوك — فانها

لا بد ان تقع الشكوك ولكن الويل لذلك الانسان الذي تقع الشكوك عن يده» ولاريب ان افعل واسطة لمنع سوء استعمال الحرية البشرية انما هو استئصال الانسان عن وجه البسيطة لانه اذا صنعت الحكمة الازلية ذلك فانها تضطر بحكم الضرورة الى هدم ملحمة يديها واستئصال اجمل مخلوقاتها اذ متى لم يعد الانسان حرًّا يبطل في الوقت نفسه ان يكون انسانًا وفعل الله الذي فيه يحرم الانسان من استعمال حريته للخير او للشر فذلك الفعل نفسه يحرم ايضًا الانسان من مزية الانسانية. غير ان احكام العناية قد فضلت ان يبقى في الكون انفس تختار وتريد الشر لها ولغيرها فقد قال المعلم الالهي. «انها لا بد ان تقع الشكوك» ومن ثمَّ بما انه لا شيء يضطرنا لارتكاب متن الغواية وعمل الشر اذ نبقى احرارًا فنستمرّ مسئولين امام الله عما نفعله من الاثم ونختاره من الجرائم في الوقت الذي يرشدنا الصواب الى الخير. وبناءً على ذلك كل مرة خالج قلبنا فكر اعطاء الشك للانفس المستقيمة البسيطة علينا بقطعه حالاً من فؤادنا وطرده بعيدًا عنا ان كان ذلك الفكر من داخل او من وساوس الشيطان. وعليه يزيد يسوع قائلاً: «ان شككتك يدك او رجلك فاقطعها وان عينك فاقلعها فخير لك ان تدخل الحياة وانت اقطع او اعرج او اعور من ان يكون لك يدان ورجلان وعينان وتذهب الى جهنم الى نار لا تطفأ حيث لا يموت دودهم ولا تطفأ النار وحيث كلّ واحد يملح بالنار وكل ذبيحة تملح بالملح». ولعمري ان هذا التصور اي تملح النفس بالنار في المواقد الابدية لتصور ترتعد له الفرائص ويجمد عند التأمل به الدم في العروق. وتحذرًا من ذلك يردف يسوع كلامه بقوله: «الملح جيد ولكن اذا صار الملح بلا ملوحة فبماذا تصلحونه؟ فليكن فيكم ملح الحكمة وليسالم بعضكم بعضًا. واحذروا ان تحتقروا احد هولاء الصغار فاني اقول لكم ان ملائكتهم في السموات كل حين يعاينون وجه ابي الذي في السموات» ولا يناضل فقط عن هولاء الصغار الملائكة المكلفون من الله بالعناية بهم بل

ايضاً ابن البشر الذي نزل من السماء ليخلص كل الذين كانوا هالكين ولهذا نسمعه يتهدد بصواعق غضبه الذئاب الخاطفة لخرافه · ولا يوازي حنقه وغضبه عليهم سوى حبه لرعيته اذ قال: « ماذا تظنون اذا كان احد له مئة خروف فضلّ واحد منها أفلا يترك التسعة والتسعين في الجبال و يمضي في طلب الضال؟ واذا وجده فالحق اقول لكم انه يفرح به اكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل» و يعرف الابن حق المعرفة ارادة الآب وهي ان لا يهلك احد من هؤلاء الصغار الذين تتلمذوا حديثاً للانجيل فانهم يستحقون الاكرام رغماً عن سذاجتهم لانهم قد وسموا باسمه ومزمعون ان يقتسموا مجده

ومن المحتمل ان يكون التلاميذ في بحر الجدال المومإ اليه قد جرحوا احساسات بعضهم ببعض كلمات لاذعة فتعكر صفو كاس المودّة بينهم بسبب ذلك ولهذا يقول يسوع « اذا اخطأ اليك اخوك فاذهب وعاتبه بينك و بينه على انفراد · فان سمع لك فقد ربحت اخاك » · لا ريب ان هذه المعاملة التي يعلمنا اياها المخلص من شأنها ان تحفظ روح الاخاء والمعاضدة العائلية وتحمي الصيت من الانثلام وتمنع انتشار الشك فيلزمنا اتباعها · ولو شاءت رغبة الاخذ بالثأر الطبيعية تعويضاً علينا والشرف الشخصي ان يبتدي من اساء الينا بطلب المغفرة والحق الذي لنا عليه العدل في الوفاء · فمع ذلك ان الاجر الذي نكتسبه بحفظنا وصية السيد المسيح يضاهي لا شك ضحية اميالنا · وهل يُحسب من الامور الصغيرة هداية نعجة ضالة قد نزل ابن الله ليفتش عنها و يفتديها؟ كلاّ بل انما بذلك يشترك الانسان بعمل الفداء الخطير واهتداء اخينا الى الحياة مما يزيد حياتنا قيمةً · « وان لم يسمع لك فخذ معك واحداً او اثنين لكي تقوم على فم شاهدين او ثلاثة كل كلمة » · فان وجود شاهدين لا يجعل الامر عمومياً ولربما وجودهما يساعد على اقناعه واهتدائه « فان ابى ان يسمع لهم فقل للبيعة · وان لم يسمع من البيعة فليكن عندك كوثني وعشار » · من المقرر ان الذي

لا يرعوي لارشادات ربّ العائلة لا يستحق ان يعدّ عضواً منها بل من الضرورة ان يُقطع منها كما يُقطع العضو المنتن من الجسم ويحسب من البقية كوثني لم يعرف الحقيقة قط او كعشار مجدها اختيارياً. وحق الحرمان من شركة ابناء الكنيسة هو سلاح البيعة الدفاعي. وقد قبل بطرس هذه السلطة من فم المخلص عندما اعلن ايمانه على طريق قيصرية ويقبله الآن كل فرد من الرسل على حدة بهذه الكلمات «الحق اقول لكم انَّ كل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ما حللتموه على الارض يكون محلولاً في السماء». انَّ من مقتضيات كل الفة منظمة ان يكون لها سلطان على نبذ كل عضو معتل من اعضائها لئلا يسري الداء الى كامل الجسم فتنحل بحكم الضرورة وتبيد مع شرائعها. ولكن يطلب يسوع ان لاتبرز كنيستهُ الحكم الا بعد الفحص المدقق تاركة الى الله حتم قبوله اذا كان عادلاً ونبذه اذ كان مبنياً على ضلال او مآرب باطلة. وعليه زاد قائلاً: «اذا اتفق اثنان منكم على الارض في كل شيء يطلبانه فانه يكون لهما من قبل ابي الذي في السماوات

حينئذٍ دنا اليه بطرس وسأله كم مرة يخطأ اليَّ اخي فاغفر له اذا ارتدَّ اليَّ تائباً «أالى سبع مرات» وظنَّ انه غالى بمطاليب وصية المحبة وقد فاته انهُ مهما بالغ الاخ بالمغفرة لاخيه فانه يحصل على اضعاف ذلك نحو نفسه من قبل الله ومن يغفر يُغفر له ومن ثم يلزم ان نضع قياساً لرفقنا بالقريب سوى ضعفنا الشخصي. وفضلاً عن ذلك أليس الصفح عند الندم من لوازم المحبة الحقيقية وعليه اجاب يسوع: «لا اقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين مرةً سبع مراتٍ». اي بلا قياس والى ما لا نهاية لهُ واورد يسوع المثل الآتي برهاناً على مقاله

«لذلك يشبه ملكوت السماوات رجلاً ملكاً اراد ان يحاسب عبيده. فلما بدأ بمحاسبتهم أُحضر اليه واحد عليه عشرة آلاف وزنة. واذ لم يكن له ما يوفي

أمر سيده ان يباع هو وامرأته وبنوه وكل ماله ويوفى عنه. فخرَّ ذلك العبد ساجداً له قائلاً تمهل عليَّ فاوفيك كلَّ مالك. فرقَّ سيد ذلك العبد واطلقه وترك له الدين » الملك هو الله ونحن العبيد. وكم مرة دعانا الله سبحانه لنجري حساباً عن اعمالنا ونعرف مسكنتنا قبل حلول يوم الحشر. فصراخ الضمير الذي تُسمعنا اياه النعمة والارشادات المحركة وضربات النوازل وانذارات الموت كل ذلك وسائط يتخذها الباري تعالى بمثابة منبهات قوية توقظ الانسان من غفلته ليعطي حساباً عن حياته. اما في تصريح المخلص بالعشرة الآف وزنة دلالة على كثرة نواقص الانسان بالنظر الى احكام الله العادلة. ولمحة بصر على سجلات حياتنا كانت كافية لوجدان النقص في ميزانية اعمالنا ولان ذلك العبد التعيس كان يشعر بشقاء حاله لم يحضر من تلقاء ذاته امام سيده بل اضطر هذا لاحضاره جبراً وبدون ادنى منازعة وقف ذلك العبد البطال عند الاعتراف باسرافه متعجباً كيف حصل له ذلك. والحال ليس ذلك بالامر الغريب اذ كل يوم يضيف الخاطىء ذنوباً فوق ذنوبه فتسجل عليه في كتاب الحياة بايدي الملائكة دون ان يعلم بذلك العلم الصريح الى ان تأتي ساعة الحساب المدقق. ويا لها من ساعة اندهاش وكربة ويأس. غير ان سيد ذلك العبد كان رؤوفاً وقد عرف العبد ذلك فيه فبعد ان أمر ان يباع هو وكل ما له حسب ما يقتضيه العدل تحنن على مسكنة العبد ورقَّ قلبه واطلقه. وان كان قد احسن ذلك العبد باقراره حالاً بالدين فانه قد اخطأ لا محالة باتكاله الفارغ على امل الوفاء. وهذا دأب كل الذين أُوقروا ديناً. غير ان الملك قد ترك له الدين كله ليبين لنا ان الله لا يطلب من الخاطىء تعباً عظيماً ليعوض عن آثامه بل اسف باطني على ارتكاب الجرائم يكفي ليوقف ضربات عدله ويحولها عن رأسه. وليس فقط يعطينا الله وقتاً للندامة بل يترك لنا كل ما له علينا من الدين. « وبعد ما خرج ذلك العبد وجد عبداً من رفقائه له عليه مئة

دينار » فما هذه القيمة بالنسبة الى عشرة آلاف وزنة ؟ فانها لا تذكر . ولكن هل الذنوب التي نرفض احياناً ان نغفرها لاخواننا هي اعظم بالنسبة الى التي نطلب السماح منها من قبل الله ؟ كلاً . غير اننا ننسى ان عين من ترك لنا ذنوبنا ترافقنا وتلاحظ جميع حركاتنا . ولو فطن العبد المشار اليه بالمثل ان سيده واقف له المرصاد وعلم ما يصنعه مع رفيقه لكان ترفق بحاله اكثر . ولم يكن « امسكه واخذ يخنقه قائلاً اوفني ما لي عليك » . فهذه صورة تمثل لنا على احسن منوال المسيحي الذي يتطلب تعويضاً مذلاً من قريبه وقتما يكون هو مغموراً بمراحم ربه . « فخر ذلك العبد على قدميه وسأله قائلاً تمهل عليّ فاوفيك كل مالك . فأبى ومضى وطرحه في السجن حتى يوفي الدين » . ولما استعمل صدفةً هذا العبد نفس الكلام الذي اورده دائنه في سؤاله لم يجده نفعاً قدام هذا الدائن القاسي فها ان العدل يرجع فيأخذ مجراه ويمحو كما كانت قد قررته الرحمة . « فرأى رفقاؤه ما كان فحزنوا جداً وجاؤا فاعلموا سيدهم بكل ما كان » . ولو لم يكن الله عالماً بكل شيء لقدرنا ان الملائكة والقديسين ينبهونه احياناً الى مثل هذه الاعمال التي تنفر منها القلوب . « حينئذٍ دعاه سيده وقال له : ايها العبد الشرير كل ما كان لي عليك تركته لك لانك سألتني . أفما كان ينبغي لك ان ترحم رفيقك كما رحمتك انا » . فيا له من تنازل عميق فان السيد ينزل ذاته في المقابلة مع عبده وكان رؤوفاً مع انه ليس بمديون لاحد . واما ذلك العبد الشرير مع مسكنته ودينه لسيده فكان قاسياً بهذا المقدار . والتفاوت الظاهر في هذا المقابلة يفسر لنا كيف قد عوَّل السيد على استعمال عصا العدل مع عبد بعد الرأفة اذ دفعه الى المعذبين حتى يوفي جميع ما له عليه . « وهكذا (يزيد الخلاص) ابي السماوي يصنع بكم ان لم تغفروا من قلوبكم كل واحد لاخيه »

الفصل العاشر

مناقشة في اورشليم ابان عيد المظال

عزم يسوع على الذهاب الى اورشليم لاجل مناقشة اخصامه — ظهوره الفجاءي في عيد المظال — تصريح علني — المرأة الزانية — المولود اعمى — الراعي الصالح

لوقا ٩ : ٥١ — ٥٢ و١٠ : ١٣ متى ٨ : ١٩ — ٢٢ و٦ : ٢٠ — ٢٤ يوحنا ٧ : ١١ و١٠ : ٢١

§

عزم يسوع على الذهاب الى اورشليم لاجل مناقشة اخصامه

وكان قد اقترب عيد المظال اي ١٥ تيسري الموافق لاواخر ايلول وهو فصل قطاف العنب وختام اهم حاصلات السنة. وكان الشعب يكرم بفرح عظيم هذا العيد مظهرًا لله عواطف شكره على ما اولاه اياه من اثمار الارض بواسطة رتب رمزية تذكره ايام تيه امرائيل في البرية. وكان الشعب ينقطعون وقتئذ عن كل عمل مدة ثمانية ايام متوالية و يتركون البيوت ليسكنوا تحت المظال او الخيم المصنوعة من اغصان الاشجار المورقة والقائمة على السطوح او في المحلات العمومية او على الاسوار. وكان هرق الماء صباحًا في الهيكل يشير الى انفجار الماء من الصخرة بضربة عصا موسى. واشعال المشكائين عند المساء كان رمزًا الى الغمامة المضيئة التي اقتادت اقدام الشعب في صحارى البرية المرملة. وضحايا الشكر كانت تترجم اخيرًا عن اعتراف الشعب بنعمة الله. وكان الشعب

يجتمع بكثرة للاحتفال بهذا العيد نظرًا لتفرغ الفلاحين في ذلك الحين - وكل من اهمل الحضور في العيدين العظيمين السابقين كان يغتنم هذه الفرصة للقيام بفروض العيد

فظهر الى الاخوة ان الفرصة كانت في غاية المناسبة ليسوع حتى يختتم فيها سياق المناقشات مع اخصامه ببرهانات قاطعة تفحم العدو وتضع حدًا للجدال وذلك في وسط العاصمة حيث مركز الخصم الرسمي · فاتى اليه اخوته وقالوا له: « تحوّل من ههنا واذهب الى اليهودية ليرى تلاميذك ايضًا اعمالك التي تصنعها · فانه ليس احد يصنع شيئًا في الخفية وهو يطلب ان يكون علانيةً · ان كنت تصنع هذه فاظهر نفسك للعالم · » والحق يقال ان نقطة الجليل لضيقة ولا تكفي لاشهار عمل من يقول انه المسيح فقال لهم يسوع « ان وقتي لم يحضر بعد واما وقتكم فانه عتيد في كل حين · » والفرق الكائن بين الرسل وبينه ظاهر فهو صار طائر الصيت يعرفه الخاص والعام وسيكون موضوع الشقاق بين الجمهور اما هم فزوار مجهولون ولهذا زاد يسوع قائلاً : « لا يقدر العالم ان يبغضكم اما انا فيبغضني لاني اشهد عليه بان اعماله شريرة · اصعدوا انتم الى العيد واما انا فلست اصعد الى هذا العيد لان وقتي لم يتمّ بعد · » ولم يقل يسوع انه لا يصعد البتة الى العيد بل لا يصعد مع اخوته · وقد تعمد الابهام في كلامه قصد ان لا يصل في اوائل العيد لئلا يجد اخصامه الوقت الكافي لكيد المكايد عليه · وهذا السبب نفسه جعله يخفي وقت صعوده عن خاصته ايضًا

فصعد اذن اخوته وحدهم اما هو فبقي في كفرناحوم · ولم يثبت وجهه لينطلق الى اورشليم مع تلاميذه كما قال القديس لوقا الا عندما قدّر وصول جميع الزوار اليها · — لا يقدم المرء اختيارًا على الموت الا بعد ان يكون قد كبح وساوس الخوف الطبيعي وانتصاره الادبي على ذاته يظهر بثبات الجأش

الخارجي الذي من شأنه ان يسطو على اعتبار كل ناظر اليه ويغتصب حتى احترام واهابة الجلادين انفسهم. وهو على ما كان عليه من سمات الجلال قد نفض الغبار عن رجليه والتفت مودعاً بلحظة تلك الشطوط التي فيها قضى بعض أويقات سعيدة ومن هناك حام طائر نظره على مدن الجليل الناكرة الجميل والجاحدة المعروف وتنهد الصعداء وقال: «الويل لكِ يا كورزين الويل لكِ يا بيت صيدا. لانه لو صُنع في صور وصيدا ما صُنع فيكما من القوات لتابتا من قديم جالستين في المسوح والرماد. لكن صور وصيدا ستكونان اخفَّ حالة منكما في يوم الدين.» ثم حانت منه التفاتة غضب نحو بلدته كفر ناحوم — فان جرح الحبيب يؤلم اكثر من جرح الغريب. ووجه اليها خطابه مودعاً اياها الوداع الاخير: «وانتِ يا كفر ناحوم لو ارتفعتِ الى السماء فانه سيهبط بكِ الى الجحيم.» من تدابير العناية الصمدانية ان تدَّخر الخراب الهائل الى الشعوب الذين حصروا همهم في حشد الاموال المادية وجعلوا سعادتهم في رغد المعيشة وعليه يستأنف الكلام قائلاً: «لو كانت الآيات التي صنعت ضمن اسوارك صنعت في سدوم لثبتت تلك المدينة الشقية. اقول لكِ ان سدوم في ذلك اليوم تكون اخفَّ حالةً منكِ.»

وشد السير مجدّاً نحو اورشليم مع تلاميذه رغبة ان يصل اليها دون ان يعرفه احد في الطريق ولهذا بدلاً من ان يسلك طريق بيرية التي كانت تسير فيها القوافل (ولذلك كانت اكثر امناً ولكنها اطول مجالاً) فضل ان يعبر في طريق السامرة الوعرة. وكلف يسوع بعضاً من الرسل وارسلهم امام وجهه ليعدوا له محلاً في الطريق. فلم يقبله عندهم اهل اول قرية وصلوا اليها بل طلبوا من الرسل ان يتحولوا عنهم. فشقَّ الامر على الرسل وتذكروا كيف ان سكان الجليل واليهودية كانوا يحتفون بالمعلم والآن ترفض قرية حقيرة من السامرة ضيافته وتغلق ابوابها في وجوههم فتأثروا للغاية ولما رأى ذلك تلميذه يعقوب ويوحنا قالا له: «يا ربُّ اتريد

ان نطلب ان تنزل نار من السماء وتأكلهم ‹» وكان هذا الطلب خليقاً بابني الرعد كما كان قد لقبهما المخلص ٠ اما يسوع فالتفت اليهما وانتهرهما قائلاً : لستما تعلمان من اى روح انتما ٠ فان ابن البشر لم يأتِ ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها ٠» وبالحقيقة ان طلب انتقام مثل هذا كان جديراً بالعهد العتيق ومن اراد ان يراه مستعملاً في العصر المسيحي فانه يجهل روح محبة هذا العهد الجديد ويغلط في الحساب

وتجاوزها يسوع الى قرية اكثر ضيافة منها ٠ وفيما هم سائرون تقدم واحد من الكتبة وقال له : « أتبعك الى حيث تمضي يا رب » و بدون ان يجيبه لا سلباً ولا ايجاباً حرضه ان يرجع الى نفسه ويفحص دعوته لئلا ينخدع فان كان قاصداً برغبة الانتظام في سلك الرسل الشرف والاعتبار ورغد العيش فيكون قد اخطأ سهمه المرمى لان من صار رسولاً عليه ان يتخذ خاصة الزهد بالدنيا شعاراً وتضحية اهواء النفس ديدناً ٠ وعليه قال له يسوع « انَّ للثعالب اوجرة ولطيور السماء اوكاراً واما ابن البشر فليس له موضع يُسند اليه راسه ٠» فهذا الجواب الصادر عن قلب حزين يشير الى ما لاقاه يسوع من رفض الضيافة ويلمح الى ما عسى ان يصادفه فعلة التبشير من الاهانات وضيق العيش ٠ ولم يذكر لنا الانجيل شيئاً عن نتيجة طلب ذلك الرجل وهل تابع عزمه ام عدل عنه غب استماعه جواب المخلص

واتى آخر وطلب الدخول في عدد المبشرين ٠ فلهذا قال يسوع « اتبعني » وربما كان هذا يظهر ثباتاً اكثر من ذلك ٠ غير ان مشاكل العيلة كانت تمسكه الى حين عن تتميم رغبة قلبه — ولا عجب اذا كان لا يتسلق اعالي مذبح الاعمال الخطيرة سوى من كان حراً وربا مطلقاً على قلبه — فقال ليسوع : « يا ربّ ائذن لي ان امضي اولاً وادفن ابي » ويؤخذ من كلامه ان اباه لم يمت بعد بل كان شيخاً هرماً وقد قربت منيته وهو يطلب ان يبقى مع ابيه كي يغمض له

عينيه — اجاب يسوع « دعِ الموتى يدفنون موتاهم وانت فامضِ وبشر بملكوت الله » لان من حاول ان يؤجل تضحية ذاته فني الغالب لا يضعها ابدًا في العمل ومن ثمَّ يلزم تلبية دعوة يسوع عاجلاً لانه يمرُّ ولا يرجع. وان عبادة الله وتأسيس الكنيسة وخلاص الانفس لافضل من دفن الموتى من الاهل والاقارب ولا تستطيع الموتى ان تحول دون الوصول الى تتميم رغائب من قبلوا وظيفة زرع الحياة.

وجاء آخر بحماسة الاول ولكنه طلب فرصة نظير الثاني حتى يذهب اولاً ويودع اهل بيته ثم يعود مسرعاً. ولهذا قال يسوع ايضاً: « ليس احد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يكون اهلاً لملكوت الله » فمن الاكيد انهُ اذا نظر الحارث الى الوراء ابَّان الحراثة يعوجُّ التلم فيضطر الى التأخير ومراجعة العمل وهكذا من اراد ان يدخل في بنيان ملكوت السماء ويبقى قلبه معلقاً بحطام الدنيا فانه يؤخر عمل البنيان عوض ان ينجحه. ومن خلال تلك الحوادث علم التلاميذ شرف وظيفتهم. واذا بهم اوشكوا ان يصلوا الى المدينة المقدسة فاستعد يسوع للدخول اليها

§

ظهور يسوع فجاءةً في عيد المظال — وتصريحه العلني بكونه من الله

كانت اورشليم في تلك الآونة مجمعاً للزوار الاتقياء. وكان الجميع يتشوقون الى مستقبل اسعد ويتوقون بمجامع قلوبهم الى انبلاج صبح ذلك العصر البهج ويتبادلون تلك الرغائب الحارة في وسط هاتيك الرموز التي تذكرهم بعناية الله باجدادهم في البرية وهم يرونها في الهيكل مرأى العين وبين تلك الاناشيد الداودية وهم يدورون حاملين السعف المقدسة. وابان اجتماعاتهم العائلية وقت الأكل. فذكر بعض من كانوا قد عاينوا اعماله وسمعوا اقواله اسم يسوع على مسامع الجموع الحاضرة فحدثت بينهم مهامسة كثيرة في شأنه. فالاصدقاء

كانوا يأتون باسمه متحمسين له وبعكس ذلك الاخصام واما الغرباء فكانوا يطلبون ان يروه «فبعضهم يقولون انه صالح. وآخرون يقولون كلاً بل هو يضلّ الشعب» وبين هذين الحزبين المتطرفين كان يوجد حزب المترددين الذين لم يجسروا ان يقطعوا بالمسألة

وعند انتصاف العيد ظهر يسوع بغتة في الهيكل واخذ يعلم الجمع علانية. فبهت اليهود من سمو تعليمه كما دُهش اهل الناصرة من قبل. وكانوا يتعجبون قائلين: «كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم» لانهم كانوا يعرفون حالته الفقرية والشغل الذي استغرق زهرة شبابه وكانوا يتساءلون كيف انه بدون ان يكون تلميذاً قد صار معلماً ماهراً. فاجابهم يسوع: «انّ تعليمي ليس هو لي بل للذي ارسلني. ان شاء احد ان يصنع مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله ام انا اتكلم من عندي». ان حسن الطوية يسهل الفهم كما ان شر السريرة يثقل الذهن وينشر حول العقل غيوماً تصعد من القلب فتحجب عنه النور. واذا صح انه يلزم معرفة الاشياء البشرية اولاً لاجل التعلق بها وحبها فمن الضرورة حب الاشياء الالهية اولاً لاجل معرفتها وسبيل الحق فيها انما هو المحبة. وبناء على ذلك لا يطلب من اليهود للوصول الى الانجيل سوى الميل الى الخير. ويوجد برهان آخر لاثبات كون تعليم يسوع هو من الله: «انّ من يتكلم من عنده يقول السيد المسيح انما يطلب مجد نفسه فاما الذي يطلب مجد الذي ارسله فهو صادق ولا جور عنده». وعليه اذا ثبت كما هو الواقع ان يسوع لا يطلب مجده بل مجد ابيه السماوي فكلامه اذن يكون من ابيه وقد اتى لاجله وبالنتيجة فهو رسوله وكلامه انما هو كلام من ارسله وليست غاية عمله ان يضل الشعب بل ان يرشده اليه تعالى. ولا يصنع مثل ذلك رؤساء احزاب الدين عند اليهود بل يقضون معظم حياتهم في البحث عن الوسائل الجالبة لهم الفخر ولا يلوون عن ارتكاب الجرائم اذ كانت توصلهم الى هذه الغاية. وعليه يؤنبهم يسوع قائلاً:

«اليس موسى اعطاكم الناموس ؟ وما احد منكم يعمل الناموس.» لان الناموس يحرّم القتل وكان من يخاطبهم يسوع قد اضمروا ليس فقط ان يضطروه الى الصمت بل ان يقتلوه. ولهذا يصيح بهم قائلاً: «لماذا تطلبون قتلي ؟— فقال الجمع ان بك شيطاناً من يطلب قتلك ؟» ويحتمل ان الذين تكلموا هكذا كانوا يجهلون مقاصد الآخرين. والمع يسوع في جوابه الى ما كان قد صنعه في ظهوره الاخير في اورشليم والى التهديدات التي سمعها عندما ابرأ المخلع ضاربا صفحاً عن اهانة الجمع له فقال: «لقد عملت عملاً واحداً فعجبتم باجمعكم. انّ موسى اعطاكم الختان لا أنه من موسى بل من الآباء فتختنون الانسان في السبت. فان كان الانسان يختتن في السبت لئلا تُنقض شريعة موسى أفتسخطون عليّ لاني ابرأت الانسان كله في السبت ؟ لا تحكموا بحسب الظاهر لكن احكموا حكماً عادلاً.» اعني لا يلزم الحكم على الاعمال بباصرة الجسد بل بباصرة العقل ومن صنع خلاف ذلك يكون مثَلهُ مثل من يضع حرف الشريعة موضع روحها وينبذ هذا نبذ النواة ليتبع ذاك

فحنق بعض الحضور من اهل اورشليم كيف يتركون ليسوع الانتصار في الجدال ويظهرون على ذواتهم الجبن والخوف فقالوا: «اليس هذا هو الذي يطلبون قتله؟ وهو انه يتكلم علانية ولا يقولون له شيئاً. ألعل الرؤساء تيقنوا ان هذا هو المسيح ؟ الا ان هذا قد علمنا من اين هو واما المسيح فاذا جاء فلا يعلم احد من اين هو». وكان يكفي علماء اسرائيل ان يطالعوا الكتب لكي يعرفوا ان المسيح يخرج من بيت لحم ومن ذرية داود ولكن عامة الشعب كانوا ينتظرون مسيحاً يأتي فجاءةً مثل انسان يهبط من السماء مجهول الاصل وسريع الانتصار نظير الصاعقة. فاوهام نظير هذه كانت ناجمة عن جهل الفرق الكائن بين طبيعتي المسيح الالهية والبشرية. نعم مثل اله كان المسيح مزمعاً ان يطأ الغيم باخمص القدم وملكه منذ الازل ولا ابتداء لولادته غير انه مثل

انسان كان مزمعاً ان يولد في مكان وزمان ومن ذرّية قد تكلمت عنها الانبياء وعينتها صريحاً

فجردّ يسوع من الاعتراض نفسه برهاناً واضحاً على كونه هو المسيح المنتظر فسلّم لهم من جهة كون المسيح الحقيقي لا يُعرف من اين هو واثبت لهم من جهة اخرى انهم يجهلون حقيقة من هو المتكلم معهم لانهم يجهلون من ارسله. ولهذا رفع صوته وكلّمهم في الهيكل قائلاً: «انكم تعرفوني وتعلمون من اين انا وأنا لم آتِ من عندي ولكن الذي ارسلني هو محقٌ وانتم لا تعرفونه. اما انا فاعرفه لاني منه وهو ارسلني .» . فانقسم جمهور السامعين الى قسمين عند سماع هذا الجواب المقنع. فمنهم من كانوا يطلبون القبض عليه ومنهم من كانوا معه وهؤلاء كانوا اكثر عدداً من اولئك وكانوا يترجمون عن عواطف ايمانهم به قائلين: «اذا جاء المسيح أفلعله يصنع آياتٍ اكثر مما عمل هذا» فتحمّس أشياعه كبّل ايدي اضداده من ان يلقي عليه احد يداً عادية . غير ان خبث الفريسيين لم يترك اولئك وحدهم بل بادر للاخذ بثارهم وبعد ان تفاوض مع رؤساء الكهنة كلف شرذمة من رجال الشرطة ان يرصدوا المعلم الحديث ويلقوا القبض عليه عند سنوح فرصة موافقة

فشعر يسوع بتلك المراقبة العدائية وتنهد الصعداء وصاح متشكياً من الجور بكلام يفتت الاكباد الصلبة ويستجلب اليه اصحاب القلوب المستقيمة قال: «انا معكم بعدُ زماناً يسيراً ثم اذهب الى الذي ارسلني. وستطلبونني ولا تجدونني وحيث اكون انا لا تستطيعون انتم ان تأتوا» فمرت هذه الكلمة الاخيرة من فوق رؤوسهم ولم يفهموها. فاخذوا يقولون بتهكم: «الى اين هذا مزمع ان ينطلق حتى لا نجده العله ينطلق الى شتات اليونانيين ويعلم اليونانيين؟ ما هذا الكلام الذي قاله «ستطلبونني ولا تجدونني وحيث اكون انا لا تستطيعون انتم ان تأتوا» . اجل ان تهكم اليهود الصادر عن الجهل سيتم

في اوانه عند ما يحمل الرسل بشارة المسيح ويذهبون بها الى الشعوب والامم الغريبة ويقطنون بينهم

وفي اثناء كل سبة العيد كان اليهود يستقون ماء من عين سلوان ويهرقونها في الهيكل رمزًا الى انفجار الماء في البرية كما ذكرنا. وفي اليوم الثامن الموافق عيد عزروت كان يحمل الشعب الاغصان المثمرة ويرتل خصوصاً نبوة اشعيا القائل: «تستقون ماء من معين المخلص الخ» ففي اثناء دوران الشعب وقف المخلص في بهرة الجمع وصاح قائلاً: «ان عطش احد فليأتِ اليَّ ويشرب. من آمن بي فكما قال الكتاب ستجري من جوفه انهار ماء حي» فمن قبل يسوع المسيح بايمان وروى غليله بادخاله اياه الى قلبه يضحي كينبوع ماء الحياة تجري منه تعاليم النعمة والخلاص. وسيتحقق ذلك بالرسل والى هذا الحادث ألمع القديس يوحنا بقوله «وانما قال هذا عن الروح القدس الذي كان المؤمنون به مزمعين ان يقبلوه اذ لم يكن الروح قد اعطي بعد لانَّ يسوع لم يكن بعد قد تمجد»

ويظهر ان خطاب يسوع هذا الذي اشار اليه الانجيلي فقط كان على غاية من البلاغة والتحمس حتى حرك الشعب واغتصبه الى القول «هذا في الحقيقة هو النبي» اي هذا هو اعظم محامٍ عن الشريعة وكان حسب التقليد مزمعاً ان يظهر هذا المحامي في العصر المسيحي. وآخرون اقرب من الايمان كانوا يهتفون «هذا هو المسيح». اما الاخصام فلجأوا حالاً الى الاعتراضات وقالوا: «العلَّ المسيح يأتي من الجليل؟ ألم يقل الكتاب انه من نسل داود ومن قرية بيت لحم حيث كان داود يأتي المسيح؟» فهذه الاعتراضات التي لم يقف عندها الرسول لافتراضه ظاهر بطلانها قد اخذت من قلوب كثيرين من اليهود كل مأخذ وسببت شقاقاً عظيماً بين الشعب من اجله واثارت شعلة نيران الغضب عليه حتى ان اناساً كانوا عقدوا النية على ان يمسكوه ولكن لم ينفذوا مقاصدهم

خوفاً من الحزب الآخر الذي كان مع يسوع. ومن عناية الله بابنه لم يجسر احد ان يلقي عليه يداً. وفضلاً عن ذلك فقد رجع الشرط متعجبين من يسوع ومن الكلام الذي كانوا قد سمعوه منه. فلما رآهم رؤساء الكهنة والفريسيون وحدهم قالوا لهم بحدة: «لِمَ لم تأتوا به؟» فاجاب هولاء مخبرين بالتأثير الذي كان لكلام يسوع في قلوبهم «انه ما نطق انسان قط بمثل ما نطق به هذا الرجل.» فزادهم هذا الجواب غيظاً وصرخوا بالشرط: «العلكم انتم ايضاً قد ضللتم؟ هل احد من الرؤساء او من الفريسيين آمن به؟ اما هولاء الجمع الذين لا يعرفون الناموس فهم ملعونون.» ولقد فات هولاء المتكبرين ان دعواهم بعدم قبول احد منهم تعاليم المعلم الجديد هي فاسدة لان واحداً منهم وهو نيقودمس وهذا ليس اقلهم علماً ونفوذاً كان من اعوان يسوع. فهذا اذ سمع كلامهم نهض لينقضه ولكن بخوف يشف عن خبث فقال لهم: «العلّ شريعتنا تحكم على انسان ما لم تسمع منه اولاً وتعلم ما فعل؟» وكان ذلك القدر كافياً لحنق ارفاقه عليه فقالوا له «العلك انت ايضاً من الجليل؟ ابحث في الكتاب وانظر انه لم يقم نبي من الجليل» وهذا يدل على حزازات في القلب ولا ينبئ عن سداد في قوة الاستدلال فان لم يقم فيما مضى نبي من الجليل فهل ذلك برهان يمنع قيام نبي من الجليل في الوقت الحاضر؟ فليبحث اولئك العلماء المتعجرفون في الكتب لترى ما عساهم يقولون عن نبوة اشعيا (٢٩ : ٢) التي تجعل اول انبلاج نور الانجيل من اعالي جبال الجليل. وفوق ذلك فان يسوع وُلد في اليهودية ومن ظنّ الخلاف فهو يجهل تاريخ ولادته. ولم يعد مجال للجدال بين هاتيك الاحزاب والمآرب المتباينة فانصرف كل واحد الى بيته ولكن بعواطف مختلفة فالبعض منهم كانوا فرحين من عدم اظهار تحزبهم الزائد ليسوع والبعض حنقين من جراء تهاملهم عن تدبير المكيدة للقبض عليه

§

المرأة الزانية

اما يسوع فمضى الى جبل الزيتون ليقضي ليله تحت احدى المظال بمسامرة بعض الاصدقاء او ليتمكن من الذهاب الى بيت عنيا. غير انه رجع باكرًا الى الهيكل وعندما رآه الجمع اقبل اليه واحاط به احاطة الهالة بالقمر. وفيما هو يعلمهم من بهرة الحلقة واذا بحادثة غير منتظرة جعلت لاخصامه سبيلاً كي يجربوه وهي ان امرأة يهودية قد استسلمت الى اهواء النفس الغرارة في وسط تلك الضوضاء والافراح العالمية. فوجدها اناس في حالة ارتكاب الفحشاء واتوا بها الى يسوع واقاموها في الوسط وشعار الخجل يعلو جبينها وعار الاثم يغطي وجهها. وكان بعض الكتبة والفريسيين قد رتبوا هذه المكيدة على طريقة توهم انهم من حزب الغيورين اذ اتوا بالمجرمة الى وسط الجمع وقالوا ليسوع « يا معلم ان هذه المرأة قد أُخذت في الزنى وقد اوصى موسى في الناموس ان ترجم مثل هذه. فماذا تقول انت ؟ » وفكروا انه اما ان يبررها او يشجبها وعلى الحالين تدور الدوائر عليه فاذا برّرها يدعون انه يناقض موسى واذا شجبها يدعون انه يناقض كلامه بكلامه وعلى الحالين كانوا يأملون ان ينفروا الشعب من تعليمه او ان يهيجوا عليه السلطتين الدينية والمدنية. الدينية لو بررها والمدنية لو حكم عليها بالرجم وهو امر كان الغيورون عاقدين النية على انفاذه في الحال

اما ذلك الذي لم يكن قد جاء ليتعرَّض الى شرائع البشر بل ليبشر بشريعة الله فبدلاً من ان يجيبهم على سؤالهم اكبَّ يكتب باصبعه على الارض كما كان يصنع الربانيون عند ما لا يريدون ان يجيبوا عن امر ما. والظاهر ان قصد يسوع بعمله هذا كان ان ينتقم من خبث وقساوة الفريسيين اذ حسب منطوق الشريعة الرومانية كان يقتضى قبل ابراز الحكم ان يقدم الى القاضي صك

الشكوى مع اسماء المدعين. ولما لم يكن صُنع شيء من تلك المعاملات القانونية في الحادث الحاضر يُقدَّر ان يسوع كان يكلفهم لاجراء تلك المعاملات لما نظر الى الارض لاول مرة واخذ يكتب. ولما كان من جهة اخرى من مقتضيات شريعة العدل ان يكون المدعي اقل جرماً من المدعى عليه رسم يسوع على الارض اسماء المدعين على المرأة المذنبة وجعل يحدق بهم فظن المشتكون انه اعيا عن الجواب و يحاول إيجاد مهرب منه فالحوا عليه بالجواب. حينئذ رفع يسوع رأسه وانتصب بينهم وقال بصوت جهير: «من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ و يرمها بحجر» و بالحقيقة كانت شريعة اليهود تجيز للقاضي ان يستدعي شرعاً المدعي ليجعله جلاداً للمدعى عليه. غير انه في الوقت الحاضر كان هذا الاستدعاء عينه بمثابة شكوى عنيفة على المدَّعين. ولكن الاشرار يعرفون كيف يتخذون اغطية لجباههم من النحاس ليدفعوا عنهم العيب والعار ولهذا ثبت الفريسيون واقفين ولم يتزحزحوا. فانكبَّ يسوع ثانية على الارض وكتب. وحسب نص بعض الكتب الخطية القديمة اضاف الى اسم كل من اصحاب الشكوى قائمة ذنوبه ونقائصه فثقل الامر ولم يعد بوسع احد احتماله اذ يأبى كلٌّ اظهار آثامه الخفية. عندئذ طفقوا ينصرفون واحداً بعد اخر وكان شيوخ الشعب اول الخارجين اذ كانت اعمالهم قد سُجلت في راس القائمة وتبعهم على الاثر الباقون كباراً وصغاراً اولئك من الخجل بسبب ما كتب وهولاء من الخوف مما يكتب

وعلى هذا المنوال قد خلَّص يسوع من ايدي الظلمة تلك المرأة دون ان يمس بشيء سلطة ناموس موسى الالهية. وكفى لذلك ان ينكر اهلية القضاة لابراز الحكم على المدعى عليها وصلاحية الشهود الذين لم يكونوا اقل ذنباً منها. وبدهاء عجيب قد حوَّل يسوع المسألة من دائرة الحقوق العدلية حيث كان حصرها الفريسيون وحيث لم يكن له صلاحية في القطع فيها اذ لم يكن قاضياً

شرعياً وجعلها مسألة ادبية لانه كان قادراً ان يُخجل اصحاب الشكوى ويوهن عزيمتهم. متى كان القاضي شرعياً يحكم باسم الشريعة وبحسب السلطة التي تخوله اياها الشريعة ليس من الضرورة ان يكون قديساً خالياً من العيوب والنقائص كي يتسنى له الحكم على الرذيلة التي تأباها الآداب العمومية ولكن من اقام نفسه قاضياً في مسألة يترتب عليه ان يكون اعظم فضيلةً ممن يريد ان يقضي عليه. وفي المسألة الحاضرة كان الفريسيون ولا ريب متطفلين شرعاً في إقامة الدعوى على المرأة الزانية و بالاحرى في حق ابراز الحكم عليها اذ لم تخولهم الشريعة سلطاناً على ذلك ولا ادبياتهم الشخصية كانت تسهل لهم المجال لنفوذ كلامهم

فاستطاع اذ ذاك ان ينظر الجمهور اعظم واجمل مشهد ادبي امكن لانسان الوقوف عليه عند ما حار الاخصام بامرهم ووقعوا في حيص بيص وتفرقوا تحت كل كوكب من جرى كلمة كتبت على الارض. وكيف بقي يسوع وحده والمرأة قائمة في الوسط. هو معتزّ بجلاله ومجمل بقداسته ومتلألئ باشعة رأفته وهي خجول ذليلة دنسة مرتعدة الفرائص وكلاهما ذبيحة قد تخلصت من ايدي البشر الاشرار. كان يسوع المنقذ الظافر والمرأة النعجة المصروعة والمخدشة بانياب الوحوش الضارية. ولكن هل يُدخلها هذا السيد الجليل الى حظيرته ام يطردها خارجاً؟ هذا ما كانت تنتظر ابرام الحكم فيه محمرّة الوجنتين خجلاً منخفضة العينين اجلالاً ومكتوفة اليدين هيبة واكراماً. فرفع يسوع بصره ورأى الجميع قد انصرفوا ولم يبقَ منهم احد. فقال للمرأة بحكمة الهية لا يضاهيها سوى حنوه الابوي: « يا امرأة اين الذين يشكونك؟ اما حكم عليك احد؟ — لا يارب — ولا انا احكم عليكِ. اذهبي ولا تعودي تخطئين » وهكذا من كان له السلطان ان يحكم على الزانية لكماله الادبي قد عفا عنها وفضّل اكتسابها بالرقة والرافة على اذلالها بالعنف والحدة. ومثل اله قدير يعفو عند المقدرة لا يفرض عليها سوى ما يعود عليها بالنفع الادبي اي ان لا تعود فتسقط في مهاوي الاثم

§

يعلن يسوع انه نور العالم واعظم من ابرهيم

وكان من جملة الرتب الطقسية المستعملة في اثناء عيد المظال ان توقد مشكاتان موضوعتان في رواق النساء كل يوم بعد غروب الشمس وذلك رمزاً الى الغمامة النارية التي هدت بني اسرائيل في اجتيازهم البرية. وكان افراد الشعب يوءثرون تنوير منازلهم ايضاً اظهاراً لمعرفتهم الجميل نحوه تعالى وشكراً له على آلائه السابغة. وعلى الارجح ان يسوع وجد في هذه الرتبة موضوعاً لخطابه هذا الذي بدوءه: « انا نور العالم من تبعني فلا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة » فنسب يسوع لنفسه بقوله هذا اول مزية يمتاز بها المسيح فهو المقول عنه في الانبياء انه يشرق نظير شمس العدل على اصفياء الله وكمصباح يضيء على الجالسين في الظلمة وقال له الرب على لسان نبيه اشعيا ٤٢ : ٦ « انا الرب دعوتك لاجل البرّ واخذت بيدك وحفظتك وجعلتك عهداً للشعب ونوراً للامم لكي تفتح العيون العمياء وتخرج الاسير من السجن والجالسين في الظلمة من بيت الحبس »

فاثار هذا الكلام الصريح في اثبات كونه المسيح شعلة الحقد الكامنة ضده فظهرت باعتراض كان له وقع في القلوب المترددة اذ قال له الفريسيون: «انت تشهد لنفسك فليست شهادتك حقاً». ولماذا ليست حقاً؟ الا لانها مفردة وشخصية ولم يزكها احد؟ ولكن من يمكنه على الارض ان يزكيها؟ فمن دعا نفسه نور العالم قد جعل ذاته في طبقة اعلى من بني البشر جداً حتى لم يعد غير النور الازلي اي هو نفسه او الله قادراً ان يشهد بصحة كلامه ولهذا قال ايضاً: « اني وان كنت اشهد لنفسي فشهادتي حقّ لاني اعلم من اين جئت والى اين اذهب واما انتم فلا تعلمون من اين اتيت ولا الى اين اذهب. انتم انما تدينون بحسب الجسد وانا لا ادين احداً » ومن ثم يوجد بون عظيم بين البشر

و بين يسوع ولا نسبة بين المسيح والفريسيين وبناء على ذلك ليس من صلاحيتهم البحث وانتقاد اسرار الحياة الالهية. اما المسيح الذي يحيا في وسط النور السماوي فهو وحده جدير ان يحدّث بما رأى لانه يعلم بلا مراء ويخبر صريحاً دون اخذ بالوجوه. وفي قداسة حياته شاهد عدل على صحة مقاله ولقد ضلّ عن جادة الحق والصواب من زعم الخلاف او طلب برهاناً خارجياً على صدق الشهادة المشار اليها. ولكن الا يوجد آخر يكفل له صدق الشهادة كيف لا وابوه السماوي يشهدُ له ايضاً « وان انا دنت. فدينونتي حق لاني لست وحدي بل انا والآب الذي ارسلني. وقد كتب في ناموسكم ان شهادة رجلين حق. انا اشهد لنفسي وابي الذي ارسلني يشهد لي » وهذا القدر كافٍ لنسف اعتراض الفريسيين من اساساته. يطلبون شاهدين فيقدم يسوع لهم شاهدين: هو يشهد لنفسه بفضائله السامية وقداسته ومحبته وحكمته والآب يكفل صدق ما يقوله الابن بواسطة الآيات التي اوصاه ان يعملها

ولما كان يسوع يقول هذا بتحمس زائد رأى أخصامه ان يدفعوهُ الى التصريح الذي يعود عليه بالويل بواسطة تكرار سؤالاتهم فقالوا: « له اين ابوك ؟ » فعرف يسوع خبث نياتهم واجابهم بكلام غاية في السمو والحق حتى لا يتسنى لهم مؤاخذته بشيء فقال: « انكم لا تعرفونني انا ولا ابي ولو كنتم تعرفونني لعرفتم ابي ايضاً » وعلى هذا النمط يثبت يسوع وحدة الطبيعة بينه وبين ابيه ويعلن ولادته الازلية وبالنتيجة الوهيته. وانه لو شاء الفريسيون ان يفتحوا عيونهم ليروا الابن لما كانوا يسألون اين الآب لانهم يرونه في الابن. وهذا الكلام الصريح قاله يسوع في الخزانة كما ينبه البشير وهو يعلم في الهيكل ولم يمسكه احد لان ساعته لم تكن بعد قد اتت

واذ شاهد يسوع قلة ايمان الشعب رجع الى ما كان قد سبق والمع اليه من التهديد المحزن قال: « انا اذهب وستطلبونني وتموتون في خطيئتكم. حيث اذهب

انا لا تقدرون انتم ان تأتوا »· اي ان النور الذي يهربون منه الان سيغيب عنهم كي يظهر في بلاد غريبة· ويُهدَم الجسر الذي هم مضطرون ان يمروا عليه من الارض الى السماء فيستمرون في ظلمات المنفى مدى الدهر· فسخر السامعون بكلامه هذا وقدّروا انه يريد ان يذهب ليعلن ذاته مسيحاً ليس عند الكفرة بل بين الاموات اذ قالوا: « لعله يقتل نفسه لانه يقول حيث اذهب لا تقدرون انتم ان تأتوا »· فقال لهم يسوع دون ان يحتفل بسخر يتهم « انتم من اسفل وانا من فوق انتم من هذا العالم وانا لست من هذا العالم » اي ان اعظم واسطة للائتلاف هي التشابه وشركة الايمان وحدها قادرة على توليد هذا التشابه· ومن ثمّ فاذا لم يقبلوا الى المعلم بالايمان ويمتزجوا بحياته فانهم لا محالة سيموتون بخطاياهم· وعليه قال لهم ايضاً « اذا لم تؤمنوا اني انا هو تموتون في خطاياكم »· ففي هذا الجواب اعلن يسوع كل مجده بصورة الايجاز البليغ لانه من جهة يوجد فيه تلميح ظاهر الى الاسم الذي به سماه الله نفسه على يد موسى (الخروج ٣ : ١٤) وبالنتيجة يعلن نفسه الهاً ويثبت ضرورة الايمان به. ومن جهة اخرى نعم انه لم يصرح بكونه هو المسيح لكنه طوى تحت ظاهر هذا التعبير المبهم الذي تعمده كمال تصور ارساليته المسيحية· فالحّ عليه اليهود ان يزيدهم ايضاحاً قصد ان يهلكوه فقالوا له: « من انت ؟ » وبكل جراءة اجابهم يسوع غير مبالٍ بغوائل غضبهم: « انا ذاك الذي كلمتكم عنه منذ الابتداء »· اي انه المسيح وهو منذ الابتداء ذاتيّ الوجود لانه ازلي مثل الله وهو كلمته السرمدية· ويردف كلامه بقوله: « ان عندي كثيراً اقوله واحكم به في شأنكم ولكن الذي ارسلني هو حقّ والذي سمعته منه به انكلم في العالم »· ولكنهم لم يفهموا مدلول كلامه لان قلوبهم كانت شريرة ونور الحق لم يشرق عليهم بعد ولربما سيضيء عليهم في مستقبل الايام· وعليه قال لهم يسوع: « اذا رفعتم ابن البشر فحينئذٍ تعرفون اني انا هو واني لست افعل شيئاً من عندي

لكن كما علمني الآب كذلك اقول. والذي ارسلني هو معي ولم يدعني وحدي لاني افعل ما يرضيه كل حين». اي عندما يرونه يحطم باب القبر ويخرج ظافرًا من مخاليب الموت القاسية رغماً عن تحفظ اعدائه يتخيلون حينئذ ان عمله هو عمل الله ابيه وانه ترجم افكار ابيه في جميع اقواله وافعاله

وكثيرون آمنوا به عند ما سمعوه يتكلم هكذا وشعروا بنفوسهم انهم سيرون منه العظائم فتشجيعاً لهولاء اليهود قال يسوع: «ان انتم ثبتم على كلمتي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحقّ والحقّ يحرركم» اجل ان الحق انما هي ظهور الخير وظهور الخير يثني ديجور الشر والحال ان من حاد عن الشر وصنع الخير لا يخشى لومة لائم وهذا هو الذي يسبب حرية اولاد الله. وفي هذا المعنى خصوصاً يطلق على المسيح لقب المحرر العظيم الحقيقي ومجيئه يفتح عصر حرية الضمير وانعتاق الانسانية الادبي

وهتف بعض الحضور القائمين هناك: «نحن ذرية ابرهيم ولم يستعبدنا احد قط فكيف تقول انت انكم تصيرون احرارًا؟» وكأنهم نسوا ما قاسوا ويقاسونه من الذل والهوان تحت نير عبودية الاجانب. ولم يشأ يسوع ان يذلهم باعادة الذكرى المخجلة لامتهم بل اكتفى بان يوقف افكارهم في الموضوع الادبي فقال لهم: «الحق الحق اقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة» وبالحقيقة اذا لاحظنا الخطيئة مثل فعل فلا شك انها تعبد للشياطين واذا اعتبرناها نظير عادة فانها ملك ظالوم جائر يكبل ارادة عبيده بسلاسل من حديد «والعبد لا يثبت في البيت الى الابد» وهذا حظ الخاطىء فانه يُطرد اخيرًا من بيت الله ويُعامل معاملة الغريب الثقيل «وانما الابن يثبت الى الابد» ويثبت معه من احب الآب ان يتبناهم بناء على اختيار الابن لهم وقبوله اياهم ليكونوا شركاءه وورثة ملكوته «فان حرركم الابن صرتم احرارًا حقاً» لان الابن يشرك بحقوقه البنوية احباءه ويقتسم معهم حياته

بواسطة تأثير كلمته فيهم . وهنا يلتفت يسوع الى اليهود المتكبرين ويقول لهم : « قد عرفت انكم ذرية ابرهيم ولكنكم تطلبون قتلي لان كلامي لا محل له فيكم . انا اتكلم بما رأيت عند ابي وانتم تعملون ما رأيتم عند ابيكم » والحق يقال ان عمالي الشر هم اولاد ابليس اذ يعملون اعماله . فاصاب السهم المرمى واوجع ولهذا هتف اليهود : « ان ابانا ابرهيم » فرجع يسوع الى جوابه الاول وقال لهم : « لو كنتم بني ابرهيم لكنتم تعملون اعمال ابرهيم . ولكنكم الآن تطلبون قتلي وانا انسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله وذلك لم يعمله ابرهيم . انتم تعملون اعمال ابيكم » ان الولادة الادبية انما تعرف بالمشابهة الادبية ومن ثم فان اباهم ليس من يدعونه اباهم بل من يقتدون باعماله

فاجاب اليهود بحدة « نحن لسنا مولودين من زنى وانما لنا اب واحد وهو الله » فقال لهم يسوع لو كان الله اباكم لكنتم تحبونني لاني خرجت من الله واتيت ولم آتِ من نفسي بل هو ارسلني . لماذا لا تفهمون كلامي ؟ لانكم لا تستطيعون ان تسمعوا لكلمتي . انتم من اب هو ابليس وشهوات ابيكم تبتغون ان تعملوها » فهذه هي الكلمة التي حاول يسوع مراراً ان يبقيها طي الضلوع لفظها اخيراً اعني بها ان الاشرار هم على وجه الاستقامة اولاد ابليس بالروح . لان هذا « هو من البدء قتال الناس » وقد قتل الانسانية بشخص آدم الاول والآن يحاول ان يقتلها لو استطاع في آدم الثاني . — « ولم يثبت على الحق لانه لاحق فيه . » اي ان ابليس عندما قام ضد الله واستأصل من قلبه كل ما هو لله قد اتخذ الكذب شعاره ولهذا صار « اذا تكلم بالكذب فانما يتكلم بما هو له لانه كذوب وابو الكذب . واما انا فلأني اقول الحق لا تؤمنون بي » واي برهان على صدق التعليم اقوى واثبت من قداسة الاعمال وعليه يصرخ بهم يسوع : « من منكم يُثبت عليَّ خطيئة ؟ » وحبس هنا الكلام كأنه يريد ان يعجز اخصامه فلم يجسر احد ان يخدش وجه فضيلته بكلمة مريبة . اذن هو بغير

خطيئة ومن كان كذلك فلا يكذب ومن ثم يُنتج يسوع قائلاً : « فان كنت اقول لكم الحق فلماذا لا تؤمنون بي ؟ » و بعد ان طلب من اخصامه الحكم على نفسه يطلب منهم ان يحكموا على ذواتهم. ولما لم يجيبوا بكلمة يستنتج يسوع القضية نفسها التي تصدى لبيانها و يرد العجز على الصدر قال : « من كان من الله يسمع اقوال الله ولهذا انتم لستم تسمعون لانكم لستم من الله »

عند ذلك لم يعد يتمالك اليهود من الحنق والغيظ فافاضوا في الشتم والاهانة وصاحوا بيسوع : « السنا بصواب نقول انك سامريٌّ وان بك شيطاناً » والسامري عند اليهود هو مرادف لكافر وزنديق ومن كان به شيطان كناية عن الاحمق المجنون. فتلك اذن كانت نتيجة اقوال المسيح حسب تأويل اليهود اي ان يدعوه كافراً وفاقد الرشد. واذ حسبوا براهينه اهانةً لم اكثروا له من الشتائم عوضاً عن البرهان . وعلى هذه اجابهم يسوع برقة ممزوجة بالحزن : « انه ليس بي شيطان لكني اكرم ابي وانتم تهينوني » ولكن لحسن الطالع « انا لا اطلب مجدي فانه يوجد من يطلب و يدين »

ثم وجه يسوع خطابه نحو من كانوا اظهروا ميلهم اليه وقال لهم : « الحق الحق اقول لكم ان كان احد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت الى الابد » ولم يعنِ بكلامه هذا الموت الروحي بالخطيئة فقط بل بوجه الاجمال الظفر على الموت كما ان ابن البشر كان مزمعاً ان يظفر به اي ان المؤمنين به ينتقلون بواسطة النعمة من الموت الى الحياة. عندئذٍ صاح به الاخصام وقالوا : « الآن علمنا ان بك شيطاناً. قد مات ابرهيم والانبياء وانت تقول ان كان احد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت الى الابد. العلك اعظم من ابرهيم ابينا الذي مات والانبياء ايضاً ماتوا ؟ من تجعل نفسك ؟ — اجاب يسوع ان كنت انا امجد نفسي فليس مجدي شيئاً. ابي هو الذي يمجدني وهو الذي تقولون انتم انه الهكم » وبالحقيقة ليس تتميم النبوات وعمل الآيات سوى عبارة عن صوت

هذا الاله الذي « انتم لم تعرفوه اما انا فاعرفه وان قلت اني لا اعرفه صرت كاذباً مثلكم ولكني اعرفه واحفظ كلامه· ابرهيم ابوكم ابتهج حتى يرى يومي فرأى ففرح » فيا للمناقضة الآب اشتهى ان يرى ابن البشر واما الابناء فينكرونه بوقاحة بل يبغضونه مجاناً· فقال اليهود : « لم يأتِ لك بعدُ خمسون سنة وقد رأيتَ ابرهيم ؟ » — فاجاب يسوع بجلال وهيبة « الحق الحق اقول لكم قبل ان يكون ابرهيم انا كائن· » وُلد ابرهيم في الزمان نظير سائر الناس اما هو فلم يولد بطبيعته الالهية في الزمان ولم يعرف سوى وقتٍ واحد وهو الحاضر لانه الكائن الازلي الوجود· وعلى هذا النمط يردد التحديد الذي عرّف به الله ذاته مرتين في هذا الخطاب· ولم يخف ان يدعو نفسه يهوا اي الكائن كابيه· وفي هذا الاسم ملخص اللاهوت على طبعه الالهي و برهان افضليته على ابرهيم وجميع البشر

ولم يبقَ تجاه اقوال كهذه سوى احد امرين اما ان يحبّوا و يسجدوا له كالله واما ان يرجموه بالحجارة ككافر ولكن خبث اليهود اختار الامر الثاني فتوارى يسوع بغتة عن نواظرهم ولم يستطع احد ان يوقع به ضرراً

§

المولود اعمى

وفيما هو مجتاز خارج الهيكل رأى رجلاً اعمى منذ مولده جالساً في مكان المتسولين فشفق عليه وكذلك التلاميذ عندما نظروهُ رقّت قلوبهم واحبوا ان يعرفوا سبب مصيبته فسألوا المعلم قائلين : « يارب من اخطأ أهذا ام ابواه حتى وُلد اعمى ؟ » — اجاب يسوع : « لا هذا اخطأ ولا ابواه لكن لتظهر اعمال الله فيه » اي ان الله يجرب احياناً البار ليمتحن صبره على مضض النوازل ويحمله على تقديم ما عليه من فروض الكفارة في تاريخ جرائم الانسانية· ثم لاختبار محبة الاخيار ولاظهار عجائب رأفته فيه كما في الحادثة الحاضرة· وعليه قال السيد : « ينبغي ان اعمل اعمال من ارسلني ما دام النهار فسيأتي الليل الذي

لا يستطيع احد فيه عملاً. ما دمتُ في العالم فانا نور العالم.» قال هذا وتفل على التراب وصنع من تفلته طيناً وطلى بالطين عيني الاعمى وقال له: «اذهب واغتسل في بركة سلوام» وكانت هذه على مقربة من الهيكل بعيد مخرج البابين في اسفل تل أُفِل

من المقرر أن يسوع لم يضطر بحكم الضرورة الى ان يطلي عيني الاعمى بالطين ليبرئه ولا ان يرسله ليغتسل في بركة سلوام بل الدواء الشافي لكل داء كانت قدرته غير المتناهية. فلماذا يلجأ في الوقت الحاضر الى هذه الوسائل الخارجية؟ فالبشير يوحنا يوضح لنا هذا السبب بقوله عن سلوام ان تفسيره المرسل. وبالحقيقة ان المراد بعين سلوام هذه العين الموجودة الى يومنا هذا جنوبي اورشليم بين جبل صهيون والموريه حيث ملتقى وادي جنون ووادي يوشافاط ولم تكن وقتئذ سوى مصب العين المدعوة اليوم عين العذراء ومن ثم كان يطابق الاسم سلوام المرسل المسمى. ولقد وجدوا متأخراً القناة التي كانت تصل بها الى هناك واكتشفوا تاريخ بنيانها منقوشاً على الصخر باحرف من عصر حزقيا الملك. وكانت مياه تلك العين تقسم الى قسمين وتصب في بركتين لغسل الاثواب وهناك ايضاً كان يذهب فيطهر كل من تدنس بنوع من الانواع. ولقد شبهوا السيد المسيح بهذه العين استناداً الى ما جاء في اشعيا النبي ٨: ٦ ان العين الجارية بسكون ولن تنضب هي سبب بركة عظيمة للمدينة. واوجه المشابهة بين الاثنين عديدة. فكما ان تلك العين كانت تخرج من اسفل التل المبني عليه الهيكل ومن جهة قدس الاقداس هكذا كان المسيح مزمعاً ان يخرج من حضن الآب السماوي ليطهر الخطاة من اوساخ خطاياهم ويبرد غليل الاسرار. ولما كان يسوع قد دعا نفسه ينبوع الحياة الحقيقي وسلوام الروحي أخذ يثبت ذلك بنوع حسي اذ صنع من تفلته طيناً وطلى به عيني الاعمى وبينما هو يذوب الطين عن عيني الاعمى بواسطة غسل الماء الطبيعي كان اي يسوع ينبوع كل المحبة والمرسل

الحقيقي من السماء ينفذ بقوته الى خلايا العين الداخلية ليرد لها الحياة و ينساب حتى اعماق سرائر النفس لينقيها من اوزار الخطيئة و يسربلها بثوب النعمة

وفيما هم يقتادون الاعمى الى بركة سلوام تنحى يسوع مع تلاميذه حذراً من وجوده بين الشعب عندما يرجع الاعمى سليماً لانه كان على ثقة من وقوع الآية كما سبق واخبر. ولقد حقق الخبرَ الخُبْرُ اذ طلع الاعمى بصيراً من بركة سلوام. فالجيران الذين كانوا يرونه من قبل يستعطي وقفوا مبهوتين وقالوا: «اليس هذا هو الذي كان يجلس و يستعطي — فقال بعضهم انه هو — وآخرون لا لكنه يشبهه — واما هو فكان يقول انا هو. وكان يجيب كل سائل ان الرجل الذي يقال له يسوع صنع طيناً وطلى به عينيه وأمره ان يذهب و يغتسل في بركة سلوام وقد مضى واغتسل والآن ينظر. فسألوه اين يسوع اجاب لا اعلم. فما اجمل واتم قصة هذه الحادثة مع ما هي عليه من البساطة الطبيعية

وكان اليوم الذي فيه صنع يسوع الطين وفتح عيني الاعمى يوم سبت. فظهر الامر ذا اهمية للبعض واهلاً بان ينقل خبره الى اناس ذوي المام بالشريعة ليبحثوا في المسألة وفي مجس الشعب بحثاً قانونياً. فاتوا بالذي كان اعمى الى الفريسيين الذين تلقوا الخبر بطيبة خاطر وقبلوا ان يحكموا في الامر. فسألوا الاعمى ان يقص عليهم واقعة حاله فاعاد هذا روايته على ما تقدم تماماً و بالحرف الواحد. فحصل بينهم شقاق في تفسير الحوادث المار ذكرها واحكام تطبيقها على الناموس وانقسموا الى حزبين متضاربين: فمنهم من زعم ان النقطة المهمة الواجب الالتفات اليها انما هي كون صانع الاعجوبة ليس فقط قد اقترف اثماً باقدامه على شفاء طبي يوم السبت بل قد ارتكب جرماً بصنيعه الطين ايضاً. ومنهم من ذهب انه من المؤكد وقوع اعجوبة وهذا ما يجب النظر اليه اولاً ولكن اختلفوا في صحة الانتاج فالاولون انتجوا انه من المحال ان يكون من الله ذاك الذي ينقض بعمله وصية

السبت. اما الآخرون فأنتجوا انهُ لا يمكن لانسان شرير ان يصنع مثل هذه الاعجوبة. واحتدم الجدال بينهم حتى أدَّى بهم الحال الى استشهاد الاعمى فسألوه: ماذا تقول انت عن الذي فتح عينيك؟ فقال لهم «انه نبي». والحق يقال انه لا مندوحة للحس العام الذي عبَّر عنه ذلك الرجل بكلامه من تحصيل هذه النتيجة التي لا مناص منها تجاه الاعجوبة. على ان هذا الجواب الصريح غير المنتظر لم يحسُنْ في اعين الاخصام وكانوا يودون لو اجاب بما يسوّغ لهم تفسير الآية على جهة السحر او حرفة ما طبية. فحنقوا اذن اذ لم يسمعوا ما يسرّ خاطرهم

ومن الآن فصاعداً يستقل الحزب المناقض في تدبير شؤون المسألة حسب مشربه. فعاملوا الذي كان اعمى معاملة كذّاب قد اتفق مع يسوع على خداع الشعب. واعادوا البحث والتنقيب على حقيقة وقوع الآية نابذين ظهرياً النتائج التي يلزم ان تنجم عنها. فدعوا للحضور امام مجلسهم ابوي الاعمى وحصروا استنطاقهما في ثلاثة امور رئيسية اولاً اثبات ذاتية الشخص «اهذا هو ابنكما؟» ثانياً اثبات حقيقة العمى فيه «هل وُلد اعمى؟» ثالثاً بيان سر شفائه من المرض: «فكيف ابصر الآن؟» فاجاب الابوان عن السؤالين الاولين بالايجاب اي انه ابنهما وانه وُلد اعمى واما عن الثالث فاعتذرا عن الجواب عنه لانه يفوق طاقتهما «واما كيف ابصر الآن فلا نعلم او من فتح عينيه فلا نعرف. اسألوه فانه كامل السن فهو يتكلم عن نفسه» وكان قد ذاع الخبر بين الشعب ان الفريسيين قد تعاهدوا ان يطردوا من المجمع كل من يعترف يسوع انه المسيح

فطلبوا احضار المولود الاعمى ثانية لمراجعة استنطاقه وها هو يحبط آمالهم فيه ويرفع الستر عن خبث نياتهم بواسطة سلسلة شهاداته اللامعة للحق ويخذل من كانوا قد املوا النصر على يدهِ. قالوا له قصداً يسترضوه «اعطِ

مجداً لله » اي أنكر كلام التجديف الذي قلت فيه ان يسوع نبيٌّ « فاننا نعلم ان هذا الرجل خاطىء » فمن اين عرف اولئك الاشرار انه خاطىء ؟ أمن نتائج مذاكراتهم الاخيرة ؟ غير ان الذي كان اعمى منذ مولده لم يعبأ باقوالهم بل اجابهم ساخراً بكلام يجعل حقيقة وقوع إبلاله من المرض فوق كل جدال لاهوتي اذ قال : « ان كان خاطئاً فلا اعلم . انما اعلم شيئاً واحداً اني كنت اعمى والآن ابصر » فهل من كلام اوضح من هذا ؟ وما كان اجدره بقطع كل جدال ؟ على ان الفريسيين مع علمهم بهذا ارادوا ان يعيدوا البحث عن الحادثة نفسها تجاهلاً منهم فقالوا له : « ماذا صنع بك وكيف فتح عينيك ؟ » املاً ان يروا وجهاً يسوّغ تفسير الآية بنوع طبيعي و يخلصهم من شرك الصعوبة التي سببوها لانفسهم . فعندها خلع الاعمى غرار الخوف واخذ يسخر بهم بجسارة لم تكن في حسبانهم فقال : « قد اخبرتكم فلم تسمعوا فلماذا تريدون ان تسمعوا ايضاً العلكم تريدون ان تصيروا له تلاميذ ؟ » فاثار فيهم هذا الكلام شعلة الغضب وشرعوا يشتمون الاعمى و يلعنونه قائلين : « كن انت تلميذه فاما نحن فاننا تلاميذ موسى ونحن نعلم ان الله كلم موسى فاما هذا فلا نعلم من اين هو » ولقد اعمى التعصب الفاسد اعين بصيرتهم حتى انهم صاروا يجهلون انهم لا يخرجون عن تبعة موسى اذا اعترفوا بالمسيح الذي بشّر به موسى نفسه وان الغاية الوحيدة من الشريعة الموسوية انما هي ان توصل اسرائيل الى اتمام المواعيد بمجيء المخلص الحقيقي وان مشترع البرية العظيم لم يثبت صلاحية إرساليته الا بواسطة الاعجوبة كما يصنع يسوع . وها ان الاعمى الساذج يبكتهم على جهلهم الغير المعذور و يبين لهم انه لا يلزم ان يكون الانسان معلماً في اسرائيل كي يعلم من اين أُرسل يسوع وعليه قال لهم : « ان في هذا عجباً انكم لا تعرفون من اين هو وقد فتح عينيّ » اجل ان معرفة اصل ارسالية من يصنع العجائب الباهرة لأمر سهل للغاية اذ من المحال ان يأتي صانع العجائب الحقيقية من الشيطان الرجيم

وسنداً الى هذا المبدا الراهن زاد الاعمى على قوله «ونحن نعلم ان الله لايسمع للخطاة ولكن ان احد اتقى الله وعمل مشيئته فانه يستجيب له » والحال انه قد استجاب ليسوع اذ « لم يُسمع منذ الدهر ان احداً فتح عيني من وُلد اعمى » ومن ثم فلو لم يكن هذا من الله لما قدر ان يصنع شيئاً من هذه العجائب. فسياق هذا الاستدلال المنسجم لا يترك للخصم سوى احد امرين اما التسليم والاذعان الى الحق واما الحنق والرجم وقد اختار الفريسيون الطريقة الاخيرة تخلصاً من الذل والخيبة في اعين الشعب وصاحوا به قائلين : « انك بجملتك قد وُلدت في الخطايا وانت تعلمنا ؟ » ولقد فاتهم انهم بنسبتهم عماه الى كثرة خطاياه يثبتون على وجه غير مستقيم حقيقة وقوع الاعجوبة فيه. ثم طردوه خارج المجمع بعنف تاركين الى وقت آخر الانتقام منه بالحرم الشرعي من الاجتماعات الدينية

أما يسوع الذي كان توارى عن اعين الشعب اثناء وقوع الاعجوبة حذراً من ايقاد جذوة تحمسهم فلم ينسَ قط تلك النعجة التي ابرأها من المرض واسلمتها ايدي الاعداء. ولم يذهل عن التفتيش عنها واذ وجدها قال : « اتؤمن انت بابن البشر ؟ » اعني اتؤمن بارسالية ذاك الذي قد دافعتَ عنه قدام الفريسيين ؟ — فاجاب الاعمى بديهياً وقال : « ومن هو يا سيد لأومن به ؟ » وكل شيء فيه كان يترجم عن عظم رغبته في استماع الكلمة المزمعة ان تلفظها شفتا محدثه و يقبلها سلفاً بدون ادنى تردد « فقال — قد رأيته وهو الذي يكلمك » ولم يكد يسوع ان ينهي هذه الكلمة حتى خرَّ الاعمى على قدميه ساجداً وقال : « قد آمنت يا ربُّ ». حينئذٍ اختصر يسوع كلما كان ممكناً ان يستخلص من التعاليم الادبية المفيدة من جرى وقوع تلك الحادثة فقال « اني اتيتُ الى هذا العالم للدينونة لكي يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون » وليس المراد من هذا القول ان العناية قد حتمت باحكامها الثابتة الازلية قسمة الانسانية الى فئتين فئة المؤمنين وفئة الضالين بل ان

الانسانية نفسها قد انقسمت اختيارياً الى شطرين احدهما يصيخ سمعاً الى صوت الرب والآخر يتبع اهواءه وشهواته . فسمع هذا بعض الفريسيين الذين كانوا معه فقالوا له . « العلنا نحن ايضاً عميان ؟ » — فاجابهم يسوع بكلام تتدفق منه عواطف الحزن وكآبة النفس وبلهجة شأنها ان تؤثر في اشدّ النفوس صلابة :« لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطيئة والآن انتم تقولون انكم تبصرون فمن اجل هذا خطيئتكم ثابتة »

§

يسوع الراعي الصالح

ان القساوة البربرية التي عامل بها رؤساء الشعب ذلك الاعمى المسكين الذي شفي من عماه احزنت قلب المعلم الحنون والمرء يميل طبعاً الى اعادة الذكرى اثناء الحزن وكربة النفس فمن ثم اخذت تتسابق الى قلب يسوع في ذلك الحين تذكارات ما جاء عن عصره المسيحي في اقوال النبيين حزقيال ف ٣٤ وزكريا ف ٩ وجعل يقابل ما يخالج فؤاده من الحنو والرأفة مع شر سريرة رعاة اسرائيل الكذبة . ولقد آلت به تلك المقابلة بين ظلم وعسف اولئك المختلسين للرئاسة وصدق ارساليته الشرعية الى اجمل واشهى مشابهة موضوعها الراعي ورعيته ولربما تمثل له ذلك لما كان يرى القطعان قافلة عند المغيب من المرعى نحو المبيت على طريق بيت عنيا تحت قيادة رعيانها . قال : « الحقّ الحقّ اقول لكم ان من لم يدخل من الباب الى حظيرة الخرفان بل يتسوّر من موضع آخر فانه سارق ولص »وهكذا هم الفريسيون الذين بواسطة خبثهم ووقاحتهم توصلوا الى اختلاس السلطة على الشعب دون اذن صاحب الخرفان . فهولاء هم الخطفة الاشرار الذين يخربون الحظيرة ويستحلون دم الخراف اشباعاً لمنافعهم الشخصية وارضاء لكبريائهم وتنفيذاً لاوهامهم السافلة . «— واما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخرفان » وهذا هو

يسوع من فيه تمت الرموز التي بها يتعلق العهد العتيق باهداب العهد الجديد.
« له يفتح البواب » اعني به يوحنا المعمدان وريث الانبياء واعظمهم. فهذا عرف صوت الراعي الحقيقي وادخله رسمياً حظيرة اسرائيل ليختار منه من يشاء ويؤسس فيه اركان شعب الله الحديث « والخرفان تسمع صوته » اي في كل نفس حسٌ باطني تميز به صوت الراعي الصالح « فيدعو خرفانه باسمائها ويخرجها » من دعا شخصاً باسمه فقد عرفه وميزه عمن سواه ودلَّ على حبه له وميله اليه. وعلى هذا النمط قد دعا يسوع اندراوس ويوحنا وبطرس وفيلبس ونثنائيل ولفيف جمهور التلاميذ مخرجاً اياهم من الحظيرة الموسوية التي قضي عليها ليدخلها الى مروج الملكوت المسيحي « واذا خرج خرفانه يمضي امامها. والخرفان تتبعه لانها تعرف صوته » يمضي امامها ليقود خطواتها في سواء السبيل ويحميها من كل طارىء ويتنقي لها اخصب المراعي. فهذه هي خلة الراعي الصالح التي يعمل يسوع بموجبها كل يوم « واما الغريب فلا تتبعه لكنها تهرب منه لانها لا تعرف صوت الغرباء » وذلك لحسن طالع بشارة الانجيل لانهم كثيرون هم الفريسيون الاشرار الذين يحاولون ضلال القطيع لو استطاعوا

على ان السامعين لم يفهموا مآل هذه المشابهة ولهذا يصرّح لهم يسوع انه هو باب الحظيرة والراعي الصالح معاً وهو الفادي والملك. ولقد صار الباب الذي فيه يدخل الخطاة الى حظيرة المختارين بواسطة تضحية نفسه مصلوباً. وهو ايضاً الراعي الصالح الذي يرعى الخراف بتعليمه ومثله ونعمته السرية الفعالة في القلوب. ولا غروَ انهُ لا يصير احد ابناً لله الاَّ باتحاده به ولا يستمر على هذه الحالة الا بشرط استمراره تحت رعايته. ويثبت يسوع ذلك بقوله: « الحقّ الحقّ اقول لكم اني انا باب الخراف » وبالحقيقة ما وُجد ولن يوجد باب آخر غيره يؤدي الى ملكوت الله « جميع الذين اتوا هم سراقون ولصوص ولكن

الخرفان لم تسمع لهم. انا الباب ان دخل احد بي يخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعىً. السارق لا يأتي الا ليسرق و يذبح و يهلك وانما انا اتيت لكيما تكون لهم الحياة وتكون لهم اوفر. انا الراعي الصالح. الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخرفان. اما الاجير الذي ليس براع وليست الخرفان له فيرى الذئب مقبلاً فيترك الخرفان ويهرب فيخطف الذئب الخرفان و يبددها. وانما يهرب الاجير لانه اجير لا يهمه امر الخرفان » وكم كان هذا الكلام خليقاً برؤساء الكهنة وكم كانت تنطبق عليهم صورة الأجراء. فانهم وان لم يجنحوا الى شرور وطمع الفريسيين و يمارسوا رتبهم الباطلة فانهم كانوا يهملون واجباتهم وبمداهنتهم واهمالهم يتركون الذئاب تفترس قطيع اسرائيل. و بالعكس كيف يلمع على جبين يسوع نجم الحب الذي يتفانى بخدمة الرعية كما هو دأب الراعي الصالح وعليه يزيد قائلاً : «انا الراعي الصالح فاعرف خاصتي وخاصتي تعرفني كما ان الآب يعرفني وانا اعرف الآب وابذل نفسي عن الخرفان » فيا له من حب عظيم لان يسوع لا يرتفي فقط ان يقوت القطيع بل ان يدافع عنه ضد الذئاب الخاطفة و يجود بنفسه ضحيةً عنه لارضاء غضب الخصم

وهذا الفكر الاخير قد مثّل امام ذهنه صورة تضحية ذاته التي كان يلتذّ بالمذيذ بها و بنتائج الخلاص المزمعة ان تُنجم عنها و بهذا المعنى قال : « ولي خرفان أُخر ليست من هذه الحظيرة فينبغي ان آتي بها ايضاً وستسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد » اجل ان اسرائيل هو اول مَن دُعي ولكن ليس وحده يكون من المدعوين بل يوجد خارجاً عنه قطيع عظيم يهيم في وادي الضلال و يطلب راعياً وهم الوثنيون الذين وان كانوا على ضلال في ما يعبدون فانهم بميل غريزي يتوقون الى الاله الحق و يبحثون عن العدالة الحقيقية. فيقبل يسوع الموت اختياريًا و ينبعث منه ليخلصهم. وعليه ينتج قائلاً : « من اجل هذا يحبني الآب لاني ابذل نفسي لآخذها ايضاً. ليس احد يأخذها مني ولكني

ابذلها باختياري . ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً . هذه الوصية قبلتها من ابي . » وكان السامعون يؤوّلون كلامه على انواع شتى : فالبعض كانوا يشتمون منه رائحة العدوان والبغضاء . والبعض الآخر وهم قليلون كانوا يقبلونه بفرح ويحملونهُ على مؤداه الطبيعي . وصار انشقاق بينهم من اجله . فقال كثير منهم ان به شيطاناً وقد جُنَّ فما بالكم تسمعون لهُ ؟ — وقال آخرون ان هذا الكلام ليس كلام مَن به شيطان . هل يقدر الشيطان ان يفتح اعين العميان ؟ » فتركهم يسوع وشأنهم واستعد لمغادرة المدينة المقدسة

الفصل الحادي عشر

ايام الاختلاء والوحدة

القريب — يسوع عند مريم ومرتا — يسوع يعلم تلاميذهُ كيف يصلون — مشورات خلاصية — مناجيات او مسامرات تقوية

طالع بشارة لوقا ١٠ : ٢٥ و١١ : ١٣ و١٢ : ٢٢ — ٥٩ . متى ٦ : ١٩ — ٢١ — ٢٥ — ٣٣ و٧ : ٧ — ١١ و٢٤ : ٤٣ — ٥١ و١٠ : ٣٤ — ٣٦

§

القريب

احسن يسوع صنعاً في تحوله عن اورشليم لان احتفالات العيد كانت قد انقضت ورجع الجليليون انصاره الى بيوتهم ولم يبقَ له عضد فيها على بغضاء الفريسيين . وفضلاً عن ذلك كان قد عزم على ان يبشر سكان قرى اليهودية وبيرية

وفي اثناء الطريق تقدم اليه واحد من علماء الناموس وقال لهُ : « ماذا

اعمل لارث الحياة الابدية ؟ » فتفرّس فيه يسوع وأشار باصبعه الى العصابة التي كان يحملها مكمله في زنده او على راسه مريدًا بذلك انه يبحث فيها عن الجواب. ولكي يحمله على التمعن قال له: « ماذا كتب في الناموس كيف تقرأ؟ فاجاب واجاد الكاتب في جوابه قائلاً: « أُحبب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك وكل ذهنك وقريبك كنفسك » فاذا كان جمع هاتين الوصيتين المتفرقتين في ناموس موسى واللاويين تختصر واجبات الانسان هو ثمرة تمعنه الحالي فلا يسعنا الا ان نشترك مع يسوع في استحسان هذا الجواب الذي جاء في محله ونقول مع يسوع: « اجبت بالصواب اعمل هذا فتحيا » على ان الكاتب لم يكتفِ بذلك منه بل الحّ على يسوع بقوله له: «ومَن هو قريبي ؟ » فالجواب على هذا السوال اصعب من ذاك اذ يطلب حله من القلب البشري وليس من الكتاب. وكان هذا البحث موضوع جدال عظيم بين الربانيين تضاربت فيه آراؤهم. فمنهم من قال ان المحبة الموصى بها للقريب لا تتجاوز افراد العائلة. ومنهم من ذهب الى القول انها تشمل جميع اعضاء الطائفة الدينية فقط. واخيرًا زعم البعض انها تمتد الى ابناء وطن واحد. ومن المقرّر انه لا مذهب من هذه المذاهب كان يصلح ان ينطبق على الديانة العمومية الجامعة التي اتى يسوع ليؤسسها على الارض. ومن ثم فحسب مبدإ يسوع ينبغي ان المحبة الاخوية تشمل جميع اعضاء الانسانية وتمتد حسب امتدادها. وكل انسان بمجرد كونه انسانًا من اي ديانة وطائفة وبلاد كان فهو قريبنا ويهمنا امره. وبما انه يشترك معنا بالطبع والرغائب والقلب والادراك والاحتياجات فهو اخونا وقريبنا. وعليه دون ان يجهد يسوع القريحة طويلاً يجد جوابًا نظريًا لهذا السؤال يورد المثل الآتي موضحًا افكاره باجلى بيان. قال: « كان رجل منحدرًا من اورشليم الى اريحا » وكان الرجل يهوديًا لانه ينحدر من اورشليم وكباقي المسافرين الى جهات بيرية من اليهود فانهم يسافرون بلا خوف لانهم

يكونون بين مواطنيهم ولربما كان الكاتب المعهود مسافرًا ايضاً الى هناك.
« فوقع بين لصوص فعرّوه وجرّحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت » ان المسافة بين اورشليم واريحا لا تزيد على ٢٥ الف متر. غير ان الطريق قفرة وعرة يأوي اليها عادةً قطاعو الطريق الذين يسلبون اموال العابرين. ولا ريب ان المسافر الذي نحن بصدده قد جاهد في الدفاع عن نفسه ولهذا قد اثخنوه جراحاً وبسبب الوحدة وانقطاع النصير وتفجر الدم من جراحه اوشك ان يموت. « فاتفق ان كاهناً كان منحدرًا في ذلك الطريق » الكاهن هو مثال الشفقة في جميع الاديان وذلك بسبب علاقاته المتصلة مع اله الرحمة غير المتناهية فتتأثر نفسه طبعاً من مزاولة اعمال وظيفته وتنطبع في قلبه عاطفة المحبة والحنو. ويرجح ان هذا الكاهن كان خارجاً من الهيكل بعد تتميم خدمته فيه وقافلاً الى بيته في مدينة اللاويين. فالفرصة اذن في غاية الموافقة لاظهار رغبته في عمل الخير للقريب بعد ان أوفى واجباته لله سبحانه. غير انه « ابصره » مطروحاً على الارض ملطخاً بدمائه وغير قادر ان يدعوه لاغاثته لا بالكلام ولا بالاشارة بل بجروحه وتنهداته ولسان حاله فقط. على ان ذلك الكاهن كان قد تتلمذ على ايدي الفريسيين القساة القلوب فلا يجد في المنازع جرّ مغنم ولهذا وخز فرسه « وجاز » غير مبالٍ . « وكذلك لاوي وافى المكان » اي جاء بعد السيد الخادم. فهذا يتم في الهيكل الاعمال اليدوية ومن ثم كان معتادًا تقديم مثل هذه الخدم وجديرًا بعمل الخير. أما هذا « فابصره » عن قرب وكأنه كان يريد ان يغيثه ولكن ماذا ما تتوهمون ايها الناظرون اليه لانه «جاز» نظير الاول ولم يرحمه خوفاً من ان يُتهم به او اشمئزازًا ولكن لا فرق فالنتيجة واحدة . « ثم ان سامريًا مسافرًا مرَّ به فلما رآه » ولا يخفى ان كل سامري كان يحسب شريرًا في عين كل يهودي ومقابلة لهذا الازدراء كان السامريون يكرهون اليهود كرهاً غريزيًا. ولا ريب ان هذا

السامري عرف المسكين الملقى امامه انه يهودي عند اول لحظة وبناء على ما تقدم كان حقه ان يشمت بمصابه ويغادره نافرًا كمن يغادر جيفة قذرة. ولكن لم يفعل شيئًا من ذلك بل انه ينسى تجاه الموت البغضاء الطائفية ويرى في هذا الاسرائيلي انسانًا مثله. وقد وجد في اعماق قلبه البشري حلة ذلك السؤال هل هذا هو قريبه ام لا. فنبذ ظهريًا تعاليم الربانيين الفاسدة ووقف وقال — لو كنت انا على الطريق نظير هذا لكنت اتمنى ان ارى قريبي في يهودي يغيثني. وللوقت « تحنن عليه » اي تبع عواطف قلبه الحبية غير مبالٍ باشغاله الشخصية وبخطر تهمته به وبصفة كونه غريبًا ودنا اليه وضمد جراحاته وصبَّ عليها زيتًا وخمرًا. ويظهر انه كان مستحضرًا في سفره لمثل هذا الدواء البسيط ثم حمله على دابته واضعًا نفسه في خطر الوقوع بين ايدي اللصوص اذ ترجل هو ليسند ذلك المنكود الحظ ويخفف عنه وطأة الالم قدر استطاعته. وتابع السير الى ان اتى به الى فندق واعتنى بامره مدة النهار والليل وفي الغد اذ رآه متقدمًا الى الصحة اخرج دينارين واعطاهما لصاحب الفندق الذي كان يهوديًا وبالنتيجة اقرب منه اليه وقال له: « اعتنِ بامره ومهما تنفق عليه فوق هذا فانا ادفعه لك عند عودتي »

فمن المقابلة بين قساوة الاولين ومحبة وشفقة الاخير يظهر الجواب جليًا على هذا السؤال: « من هو قريبي». غير ان يسوع اراد ان يستخلص الكاتب نفسه وعليه التفت اليه وقال له: « فاي هؤلاء الثلاثة تحسبه صار قريبًا للذي وقع بين اللصوص ؟ » فهذا السؤال على ما هو عليه يوهم ان واضعه قد اخطا المرمى ولم يفِ بالمقصود لان الكاتب سأل يسوع من هو قريبي الذي التزم بعمل الخير نحوه. ويسوع يسأله الآن عن القريب الذي الذي صنع معه الخير. غير انه يسهل على من عرف ان كلمة قريب كلفظة الاخ تقتضي المبادلة بين اثنين فكما ان كلاًّ من الاخوين يكون اخًا لاخيه هكذا كل من القريبين يكون

قريب قريبه ولا فرق في وضع الواحد محل الآخر فالذي يعمل الخير مع آخر يدعى قريبه ومن يصنع الخير معه يكون قريباً لصانعه ايضاً. وقد خالف يسوع هنا الوضع قصد تبليغ الامثولة وزيادة ايضاح في الجواب المطلوب. والحق يقال اننا نفهم عادة ما هي واجبات الغير نحونا اكثر من واجباتنا نحو الغير. وعليه فلربما كان قد تردد الكاتب المذكور في تحديد من هو قريبه لو طلب منه عمل الخير نحوه. ولكنه يفهمه جيداً في من كان هو يطلب المساعدة منه. فليفترض ذاته محل ذلك المسكين الذي اغتالته ايدي اللصوص فتتجلى له الحقيقة وتزول عنه صعوبة الجواب فيعرف حينئذ كيف ان السامري يضحي قريباً لليهودي. ففهم الكاتب مآل كلام يسوع غير انه ما اراد ان يلفظ اسم السامري نظراً لما كان عنده من النفور نحو امته فاستعمل ما يدل عليه دون ان يسميه اذ قال: «الذي صنع اليه الرحمة — فقال له يسوع امضِ فاصنع انت كذلك» وكأنه قال له كن انت قريباً نحو كل من وجد في ضيق ولا تعبأ بما يقوم في وجه رحمتك من حواجز الوطنية والدين والاميال الشخصية. فلو وقعت انت في مصيبة فلا ريب انك تطلب يد المساعدة من جميع البشر. وبالمقايسة والمبادلة عليك ان تعامل وتعتبر جميع البشر مثل قريبك

§

يسوع عند مريم ومرتا

وفيما هم سائرون — يقول لوقا البشير — دخل يسوع قرية فقبلته امرأة اسمها مرتا في بيتها. فالقرية حيث اراد يسوع ان يقبل الضيافة الى عيد التدشين هي بيت عنيا الكائنة على مقربة من اورشليم. وكانت لمرتا اخت تسمى مريم واخ احدث منهما سناً يدعى لعازر. وكانت مرتا ربة البيت ولكن الاهمية في تاريخ البشارة لمريم. وهاتان الشقيقتان وان اختلفتا بالطبع والسيرة فانهما تتفقان في تعلقهما بيسوع. فكانت مرتا حسنة الاخلاق تبرهن

عن ودها بالاهتمام بما يتعلق باشغال البيت للقيام بحق الضيافة نظير ربات البيوت الحاذقات في التدبير. واما مريم فكانت مثال الذكاء والفطنة والآمال السامية مجملة باشرف مزايا جنسها اللطيف. تلك كانت تتوق الى السماء ونفسها لم تكن امتحنت بعد عواطف الحياة وقلب هذه قد جُبل لمعاركتها ولقد حطمته هوجاؤها ولكنه خرج من اشراكها وفيه بقية من الحياة قادرة ان تجدده مثل النسر. وسيظهر اختلاف الشقيقتين في نوعية تصرفهما مع يسوع. ومن الآن يلوح لنا سبب تفاوت تعلق الاختين بشخصه: مرتا تمثل لنا المرأة الامينة المجتهدة في تدبير امور منزلها ولهذا لم يكن في وسعها اظهار فرط الحب الذي كانت تشعر به مريم نحو يسوع نظراً لما اوتيته من الاحسان ابان شرود ذلك القلب وتهوره في اودية الغواية

ومريم هي تلك المجدلية التي اخرج يسوع منها السبعة الشياطين اي اخرجها من لجج تلك الحياة الفاسدة بالاثم حيث تغرق النساء البغيات متى عبثن بشرفهن تابعات اهواء النفس الامارة بالسوء

ومن تفحص دقائق المخبر عنها في الانجيل الطاهر عرف ان الشقيقتين مع اخيهما كانتا على جانب عظيم من سعة العيش والثروة في بيت عنيا. ودليله اننا نراهما تكرمان قيامة اخيهما لعازر بوليمة فاخرة قد اجتمع فيها عدد عظيم من المدعوين والمدفن الذي دفن فيه من اعظم المدافن المنقورة بالصخر واثاث البيت فاخر اذ وجدت فيه مريم اناء من المرمر الابيض الثمين واخيراً الطيب الذي وضعته فيه يدلّ عادة على رغد العيش وهنائه. وفضلاً عن ذلك فان العلائق الودية التي كانت للاختين مع اعاظم رؤساء الاحزاب الدينية في اورشليم تشير الى ان رجال عائلتها كانوا مهمين في تلك البقعة وقد باشروا وظائف عالية. و بالحقيقة نجد حول تابوت لعازر اليهود اعني حسب مفهوم يوحنا الانجيلي بهذه الكلمة جميع اصحاب الوظائف والمتقدمين فيهم من

الكتبة وشيوخ الشعب ورؤساء الكهنة والفريسيين جميعهم اتوا ليعزوا مرتا ومريم و يقتسموا حزنهما · وما كان يزيد داخل ذلك البيت ملذة انما هو حسن طوبة تينك الشقيقتين الحالتين فيه ولقد صورهما لنا القديس لوقا بالهيئة التي كانتا عليها من المزايا المحبوبة · ولما دخل المعلم الى بيتهما استقبلتاه على ما يليق به من الاحتفاء والتجلة وشرعتا معاً في الشغل وتدبير ما يلزم غير انه عندما شرع يسوع يعلم تلاميذه تركت مريم كل شغل يدوي واتت فجلست بين الرسل عند ذينك القدمين الذين بلتهما بدموع سخينة من قبل و بانعطاف فائق الوصف كانت تسمع كلامه فتشبع من ذلك الطعام الروحي غير مبالية بامور الخدمة المادية · فهذه الجلسة حيث تمتزج المحبة والاخاء هي خليقة بالمجدلية اذ كانت تعودت اكثر من اختها التقربَ من يسوع والعمل برغائبه ومجاوبة نعمته · ونفسها كانت اكثر استعداداً وتأهباً لقبول التعاليم السامية مما جعلها تثمر فيها ثمار الفضائل · ولقد درست علم الكمال هذا في كتاب الندامة ومعرفه الجميل الغير المعروف من اختها · وكانت تقدم على كل شيء الاعتناء بنفسها التي طالما اهملتها سابقاً وتعلم يقيناً انها بعملها هذا تعجب المعلم اكثر منه بخدمتها المادية له · ولقد صنعت ما كان متوجباً عليها عمله من الخدمة احتفاء بضيفها الكريم ولكن عندما اخذ المعلم بتوزيع القوت الروحي فهمت هي حالاً انه يدعوها اليه و بلسان حاله ينبهها ان وقت الخدمة قد انقضى وحان وقت التلمذة واذا ارتأت اختها بصفة كونها ربة البيت انه من واجباتها ان تصنع اكثر فانها تدعها تلتذ بما تجد فيه حظها اما هي فقد وجدت حظها عند قدمي موزع القوت الروحي ورأت ان الافضل لها ان تُخدم في مثل هذا الوقت من ان تخدم

ولم يجد يسوع ما يقال في عمل مريم هذا غير ان اختها مرتا التي كانت مرتبكةً بخدمة كثيرة احتفاء بالزائر تخرج وتعبر بخفة متأسفة على قلة حظها

وعدم امكانها سماع اقوال المخلص بينما ان اختها مريم تنال منه الحظ الاوفر بحلولها قرب يسوع وقد اخذتها الغيرة الطبيعية من حظ اختها فوقفت فجأة ابّان ذهابها وايابها امام المعلم وقالت له بلهجة العتاب الذي لا يخلو من الحدة « يارب أما يعنيك ان اختي قد تركتني اخدم وحدي فقل لها تساعدني » ولما لم يفطن يسوع من ذاته الى اجتهاد مرتا في الخدمة واعطائها حقها من المدح على نشاطها ارادت ان تحمله على ذلك بواسطة كلامها وقدَّرت انها تضطره في الوقت عينه الى ابعاد مريم عنه · فتكون قد حصلت على ما تبتغيه من معرفة تعبها في خدمة البيت وازالت وهم اختها بانها تعجب المعلم اكثر بسماعها كلامه بانشغاف مع انقطاعها عن الخدمة · غير ان من لم تخفَ عليه خافية عرف سرائر قلبها وها هو يعلمها كيف ينبغي ان تفتكر وما يجب عليها عمله اولاً بقوله لها : « مرتا مرتا انك مهتمة ومضطربة في امور كثيرة وانما الحاجة الى واحد فاختارت مريم النصيب الاصلح الذي لا ينزع منها · » وعلى هذا النمط يوجه يسوع الى مرتا باسلوب غاية في الرقة والدقة اللوم نفسه الذي كانت تتمناه لاختها مريم · وقد اثنى على مريم في الوقت عينه لاصابة رأيها في تفضيل قوت الروح على قوت الجسد قائلاً انها اصابت باختيارها هذا النصيب الذي لا يستطيع احد ان ينزعه منها حتى اختها رغماً عن اجتهادها وغيرتها في نزعه منها · ومرتا نفسها اذا شاءت ان تكتسب رضا المعلم عليها ان تقتدي باختها وتجلس لتقتسم حظها من الوليمة الروحية اي استماع التعاليم الخلاصية · لان ما هو ضروري للغذاء المادي كان قد أُعدَّ من زمن فما الحاجة الى الاكثار الزائد خصوصاً اذا كان هذا يمنع عن سماع التعاليم المسيحية التي هي اشهى وليمة العيد · لعمري ان ذلك ضرب من الجنون · اذن كان الاجدر بمرتا ان تلوم نفسها بدلاً من ان توجه سهام لومها نحو اختها لانها فضلت بصنيعها هذا لذة مديح المدعوين لوليمتها على لذة سماع الكلام الالهي وكان الواجب

عليها ان تعتبر عمل اختها مريم وتقتدي به . وبما ان المطلوب لحاجة الجسد حسب قول المعلم قد اعدّ فليحضر الآن مطلوب النفس . قليل من اللحم على المائدة يكفي لقيام الجسد ولكن قليل من الدين لا يكفي لخلاص النفس . وعلى هذا المنوال كان يسوع يظهر شكره نحو ضيفه ويعوض عن الخسارة المادية التي كان يسببها له بعض نصائح مفيدة للخلاص .

§

يعلم يسوع تلاميذهُ كيف يصلون

ووجد يسوع الراحة والسلام في اثناء اختلائه عند صديقتيه في قرية بيت عنيا التي هي على مقربة من المدينة المقدسة ولا يفصلها عنها سوى جبل الزيتون وقد اختار تلك البقعة للانفراد مع تلاميذه قصد ان يظهر عند مسيس الحاجة في اورشليم متى اراد ان يستأنف الكرة على اخصامه او يلجأ اليها احترازاً من غوائل غضبهم عليه . والى يومنا هذا كلما حان من الناظر التفاتة نحو تلك البيوت البيضاء القائمة على منحدر ذلك الجبل يتخيّل انه يرى يسوع يعلم تلاميذه ويعدهم الى الكفاح تحت سقف احد تلك البيوت او في ظل تينة او نخلة او جميزة من الاشجار التي تظلل حتى الآن سفح الجبل الموما اليه . ولا يبعد ان يكون يسوع قد قضى كل مدة الشهرين بين عيد المظال وعيد التدشين في العمل المشار اليه . ولا مشاحة ان تلك هي اسعد فرصة قضاها يسوع في دور حياته على الارض . اذ كان السامعون كلهم آذان لسماع تعاليمه وكلهم رغبة في استقصاء اسمى الحقائق التي كان يلقيها عليهم . وكانت مرتا ومريم تضاعفان اجتهاد التلاميذ في الترقي الى اعلى مدارج علم الخلاص بواسطة اصغائهما وغيرتهما على ادراك تلك الحقائق الراهنة . ومن المقرر ان حضور المرأة الذكية المباحث الدينية واشتراكها فيها مما يثير شعلة الحمية والمغايرة في قلوب السامعين لانها مريعة التحمس طبعاً في البحث عن الحقيقة ولا يندر انها تتصل بواسطة

قلبها العظيم الشعور الى ادراك ادق المسائل وبالوقت نفسه تصير افضل تلميذ عند المعلم الذي تدرس على يده · ويثبت لنا ذلك واقع حال الرسل فاننا نراهم من الآن فصاعداً متقدين غيرة لاقتباس تعاليم المخلص ولما عاد يوماً يسوع من الصلاة اجتمعوا حوله وطلبوا منه ملحين بلسان احدهم ان يطلعهم على سر الصلاة بورع وحرارة وقالوا له: يارب علمنا ان نصلي كما علم يوحنا تلاميذه. فاجابهم يسوع بحنو جذاب قائلاً: «اذا صليتم فقولوا «ابانا الذي في السموات» وبهذا النداء الموجه الى السماء يرفع الانسان بحب واطمئنان رأسه الذي كان منحنياً منذ اجيال عديدة تحت نير الشريعة الثقيل. كان اله اسرائيل يهوا الكائن العظيم في ذاته المخوف صاحب القدرة والجبروت ولهذا لم يكن ليجسر ان يدعوه كأب ولكن التجسد الالهي والصلب قد اخرجا الانسانية مطهرة ومفتداة بالكلمة المتأنس من حالة التعبد ورفعاها الى حالة البنوة لله · فهذه الكلمة «ابانا» عبارة عن عاطفة المحبة البنوية نحو الله اينا مع عاطفة المحبة الاخوية لمجموع اعضاء الالفة المسيحية· وينبغي على كل نفس مسيحية ان تحركها في باطنها عندما تقوم الى الصلاة. فاي مجال فسيح ينفتح للنفس والحالة هذه واي عظمة تكتنف من يفتتح صلاته على هذا النمط.
يخاطب ابا يصغر امامه الآباء الارضيون فينتعش فيه الامل بتحقيق امانيه اذ هو بازاء اب مليك السموات كلي المحبة له ويعلم يقيناً جميع احتياجاته وفوق ذلك هو كلي القدرة على استجابة طلبه

«ليتقدس اسمك» الاسم يستحضر الشخص ومن اكرم الاسم فقد كرّم المسمى به وعلى المسيحي ان يطلب ان يكون اسم الجلالة مكرماً من جميع المخلوقات. والحال يكون كذلك على قدر معرفة كمالات صاحب ذلك الاسم معرفة جلية خالصة وراسخة · اذن يشتمل هذا الطلب عينه تمني انتشار العلم الحقيقي الراسخ في صفات الله وكمالاته الجوهرية. واذ ذاك يرى الانسان بمرآة

ضميره صورة الخالق اجلى واشرق منه في المخلوقات الخارجية فيخر ساجداً لهيبته غير المتناهية ويهتف مع الساروفيم قائلاً · « قدوس قدوس قدوس الرب ·» ولا يتلفظ باسمه الا بالاجلال اللائق بقداسته المنقطعة النظير · « ليأتِ ملكوتك » اجل لا يكفي لمجد الله اجلال اسمه القدوس . ومعرفة الله واكرامه لايُذكران في جانب ما هو متوجب على الانسانية نحوه تعالى بل من باب الالزام ان يقبض الله على زمام الملك علينا ويجلس على عرشه بيننا وهذا ما يعده توسيع نطاق التبشير بالانجيل ويتمم وقوعه حلول نعمة الروح القدس بواسطة تأييد اركان الكنيسة · ولكن ينبغي لنا ان نرفع اكفّ الضراعة لله كل يوم ليملك في نفوسنا فيقتاد خطواتنا باشارة صولجانه ويقينا من الزلل بسهره علينا ويخلصنا بحبه لنا · ولعمري كلما امتدَّ ملك الله في العالم يعظم مجده ويعمّ الخلاص اغالية البشر · فكم يتعزى قلب الانسان عند علمه انه طلب حلول ملك يمتنع فيه الشر ويكثر الخير وخاصةً اذا تأكد ان ذلك الحكم لا ينحصر في هذه الحياة الدنيا بل يمتد الى ما وراء اللحد لان ملء ملكوت الله يشمل الزمان والابدية

« لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض » ان معرفة الله تسوق الى رغبة حصول ملكوته وهذا مما يحملنا على اخضاع ارادتنا البشرية لارادته تعالى اذ من البديهي ان للملك حق التسلط على مشيئة رعاياه · وهل في وسعنا ان نريد خيراً افضل مما يريده الله ؟ وارادته عزَّ وجلَّ تستنير بنبراس علمه غير المحدود ولا تحيد البتة عن ارشادات بصيرته الازلية · ومن ثم هل يجد الانسان دستوراً لاعماله اكمل وافضل من مشيئته تعالى ؟ وبالنتيجة عليه ان يجتهد اولاً في معرفة ما يريده الله ومتى عرفه يتحتم عليه اتباعه رغماً عن جميع الصعوبات التي تضعها في طريقه الشهوات والضعف البشري والشيطان · واذا ملك الانسان على ما ذكرنا جاعلاً وصية الله الازلية مصباحاً لقدميه فانه

يشارك العلي بحياته ويضاهي وهو على الارض الملائكة في السماء اذ تلك هي خطة العالم الوحيدة . وهذا اقصى ما يُطلب منا ان نتمناه اي ان يكون الله معروفاً ومكرماً ومالكاً علينا ومسلطاً على ارادتنا . غير انه من الضرورة ان يحيا الانسان اولاً ويحصل على مغفرة خطاياه الماضية ويكون على ثقة من المساعدة في الحاضر وهذا ما يسبب رجوع الانسان الى ذاته في القسم الثاني من الصلاة الربية

« خبزنا كفافنا اعطنا اليوم » لعمري ان في وقفة الانسان الذي يمدّ يده كل يوم نحو العناية الابوية كالمتسول المسكين طالباً من كرمه تعالى ما يسدّ عوزه الجسدي والادبي من الثقة البنوية ما يرقق القلوب الصخرية ويحرك الى الحنو والشفقة . ويحصر المسيحي طلبه فيما يعوزه اليوم لعلمه ان الجوّاد لا يحصر كرمه ولا يقتّر في عطاياه وقد اوصاه ان لا يهتم بالغد . ويطلب كفافهُ فقط بلا زيادة طبقاً للقناعة الانجيلية . فان اكثر الله العطاء نشكره على غزارة جوده وعلى تمهيده لنا السبيل لان نجود نحن ايضاً من مال الكريم على المعوزين . وان شاء ان لا يهبنا الا ما هو ضروري لنا فقط فله علينا اداء فرض الشكر والمنة ايضاً . فالجسد يأكل الخبز والنفس تقتات من الحقيقة . لذاك القوت المادي ولهذه الخبز الروحي السماوي . ويجمع بينهما تناول الخبز السماوي على مائدة الافخار يستيا حيث يسوع يقوت بجسده ودمه جسد ونفس المسيحي الذي يستجير به ويتقدم اليه

« واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن اساء الينا . » فهذا سبيل الانسان ان يطلب كثيراً اذا كانت خطاياه عديدة وثقيلة وذلك بحجة انه مع كونه شريراً يغفر لمن اساء اليه وهل يدع الله الانسان اعظم منه سخاء ? كلاَّ لعمري . وعليه فنظير الابن الشاطر يرفع الخاطئ كل يوم اكفّ الضراعة للآب السماوي طالباً منه السماح دون ان يقدر على وعده بعدم السقوط ثانية . وان اخطأ غداً

يرجع اليه متوسلاً فيغفر له ايضاً ولا تنضب عنه مياه المغفرة الا متى اصرَّ على بغضه اخاه وسدَّ في وجهه باب المغفرة اذ من العدل ان يشرع الله سيف انتقامه مسلولاً فوق رأس من يطلب الانتقام من اخيه لاجل اهانته له . ومن يغفر يغفر له و بالكيل الذي به يكيل يكال له . و ينتقل الانسان من طلب المغفرة عن الآثام المرتكبة الى طلب المساعدة للنجاة منها في المستقبل بالانتصار على التجربة . والمراد بالتجربة هنا ليس الامتحان الذي به يضع الله الانسان بين احد امرين الخير والشر ليختار ما يحلو له اختباراً لفضيلته بل المراد بها وساوس ابليس التي تدفعنا الى الخطيئة احياناً بخداع العقل واخرى باثارة الاميال المنحرفة بواسطة قوة التصور الفعالة فينا . لان الامتحان الذي يختبر الله به صبرنا ليس شراً ومن ثمَّ لا يحسن بنا ان نطلب النجاة منه . على ان تجارب الشيطان ووساوسه هي دائماً خطر قريب لفضيلتنا ولذلك نتوسل الى الله ان يبعدها عنا

« ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير . آمين . » الضعف في عمل الخير وميل النفس الى الشر خاصَّة غريزية في طبعنا البشري قد ورثناها مع الخطية من ابوينا الاولين . وبناء على ذلك كل مرة دخلنا في تجربة ولم تعضدنا يد العلي نسقط لا محالة . نعم قد تجدد الانسان بواسطة الفداء ولكنه لم ينسَ انه عبد معتوق ترتجف فرائصه خوفاً من تصور الخضوع ثانية لنير عبودية مولاه السابق فيهتف نحو ربه المتعال : لا تتركني اللهمَّ وحدي ولا دقيقة واحدة بل اعضدني بنعمتك وفي آن التجربة انزع عني الميل الى الشر وإلاَّ فحكّم بي الظروف المانعة لي عن اتمامه

وعلى ما اشرنا يمكن اختصار معظم اماني الطالب في جزئين يحتوي كل منهما ثلاثة سؤالات متقارنة . فتكون جاءت هذه الصلاة البارزة من فم المعلم اجابة لطلب تلاميذه ملحة ايجاز ضمت في قليل من الكلام كثيراً من الرغائب المختلفة والعواطف التقوية وادق الحقائق الدينية وقد آثر المخلص فيها

استعمال صورة الانشاء الدعائية في تضرعنا اليه تعالى دلالة على ثقتنا بنوال المرغوب . وكلمة امين العبرانية (هكذا فليكن) تزيدنا ايضاحاً في ان الله لا يرفض طلب من يدعوه بثقة بنوية . ففيها اذن حسن الختام . واذا تخيلنا حيناً انه تعالى يصمّ اذنيه عن سماع دعائنا فلا نقنط بل علينا بتكرار الصلاة فلا ريب اننا نظفر به تعالى اخيراً وهو يريد ان نظفر به بشرط ان تكون الصلاة سلاحنا الوحيد عليه

وضرب يسوع مثلاً ليوضح لنا ذلك قال : « من منكم يكون له صديق فيمضي اليه نصف الليل ويقول له ياصديق اقرضني ثلاثة ارغفة لان صديقاً لي قدم عليَّ من سفر وليس عندي ما اقدم له . فيجيب ذلك من داخل قائلاً لا تعنّني فان الباب قد أُغلق واولادي معي في الفراش فلا استطيع ان اقوم واعطيك . اقول لكم انه ان لم يقم ويعطه لكونه صديقه فانه يقوم للجاجته ويعطيه كلما يحتاج اليه . وانا اقول لكم اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم . لانَّ كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له . »

فهذه حالة الله بالنظر الى المؤمن الذي يتوسل اليه وهو في حال النعمة متحداً بالروح مع المسيح فانه يتنازل حتى يصير بمثابة صديق يمكننا ان نغتصبه بلجاجتنا الى اجابة مطالبنا . وعلى قدر ما يظهر معرضاً عن سماع توسلاتنا بقدر ذلك يجب علينا الالحاح واستئناف التضرع طالبين وسائلين وضارعين كما يقول لنا المعلم نفسه

على انه لا ينبغي لنا ان نخرج في سؤالاتنا عن الدائرة التي رسمها لنا المعلم ونطلب ما ليس هو خيراً حقيقياً لنا او ما هو شر فلا يستجيب حينئذٍ لنا الرب بل يرى في حكمته ما هو انفع لنا فيهبنا اياه . ولكنه غالباً يصيخ سمعاً لتوسلات شفاهنا في حين انهُ يتظاهر برفضها وعليه قال : « من منكم يسأل اباه خبزاً فيعطيه حجراً او سمكة فيعطيه حية بدل السمكة او اذا سأل بيضة يعطيه

عقرباً ؟ فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لابنائكم فكم بالحري ابوكم من السماء يمنح الروح القدس لمن يسأله »

§

مشورات خلاصية

واراد يسوع ان يزيد ايضاحاً حقيقة حنو الله الابوي على الانسان فقال لتلاميذه : « فهذا اقول لكم لا تهتموا لانفسكم بما تأكلون ولا لاجسادكم بما تلبسون . فان النفس افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس . » اي من اعطى الكثير لا يبخل بالقليل واذا كان الله اعطانا الحياة فهو يقوتها واذا كان منحنا الجسد فانهُ يجود علينا باللباس . وما يكلفنا عرق القربة فهو يعطيه بلا تعب . ولنا على ذلك شاهد سخائه على الكائنات التي لا تعرف الطلب كيف يلبسها ويقوتها من بحر كرمه فكم بالحري يجود بذلك كله على اولاد يعرفون الجميل ويثقون بحبه الابوي لهم وبياناً لذلك قال ايضاً : « تأملوا الغربان فانها لا تزرع ولا تحصد وليس لها مخزن ولا هريٌ والله يقوتها . انتم بالحري افضل من الطيور . » لعمري ان الله لا يجعل الانسان الناطق اقل حظاً من بقية مخلوقاته . وفضلاً عن ذلك فانه بقدر ما يكون اتكالنا على الله صوابياً فبقدر ذلك هو باطل اتكالنا على ذواتنا ولهذا يستأنف يسوع الكلام قائلا : « من منكم اذا همَّ يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ فان كنتم لا تقدرون ولا على الاصغر فلمَ تهتمون بالبواقي ؟ تأملوا الزنابق كيف تنمو انها لا تغزل ولا تنسج وانا اقول لكم انَّ سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فاذا كان العشب الذي يوجد اليوم في الحقل وفي غدٍ يطرح في التنور يلبسه الله هكذا افلا يلبسكم بالاحرى انتم ياقليلي الايمان . » من المزايا الحسنة التي تخص بها العناية اصحاب العقول الذكية ليس فقط ادراك دقائق الامور السامية وعلم المبادي والحقائق التي تفوق طاقة السواد الاعظم من الناس بل عندهم ايضاً اليد الطولى

في انتقاء الاساليب الواضحة واختيار الصور اللطيفة التي تسهل على المقربين اليهم فهم تلك الحقائق عينها بدون عناء ولا تفيجر . فلا غروَ اذا كنا نري يسوع يتخذ من الزهر المنثور تحت قدميه او من الطير الذي يسبح في الجو تصورات ومشابهات لطيفة واضحة للجميع رغبة ان يبين للمقربين اليه باسلوب بسيط واضح اسرار فلسفته الالهية العميقة ويجرد في الوقت عينه برهاناً لا يرد ولا يدفع على اثبات الحقيقة التي هو بصددها . ولا ريب ان حذاقة بنات صور وصيدا اللواتي كنّ يحكن اردية سليمان تقصر عن صنعة الطبيعة في دقة صُنع تُويجْ الازهار وإحكام توقيع سنوفها على شكل شعاع يكللها فيجعلها سلطانة الحقل . والقصّار مع كل اجتهاده لم يستطع ان يعطي الى عباءة ابن داود لا بياض الزنبقة البهية ولا رونق الشقائق . والحال انه اذا كان الله يخلق ويقوت الازهار باعتناء هكذا جزيل على حين انها ليست الاَّ زينة الارض فهل يمكن ان يترك بلاقوت ولا لباس الانسان ملحة يديه على الارض على حين انه الوحيد الذي يعرفه ويحبه ويخدمه فيها ؟ كلاَّ ثم كلاَّ . وعليه ينتج يسوع قائلاً : فلا تطلبوا ما تأكلون او ما تشربون ولا تقلقوا لانَّ هذا كله تطلبه امم العالم وابوكم يعلم انكم تحتاجون الى هذا (وذلك حسبكم) . » وعلى هذا المنوال يميز يسوع عن اليهود الغير المؤمنين والكفرة الجهلة تلاميذَه الذين هم اعضاء عائلة الله وقطيعه الممتاز فالى هؤلاء يقول بلهجة الحنو الابوي ان يتبعوا طريقهم المستقيمة وهم على ثقة من التفاته نحوهم وعدم تركه اياهم البتة . ولهذا يفيض في الكلام على هذا المبدا نفسه قائلاً « بل اطلبوا ملكوت الله وهذا كله يزاد لكم . لا تخف ايها القطيع الصغير لانه قد حسن لدى ابيكم ان ان يعطيكم الملكوت . بيعوا ما هو لكم وتصدقوا . اجعلوا لكم اكياساً لا تبلى وكنزاً في السموات لا ينفد حيث لا يقربه سارق ولا يفسده سوس . لانه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم »ان الانفس النشيطة القوية تأخذ حرفية

هذا الكلام وتسلك بموجبه اما البقية فيكفيها ان تسري بحسب روحه

ثم يوصي يسوع خاصته بالسهر على نفوسهم كي يخلصوا قال : « لتكن احقاؤكم مشدودة وسرجكم موقدة ٠ » اي بهذا يعرف الخادم الامين اذا كان دائماً منتصباً على اهبة الإقدام على العمل لمجد معلمه وسراج الايمان موقد في نفسه يرشد حركات اعماله ٠ « وكونوا مثل رجال ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى اذا جاء وقرع يفتحون له سريعاً ٠ طوبى لأولئك العبيد الذين اذا جاء سيدهم وجدهم ساهرين٠ الحق اقول لكم انه يشدُّ وسطه ويتكئهم ويدور يخدمهم ٠ ان جاء في الهجعة الثانية اوجاء في الهجعة الثالثة ووجدهم كذلك فطوبى لاولئك العبيد » وايم الحق ان غيرتهم تكون عظيمة على معلمهم ولكن الجزاء اعظم ويفوق كل امل وانتظار ٠ فالعبد الامين المتيقظ يقضي حياته بانتظار سيده وهذا لا يأتي الا بعد الموت وفي خاتمة حياة قضاها بين ضياء الايمان وملذة فسحة الامل يرى ذاته سعيداً ان يجيب سيده حالما يطرق الباب : « ها أنذا » ويفتح له سريعاً ٠ فلا يجد في الموت ما يريعه بل ما يفرحه بلقاء سيده ويتراءى هذا له متلألئاً باثواب العرس الذي صنعه له ابوه في السماء ٠ فالعبد لم يكن يستنظر جزاء سهره سوى الملذة في ارضاء سيده وكلمة استحسان منه تكفي لتجعله ينسى كل ما عاناه من تعب سهر الليل كله اما السيد فلا يرضى له بذلك ولا يدعه اكرم منه واجود فيصنع لكل من سهر بانتظاره مأدبة فاخرة تتوفر فيها اسباب المسرات ويقوم هو يخدم عبيده مشبعاً اياهم من ملذات مجده ويجازيهم اضعافاً عن جميع استحقاقاتهم الارضية فالسهرَ السهرَ لان المكافأة تفوق كل تصور وتنسي التعب وان عظيماً ويستدرك يسوع قائلاً ٠ « واعلموا هذا انه لو علم ربُّ البيت في اية ساعة يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته يُنقب ٠ فكونوا انتم ايضاً مستعدين لانه يأتي ابن البشر في ساعة لا تظنونها »

فراق لبطرس جزاء العبيد الامناء فقال مستفهماً يسوع : « ألنا تقول هذا المثل ام للجميع ايضاً ؟ » واراد المسيح ان يوضح المساواة بين المؤمنين الحقيقيين والعبيد الامناء سواء كان بالنظر الى الاجر أم بالنظر الى الجزاء وكل ذلك بلا ريب مع وجود النسبة بين التعب والجزاء فمن جاهد اكثر يأخذ اكثر . وبياناً لذلك قال ايضاً : « من ترى الوكيل الامين الحكيم الذي يقيمه الرب على خدمه ليعطيهم مكيال القمح في حينه . طوبى لذلك العبد الذي يأتي سيده فيجده يعمل هكذا . في الحقيقة اقول لكم انه يقيمه على جميع ما هو له . ولكن ان قال ذلك العبد في قلبه ان سيدي يُبطىء في قدومه فجعل يضرب العبيد والاماء ويأكل ويشرب ويسكر. يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره وساعة لا يعلمها ويفصله ويجعل نصيبه مع الكافرين . فالعبد الذي علم ارادة سيده ولم يعد يفعل بحسب ارادته يضرب كثيراً . والذي لم يعلم وعمل ما يستوجب به الضرب يضرب يسيراً . وكل من أُعطي كثيراً يطلب منه كثير ومن اودع كثيراً يطالب باكثر » ومن ثم فوظيفة التبشير التي تجعل الرسل اقرب المقربين الى السيد ستكون سبباً لعقاب شديد اذا لم تكن علة لجزاء عظيم . وعلى هذا النمط كان يسوع ينشط تراخي البعض وينبه الباقين ان اول نتيجة للرتب العالية انما هي الالزام بمزاولة اسمى الفضائل

وفضلاً عن ذلك فوقت الامتحان قريب يوضع فيه كل احد في البوتقة ليظهر فضله بالنار « اني جئت لألقي ناراً على الارض وما اريد الاّ اضطرامها ؟ » والحريق يكون فجائياً عمومياً هائلاً وآكلاً في الظاهر فقط لان يسوع يحرق كل شيء ليجدد الكل . واول فريسة لتلك النار يكون هو نفسه ولهذا السبب يتمنى دنو التجربة . وبناء على ذلك قال : « ولي صبغة اصطبغ بها وما اشدّ تضايقي حتى تتمّ » وهنا يتهيأ الى يسوع بلمحة بصر مجموع عذابات الصلب تحيط به على شكل مياه الحمّام الغالية . فيهوله منظرها ولكنه لا يدع الخوف يعلو

من هو مفروض عليه ان يسلك طريق الاستشهاد قبل الجميع فلا تخور عزيمته وعلى تلاميذه ان يقتفوا اثره. وبيانًا لذلك يقول ايضاً « اتظنون اني جئت لألقي على الارض سلامًا ؟ اقول لكم كلاّ بل شقاقاً. فانه من الآن سيكون خمسة في بيت واحد يشاق ثلاثة منهم اثنين واثنان ثلاثة. يشاق الابُ الابنَ والابنُ الابَ والام البنتَ والبنتُ الام والحماة كنتها والكنة حماتها. » وهذا سيكون وايم الحق تاريخ الانسانية المحزن مدة ثلاثة اجيال

فصوَّر للتلاميذ حبُّ البقاء ان ذلك يبعد مجيئه ولكن ساء ما كانوا يتوهمون لان الزمان قريب وقد جاء وهاك بيانه : « اذا رأيتم سحابة تطلع من المغارب قلتم للوقت ان المطر يأتي فيكون كذلك. واذا هبت الجنوب قلتم سيكون حرّ فيكون. يا مراؤون تعرفون ان تميزوا وجه الارض والسماء فكيف لا تميزون هذا الزمان ؟ » لقد حضرت الازمنة الدينية وهم لا يدرون بها ولم يفكروا ان غائلة غضب ارباب المجلس انما هي الصلب وبعد الصلب يأتي زمان الشدة والضيق ويكون لهم منه النصيب الاكبر. يعرفون ان الشتاء يعقب الغيوم المتصاعدة من البحر المتوسط وريح السموم المقبلة من الصحارى تجلب الحرّ ويغمضون عيونهم عن النظر الى ما سيجره على يسوع حقد عظماء اليهود من الويلات والموت الاحمر. غير ان الحوادث القريبة ستكشف عن عيونهم برقع الوهم فتنجلي لهم الحقيقة

الفصل الثاني عشر

مناقشة جديدة ابان عيد التجديد وتظاهر يسوع بالسخط على الفريسيين

يعلن يسوع نفسه الهاً وهو في رواق سليمان — خصامه مع الفريسيين وسخطه عليهم — مثل الوليمة

طالع : يوحنا ١٠:٢٢ — ٤٢٠ لوقا ١١:٣٧ و١٢ : ٢١ و١٣ : ١٠ — ١٧ و١٤:١ — ٢٤

§

يعلن يسوع نفسه الهاً وهو في رواق سليمان

وفيما كانوا يتجاذبون تلك الاحاديث التقوية والايام تسابق بعضها اقبل عيد التجديد وكان وقوعه وقتئذ في اواخر كانون الاول في الخامس والعشرين من شهر كسليف اليهودي. وهو ان يهوذا المكابي بعد انتصاره على السور بين سن ان يحتفل بهذا العيد كعيد المظال ثمانية ايام متوالية وذلك تذكاراً لتطهير الهيكل وتجديد المذبح غب ان كان قد دنسهما انطيوخوس ايفانيوس واستمرا كذلك مدة ست سنوات. ولم يكن فرضاً واجباً الحضور الى اورشليم ولكن يسوع لقربه من المدينة حسب حضوره واجباً للاحتفاء بهذا العيد اولاً مرضاة لاماني قلبه وثانياً اتماماً لما كان يشتهيه من استئناف الجدال مع الفريسيين والحامهم على مسمع من جماهير الوطنيين . فاتى الى الهيكل وكان الوقت شتاء والبرد قارساً. فاخذ يتمشى ليستدفئ تحت رواق سليمان ذلك الاثر العظيم من بناء بيت الله اسرائيل الذي سلم من الخراب ابان هجمات الكلدانيين وهو يشرف من الجهة الشرقية على وادي يوشافاط

ولبث يسوع يتمشى مدةً وحده دون ان يدنو منه احد نظير الايام السالفة السعيدة اذ كانت تتهافت عليه الجماهير منذ الفجر وتضايقه بازدحامها حوله. اما الان فكان قلب ذلك الشعب بارداً نظير الجو. فاستغنم عظماء اليهود فرصة اعتزاله واحتاطوه فجأة بغية ان لا يطلقوا سبيله ما لم يصرح لهم بحقيقة حاله فقالوا له: « حتى متى تريب انفسنا ؟ ان كنت انت المسيح فقل لنا» — فاجابهم يسوع قلت لكم ولم تؤمنوا . مع ذلك فان الاعمال التي انا اعمل باسم ابي هي تشهد لي. لكنكم لستم تؤمنون لانكم لستم من خرفاني. ان خرفاني تسمع صوتي وانا اعرفها وهي تتبعني وانا اعطيها الحياة الابدية فلا تهلك الى الابد ولا يختطفها احد من يدي.» فمراجعة الخطاب الاخير الذي لفظه اثناء عيد المظال برهان واضح على انه منذ ذلك الحين لم يدخل اورشليم البتة وانه قد احس مدة انفراده بعظم شر الذئاب الخاطفة والخطر الذي يتهدد الخراف ولهذا عقد النية على الذب عنها بدمه. واضاف قائلاً ان الآب الذي اعطاني هو اعظم من الكل. فلا يقدر احد ان يخطف من يد الاب. انا والاب واحد» اجل ان الآب بتسليمه القطيع الى الابن صار حليفه الطبيعي ونصيره على اعداء القطيع وليست تجمعهما جامعة اشتراك النفع فقط بل ايضاً وحدة الارادة والقدرة والحكمة و بوجيز المقال جميع الصفات والكمالات الالهية لان جوهرهما واحد. وقد اشهر يسوع الوهيته على رؤوس الاشهاد بقدر ما يمكن من الايجاز اللاهوتي بقوله «انا والاب واحد» اي وان تميز الاب عن الابن بالنظر الى الاقنوم فانهما واحد بالطبع

واذ سمع اليهود انه يجعل نفسه مساوياً لله اخذوا حجارة ليرجموا بها ذلك المجدف الالهي. وهو بدلاً من ان يضطرب من تهو بلاتهم و يرتجف من غوائل غضبهم نظر اليهم بطلاقة وجه وثبات جنان نظرة كفت وحدها لافحامهم وقال لهم: « اريتكم اعمالاً كثيرة حسنة من عند الآب فلاي عمل منها ترجموني؟» والحق يقال انهم لا يريدون ان يميتوه لاجل اعماله بل لاجل اقواله ولكن

اعماله التي كان يعملها بمساعدة يد الاب القديرة هل كانت شيئاً اخر سوى اثبات اقواله ؟ وتلك الاعمال العجيبة التي يزاولها منذ سنين عوضاً عن ان تقنع اليهود لم تكن لتزيدهم الاحنقاً. فاجابوه : « انا لسنا لعمل حسن نرجمك لكن للتجديف . ولانك تجعل نفسك الهاً وانت انسان » ولا يخفى على ذي بصيرة بطلان استدلالهم هذا لانهم لو سمعوا ارشاد العقل الصحيح لكان من الواجب عليهم ان يرجموه لاجل افعاله اكثر منه لاجل اقواله . واذا كانت اقواله تجديفاً فمن الضرورة ان تكون اعماله ايضاً غروراً . ومن ثم لو كانوا منطقيين لعرفوا بدليل المقايسة البسيط انه اذا كان الخطيب يستحق الرجم بسبب اقواله فبالاحرى يستحقه العجائبي لاجل صنيعه الآيات. ثم نقل يسوع نقطة الجدال معهم دون ان يرفع من اذهانهم انه لم يقل بانه اله وهو امر كان قد قطع دابر كل مناقشة بل تركهم يعتقدون الواقع انه مصرّ على اثبات حقيقة مقاله وجاء لهم بآية من الكتاب مبيناً لهم انهم يخدعون نفوسهم . قال : « اليس مكتوباً في ناموسكم انا قلت انكم الهة ؟ فان كان قد قال للذين صارت اليهم كلمة الله الهة ولا يمكن ان ينقض الكتاب . فالذي قدسه الاب وارسله الى العالم اتقولون له انك تجدف لاني قلت انا ابن الله ؟ » يشير هنا يسوع الى نص الزبور (٨٥: ٦) وهاك برهانه : من المقرر ان الكتاب لا يجدف بتسمينه القضاة الهة لانهم يسهرون على شريعة الله فلماذا يحسب يسوع المسيح مجدفاً اذا دعا نفسه الهاً على حين انه هو المعين منذ الازل ليرسل على الارض مستحضراً له تعالى ؟

ولربما شك اليهود بصلاحية ارساليته فيسبق ويثبت ذلك باعماله التي تبرهن في الوقت نفسه حقيقة الوهيته : « ان لم اعمل اعمال ابي فلا تؤمنون بي. وان عملت فان لم تريدوا ان تؤمنوا بي فآمنوا بالاعمال لتعلموا وتؤمنوا ان الاب فيّ وانا في الآب. » لعمري من يعلن نفسه واحداً مع الآب ويثبت كونه ابن الله ويعمل اعمال الآب لانه في الآب وهذا فيه فلا شك

انه يقصد بذلك اثبات كونه الهاً. وهذا القدر كان كافياً لتجديد اضرام نار الغضب في قلوب اولئك الذين كانوا يتوقعون منه جواباً يسرهم. ولكن فيما كان البعض يتشاورون في كيف يقبضون عليه والآخرون يجمعون الحجارة ليرجموه تملص يسوع من بين ايديهم بقدرة لاهوتية او ايضاً بمساعدة بعض اعوانه. وهذه المرة الثانية التي يهرب فيها يسوع من اورشليم ولن يعود اليها الا في الاحتفالات الفصحية المقبلة التي هي تاريخ موته المفجع. ويخبرنا الانجيلي ان يسوع ذهب من هناك نحو الاردن رغبة ان يقيم بضعة ايام

§

مخاصمة يسوع مع الفريسيين وسخطه عليهم

وكانت نفسه مملوءة من الكآبة والحزن من جرى الشقاق الذي كان يثيره الفريسيون عليه بين الشعب ولقد عقد النية على ان يطلق العنان لسخطه عليهم عند ما تلوح له اول فرصة وهم الذين قد اوجدوا له تلك الفرصة المبتغاة وفسحوا له المجال لنشر ما كان مكنوناً طي الضلوع. اذ فيما كان عابراً على طريق بيت عنيا او أريحا سأله احد الفريسيين ان يفطر عنده صباحاً واسرع فدعا عدداً من الفريسيين اصدقائه وبعض الكتبة قصد ان يقاوم هؤلاء يسوع لو مست الحاجة الى ذلك. وكان يوجد مجال للخوف لو خاضوا عباب الجدال مع يسوع لانّ الاشاعات التي كانت تتناقلها الالسن عن وقاحة مباديه كانت تفوق حد الاعتدال وقد عُرف انه يعمل من جهة اعمال القديسين ويتكلم كلامهم غير انه من جهة اخرى لا يعبأ اصالةً برتب الفريسيين الباطلة وذلك ما كان يحمل على الشك في كيف يكون رجل الله ويزدري بطقوس مقدسة كهذه. وان قيل الخلاف فكيف يمكنه ان يعلم تلك التعاليم السامية ؟ وهل يوجد اساس لما يرشقونه به من سهام التشكيات غير الحسد ؟ تلك مسائل كان يشتهي الفريسيون جلاءها

فعرف المعلم مقصد الفريسي ولم يتوجس بل قبل دعوته بكل طيبة خاطر. وحال دخوله عليهم فهم انه بين قوم كمنوا له الشرّ ووقفوا له بالمرصاد. فعقد النية ايضاً على محق اوهام مواكليه الباطلة ولهذا لم يستعمل رتبة الغسل قبل الاكل حسب منطوق ترتيبات الفريسيين بل ذهب توّاً واتكأ على وسادته دون ان يغسل شيئاً حتى يديه. فاستكبر بعض الحضور ممن هم اعظم تعصباً تلك الوقاحة العلنية وصاحب الضيافة راى ذلك مرأى العين فتحقق عنده الخبر. ولم يستطع كتمان تأثره عن اعين المعلم الحادة. فالتفت يسوع وقال لهم: « انتم الآن ايها الفريسيون تنقون خارج الكاس والصحفة. وداخلكم مملوء خطفاً وشرّاً. ايها الجهال أليس الذي صنع الخارج هو الذي صنع الداخل ايضاً؟ مع ذلك فقد بقي لكم ان تتصدقوا مما في ايديكم فيكون كل شيء نقياً لكم. » وعليه فان الله لا يطلب عبادة الجسد فقط بل عبادة النفس ايضاً التي هي اشرف جزئي الانسان. فمن يحب الله بالنفس ويهذّبه ويحيا لاجله يقدس جسده ومن اعطى قلبه لله تصير في الوقت عينه جميع اعماله الخارجية طاهرة وبالعكس من اعطى كل ما هو غير القلب فهو يعدّ مذنباً ومداهناً. وبناء على ذلك يردف المسيح كلامه ضد الفريسيين بقوله: « الويل لكم ايها الفريسيون فانكم تعشرون النعنع والسذاب وسائر البقول وتتعدون العدل ومحبة الله وكان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تتركوا تلك. الويل لكم ايها الفريسيون فانكم تحبون صدور المجالس في المجامع والتحيات في الاسواق. الويل لكم فانكم مثل القبور المستورة يمشي الناس عليها وهم لا يدرون. »

وكانت هذه الويلات والشتائم تنقض على رؤوس المتكئين نظير انقضاض الصواعق القتالة وقد ابكمتهم عن ان يفوهوا ببنت شفة. غير ان احد علماء الناموس ظنّ من واجباته ان يحوّل عنه وعن اعوانه الكتبة مدلول تلك الشتائم ويبرىء ساحتهم فما كان الأ كمن جلب الدبّ لكرمه اذ قال: « يا معلم انك بقولك هذا تشتمنا نحن ايضاً. » وبالحقيقة ان كلام المسيح كان موجهاً الى

لنيف الحضور لان السواد الاعظم من علماء الناموس كانوا من زمرة الفريسيين ٠ وحباً بالتصريح التفت يسوع اليه وقال بصوت جهير « وانتم ايضاً يا علماء الناموس الويل لكم » واخذ يعدد نقائصهم بالنظر الى غيرتهم غير المرتبة على الشريعة ووضعهم على مناكب الناس الزامات جديدة لم يعملوا هم بموجبها وشدة تعصبهم الاعمى على انبياء الله وحجزهم مفاتيح علم الناموس عن بقية الشعب دون ان يتعمقوا هم بمعرفته

والوقت نهض من بينهم وخرج ٠ اما الفريسيون فعندما استفاقوا من غفلتهم جعلوا يسلقونه بالسنة حداد و يطوفون الاسواق على اثره معنتين اياه ليتكلم عن اشياء كثيرة وهم يرصدونه طالبين ان يصطادوا من كلامه شيئاً كي يشجبوه ٠ فبدون ادنى اضطراب وقف يسوع بين ربوات الجمع المتألب حوله عندما سمعوا بما جرى والتفت الى تلاميذه وقال : « احذروا لانفسكم من خمير الفريسيين الذي هو الرياء » قد كان يسوع ونّب مراراً في السر هولاء الاخصام الالداء ولم يرعووا فالآن يكشف جهاراً برقع غرورهم بلا شفقة و يستأنف الكلام قائلاً ايضاً : « ان ليس شيء خفيّ الا سيظهر ولا مكتوم الا سيعلن لذلك كل ما قلتم في الظلمة سيسمع في النور وما قلتم في الأُذن في المخادع سيُكرز به على السطوح ٠» ولا ريب ان كلاماً كهذا سيجلب على قائله عراقيل كثيرة واخطاراً جمة ٠ فلا باس ٠ وعليه زاد « واقول لكم يا احبائي لا تخافوا ممن يقتل الجسد وليس له بعد ان يفعل اكثر ٠ لكنني ابين لكم ممن تخافون ٠ خافوا ممّن اذا قتل له قدرة ان يلقي في جهنم ٠ نعم اقول لكم من هذا خافوا ٠ » يوجد اذن موتان موت زمني وموت ابدي ٠ ولا بدع اذ للانسان حياتان حياة زائلة واخرى ابدية ٠ فاذا سُلبت منه الزائلة فلا يكون خسر شيئاً الا قليلاً من الزمان اذ وجدت هذه للزوال وهي كلها نظير حلم يضمحل عند اليقظة ٠ اما خسارة الثانية فتعدّ خسارة عظيمة لانها لا تعوّض وخسارتها قائمة بمخالفة الانسان ارادة خالقه وغايته القصوى

التي هي الله . ومن ثم ليس في وسع الاشرار ولو تفاقم غضبهم ان يوقعوا النفس في هذا الهلاك الابدي بل منوط بالله وحده ان يعين لكل نفس ابديتها حسب اعمالها خيرًا كانت ام شرًّا . يقتل الاشرار الابدان ولكن ليس لهم سلطان يمتد الى النفس التي تبقى حتى في وسط الموت ربَّة اعمالها

وعلى هذا البرهان الاول الاساسي لعدم الخوف يزيد يسوع برهانًا اخر وهو انه لا يحدث شيء حتى في اثناء حياتنا هذه بدون اذن الله . قال : « اليس خمسة عصافير تُباع بفلسين ؟ ومع ذلك فواحد منها لا يُنسى امام الله . بل شعر رؤوسكم جميعه محصًى فلا تخافوا فانكم افضل من عصافير كثيرة . » فاذا كانت عين العناية الالهية تعتني بهذه العصافير الصغيرة فتهيء لها كما يوم اكلها فباولى حجة يعتني الله باولاده . واذا كان يحصي عدد شعر رؤوسنا فلا ريب انه يعتني ايضًا باجسادنا اكثر من اعتنائنا بها . اذن لا يستطيع الاشرار قتلنا الاَّ بمعرفته وسماحه تعالى اسمه . فوالحالة هذه لا يعدُّ ذلك شرًّا بالنظر الينا . ويختم يسوع برهانه قائلاً : « اقول لكم كل من يعترف بي قدام الناس يعترف به ابن البشر قدام ملائكة الله » لعمري ان هذه المكافأة توازي اكليل الاستشهاد بل تفوقه ثمنًا وفخرًا عندما يعلن يسوع في ذلك الموقف العظيم امام المجلس السماوي اسماء جنوده المظفرة و يشركهم بسعادته الابدية . وانهى كلامه بقوله : « ومن ينكرني امام الناس يُنكَر امام ملائكة الله »

وما كاد ينهي كلامه هذا حتى طلب اليه واحد من الجمع ان يكون حكمًا بينه و بين اخيه في امر ذي اهمية لديه . فقال : « يامعلم قل لاخي يقاسمني الميراث » ولا نعلم استناد المستولي على الارث في عدم مقاسمة اخيه عليه كما اننا نجهل حقوق هذا المدعي على اخيه . ومهما كان الامر فقد استاء يسوع من عظم اهتمام ذلك الرجل في طلب قسمه من ميراث حقير ارضي على حين كان يعرض المخلص على سامعيه الميراث السماوي فاجابه : « يارجل من اقامني عليكم قاضيًا

او مقسّماً ؟ » والحق يقال ان ابن الله لم يتأنس ليهتم بالارضيات . واذا كان لم يسمح لتلاميذه ان ينظموا امور عيالهم الداخلية فبحجة أولى يمتنع هو عن التداخل في اشغال الغير العالمية . ولما كان طلب الرجل يشفّ عن تعلق زائد في اموال الارض قال له : « احذروا وتحفظوا من كل بخل . لانها ليست حياة احد بكثرة امواله »

وايضاحاً لهذه الحقيقة يورد يسوع مثل الغني الجاهل قائلاً : « رجل غنيٌّ اغلّت له ارضه كثيرًا . » فسبب له هذا الغنى الفجائي فرحاً عظيماً ولكنه جلب له ايضاً قلقاً وافراً « ففكر في نفسه قائلاً ماذا اصنع فانه ليس لي موضع اخزن فيه غلالي » وتاه في بحر من الهواجس الباطلة وقد فاته ان بطون الجياع المعوزين تسع غلاله اذ لم تسعها اهراؤه . غير ان الغني يطلب زيادة غناه غير مبال بمن عضهم الجوع بانيابه الحادة . و بعد ان قدح زناد الفكرة طويلاً لاح له ان يهدم اهراءه و يبني اكبر منها كافيةً لخزن خيراته . وحينئذٍ « اقول لنفسي يانفسي ان لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة فاستريحي وكلي واشربي وتنعمي . » الغنى الوافر يقود طبعاً الى التعلق بالماديات وقطع النظر عما سواها و يمهّد السبيل لاجيال مخنثة الاخلاق فاسدة العوائد . ولكن يا لحماقة الانسان الذي بسبب وفرة غناه ينسى ما يدّخره له المستقبل من الويلات . ومع كونه لا يأمن غوائل الغد يعلل النفس بآمال فارغة يأخذ و يعطي و يبيع ويشتري و يشيد القصور الفاخرة و يبلغ الى شيخوخة هنية ناعم البال مشرفاً مهيباً . فاتعظ ايها الانسان الاحمق من مثل هذا الغني الذي يدعوه الله من وسط افراحه و يقول له : « يا جاهل في هذه الليلة تُطلب نفسك منك فهذا الذي اعددته لمن يكون ؟ » تلك الضربة القاطعة التي تنقض علينا احياناً انما هي من يد القدير تعلن صدور حكم الموت علينا وما نتركه من الاموال عند باب القبر يقتسمه الاهل والغرباء والمسرفون وجميعهم لا يعرفون له جميلاً .

وبناء على ذلك يستنتج يسوع قائلاً «فهكذا من يدخر لنفسه وهو غير غني بما لله» اي من يتطلب الاموال لاجل الملذات والفخر يفقدها بالموت الى الابد. اما الذين يستخدمون المال لاجل سد عوزهم وصنيع المبرات وكانوا ممثلين العناية الربانية على الارض فهولاء يدخرون غناهم لاخراهم. فمن راموا حشد المال خسروها ومن بذلوها بسبيل الخير حفظوها للآخرة

و بعد ان عبر يسوع الاردن توجه متوغلاً في مقاطعة بيرية. ولم تكن مدة اقامته فيها بدون تعزية اذ كان يوحنا المعمدان قد حرّك قلوب الجماهير هناك بمواعظه الخرّاقة وتذكار غيرته الآكلة لم يزل حياً فيها. فلما رأوا نبي الناصرة بعيونهم وسمعوا تعاليمه السامية باذانهم بهتوا وقالوا: «يوحنا لم يفعل اعجوبة قط ولكن كلما قاله عن يسوع هو حق» فامن بيسوع كثيرون وخيل ان ايام الجليل السعيدة قد عادت. فجعل يسوع يطوف القرى المجاورة للاردن و يشفي المرضى و يطرد الشياطين. ولم يلبث طويلاً ايمان تلك الجماهير حتى تحوّل الى تحمس عظيم تحت تأثير كلام الله في نفوسهم فكان ذلك داعياً لتنكيس رؤوس الفريسيين واخماد نفوذهم فلم يعودوا يتجاسرون على التظاهر بالعدوان على يسوع الذي كان يشعر انه على ارض اثبت ظهراً مما قبل ولم يعد يرهب دسائس الفريسيين القتالة بل اضحى يرشقهم بكل جسارة بسهام التقريع الحادة كلما سنحت له الفرصة لذلك. ففيما كان يكرز في احد مجامعهم لحظ امرأة مسكينة تقية للغاية قد انحنى ظهرها حتى الارض ولا تستطيع النظر نحو العلاء. فتلك الحال الطبيعية كانت ناتجة عن علة فائقة الطبيعة اذ كان الشيطان قد ربطها هكذا كما يشير البشير منذ ثماني عشرة سنة. فدعاها يسوع اليه ووضع يديه عليها وقال لها: «يا امرأة انك مطلقة من مرضك» وللحال قامت مستوية ومجدت الله من كل قلبها بعواطف تتدفق من الابتهاج والشكر

لعمري ان ابراء نظير هذا صُنع يوم السبت في المجمع كان من شأنه ان

يشكك الفريسيين · ولا ريب ان رئيس المجمع قرأ على ملامح الجمع استياءهم لذلك وسمع تذمّر الكثيرين منهم ولما لم يجسر على توجيه اللوم الى يسوع راساً التفت نحو الجمهور وقال لهم بحدة : « لكم ستة ايام للعمل ففيها تأتون وتستشفون لا في يوم السبت » فحس يسوع رنة السهم الموجه اليه بمعزل عن الجمهور فآثر رده الى نحر راشقه وقال له : « يا مراؤون اليس كل واحد منكم يحلّ ثوره او حماره السبت من المذود وينطلق به فيسقيه · وهذه ابنة ابراهيم التي ربطها الشيطان منذ ثماني عشرة سنة اما كان ينبغي ان تُطلق من هذا الرباط يوم السبت ؟ » فاصاب يسوع المرمى في هذا الجواب المحكم الذي فرّح كل الجمع وافحم الخصم عن الجواب غير انه لسوء الحظ لم يجدِ الفريسيين ذلك نفعاً حقيقياً بل ثبتوا في ضلالهم متعصبين

وبعد بضعة ايام دعـاه احد وجوه الفريسيين ليتغدّى عنده يوم السبت ايضاً · ولربما كان الداعي سليم النية بالنظر الى يسوع غير انه كان بين المدعوين معه بعض من المتعصبين لرتبتهم · فهولاء قد عقدوا النية على رصد اعماله واقواله تلك المرة بكل دقة · اما هو فلم يبالِ بما كانوا عليه مصممين وكان يودّ ان يلقي بنفسه في الشرك الذي يعدّونه له رغبة ان يمزقه ويخرج منه ظافراً · وفيما هو داخل الى البيت نظر رجلاً فيه داء الاستسقاء كان قد وضعه الاخصام عمداً في ممره قصد ان يصطادوه · فعرف يسوع خبثهم واراد ان يخجلهم مرة ثانية بسوء عملهم فوقف والتفت الى علماء الناموس والفريسيين معاً وقال لهم : « هل يجوز الشفاء في السبت ام لا ؟ » اما هم فلم يجيبوه بكلمة اما لانهم عرفوا عجزهم بالنظر الى المعلم الجديد اوانهم من باب اللياقة والاحترام لصاحب المنزل لم يرغبوا المناقشة معه في ذلك الحين · ولكنهم كانوا يجيبونه جميعهم في سرّهم « كلاّ لا يجوز » ففهم يسوع بواطنهم وابرأ المريض بلمسه اياه وصرفه معافى · وآثر يسوع هذه المرة استعمال الرفق في اقناع مجادليه فاكتفى بايراد البرهان السابق على اسلوب جديد وقال

لهم : « من منكم يقع حماره او ثوره في بئر فلا ينشله للوقت يوم السبت ؟ »
وهذا المستسقي قد خنقه ايضاً الماء وسرى في كافة عضلاته ومفاصله . فماذا العمل؟
هل يُنشل الثور من البئر لئلاً يختنق ولا يخلص بشر من مرض كاد يخنقه
ويذهب بحياته ؟ فلم يقدر احد ان يجيبه بكلمة وكل احد كان يهنئ نفسه لعدم
دخوله في الجدال مع يسوع

ثم حان اوان الاتكاء حول مائدة الطعام . وكان من اعظم اماني
الفريسيين واحب شيء لكبريائهم التصدّر في المجالس ولم يوقفهم عن ذلك في
الظروف الحالية حضور يسوع بينهم فاخذوا يتسابقون الى ادراك المحل الاول
حتى اضطر ربُّ البيت للمداخلة في اعطاء المحلات لكل حسب استحقاقه .
فانتهز يسوع هذه الفرصة المناسبة ليعلمهم قوانين الادب ومقتضيات اللياقة
وحسن المعيشة فقال لهم : « اذا دعيت الى عرس فلا تتكئ في اول المتكئات
فلعله دعي اليه من هو اكرم منك فيأتي الذي دعاك واياه ويقول لك أخلِ
الموضع لهذا فتاخذ لك متكأ في الموضع الاخير وانت خجل . ولكن اذا دعيت
فامضِ واتكئ في آخر موضع حتى اذا جاء الذي دعاك يقول ارتفع ايها الحبيب
الى فوق فحينئذٍ يكون لك المجد امام المتكئين معك . » ذلك ما يحدث ايضاً
في اعتبار الناس عموماً . يميل البشر طبعاً الى خفض مقام المتعجرفين وسلبهم
بعضاً من استحقاقهم الحقيقي وبالعكس الى رفع قدر المتواضعين واعتبار منزلتهم
فوق استحقاقهم . وبناء على ذلك فالتواضع فضيلة نافعة عالمياً ترشد اليها الفطنة
البشرية فضلاً عما لها من سمو المنزلة . وروحياً فان الله جعلها مهبطاً لآلائه السماوية
كما جعل الكبرياء حجر عثرة لشفقته على بشريتنا الضعيفة . وعليه قال السيد
المسيح : « لانَّ كل من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع »

وحانت من يسوع التفاتة الى جمهور المتكئين واذا بهم من خاصة الناس
الموسرين وكل منهم كان قادراً ان يعامل ضيفه بالمثل و يدعوه الى تناول

الطعام في بيته الا هو فليس له سوى اسداء الشكر على جميل الصنيع. والارجح انه اضطر ان يقبل الدعوة وحده بمعزل عن تلاميذه الذين لم يعتبروا اهلاً لحضور تلك الوليمة ولهذا لم يضرب يسوع صفحاً عن الازدراء الذي لحق من ذلك بخاصته وآثر ان ينبه بلين صاحب المنزل الى ما فرط منه بالنظر اليهم بقوله له: « اذا صنعت غداء او عشاء فلا تدعُ احباءك ولا اخوانك ولا اقرباءك ولا الجيران الاغنياء لئلا يدعوك هم ايضاً فتكون لك منهم المكافأة. ولكن اذا صنعت مأدبة فادعُ المساكين والجُذعَ والعرج والعميان فتكون مباركاً اذ ليس لهم ما يكافئونك به فتكون مكافأتك في قيامة الصديقين. » والحق يقال ان من يدعو الى وليمته من يستطيعون ان يردوا له ذلك فهو تاجر يتعاطى الامور بالمبادلة يقرض ليستوفي. اما الذي يصنع مأدبة لمن لا يستطيعون ان يعاملوه بالمثل فذاك محسن لوجه الله فقط. نعم ليست محرمة على احد دعوة الاهل والخلان لكنها تبقى بلا ثمرة امام الله ولا تجدي الداعي نفعاً بالنظر الى الحياة الاخرى بينما ان اجر دعوة المساكين لا يضيع امام العلي وجزاؤها يكون في العالم الآتي غزيراً. ففي هذا الاسلوب اللطيف اراد يسوع الفقير بين لفيف جمهور المدعوين ان يفهم ضيفه انه سيفي ما عليه نحوه في السماء

§

مثل المأدبة الفاخرة

عند ذاك هتف بعض المدعوين « طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله » وذلك اما عن خلوص ايمان حي واما عن رغبة في ان يدفعوا المعلم الجليلي الى اطالة ذلك الحديث اللاذ والمفيد. فاجابة لرغبتهم قال:

« ان رجلاً صنع عشاء عظيماً ودعا كثيرين. فارسل عبده في ساعة العشاء يقول للمدعوين هلموا فانَّ كل شيء قد أُعد. فطفقوا كلهم واحداً فواحداً يعتذرون فقال له الاول قد اشتريت حقلاً ولا بدَّ لي ان اخرج وانظره فاسألك ان

تعذرني. وقال الاخر قد اشتريت خمسة فدادين بقر وانا ماضٍ لاجربها فاسألك ان تعذرني. وقال الآخر قد تزوجت امرأة فلا استطيع ان اجيء. فرجع العبد واخبر سيده بذلك فحينئذٍ غضب ربُّ البيت . » الرجل الذي صنع العشاء هو الله. وجمهور المدعوين هم اليهود على ما كانوا عليه من رفعة الشان وحقيقة الدين وحسن الاستعداد لقبول العصر المسيحي الانور.

اما اعداد الوليمة قبل وفود المدعوين فليس بالامر المستغرب اذ هذا هو ملخص تاريخ اسرائيل فبعد ان اعدهم الله باقوال انبيائه يدعوهم اخيراً بصوت خادمه الامين يوحنا المعمدان وها هو مرسل اليهم ابنه الوحيد يقول لهم كل شيء قد اعدَّ هلموا واتكئوا على مائدة رب العائلة. فكان شان هذا التنازل العميق ان يوقظ المتوانين من غفلتهم فما كان منهم الأ ان يعتذروا عن الحضور. فان الاعجاب بالمال الذي ينفخ الانسان ويشغله عن الله سوَّى للاول عذراً عن تلبية الدعوة. فقد ابتاع قصراً واملاكاً حوله و يشتاق ان يراها ولهذا لا يحضر الوليمة. ومحبة جر المغنم حملت الثاني على الاعتذار ايضاً. وقد فضل هذا المنافع الارضية في امتحان الفدادين وتحقيق كثرة الغلال على استماع كلام الحياة. اما الثالث فعذره وحشي خشن الاسلوب نظير الشهوة البهيمية المبني عليها. قال الاولان الى المرسل بعد ايراد السبب اسألك ان تعذرني وهذا يقول بصريح الكلام « قد تزوجت امراة فلا استطيع ان اجيء ». فالعائق جزيل الاهمية والمانع رباط من حديد اي امرأة. فينبغي ان يسمع لها اولاً وبعدها يرى ماذا يريد الله منه. وعلى هذا النمط فان الاهواء البشرية على اختلاف هوجائها قد وجدت حججاً فارغة لمنع المدعوين عن حضور تلك الوليمة الروحية.

فلما بلغت هذه الاجوبة مسامع رب البيت حنق جداً واعرض عن قبول مثل اولئك المدعوين وقال لعبده: « اخرج سريعاً الى شوارع المدينة وازقتها وأتِ بالمساكين والجُذع والعميان والعرج الى هنا » فالتبديل عجيب لكنه لم يخرج عن

دائرة بني اسرائيل. المساكين ياخذون محل الاغنياء والبائسون يجلسون مكان السعداء. الخطاة والعشارون والبغيات يجلسون في الوليمة محل الفريسيين الذين لا نصيب لهم فيها. على ان العبد لم يخرج خارج المدينة بل استمر ضمن شوارعها ومع ذلك لم يملأ المحل بل بقي موضع كما يقول عند رجوعه: «يا سيد قد قضي ما امرت به وبقي محل» ولما كانت النعمة تابى الفراغ نظير الطبيعة امر السيد عبده قائلاً له: «اخرج الى الطرق والاسيجة واضطرهم الى الدخول حتى يمتلىء بيتي.» نحن اولاد الوثنيين اولئك التائهين على الطرق والشوارع العمومية والمختبئين وراء الاسيجة ننساب نظير الافاعي بين حمات الشهوات وظلمات الجهل فاتى خادم السيد اعني به يسوع المسيح فدعانا بواسطة رسله لندخل الى الوليمة. وها قد مضى تسعة عشر جيلاً ونحن راتعون في بحبوحة العيش في فجوات بيت الرب. ويبقى العالم موجوداً طالما يوجد فراغ في هذه الوليمة ومتى تمَّ العدد المطلوب من احكام الرب الثابتة الازلية حينئذٍ يكون الانقضاء. لانَّ الله لا يقبل المجد ناقصاً. ومن ثم فمهما كان عدد المرذولين كثيراً يبقى عدد المنتخبين عظيماً ايضاً. وعندما يمتلىء الفراغ كله حينئذٍ يغلق العلي الباب وتبتدي تلك الوليمة الابدية

وبعد ان تكلم هذا يسوع لمح بنظره الى لفيف الجمع الحاضر كأنه يريد ان يبين لهم ما يرجع اليه من مدلول هذا المثل وما يختص بهم وزاد قائلاً: «اني اقول لكم انه لايذوق عشائي احد من اولئك الرجال المدعوين.»

الفصل الثالث عشر

يسوع في مقاطعة بيرية

قلة عدد المنتخبين ورذل اسرائيل — لا يكفي التحمس ليجعل التلميذ تلميذاً — بيان رأفة العلي بواسطة الامثال — الصدقة والحياة المزمعة — التواضع .

طالع : بشارة لوقا ف ١٣ ع ١ — ٩ — ٢٢ — ٣٣ و ف ١٤ ع ٢٥ و ف ١٥ ع ٤ و ف ١٧ ع ١٠ و ف ١٨ ع ٩ — ١٤

§

قلة المنتخبين ورذل اسرائيل

ان هذه الكلمات الاخيرة التي ختم يسوع بها مثل الوليمة قد اقلقت افكار التلاميذ . ففيما هم سائرون نحو بيرية سأله احدهم قائلاً : «يارب هل الذين يخلصون قليلون ؟ » وحتى اليوم يتباحث اللاهوتيون في هذه المسألة و يحاولون حل غموضها غير انه لحسن الطالع ليس حلها من ضروريات الخلاص ولهذا نرى يسوع لا يجيب عليها بنوع مستقيم بل ينقل السؤال من الوجه النظري الذي اراده التلاميذ و يصرفه الى الوجه العملي والمفيد لكل واحد السير بموجبه اذ قال لهم : «اجتهدوا ان تدخلوا من الباب الضيق . فاني اقول لكم ان كثيرين سيطلبون ان يدخلوا فلا يستطيعون . » اجل ليس لملكوت الله على الارض وفي السماء سوى ثقب صغير ومن توهم الخلاف فقد ضلّ محجة الصواب نظير اولئك الجهلة الذين يحاولون الدخول مع لفيف حاشيتهم المؤلفة من الطمع والجاه والاميال المنحرفة والاموال الطائلة فهولاء يستنظرون كثيراً خارجاً . وفيما هم واقفون مع رغائبهم الباطلة واحلامهم الكاذبة يدخل الشجعان وذوو الهمم العالية والنشاط من ذلك الباب الضيق بعد ان يكونوا قد ظفروا باجسادهم و كفروا باميالهم ونبذوا ظهرياً

كبرياءهم وحينئذٍ « يدخل رب البيت و يغلق الباب . » وربُّ البيت انما هو الله الذي يغلق في وجه امة او فرد باب الجهاد فتنقضي ساعات النعمة و يوصد الباب الضيق عينه في وجه الاغبياء الذين يفيقون وقتئذٍ من غفلتهم ولكن عبثاً يسرعون اذ قد فات الوقت وعليه زاد يسوع قوله : « فوقفتم خارجاً تقرعون الباب وتقولون ياربُّ افتح لنا . فاجابكم قائلاً لا اعرفكم من اين انتم . فحينئذٍ تبتدئون تقولون انا اكلنا وشربنا امامك وقد علّمت في شوارعنا . فيقول لكم اني لا اعرفكم من اين انتم . ابعدوا عني يا جميع فاعلي الاثم . هناك يكون البكاء وصريف الاسنان اذ ترون ابرهيم واسحق و يعقوب وجميع الانبياء في ملكوت الله وانتم مطرودون الى الخارج » لعمري لا شيء يحاكي عويل وصراخ اولئك الجهلة عندما يشعرون بخيبة آمالهم مدى الابدية كلها . وخصوصاً عندما يري اولئك الذين كانوا يتفاخرون باجدادهم انهم منفصلون عنهم مدى الدهر وقد حل محلهم الكفرة الذين كانوا موضوع سخريتهم على الارض . و بياناً لذلك قال السيد له المجد : « وسيأتون من المشارق والمغارب والشمال والجنوب و يتكئون في ملكوت الله » وحينئذٍ يصير ذلك الانقلاب الغير المنتظر : الوثنيون المدعوون في الآخر يصبحون الاولين وابناء ابرهيم الاولون في الدعوة يمسون الآخرين والسواد الاعظم لا يقتسم الوليمة السماوية البتة

وفي تلك الاثناء وفد قوم من العاصمة واخبروا ان بيلاطس قد ذبح الجليليين في الهيكل ولما نظر الشعب دماءهم تختلط بذبائحهم ظنَّ ان الله سمح بذلك لاجل كثرة آثامهم . فسكت يسوع الى ان سمع اقوال الكثيرين واحكامهم المختلفة ثم تكلم وقال لهم : اتظنون ان هؤلاء الجليليين كانوا اكثر اثماً من سائر الجليليين حيث نكبوا بمثل ذلك ؟ اقول لكم لا بل ان لم تتوبوا تهلكوا جميعكم كذلك » وكان نظره الالهي يخرق حجاب المستقبل و يرى ما عسى ان يكون في مزمع الحين عندما تتناثر ضمن ذلك الهيكل رقاب مواطنيه نظير اوراق

الشجر تحت ضربات سيوف عساكر طيطوس · ودمار الامة بامرها سيكون برهانًا على ان الكفر هو اثقل جرمًا من العصيان ومقاومة سلطة الله هي اعظم من الثورة على سيطرة البشر · والله صبور ولكنه شديد العقاب على قدر ما هو صبور وبيانًا لذلك يضرب يسوع المثل الآتي :

« كان لرجلٍ تينة مغروسة في كرمه » الكرم هو العالم عمومًا والتينة هي عبارة عن الشعب اليهودي المغروس في وسط العالم مثل التينة بين الكرم · « فجاء يطلب فيها ثمرًا فلم يجد » اي كما ان الثمر على الشجر برهان على حسن التربة وسهولة تناول الغذاء منها هكذا يعرف قدر الانسان الادبي من اعماله · والله الآب يطلب ثمرًا من الشعب اليهودي فلم يجد وعينه الابوية تفتش عبثًا عما يواجه امانيه في هذه الذرية الخبيثة ولهذا يقول للكرّام « ها ان لي ثلاث سنين آتي واطلب ثمرًا في هذه التينة فلا اجد · » فهذه السنين الثلاث هي عبارة عن ادوار حياة يسوع العمومية الثلاثة وان صحَّ ذلك فان المهلة المعطاة الى التينة تستحضر الزمان الذي تلا موت يسوع وسبق خراب اورشليم · « فاقطعها فلماذا تعطّل الارض » اي ان التينة العقيمة فضلاً عن كونها لا تعطي ثمرًا فانها تضرُّ بالكرم اذ تمتص الغذاء من الارض وتحجب عنها اشعة الشمس · ومثلها مثل اليهود الذين احتكروا لانفسهم نور الوحي دون ان ينتفعوا منه ومنعوا انتشاره في العالم · ولهذا فقد جزم العلي بقطعهم من ملكوته · غير انه لحسن الطالع قد عرض الكرام شفاعته بعدم استئصال الشجرة عاجلاً على وعد انه يعتني بها علّها تثمر : « دعها يا سيد هذه السنة ايضًا حتى اعزق حولها والقي دمالاً · فان اثمرت والا فتقطعها فيما بعد » فيا لعظم حب يسوع ذلك الوسيط العظيم بين الله والناس فلا يكلُّ ولا يتعب · فانه لم يزل يحب الشعب الذي يبغضه · الآب الازلي يئس من اصلاح الامة الكافرة بنعماه اما هو فيطلب مهلة للعلاج النهائي فان صح الدواء كان خيرًا والا تأخذ العدالة

مجراها. فتستأصل الشجرة من اصولها. وهذا ما كان مزمعاً ان يحل بالشعب الخائن. فنُزع اسمه من سجل اسماء الشعوب ولم يعد يحسب شعباً الى الابد. حيث تفرغ الرحمة يبتدئ العدل ولن يفرغ ابداً

§

ما ينبغي للتلميذ حتى يكون تلميذاً حقاً

وكان الجمع يزحمه فرحاً فالتفت اليهم وقال لهم: « ان كان احد يأتي اليَّ ولا يبغض اباه وامه وامرأته وبنيه واخوته واخواته بل نفسه ايضاً فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً » لعمري ان اجلّ واجبات التلميذ الحقيقي ان لا يدع عوائق تحول دون حبه الحارّ نحو الله. وبغضه لها اذ ذاك هو اعظم برهان على حبه لله وينبغي ان يلحق هذا البغض ليس فقط تلك الاشياء الظاهرة التي نميل اليها طبعاً بمجامع قلوبنا بل الروح نفسه الذي يحملنا اليها ويمكن ان يضرّ بصوالحنا الابدية. والحال قليلون هم البشر اصحاب المروءة الذين يقدمون على كبح جماح قلوبهم وقتل اميالهم ليطيروا احراراً وراء سيدهم وخصوصاً اذا عرفوا ان بعد هذا الاستشهاد الادبي قد يكون ايضاً الاستشهاد الطبيعي . ويردف يسوع كلامه بقوله « ومن لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً » اي اذا وضع الاشرار الصليب على مناكبنا ينبغي علينا احتماله وان لم يهيئوه لنا علينا ان نجده لانفسنا ونعلق عليه بايدينا شهواتنا ونضحي عليه كما تفاجئه في قلوبنا غير لائق بالله ونميت عليه اجسادنا رغبة ان نروضها. ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة وما يدعو الى التمعن كل من اراد التلمذة

وبياناً لهذا اورد لهم يسوع هذا المثل قال: « من منكم يريد ان يبني برجاً ولا يجلس اولاً ويحسب النفقة هل عنده ما يكمله به ؟ لئلا يضع الاساس ثم يعجز عن الاتمام. فيبتدئ جميع الناظرين يسخرون منه قائلين ان هذا الرجل قد شرع في بناء ولم يستطع ان يتمّ » ان شعاع الكمال المسيحي يبهر بصرنا عند

اول وهلة ويجذبنا اليه قهراً غيران التحمس والنخوة لا يكفيان مؤونة الوصول اليه والثبات في ذراه بل لا بد له من اساس راسخ على الاعتقاد الباطني والارادة الجوادة اذ يقتضى لهذا العمل الادبي الخطير ضحايا النفس والتفبس في كل دقيقة من الحياة وشدة عزم دونها شجاعة الابطال للثبات في مواقفه الحرجة· ولعله السابق بعدم ثبات الكثيرين في مواقف هذا الجهاد الدائم يسترسل يسوع في الكلام قائلاً: «ام اي ملك يخرج ليحارب ملكاً آخر ولا يجلس اولاً و يشاور نفسه هل يستطيع ان يلاقي بعشرة آلاف من يأتي عليه بعشرين الفاً· والا فيرسل سفارةً وهو بعيد ويلتمس ما هو من امر الصلح· فكذلك كل واحد منكم ان لم يرفض جميع امواله فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً ·» يتصعب يسوع في انتقاء خاصته و يتطلب من اعضاء كنيسته الجديدة شروطاً صعبة المراس لانه لو الف كنيسته من اناس خاملي العزيمة ثقيلي النهضة قليلي المروءة لما كان قد توصل الى تشييد شيء عظيم وطيد الدعائم راسخ البناء وعليه قال ايضاً: « الملح جيد » وحرافته الطبيعية من شانها ان تمنع فساد اللحم وتحسن طعمه وتجعله مفيداً لاستعمال البشر فهكذا الامانة التي سينشرها الرسل في العالم نظير حفنة ملح يكون من خصائصها ان تمنع فساد الجماهير بامتزاجها فيها· « ولكن اذا فسد الملح فبماذا يملح » اي اذا ارتفعت الامانة من بين البشر فلا شيء يقوم مقامها فيدب اليهم الفساد والدمار لا محالة و يضحون نظير الملح الفاسد لا يصلح لشيء لا للارض ولا للمزبلة بل يطرح خارجاً « فمن له اذنان سامعتان فليسمع »·

§

بيان رأفة العلي بواسطة الامثال

وكان يُشتمّ من تعليم يسوع روح القساوة والجفاء شأن الحقيقة التي كان يبشر بها و بدلاً من ان يخفي الصليب كان يضعه امام جميع الاعين على ما هو

عليه منظره الهائل من ارهاب القلوب الضعيفة غير ان كلامه هذا قد كسى اسمه ومشروعه ثوباً من الهيبة والاجلال قشيباً . فذاع صيته في تلك الانحاء وعظم شأنه . حينئذٍ دنا اليه سرًّا قوم من الفريسيين ولربما بايعازٍ من اورشليم وقالوا له : « اخرج واذهب من هنا فان هيرودس يريد ان يقتلك . » ولا يبعد ان يكون هيرودس نفسه قد اضطرب وهو مقيم في مكيروس من جرى الحركة الدينية الصائرة في بيرية . على ان الارجح هو كون مكرهم قد اوحى لهم ذلك واذ اكتنه يسوع خبث نياتهم قال لهم : « اذهبوا قولوا لهذا الثعلب ها انا اخرج الشياطين واجري الشفاء اليوم وغداً وفي اليوم الثالث اكمّل . ولكن ينبغي لي ان اسير اليوم وغداً والذي بعده لانه لا يمكن ان يهلك نبيٌّ خارج اورشليم » الثعلب هو هيرودس اذا كان قد اوعز اليهم ان يوصلوا ذلك الكلام اليه والا يكونون هم الثعالب الرواغة . واذا صحَّ التقدير الاخير فلا حاجة الى تبليغ الجواب الى الملك بل يحفظونه لانفسهم لكونهم الاجدر به . وعلى كل حال لا يطول انتظار بغض هذا واولئك فها قد قرب حلول الفاجعة العظيمة باسرع مما ينتظرون . اليوم وغداً ويوم آخر فقط ويصير ما يتوقعون وتتم مراسيم العلي وتقرَّب الضحية ضمن اسوار اورشليم . ذُبح يوحنا المعمدان خارج المدينة المقدسة مدينة السلام فلا يليق ان يُسلب منها ثانيةً امتياز قتل الانبياء المرسلين اليها وحضور ساعة موتهم . وتركهم يسوع يتأملون بهذا الجواب الجامع بين معظم التهكم والصبر الجميل اما هو فتابع تبشير الشعوب التي كانت تتقاطر اليه من كل فج

وكان يسوع يؤثر هنا كما كان يصنع في الجليل مسامرة الخطأة والمرذولين وكان هذا يشكك الكثيرين كأنَّ من عاشر الاثمة صار مثلهم ولكي يزيل من اذهانهم هذا الوهم الباطل قال لهم : « اي رجلٍ منكم اذا كان له مئة خروف فاضاع واحداً منها لا يترك التسعة والتسعين في البرية ويمضي في طلب الضال حتى يجده ؟ » لعمري ولا واحد . فالقطيع هو عبارة عن اسرائيل التابع

شريعة موسى منتظرًا مجيء المسيح الفادي. فيتركه يسوع في هذه الحالة المرضية نوعًا ليمضي في طلب النعاج الضالة التي تعيش مزدرية بالشرائع ومطلقةً العنان الى اهواء النفس الفاسدة و يسعى وراءها الى ان يدركها اينما كانت ولو كلّفه ذلك عرق القربة « فاذا وجده يحمله على منكبيه فرحًا (ام ليس هو حامل الخطأة وخطايا العالم ؟) و ياتي الى البيت و يدعو الاصدقاء والجيران و يقول لهم افرحوا معي فاني وجدت خروفي الضال . اقول لكم هكذا يكون في السماء فرح بخاطئ واحد يتوب اكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدّيقًا لا يحتاجون الى التوبة . » ومن ثم من شكك بعمل يسوع هذا فمن الضرورة ان تشككه رغبة الله عزّ وجل في توبة الخطأة ورجوعهم اليه ولكن الذي يحزن الفريسيين على الارض يفرح الملائكة في السماء .

وليس الراعي وحده يترك القطيع كله ليسعى في طلب الخروف الضال ولهذا زاد يسوع قائلاً : « ام اية امراة اذا كان لها عشرة دراهم فاضاعت منها درهمًا واحدًا لا توقد سراجًا وتكنس البيت وتطلبه باهتمام حتى تجده . » في المثل السابق كانت الشفقة هي المحرّك الاول الذي يدفع الراعي وراء الخروف والآن نرى ان المنفعة هي سبب اهتمام المرأة . ولا يخفى ما في هذا من الدليل الواضح على ان الانسان ذو قيمة عظيمة في عيني الرب . اجل ان الانسان المخلوق على صورة الله يمجده تعالى اذا طبّق حياته على مشيئته وسلك بشريعته وحبه . ونفسٌ تضل عن منهج الاستقامة هي درهم ينقص من الخزينة الالهية . والله يذهب في طلبها باهتمام حتى بين سفالة ذلك الشعب اليهودي حيث تدبّ البغيات والزواني . وبغيرةٍ لا تعرف الملل يُرسل اشعة نعمته في خلايا تلك النفس المظلمة فتارة يحركها بالمصائب والوعيد وطورًا يجتذبها اليه بالوعد والتمليق . ثم ينظفها و يطهرها بحميم التوبة و يردها الى سواء السبيل بعد ان تكون ضالة . وفرحه يكون حينئذٍ نظير فرح المرأة التي وجدت الدرهم المفقود فدعت الصديقات والجارات

ليفرحن معها . على ان حبَّ الله سبحانه للخطأة لاعظم من حب الراعي للقطيع وتعلقه بهم يفوق تعلق المرأة بدرهمها المفقود . اجل ان حبه تعالى لحب ابويٌّ صرف وهذا هو المفتاح الوحيد لاسرار رأفته بنا . و بياناً لذلك يورد يسوع الطف وارق امثاله التي جاء بها في انجيله الطاهر . وكل من يطَّلع عليه ولا يذرف الدموع السخينة ولا يتفطَّر قلبه شفقةً وحنوًا فلا ريب يكون قلبه قد قُدَّ من جلاميد الصخور ولا امل يُرجى منه اذ فقد كلَّ حسٍ ادبي . وهاك هو :

« رجل كان له ابنان » الرجل هو الله والابنان هما عبارة عن الابرار والاشرار . « فقال اصغرهما لابيه يا أبتِ اعطني النصيب الذي يخصني من المال . » وعلى شاكلة هذا الابن طلب الوثنيون يوم جحودهم البعدَ عنه تعالى وكل يوم يكرر ذلك الصنيع من يدوسون باخمص القدم الشرائع الالهية ويهيمون في وادي الرذائل والاميال السيئة . زمان تقسيم الارث لم يأتِ بعد ومع ذلك فالابن يطلب بالحاح ماتخوله اياه الشريعة اي ثلث مال ابيه نابذاً ظهريًا مشورات قلبه مصيخًا سمعًا الى منطوق الشريعة فقط . اذ حسب شريعة موسى الثلثان للاكبر والثلث لا غير للاصغر . ولا ريب ان صوت الحرية كان يدوي في آذان ذلك الابن العقوق و يدعوه الى ترك المعيشة العائلية المرتبة طمعًا باعطاء النفس اهواءها والتملص من حكم كل سلطة خارجة . وذلك ما يصنعه كل يوم الفجار الخالعون فانهم يتضايقون من المكوث في جو الديانة حيث ولدوا ويأنفون مهد الفضيلة حيث تربوا فيميلون الى وساوس المجرب في الحلم و يبنون قصورًا في الفضاء لآلهتهم الكاذبة و يعتصمون بحبال كبريائهم التي هي راس المعاصي . اما الصديق فيطلب بكل خضوع الخبز اليومي لا غير رغبة ان يرجع اليه تعالى في النهار المقبل و يضع ارادته طبق مشيئة ابيه السماوي بينما ان الشرير الفاجر يتوق بمجامع قلبه الى التخلص من عبودية العائلة (حسب زعمه) ومن تسلط ابيه عليه فيقول له بلجاجة : اعطني نصيبي من مالك كي اذهب . « فقسم لكل منهما

معيشته » اي ان الأب لما رأى ان ابنه يرغب في البعد عنه لم يرد ان يقتسره ويغتصب ارادته بل اعتبر انه خير له ان يدعه وشانه . هكذا الله الذي خلق الانسان حرًّا يسمح في بعده عنه كلما لم يعد يجد هذا ملذته في القرب منه تعالى . وبما انه اضحى يشعر بعدم كفاءة الحرية المقدسة التي يتمتع بها في دار ابيه فليذهب يجرب غيرها لعله يجد مرغوبه في الخلاعة . نعم يتأسف الاب عند نظره ان ابنه يسرع الى هلاكه ولكن ليس في وسعه ان يوقفه رغماً عنه عند شفير الهاوية لان الولد متى بلغ رشده صار ربّ اعماله . فعلى هذا المنوال يترك الله الخاطئ الى اميال قلبه وكذلك الروح القدس يهمل مقاومة هجمات الشهوة القوية ولا يبقى للخاطئ من مرشد سوى اختبار الشرّ حتى اذا ذاق مرائره وعرف علاقمه يرجع صاغرًا الى الندم .

« وبعد ايام غير كثيرة جمع الابن الاصغر كلّ شيء له وسافر الى بلد بعيد . » لم يكتف هذا الولد العقوق ان يصير ربّ اعماله بل ان يكون كذلك بعيدًا عن والده ايضاً فجمع ماله باقل ما يمكن من الوقت غير آسف على شيء وقد اعمت الشهوات بصره ثم سافر دون ان يودع ذلك الاب المسكين مع ان الفطنة كانت ترشده لو سمع الى ان يحسب لتقلبات الدهر ويبقي له ملجا عند الحاجة ولكن الشهوة تشغل قلب الانسان كله وتملكه كله لتبتلعه بجملته . هكذا عندما يشعر المرء بنفسه انه ممتلئ صحةً وغني بالمواهب الطبيعية كقوة العقل والجسد يتأهب لمغادرة الله وشريعته موجهاً السير نحو كورة الملذات الكائنة في اطراف الارض المقابلة لبيت الله حيث لا ذكر لابيه البتة بين جماهير الكفرة والعشارين والخطأة الفجار جميع الذين خدعهم شراب الملذات الدينوية وهم كثيرون

« وبذّر ماله هناك عائشاً في الخلاعة . » اذن لم يجمع الاّ ليبدد . وكلما ملكت يداه ذهب فريسة الحرية المطلقة العنان باسرع ما يمكن من الوقت فانطفأ مصباح عقله وخارت قوى ارادته نحو الخير وحلت في نفسه اقبح الرذائل محل

الشهامة والاستقامة والفضائل الطبيعية . ولا يلزم للخراب الادبي زمان اطول مما يلزم لاجل الخراب المادي فان زوبعة التعطيل التي تلفح نظير ريح السموم العاتية اوراق الشجر وتهدد الاصل باليبوسة هي نفسها تذهب بزهرة الشباب و بنضارة الوجه

« فلما انفق كل شيء له حدثت في ذلك البلد مجاعة شديدة فاخذ في العوز » الجنوح الى الخلاعة والملذات له حدٌّ محدودٌ لا يتعداه مطلقاً . يضمحل الشباب والصحة و ينفد الغنى فيستولي على النفس الضجر والسأم من الملذات و يعقب كل ذلك وخز الضمير الحاد . نعم يأتي زمان تتبدل فيه الاحوال وتأبى الطبيعة عينها اعطاءنا ما نطلبه منها من الملذات وتغادرنا حيارى تحرقنا الرغائب التي لا مندوحة لنا من الوصول اليها . وتتعاقب علينا اذ ذاك النوازل الغير المنتظرة وتتلون المصائب نظير عشب الحقل . وتكون غالباً الضربة القاضية التي تسحق قلب الشقي مثل الخ اما الموت واما الخيانة والخراب الهائل . فيا لعظم تعاسة من يرى ذاته بعد ان يكون بذل كما عزَّ لديه وهان لاجل الملذات قد اضحى الآن فريسة خضراء للعذاب الذي بلا رحمة . ولكن لا يغترَّ الجهلة فهذه هي عاقبة من يفتتن بملاذ العالم الزائلة ولا حظ لعاشق الدنيا سواها . العالم لا يشبع احداً لكونه بعيداً عن الحقيقة والحب الخالص وكل من جلس على مائدته الفاخرة يخرج وهو يتضور جوعاً . وفضلاً عن ذلك فانَّ العوائد التي يختلقها المرء لنفسه والاميال التي ينبهها بواسطة معاقرته الملاهي العالمية تضحى كعقارب جائعة تلسع قلبه وتطلب اشباعها بلا شفقة وحينئذٍ يحدث في النفس ذلك الجوع الكلبي والجوع فضاح . ولم يبق للابن الشاطر سوى شيء واحد وهو الحرية التي بسببها غادر بيت ابيه وذاق ما ذاق من التطرف في الرذيلة . والحال انه بانقلاب عظيم من التقادير الالهية قد آلت به هذه الحرية عينها الى اشقى حال العبودية اذ باع حريته كي لا يموت جوعاً .

« فذهب وانضوى الى واحد من اهل ذاك البلد . » سكان ذلك البلد هم الابالسة سلاطين هذا العالم . وقد وطدوا فيه ملكهم منذ سقطوا في الخطيئة

و يثبتون فيه الى الابد نظراً لثباتهم في الشرّ ابداً . اما الانسان فلا يوجد هناك الاَّ بسبب سوء تصرف حريته المطلقة و يستطيع ان يخرج منه متى شاء وليس هو هناك الاَّ كعابر طريق ولهذا يشعر بالجوع الذي لا يشعر به سكان تلك الكورة اذ هو حالم العادي . انَّ حرمان الابالسة من مشاركة الله امر يستلزمه نظام العدل اما بعد الانسان عنه تعالى فحادث وقتي مخالف للنظام الطبيعي . ومن ثمَّ فان ألم الجوع الذي لم يزل يشعر به الابن الشاطر دلالة على بقايا الحياة وجرثومة النهوض الادبي فيه وهذا لا وجود له في الابالسة وان وُجد فهو قرين اليأس لانه قد حكم عليهم بالبعد الابدى عنه تعالى وعن كل سعادة . وماذا كان يرجو ذلك الشاب المشؤوم الحظ من سيده ؟ الخبز . ولكن واسفاه هل يوازي الخبز قيمة شرف عائلته وحريته ؟ مع ذاك فان ذلك الخبز الجوهرى الكافي الذي يستحصله البار كل يوم من يد ابيه السماوي لا يحصل عليه الابن الشاطر بعد تجشمه المشقات العظيمة « فارسله الى حقله يرعى الخنازير . » وهل توجد مهنة احط من هذه واحقر ؟ كان المصريون لا يسمحون لرعاة الخنازير ان يدخلوا هياكلهم واليهود يعاملونهم با كثر شدة . فهذا ما يدخره العالم لمن غرّهم ببهرجة مواعيده بالاستقلال . و بعد ان يكونوا ضحوا لاجله مالهم وشرفهم وراحتهم في الفضيلة وحياتهم يعلن لهم انهم عبيد ارقاء له و يقلدهم صولجان رعاية الخنازير و يقضي عليهم ان يهيموا تائهين في البراري القحلة ليلتقطوا منها القوت السمج والغير الكافي .

« وكان يشتهي ان يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت تاكله الخنازير ولم يعطه احدٌ . » و يظهر مما ذُكر ان الخنازير كانت تشبع اكثر من رعاتها وان ما كانوا يعطونه من الاكل للاجراء لم يكن كافياً للقيام بأودهم فكانوا يحسدون حظ الخنازير . وهذا الحال المحزن يمثل لنا صورة الخاطىء الهائلة متى وصل الى قعر الاثم والذل الادبي فانه يأسف لكونه وُلد شريفاً و يودُّ لو كان

بهيمة يشبع مثلها من الملذات الحسية السافلة و يجد في وسط الاوحال القذرة ما تشبع رغائبه الدنيئة . وهذا ايضاً كالابن الشاطر لا يُعطى له و يبقى قدامه احد امرين اما ان يستمر طول عمره جائعاً ما زال بعيداً عن الله او يشبع من الخيرات في بيت ابيه

فايُّ مسافة طويلة قطعها هذا الولد الناكر الجميل في قليل من الوقت . واي فرق عظيم و بون شاسع الارجاء بين معيشة الراحة والرفاه والجاه في منزل ابيه والعبودية والمذلة الحاضرة . فقد تنافس المصورون في تمثيل حالته جالساً وحده تحت جوّ قاتم في عمق بادية لفحتها ريح السموم فاقحلت ارضها . شعره القذر منسدل على كتفيه الضامرتين من الجوع والعري . عيناه مغروقتان ثابتتا النظر كمن يتبع حلماً او يردد ذكرى محزنة ومن حوله قطيع الخنازير الوسخة يتيه هنا وهناك . عديم التكلم كثير الزفرات تسيل على مقلتيه المسودتين من حرارة الشهوات دمعة سخينة . فكم من الخطاة يقفوق في مستقبل الايام امام هذه الصورة و يقولون في نفوسهم : انا ذلك الرجل . وهذه كانت حالة الوثنيين اجمعين في ايام المسيح . على انه لحسن الطالع يبقى ابٌ يسهر فوق راس الخاطئ، و يحرس الهيئة الاجتماعية حتى في ضلالها وهذا الاب انما هو القلب الذي يحافظ على الحب حتى بعد انقطاع المودة . والقوة التي تثبت في وسط الضعف . والشفقة التي تنتظر رجوع المجرم وتحركه اليه . و يؤثر هذا الآب ان يكثر العقبات والعثرات في طريق الضال و يثقل عليه الم البعاد علّه يرعوي عن غيه و يتوب . فيا لعظم الحنو الالهي العجيب فانه يستعمل هذه الامثولة القاسية لان الجاهل يصمُّ اذنيه عن سماع سواها . الشقاء الزائد هو اذاً آخر ضربات النعمة فاما ان يهلك الانسان بعدها الى الابد او يحيا برجوعه اليه تعالى فهي الحد الفاصل في تقلبات الحياة الادبية

« فرجع الى نفسه . » من اعظم دواعي خراب النفس عدم الافتكار في القلب وترك النفس عرضة الى تنازع الاهواء الخارجية . و بالعكس يوم يسد المرء

اذنيه عن سماع الضوضاء الخارجة ليسمع انين ضميره الداخلي فذلك اليوم يكون مفتتح تاريخ نهوضه الادبي

« وقال كم لابي من أجراء يفضل عنهم الخبز واناههنا اهلك جوعاً . » عندما تنقشع غيوم الأوهام عن عيني الانسان يرجع طبعاً الى مقابلة حاضره بماضيه وحينئذ تنجلي امامه الحقائق فيرى فوق راسه الاجرام الفلكية تتبع بكل دقة واحكام حركاتها التي رسمتها لها الحكمة الازلية ولاتحيدعنها ابداً . وحوله الطبيعة بجملتها تذيع مجد الخالق بسيرها الاضطراري بمقتضى السنن التي وضعت لها وعند قدميه البهائم تجد راحتها برضوخها الى اميالها الغريزية . وبالنتيجة كل شيء سواه هو ضمن دائرة النظام وكل شيء سعيد على اختلاف طبقاته في سلّم الموجودات التي هو اشرفها لانه ابن الله بينما ان بقية الكائنات العديمة الحرية مسخرة له ومع ذلك كله فان الانسان وحده هو المخالف للنظام بين جميع المخلوقات والعضو الزائغ والنقطة السوداء في صحيفة الكون . وعليه فعقاباً له يكون وحده حليف الشجن والتعاسة ما دام على وجه الارض حياً

فبالمقابلة انجلت الامور اذ بضدها تتميز الاشياء ومن احتكاك تصور حسن ماضيه مع قبيح حاضره تولد في نفس الابن الشاطر شرار العزيمة الشماء . فمن حين جلس وهو على ما هو عليه من شقاه يردد ذكرى نعيم البيت الابوي وقف فجأةً . وكأنه رأى في كفتي الميزان ما كان عليه بالامس من سعة عيش ورفاه وما هو فيه الآن من تعس وذلة له فحصحص الحق وزهق الباطل فشعر باشمئزاز عظيم من الحاضر وتأسف كثيرًا على الماضي وودّ لو عاد اليه . وهذا كان سبب توبته ومبدا قصده الثابت وقيامه الادبي . « اقوم وامضي الى ابي . » يحلو له ذكر اسم ابيه بالدموع بعد ان اساء اليه ويرتاح الى مشورة قلبه الذي يفسح له مجال الامل في حنو صاحب ذلك الاسم الذي افتتح به خطابه وتذرّع به ضد كلما جرى منه وتشجع وقال ايضاً : « اقول له يا أبتِ قد خطئت الى السماء

وامامك.» فان السماء لا تنسى دمعة ابن وان عقوقاً قد هرقت حباً بابيه بل تنتصر لها عاجلاً او آجلاً. « ولست مستحقاً بعد ان ادعى لك ابناً فاجعلني كاحد اجرائك.» لعمري ان هذه الندامة تامة الشروط ومستوفية الظروف من كل جهة. فقد جمعت بين حسن التأهب والاقرار التام والثقة والعزم القويين والتواضع العميق الذي لا يطلب الرجوع الى مقامه الاول بل يحسب المحل الاخير كبيراً عليه ومنّةً تفوق اهليته. ولايخفى ما يكسو به النفسَ هذا التواضع الحقيقي من رفعة الشان والعظمة الادبية. وللوقت وضع الابن الشاطر قصده في العمل « فقام وجاء الى ابيه.» ان التوبة الحقيقية لا تترك مجالاً بين القصد والعمل بل يسبق الفعل فيها القول

وابدع التفاصيل الدقيقة في هذا المثل هو ولا مشاحة كون الاب لم ييأس قط من رجوع ابنه بل كان علمه بتقلبات ادوار الحياة يجعله يحسب الساعات الكافية لارجاع ذلك الولد العقوق عن طريق الغرور. وكل يوم كان يصعد على رابية و يسرح الطرف مراراً في الشوارع والطرق سائلاً الافق عن ولده الضال وكان يرجع عند المساء حزيناً لانه لم يره مقبلاً اليه. وهكذا يفعل الاب السماوي فان عينيه تألف السهر عله ينظر رجوع البشر الناكرين نعماه. واي وقت فاجأ في قلوبنا عاطفة ندم فلا يعود يتمالك عن عظم الحنو علينا وينسى كل ما علينا من مطاليب العدل. ولا نخطو نحوه خطوة واحدة حتى يكون قد اسرع الينا بعشر خطوات . وحالما يلح على شفاهنا عاطفة الاسف يبادرنا بتشجيعات حنوه

« وفيما هو بعيد رآه ابوه فتحنن عليه واسرع والقى بنفسه على عنقه وقبله.» فياله من مشهد موءثر. ابن يكسوه العار والخجل واب ينعطف عليه بفيضان حنو لا يوصف غير مبال بما طرأ على ابنه ذلك الشاب الجميل المنظر المعجب بحريته من الخراب الهائل والتغيير المضل. وقد عرفه وهو على ما هو عليه من الذل

والحقارة والشقاء واكتنه فيه حالاً دمه وصورته ووربثه · وعندئذٍ لم يسعه الا اظهار انعطافه اليه فلا الاساءة لجلاله ولا رزانة الشيخوخة ولا اعتبار المشيب كل ذلك ما امكنه ان يوقف هائجَ حنوه فهرول مسرعاً اليه مخافة ان يستولي عليه الفشل فيرجع القهقرى · وضمَّه بين ذراعيه وعانقه معرباً بقبلة عما طوته ضلوعه من نيران الجوى بسبب بعاده عنه ومشيراً بفمه اياه الى صدره الى منعه عن اظهار زفرات ندمه المؤلمة · وبالحقيقة لم يكد الابن الشاطر يلفظ هذه الكلمات « يا ابتِ قد خطئت الى السماء وامامك ولست مستحقاً بعد ان ادعى لك ابناً » حتى اسكته ابوه كأنه يأبى سماع اقراره بذنبه الذي يقتضيه العدل قصد ان يخفف عن ابنه وطأة الخجل وعلى نفسه اعادة ذكرى حوادث محزنة كان عنده بها العلم اليقين · فيا لعظم حبك اللهم اذا كان هذا صحيحاً ويالعظم شر الخاطىء الذي يحاول ان يتوارى عن معانقتك الابوية وييأس من نوال المغفرة من بحر كرمك الزاخر · « فقال الاب لعبيده هاتوا عاجلاً الحلّة الاولى والبسوه واجعلوا في يده خاتماً وفي رجليه حذاء · واتوا بالعجل المسمَّن واذبحوه · » فلا يريد الاب ان يبقي اثراً من دلائل غرور ابنه · الحلّة الاولى تنسي الاثواب الرثة والحذاء يغطي رجليه اللتين هشمهما الشوك والخاتم يرجع له حق البنوية والوراثة والسيادة في بيت ابيه · هكذا الله يرد الخاطيء الى حال البرارة التي تطهره والنعمة التي تحرس خطواته والحرية التي تشرّف ابناء الملكوت وعوضاً عن تراتيل الفرح يعد له وليمة الحب والشكر يحضرها الابن الشاطر التائب مع لفيف الاصدقاء ويقول: « فلنأكل ونفرح لان ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد · » فيظهر مما تقدم ان قلب الاب كان يطفح فرحاً ويدعو الجميع الى الاشتراك معه لانه نال اقصى ما كان يتمناه · فابنه تخلّص من مخالب الموت وهو وجد من كانت نفسه تتوق الى لقياه ولهذا طفقوا يفرحون

« وكان ابنه الاكبر في الحقل · » اي بينما يفرح العشارون بثقتهم براحم

الله يهتم الفريسيون بما يرجع اليهم بالنفع العالمي والفخر « فلما اتى وقرب من البيت سمع اصوات الغناء والرقص » ولسوء ظنه تكدَّر وبدلاً من انه يدخل الى البيت ليرى الداعي لذلك الفرح « دعا احد الغلمان وساله ما هذا ». ولا غروَ فان اصحاب النيات السليمة يذهبون توًّا نحو الغرض ولكن ذوو الخبث والمكر يظنون ان التقوى قائمة بالاعتزال عن كل لهو وفرح. فادفي بسط يخيفهم ويزعمون ان الانسان لا يستطيع ان يعبد الله الاَّ بالحزن وكآبة النفس. فرجع الغلام وقال له : « قد قدم اخوك فذبح ابوك العجل المسمَّن لانه لقيه سالماً» وعوضاً عن ان يشترك بالفرح في رجوع اخيه كما كان يقضي عليه الحب الاخوي « غضب ولم يرد ان يدخل» هكذا يصنع الفريسيون المتكبرون القساة القلوب فانهم يغضبون ويحنقون من رجوع الخطأة والعشارين والوثنيين الى منازل الاب السماوي كأنَّ هولاء ليسوا خليقة الله . فيرفضون مجالسة مثل هولاء ويوْثرون البعد عن الخلاص على ان يدخلوا الملكوت مع التائبين اليه تعالى الذي يرحب ويحتفي بقدومهم

« فخرج ابوه وطفق يتوسل اليه.» لعمر الحق ان حبَّ ذلك الشيخ الوقور لا يفرغ فها هو يبادر للخروج الى ابنه الثاني الذي لا يستحقه. فكما عامل الاب السماوي ابنيه هكذا يعامل يسوع الفريسيين. ولكن يا لعظم الفرق بين وقفة الخاطىء والبار امام ابيهما وبين تواضع واحترام ذاك وعجرفة واستخفاف هذا كما يظهر من سياق كلامهما بحضرة ابيهما. وقد رأينا كلام الاصغر واليك ما قال الاكبر بحنق لابيه « كم لي من السنين اخدمك ولم اتعدَّ وصيتك قط وانت لم تعطني قط جدياً لاتنعم به مع اصدقائي» هذا لسان حال الادعاء الفريسي فلا يخجل ان يعدَّ السنين الطويلة التي قضاها في خدمة ابيه ويفتخر ببرارته ولما لم يكن اهلاً ليفقه ان اعظم جزاء حسناته حب ابيه له يتشكى من عدم المكافأة ويلتذ بتعداد الحوادث التي من شأنها اظهار ميل ابيه نحو اخيه رغبة ان يشهر

بالمقابلة محاباة ابيه بخصوص معاملته له ولهذا قال له ايضاً : « ولما جاء ابنك هذا الذي اكل معيشتك مع الزواني ذبحت له العجل المسمَّن.» ولا يخفى على ذي بصيرة ما في هذه الكلمات من الحزازات التي يأباها الحب الاخوي. فانه لا يقول اخي بل ابنك ولا يذكر عنه انه رجع بل جاء شأن الغريب عن العائلة ولا ينسى ذكر تبذير الاموال مع الزواني بينما انه هو الصديق البار لم يخالف له امراً بل كان اطوع له من بنانه. وعلى سبيل المقابلة كان يحط بشان اخيه ليظهر فضله فترتفع منزلته في اعين ابيه . غير ان عواطف سيئة نظير هذه لم توقف رأفة ذلك الشيخ الوقور كما لم توهن حنوه جهالات الابن الشاطر فاجابه بعذوبة : « يا ابني انت معي في كل حين وكل ما هو لي فهو لك. ولكن كان ينبغي ان نتنعَّم ونفرح لانَّ اخاك هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد.». وعلى هذا النمط بعد ان تنازل واجاب برقة على تقريعات بكره الحادة يجتهد بان يحرّك في قلبه عواطف الحب الاخوي بقوله له « اخاك » و بعدئذ يورد له بغاية من اللطف والمؤانسة انه كان المتوجب عليه ان يعتبر بمقام اعياد كل ايام معيشته في منزل ابيه وتحت عنايته الابوية حيث كان سيداً غير مأمور وفوق ذلك انه لم يمنع عنه جدياً لو شاء وطلب غير ان ميله الشخصي للانفراد والبعد عن الملاهي ومعاشرة الخلان هو الامر الذي منعه عن اخذ ما هو اثمن من الجدي. هكذا هي ديانة الفريسيين فانها ديانة خوف ونفور و بغض لمعاشرة الناس تكتنفهم النعمة فان لم يحصلوا عليها فلامتناعهم عن طلبها فلا حق لهم اذن ان يتذمروا من حصول الغير عليها بل كان الاجدر بهم ان يدخلوا الوليمة و يشتركوا مع الجلوس عليها لان صاحب المنزل غني رحب الصدر والضيافة. وهب ان الامر كان على خلاف ذلك اما كان الواجب على الاخ الاكبر ان يفرح مع ابيه برجوع اخيه الاصغر و يقتسم فرح ذلك الشيخ الذي يشعر بتجديد عمره في ولديه معاً ؟ وهل من الامور الشاقة ان يجلس الاخ بجانب اخيه نصف نفسه بعد البعاد والجفاء ؟

ولم يقل يسوع في هذا المثل هل كان الابن الاكبر دخل الوليمة او بقي خارجاً اذ كان على الفريسيين الذين كانوا يسمعونه ان يروا ما عسى ان تكون النتيجة . اما هو فقد وضع لهم المقدمات واعلن ان ابواب الوليمة كانت مفتوحة لكل شارد ووارد فصار عليهم ان يقبلوا الدخول اليها بمعية العشارين والخطاة او يستمروا خارجاً

§

الصدقة والحياة المزمعة

هذا هو تاريخ الرحمة الالهية فعلى الانسان ان يقتدي بها ليكون رحوماً نحو بني جلدته وزاد يسوع قائلاً : « كان رجل غني له وكيل فوشي به اليه بانه يبذّر امواله .» الرجل الغني هو الله رب هذا العالم ووكلاؤه هم الموسرون الذين من اعظم واجباتهم ان يدبروا املاكه و يشتغلوا لخير القريب واذاعة مجده تعالى . والحال كم من مرة يخون هولاء واجباتهم و يستخدمون الاموال لاجل اشباع ملذاتهم الدنية و بعملهم هذا يجلبون اللوم والتذمر على العناية الصمدية التي تطعم زيداً ما تحرم منه عمراً . فتنظر الملائكة اعمالهم السيئة فتوشي بهم الى الرب سبحانه

« فدعاه وقال له ما هذا الذي اسمع عنك ؟ ادِّ حساب وكالتك لانه لا يمكن ان تكون وكيلاً بعدُ .» تطلب دفاتر الوكيل منه ليس للنظر في مسألته اذ وقوع الذنب مقرر بل للتسليم فقط حسب قانون المعاملات الرسمية . وكما انه عندما نشعر بقرب الاجل و يأتي ملاك الموت فيُعلمنا باصبعه بعلامة الزوال من العالم الفاني تتنبه ضمائرنا من غفلتها وتنتصب الحقائق الهائلة امام بصائرنا فنعلم قبح التصرف الذي اتيناه بالاموال الدنيوية التي سلمت الينا بالوكالة لابمثابة ملك دائم فنندم على مافات . هكذا عندما بلغ هذا الوكيل الجاهل نبا رفع الوكالة

عنه حار في امره وقال في ارتباكه: « ماذا اصنع فان سيدي يعزلني عن الوكالة ولا استطيع الفلاحة واخجل ان استعطي . » قد استصعب الوكيل على نفسه الضعيفة الاماتة بالشغل وذل الاستعطاء وعليه زاد قائلاً: « قد علمت ماذا اصنع حتى اذا عُزلت عن الوكالة يقبلونني في بيوتهم .» وكان لم يسلم بعد دفاتر حساباته ومن ثمَّ كان قادرًا ايضًا ان يتصرف بها رفقًا بمديوني سيده رغبة ان يكتسب صداقتهم و بناء على ذلك: « دعا كل واحد من مديوني سيده وقال للاول كم عليك لسيدي ؟— قال مئة بتِ زيتٍ —فقال له خذ صكك واجلس مسرعًا واكتب خمسين. ثم قال للآخر وانت كم له عليك ؟ — قال مئة كرِّ حنطة. — فقال له خذ صكك واكتب ثمانين. فاثنى السيد على وكيل الظلم لانه صنع بحكمة. » ان السيد لم يمدح خيانة هذا الوكيل بل اثنى على حذاقة تصرفه بالنظر الى ما يرجع اليه بالنفع وحسن تخلصه من تلك الضيقة. وجل قصده في هذا الاستحسان اظهار عدم حذاقة بني النور فيما يؤول الى نجاحهم الروحي نسبة الى حذاقة اولاد الظلام في اشغالهم العالمية وذلك على سبيل المقابلة بين فطنة ودراية هولاء وتغفل وقلة استدراك اولئك. يعرف الاشرار ان يربوا لهم انصارًا الى وقت الضيق بالغش والنفاق اما الابرار فلا يدرون ان يجعلوا لهم شفعاء ومحامين يوم الدين بواسطة حسن تصرفهم بالخيرات التي استودعهم اياها العلي. وعليه يهتف يسوع قائلاً: « فان ابناء هذا الدهر احكم من ابناء النور في جيلهم. وانا اقول لكم اجعلوا لكم اصدقاء بمال الظلم حتى اذا ادرككم الاضمحلال يقبلونكم في المظال الابدية. » فكم من الخطاة الذين تابوا من مجرد تأملهم بهذه الكلمة فوجدوا فيها المغفرة لذنوبهم والعزاء على فراش الموت

اما الفريسيون البخلاء والمحبون نفوسهم فلم يصيخوا سمعًا لما ظنهم انهم ابرار فقال لهم يسوع: « انتم تزكون انفسكم امام الناس لكن الله عالم بقلوبكم لان الرفيع عند الناس هو رجس امام الله. — كان رجل غني يلبس الارجوان والبزَّ

و يتنعم كل يوم تنعماً فاخراً. وكان مسكين اسمه لعازر مطروحاً عند بابه مصاباً بالقروح. وكان يشتهي ان يشبع من الفتات الذي يسقط من مائدة الغني ولم يعطه احد. وكانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه.» فالطباق ظاهر بينهما الاول فريسي او صادوقي يسكن القصر والثاني مسكين ينام في زوايا السوق. ذاك يجلس على مقاعد الحرير بين سراة القوم و ياكل الطعام الفاخر وهذا يرقد على الحضيض بين الكلاب وهو يتضور جوعاً. ذاك يلبس الاثواب الثمينة وهذا مضروب بالقروح المتقدة. واستمرت تلك الحال ردحاً من الزمان فكان يقاسي لعازر امر العذاب والغني يشرب كؤوس الهنا صافية له بين الخز الولائم وملاذ المعيشة يتمني لعازر ان يحصل على بقايا مائدة الغني وهذا لا يمكنه منها حتى جاء اجل كل منهما « فمات المسكين اولاً » واستراح من شقاء هذه الحياة المرة ولم يعلم به احد ولربما لم يحصل على قبر يدفن فيه بل اكلت لحمانه طيور السماء ووحوش البر « ثم مات الغني فدفن » بكل تجلة واكرام ورافقه جمع كبير الى اللحد حيث اكل لحمانه الدود كما كان ينهش جسد لعازر حياً

على ان نفسيهما لم تموتا بل حضرتا امام منبر الديان العادل وهناك انقلبت الاحوال وتغيرت الادوار واستمر الطباق بين الحالين ولكن بعد ان انعكست ودارت الدوائر على الغني لانه بعد موت لعازر «نقلته الملائكة الى حضن ابرهيم.» فمرّ بغتة من اعظم الشقاء الى اكمل السعادة. من رفقة الكلاب الى عشرة الملائكة من ظلام وذل مرقد زوايا السوق الى بهو الوليمة السماوية المفرحة حيث جلس في حضن ابرهيم ابي الاباء واتكأ على صدره وقد استحق هذه المنزلة الرفيعة ليس بسبب فقره المدقع بل بسبب صبره الجميل على مضض الايام وعدم تذمره على العناية الربانية كما يشير الى ذلك اسمه الذي ترجمته « الله يعضده » والحق يقال انه كان معلقاً فيه تعالى حبال آماله كلها يقبل المصائب بالصبر و يبارك اليد التي تضربه. اما الغني فانتقل من غزارة الاموال الى الفاقة ومن الملاذ الى

الى اقصى الشقاء والتعاسة ومن الحياة الى الموت والهلاك في جهنم. ولم يذكر يسوع سبب هلاكه لعلمه ان موت لعازر جوعاً على بابه يظهر للجميع سبباً كافياً للقضاء عليه بعذاب جهنم. ومن ثم ليس الغنى في ذاته شراً بل قساوة القلب وعدم الرحمة وعدم الاكتراث بصالح النفس هذا كان سبب تدهوره في هاوية جهنم الى الابد. وجمال وغنى ضريحه الارضي لم يوقه من العذاب أليماً

« فرفع عينيه وهو في العذاب. » كمن يستجير لانّ ذلك الانتقال الفجائي من رخاء المعيشة وفاخر الطعام ونعومة الملبس الى النار الآكلة والعذاب الاليم واللهيب المحرق داهمه على حين غفلة فيدعو بسرعة يداً تنشله او صديقاً يجيره او مخلصاً ينقذه. وفيما هو يلتفت يمنة ويساراً واذ « رأى ابرهيم عن بعيد ولعازر في حضنه. » فبهت من هذه الرؤيا بسبب ما نظره من الانقلاب العظيم بين ما كان يعهده على الارض والحالة الحاضرة. المسكين اصبح شبعان ودخل الى ضمن الوليمة والغني امسى جائعاً وطرد خارجاً يتقلب في النيران الابدية ظهراً لبطن ويضنكه العطش. فرغماً عن بعد المسافة « نادى بجهير الصوت قائلاً يا ابت ابرهيم ارحمني. » فيقدم سبباً للتشفع لديه صفة كونه ابناً له ومن سلالته ولكن هل اعماله تطابق نسبه ؟ وهل ابرهيم يقرّ له بالبنوة ويعرف دمه فيه مع انهُ لم يتبع اوامر ديانته ما دام على ظهر الارض حياً. فالشقيّ الحظ لا يظهر انه على تمام الثقة بقبول استجارته ولهذا لا يكثر الطلب عليه ويكتفي بالقليل اذ قال. « وارسل لعازر ليغمس في الماء طرف اصبعه ويبرد لساني لاني معذب في هذا اللهيب. » يقبل الآن الاحسان من يد ذاك الذي لم يرد ان يحسن اليه على الارض. ولقد علمه الشقاء ما يجب على افراد الالفة الاجتماعية من تبادل المعاضدة ولكن لات ساعة افادة. ووخز الضمير الناتج عن اعادة ذكرى معاملته القاسية للمسكين لعازر ورفضه مساعدته وسد جوعه حتى بالفتات المتساقط عن مائدته حمله على ان يطلب ولو قطرة ماء من يد لعازر ليرطب بها لسانه المتوقد.

فاجابه ابرهيم: « يا ابني » وبهذه الكلمة يعترف ابرهيم بصحة نسب الغني اليه وانه كان مدعواً لآخرة اصلح لو عمل الخير واشعاراً بذلك بقول له «يا ابني تذكر انك نلت خيراتك في حياتك ولعازر كذلك بلاياه والآن فهو يتعزى وانت تتعذب .» الخلاص والهلاك من صلاحية العدل . فالغني الذي اناط كل آماله في خيرات الارض قد قبلها في هذه الدنيا وتلذذ بها ملياً ولم يلتفت الى ما سواها . وبما ان هذه الخيرات كانت وحدها محط رحاله فلا عجب اذا كان بخسارتها مع الحياة يخسر كل خير سواها . بينما ان لعازر في وسط الشقاء كان ينظر الى ما وراء ذلك من حسن المجازاة اذا صبر على مصابه . فما كان يتوقعه وصل اليه ويتنعم به مدى الابدية كلها . فيكون كل منهما قد صور حياته الثانية كما شاء . الغني لم يكن يتوقع شيئاً بعد الموت فلا يحصل على شيء بل تكون له التعاسة الدائمة ولعازر الذي كان عائشاً بالامل يحصل على كل خير ويكون سعيداً مدى الدهر . فالموت اذن قد حقق اماني كليهما سرمداً ابداً . فباطلاً ينتظر الغني يد المساعدة في شقائه وعذابه الاليم فان حكم عدل الله لا يتغير ما دام الله الهاً وان رق عليه قلب ابرهيم ولعازر فلا يستطيعان الى مساعدته سبيلاً « بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى ان الذين يريدون ان يجتازوا من هنا اليكم لا يستطيعون ولا الذين هناك ان يعبروا الينا . » ان الحكم المبرز بفصل الاخيار عن الاشرار هو حكم لا يقبل التمييز ولا المراجعة وها يسوع المشترع العظيم يبينه لنا في سياق كلامه اذ زاد قائلاً : « اسألك اذن يا ابت ان ترسله الى بيت ابي فان لي خمسة اخوة حتى يشهد لهم لكي لا يأتوا هم ايضاً الى موضع العذاب هذا . — فقال له ابرهيم ان عندهم موسى والانبياء فليسمعوا منهم — لان لعازر المسكين الذي كان موضوع سخريتهم في هذه الدنيا الفانية لا يستطيع ان يكلمهم بأكثر سلطة من الشعب اليهودي وخدمة الله . « — قال لا يا ابتِ ابرهيم بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون . » لا يتوب

المرء لكونه غنياً بالاموال لان الغنى ليس شراً بل لانه كان غنياً شريراً . ومن ثم يظهر لنا سبب هلاك هذا الغني التعس الحظ — « فقال له ابرهيم ان لم يسمعوا من موسى والانبياء فانهم ولا ان قام واحد من الاموات يصدقونه . » ان كلام احد الاموات لا يكون له وقع الا لكونه عبارة عن آية باهرة خارقة العادة والحال ان موسى والانبياء قد اثبتوا حقيقة مقالهم بالوف من الآيات العظيمة . فاذن من طلب اثبات حقيقة وجود العذاب في جهنم من كلام احد الاموات كمن يطلب الاقل مع حصوله على الاكثر اذ يستعيض بآية واحدة عن الوف . والحكم بالهلاك على من عاش بالتبذير والاسراف وملاذ الحياة وملاهيها مقرر في الكتاب المقدس في محلات مختلفة ولا يجهل ذلك سوى الاشرار الذين يصمون آذانهم عن سماع صوت الحق والعدل صارفين همهم الى ما فيه اشباع شهواتهم البدنية .

§

التواضع المسيحي

من عيوب الفريسيين الذميمة الازدراء بالخطأة والبخل واقبح منهما الكبرياء فانهم كانوا يظنون انهم بحفظهم الشريعة يقلدون الله فضلاً ومنةً وكانوا يقفون امامه عزَّ وجلَّ بعدئذٍ بتعجرف كمن يطالب مديونه بدين شرعي له عليه . فمن هذا الادعاء الباطل المنافي لروح الدين على وجه الاستقامة اراد يسوع ان يحذّر تلاميذه عندما اتوا قائلين له . « زدنا ايماناً » ومؤدى هذا القول أئتنا موهبة صنع الآيات بنوع اعظم من ذي قبل . وعلى الارجح انهم طلبوا ذلك بعد ايابهم من احدى ارسالياتهم تخيَّل لهم ان الفرصة مناسبة لطلب أجر مقابل تعبهم . ولما لحظ يسوع ما في طلبهم من الاعتداد بالنفس وتقدير عملهم فوق قدره شرع يواضعهم بقوله لهم : « لو كان لكم ايمان مثل حبة الخردل لكنتم تقولون لهذه التوتة انقلعي وانغرسي في البحر فتطيعكم . » فليس اذن طلبهم ازدياد ايمانهم عن هدى لان من طلب الزيادة من شيء يفترض وجوده فيه والحال

انهم كانوا وقتئذٍ خالين من الايمان . وقد اذنبوا بادعائهم ان ذلك حق شرعي لهم جزاء اتعابهم . فقال لهم يسوع : « من منكم له عبد يحرث او يرعى اذا رجع من الحقل يقول له ادخل سريعاً واتكئ . الا يقول له اعدد ما أتعشى وتمنطق واخدمني حتى آكل واشرب وبعد ذلك تأكل انت وتشرب ؟ فهل عليه ان يشكر ذلك العبد لانه فعل ما امر به ؟ لا اظن . وكذلك انتم اذا فعلتم جميع ما امرتم به فقولوا انّا عبيد بطّالون انما فعلنا ما كان يجب علينا فعله » فكم يختلف اعتبار اعمال البشر بحسب اختلاف النظر اليها من قبل العدل او من قبل الرحمة او اذا وزناها بميزان العدل الالهي او بميزان الحب . يقول العدل للفاعل عند فروغه من العمل ليس لك عليّ شيء لاني دفعت لك الاجرة سلفاً . وذلك حق وصواب . اما المحبة فانها تُجلس الخادم الامين على المائدة وهي تقوم بخدمته . والمحبة ايضاً تصنع ذلك بحق وصواب . وعليه فمن الضرورة صرف النظر الى التمييز بين حقوق العدل وتنازل الرحمة . وبناء على ما تقدم فمن المحتمل ان يحبنا الله الى ما لا نهاية له ولكن لا يصير مديناً لنا اذا صنعنا ما هو متوجب علينا . نحن خلقته تعالى وخاصته ومن ثم علينا كل الواجبات نحوه وليس لنا عليه ادنى حق حتى لا يحق لنا ان نطالبه بدقيقة واحدة نحيا بها . فالتواضع اذن انما هو فضيلة منطقية ناتجة عن جوهر طبعنا البشري وهي مفيدة للغاية اذ لا يُحسب الانسان شيئاً في عيني الرب الا متى عرف حقارته ولا يرتفع الا بعد ان يواضع نفسه امام الرب وهذا ما يوضحه لنا المثل الآتي :

« رجلان صعدا الى الهيكل ليصليا احدهما فريسي والآخر عشار » المقابلة بين طرفي نقيض هي واقعة في حد ذاتها واجتماعهما معاً امام الله في الصلاة لا يخلو من الخطأ في شأن الفريسي . من جهة الواحد هو انموذج الاستقامة والدقة والقداسة الشرعية والآخر مثال الخداع والإفك والعار في اعتبار الجميع وكلاهما حضرا للصلاة . ومن البديهي ان الفريسي يفضل العشار في مثل هذا

العمل لانه تعلم الصلاة منذ نعومة اظفاره وقضى معظم حياته في درس الشريعة وقد رضع لبن التقوى وهو في المهد بينما ان العشار قد تربى على الخلاعة والظلم والكفر فمن اين له ان يعرف كيف يخاطب الله وهو لم يعاشر سوى الاثمة· على ان واقع الحال يكذب حكم العقل الاولي البديهي · وسبب هذا الانعكاس هو كون الصلاة الحسنة هي التي تخرج من القلب وليس التي تصدر عن الراس· ليس التي منبعها الكبرياء العبوسة الجافية والاعتداد بالذات بل التي تتدفق من معين التواضع الرائق ودافعها الحب وانسحاق الفؤاد

دونك حالتهما في الهيكل · الشخص الاهم يتكلم اولاً · ويخرج من صف الجمهور ويتقدم من المحراب وقد انتصب امام الله كأنه يريد ان يريه طول قامته ويستجلب انظار الحضور اليه ويفوه بالصلاة قائلاً : « اللهمَّ اني اشكرك لاني لست كسائر الناس الخطفة الظالمين الفاسقين ولا مثل هذا العشار» وهكذا بدلاً من ان يطلب ما يحتاج اليه يشكر الله على ما هو حاصل عليه ويعتبر نفسه غنياً وصدّيقاً اكثر من كل احد كأنه رأى عيوبهم وذنوبهم ولم يخف عليه سوى زلاته الشخصية ويشجب الجميع رغبة في ان يبرر نفسه · ويخص بالذكر ذلك المسكين العشار الذي يتضرع جاثياً في آخر الهيكل ثم يرجع فيفتخر في ذاته حتى يعتبر الله مديوناً له وليس عليه ان يشكر بل ان يُشكر اذ يردف كلامه بقوله : « فاني اصوم في الاسبوع مرتين واعشر كل ما هو لي » · على حين انه لم يكن مضطرا الى كل ذلك لان موسى لم يفرض سوى صوم يوم واحد في السنة كفارة عن الذنوب · وبعض الاتقياء كانوا قد فرضوا صوم بعض ايام اخر في دور السنة اما هذا الفريسي فقد تطرف في الورع حتى انه كان يصوم مرتين في الاسبوع · ولم تكن الشريعة تقضي على اليهودي الا بدفع عشر ريع ارضه اما الفريسي فلم يستثنِ من العشر شيئاً مما ملكت يداه · وعلى هذا النمط كان يرى بعين الرضى والاعجاب كمال سيرته · وبعد ان اعلن

من هو وماذا يصنع وماذا يعطي ختم صلاته ولم يأتِ باسم الله الا على سبيل العادة اذ لا يرجع اليه تعالى شيءٌ من هذه الصلاة بل هي عبارة عن مديح نفسه · ثم رجع كما دخل صفر اليدين

« اما العشار فوقف عن بعد ولم يرد ان يرفع عينيه الى السماء بل كان يقرع صدره » فيا لعظم الفرق بينهما · الاول تقدم الى امام الهيكل وانتصب بتعجرف امام العلي كأن حجاب الكلفة مرفوع بينه وبين الله · والثاني بقي بعيداً يرتعد خوفاً ورهبةً · ذاك افرز نفسه من بين الجمهور ليعلن تقواه وهذا لا يعرف كيف يخبيء ذاته كي يحجب شقاءهُ عن اعين البشر · الفريسي يرفع راسه وصوته و يديه نظير صنم مشغوق بهيبته تعالى ليرى الناس و يتعجبوا والعشار لا يجسر ان يرفع عينيه الى السماء لعلمه بعدم اهليته الى القيام بحضرة العظمة الالهية ولا يفوه باسمه القدوس الا وترتعد فرائصه فرقاً ويهتف نحوه من اعماق قلبه الذي يلوح مملوءا من الفساد ولهذا يقرعه بشدة كمن يريد ان يقتصَّ منه وكان يقول في تواضعه « اللهمَّ ارحمني انا الخاطيء » · لا يوجد في هذه الصلاة الوجيزة سوى ثلاث كلمات الله من جهة والخاطيء من جهةاخري والرحمة التي تصل بين هذين النقيضين وما فاض عن ذلك فهو زائد · فتواضع الخاطيء قد ترجم اماني قلبه بافصح عبارة واوجز صلاة وافعلها على قلب الله · ولهذا يَنتج يسوع قائلاً : « اقول لكم ان هذا قد نزل الى بيته مبرَّرًا دون الآخر لان كل من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع » ومن ثم فان فضيلة التواضع تُثبت الخير موضع الشر والكبرياء بعكسها · العظمة لله وحده فمتى رفع الانسان نفسه يُذله الله و يبتعد عنه و بالعكس متى وضع نفسه فيرفعه بقربه اليه · فيالعمق اسرار الحكمة الازلية فان الله يريد ان يكون وحده كل شيء في الكل · فمن قصد ان يملأ فراغ قلبه من الاباطيل البشرية فانه يطرد الله منه ومن فرَّغ قلبه منها يملأهُ الله من فيضان مراحمه وإنعامه

الفصل الرابع عشر

في انبعاث لعازر ونتائجه

— رسول يخبر بموت لعازر — ذهاب يسوع قصد بعثه الى جوار اورشليم غير خائف من اعدائه — حكم المجلس النهائي باهلاك يسوع

طالع بشارة يوحنا ف ١١ ع ١—٥٤

§

رسول يخبر بموت لعازر

وفي تلك الاثناء وفد رسولٌ من بيت عنيا يخبران لعازر مريض وقد ادنف وان شقيقتيه مرتا ومريم تستنصران بقدرة صديقهما يسوع وتطلبان اسراعه لنجدتهما قائلتين له : « يا رب ها ان الذي تحبه مريض » وكانتا قد عرفتا مكر اليهود واضمارهم الشر ليسوع ثمَّ الخطر الذي كان يتوقع ظهوره في اورشليم ولهذا لم تبلغاه مع الرسول الا ما كان ضرورياً وكافياً للجواب فقط ولم تغفلا عن ايراد الكلمة « تحبه » الكافلة لهما بنيل المراد . اما يسوع فاكتفى بان يجيبهما على مسمع الجمع كله « ليس هذا المرض للموت بل لاجل مجد الله لكي يتمجد ابن الله به » فرجع الرسول حاملاً هذا الجواب المبهم وعند وصوله الى بيت عنيا وجد لعازر قد مات . فخُيل للبعض ان الامر قد فات معرفة يسوع حيث برهن عجزه عن شفائه مع ان من امعن النظر في هذا الجواب عرف انه يجزم بقرب وقوع آية باهرة

وقد صرَّح يوحنا الانجيليّ ان يسوع كان يود مرتا ومريم اختها واخاها

لعازر ومع ذلك لم يلبث في الحال طلبهما بل ضرب ميعاد ذهابه اليهما بعد مضي يومين غير مكترث بما ينسبه اليه الناس من عدم القدرة وقلة الاهتمام بمن يود علماً منه انه لو ابرأ عليلاً او بعث رجلاً قد مات منذ برهة وجيزة لم يكن الامر كافياً لافحام اخصامه بل يضطره الامر لعمل آية تكون غاية في الغرابة فبناء على ذلك لم يتوجه الى بيت عنيا الا بعد مضي ثمان واربعين ساعة

ولما حان الاوان قال لتلاميذه « لنذهب الى اليهودية ايضاً » ولم يقل لهم لنذهب الى بيت عنيا · فارتعدت فرائص الرسل عند سماعهم هذه الكلمة وقالوا له : « يا معلم الان كان اليهود يطلبون رجمك وانت تمضي ايضاً الى هناك » فاجابهم يسوع « اليس النهار اثنتي عشرة ساعة فان مشى احد في النهار فلا يعثر لانه يبصر نور هذا العالم وان مشى في الليل عثر لان النور ليس فيه » يعني بذلك ان لا خطر في ذهابه لانهم سيذهبون في رائعة النهار او لان ساعة آلامه لم تأتِ بعد وان الله الذي يرغب في تتميم عمل الخلاص سيرعى بعين ساهرة خطواتهم و يبعد عنهم كل خطر · وعليه فحتى يزيل من اذهانهم كل خوف من عواقب هذا السفر اردف كلامه قائلاً : « انّ لعازر حبيبنا قد رقد لكنني اذهب لاوقظه » يعني انه يذهب وحده اذا احجموا عن الذهاب معه مع ان لعازر كان صديقهم كما كان صديقه ولكن الاحوال لم تسمح لهم بالوصول اليه فضلاً عن انه لا فائدة له من زيارتهم لانه معاقٌ ولهذا اجابوا المعلم قائلين: « يارب ان كان راقداً فانه يخلص » حينئذٍ صرّح لهم يسوع « ان لعازر قد مات وانا من اجلكم افرح لاني لم اكن هناك لتؤمنوا · لنذهب اليه » ومشى امام التلاميذ الذين امتلأوا حزناً من هذا الخبر الفاجع وهتف توما بالنيابة عن الجميع قائلاً : « لنذهب نحن ايضاً لنموت معه » فيظهر جلياً من هذه الكلمات عظم الخطر الذي كان الرسل يتوقعونه من جرى هذا السفر لان اقل ما كانوا ينتظرون من عواقبه فقد الحياة

§

ذهاب يسوع الى جوار اورشليم غير خائف من اعدائه لكي يبعث لعازر من الموت

فعند وصولهم الى بيت عنيا عرفوا ان لعازر كان قد دُفن من اربعة ايام وكان جم غفير من الاقرباء والاصدقاء مجتمعين عند شقيقتيه يعزونهما على فقد اخيهما و يشاطرونهما الحزن . وكانت العادة في الشرق ولم تزل عند البعض ان يُدفن الفقيد يوم وفاته قبل غروب الشمس وتبقى المناحة وتناوب الناس للتعزية مدة اسبوع كامل . اما مرتا فلم يمنعها فرط حزنها عن الاسراع الى ملاقاة يسوع عندما طرق مسمعها خبر قدومه ولشدة قلق بالها لم تخبر اختها بل اتت وحدها واذ قابلته اطلقت العنان لزفراتها فانهالت عبراتها كالمطر ولم تعد تتمالك ضبط عواطفها الشديدة فنبذت ظهريًا ما كانت تفرضه اللياقة عليها من كتم شعائر ووقفة احترام واعتبار امام من هو ارفع منها مقامًا . شأن من ضعضعته مصيبته العظيمة فخرج عن جادة الصواب . ويمثل لنا الانجيلي بوجيز الكلام تلك الوقفة المحزنة و يقول ان مرتا لم تعد ترى من خلال دموعها المتساقطة على خديها سوى الصديق الوفي وبلهجة الحزن والعتاب هتفت نحوه قائلة : « يا رب لو كنت ههنا لم يمت اخي » و برصانة وذكاء امرأة اديبة مقرونين بايمان حي استتلت كلامها قائلة « ولكنني الان اعلم يقينًا انك مهما تسأل الله فالله يعطيك » ومن ثمَّ فانها كانت تؤمن بان يسوع قادر ان يقيم اخاها من عالم الاموات اما هو فاجابها « سيقوم اخوك » فقالت انا اعلم انه سيقوم في القيامة في اليوم الاخير » وانما نطقت بهذا لتحمل يسوع على التصريح بجوابه والاسراع الى تعقيب القول بالعمل . اما هو فلم يتردد و بدون ادنى توقف اجابها بكلام من له السلطان على الموت قائلاً « انا القيامة والحياة » فلا لزوم اذن لانتظار القيامة الاخيرة ليقوم اخوك بل ان القيامة هي بين شفتي الذي يكلمك . وعليه زاد يسوع

قائلاً « ومن آمن بي وان مات فسيحيى · وكل من كان حيًّا وآمن بي فلن يموت الى الابد · اتؤمنين بهذا ؟ » فالايمان هو الشرط الاول والاهم الذي به تتم كل كل معجزة · قالت مرتا « نعم يارب انا مؤمنة بانك انت المسيح ابن الله الآتي الى هذا العالم » فتعزت مرتا بايمانها واستراحت نفسها من حسن استعداد المخلص لاجابة طلبها وتوطد املها بالنظر الى قيامة اخيها · فاسرعت راجعة الى بيتها كمن يستنصر بآخر اذ قد صوّرت لها دقة حذاقتها ان واسطة اختها مريم تكون القاضية بحمل المعلم الى اجابة سؤالها · وفي الحال دعت مريم اختها سرًّا وقالت لها « المعلم حاضر يدعوكِ » فاذ سمعت مريم هذا الكلام نهضت بسرعة تاركة الحضور وطائرةً على اجنحة حبها لملاقاة المعلم الذي قد كان قد توقف خارج القرية · فظن الحاضرون ان فرط حزنها حملها على الذهاب الى ضريح اخيها لتنوح فوقه وتهطل على ترابه وابل عبراتها ولذا تبعوها لينوحوا معها ويعزوها · ولما انتهت الى حيث كان يسوع ورأته خرقت صفوف التلاميذ وخرّت على قدميه والدموع ملء عينيها وقالت له نظير اختها « يارب لو كنت ههنا لم يمت اخي » وقطعت عند ذلك حبل كلامها لعلمها ان المعلم يقرأ من خلال الحاظها ما يكنه فؤادها ويستجيب طلبها قبل التلفظ به · فمن اختلاف تصرف مريم ومرتا في هذا الظرف نفسه يتبين اختلاف ميلهما الطبيعي وتنجلي حكمة يسوع من إحكام معاملة كل واحدة منهما حسب ما طبعت عليه · فمرتا ذات الرصانة والحزم تكلمت بحسب ما فطرت عليه واجابها يسوع بسلسلة براهين واضحة مطابقة لميلها · واما مريم ذات العواطف القوية فقد تصرفت بمقتضى قلبها ولم يقدر يسوع ان يقاوم توسلاتها الصادرة عن قلب ودود بل قابل دموعها بتأثر عظيم حتى قاسمها الدمع وعزم على عمل الآية ولو كلفه صنيعه الموت الزؤام · وهنا يعرب لنا يسوع تحت ظواهر ضعف الطبيعة البشرية غنى قلبه الالهي بالرأفة والرحمة

وتقدم اذ ذاك يسوع وسأل بثبات جاش قصد ايقاظ الحاضرين « اين وضعتموه » فقالوا له يا ربّ تعالَ وانظر ومشوا امامه نحو القبر. ولدى وصولهم ضاعفت مريم ومرتا تنهداتهما وعلت اصوات النحيب والولولة وقد شاركهما بذلك كل من حضر فأثر هذا المشهد الفاجع والمفتت الاكباد بقلب المخلّص حتى انه ذرف الدموع ثانية دون ان ينطق ببنت شفة. فكان منظر يسوع وهو على تلك الحالة داعياً لدهشة اليهود الحاضرين اذ كانوا يظنون ان الرجال العظام يتنزهون عن ان تؤثر فيهم مثل هذه المشاهد المحزنة. كأنّ العواطف الرقيقة والاحساسات اللطيفة ليست من اهم مزايا النفس البشرية. اما القديس يوحنا فانه ينقض زعمهم بما يورده لنا في انجيله الطاهر لانه بقدر ما يعتني في بيان لاهوت يسوع يجتهد في الوقت نفسه لكي يظهر لنا ناسوته ايضاً. فيا لها من تعزية عظيمة يلقاها كل ذي قلب جريح عند ما يرى ذاك المخلص الحنون يشاطر اصدقاءه الحزن والكآبة ليس كروح محض بل كانسان ذي شعور قد فطر قلبه من لحم ودم يود ويتأسف ويبكي ويشترك بكل العواطف البشرية ليرفعها ويؤلهها. غير ان الشرف والفخر في ذرف تلك الدموع السخينة من مقلتي المخلص عائد الى مريم ومرتا اللتين لرقة عواطفهما وصدق ودادهما حملتا يسوع على الاشتراك بكائهما. ولم يبكِ يسوع في بيت يائير ولا امام مأتم وحيد ارملة نائين وذلك لان قلبه لم يشعر وقتئذٍ بسوى حنو الهي. اما ازاء جثة صديقه لعازر فقد شعر بحنو وشفقة بشريين. وهذا ما كان داعياً لدهشة اليهود لما نظروا الدموع تتساقط على خدي المعلم ولم يتمالكوا من القول بعضهم لبعض «انظروا كيف كان يحبّه» وقال بعضهم « اما كان يقدر هذا الذي فتح عيني الاعمى ان يجعل هذا ايضاً لا يموت » فشعر يسوع ثانية بارتعاش داخلي وقال لمن حوله « ارفعوا الحجر» فارتعدت اذ ذاك مرتا وخافت وتمنّت لو وقف يسوع عند هذا الحدّ والتفتت اليه قائلة « يا رب قد انتن لانه مضى عليه اربعة ايام ». ومن ثمّ فلا ريب ان

انبعاث لعازر هو خلقة ثانية لان النفس كانت قد فارقت الجثة منذ زمن طويل وقد ابتدأ الجسد يتحلل وترجع عناصره الى اصلها. اما يسوع فرفع صوته بقوة واجابها « الم اقل لك انك ان آمنت فسترين مجد الله » على ان خوف مرتا من عدم نجاح الاعجوبة وان يكن عجيباً في ذاته عقيب الحاحها بطلبها فمع ذلك لا يصعب فهمه على من سبر اخلاق المرأة وعرف مقدار حبها لان الخوف مصدره الحب. فحب المرأة يجعلها تخاف حيث لا خطر. والجمهور الحاضر لم يسلم من الدهشة العظيمة عندما رأى الحجر قد دحرج عن القبر وغلب على لسانه اللكنة فعمد الى السكوت. حينئذٍ تقدم يسوع نحو اللحد المظلم لانه كان على شكل مغارة ورفع عينيه نحو السماء وقال « يا ابتِ اشكرك لانك سمعت لي وقد علمت انك تسمع لي في كل حين لكن قلت هذا لاجل الجمع الواقف حولي ليؤمن بانك انت ارسلتني » وعليه فان الله هو المسؤول في نجاح ما يجري وعدمه فان قام لعازر من الموت فاما ان يكون الله ليس آلهاً والا فيكون يسوع نائبه على الارض حقيقةً. حينئذٍ صرخ يسوع بصوت عظيم شق صداه اعماق القبر كأنه يريد ان يوقظ ذلك الرجل الراقد فيه وقال « يا لعازر هلمَّ خارجاً » وللحال اهتز الميت من لحده واستفاق من رقاده ونهض ملبياً امر سيده لكنه ما استطاع المشي لان يديه ورجليه كانت ملتفة باللفائف وكان وجهه مغطى بمنديل. اما عن دهشة الجمع الحاضر فحدث ولا حرج اذ تراءت لهم جثة ظهرت فيها ملامح الحياة من خلال اكفانها ولذا لبثوا صامتين بدون حراك كأنَّ على رؤوسهم الطير. والانجيلي نفسه الذي نقل الينا خبر هذه المعجزة يظهر انه دارت في راسه الدهشة عينها عند ما كتب لنا هذا الخبر. اما يسوع فقد سلم وحده من تلك الدهشة العمومية وكان كمن فعل رحمة لا تستحق الذكر ولا تستوجب العجب فقال لليهود الذين حوله « حلوه ودعوه يذهب »

لقد تمت المعجزة على ما اشرنا اليه ولكن يا لخباثة بني البشر الذين عوضاً عن

ان يقوموا ليسوع بواجب الشكر والايمان به طوّحوا بنفوسهم في مهامه العواقب الوخيمة التي كانت تحدثه به نفسه القدوسة· نعم لم يخبرنا الانجيلي شيئاً عن شجاعة التلاميذ ولا عن فرط سرور مريم ومرتا وعظم امتنانهما ليسوع لكنه لم ينسَ ان ينبهنا انه وجد بين اليهود الذين آمنوا بيسوع قوم خبثاء حملوا الخبر الى اورشليم واذاعوه بين الكهنة والفريسيين الحسّاد الذين تلقوه بمزيد الفرح ووعدوهم بنيل المراد

§

حكم المجلس النهائي على يسوع بالموت

وفي الحال اجتمع رؤساء اسرائيل ليمعنوا النظر في امر يسوع لان الحالة كانت تظهر لهم حرجة وقالوا فيما بينهم «ماذا نصنع فان هذا الرجل يعمل آيات كثيرة وان تركناه هكذا آمن به الجميع فيأتي الرومانيون و يتملكون على ارضنا وامتنا» وظهر لهم ان تهييج غضب الشعب عليه غير موافق لسبب قرب الفصح. فاحتدم الخصام بينهم وتضاربت الآراء في ايجاد وسيلة تحل عقدة ذلك المشكل العظيم الذي عليه يتعلق هلاك او خلاص الشعب كله واذا باحدهم صرخ بهم قائلاً· « اراكم لا تعرفون شيئاً الا تعقلون انه خير لكم ان يموت واحد عن الشعب ولا تهلك الامة كلها» وصاحب الكلام كان قيافا رئيس الكهنة في تلك السنة و به ختمت اجلها سلطة كهنوت العهد القديم بدم الضحية العظيمة فاتحة العهد الجديد· وقد تنبأ قيافا ان سيموت يسوع حقاً ليس عن الامة اليهودية فقط بل عن جميع البشر بجعلهم رعية واحدة لراعٍ واحد· و بذا يستدل ان الله قد يعطي الاشرار ان يعرفوا الغوامض و يتنبأوا كي يظهر لهم انه الواحد الفرد الذي يدير رحى الاعمال البشرية· فرغماً عما في هذا الراي من الظلم تسلط على اعضاء مجمع حكماء اسرائيل لنفوذ مبداءه وكان لصوته صدى في قلوب الاكثرين ولا سيما الذين حكموا على يسوع بالموت دون ان يسمعوا دعواه

مسنداً الى انه يصنع الآيات التي من اجلها يحق له ان يدعى المسيح. ولكن بين اصدار الحكم وتنفيذه مسافة والمجمع لم يكن له سلطان ان يعاقب بالموت. غير ان ما فطروا عليه من الدهاء والخبث يسهل لهم الوصول الى غايتهم المقصودة ومن تخلص من هيجان الشعب ولم يعبأ بتعصبهم عليه لم يفلت هذه المرة من الحكم المبرم الذي ثبته اعضاء المجمع. وبياناً لما يبذلونه الان من تنفيذ مآربهم الخبيثة نبهوا في جميع محافلهم العمومية ان كل من عرف مقر يسوع محتوم عليه ان ينبئهم عنه وذلك ليس لان يسوع كان مختفياً عنهم بل قصدة ان يظهروا للشعب كم كانوا يعدون وجود ذلك الرجل مضراً بالامة وبذلك يخفضون منزلته من عيون الشعب ويتسنى لهم قتله

الفصل الخامس عشر

عزلة يسوع في تخوم افرام وبشارته الاخيرة

ذهاب يسوع وانفراده في مدينة افرام — ارساله السبعين تلميذاً — الدعوة الى الخلاص. الزواج. والتبتل. الاولاد في اعتبار المخلص

طالع بشارة يوحنا ف ١١ع ٤٧—٥٠ لوقا ق ١٠ ع ١—٢٤ و١٧ع ١٢—١٩ و ف ١٨ ع ١=٣٠ ومتى ف ١١ ع ٢٥—٣٠ وف ٢٠ ع ١—١٦ و١٩ او ٣٠ وف ١٩ ع ٣=٩ ومرقس ص ١٠ ع ٢=٣١

فترك يسوع دون ابطاء مدينة اورشليم وتخومها وتوجه نحو الشمال حيث اختار له ملجا في مدينة افرام والمرجح انها هي التي تدعى طيبه في ايامنا هذه. وهي قائمة على رابية فوق السهل. فمن هناك كان يتسنى ليسوع ان يراقب طلائع المضطهدين لو داهموه بغتة ويختفي عنهم متوغلاً في القفر لجهة الاردن

والراجح ان يسوع آثران يوهب نفسه لشرب كاس العذاب على اختلائه في محل قريب من ذلك القفر حيث اعتزل بعد عماده المقدّس معدًا قلبه للحياة علانية. اجل انه لجدير بالضحية الناطقة ان تتقدس باعتزالها عن العالم واتحادها مع الله قبل تقدمتها. غير ان الرسل لم يكتنهوا الغاية المقصودة من هذه الاستعدادات المهمة فالبعض منهم كانوا يودّون تاخير اجل مجيء ملكوت الله كي لا يشاهدوا مقدماته الهائلة والآخرون عند نظرهم العداوة العظيمة الظاهرة ضد يسوع ضعف املهم في امكان مجيئه وقد فاتهم ان ملكوت الله ياتي رغماً عن معاندة الاشرار له تلبية لرغائب الاخيار بشرط ان لا يقنطوا من طلبه. و بيانًا لذلك اورد يسوع المثل الاتي فقال «كان في مدينة قاضٍ لا يخشى الله ولا يهاب البشر. وكان في تلك المدينة ارملة تاتي اليه قائلة انتقم لي من خصمي. فبقي زمانًا لا يشاء» والامر غير مستغرب لان القضاة كانوا كثيرين في اسرائيل وموسى كان قد وضع على باب كل مدينة قاضيًا ولما لم يعدل منهم الا من ندر كانت تكثر تشكيات الارامل المظلومات من هضم حقوقهنَّ. ولا ريب ان القاضي الذي نحن في صدده كان على جانب عظيم من الظلم اذ لا يخشى شيئًا لا في السماء ولا في الارض و باطلاً كانت تلك الارملة المسكينة تاتي اليه كل يوم طالبة الانتقام من عدوها لاسباب اتضحت لديه جليًا. اخيرًا شفق على نفسه وعزم على اجابة سؤال الارملة تملصًا من الحاحها عليه. واظهارًا لتمام المقابلة قال يسوع «اسمعوا ما قال القاضي الظالم» اي اذا كان هذا القاضي القاسي القلب قد رقّ اخيرًا لملتمس الارملة لئلا تقلقه بالحاحها فكم بالاحرى الله الصالح الرؤوف العادل يسمع نداء ابنائه بل اقول لكم انه ينتقم لهم سريعًا. فلم تيأس اذن من مراحم الله تلك الارملة التي هي عبارة عن الجنس البشري الذي امسى هدفًا لسهام العدو الألدّ فلترفع اذن الانفس الابية هتافها نحو العلا فقد دنت ساعة الخلاص وليس في وسع الاشرار ابعادها وان بذلوا جهدهم. غير ان يسوع

استتلى كلامه قائلاً بقلب حزين « ولكن اذا جاء ابن البشر فهل يجد الايمان على الارض » ومن ثمَّ يجب ان نقترن الصلوة بالاعمال كي يقترب مجيء ملكوت الله ، ولما كانت ايام يسوع معدودة صار من الضرورة ان يسبر هوى الشعب كي يستقبله عند عودته الى اورشليم استقبال المنتصر العظيم

§

ارسال السبعين تلميذاً

عندما سرح يسوع رائد الطرف من علو مكان عزلته نحو مدن اليهودية العديدة الواقعة نحو الشمال والتي لم يكن دخلها بعد اذ وقع نظره على وديان السامرة حيث لم يوجد الا كعابر طريق وعلى العالم الوثني التائه في وهاد الضلال والجهل تحركت عواطف الحنوّ في قلبه وتنهد الصعداء وهتف قائلاً : ان الحصاد كثير واما الفعلة فقليلون . فاسألوا رب الحصاد ان يرسل فعلة لحصاده» ولما كان هو نفسه الوكيل الرسمي على بيت ابيه شرع حالاً بالعمل فزاد على عدد الرسل الاثني عشر سبعين تلميذاً . فبهذا العمل اشار يسوع الى اهم حوادث تاريخ الشعب اليهودي لان عدد التلاميذ جاء رمزاً الى السبعين نفساً الذين دخلوا ارض مصر مع يعقوب والى السبعين شيخاً الذين انتخبهم موسى لبني اسرائيل والى السبعين عضواً الذين حكموا على يسوع بالموت والى زعم اليهود ان الجنس البشري كان منقسماً الى سبعين شعباً (تكوين ف٤٦ع٢٧ وف١١ع١٦—٢٠) فذهب التلاميذ نظير الرسل اثنين فاثنين حاملين البشائر الى كل جهة مخبرين بحضور المسيح ودنو ساعة الخلاص داعين الشعوب الى النهضة الدينية . وقبل ان يتفرقوا اسمعهم يسوع هذه الكلمة « اذهبوا » اي عجلوا بالتبشير فان الوقت قد دام اذا اردتم ان تحرثوا الارض قبل سقوط بذار الخلاص فيها من علو الجلجلة « فها انا مرسلكم كالخراف بين الذئاب » واية ذئاب خاطفة هم الفريسيون ولكن فلتكن قلوب البشر مطمئنة فان عناية ابوية تسهر عليهم ويداً قوية تعضدهم

« لاتحملوا كيساً ولا مزوداً ولا حذاء » لان الله يهتمّ بهم ويجهز لهم احتياجاتهم لئلا يفوتهم الوقت ولهذا ايضاً لا يسلمون على احد في الطريق كي لا يتأخروا عن تتميم المهمة التي أُرسلوا لاجلها اعني الاسراع في توزيع بشارة الانجيل. وقد كرر يسوع على التلاميذ الوصايا عينها التي كان القاها على الرسل ان يحيوا بالسلام سكان اي بيت دخلوه لانهم رسل السلام وان لا ينتقلوا من بيت الى بيت حتى لا يظن بهم انهم يتطلبون الموائد الفاخرة ولا يضيعوا الوقت سدًى. وقد اعطاهم السلطان على شفاء الامراض وعمل الآيات ليثبتوا صلاحية والوهية ارسالهم وعليهم ان يردّدوا بلا انقطاع « قد اقترب ملكوت الله فمن كان اسرائيلياً حقاً ينهض من غفلته ويرجع الى يسوع. واذا رفضت مدينة قبول المبشرين واصمّت اذانها عن سماع كلامهم فليخرجوا الى ساحتها وينفضوا احذيتهم قائلين على مسمع ومرأى سكانها «انا ننفض عليكم حتى الغبار الملتصق بنا من مدينتكم ولكن اعلموا هذا انه قد اقترب ملكوت الله» فالويل اذن لمن يرفضون البشارة فلا ريب انّ اهل سدوم وعامورة يكونون اخف حالة منهم في يوم الدّين لان هؤلاء ضلوا في حين كان الظلام مخيماً على الارض اما اولئك فقد رفضوا السير في النور وهو مشرق عليهم

فعلى رسول الله ازاء دسائس العدّو ان يجمع بين حكمة الحية ووداعة الحمامة ولا يعرض نفسه الى الاستشهاد لان عدد المبشرين لم يزل قليلاً وزمان الاستشهاد لم يأتِ بعد ولهذا حرضهم المخلص بقوله « واذا اضطهدوكم في هذه المدينة فاهربوا الى اخرى. الحق اقول لكم انكم لا تتمون مدن اسرائيل حتى يأتي ابن البشر » اجل انه اخذ يتبع هو نفسه خطوات المرسلين اينما ذهبوا وحيثما حلوا ليشجعهم ويثبّت اقدامهم امام المصاعب والاغتياب والخيانة وسوء المعاملة وعليه قال لهم « حسب التلميذ ان يكون مثل معلمه والعبد مثل سيده فان كان رب البيت قد سموه بعل زبوب فبالاحرى اهل بيته » وكان يقول لهم عليكم

ان تعملوا في كرم الرب وتنشروا النور غير مبالين بما سوى ذلك على انه اذا رفض الشعب الاسرائيلي قبول البشارة قطعياً فانحازوا يمنة وشمالاً واذهبوا نحو السامرة ومدن الامم والمدن الخمس فانها تفتح لكم ابوابها المغلقة في وجه اسرائيل اذ متى خرج ملكوت الله من اسرائيل يلزم ان يطوف العالم بامره طلباً للنعاج الضالة وادخالها لحظيرة الدين الحقيقي. وهكذا اراد يسوع ان يفتح امر البشارة العامة بعقائد الدين

وصعد يسوع نحو الشمال قصد ان يكون على اهبة عبور الاردن عند الحاجة بالقرب من بيت شان وفي طريقه كان يتبع آثار المبشرين و يتفقد اعمالهم ويجني اثمار اتعابهم. ولم يحدد الانجيلي مدة تلك الرسالة لكنه يفيدنا ان التلاميذ رجعوا مسرورين من نتيجة تبشيرهم اكثر من الرسل. وذلك يظهر من كلامهم ليسوع « يا رب ان الشياطين تخضع لنا باسمك » حينئذٍ اظهر يسوع انه يقاسمهم فرحهم وثبت كلامهم بقوله « اني رأيت الشيطان ساقطاً من السماء كالبرق » فيظهر من هذا الكلام ان يسوع وان كان بعيداً بالجسد عن موقع تلك الحرب العوان بين الشيطان والتلاميذ فانه كان يسهر بعين لا تألف الكرى على تقلبات تلك الحرب و يدير رحاها بقوته الغير المنظورة. وكان يرى بمزيد السرور كرات التلاميذ القوية على الشيطان وصرعهم في حومة القتال لذلك المختلس مجد الله. وكان يلوح له من خلال هذا الظفر الوقتي ذلك الظفر العظيم الدائم الذي سيتم في مستقبل الايام وكما ان التلاميذ ينزعون من الان من حوزة ابليس اولئك المتشيطنين فسوف يحرسون العالم الوثني الذي يئن تحت نير العبودية. وتشجيعاً لهم استتلى كلامه قائلاً « ها اني قد اعطيتكم سلطاناً على ان تدوسوا الحيات والعقارب وقوة العدو كلها وليس من شيء يضركم ولكن لا تفرحوا بهذا وهو ان الارواح تخضع لكم بل افرحوا بان اسماءكم مكتوبة في السماوات » قال هذا ليقي التلاميذ من الكبرياء و يبين لهم ان أهم واجباتهم

تقديس نفوسهم لئلا يرذلوا هم الذين يكونون قد خلصوا الآخرين

§

الدعوة الى الخلاص

حينئذٍ تهلل يسوع بالروح وامتلأ قلبه حبوراً وتعزية وأملاً وهتف بفرح قائلاً « اعترف بك يا أبتِ ربّ السماوات والارض لانك اخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للاطفال. نعم يا ابتِ لانه هكذا حسن لديك » انها لجديرة بالاعتبار هذه الخطة التي اتخذها المخلص في تلك الحرب ضدّ اركون الظلام. فانه اهمل حكماء وفقهاء اسرائيل وكل من كان قادراً على ان يمدّ لعمله هذا يد المساعدة البشرية الحقيقة والمدافعة عنها سوى الجهلاء والذين نبذوا الطمع والمعرفة العالمية وصاروا كالاطفال. وما ذلك الا لتظهر قدرة الذي لا يفتقر لمساعدة البشر في انقلاب الصالح الادبي. وقد سرّ يسوع ان يشهد لقدرة العليّ التي تقتاد اعمال البشر بقوة لا تردّ ولا تدفع واعلن في الوقت نفسه خضوعه لاسرار الحكمة الازلية ثم ينتقل من وفرة الحب والشكر الى سكينة التأمل والتعجب قائلاً (كل شيء قد دُفع اليّ من ابي وليس احد يعلم من الابن الاّ الآب ومن الآب الاّ الابن ومن يريد الابن ان يكشف له فهنا يظهر يسوع بحر كرمه الزاخر ويرفع نقاب التمويه عن كنوز رحمته ويكشف الحجاب عن غاية ارساله فقد قال ان العلم الراسخ في خفايا الله الذي قبله من الآب قادر ان يكشفه لمن يشاء. فاذهبوا اليه اذن ايها التائهون في مجاهل الحياة ويا من كسرت قلوبكم النوازل الشديدة وانتم بالاخص يا من امست قلوبكم مجالاً لمناخس الريب والشك والتهلكة. تقدموا اليه كلكم وهو يريحكم فها ان محبته تدعوكم اليه قائلة لكم « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحةً لنفوسكم لان نيري لين وحملي خفيف » فيا لها من دعوة جذابة والحقّ يقال انها قد

ايقظت عدداً من ذوي القلوب السليمة ولباها كثيرون من الابرار الانقياء فاثمرت فيهم اثمار الفضائل النامية · فقبل يسوع من ابيه كما هو ضروري لتعزية اصدقائه · قبل الحقيقة التي من شانها ان تمزّق برقع الضلال عن عيونهم · قبل الشريعة التي تدلهم على سواء السبيل وتمهد العقبات في وجه ارادتهم · قبل النعمة التي تساعد حركاتهم على البلوغ لحياة جديدة سعيدة · ولا يطلب منهم سوى الاقبال اليه ليوزع عليهم هذه الكنوز الغزيرة و يؤكد لهم انه يتقبّل الجميع بهشاشة وحب ولا يرفض احداً · ثم التفت يسوع نحو التلاميذ قائلاً « طوبى للعيون التي تنظر ما انتم تنظرون فاني اقول لكم ان كثيرين من الانبياء والملوك ودّوا ان يروا ما انتم راؤون ولم يروا وان يسمعوا ما انتم سامعون ولم يسمعوا » ومن هذا الوقت دخل السبعون تلميذاً في مصاف الكنيسة المسيحية ومنحوا انعامات خاصة جعلتهم ارفع مقاماً من الشعب المسيحي واحط من الرسل · ولهذا نراهم بعد صعود الرب يسوع وتألف الكنيسة في منزلة خاصة تحاكي درجة الكهنوت في ايامنا هذه وهم وان سلموا خدمة النفوس فانهم تحت ولاية وادارة الاساقفة الذين تقلدوا راس السلطة في ملكوت الله · ولما استأنف يسوع السير على اثر التلاميذ جائلاً في المدن والقرى التي كانوا قد سبقوه اليها كان يعلم الجماهير و يشفي المرضى · فذات يوم تعرّض له على مدخل احدى القرى عشرة رجال برص دروا بمروره لانهم كانوا عائشين جميعاً في القفر القريب · وكان احدهم سامرياً ولا غرو فان من شان وحدة المصيبة ان تجمع القلوب المتباعدة وتزيل العداوة الجنسية · فهولاء اذ دروا بمرور يسوع اسرعوا وقلوبهم مملوءة من الرجاء الوطيد ووقفوا يرصدونه على ناحية من الطريق لعلمهم انهم مدنسون شرعاً · ولما لمحوه طفقوا يصرخون باصوات بحّاء قصد ان يعلموه بمكان وجودهم لان البرص يفتك بالنسيج الشبكي قائلين « يا يسوع المعلم ارحمنا » فذاك الانين اثر في قلب يسوع وحمله على الشفقة عليهم وفي الحال اجابهم قائلاً « امضوا واروا الكهنة نفوسكم » واراد يسوع بقوله هذا

ان يمتحن ايمانهم و يثبت شفاءهم شرعاً وان ابلالهم من المرض سيتم وهم ذاهبون جزاء ايمانهم وخضوعهم لاشارته . وقد اكَّد واقع الحال آمالهم لانهم نالوا الشفاء التام قبل ان يصلوا الى حيث ارسلهم المعلم . وللحال قفل احدهم راجعاً على عقبيه محمولاً على اجنحة عواطف الجميل والمنة نحو من احسن اليه على صنيعه وكان يمجد الله بجهير الصوت واذ وجده في القرية خرَّ على قدميه واطلق للسانه عنان الشكر ناثرًا ما نظم في جنانه من معرفة الجميل فراق ذاك الصنيع في عيني المعلم وان يكن عمله هذا طبيعياً لا يتجاوز واجب المنَّة ولكن قد حسب له ذلك فضلاً لانه الوحيد بين العشرة الذي طاوع عاطفة قلبه بينما ان اولئك نسوا المحسن اليهم ولم يرجعوا اليه فيشكروهُ على احسانه فشقَّ عليه قبح صنيعهم لانه نظر تاريخ نكران السواد الاعظم من الناس لاحسانه حتى بعد الفداء ولهذا سأله قائلاً : « أليس العشرة قد طهروا فاين التسعة » فكما انه عرف عدد المحسن اليهم هكذا قلبه يطالبهم كلهم بعرفان الجميل فعشرة طلبوا الشفاء وواحد فقط يشكر وهذا ليس يهودياً بل سامريًا فلماذا هذا الفرق . ألم يوجد من يرجع فيمجد الله الا هذا الاجنبيُّ . فما جرى للاخرين ياترى . لا ريب انهم شغلوا بنفوسهم عن يسوع وتقديم واجب الشكر له فاسرعوا ليثبتوا شرعاً ابلالهم من البرص حتى يتسنى لهم الرجوع الى مخالطة الغير . ولكن هل انتبهوا بعدئذٍ الى ما تفرضه عليهم واجبات الانسانية . كلا . اما السامريُّ فاستمرَّ عند قدمي يسوع الى ان سمع من فيه هذه الكلمة المفعمة عذوبةً وهي « قم وامض فان ايمانك قد خلصك » فماذا يعني يسوع بقوله هذا أ ايمانه خلصه وحده من برص الجسد بينما ان رفقاءه لقلة ايمانهم رجع اليهم الداء . ام يعطيه ايضاً جزاء ايمانه شفاء النفس من مرض الخطية كل ذلك ممكن والله اعلم

ومهما كان من الامر فان الآخرين نظرًا لاصلهم وزمان دعوتهم الى الايمان اصبحوا الاولين والاولون بسبب توانيهم وسوء تصرفاتهم امسوا الاخرين وبيانًا

لذلك قال السيد المسيح «يشبه ملكوت السماوات رجلاً رب بيت خرج بالغداة يستاجر عملة لكرمه فشارط العملة على دينار في اليوم ثم خرج في الساعة الثالثة والحادية عشرة فرأى آخرين واقفين بطالين فقال لهم امضوا انتم ايضاً الى كرمي وانا اعطيكم ما يحق لكم . . فلما كان المساء قال رب الكرم لوكيله ادعُ العملة واعطهم الاجرة . . فجاء اصحاب الساعة الحادية العشرة فاخذ كل واحد ديناراً . فلما جاء الأوّلون ظنوا انهم يأخذون اكثر فاخذوا هم ايضاً ديناراً . وفيما هم ياخذون تذمروا على رب البيت قائلين ان هولاء الآخرين عملوا ساعة واحدة فجعلتهم مساوين لنا . . فاجاب وقال لواحد منهم ياصاح ما ظلمتك ألم اكن على دينار شارطتك . . أليس لي ان افعل بمالي ما اريد . ام عينك شريرة لأني انا صالح . فعلى هذا المثال يكون الآخرون اولين والأوّلون اخرين

ولا ريب ان جل رغبة يسوع في هذا المثل لن يتكلم عن دعوة الشعوب الى الايمان وليس عن الحياة الابدية قصد ان يزيل من اليهود الشك الذي اعتراهم من دخول السامري في الملكوت المسيحي . فمن جهل القصد من ايراد هذا المثل ضل عن فهم معناه الحقيقي

فربّ البيت هو الله الذي يخرج عند بزوغ شمس العهد المسيحي ليدعو جميع البشر للعمل في كرمه اي بتمجيده تعالى وخلاص نفوسهم وجزاء اتعابهم فانه يعطيهم الفادي عربوناً للحياة الابدية . اجل ان ذلك الجزاء لخليق بأن يدفع المتكاسلين الى النشاط و يستنهض الهمم الخاملة . واول المدعوين هم بنو اسرائيل لانه اذا سرحنا رائد الطرف في الاعصار الخالية نرى ان الله اكثر رافته نحوهم ولم يفتر البتة في كرور الايام عن استعمال جميع الوسائل الائلة الى خلاصهم بالمسيح منذ ادم الى يوم مجيئه الى العالم . ولكن شغلهم لم يكن صادراً عن حبّ حارّ بل عن ملامة ورغبة في جرّ المغنم فقط . . بينما انه يوجد في الساحات العمومية اي في العالم اناس مستعدون للشغل لكنهم ينتظرون من يدعوهم اليه .

هناك الخطأة والعشارون والسحرة والفلاسفة الوثنيون فهؤلاء جميعهم سئموا الضلال وقنطت انفسهم من ركوب متن الغواية والتيه وهم رهينو الاشارة. فالى هولاء يوجه رب الكرم دعوته و يستنهض هممهم ليس فقط بمنخاز الضمير بل بواسطة الانذار والتبشير حاثًا اياهم على ان يثمروا اثمارًا تليق بالتوبة و يستحقوا ان يدخلوا في عدد ابناء الكنيسة. وعند المساء حين يكون ابن البشر على وشك مبارحة هذا العالم فانه ينتقي منهم رعايا المملكة الروحية التي اتى لتاسيسها على الارض. فمن لبي دعوته بنشاط وتاب عن اثامه وآمن بالمسيح ايًا كان ومهما كان ماضيه فتنفتح امامه ابواب الكنيسة. وتتدفق علية النعم بلا قياس لان كل من دخل حضن الكنيسة استحق الاشتراك في كنوزها. وهذا المقصود بالدينار الوارد في المثل السابق. فقد اخذه كل من الخاطئة والعشار السامري لانهما دخلا ملكوت المسيح اما اليهود فلم يزالوا ينتظرونه و يتوهمون انه سيعطى لهم و يزادون ولكن ساء ما يتوهمون فلقد سبق السيف العذل فباطلاً يتباهون بشغلهم الذي استمر زمانا مديدًا على حين ان الاخرين لم يأتوا الأ متأخرين وهم حملوا مدة حياتهم نير الشريعة الثقيل فهل من العدل ان يساويهم بالجزاء مع الآخرين. وهنا يظهر حسد الشعب اليهوديّ وغيرتهم الغير المرتبة كما مر بنا ذلك في مثل الابن الشاطر. فسعادة غيرهم تنغص عيشهم وتنقص من سعادتهم. فالمخلص قد اظهر لهم بلطف ورقة ان الله قد انجز وعده لهم. وعد اباءهم بمجيء المسيح من نسلهم وها هو قد ظهر طبقًا لما وعد. ومن ثم قد قبلوا اجرة خدمتهم الطويلة فصار عليهم ان يسيروا والغير بنور الانجيل و يستقوا معًا من منهله العذب ماء الحياة واليمن. تبعث الشمس اشعتها الى جميع الموجودات دون فرق بينها ولا يفقرها ذلك هكذا الله يشرق شمس الحق على جميع البشر بلا استثناء. فان كان اليهود اكثر استحقاقًا من غيرهم فلسوف يقبلون جزاء اعظم. واما الان فياخذ كل ديناره و يتجر به منتظرًا يوم المجازاة. فان اليوم يوم الرحمة و يوم العدل يأتي اخيرًا. يوم فيه توزن اعمال

البشر بميزان العدل و ينال كل جزاء ما صنعت يداه . و بناء على ذلك استطرد المعلم كلامه قائلاً « ان المدعوين قليلون والمختارين كثيرون » وفيما كان يسوع ذاهباً في الطريق واذا بحادث جاء بنوع عجيب مصداقاً على كلامه هذا الاخير و برهاناً قاطعاً على كون الدعوة الى الخلاص في هذه الدنيا لا تستلزم الا الانتخاب الى الدخول في ملكوت السماء وانه من الممكن ان يقبل الانسان النعمة الاولى ويحرم الثانية كما جرى للشاب ذي الثروة والمقام الذي اسرع الى يسوع وهو ذاهب في الطريق وجثا امامه وقال له بحماسة الشبيبة وايمان حار « ايها المعلم ماذا اعمل لارث الحياة الابدية» فسؤاله هذا يشف عن مزيد الرغبة في الخلاص . على ان ما لقب به المسيح لم يكن كافياً للدلالة على وطيد ايمانه لان من يخاطبه هو اعظم من ان يدعى المعلم الصالح ولهذا فيدله يسوع بحنوه العادي على سواء السبيل بقوله له « لماذا تدعوني صالحاً انه لا صالح الا الله وحده» مخرجاً كلمة صالح الى معناها المطلق خلافاً لمدلول كلام الشاب واضعاً اياه بين امرين اي اما ان يشهد ان يسوع اله او ينكر عليه كونه صالحاً فان كان الثاني فلماذا يدعوه الصالح وان كان الاول فكان الاحرى به ان يدعوه ابن الله . وان لم يكن عارفاً كيف يلزم ان يلقبه كان الاجدر به ان يصمت وسكوته اخف جرماً من نسبته الى ابن الله وشريكه في القداسة نوعاً من الاستقامة البشرية فقط

و بعد ان نبه يسوع افكار الشاب الى ما كان واجباً عليه انتقل الى حل سؤاله بقوله « ان كنت تريد ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا» ولا ريب ان الوصية هي القائد الامين الذي يرشد اقدام كل يهودي الى ملكوت المسيح . غير ان الشاب اراد ان يستفهم من المعلم هل يعني بالوصايا ما جاء قديماً مدوناً في كتاب موسى ام الطقوس التي زادتها غيرة الفريسيين . فالاولى قد حفظها منذ الصغر ولكن هل محتوم عليه اتباع ما امر به الفريسيون ليدخل الملك الجديد هذا مؤدي سؤاله . «وما هي »فاجابه يسوع بحنو «لا تزن ولا تسرق ولا تشهد بالزور

اكرم اباك وامك احبب قريبك كنفسك » ولم يأتِ يسوع بذكر واجبات الانسان نحو الله لعلمه انه يحفظها بكل دقة كما يستدلّ من ارتقائه الى رئاسة المجمع مع صغر سنه . وصوّب كلامه نحو الوصايا المنزلة في اللوح الثاني وهي واجبات الانسان نحو القريب لانها كانت منسية نوعاً من اليهود بسبب مناقضتها لاخلاقهم السيئة فالشاب المشار اليه كان يحفظ الوصايا الالهية خوفاً منه تعالى او لجزءٍ مغنم من تقواه الا انه كان يلقى كل صعوبة كبرى في حفظ واجباته نحو القريب وكبح جموح طمعه المتأصل في اعماق قلبه . ولكي يدرأ عنه كل شبهة ويظهر برارته نظراً الى ماضيه هتف معتزاً قائلاً « كل هذا قد حفظته منذ صباي فماذا ينقصني بعد » فعندما سمع يسوع جوابه المعرب عن عزة واستقامة نفس حدّق به واحبه وقال له « واحدة تعوزك ان كنت تريد ان تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء لك واعطه للمساكين فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني » اجل انه ما عدا الشرائع الالهية توجد المشورات الانجيلية فمن يرغب ان يكون كاملاً ويتطلب الارتقاء الى سلم الفضيلة فعليه ان يسلك بحسب منطوق تلك المشورات بعد ان يكون تمّم جميع الوصايا ولكن لسوء الطالع كان ذلك الشاب في حماسة اشد منها في مروءته وعزمه تميل به النفس الى عظائم الامور غير انها تأبى تضحية الذات في سبيل المجد والخلاص وتضنّ ببذل النفس طلباً للكمال وقد فاته ان العظائم لا تكون رخيصة بل دون ذلك اقتحام الاهوال . وما مثل رغبته في طلب الكمال الا مثل الزرع الذي وقع في ارض ليس لها غور فيبس حالاً بعد تصويحه ولهذا كان كلام السيّد في اذنيه كصاعقة ضعضعت افكاره وجلبت اليه الحيرة والارتباك فامسى لا يدري ماذا يصنع وكيف يجيب . فمن جهة يرى الغاية التي ينتدبه اليه المخلص تفوق قواه الادبية ومن جهة اخرى ترك امواله الكثيرة اصعب فتردّد هنيهة وتوارى حزيناً دون ان يفوه بكلمة

حينئذٍ اجال يسوع رائد الطرف بالجمع الذي كان يكتنفه وقال « ما

اعسر على ذوي الاموال ان يدخلوا ملكوت الله » فبهت الجمع الحاضر من قوة كلامه وعدم اخذه بالوجوه واندهل التلاميذ خاصة ولهذا استتلى يسوع كلامه موءكدًا ما سبق « يا بنيّ ما اعسر على المتكلين على الاموال ان يدخلوا ملكوت الله » اجل ان الاموال هي اعظم رابط يقيدنا بالارض واقوى محرّك للشهوات الدنية يجعل امر الخلاص ليس فقط صعبًا بل غير مستطاع بشريًا وعليه زاد يسوع قائلاً « انه لأسهل ان يدخل الجمل في ثقب الابرة من ان يدخل غنيّ ملكوت الله » فاخذ هذا الكلام من قلوب التلاميذ كل مأخذ وازدادت دهشتهم اذ سمعوا المعلم يقضي بعدم امكان خلاص المتمولين وقالوا فيما بينهم « من يستطيع اذن ان يخلص » فنظر اليهم يسوع نظرة اب شفيق وقال لهم « اما عند الناس فلا يستطاع واما عند الله فليس كذلك لان كل شي عند الله مستطاع » فقد يحسن للنعمة الالهية ان تحطم القيود التي تكبّل جناحي النفس وتمنعها عن الطيران كيفما شاءت وقد تسمح ببقائها لاسباب صوابية غير انها تجعلها ممقوتة في اعين صاحبها حتى تضحي داعيًا للاتضاع اكثر منه للخطر. وفي الحال اجاب بطرس وقال « هوذا نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا » نعم ان الرسل لم يتركوا الا قليلاً في سبيل الله لانهم لم يملكوا الا القليل غير ان ما جادوا به عن طيبة نفس غير آسفين على شيء فلو كان الشاب صنع مثلهم لاكتنز له كنزًا في السماء. اما هم فيجيبهم يسوع « الحق اقول لكم انكم انتم الذين تبعتموني في جيل التجديد متى جلس ابن البشر على كرسي مجده تجلسون انتم ايضًا على اثني عشر كرسيًا وتدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر » ان التجديد المنوه به رمز الى رجوع البشرية الى حالتها الاولى التي وجدت بها قبل السقطة الادمية وعبارة عن افتتاح الجيل المسيحي الذي ابتدأ ببشارة الانجيل وينقضي يوم الدينونة العامة. فالعمل الموعود به الرسل في ذلك اليوم الرهيب انما يكون جزاء مروءتهم وتركهم العالم باسره وليس هم فقط يجنون في ذلك اليوم ثمرة اتعابهم

بل كل من آمن وعمل واثباتاً لذلك قال يسوع ايضاً « انه ما من احد ترك بيتاً او اخوةً او اخواتٍ او أباً او اماً او امراةً او بنين او حقولاً لاجل اسمي ولاجل الانجيل او لاجل ملكوت الله الا ويأخذ مئة ضعف في هذا الزمان واما في الدهر الاتي فالحياة الابدية» فمن كرّس نفسه لله في احدى الرهبانيات يجد فيها لا ريب وسائل كافلة للقرب لله اكثر من جميع الخيرات التي نبذها ظهرياً. وهذا ما يراد بالمئة ضعف الذي يناله في هذا الزمان. اما الذين يتبعون الطريق التي عيّنها يسوع دون ان يقطعوا صلاتهم مع العالم وهؤلاء هم الاكثرون عدداً فلا ينالون سوى جزاء روحيّ في الحياة الاخرى لانهم لم يتركوا خيرات الارض الا بالروح فقط وامتلاكهم الله في الابدية يكون على قدر تضحيتهم الخيرات الارضية وانشغاف قلوبهم بحبه تعالى وهذا يكون جزاء فضيلتهم في الدهر الاتي. والله وحده هو الحكم الذي لا يضل في استحقاقات البشر ولا ريب انّ احكامه تعالى تضيّع غالباً احكامنا البشرية وتجلب لنا اكثر من دهشةٍ يوم نشاهد ذلك الانقلاب الفجائي العظيم الذي لم يكن في حسباننا وفي هذا المعنى زاد يسوع قائلاً « وكثيرون من الاولين يكونون آخرين ومن الاخرين يكونون اولين »

§

الزواج والتبتُّل

وصعد يسوع الى تخوم الجليل وعبر الاردن ذاهباً الى بيريه حيث اوشكت ان تمر القوافل الذاهبة الى اورشليم وفيما هو يعلم دنا الفريسيون وسألوه مجربين له « هل يحل لرجل ان يطلّق زوجته لاجل كل علة » وذلك سنداً الى شريعة موسى الآذنة بذلك (تثنية الاشتراع ٢٤: ١) اذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلاً ثم لم تحظَ عنده لعيب انكره عليها فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه الى يدها ويصرفها من بيته » وكان جدال عنيف في ذلك الحين بين اللاهوتيين

في تفسير هذا النص. فزعم هيلل واتباعه ان الشريعة تجيز للرجل ان يطلق امرأته لاجل كل عيب يجعل زوجته مكروهة منه. واما شمعاي زعيم المذهب المضادّ فلم يسوغ الطلاق الا لاجل علة الزنا ولاجل كل سبب ينافي عفة الزواج. ومن ثم كان الفريسيون ينتظرون جواب يسوع ليروا الى اي من المذهبين ينحاز. غير ان يسوع احبط مساعيهم الخبيثة ولم يصوب كلا الرأيين بل وجد المعنى الحقيقي لهذه السنَّة في وضع الشريعة الاصلية واذا كانت قد حرفتها طوارىء الحدثان فالانجيل يصلح خللها ويردّها الى اصلها الاول. وبناء على ذلك اجاب يسوع وقال لهم « ولكن في بدء الخليقة ذكرًا وانثى خلقهم الله » وافاض على قلب ادم هذه النبوّة « لذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امراته فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا » فالرجل والمرأة يرتبطان اذن بعرى وثقى لا انفسام لها. في البدء كانا واحدًا والله خلقهما معًا وجعل المرأة كالجزء المتمم للرجل. فعليهما ان يكونا واحدًا ايضًا في معيشتهما لانه تعالى خلقهما زوجًا ذكرًا وانثى وهذه تكمل ذاك. ولم يخلق الله نساء عديدات كي يتسنى لادم ان يغير ويبدل بينهنّ. وكذلك لم يبرز من العدم رجالاً كثيرين تختار حواء من يحلو لها بل خلقهما الواحد من الاخر ليبين انهما وجدا الواحد للاخر وافاض على قلبيهما ميلاً متبادلاً للانضمام الى الوحدة التي لن تقوى عليها عواطف حبّ آخر. فجامع الحب الطبيعي بين الابن ووالديه يبطل ويضمحل امام الرابط الذي يربط الرجل بامرأته ويجعلهما جسدًا واحدًا وهذه الوحدة تزداد تمكينًا في اولادهما الذين هم ثمرة وحدتهما وشهادة حية على اتحادهما. اذن الولد عبارة عن امتزاج الوالدين بكيانٍ واحد. وهل من اتحاد اعظم واثبت من هذا. واستنتج يسوع قائلاً: « فليسا اثنين بعد ولكنهما جسد واحد. وما جمعه الله لا يفرّقه الانسان » فما ابلغ واسمى هذا الكلام الذي تثبته عواطف واماني معيشة الزوجين المتبادلة. فهما اثنان يضمهما بيت واحد وقد تسلما ذواتهما في وحدة المعيشة وتقيد وجود

الواحد بالآخر وخُتم القيد بامتزاج نفسَي الزوجين واختلاط دمائهما وهل يسوغ بعد ان تقرر ذلك الى بشر ان يحل عقد ذلك الاجتماع· وهل لاحد الزوجين ان يسترجع ما كان وهبه طوعاً ويهجر رفيقه متى شاء· وهل من يجهل الخراب الهائل الذي يجلبه افتراق الزوجين· وما عساه يحل بذلك الولد ثمرة اقترانهما من الويلات وتفتت الفؤاد وخيبة الآمال لسبب افتراق الوالدين ? ثم دنا الفريسيون وسألوه ليجربوه « فلماذا اوصى موسى ان تعطى كتاب طلاق وتُخلَّى » غير ان زعمهم هذا لم يكن صحيحاً لان موسى لم يوصِ بالطلاق بل اذن به فقط واستحلاله الطلاق يدور فقط على تعيين شروطه التي من شأنها ان تجعله نادر الوقوع· الا انه اعتبره كتطرفٍ مخلٍ وجد قبله فاذن به لئلا يقع في شرٍ اعظم فوالحالة هذه يضل عن جادة الصواب من نزل تسامح موسى في هذا الصدد منزلة وصية· وبياناً لذلك زاد يسوع « ان موسى لاجل قساوة قلوبكم اذن لكم ان تطلقوا نساءكم ولم يكن من البدء هكذا· وانا اقول لكم من طلق امرأته بدون علة زنىً واخذ اخرى فقد زنى » هذا هو نص الشرع الجديد وبالحقيقة لم يكن جديداً بل من باب رد الشيء الى اصله· ومن ثم لا سبب غير الموت من شأنه ان يفرق العروسين اللذين جمعهما الله ليعيشا بالاتحاد الغير المنقسم· ومن هذا الاجتماع المستوثق العرى تتأصل وتنمو العائلة المسيحية مع ما هي عليه من العظمة والنقاوة والنظام· نعم قد تكون الزيجة المسيحية شراً عظيماً بالنظر الى النزر القليل من الناس غير ان السواد الاعظم يستفيد منها فائدة لا تقدَّر وذلك كافٍ للمحافظة عليها

فبهت التلاميذ من قساوة تعليم يسوع الذي انكر كل سبب للطلاق ولما اختلوا به في المنزل استفسروه عن ذلك فاجابهم « من طلق امرأته وتزوج اخرى فقد زنى عليها· وان طلقت امرأة بعلها وتزوجت آخر فقد زنت » فزادت دهشتهم وهتفوا « ان كانت هكذا حال الرجل مع امرأته فالاجدر به ألاّ

يتزوج » وظنوا انهم اتوا بالامر المستغرب فثبّت يسوع كلامهم مع اقراره بكون ذلك غير مستطاع من الجميع اذ قال « ما كل احد يحتمل هذا الكلام الا الذين وُهب لهم » والحق يقال اننا نرى اكثر الناس مدفوعين نحو الزواج لا تلويهم عنه مشقات الابوة وذلك حكمة منه تعالى حُبًّا بحفظ ونمو النوع البشري ولكي يوطد اليقين في الحصول على هذه الغاية كما يليق به تعالى ويطابق طبع الانسان الحر وذلك رغماً عما يحول دونها من الصعوبات والحواجز القوية غرس في قلب الانسان ميلاً غريزياً نحو الحب واحتياجاً طبيعياً للامتزاج مع آخر يجعل النفس تقتحم دونه اعظم المصاعب وتحتمل لاجله اكبر النوازل ولا يخلو منه احد من البشر سوى الخصيان الذين استثناهم يسوع بقوله « من الخصيان من ولدوا كذلك من بطون امهاتهم . ومنهم من اخصاهم الناس ومنهم من اخصوا انفسهم من اجل ملكوت السموات . فمن استطاع ان يحتمل فليحتمل » ومن كان يعرض على سامعيه هذه التضحية الهائلة لم يكن دون احشاء بشرية بل كان ذا قلب شعوز لان التبتل الاختياري لا يقتل عواطف القلب بل يزيدها قوةً ومن كان قلبه نقياً رقت شعائره واشتدت حركات حبه النقي . وذلك ما فهمته تلك النساء التقيات اللواتي اجتمعن حول المعلم وقدمنَ اولادهنَّ متيقنات في افكارهنَّ ان من رفع شان الزيجة واعلى قداستها على ما تقدم لا يبخل بكلمة انس موجهة الى ثمرة احشائها . فاحتطنَ به من كل جهة مع اولادهنَّ . اما التلاميذ فوجدوا ذلك في غير محله وزجروهنَّ غير ان يسوع اغتاظ من عملهم وقال لهم « دعوا الصبيان ولا تمنعوهم ان يأتوا اليَّ لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات . الحق اقول من لا يقبل ملكوت الله مثل صبيٍّ فلا يدخله » ان يسوع كان يرى في اولئك الصبيان ابناء معدّين للملكوت الله تقرأ على وجوههم سلامة قلوبهم ونقاوة نفوسهم ويرى من خلال سذاجتهم وثقتهم البنوية فضيلتي الايمان والتواضع اللتين هما باب السماء والى هذا المع

السيد بقوله « يلزم ان تصيروا نظير الصبيان كي تدخلوا ملكوت السماء. لان هؤلاء لا يتفلسفون مع ابائهم بل الايمان والرجاء والمحبة سليقة طبيعية فيهم. وفيما كان يسوع يتكلم بهذا كان يأخذ الاولاد بين يديه ويقبلهم ويباركهم على مرأى ابائهم وامهاتهم الذين سرّوا جداً من هذا المشهد المؤثر

الفصل السادس عشر

في سفر يسوع الى اورشليم

ان يسوع قرّ رأيهُ على ان يصعد الى اورشليم في آخر فصح من حياته. اول مرحلة له في اريحاء الثانية في بيت عنيا مرقس ف ١٠ ع ٣٢—٥٢ وف ١٤ ع ٣—٩ متى ف ٢٠ ع ١ وف ٢١ ع ١٣ لوقا ف ١٨ ع ٣١ وف ١٩ ع ٢٨ ويوحنا ف ١١ ع ٥٥ وف ١٢ ع ١١

§

ان يسوع قد قرّ رأيهُ على ان يصعد الى اورشليم في اخر فصح من حياته

وفي اثناء ذلك لاح قمر نيسان الجديد في السماء، فأُضرمت النيران على رؤوس الجبال وانتشرت الرسل في كل البلاد مبشرةً بانه بعد اربعة عشر يوماً يعيد بنو اسرائيل عيد الفصح وكان الجميع يحيون بابتهاج طالع ذلك الكوكب الذي لم يكن بعد ظهر للعيان ويستعدون ليعظموا تذكار تلك العجائب التي تمت

حين خروجهم من مصر ولكي يستطيعوا ان يتنقوا قبل العيد تا لفوا قوافل قوافل وكانت كل عائلة ينضم بعضها الى بعض حتى يذهبوا الى اورشليم قبل الاوان فلذلك اخذوا في المسير بدون تأخر اي في اليوم الرابع من القمر في اواخر اذار واول نيسان وكان الجو اذ ذاك رائقاً لانه كان قد انقطع الشتاء وانقشعت سحائب الغيوم المتلبدة واخذت حينئذٍ الغزالة تنعش باشعتها المتلالئة انوار الربيع الفضية وكل هذه الاشياء من شأنها ان تجعل السفر الى المدينة المقدسة ذا عذوبة وبهجة مقدستين

وبينما كان الشعب بامره يترنم بهتاف الفرح لدنو عيد الفصح كان يسوع اذ ذاك في احدى مدن بيرية فشعر بان قلبه كان منقبضاً لان الفصح كان حياةً لغيره واما له فكان موتاً ومع ذلك فقد اقترب من الطريق التي تسلكها القوافل واخذ بالمسير بشجاعة في تلك الطريق المزمعة ان تقوده الى العذاب مغادراً مهنة البشارة الانجيلية

وكما يخبر القديس مرقس ان التلاميذ عرفوا من مجرد هيئة يسوع انه عقد النية على الاقدام على عملٍ خطير هائل وكان وحده يتقدم جماعة الرسل نظير قائد باسل منطلق الى الكفاح او بالاحرى نظير بطلٍ يضحي نفسه فداء عن الجميع. وكان الرسل يتبعونه والكآبة والحزن ملء قلوبهم واما الجمع الذي لم يعد يعرف ماذا يفتكر وعلى اي شيء يوطد فكره فكان يشعر بعاطفة من الرعب اذ التبس عليه الامر. فحينئذٍ اخذ يسوع في الكلام واضعاً حداً للسكوت قائلاً « هوذا نحن صاعدون الى اورشليم وابن البشر سيُسلَّم الى روساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه الى الامم فيهزأون به ويبصقون عليه ويجلدونه وفي اليوم الثالث يقوم » فهذا الكلام على اختصاره هو ذو قوة تفي بالمقصود وآخر كلمة من الحرب لا تكون لاعدائه نعم انهم يقدرون ان يقهروه بالموت ولكنه سيعود الى الحياة ليوطد اركان مملكته الابدية القرار فهذا العلم السابق

بالانتصار قد حرّك سواكن الافكار . فاحدى النساء التي كانت إمّا من اتباع يسوع او انها اتت من الجليل مع القوافل ظنّت انها تستطيع ان تنال حظوةً من يسوع فسنداً الى ما كان لوالديها من رفعة الشان بين اقرانهم التلاميذ والى ما لها من الخدمات السابقة انتهزت تلك الفرصة لتطلب ما اعماها حبها الوالدي عن اكتناه سذاجته الظاهرة . فهذه المرأة كانت سالومة امراة زبدي وام يعقوب ويوحنا وكما يخبر القديس مرقس انه قد انضم اليها ولداها ليساعداها على ما عزمت عليه من ذلك الامر ولهذا مذ وجدوا الفرصة التي كان بها يسوع مختلياً اقتربت اليه سالومي وخرّت امامه مظهرة كل ما كان بوسعها من الاحترام ومعربة بعملها هذا عن انها تروم ان تمس نعمة ما فقال لها يسوع « ماذا تريدين . قالت له مر ان يجلس ابناي هذان احدهما عن يمينك والاخر عن يسارك في ملكك » ففضلاً عن انَّ طلبها لولديها احسن مقام كان اجحافاً بحق بقية الرسل لان بطرس الذي اقامه يسوع رئيساً وذا المقام الاول يضحى على الكثير الثالث . فقد كانت مخدوعة وغير عالمة ان جوهر ملكوت الله الجديد متوقف على الجهاد ولا ينال فيه مقام بالالتماس والالحاح بل بالجهاد والكفاح فقال لهما يسوع « انكما لا تعلمان ما تطلبان اتستطيعان ان تشربا الكاس التي اشربها انا او تصطبغا بالصبغة التي اصطبغها انا » لانه كان يوجد عادةً عند الاقدمين وهي ان رب المنزل كان يقدم في اثناء الوليمة لندمائه الذين هم عن يمينه وشماله كاسه نفسها مع ما اعد فيها من الشراب ولحد الان لم تزل هذه العادة جارية في الشرق حيث رب المنزل يبدي مودته لاخص المدعوين على هذا المنوال . وبما ان يعقوب ويوحنا كانا يتصوران ان ملكوت الله هو كوليمة فهل يجدان نفوسهما كفوءا لان يشربا قسماً من الكاس المعدَّة لسيدهما وما هذه الكاس الا كاس الغضب الالهي المعدة للخطأة من العدل الازلي والتي يشاء يسوع ان يشربها باسم الجنس البشري باسره وبالحقيقة فان اول وليمة

تقدَّم في الملك الجديد هي وليمة الالام و بعد ذلك يأتي زمان المجد الابدي اما ذانك الاخوان فعوضاً عن ان يلوذا بجانب التواضع والتعقل فقد اتبعا ما كانت تدفعهما اليه حماستهما معلنين بانهما يستطيعان ان يشربا تلك الكاس فيسوع الذي كان يعلم معنى كلامهما وقوته قال لهما « اما الكاس التي اشربها فتشربانها والصبغة التي اصطبغها فتصطبغانها واما جلوسكما عن يميني وعن يساري فليس لي ان اعطيه الا للذين اعد لهم من قبل ابي » فيا له من حسن تخلص رفيق قد حرم به ذينك الاخوين مما لم يكونا جديرين به اذ قال ان الابن لا يقدر ان يهب مجاناً تلك المواضع التي اعدها عدل ابيه لمن كان حرياً بها ولذا فقد اخفق سعي تلك الام مع ولديها كل الاخفاق. ولما علم بقية الرسل بذلك بلغ منهم الغضب كل مبلغ فجمعهم يسوع حوله وقال لهم « قد علمتم ان الذين يعدون اراكنة الامم يسودونهم وعظماءهم يتسلطون عليهم. واما انتم فليس فيكم هكذا ولكن من اراد ان يكون عظيماً فيكم فليكن لكم خادماً. ومن اراد ان يكون فيكم الاول فليكن عبداً للجميع » والفرق بين ملكوت العالم وملكوت الله هو انه في الاول تنال السيادة بالقوة وتقوم بها واما في الثاني فتنال السيادة بالمحبة ومن طلب ان يكون الاول في الكنيسة فقد طلب ليس الجلوس على العرش حتى يأمر وينهى بل طلب والتزم ان يضع يده في العمل ومن حدثته نفسه فتاق الى ذلك فعليه ان يفدي القطيع لا ان يفتديه القطيع وقد اضاف يسوع الى ذلك قائلاً : « ان ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم ويبذل نفسه فداء عن كثيرين » وان يسوع سيستحق وينال الفخر بان يكون الاول في الملكوت باتعاب حياته الشاقة تلك الحياة التي استعملها ليستأصل الشرور بها و بموته التكفيري على خشبة العار وهذه التضحية تجعله ملكاً وهكذا لا يملك في كنيسته الا من كان مقداماً كريماً جواداً بنفسه جديراً بان يقتفي آثاره كافراً بذاته ومقدماً نفسه ضحية

§

اول مرحلة لهُ في اريحا

وبعد ان عبروا الاردن وصلوا الى واد غدا ممرًّا للقوافل الذاهبة من ارض جلعاد او حوران الى مصر لكثرة ما فيه من غابات النخل وما هذا الوادي الا اريحا الغنية بعطر بلسمها وعصيره والتملي من عبير انوارها المتضوع وكانت تلوح نظير ملكة في وسط تلك الواحة البهجة مفتخرة بمشهدها وملعبها وابراجها الحصينة وكان كل الزوار الكثيري العدد قد انتظموا في آخر محطة على ضفة النهر وجزموا بان اعظم شرف لهم يكون بمرافقة النبي الحدث السن وكان ذلك الموكب يسير بين هتاف آخذة منه الحماسة مأخذها وكان بالقرب من ابواب المدينة اعميان يستعطيان على قارعة الطريق واذ سمعا ذاك الضجيج الذي كان في ازدياد سألا عن السبب فاجابوهما بان يسوع الناصري ابن داود ومسيح اسرائيل كان مجتازًا فالواحد منهما المدعو برطيما الذي امتاز عن رفيقه باظهار ايمانه الحي و بالدور المهم الذي مثله في الكنيسة الجديدة اخذ يصرخ و يقول « يا يسوع ابن داود ارحمني » وكذلك رفيقه حذا حذوه وكان في عزم الجمع المرافق يسوع ان يوقعوا بين يدي حركات تسكن احتفاءهم وتبلبل نظامه ولذا كان الاكرام الطوعي المقدم للسيد له هيئة احتفاء ديني مرتب و بما ان صراخ الاعميين كان من شأنه ان ينثر عقد نظامهم اجتهد الجمع بالا يشوش ذلك الترتيب امرًا ما مزمع ان يحدث اذا توقف يسوع لشفائهما ولذلك عني كل من الجمع في ان يسكن حركاتهما ولكنهما نبذا ظهريًا كل هذه الاوامر لتوقهما الى الشفاء واخذا يزدادان صراخًا قائلين « ارحمنا يارب يا ابن داود » فاخذته الرأفة عليهما عندما سمع هذا الالتماس المتعدد المقرون بالشجاعة ووقف يسوع وقال لكل من كان حوله (دعوهما) فهذه الكلمة غيرت حال استعدادات الجمع بالنظر اليهما . و بما ان السيد كان عازمًا على ان يؤيد ظفره

النجاني باعجوبة كان من اللازم ان يدعوه وشأنه ولهذا ازدادت حماسة الجمع فدعوا الاعمى القريب منهم قائلين له « ثق وانهض فانه يدعوك » فحالاً هب برطيما ورمى الرداء الملتحف به واسرع نحو يسوع الذي كان يطلبه كانه قد صار يبصر ثم وصل الاخر واذ تفرس فيهما قال لهما « ماذا تريدان ان اصنع لكما فقالا له يارب ان تفتح أعيننا » ففي الحال لمس يسوع اعينهما وقال لكل منهما « اذهب فان ايمانك قد خلصك » وللوقت انفتحت اعينهما واخذتهما سورة معرفة الجميل فانضما الى الموكب معظمين الله بكل قوتهما. واما الجمع الذي كان في غنىً عن هذه الحادثة حتى يذيع مجد ذلك النبي الجليلي فقد ابدى فرحاً وانذهالاً لا مزيد عليهما وكانت الناس تتراكض من كل انحاء المدينة حتى تقف في المواضع التي كان ذلك الموكب مزمعاً ان يمر بها وكان كل واحد يرغب في ان يشاهد بعينيه الحسيتين ذلك النبي الحدث السن ولكن لم يكن يستطيع تحقيق رغبته الا بكل عناء لكثرة الجمع. وكان في جملة الذين كانوا اكثر شوقاً لمشاهدة يسوع رجل مذموم المعاملة والسيرة غير انه كان ذا نفس مستقيمة تؤثر بها مسائل الدين الخطيرة وهذا الرجل هو زكا رئيس المكس والعشارين وكان ذا اهمية كبرى في مدينة اريحا تلك المدينة التي راجت فيها وسائل النقل والتجارة ومع هذا كله فمقامه الذي جعله ذا ثروة كبيرة قد صيره عرضة لبغضة مواطنيه واذ سمع زكا بيسوع واخبر عن تلك الاعمال العجيبة التي كان يعملها وعن محبته للعشارين اشتهى ان يلمح السيد حين مروره. ولكنه لسوء الحظ كان قصير القامة والجمع الذي كان يزحمه ويسابقه كان يمنعه من الفوز برغبته. فلذلك قد التجأ الى واسطة يستعملها من عامة الناس من اسعدته الايام فصار ذا ثروة دون ان تتغير عوائده فهذا كدَّ في المسير حتى سبق الموكب وصعد الى جميزة حيث كان يشرف على الجمع ويقدر ان يرى الجميع كما يشاء. ان الطرق الكبيرة في مدن الشرق هي كطريق شبرا في القاهرة يكتنفها صفٌ من

الاشجار فتتخذاغصانها المتدلية والممتدة في الاعياد الكبيرة احسن موضع يتمكن منه الجمع مشاهدة كل ما يجري امامه

واذ رآه الجمع الذي كان يعرفه كل المعرفة بسبب مهنة الجباية جالساً في الجميزة ابدى انذهالا مقترنا بالفرح وردد اسمه مخبراً يسوع بكلام وجيز لايخلو من التنديد عن سيرته ولكن السيد نفسه كان عارفا هذه النعجة الضالة فكما انه دعا بعلمه الغير المحدود نتنائيل الجالس تحت التينة هكذا دعا زكا الجالس في الجميزة واذ وصل امام الشجرة التي كان يشاهد في اعلاها زكا رفع يسوع طرفه ولكي يعلن رافته التي جل اهتمامها في دعوة الاثمة التائبين عن غيهم خاطبه « يا زكا اسرع فانزل فاليوم ينبغي لي ان امكث في بيتك » فحدث اذ ذاك ولا حرج عن فرح ذلك العشار وانذهاله عند سماعه هذا الكلام. لان غاية ما كان يتمناه هو ان يشاهد يسوع ماراً والان دعاه يسوع ان يمكث عنده فهرع ونزل وفؤاده يهتز طرباً وذهب بالسيد الى منزله ليقدم له كل ما كان بوسعه من الاكرام

فعمل يسوع هذا الذي تم لجاة لم يرق في اعين الجميع. وكان معظم روساء الشعب حاضراً في اريحا فاغتنموا اذ ذاك الفرصة وحملوا الشعب على التذمر والتمرمر وبالرغم من الاضطراب والانقلاب اللذين قد داخلا زكا عند سماعه كلام السيد ومن مشاهدته ذلك الاكرام والشرف الغير المنتظرين اللذين خوله اياهما فقد اصاخ سمعاً لتذمر الجمع ومرمرته. ففي الحال عزم ان يبرر ذاته مما وصم به فوقف على اسكفة بيته كانه يريد ان يدحض تلك الشكاوى التي اتهم بها ويدافع عن يسوع بدفاعه عن نفسه فقال للرب بعزم وحزم حقيقيين « هانذا يارب اعطي المساكين نصف اموالي وان كنت قد غبنت احداً في شيء ارد اربعة اضعاف » فهذا الكلام شاف لان زكا قد قسم ماله شطرين على ان يحفظ الشطر الاول لعائلته وان يعطي الشطر الثاني طوعاً للمساكين. ولكي لا يدع مجالاً

للريب في انجازوعده تكلم ليس بصيغة المستقبل اي ساعطي ولكن بصيغة الحال اي اعطي · وهكذا قد جرّت زيارة السيد لزكا مغنما للفقراء دون ان يخسر فيها الاغنياء شيئاً · اخذ زكا في الفحص عن سالف حياته فكان اذا وجد انه غبن احداً يردّ له اضعافاً واذا كان احد يظن انه مغبون كان يأتي اليه ويخبره فيسمع دعواه وطلبه وينصفه وبالنتيجة لم يبقَ مجال لاحد ان يشكك لانه مهما كان ماضي ذلك العشار فقد صار منذ ذاك الحين رجلاً عدلاً مستقيماً ورجعت النعمة الى الحظيرة فمن يتجرأ على ان يستأ من ذلك

فشعر يسوع بانتصار النعمة ومفعولها · واذ اراد ان يشرك بفرحه من كان حوله قال لهم موجهاً الحاظه الى زكا الذي نال مقاماً عالياً في اعين الجمع وبازاء ضميره بالنظر الى تتميم واجباته « اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت لانه هو ايضاً ابن ابرهيم · لان ابن البشر انما اتى ليطلب ويخلص من قد هلك »

والمرجح ان يسوع دخل الى اريحا بعد الظهر وقضى مساء ذلك النهار وتلك الليلة في بيت زكا متمماً بحديثه ونصائحه ما كان ابتدأ به بالنعمة · ومع هذا كله فالمدينة بامرها كانت مشاهدة ما حدث ذلك النهار وبالنتيجة فقد اظهر مسيح اليهود نفسه · وكانوا يقولون انه سيصعد الى اورشليم حيث يتكلل فيها ملكاً الحيا وهذا يكون افتتاح وابتداء عصر جديد · واذا كان التلاميذ رغماً عن كل الملاحظات والتلميحات التي صنعها السيد لهم كانوا مقتنعين كل الاقتناع ومنتظرين اتيان ملك ارضي فما عساه ان يكون انخداع الشعب الجاهل · ولما رام يسوع السفر في الغد وجد نفسه محاطاً بشعب اخذ منه الهوس والتحمس ماخذها وقد اعمته اماله البشرية · وبما ان يسوع كان مهتماً لتهيئة ذلك الشعب لكي لا يشك بموته على حين انه كان يندب انخداعه وغروره انبأه بسفره ورجوعه اي بموته وقيامته وذلك بمثل ضربه له اذ قال

« رجل شريف الجنس ذهب الى بلد بعيد لياخذ لنفسه ملكا ويعود »

وهذا الرجل ما هو الا يسوع بن داود وابن الله والاله نظير ابيه . وقوله ذهب الى بلد بعيد لانه كان مستعداً ان ياخذ تاج الملك باحتفال عظيم بشربه كاس الموت وفي عالم آخر لكن غيبته هذه ليست بطويلة » فدعا عشرة عبيد له واعطاهم عشرة امناء وقال لهم تاجروا حتى آتي » وما هذا الجزء من المال الذي اعطاه يسوع لتلاميذه الا معرفة الحقائق الدينية والقدرة على الدفاع عنها مع اذاعتها والتبشير بها ولا ريب ان هذه المعرفة ليست بتامة والقدرة على اقناع الناس التي اعبطت لهم هي ايضاً ضعيفة . وكان من قصد السيد ان يرى ما يعملونه بهذه المعرفة غبّ رجوعه وقصارى الامر قدسافر ذلك الامير « وكان اهل مدينته يبغضونه فانفذوا في اثره رسولاً قائلين له لا نريد ان يملك علينا هذا »

فهذا الكلام نفسه سينطق به اليهود بعد بضعة ايام امام بيلاطس ومع هذا كله فصياح مبغضيه واحتجاجهم لم يحرما من التاج ذلك الذي كان يستحقه « فلما تولى قيادة الملك ورجع امر ان يدعى عبيده الذين اعطاهم الفضة ليعلم ما بلغت تجارة كل منهم » فهكذا حينما يعود يسوع حتى يفتتح ملكه بوجه نهائي يريد ان يعرف بادئ بدء ماذا صنع تلاميذه بالنعم والمواهب التي سلمهم اياها لانه قد اعطاهم وحدهم ان ينظروا السيد عن كثب وان يتحققوا تتميم النبوات فضلاً عن النعم التي اسبغت عليهم من اجل بشارة الانجيل . فهل تاجروا بهذه المنح التي من شانها ان تؤيدهم في نشر الايمان ما بين الجماهير بعد موته مع انتظار رجوعه او دفنوا لسوء الحظ هذا الكنز مهملين اهم واعز مقاصد السيد دون ان يربحوا شيئاً بتجارتهم

« فاقبل الاول وقال يا سيد ان مناك قد ربح عشرة امناء » فهذا المؤمن كان قد ربح عشرة مؤمنين وقد نشر واذاع في نفوس عشرة من اخوته النور الذي قد قبله وحازه « فقال له احسنت ايها العبد الصالح قد وجدت امينا في القليل فليكن لك السلطان على عشر مدن » فمقامه يكون في الكنيسة على قدر

ما اظهره من الغيرة في اثناء غياب سيده. ثم اقبل الثاني الذي ربح خمسة امناء فوّلي خمس مدن لان المراتب توزع في العالم الجديد على قدر النجاح والاجتهاد المبذولين في مصالح السيد. واخيراً جاء العبد الثالث الذي يوجد بينه و بين رفيقيه بون عظيم سواء كان من جهة العمل او من جهة القول وقال « هوذا مناك الذي كان عندي موضوعاً في منديل لاني خفت منك لكونك رجلاً قاسياً تاخذ ما لم تضع وتحصد ما لم تزرع » ظناً منه انه يقدر ان يحتمي و يعتذر عن كسله وتوانيه بلهجته الوقحة وكلامه المهين. فهذه هي حالة الذين رغماً عن اقتبالهم نعماً غزيرة قد اثروا ان يتبعوا اهواءهم فهم يحاولون ان يجدوا عذراً لهم اما في الصعوبات التي يصادفونها في تتميم واجباتهم واما في قساوة الشريعة. واما لخوفهم ان يسيئوا استعمال النعم السماوية على ان السبب الاكيد والوحيد هو كسلهم وتهاونهم

فالسيد قد سد فم ذلك العبد ببرهان المحمه اذ قال له « من فمك ادينك ايها العبد الشرّير قد علمت اني رجل قاسٍ آخذ ما لم اضع واحصد ما لم ازرع. فلماذا لم تجعل فضتي على مائدة الصيارف حتى اذا قدمت استوفيها مع ربى » فمن حيث انه كان عارفاً طبع السيد القاسي والحريص فكان من الواجب ان يرفض شرف خدمته فيغادر للكنيسة مهنة الارشاد والتبشير

« ثم قال للحاضرين خذوا منه المنا واعطوه للذي معه العشرة الامناء » وقد حاول الحاضرون ولكن عبثاً ان يبينوا ان هذا الحكم مذهل فقال لهم « اني اقول لكم ان كلّ من له يعطى فيزداد ومن ليس له يؤخذ منه ما هو له فاما اعدائي هؤلاء الذين لم يريدوا ان املك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم امامي » فهذا الحكم الذي ابرزه على العبد الكسلان هو نفسه ابرزه على الشعب اليهودي لان عقاب كل واحد على قدر خطارة جرمه

§

المرحلة الثانية في بيت عنيا

ثم سافر يسوع والقوافل التي كانت ترافقه بدون ابطاء الى اورشليم وكان ذلك في ثامن نيسان في عشية السبت فلذلك قد جدوا في المسير حتى يصلوا باكرًا قبل حلول السبت لكي لا يتعدّوا شريعته الآمرة بالراحة. وبعدان ساروا قليلاً في بطن الوادي الذي يشقه نهر (كلت) اخذوا يتسلقون الجبال الماحلة المتاخمة غربي وادي الاردن وعند المساء وصلوا الى سفح الجبال الفاصلة بينها وبين اورشليم . فعلى هذا المكان عرج يسوع مع اصحابه وفيه حط رحاله بينما كان بقية الزوّار يجدون المسير حتى يبلغوا المدينة المقدّسة قبل غروب الشمس. ولما وصلوا اليها واخبروا عن يسوع ازدادت العقول تهيجاولعبت بها حميا الحماسة. والقديس يوحنا يخبرنا ان الجميع كانوا يلهجون به ولكن بنوع مختلف لان روساء الكهنة والفريسيين كانوا يرقبون رجوعه حتى يتمموا مقاصدهم الاثيمة بقتله واما بقية الزوار فكانوا يشتهون ان ينظروه. وكان الكل يؤملون ان يروه في الهيكل واذا لم يجدوه صمموا عزمهم على ان ينتظروه هناك مع ما كانوا عليه من فروغ الصبر. وكانوا يقولون فيما بينهم وهم قائمون في الهيكل « ماذا تظنون أ لعلّه لا ياتي الى العيد » فحدث عن فرحهم ولا حرج حينما عرفوا انه وصل الى بيت عنيا مع تلاميذه وانه كان مزمعًا ان ياتي الى اورشليم بعد يومين غب ان يكون استراح السبت

وقد رام السيد هذه المرة ايضًا ان يقبل ضيافة مرتا ومريم لان طريق القوافل كانت ملاصقة تلك القرية الصغيرة التي كانت تسكنها تلك العائلة الورعة. فلهذا لم يشا يسوع ان يمرّ مع الرسل بالقرب من هذه القرية دون ان يعرّج عليها لكي لا يستاء اصحابه المخلصون له . وفضلا عن ذلك لم يكن من

الحكمة ان يذهب يسوع من اول يوم فيمكث في اورشليم ولا سيما ان يقضي ليلته فيها

وبعد ان اقام يسوع لعازر من بين الاموات لم يات الى بيت عنيا ولم يُرَ فيها الا هذه المرة فلذلك جرى له استقبال حافل فيها. وفي الغد صنعوا له وليمة في بيت سمعان الابرص. ومن المحتمل ان سمعان هذا الذي كان من اقارب لعازر كان قد دعا كل مؤمني تلك القرية مع العائلة التي كان يسوع نازلاً عندها. وهذه الحفلة كانت احتجاجاً ضد اعدائه الكامنين له بالمرصاد لان كل واحد اتى وصنع كل ما من شانه ان يزيد بهجة الاحتفاء بالسيد فلعازر الجالس بين المدعوين كان تذكرة للجميع بتلك القدرة الفائقة القوى البشرية التي اعادت له الحياة. ومرتا التي لم تكن تشا ان تدع لاحد شرف خدمة السيد قد اعتاضت عنها في هذه الوليمة باتباعها اياه باذلة كل ما في وسعها من الاعتناء به. واما عمل مريم ففاق اعمال الجميع عظمة وعجبا. ان اصحاب النفوس الكبيرة لهم في اظهار دلائل الحب اساليب دقيقة ومقاصد سامية هي عن مظاهرات عموم الناس مناط الثريا. ولا يالون بتأويل من هم غير جديرين بفهمها. ففي اثناء الوليمة دخلت تلك الشابة حاملة بيدها اناء من المرمر الثمين مملوءا من ازكى العطور وهذا كان من سنبل الناردين الخالص الكثير الثمن الذي ربما كان من بقايا نخفختها القديمة. وكانت العادة عند القدماء ان رب المنزل يسكب من الزيت العطر الرائحة على رؤوس مدعويه وحتى اليوم فهو يرش عليهم من ماء الورد فمريم قد استبقت لحالها هذا الدور المهم. فدنت امام الجميع من السيد بلياقة جديرة بامراة قد اعتادت معاشرة الناس ولكن مقرونة بدلائل الاحترام السامي الذي يليق بتلك التائبة وكانت هيأتها هيأة مؤمن يتقدم للسجود او ككاهن مزمع ان يمسح ملكا او يقدس ذبيحة. وبدلاً من ان تفتح القارورة باحتراس فقد كسرتها بعنف. وبينما كانت تتأمل وهي جاثية باحترام ذلك الراس المهيب راس المسيح الملك فكانت تمدّ يدها كانها تريد ان تمسحه وصبّت عليه الطيب بكل وقار

ثم توقفت منذهلة من جرأتها. فاي فكر قد داخلها. فلا مرية ان افتكارها في ماضي الزمان حينما تجرأت فقبلت قدميه قد خامر نفسها فرأت نفسها غير جديرة بان تلمس راسه . فالزمان الماضي قد خطر في بالها وثار في تصورها الحاضر مع كل تاثيراته السامية لانها نالت غفران خطاياها سابقاً في وليمة نظير الوليمة الحاضرة. حينئذٍ خرت على قدميها وشاءت ان تجدد ذلك المشهد المؤثر الذي حدث حينما تبررت من اثامها لان ذكره لبث راسخاً في قلبها. وكان الاناء يسع رطلا من الطيب الثمين. وبما انها لم تستفرغ كل ما فيه بعملها الاول فاخذت تغسل اقدام يسوع وسال الطيب كله دون ان تستبقي منه شيئاً كما انها وهبت نفسها بكمالها لله من حين رجوعها اليه غير مستبقية لذاتها منها شيئاً. غير ان عينيها لم تقطرا الدموع لان اولياء الله لا يجب عليهم ان يبكوا لان تذكرهم برارتهم يمنع عنهم كل غم. ورغما عن هذا كله فهذه التائبة والصديقة الامينة لم تشا ان تكون في الزمان الحاضر اقل منها تواضعا في الزمان الماضي حينما كانت مكبلة باغلال الاثم فجزمت بان شعرها الباقي ذكراً لها عن ماضيها الاثيم يجب ان يشترك معها في ذلك الاكرام البنوي الذي ندبت ذاتها له. وبما ان يسوع قد تركها ان تتم ما شرعت به فقد ازدادت رغبة واخذت منها الحماسة ماخذها نابذة كل من كان حولها حتى لا تعود ترى الا مخلصها. ونزعت ضفائرها الحريرية كانها تريد ان تفضح مرة اخرى مساوئها القديمة. واذ ذاك اخذت تمسح بشعرها اقدام المخلص الجاري عليها الطيب. واشتراك الفكر والعواطف الذي جرى بينها وبين السيد جعلها كانها مختطفة عن حواسها. واذ لم يعد عندها شيء تقدمه له صمتت متنهدة وهي ساجدة امامه. وعن قليل يبرز السيد رأيه في هذا الايمان الحي والمحبة الحارة

لكنه يوجد لسوء الحظ بجانب النفوس الكبيرة التي ترتقي الى درجات سامية نفوس خاملة لاصقة بالحضيض وبينما تكون تلك النفوس الكبيرة متطائرة

باجنحة مقاصدها العظيمة المملوءة شجاعة فالنفوس الصغيرة تكون مهتمة ومعرقلة بالانهماك بمنافع دنية وهذا شان ذوي مبداء الانتفاع الذي من شانه ان يلاشي كل سخاء وكل كبير فعل وعظيم امر في هذه الحياة. والانجيلي يخبرنا ان بعض التلاميذ قد امتعضوا من هذا السخاء ليس فقط لانه صنع اكراماً لمدعو لا يبالي في التأنق والفخفخة المفرطة بل لانه اسراف زائد قد انفق فيه ذلك المبلغ الكبير من الدراهم. وقد ترجم يهوذا الاسخريوطي خواطر البقية بهذا الكلام «ولمَ لم يُبَعْ هذا الطيب بثلثمائة دينار و يدفع للمساكين» فقد ابان يهوذا حالاً بهذه الطريقة ثمن تلك التقدمة التي قد صنعتها مريم ولم تميز نفسه السافلة في ذلك الفعل النادر المثال فعل المحبة والاكرام السامي الا خسارة ثلثمائة دينار من صندوق النفقة العام الذي كان عنده. مع انه كان سارقاً فاستاءت مريم صديقة المخلص قليلا من هذه الملاحظة التي جاءت في غير محلها لان القلوب المرتفعة عن الارضيات لا تصيخ سمعاً الى تذمرات اهل العالم واما يسوع فقد تكفل بالجواب عنها

ان خبث يهوذا وتذمر التلاميذ القارص ولو كان عن غير عمد قد ساء السيد فقال لهم «لماذا تعنتون المراة فانها قد صنعت بي صنيعاً حسناً. ان المساكين هم عندكم في كل حين» فلهجة السيد التي تشف عن رقة ممزوجة بالكآبة كان لها وقع اليم في قلوب اصحابه المنطوية على ودّه وجعلت التلاميذ المخلصين يندمون على ما فرط منهم من الكلام الصادر بدون روية ولكن يسوع لم يكن بعد فرغ من تعاليمه الادبية فلما كانوا قد تذرعوا بمبدإ الانتفاع ضد عمل تلك المرأة الفاضلة اعلن لهم بالاسف ان تلك المسحة افادته فائدة كبرى لان القصد منها لم يكن زيادة رونق في تلك الوليمة ولكن الشروع في تكريم دفنه المقدس. فالمحبة قد افاضت على قلب مريم لمحة نبوية لانها بينما كانت تتفرس في راس السيد المحبوب في اثناء افراح تلك الوليمة قد نظرت الموت

الذي كان مزمعا ان يتسلط عليه وهذا ما حملها على ان تحنطه سلفاً حتى لا يدب فيه فساد القبر. واذ كانت تعاين قدمي السيد المرسل من السماء التي كان الخطأة مزمعين ان يعرقلوا مسيرهما جزمت على ان تدهنهما بالطيب حتى تزيدهما قوة على المسير بعد ان تكونا قد داستا منتصرتين حبائل الموت والجحيم ومزقتاها تمزيقاً. ثم قال لهم يسوع « انها صنعت ما في وسعها. فان هذه بافاضتها الطيب على جسدي انما صنعت ذلك لدفني » فالتحنيط اذن قد سبق دفنه « الحق اقول لكم انه حيثما يُكرز بهذا الانجيل في العالم كله يخبر بما صنعت هذه تذكاراً لها » وقد استحقت مريم المجدلية هذا المجد المخلد ليس فقط لانها كانت ثابتة في توبتها وغير متزعزعة في ايمانها بل لانها كانت متسامية في محبتها. وها قد مضى اكثر من ثمانية عشر جيلاً على تلك الوليمة التي تنبأ فيها يسوع على شهرة صديقته المستقبلة ومع ذلك فلم تزدد المجدلية في كل انحاء الارض الا شهرة واجلالاً واكراماً. فكم من النفوس اشتهت ان تنال ذلك الحظ الذي نالته في تلك الوليمة وليمة المحبة. وكم من لم قد اعطاها الطوبى. وكم من امرأة تفاخرت بان تلقب باسمها. الشعراء واصحاب الفنون والخطباء قد تنافسوا في تزيين اجمل تصوراتهم بعاطر ذكرها ونشر شذى عواطفها حتى ان الجنس البشري بأسره الذي اخذه العجب من شهامة هذه الخاطئة التائبة عن ذنوبها قد خصص لها احسن اكرام وعبادة.

وعند المساء حينما انتهى يوم السبت جاء قوم من اورشليم الى بيت عنيا ليس من اجل يسوع فقط بل لينظروا لعازر الذي اقامه من الاموات. فهذه الحركة الناشئة عن غيرة ممدوحة جديرة بان تحيي الايمان في نفوس كثيرين كانت تهدّد زعماء الاخصام بان يتركوا وحدهم على حين كان جل مقصدهم ان يلقوا بذار الشقاق والنزاع. فخطر لهم ان يميتوا لعازر وبعد ذلك ان يقتلوا يسوع. وما ذلك الا لانهم كانوا يظنون ان قيامة لعازر لم تكنْ الا نتيجة المكر

والخداع وقدروا في نفوسهم ان من اقامه المرة الاولى يبعثه ثانية اذا صح ان الامر معجزة حقيقية والا تظهر الخديعة لانهم كانوا موقنين ان اعمال المسيح العجيبة لم تكن سوى سلسلة خداع نظم عقدها رجل ماهر قصد ان يستجلب ميل الشعب ووجدوا العمل المذكور فرصة مناسبة لاثبات زعمهم. غير ان كل تلك الدسائس الممقوتة لم تكن لتلوي الشعب عن اظهار ميله الى يسوع رغماً عن مجاهرة الروساء بالاعتداء عليه. وكان الشعب كله يرصد فرصةً موافقة لابداء ما كان يكنه طي الضلوع و يشهد علناً ان يسوع هو المسيح الملك. وها هي قد حضرت عاجلاً

الفصل السابع عشر

دخول يسوع دخول الظافر الى المدينة المقدسة واستعمال القوة في الهيكل

تسليم يسوع ذاته لتحمس الشعب — بكاؤه على اورشليم — دخوله بانتصار — طرده الباعة في الغد من الهيكل

طالع يوحنا ١٢: ١٢ — ١٩ مرقس ١١: ١ — ١٩ لوقا ١٩: ٣٩ — ٤٨ — متى ٣١ : ١ — ١٩

§

تسليم يسوع ذاته لتحمس الشعب

وفي الغد اي في اليوم العاشر من نيسان الذي فيه كانت تضع كل عائلة الحمل المعد للفصح على حدة توجه يسوع عند الظهر نحو اورشليم. فانتشر خبر مجيئه بسرعة واخذت الناس تتقاطر من كل جهة. وعند وصوله الى بيت فاجي

التي كانت بالقرب من المدينة تكاثرت الجماهير وعلا هيجانها وكانوا يأتون افواجاً وهم حاملون سعف النخل صارخين « : اوصانا . السلام والرجا الصالح . مبارك الآتي باسم الربّ . مبارك اله اسرائيل »

اما يسوع فعوضاً عن ان يسكت هذا الايمان الحيّ اراد ان يشجعه ويزيده اذ حقق نبوّة بليغة من نبوّات ذكريا « ذكريا ٩:٩ »

فان هذا النبيّ كان قد قال « : ان ملك المسيح المتواضع والمحبّ السلام لا يشبه قط ملك سلاطين الارض وانه يبقى وديعاً ومتواضعاً حتى في انتصاره وفوزه . » وبهذه العلامة كان ينبغي لاسرائيل ان يعرف ملكه ومخلصه . ولكي يميز ذاته عن الجماعة التي كانت محدقة به قال لاثنين من تلاميذه « اذهبا الى القرية التي هي امامكما وعند دخولكما اليها تجدان اتاناً وجحشاً لم يركبهما احد بعد . فحلاهما وأتياني بهما واذا اعترضكما احدٌ بقوله ماذا تصنعان اجيباه ان معلمنا محتاج اليهما وحينئذٍ يدعكما » فذهب التلميذان طوعاً لامر سيدهما فوجدا الحيوانين مربوطين امام باب على ملتقى طريقين . ولما قالا ان معلمهما محتاجٌ الى الاتان وابنها سُمح لهما بان يسوقاهما ومن تراه في ذلك الحين يتجرأ ان يرفض مساعدته لانتصار الملك المسيح ؟ .

انه وان كان الحمار في زمان الفريسيين والقضاة من الحيوانات المعتبرة الشريفة المعدة للركوب كما هو حتى الآن في مصر فان النبي ذكريا لم يقصد بذكره المسيح راكباً على هذا الحيوان الوضيع ان ينادي به قاهراً عظيماً ومتسلطاً متكبراً بل ملكاً منفرداً في نوعه فقيراً في قوته وغناه متواضعاً في عظمته ومجده فاننا لاحظ مع كل ذلك بان السيد المسيح بانتخابه هذا الحيوان الحقير لركوبه قد خصّصه لذاته كونه لم يستعمل ذلك احد سواه من قبل . فان الشريعة اليهودية نظير عبادة الاصنام لم تكن تسمح بان يخصص بنصيب دبني حيوانٌ قد استعمل لحاجة الانسان . فنزع التلاميذ احسن ثيابهم ووضعوها على ظهر العفو ثم ركب معلمهم واما الشعب

فانه تخشع من هذا الفعل الحقير والعظيم معاً وقد كان الكل يلهجون بافعال المسيح العجيبة وخصوصاً بقيامته لعازر من بين الاموات. فان جمهورًا منهم كان حاضراً الاعجوبة وشقيق مرتا اي لعازر كان بينهم وهو اكبر شاهد على ذلك وكان هيجان الشعب وحميته يتزايدان كلَّ دقيقة والذين كانوا يصلون حديثاً كانوا يقطعون سعف النخل واغصان الزيتون و يهتفون : اوصانا السلام والرجا الصالح. مبارك الآتي باسم الرب مباركة مملكة داود ابينا الآتية صوت سلامنا يتصاعد فوق اسمى السموات » وكانوا في ذلك الوقت يفرشون الطريق بالزهور امام المسيح والبعض كانوا يطرحون ثيابهم

وكان وقتئذٍ بين تلك الجموع بعض ارباب السياسة ومن الجبناء حتى من الفريسيين الذين كاد يمزقهم الغيظ والحسد من المظاهرات التي لقيها المسيح من الشعب و بعد ان حاولوا عبثاً ان يسكتوا التلاميذ بانفسهم قالوا ليسوع : يا معلم قل لتلاميذك ان يصمتوا : اما يسوع فانه اقتصر على هذا الجواب « الحق اقول لكم انه اذا صمت هؤلاء فان هذه الحجارة تصرخ عوضاً عنهم » فمن الضرورة اذًا ان يختنق ملك اسرائيل و يوم يسدُّ الخوف افواه التلاميذ فان صخور الجلجلة تتشقق وعندما يطردونه من اورشليم بالاضطهاد تهدم جدران الهيكل وتقع المدينة كلها وتخرب بايدي الرومان وتتحقق عندئذٍ رسالة المسيح وانتقامه ممن رفض الاقرار بعدله. ولما كان صراخ الشعب يتزايد كان الفريسيون يقولون بحنق بعضهم لبعض « انظروا كيف انكم قد اصبحتم كالعدم لان الشعب كله قد تبعه

§

بكا يسوع على اورشليم

ان ذاك التذمر وتلك الامارات الدالة على سوء النية وخبث الافكار كان من شأنها ان تبين ليسوع كيفية استقبال اورشليم له. فانه كلما اقترب من

المدينة كانت عيناه تنظران اليها بحزنٍ وترمقانها بحبٍّ عظيم · لانه كان يقرأ في سجل المستقبل ما سيحلّ بها من الامور الفادحة ثم هتف بغتةً والدموع ملء عينيه « آه لو كنت تريدين في هذا اليوم الاخير الذي اعطي لك ان تعترفي بذاك الذي هو قادر ان يثبّت لك السلام ولكن كلا ثم كلا انك لاتستطيعين النظر اليه · ولهذا ستأتيك ايام مرعبة حيث يحيط بك اعداؤكِ ويقيمون حولك الحواجز ويحبسونك من كل جهة · انهم سيتامون على تراب بيوتك المهدومة فلا يبقى فيك حجرٌ على حجرٍ لانك لم تريدي ان تستفيدي من الوقت الذي انتقدك فيه الله » وهكذا كان يرى الغيب ويخبر عما سيصير من المرعبات ان الطلول والاموات والنائبين سيعترفون به رغما عن انوفهم · ومن لا يعترف بالله في رحمته سيلاقي اشدّ العقاب من غضبه وعدله

ومن الممكن انه لما دخل الموكب في شوارع اورشليم ضعفت فيه قوّة الهيجان بسبب تلك النبوة المحزنة ومع ذلك فاننا نقرأ في انجيل متى ان المدينة بامرها تحركت واضطربت مما جرى فان الناس كانوا يزدحمون في طريق الرب وكل واحد منهم كان يقول « من هذا ؟ فيجيبه الجمع الاتي مع المسيح: هذا هو النبي يسوع من الناصرة في الجليل

ثم اراد يسوع ان يذهب توًّا الى الهيكل ولما دخل اليه تحقق عظم الغيظ الذي استحوذ على اعدائه بسبب انقياد الشعب له غير انه لم يتجراء احدٌ ان يفوه ببنت شفة · فاراد يسوع كملك وسلطان عام على الشعب والديانة ان يتفقدّ كل اماكن الهيكل ويرى ما فيه فراى (رواق الحنفا) مملوءًا من الباعة فاغتاظ من ذلك غير انه لم يرد ان يستعمل القوّة والقساوة في مثل ذلك اليوم يوم العيد فارجأ ذلك لوقت اخر مناسب وبما ان الظلام كان قد ادركه رجع الى بيت عنيا مع تلاميذه وكانت المدينة في تأثيرٍ عظيم واعداؤه في غضب جسيم من اجل انتصاره

وكان يعلم حق العلم بذاك الغيظ ومقداره وبكل الغوائل التي ستصدر بسببه لذلك كنت تراه كئيباً صباح الاثنين اذ كان راجعاً الى اورشليم. وفيما هو ذاهب في الطريق وقع نظره على شجرة تين مورقة بغير اوانها فاخذها رمزاً على امرائيل واراد ان يوحي الى تلاميذه بمثل رمزي ما سيحل بالشعب الغير المؤمن. فاقترب من التينة كانه جائع ولما لم يجد فيها ثمراً قال «لا يأْكل احد ثمرة منك الى الابد ولا تحمل ثمراً قط» اجل ان اللعنة التي هي من الله نارٌ آكلة فاحرقت حالاً حيوة تلك الشجرة التي يبست لساعتها. وهكذا سيباد دين اليهود الذي يكمن الغش والمكر تحت ظواهر الانسانية والعدل. اما الذي افعم التلاميذ عجباً هو قوة كلمة معلمهم العجيبة فقال لهم يسوع «لو كان فيكم ايمان وقلتم لهذا الجبل انتقل واسقط في البحر لكان لكم ذلك»

§

طرد الباعة من الهيكل

ولما دخل يسوع الى الهيكل وجده غاصاً بالباعة نهاج ذلك غضبه ولم يكن يحتاج هذه المرة الى المجلدة بل كان بمجرد نظره وحركاته وكلامه يملأ قلوب الجميع رعباً. وبعظمة ربانية اخذ يخرج الباعة والمشترين مع كل ما كان يختص بهم وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام دون معارض وهكذا ارجع الترتيب والنظام الى بيت ابيه السماوي. ومنع ايضاً نقل الاوعية من مكان الى آخر وسط الهيكل بنوع انه ابطل كل العوائد الفاسدة. ولكي يحقق فعله هذا للشعب الذي كان محدقاً به قال: «اليس مكتوب ان بيتي بيت الصلوة يدعى وها انتم جعلتموه مغارة للصوص؟» اما الشعب فانه كان يردد ذكر افعال السيد المسيح والعميان والمبتلون بامراض مختلفة الذين كانوا قائمين على ابواب الهيكل كانوا يتقدمون اليه طالبين منه الشفاء فينالونه وهكذا اثبت يسوع

بمساعدة يد الرب هذه المثالة التي اعطاها للكهنة المتوانين في القيام بواجباتهم بحفظ كرامة الهيكل . ولم يزل الهيجان يتزايد والشعب يهتف : « اوصانا : السلام لابن داود » وكان شبّان اللاويين المكرسون لخدمة الهيكل ينادون باسم صانع العجائب وواضع الشرائع الاله المالك الداخل الى بيت ابيه واما ارباب السلطة الدينية فامتلأ وا كدرًا من هذه الحوادث وخصوصاً من هذا الاحتفاء الذي يحط من شأنهم فاقتربت رؤساؤهم نحو يسوع قائلين : اما سمعت ما يقول هؤلاء الاولاد ؟ » قاصدين بذلك ان يجعلوه المسئول بهذه المظاهرات اما يسوع فاجابهم بسكينة « نعم اني اسمع ذلك دون ريب » ولكي يثبت لهم ما كان يشككهم قال اما قرأتم ما كتب (مز ٨—٣) انك اطلقت لسان الاطفال والرضعان بالشكر والثناء . » وهكذا كان يرفع مقام مادحيه المتعجبين من اعماله . ثم انه اكمل ذاك النهار بتعليم الشعب الذي كان حسب قول القديس لوقا معلقا على شفتيه وعند المساء عاد على طريق جبل الزيتون الى بيت عنيا لكي يصرف الليل فيها

الفصل الثامن عشر

§

اهم واخر يوم في حيوة يسوع العمومية

جواب يسوع للمجلس وامثال معنوية رمزية . —اسئلة خداعة . — رجوع يسوع وافتتاحه الجدال . — طلب اليونان المفاوضة معه . — الخطب النبوية . طالع مرقس ١١ : ٢٠ و١٣ و٣٧ . — متى — ٢١ و٢٠ و٢٥ — ٤٦ — لوقا ٢٠— ٢١ ا—٢٦ . — يوحنا : ١٢ و ٢٠— ٣٦ .

§

جواب يسوع للمجلس

وفي غرّة يوم الثلثا اتى يسوع الهيكل واخذ يعلم الشعب والذين يريدون ان يسمعوا له وبعد قليل اتى اخصامه وكانوا قد عينوا في الامس وفدًا يتكلم بلسان الجمهور . وعندما دخلوا الهيكل وفي مقدمتهم ذاك الوفد المنتخب المؤلف من مقرّبي الذبائح والكتبة وشيوخ الشعب اخذوا يظهرون امام يسوع امارات العظمة والكبرياء وقالوا له بصوت يدلّ على الاحتقار : « بأي سلطان تفعل هذا ومن ذا الذي سلطك على ان تفعله . » ولما كان هذا السؤال سؤال مخادع مخاتل سألهم يسوع عوضاً عن ان يجاوبهم قائلاً : « انا ايضاً اسألكم سؤالا واحدًا فان اجبتموني اجبتكم باي سلطان افعل هذا . معمودية يوحنا من السماء كانت ام من الناس » اما هم فلبثوا متحيرين لا يعلمون ماذا يجيبون فان قالوا له من الله قال لهم ولماذا لم تؤمنوا به وان قالوا من الناس خافوا من اثارة غضب الشعب لان يوحنا كان عنده بمنزلة نبي ولهذا قالوا له : لا نعلم فقال لهم يسوع لكي يزيد خجلهم ويبين لهم انكسارهم « فلا اقول لكم انا ايضاً باي سلطان افعل هذا » ثم انه حول نظره نحو الشعب واخذ يورد لهم امثلة من شأنها ان تبين بان رسالته الهية وبان تزيح برقع الخبث والخداع عن وجوه اضداده فقال لهم : « ماذا تظنون . انسانٌ كان له ابنان فدعا الاول وقال له يا ابني اذهب اليوم واشتغل في كرمي فاجابه الشاب لا اريد غير انه ذهب اخيرًا وعمل كما قال له ابوه . ثم دنا من الثاني وقال له مثل ذلك فاجابه قائلاً سمعاً يا ابتِ ولم يذهب فمن من الاثنين صنع مشيئة ابيه » فاجاب الشعب على الفور الاول ! فبالحقيقة ان القحة التي تفضي الى الطاعة والانقياد خير من الاحتشام الكاذب الذي يشفّ عن عصيان وتمرّد كريه . فان هذا المثل يدلّ دون شك على ان الله دعا الى سرّ الفداء فئتين من البشر الخطاة المشهورين

والفريسيين فان الاولين اجابوا من فورهم لا نريد غير انهم بعد ان اعملوا الفكرة علموا ان الطاعة خير من العصيان ومن ذاك الوقت سدوا اذانهم عن استماع صوت اميالهم الفاسدة وغيروا سيرتهم وجروا حسب الانجيل الطاهر. واما الفئة الثانية اعني الفريسيين ابانوا في بادىء الامر بانهم منقادون لأمره ودعوا سيدًا لهم الله الذي كان يكلمهم كاب رؤوف الا انهم بعد ان تظاهروا بالرضوخ والطاعة العمياء تبعوا اميالهم المنحرفة وشهواتهم الرديئة. واردف يسوع كلامه قائلاً لاعدائه السامعين له « ولذلك فان العشارين والزناة يسبقونكم الى ملكوت الله لانه قد جاءكم يوحنا بطريق البرّ ولم تؤمنوا به والزناة والعشارون آمنوا به وانتم رايتم ذلك ولم تندموا اخيرًا لتؤمنوا به » وفي هذا ما يُعلن لنا خبث العصاة المتمردين المتظاهرين بالاحتشام وفضل الوقحين الطائعين وثوابهم. اجل ان الكفر كلما زاد خبثه زادت شناعته وكان ممقوتاً مكروهاً واما كفر الفريسيين فيبلغ الغاية القصوى لانهم ليسوا مستعدين بان يطردوا رسل الله فقط بل ان يهلكوهم ايضاً. فقد سلموا يوحنا المعمدان وسيقتلون ابن الله وهذا المثل الثاني يبين ذلك باجلى بيان « رجل غرس كرماً وحوطه بسياج وصنع فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه الى عملة وسافر » فان الكرم الذي غرسه الله ابو الانسانية بجملتها هو الشعب اليهودي. والشريعة التي وقته من وصمة عبادة الاصنام هي السياج. والتعليم الصحيح المتصل من جيل الى جيل بواسطة الانبياء والرجال الانقياء كان بمنزلة معصرة حيث يجري له خمر الحقيقة. والهيكل هو البرج الذي يتحصن فيه الحرّاس المكلفون السهر على نموّه واقباله وقد وضع الله مقاليد كرمه بيد الكهنة والكتبة والشيوخ وبالاختصار بيد السلطة المعطاة من الله وهذه السلطة هي التي تلتزم حراثة الارض لتثمر الثمرة الصالحة وان غاب رب الكرم يوماً ما ولم يتفقد بنفسه احوال كرمه انما هو لكي يمتحن فطنة عملته ويجرب اخلاصهم وامانتهم : وفي اوان الثمر ارسل عبدًا الى

العملة ليعطوه من ثمر الكرم فجلدوه وارسلوه خارجاً فعاد وارسل عبداً اخر فجلدوه ايضاً واهانوه وارسلوه فارغاً. فعاد وارسل ثالثاً فجرحوا هذا ايضاً واخرجوه بعد ان رجموه وشجوا راسه وسلبوا روحه وهكذا صنعوا مع بقية العبيد الذين ارسلهم اليهم سيدهم » وهذه هي جريمة اسرائيل بعينها فان الانبياء قد جاءوا من قبل الرب فقتلوا منهم بعضاً واضطهدوا بعضاً وقطعوا اعضاء البعض وجعلوهم عاراً للامم كما يشهد بذلك اشعيا وارميا واليا وذكريا بن يوياداع الذي رُجم بامر يواش فلم يجد ذلك الشعب المبارك وسيلة افضل من هذه ليكافىء بها العلي على احسانه: « وبقي له ابن وحيد محبوب فارسله اليهم اخيراً قائلاً « لعلهم يهابون ابني » ففي هذه العبارة محور المثل. وكان الاصدقاء والاعداء كلهم آذاناً صاغية ليسمعوا ويكتنهوا مغزاه. والذين كانوا اقل فطنة وذكاء لم يكن ليصعب عليهم لو امعنوا الفكرة ان يفهموا مؤدى كلام يسوع وهي انه اخر رسول لم يرسل احداً بعده وهو ابن الله الوحيد بعينه ذاك الذي يطلبون منه ان يؤدي حساباً عن رسالته. وهكذا كان يسوع يعلن بكل شجاعة انه ابن الله الوحيد المتحد بابيه ليس بالتربية فقط بل بالطبيعة ايضاً وانه آله نظير ابيه الذي ولده على حين لم يكن الاخصام بانتظار ذلك

« اما العملة فلما رأوا ابن معلمهم الوحيد آتياً اليهم قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث تعالوا نقتله ونأخذ ميراثه فاخذوه وطرحوه خارج الكرم وقتلوه » فحب الذات الناتج عن الكبرياء كان المحرك الوحيد لذاك البغض الزائد الذي تملك في قلوب اصحاب الرتب والمناصب نحو النبي الشاب وهؤلاء اي اصحاب الرتب والمناصب هم الذين ابتدأوا في الجور والتعدي بطردهم الابن وحرمانه ميراث كرمه الخاص وهم الذين يستعدون بان يملأوا كاس الشر حتى تطفح بجره عن المدينة المقدسة لكي يقتلوه على الجلجلة

« فاذا جاء رب الكرم ماذا تظنون يفعل باولئك العملة ؟ » فاجاب

الشعب : « انه يبيد كل اولئك الاردياء ويميتهم شر ميتة ويسلم الكرم الى فعلة اخرين يؤدون له الثمر في حينه » فهتف بعض الحاضرين « : ان ذلك لا يكون ابدًا » ليوضحوا بان رؤساء الكهنة لا يصنعون تلك الجريمة وعلى كل ان حال اصدقاء المسيح لا يتغافلون عن ردعهم لو اقدموا على ذلك. فنظر اليهم يسوع نظرة الموبخ وقال لهم : اما قرأتم في الكتب ؟ فما معنى هذا الكلام (مزمور ١١٨) ان الحجر الذي رذله البناؤون هو صار راساً للزاوية من عند الرب كان ذلك وهو عجيب في اعيننا » فبكل حق وصواب قد طبق المخلص هذه الاية من الزبور على ذاته فان انكار اليهود للمسيح وطردهم اياه لم يمنع كونه والكنيسة راساً لزاوية الانسانية في كل زمان :

ثم اردف يسوع كلامه ببرهان آخر من الكتاب المقدس اذ قال « ان من يسقط على هذا الحجر يتهشم ومن يسقط الحجر عليه يطحنه واشعيا النبي (٨: ١٤) قد شبه المسيح بصخر شامخ يسحق ويهلك كل جاحد يأتي ويصدمه او يعثر به ودانيال النبي قد رأى وعلم اليوم الذي به يهبط ذاك الحجر من اعلى الجبل ويسحق كل اعداء الله ويغشاهم الغضب الابدي (دانيال ف ٢ عد٤٤) وقال يسوع لهم « الحق اقول لكم ان الملكوت ينزع منكم ويعطى لامة تصنع ثمرة » فالحكم باة هائل اذ اعلن بعبارة وجيزة سقوط الكهنوت الموسوي واستيلاء الامم على الإرث الالهي ولما كان من الضرورة ايضاح كيفية اقامة الامم الغير المؤمنين مكان الشعب اليهودي اخذ يسوع يكرر المثل الذي كان قد قاله للفريسيين انما اضاف اليه بعض ظروف مقصودة تقتضيها الحال الحاضرة فقال « يشبه ملكوت السموات رجلاً صنع لابنه عرساً » فهذا العرس هو اتحاد كلمة الله بالانسانية فالاب يدعو الشعب اليهودي ليكون له حظ سعيد والشعب اليهودي كان يرفض تلك الدعوة « فارسل الملك ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا ان يأتوا » فالعبيد المرسلون من الملك هم رسل المسيح الذين بشروا

بمجبته في المدن والقرى فلم يعبأ احد ببشارتهم ومع ذلك لم ييأس صلاح الله من عدم قبول الدعوة الاولى من القلب البشري فانه بعد ارسال الاثني عشر رسولاً والسبعين تلميذاً سيرسل الشهدا لعل وداعتهم وشجاعتهم العجيبين امام الظالمين تجبران هؤلاء على الاصغاء لهم

« فارسل الملك ايضاً عبيداً اخرين وقال لهم قولوا للمدعوين هوذا غذائي اعددته عجولي ومسمناتي قد ذبحتها وكل شيء مهيأ فهلموا الى العرس » نعم ان كل شيء يكون مهيأً عند هذه الدعوة الثانية فان الضحية المقدسة اي يسوع تكون قد ذبحت ووضعت امام الجميع ويصير الخلاص حينئذ معلقاً على خشبة الصليب فليس للمؤمنين سوى ان يمدوا ايديهم لياخذوه عنه. لكن ياللعجب ان هذا الشعب سيحتقره !! « والمدعوون تهاونوا بهذه الدعوة الثانية ايضاً فذهب بعضهم الى حقله وبعضهم الى تجارته » فان الانسانية تتبع باكثر رغبة هذين الطريقين طريق اللذة واللهو وطريق المنفعة والربح وبعض الاوقات تتبع طريق الحقد اذ تنفر اذانها من سماع الدعوة لعمل ما يجب عليها ويبلغ بها الامر بان تؤذي بالواعظين لتتملص من نخز الضمير. « والباقون من المدعوين قبضوا على الرسل وقتلوهم بعد ان اوسعوهم شتماً واهانةً » فالشعب اليهودي سيكون اول من يمدّ يده لاهراق دم الشهداء فويلٌ له بل الف ويل لان انتقام الله سيلحق ويلتصق به عن قريب « فلما سمع الملك غضب وارسل جنده فاباد اولئك القتلة واحرق مدينتهم » فان عند الله جنداً كثير العدد الذين وان ظنهم الناس يتممون اوامر الملوك المتحاربين فانهم بالحقيقة يطيعون عدله تعالى فسياتي الرومانيون بسماح الله ويبيدون المضطهدين كما أن البرابرة سياتون من اقاصي اسيا واوربا لكي يلاشوا الرومانيين وها ان اورشليم بادت بالحريق ولم يبقَ من اولئك الذين كانوا اوّل المدعوّين لاتباع الانجيل سوى ذكر تعيش محزن. غير ان احسانات الله وانعاماته لا تذهب سدًى بدون ان يلتقطها احد « قال حينئذ

الملك لعبيده العرس مُعَدّ الاّ ان المدعوين غير مستحقين ان يحضروه فاذهبوا الى مفارق الطرق وكل من مرّ فادعوه الى العرس » فهكذا يجب ان تدعى النفوس في كل طرق العالم وتهدى الى موائد الانجيل · « فخرج العبيد الى الطرق فجمعوا كل من وجدوا من اشرار وصالحين فامتلأت حينئذٍ مائدة العرس من المتكئين » فهذا هو تاريخ الكرز الرسولي بعد عيد العنصرة فانهم يدعون بدون تمييز بين الصالحين والطالحين الاغنياء والفقراء الفلاسفة والجهلاء الى ان يدخلوا العرس بشرط ان يشتركوا فيه وهكذا كان فان الكنيسة الاولية قد تألفت من فلاسفة وجهال وارباب وعبيد وجنود وعامة اروام وروماني وبرابرة اخيار واشرار فالجميع دخلوا مختلطين الى نادي الوليمة · وكانوا بلا شك يسألون عند دخولهم اذا كانوا يؤمنون بحقيقة زفاف ابن الله الى الانسانية بواسطة تجسده وفدائه فيجيبون نعم ويدخلون وهكذا كانوا ياتون وحدانًا وزرافات لكي تحفل بهم الوليمة الملوكانية · غير انه لم يكفِ قبول الدعوة فقط للجلوس على المائدة كما ان الايمان لم يكفِ وحده للخلاص فالعيد يقتضي له شروط منها الجلوس المحتشم كما ان تبرئة الخاطي تقتضي اعمالا تتم الايمان « ولما دخل الملك لينظر المتكئين رأى بينهم رجلاً لم تكن عليه حلة العرس فقال له ياصاح كيف دخلت الى هنا وليس عليك حلة العرس » فالويل ثمّ الويل لذلك الاحمق الذي يعتقد بانه ليس ملتزمًا بشيء عند مثوله امام الملك لانه لا يعلم ماذا يعطي جوابًا مثل ذاك العاري من حلة العرس فانه لم يفه ببنت شفة اذ لم يكن له عذر وهكذا ايضًا الهالكون لا يكون لهم عذر يوم دينونة الله الرهيبة وقد كان سهل لديهم ان يلبسوا حلة المسيح اي حلة الايمان المقرون باعمال الرحمة والبرّ · وليس بالامر الصعب على انسان الحصول عليها اذ لا يلزم لذلك سوى الارادة والعزم « فقال الملك للخدّام شدّوا يديه ورجليه واطرحوه في الظلمة البرانية حيث يكون البكاء وصريف الاسنان » هذا هو الحكم الاخير الذي يلقي الهالكين ويحرمهم

من النور الابدي فان الوليمة تكون في المساء ومن ثمَّ فاذا طرد احد من النادي يُطرح في الشوارع حيث يندب سوءُ بخته الى الابد في الظلام المدلهم

§

« اسئلة خداعة »

لما راى المجلس ذاته انه اندحر وانقلب في محاورته ومناقشته يسوع ترك الكلام الى الشيع الخصوصية التي كانت قد تألبت هناك املاً باخذ الثار. فاول عصابة تقدَّمت كانت مؤلفة عمداً من السياسيين المختلفي المذاهب والاراء اذ كان بعضهم فريسيين انصار الحرية والاستقلال الوطني والبعض الآخر من الهيروديسيين انصار السلطة الرومانية الامناء فتزلفوا الى يسوع متظاهرين بصحة المبادي ودقة الضمير وقالوا له بلهجة تشف عن الخبث تحت طيّ الاحترام «: يا معلم قد علمنا انك محق وتعلم طريق الحقّ دون ان تأخذ بالوجوه فقل لنا ما رأيك في هذا هل يجوز ان نؤدي الجزية لقيصر ام لا »لا بدَّ عن احد معرفة ما في السؤال من الاحتيال والمكر فانه مهما كان الجواب لا بدَّ من انه يوقع يسوع في خطر الاجحاف اما في جقوق الشعب فيوشى به لديه بواسطة الفريسيين بانه يخضع لنير الاجانب. واما في حق بيلاطس فيبلَّغ ذلك بواسطة اتباع هيرودس اذ يقولون انه نظير مهيج يدعو الناس للثورة وعدم تأدية الجزية. غير ان هولاء المحتالين مفسري مشاكل الذمة لم يكونوا يعرفون مقدار حكمة المعلم السامية الذي اكتنه بلمحة بصر عقدة المشكل وحلها بكلمة واحدة. فان بين الحدّين اللذين وضعوه بينهما اعني اما طاعة الله واما طاعة قيصر يوجد حدٌّ اوسط وافتراض صحيح أَلاَ وهو الله وقيصر اي الجمع بين السلطتين العالمية والالهية اذ لا يجب بل لا يحقّ ان تنفي الواحدة منهما الاخرى لانهما وضعتا للتسلط معاً على الانسان. الاولى في حياته الخارجة العامة والثانية في حياته المنفردة الخاصة. تلك تدير شؤون الانسان في الهيئة الاجتماعية وهذه ترشد

الانسان بالنظر الى معتقدم الديني" ومن ثمَّ يترتب على قيصر ان يحترم حقوق الله ولا يتعدها والله عليه ان يحفظ ويحامي عن حقوق قيصر. ويشذُّ عن جادة الصواب والعدل — من اراد ان يوقع بينهما التنافر والتضادّ اذ في تدبير الله وقصده لا ينبغي لهما ان يتقاوما البتة اذ لكل واحدة منهما حدٌّ معين عليها ان تقف عنده. واصلهما واحد وهو الله سبحانه وغايتهما واحدة وهي خير الانسانية جمعاء وان تفاوتتا بالدرجات. ثم ابتدا يسوع يتلو على سماعهم ما كان يفتكر به من جهة ارتيابهم فقال: «لماذا تجربوني يا مرآؤن اروني نقد الجزية» فاتوه بدينار وبعد ان امعن يسوع النظر فيه قال لهم «لمن هذه الصورة والكتابة؟» فاجابوه (لقيصر) ولم يشعروا انهم قد حلّوا العقدة التي يطلبونها من يسوع بالكلمة التي اجابوه بها لان اعترافهم بان طيباريوس قيصر له الحق بضرب العملة ووضع صورته عليها اقرارٌ ظاهر بكونه متسلطاً على البلاد ومن ثمَّ انهم يقبلون سلطته ولو فعلية اضطرارية وعليهم اذاً ان يؤدوا الجزية الضرورية لادارة شؤون المملكة العمومية مع الطاعة والاحترام. وعليه فتأدية هذه الجزية لا تعدّ مخالفة لارادة الله سبحانه الذي سمح بان يُخضع قيصر ارض فلسطين. ولكن لا تمنع من جهة اخرى من تأدية الجزية لقيصر مؤديها من ان يكون خادماً لله وبالنتيجة يعطي كل ذي حقٍّ حقه. فيغلط اذاً الفريسيون الذين حباً باظهار حقوق الله حباً غير مرتب يتعدون حقوق قيصر وتعصبهم هذا الوطني" يقودهم الى تعدي الشريعة الالهية. واعظم جرماً من هؤلاء هم الهيروديسيون الذين يضحون تقليداتهم الملية ويفرحون بتعدي الحكومة على حقوق الديانة وينسون واجباتهم نحو الله كي يكونوا بكليتهم لقيصر. وعليه فيكون يسوع قد فند اغلاط كل من الحزبين واظهر بجوابه المختصر الواضح ان الحقيقة في وسط الطرفين اللذين كان كل من الحزبين انتحله لذاته اذ قال — . «اوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فتعجب الاخصام من هذا الجواب الدامغ واخذوا يرمقون ذاك الذي اتوا ليمتحنوه ثمَّ

تركوه وانصرفوا

وبعدئذٍ اتت جمعية ثالثة مؤلفة من الصادوقيين الذين كانوا يرفضون الاعتقاد بالقيامة وكانت افكارهم المادّية تتبع شهواتهم المحمية اذ كانوا ينكرون وخلود النفس فاتوا ليسألوا يسوع لمن تكون يوم القيامة على افتراض وجودها٠ امرأة كان لها في حياتها سبعة رجال متتابعين٠ فان هذا السؤال نظرًا لغرابته كان يظهر لهم حله صعبًا للغاية فقالوا له « يا معلم ان موسى (تثنية الاشتراع ف٢٥ عد ٥ و٦ قال ان مات احدٌ وليس لهُ ولدٌ فليتزوج اخوه امراته وليقم نسلاً لاخيه » نعم ان هذا هو معنى الشريعة الموسوية ومن ثم كان اس هذا الاعتراض حقيقيًا غير ان هولاء الفجرة قد ادخلوا فيه عنصرًا ثنويًا وهميًا فقالوا « كان عندنا سبعة اخوة تزوّج اوّلهم امرأة ومات ولم يكن له نسل فترك امرأته لاخيه وكذلك الثاني والثالث الى السابع وفي اخر الكل ماتت المرأة ففي القيامة لمن من السبعة تكون المرأة لان الجميع اتخذوها ؟ » فالنتيجة التي انتجوها من هذه المقدمات هي ان من جهة لا ريب في سلطة شريعة موسى كما انه من جهة اخرى لا ريب في امكان وقوع الحادث المذكور والحال ان هذا الحادث هو عقبة يستحيل التملص منها مع وجود الاقرار بالقيامة اذن لا بدَّ من ترك الاعتقاد بقيامة الاموات لما يوجد من التنافي والتناقض بين الحادث والاعتقاد العامّ٠ فاجابهم يسوع متشفقًا « لقد ضللتم لانكم لا تعرفون الكتب ولا قوّة الله٠ ان ابناء هذا الزمان يتخذون لهم نساءً وبناته رجالاً ولكن في الاخرة لا يزوجون ولا يتزوجون اذ لا فائدة من ذلك حيث لا موت في الاخرة والمختارون يصيرون كالملائكة وهم ابناء الله لكونهم ابناء القيامة٠» ان الزيجة في هذه الحيوة انما هي لتعويض الفراغ الذي يتركه الموت ولتكملة عدد المختارين في السما حسب احكام العليّ الازلية ولذلك بما ان الاخيار لا يموتون في الاخرة ويزداد عددهم كلَّ يوم من الاخيار المنتقلين من هذه الدنيا لم يكونوا بمحتاجين

ان يولدوا لكي يملأوا المدينة العلوية فالله تعالى الذي منحهم يعثهم خاصة اي عدم قابلية الموت خولهم ايضاً معيشة جيدة وكأنهم يخلقون خلقة ثانية فتضحي حينئذٍ سعادتهم قائمة في ان يعيشوا لا كابناء هذا العصر الذين يشجب يسوع اميالهم المنحرفة بل كالملائكة اصحاب الارواح الطاهرة الذين يتمتعون بمشاهدته تعالى ويحتقرون كل ملذات الدنيا السمجة « ثم اردف المعلم كلامه قائلاً اما من جهة قيامة الاموات اما قرأتم ما قال الله » (الخروج ص ٣ — ٦ ع ١٥) لموسى في العليقة انا هو الرب اله ابرهيم واله يعقوب وهو ليس اله اموات وانما هو اله احياء لان الجميع يحيون له فانتم اذاً في ضلال عظيم

ففي نص موسى ان الله لم يقل له حقاً « كنت » ولكن: انا هو اله ابراهيم» فاذاً من البديهي ليس هو اله لمن ليسوا في حيز الوجود ومن ثم ان هولاء الاباء المسجونين في القبور لم يبرحوا احياء حتى يظهر الله ذاته مستعداً الان يفي بوعده من اجل ايمانهم وحينئذٍ يتم فرحهم ومجدهم

فالبرهان الذي اورده يسوع من باطن اللاهوت اليهودي قد ادهش كل حاضر اذ كان جامعاً بين الاختصار والايضاح وبهت الصدوقيون والحموا بكلام موسى نفسه اللذين حاولوا ان ينقضوا سلطته باعترافهم فسرَّ اولئك الذين اندحروا قبلهم لاندحارهم في دورهم حتى ان بعض الكتبة الحاضرين لم يقدروا على كتمان تعجبهم فصرخوا « ما اعجب جوابك ايها المعلم الماهر ! » فساله واحد من الكتبة المنحازين الى زمرة الفريسيين باحترام قائلاً « يا معلم ما اعظم الوصايا في الناموس » ان هذا السائل سأل عما يتعلق بوظيفته اذ كان من ارباب الشريعة والسؤال الذي اقترحه كان قد وقع عليه الجدال مرات بين الشيع اليهودية . فاخذ يسوع حالاً يشرح تعليمه ولم يتأخر بالجواب على مشكل مهم بهذا المقدار لعلمه ان ايضاح مثل هذه الحقيقة هو بمثابة الزام لهم بالاقرار بها نظراً لما فيها من الوضوح والسمو . اجل ان اول الوصايا عند يسوع واعظمها لاشك

هي تلك التي تذهب توًّا الى قلب الانسان وتضبط حركاته وتجمع عقائد الديانة الحقيقية بفعل النفس الازلي الاكثر طهارة والاعمق تأصلاً بالقلب٠ الا وهي المحبة التي تحملنا على ان نقدم كل اعمالنا حتى حياتنا للشخص المحبوب فاجاب يسوع « ان اول الوصايا كلها اسمع يا اسرائيل ان الربّ الهنا ربٌّ واحد٠ فاحبب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قدرتك والثانية التي تشبهها » اذ هي مثل الأولى مصدرها القلب ومرجعها تنظيم امياله « احبب قريبك كنفسك » ان المحبة التي يلزم ان تحب بها القريب يجب ان تكون قوية ثابتة مخلصة نظير المحبة التي نحب بها ذواتنا وبعبارة اخرى انه تعالى جعل حدودًا لهاتين الوصيتين فيوجب علينا ان نحبه محبة عظيمة لا يماثلها محبة ولا يعوقها شي ويوجب علينا ان نحب قريبنا بمقدار استطاعتنا« فليس اعظم من هاتين الوصيتين وبهما يتعلق الناموس والانبياء » فبالحقيقة ان كل ما أُمِر به اسرائيل ونهي عنه يعود الى احدى هاتين الوصيتين فهتف الكاتب الذي ساله عندما سمع كلامه قائلاً « يا معلم بالحق قلت ان الله واحد ومحبته من كل القلب وكل العقل وكل النفس وكل القدرة ومحبة القريب كالنفس هما افضل من جميع المحرقات والذبائح » فلما رآه يسوع قد اجاب بحكمة وفسر نبيه التفت اليه وقال له « لست بعيدًا عن ملكوت الله » فحلَّ هذا التشجيع محله في نفس تسعى وراء الحقيقة ويوجد محل للامل ان النعمة قد اتمت ما كان ينقصه ايضًا فاضحى ذاك الكاتب مؤمنًا

§

استئناف يسوع الجدال

فعاد يسوع الى الكلام الذي كان في صدده عند ما اتاه الهيروديسيون وصمم النية على ان يجلي الحقيقة عن المسيح لسامعيه الذين كانوا يرغبون في ان

يقفوا على كنهها. فبعد ان سئل مرات كثيرة اراد ان يسأل هو فقال للفريسيين المحدقين به« ماذا تظنون في المسيح ابنُ مَن هو ؟ فاجابوه « ابن داود حسب تعليم مفسري الشريعة فقال لهم « فكيف يدعوه داود بالروح ربه حيث يقول قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئاً لقدميك فان كان داود يدعوه رباً فكيف يكون هو ابنه .»

ان كلمة واحدة كانت كافية للجواب عن هذا السؤال غير انه يلزم لذلك معرفة الكتب المقدسة والفريسيون لم يكونوا في شيء من ذلك. نعم ان المسيح هو ابن ورب داود لان فيه طبيعتين متمايزتين فهو انسان واله. فهو انسان لانه ابن داود حقاً ومن ذريته وهو اله لانه مولود من الاب من قبل كل الدهور اله نظير الذي ولده ومن ثم على اي وجه كان هو رب داود. فصمت اليهود ولم يفوهوا ببنت شفة اذ لم يستطيعوا ان يجاوبوه واما يسوع فلم يعد يمكنه ان يكتم غيظه فقال « ان الكتبة والفريسيين جالسون على كرسي موسى فمهما قالوا لكم فاحفظوه واعملوا به واما مثل اعمالهم فلا تعملوا »

يريد بذلك انه يلزمنا ان نميز في كل من الكتبة والفريسيين بين الوظيفة التي تجعلهم نواباً شرعيين للسلطة الدينية والشخص الفردي مع ما هو عليه من الفضيلة او الرذيلة . فالاعتبار الواجب لوظيفتهم الدينية لا يضطرنا الى استحسان سلوكهم الشخصي ولا الى الاقتداء به بل يمكن اجلال الوظيفة واحتقار الشخص نظراً الى نقائصه دون ان تمس حرمة السلطة الشرعية بشيء ثم ان يسوع قال ايضاً « ان الكتبة والفريسيين يقولون ولا يفعلون ويحزمون احمالاً ثقيلة ويجعلونها على مناكب الناس وهم لا يريدون ان يحركوها باحدى اصابعهم» فنتج عن ذلك تثقيل كواهل الناس بقوانين وفروض فضولية جعلت الحياة الدينية بما فيها من مسحة الظلم والعسف صعبة جداً وغير محتملة وكان ذلك الشعب مثقلاً بها نظير دابة تنوء بحملها. واما اولئك المبتدعون جالدو الضمائر فكانوا

يظنون انه يكفيهم كثرة القوانين التي يسنونها لكي يحسبوا لدى الناس انهم اصحاب فضيلة سامية مع انهم كانوا يتهكون سرًّا اهم الشرائع الالهية فعين الله لم تكن رهيبة في اعتبارهم نظير عين البشر وكأن شعارهم امسى التظاهر والرياء بالفضيلة دون العمل بها. وبيانًا لذلك زاد يسوع قائلاً «كل اعمالهم يصنعونها رياء امام الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون اهدابهم» ان هؤلاء الخبثاء كانوا يلبسون على اجسادهم العصايب المكتوب عليها نظام الحياة ويطولون اهداب ارديتهم دلالة على تعلقهم الكاذب بالعلي وهكذا يذهبون في الطرق فيعثرون بالحصى ليميتوا اجسادهم ويغمضون اعينهم لكي لا ينظروا الى النساء طمعًا بان يمجدهم الناس ويعتقدوا بتقواهم العديمة المثل

«لكنهم يحبون اول المتكئات في العشاء وصدور المجالس في المجامع والسلام في الاسواق وان يدعوهم الناس عظماء ومعلمين اما انتم فلا تدعوا لكم معلمًا فان معلمكم واحد وكلكم اخوة ولا تدعوا لكم على الارض ابا فان اباكم واحد وهو الذي في السماوات ولا تدعوا لكم مدبرًا فان مدبركم واحد وهو يسوع المسيح» فلا ينبغي ان يكون في الهيئة الاجتماعية الجديدة عظماء واصحاب مراتب سوى الله جلَّ اسمه ومن ارسله واذا كان يوجد في درجات الكهنوت القاب شرف فما ذاك الاَّ لتميز المراتب والايمان يصلح هذه الالقاب ويفسرها ويذكرنا ان الكنيسة ترى في روسائها مستحضرين اقلَّ او اكثر كمالاً لرأسها الاكبر الحقيقي الذي هو الروح القدس. وفي الاباء الروحيين صورة الاب الازلي الذي يعطي بواسطتهم الحيوة للنفوس. وفي المرشدين نرى صورة الدالول الاعظم الذي هو السيد المسيح. ودرجات الوظائف الكنائسية نفسها لم تترتب الا لتعين درجات بذل الذات والتفاني بحبِّ الله لانه تعالى قال «فليكن الكبير فيكم خادمًا فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع.»

لما كان المسيح يخاطب التلاميذ كان يلطف صوته ويكلمهم بلين غير انه

التفت بغتة نحو الكتبة وقال لهم بحدة « الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرآؤن فانكم تأكلون بيوت الارامل بعلة تطويل صلواتكم من اجل هذا ستدانون باشدّ صرامه منهم الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرآؤن فانكم تطوفون البر والبحر لتجلبوا دخيلاً واحداً فاذا حصل صيرتموه ابن جهنم ضعف ما انتم عليه ٠»

ان الغيرة ممدوحة بذاتها ولكن متى استعملت للشر واستمالة الغير الى الاهواء والاغراض الخصوصية تعد جريمة عظيمة لانها تكون بمثابة مطاردة وقنص النفوس والقبض عليها وقتلها وطرحها في الهاوية « الويل لكم ايها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فلا جناح عليه واما من حلف بذهب الهيكل فانه يطالب بحلفه ايها الجهلة والعميان ايهما اعظم الذهب ام الهيكل الذي يقدس الذهب٠ وتقولون من حلف بالمذبح فليس حلفه بشيء ومن حلف بالقربان الذي فوقه ويُطالب٠ ايها العميان ايهما اعظم القربان ام المذبح الذي يقدس القربان٠ من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه » فلا فرق بين الحلف صغيراً كان او كبيراً اذ كل حلف يجعل الله كشاهد على قول الانسان ويجعل الذي يحلف مسؤولاً به٠ الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون فانكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتتركون اثقل ما في الناموس وهو العدل والرحمة والايمان » ان الانسان الذي يفي بطفيف ما عليه ويدوس برجليه قواعد الاداب يكون كمن يتظاهر بظواهر الكمال مع كونه في ادنى الدرجات من النقص والذل

« فكان الأولى بكم ان تفعلوا هذه ولا تتركوا تلك ايها القادة العميان الذين تصفون كاسكم من البعوضة وتبلعون الجمل » اذ من طبع الرياء المناقضة بين ظاهر المبادي والاعمال السرية

الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون فانكم تنقون خارج الكاس والجام وداخلهما مملوء خطفاً ودعارة ايهـا الفريسي الاعمى نقِ اولاً داخل الكاس والجام حتى يُطهر خارجهما ايضاً » اجل ان الطهارة من داخل وهذا هو المبداء المسيحي العظيم ويدحض وينافي الرياء الفريسي واما اللمعان والبهرجة الخارجية ليس هي الا رمز وعلامة طهارة الداخل فمتى كان القلب نقياً طهر باقي الجسد كله واما العكس فلا يصح لان طهارة الجسد لا ينتج عنها طهارة النفس التي وحدها تروق بعينه تعالى « الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤن فانكم تشبهون القبور المكلسة التي تبدو للناس من الظاهر حسنة وهي من داخلها مملوة عظام اموات وكل نجاسة. كذلك انتم يرى الناس ظاهركم مثل الصديقين وانتم من داخل ممتلؤن رياء وإثماً » فكأن يسوع عندما كان يتكلم هكذا كان ينظر الى وادي قدرون حيث في شهر اذار من كل سنة كانت تكلس المقابر المنثورة غربي جبل الزيتون. ونظره لقبور الانبياء جعله ان يهتف بحدةٍ وغضبٍ شديدين « الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤن فانكم تشيدون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في ايام آبائنا لما كنا نشاركهم في دم الانبياء فانتم تشهدون على انكم بنو قتلة الانبياء فجمموا انتم مكيال ابائكم ايها الحيات اولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم فها انا ارسل اليكم انبيا وحكما وكتبة فتقتلون منهم وتجلدون وتصلبون منهم في مجامعكم وتطردونهم من مدينة الى مدينة لكي ياتي عليكم كل دم ذكي سفك على الارض من دم هابيل الى دم ذكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح الحق اقول لكم ان هذا كله ياتي على هذا الجيل »

فبالعدل كان يتكلم بهذا ابن الله ولكن ابن الانسان لم يقدر ان يتمالك من اظهار عاطفة الحنو عند ما افتكر بوطنه الناكر الجميل فصاح بصوت عالٍ قائلاً « يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها كم من مرة

اردت ان اجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا هوذا بيتك يترك لكم خرابًا » .

وكان يسوع قد نظر الجنود الرومانية مستعدة لتثور على ذبح ذلك الشعب الخائن المتمرد وعلامات الحزن والحداد تلازمهم وما ذلك الا لينتقموا من الاثام الفظيعة التي اقترفها اماهو فيذهب ولايعود الا يوم الدينونة الرهيب حيث قال لهم «الحق اقول لكم انكم لا ترونني مذ الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب » فَقُبَيلَ تلك الساعة الاخيرة كم من الدموع تهطل من عيني اسرائيل.

فبعد ان انهى يسوع خطابه عزم على الخروج نهائيًا من الهيكل والحزن ملء النفس ثم وقف امام رواق النساء منتظرًا تلاميذه ازاء الخزانة المعدة للفقراء وهناك كان يراقب الذين كانوا يأتون و يضعون ما تسمح به نفسهم في احد الصناديق الثلاثة عشرة الموضوعة هناك فرأى كثيرًا من الاشراف والاغنياء آتين بهداياهم النفيسة بابهة عظيمة ورأى ايضًا ارملة مسكينة تقدمت بخشوع واحترام ووضعت قطعتين صغيرتين من النحاس قيمتهما ربع لم يكن معها سواهما فاثرت ان لا تبقي معها شيئًا مع ان الحاجة تسوغ لها ان تبقي ولو واحدة منهما. فتاثر يسوع من هذا المشهد وقال لتلاميذه « الحق اقول لكم ان هذه الارملة المسكينة قد القت اكثر من كل الذين القوا في الخزانة لان الجميع القوا مما فضل عندهم واما هذه القت كل ما عندها لمعيشتها مع عوزها » في الصدقة تعتبر الكيفية لا الكمية »

طلب اليونان مفاوضة يسوع

ولما خرج يسوع من الهيكل وكاد يبرح من رواق الوثنيين اتى بعض اليونان الذين مع كونهم ليسوا من شعب اسرائيل كانوا يعتقدون انه من الواجب ان ياتوا من بعيد ليصلوا في بيت الرب لان خبر سطوة العلي واسمه العظيم كان قد

انتهى اليهم فقالوا لفيليبوس بكل احترام : « ياسيد نريد ان ننظر يسوع : » ورغبتهم هذه في نظر يسوع لم تكن فضولية كما فعل زكا لكن قصد ان يفاوضوه مفاوضة ذات اهمية اذ كانوا سمعوا بما كان يفعله لاسيما وانهم كانوا ينظرون كيف انه طرد الباعة من رواق الامم ولعلهم قصدوا ان يسألوه الذهاب معهم ونشر انجيله في بلادهم . اما فيليبوس فلم يجسر مع تقربه من المعلم على ان يبلغ هذا الطلب بنفسه فكلف اندراوس ان يمثلهم امام يسوع لان هذا كان ذا اسم يوناني مثله ورفيقه المختار لا سيما وانه كان اخا بطرس فيلتجي اليه عند الحاجة

وبما ان دخول عبدة الاوثان الى الملك المسيحي مسألة دقيقة تقتضي امعان النظر لم يرد فيليبوس واندراوس ان يدخل اليونان دون اذن معلمهما . فاستاذنا لهم بالمثول امامه بالحاح اما يسوع فارتبك بادىء بدء في الامر لان دخول عبدة الاوثان بين تلاميذه يشكك كل اسرائيلي ومع هذا لم يعبأ بذلك بل افتكر بالحادث الذي كان قريب الوقوع والذي من شأنه ان يزيل الوهدة الفاصلة بين عبادة الاوثان وعبادة الاله الحقيقي وانه متى ارتفع على الصليب وصار بين السماء والارض يجلب حينئذٍ اليه كل العالم فعلى الوثنيين اذاً ان يبقوا الى ذلك الحين بعيدين عن الملكوت لانه لم يرسل الا للشعب الموعود به واذا كان قد ذهب نحو غيره من الامم فما ذاك الا لكي يشير الى ما عساه ان يكون في المستقبل ولذا كان جوابه سلبياً على ما يظهر لكنه لم يقطع املهم اذ قال : « ها قد اتت الساعة التي يتمجد فيها ابن البشر . » ويثبت ذلك طلب اليونان التقرب اليه قال متنبئاً عن دنو وفاته : « الحق اقول لكم ان حبة الحنطة ان لم تقع وتمت في الارض تبقى مفردة وان ماتت تأتي بثمار كثيرة » نعم هو كان ذاك الزرع الالهي الذي اعده الآب الازلي لينبت منه الحقيقة ويذيعها في العالم كله فمن الضرورة ان يموت قبل ان يذيع الحياة . وتضحيته على خشبة الصليب هي الفعل الذي به قامت الكنيسة اي جماعة الصالحين الاخيار . والحق يقال ان صليبه الطاهر لم يكن اقل فعلاً

من تعاليمه في فهم الانجيل المقدس ووضع مباديه بالعمل و بناء على ذلك قال ايضاً : «من يحب نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه على الارض يحفظها لحياة الابد .»

ولما كان من الضروري جداً اقناع الرسل على هذا المبدأ لئلا تذهب ثمرة الفداء سدى لعدم وجود من يبذل النفس والنفيس في سبيل التبشير به ودعوة الناس للاشتراك باستحقاقات السيد المسيح قال ايضاً « من اراد ان يخدمني فليتبعني » فمعنى يخدمني هنا يساعدني و يشترك باعمالي التعويضية ومعنى يتبعني يحذو حذوي و يكون له حظ مثل حظي لانه قال ايضاً : « وحيثما اكن انا يكن هناك خادمي وخادمي يصير مجداً من ابي » فاذا ضحى الرسل حياتهم نظير معلمهم فسيجدون جزاءهم في الابدية وبما انهم كانوا شركاءه في استشهاده سيكونون شركاءه في مجده

واذ نظر يسوع بعيني البصيرة الى المستقبل ورأى ما كان مزمعاً ان يحل به من الآلام المعنوية والحسية ونظر عود الصليب واوجاعه وعاره هتف قائلاً « الآن نفسي قد اضطربت فماذا اقول يا ابتِ نجني من هذه الساعة ولكن من اجل هذا بلغت هذه الساعة يا ابتِ مجد اسمك » نعم ان كل اتعابه في مدة حياته لم تكن الا استعداداً لهذه الساعة وهل يطلب الآن تأخيرها حقيقةً كلاّ ثم كلاّ فانه مهما كانت التجربة قوية فهو يشعر في فؤاده انه يقدر ان يقاوم الخوف الذي يعتريه والذي كان يقويه هو تمجيده لابيه فلم يتردد اصلاً عند هذا الفكر بل عزم وقال ايضاً : « يا ابتِ قبل كل شيء مجد اسمك : » فحنّ هذا الحب البنوي الحار قلب الآب وللحال سمع صوت من علو السماوات يقول « قد مجدّت وسامجد ايضاً » ان عمل الله الخطير في العالم قد ابتدأ ومجد الله ابتداء معه وسيكون مجد عظيم لملك السما في المستقبل عندما يرتفع يسوع على خشبة الصليب فهذا الفكر شدّد عزم يسوع . فلما سمع الجمع الصوت قال البعض انه رعد وقال آخرون ان ملاكاً خاطبه اما التلاميذ فانهم عرفوا وحدهم كلام

الله وميزوه فقال لهم يسوع « ليس لاجلي كان هذا الصوت لكن لاجلكم ها قد حضرت دينونة هذا العالم الآن يلقى رئيس هذا العالم خارجاً وانا اذا ارتفعت عن الارض جذبت الجميع فمن اعلى خشبة العار التي اضحت مذبحاً لتلك الضحية الالهية سترسل النعمة اشعتها الى اربعة اقطار المسكونة وستجتذب اليها اختياراً كل النفوس المستقيمة وتوطد اركان ملكوت المسيح في العالم كله ولما لم يعلم الشعب معنى هذا الكلام اخذ كل منهم يقول قد سمعنا من الناموس ان المسيح يدوم الى الابد فكيف تقول انت ان ابن البشر ينبغي ان يرتفع ومن هو هذا ابن البشر» وهذه هي العقبة العظيمة التي تقوم غالباً في وجه الذين لا يرون في الكتاب سوى مجد المسيح وعظمته واغمضوا الطرف عن ذله وتواضعه. اما يسوع فلم يتوقف عند هذا الاعتراض فاجابهم « ان النور بقي معكم زماناً يسيراً سيروا في النور ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام لان من يمشي في الظلام لا يدري اين يتوجه ما دام النور معكم فآمنوا بالنور لتكونوا ابناء النور » ولم يعد يسوع يتكلم عن نفسه الا كعن نبراس اوشك ان ينطفىء او عن حياة قاربت الزوال ومن بعده يحاول الرسل مدة ان يفتحوا اعين ذلك الشعب الاعمى ولكن عن قريب يأمرهم الروح القدس بان يحملوا مشعال الايمان للوثنيين والامم

ويخبرنا الانجيل ان يسوع بعد ان خاطب الشعب والفريسيين بهذا ذهب متوارياً عنهم وهذه كانت الدعوة الاخيرة لاسرائيل او لوداع الذي ليس بعده وداع. وبعد ان خرج من الهيكل اخذ المعلم طريق جبل الزيتون ذاهباً الى بيت عنيا وفيما هو ذاهب في الطريق وقف بغتة اذ كان قد اعياه التعب في ذاك النهار ووجه نظره بحزن نحو المدينة التي كانت قد صمت اذنيها عن الايمان رغماً عن الحاح يسوع في دعوتها اليه وذلك كان عند الاصيل والشمس قاربت الغروب ولم تعد اشعتها تفي اسوار المدينة الا بنوع طفيف وكان

الهيكل يظهر كمركب يطوف فوق مياه مرفاء صافية يتمادى فيها بما هو عليه من العظمة والاتقان والترتيب فنطن التلاميذ الى ان معلمهم كان قد تنبأ بان الهيكل سوف يهدم وبناءه الجميل سيخرب فقال له واحد منهم قصد ان يرجعه الى الكلام عن الهيكل « يامعلم انظر ايّ حجارة واي ابنية هذه » وكان التلاميذ كلهم يتعجبون من بناء الهيكل فاجاب يسوع وقلبه مفعم غمّاً وكدراً « ترى هذه الابنية العظيمة انه لا يترك حجر على حجر الاّ ينقض »

وقد كتب هذا من زمن مديد في نبوة دانيال (ف ٩ عدد ٢٦) وقد اقرّت به تقليدات ذاك العصر على ما يظنّ وسلم به مفسروا السنة ومع ذلك فان نبأً كهذا قد ادهش التلاميذ لانه اذا هدم الهيكل ومات المسيح ماذا تكون اذ ذاك حالة الملك المسيحي ان هذا الفكر كان يشغلهم كثيراً وفي ذاك الوقت كان مع يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس اذ ان الباقين كانوا قد سبقوه الى بيت عنيا وان يسوع لم يشأ ان يوحي الا لهولاء اهوال المستقبل الحقيقية

خطاب يسوع لتلاميذه بالنبوّات

هنا يستحضر لنا مرقص يسوع جالساً كمن اضنكته شدة التعب واعياه ثقل المصائب التي كانت تلوح وتنتشر امام مخيلته · فكان يمر نصب عينيه بالتتابع دينونة اليهودية القريب وقوعها ودينونة الكنيسة المستقبلة ودينونة الانسانية الاخيرة · فهذه المشاهد الثلاثة التي يكون كل واحد منها كتمهيد رمزي للآخرة قد حضرت بوقت واحد امام تصوره ومن خلالها كان يقرأ تاريخ الكنيسة والانسانية · فاجتمع التلاميذ حول نبيهم وسألوه بغمّ وكدر قائلين : « يامعلم قل لنا متى يكون هذا وما العلامة التي تكون اذا اوشك ان يتم هذا كله وباي واسطة نعرفه » فاجاب يسوع عن السؤال الاول مورداً ما كان مزمعاً ان يحل به من المصائب والاهوال قبل سقوط الدين اليهودي نهائياً اعني بذلك الانبياء الكذبة الذين يخدعون الشعب

القسم الثالث

نهاية حياة يسوع

الفصل الاول

المشهد الاخير

يهوذا يقترح على المجلس تسليم يسوع — الوليمة الفصحية ومظاهرها الاولى — ترتيب سر الافخارستيا المقدس — خطبة الوداع — صلاة يسوع —

طالع : متى ٢٦ : ١ — ٥ و١٤ — ٣٥ ومرقس ١٤ : ١ — ٢٥ — ٢٧ — ٣١ ولوقا ٢٢ : ١ — ٣٨ ويوحنا ١٣ : ١ — ٣٨ و١٤ : ١ — ٣١ و١٥ و١٦ و١٧ وكورنتس الاولى ١١ : ٢٣ — ٢٨

يهوذا يقترح على المجلس تسليم يسوع

من الغالب على الظن ان عصبة ذوي المراتب الكهنوتية كانت تشعر بالحاجة الى اخذ الثأر والتخلص دون ابطاء من خصم غليظ القلب بقدار ما هو قدير

فلما اقبل الليل عقد اعضاء المجلس جلسةً خارقة العادة في بيت قيافا وقد ابيح لكلٍّ منهم ان يبسط شكواه من النبي" الشاب" فانتهت خلاصة الشكاوى الى اثارة حنق الجميع الى حد النهاية فاقروا دون نزاع ولا اعتراض على اعادة اصدار الحكم بالموت الذي كانوا قد ابرزوهُ على يسوع منذ شهرين ولكن صرحوا هذه المرة بوجوب انفاذ الحكم في وقتٍ قصيرٍ الاَّ انهم لما كانوا يخافون الشعب ولا سيا الجليليين المتهللين بمسيحهم اذا كانوا يقدمون على تلك الفعلة جهارًا

رأوا الالتجاء الى الخديعة والتنقيب عن وسيلة للقبض عليه بغتة بدون ضوضاء وفي اثناء تغيب الشعب · وكان واحسرتاه قد قضي على احد الرسل ان يعضدهم في ادراك ذلك القصد الممقوت

هل ان كلام المعلم الاخير ام تأثير ذلك النهار قد ادى الى خلل في عقل ذلك المنكود الطالع ؟ ذلك امرٌ يتعذر معرفته · واما الامر المحقق فهو انه لما دخل رفاقه مع يسوع الى بيت عنيا كان يهوذا يهيم على وجهه في ازقة المدينة المقدسة كئيباً كاسف البال تتنازع خاطره افكارٌ مرعبة · وربما فتح قلبه للشيطان بعد نزاع طويل · واذا صح ما قدمنا ان هذا الرسول لم يتبع يسوع الا لغاية الطمع آملاً ان ينال مكافأةً بشرية اتضح انه في ذلك المساء عينه قد شعر بالغرور وامرّ الاوهام

فان مسيحه لم يكن ابداً مثلما كان يخامر فؤاده · فذلك الذي كان يتنبأ عن خراب اسرائيل وعن موت ذاته على صليب هل كان من الممكن ان يكون مسيحاً ؟ فيسوع قد غش ذويه اما بحمقه واما بنفاقه ولذلك لم يبقَ سوى قطع العلائق معه بتسليمه للعاصفة التي دعاها على رأسه · فبعاطفة انتقام طبيعية تألف الانفس الفظة المعارضة في اشدّ مطامعها هجس في ضمير يهوذا ان يسلم هو ذاته المسيح الكذاب الى ايدي اعدائه · ولما كان ما يتخالج به قلبه ناجماً عن بعض المنافع المادية رأى انه اذا لم يكن يسوع ذا فائدة له في حياته فلا اقلّ من ان يجرّ اليه بعض الثروة في موته · فعقد النية على بيعه بثمنٍ غالٍ · وانه اضطرّ الى تسليمه بقليلٍ من المال فذلك لانه في الدقيقة الاخيرة لم يتمكن من نيل اكثر من ذلك ولربما هذا هو بيان جريمته الذي تستند اليه رواية الانجيل وتعتبره طبيعياً اكثر من سواه فمن يتمثل ان يهوذا كان فقط في الشكّ وليس في حالة الكفر الحقيقي بيسوع يتمثّل خطوته الاولى في طريق الاثم في حالةٍ اقلّ قباحة · بيد ان النتيجة النهائية كانت مكروهةً · فالتلميذ المجرم تبرّم من سماعه

المعلم ينوّه دائماً بملكه دون ان يحتفل به ولما لم يعد في الامكان وضع حد لمطامعه وجزعه تسرَّع الى ادراك الغاية . وحقق عزيمته في تسليم يسوع لاولئك الذين قضوا عليه بالموت قصد ان يدفعهُ الى ان يبرهن على قوته العظيمة او ان يظهر ضعفه . فالتجربة كانت قوية حتى ان المسيح لم يكن قادراً ان يخرج منها الا على احد هذين الوجهين إمّا مسيحاً ظافراً وإمّا منافقاً معاقباً . ان مرأى مصير حال قد شك فيها وحسم كل الظنون كانت خطة الخائن الذي بايمانه واستقامته المشتبه بهما قد انحاز عن الحلقة الرسولية

فسرى ذلك التاعس الجدّ تحت جنح الدجى ميمماً بيت قيافا . فقلبه مع فساده كان يخفق خفوقاً شديداً حينما قرع الباب وطلب الدخول على اعداء معلمه . فالاستقبال الذي استقبلوه به شجعه دون شك ولا ارتياب وثاب اليه امام المجلس الكبير كل النشاط البارد والسفاهة اللذين كان يمتاز بهما . فقال لهم : « ماذا تريدون ان تعطوني فاسلمهُ اليكم » فالقاتل شعر انه مساوٍ للقضاة الذين كان يخاطبهم وكان يخاطبهم نابذاً الاحترام . ومع كل ذلك كان المسلك الذي سلكهُ خطأً فاحشاً لا يرجى اصلاحهُ . ومهما كان جواب المجلس فانه كان قد تقدّم كثيراً حتى انهُ لم يعد يستطيع الرجوع الى الوراء وقد انس منه رؤساء الكهنة ذلك الامر وحيث كان يهوذا يخصهم بدون تردُّد لم يعودوا يحتفلون باظهار الكرم نحوهُ . فدفعوا له ثلاثين من الفضة (نحو ٩٣ فرنكاً) وهذا المبلغ كان الثمن الذي يشرى به العبيد (الخروج ٢١ : ٣٢ ولم يسنح في وهم الفريسي المتكبّر ان يسوع يجب ان يشرى باكثر من ذلك ولم يذكر ايضاً ان يهوذا الحّ بان يطلب اكثر من ذلك

ان قبول مثل تلك المكافأة النزرة لاثم كبير يبين لنا شكاسة اخلاق اولئك القرويين الذين ارتقوا فجأةً الى مناصب لم يكونوا جديرين بها . فبادىء التهذيب تمنع دائماً بعض الرجال مهما كانوا اشراراً ومحتقرين من

الانحدار الى تلك الوهدة وان يهوذا قد القى معارضةً ولامراء لكنهُ لم يشعر بالمهانة لنيله مثل ذلك المبلغ فبرح المجلس واعداً انهُ سيلقى بعد قليلٍ فرصةً مؤكدةً ليسلم معلمهُ . وحين استأنف المسير الى بيت عنيا مجتازاً وادي بني هينوم ومضايق قدرون القاتمة احسَّ مراراً انه محتاج الى ان يضم الى قلبه ثمن الجريرة لكي يرد اليه وخز الضمير الذي كان يرفعه ويروي لنا القديس لوقا ان الشيطان كان قد دخلهُ

وكان ليسوع في المجلس احزابٌ مخلصون وكان من الممكن ان لا يدعوهم الى دار قيافا ولكن قد عرفوا ولا ريب نتيجة هذا الاجتماع ومسعى يهوذا الاثيم . فاخبار المعلم حالاً بهذه الامور كان لهم من اول الواجبات ولكن السيد المسيح لم يكن محتاجاً لمثل تلك الاخبار لانهُ كان يعلم خبث الخائن قبل الكل واكثر من الجميع وكانت عينه الالهية تقتفي في الظل كل خطوات الشرير . ومن ثمَّ بدلاً من ان يرجع الى اورشليم صباح الاربعاء أعلن بغيتهُ في البقاء في بيت عنيا او على جبل الزيتون وحدهُ مع الله ابيه في انفراد الروح الذي يهيء الانسان للتضحية . والشعب اذ لم يتل اسرار الجور التي حدثت في الليل كان عبثاً ينتظرهُ في الهيكل دون ان يستجلوا سبب تغيبه

ليس لدينا تفاصيل عن الوقت الاخير الذي قضاهُ يسوع ما بين اصدقائه في ذلك البيت بيت عنيا حيث شعر بافراح مقدسة عظيمة . ويالها من انفعالات هاجت نفسه حين رقد في ذلك المسكن وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ونام ثمَّت نومه الاخير على الارض وهو يرى بنوعٍ جليٍ انه سيمضي بعد راحة بعض ساعات ليتألم

الوليمة الفصحية ومظاهرها الاولى

ولما كان من الغد وهو نهار الخميس الواقع في ١٣ نيسان كانت الحال

تقتضي اتخاذ التأهبات للوليمة الفصيحة · ولما رأى الرسل ان يسوع لم يكن مهتماً لهذا الامر دُهِشوا وقالوا له : « يامعلم اين تريد ان نعدّ لك الفصح لتأكل » فالسؤال الملقى امام الجميع كان يهمّ يهوذا بنوع خاص ومن المحتمل انهُ هو الذي طلب ذلك لانه لم يسعده الجدّ على القيام بوعده المجلس · ومن ثمّ اعترته الدهشة بنوعٍ مزعج اذ رأى غيره قائماً مقامه في مهمته لانه كان وكيل النفقة · والحقّ يقال ان يسوع عهد الى بطرس و يوحنا بارصاد معدات الوليمة الفصحية فلم يكن من الواجب ان يتمكن الخائن من اجراء عمله قبل هذا الاجتماع الاخوي السامي ولا بعده · وان المعلم لم يكن فقط يستغني في ذلك الوقت عن مساعدة يهوذا بل تكلم بنوع يجعله جاهلاً الموضع الذي تقام فيه الوليمة ومع صدق بطرس ويوحنا في صداقتهما وشدة حرصهما على السرّ لم يعلمهما اسم المضيف الذي كان مزمعاً ان يقبلهم عندهُ ولا عرفاه حتى وصلا الى اورشليم واما بقية الرسل فانهم لم يعرفوه · فقال لهما يسوع : « اذهبا الى المدينة فسيلقاكما رجلٌ حاملٌ جرةَ ماء فاتبعاهُ · وحيث يدخل فقولا لربّ البيت ان المعلم يقول اين يكون منزلي الذي آكلُ فيه الفصح مع تلاميذي فهو يريكما غرفةً كبيرةً مفروشةً فأعدّاه لنا هناك » فرب البيت المومأ اليه كان ولا امتراء مهتدياً اميناً لانهم يخاطبونه عن المعلم كأنه قد تعوَّد سماع مثل هذا الكلام عن يسوع ·

وكل شيء جرى طبق الدلائل المعطاة · و بينما كان باقي الرسل و يهوذا ذاته الذي كان قلق البال من جراء تصرّف المعلم معه مقيمين في بيت عنيا وصل بطرس و يوحنا الى المدينة وعرفا الغرفة المعدة للوليمة فبادرا الى اعداد كل شيء · فالوليمة الفصحية كانت تفتتح بتقديم الحمل في ساحة الهيكل حيث كان يفرض على ربّ العائلة مساعدة اللاويين على نحره وعمل الخبز الفطير و بعد ذلك بابتياع البقول المرة · ومن المرجح انهم لم يكونوا حينئذٍ مساء يوم الفصح

ولكن مساء اليوم الذي قبله وكان يظنّ الرسولان انهما يعدّان كل شيء
للغد غير انه لما انصرم النهار واتت الساعة التي يبتدىء بها اليوم الاول من
ايام الفطير صمم يسوع على ان يقدّم الوليمة القانونية التي كان من اللازم ان
تؤكل في الغد فقط وان يبدلها بفصح على ترتيب وقصدٍ جديدين . وكان
ينوي باتباع الطقوس الموسوية الاحتفال بفصح الازمنة القديمة . ولكنه كان
يروم تدشين فصح الاعصر المستقبلة بالسر الذي كان ينوي ترتيبه . وفي الحقيقة
كان يقصد ان يموت في الدقيقة التي يذبح فيها اسرائيل في الغد الحمل الفصحي

فغادر بيت عنيا عند المساء و بعد مسير ساعةٍ من الزمان وصلوا الى اورشليم
دون ان يصيبهم ادنى حادثٍ مهمٍ ولما دخل الغرفة الفسيحة الجميلة المهيأة لمثل
تلك الحال فحسب رواية القديس يوحنا عرف يسوع ان ساعته قد دنت ليترك
هذا العالم و يرجع الى ابيه ولما كان قد احبّ خاصته الذين في العالم عزم ان
يظهر لهم مظاهر حبه الاخيرة والقديس لوقا يقول انه حين اقترب من المائدة
قال : « لقد اشتهيتُ شهوةً ان آكل هذا الفصح معكم قبل ان اتألم » وعند
رؤيته الطعام قال بانفعال زائدٍ : « اني اقول لكم اني لا آكله بعد حتى يتمّ
في ملكوت الله » وبناء عليه يجب ان يوضع حدٌّ للغرور فقد اوشكوا ان
يبلغوا النهاية . والرسل لم يصدقوا ابداً امكان حدوث هذا الامر ولكنهم
سيشاهدونه واقعاً حقيقةً بعد بضع ساعات واما يسوع فلا يعود يتناول طعاماً
على الارض اذ يمضي بعد هذهِ الوليمة الى السماء ويجلس على وليمة الفصح الابدي
في مجد ابيه .

وكان يجب ان يقدّموا له على جاري العادة كأساً مملوءةً خمراً للرتبة
الاحتفالية وكان دور رب العائلة مختصاً به على كل الاحوال . وبعد البركة
شرب من الكاس وقال : « خذوا هذا الشراب فاقتسموه بينكم فاني اقول لكم
اني لا اشرب من عصير الكرمة حتى يأتي ملكوت الله » وكان على هذا النمط

يجدّد قرب حدوث موته فذلك الطعام لم يكن فصحه الاخير ولكن كان طعامه الاخير ثم دارت الكأس ويظنُّ انها لم تدُر بموجب حق التقدم العاديّ فنتج عن ذلك غيظٌ وادّعا آت وعقب ذلك مناظرة عنيفة · أجل ان ذلك لم يكن في محله ولا في حينه ولكن لا يخفى ان العجب يعلّق على هذه الامور اهمية عظمى · وفي ذلك الحين كان ينبغي لكلٍ منهم ان يزايل مكانه الذي لم يكن قد اقام فيه اقامةً نهائية لكي يذهب ويتطهر قبل الطعام في مطهرة عامة · وحينئذٍ كان يصعب عليهم وجدان ذلك المحل فارغاً والحلول فيه بدون منازعة · فشفق يسوع على الرسل متحنناً وقال لهم : « ان ملوك الامم يسودونهم والمتسلطين عليهم يدعون محسنين واما انتم فلستم كذلك ولكن ليكن الاكبر فيكم كالاصغر والذي يتقدم كالذي يخدم » ان فكر السيادة حسب الايمان المسيحي هو ان الاول يجب ان يبذل نفسه وليس ان يقبل شيئاً · فالارتقاء في مراتب الكهنوت إن هو الاّ زيادة الواجبات للتضحية عن عددٍ اكبر « فمن اكبر المتكئ ام الذي يخدم أليس المتكئ فانا في وسطكم كالذي يخدم »

ولم يكد يفرغ من كلامه حتى وقف متضعاً كل الاتضاع ومزمعاً ان يقرن القول بالعمل وذلك ليس لانه ذهل عن تقدير مقامه الذي لا يماثل وهو يعلم حسناً ان الآب يرجع ولكنه اراد ان يتذكر الجميع هذا المثل · وقد ثار قلبه عبثاً حينما جال في ذهنه انهُ سيؤدي للخائن خدمةً من اعظم الخدمات ذلاً واحتقارًا فخلع للحالِ ثيابه التي كانت تضايقه واخذ منديلاً وشده على حقويه وبصفة خادمٍ تهيأ لغسل ارجل التلاميذ الذين كانت الدهشة تتجاذبهم

ولما صبَّ ماء في المطهرة تقدّم اولاً الى سمعان بطرس كأنهُ يريد ان يؤدي له الاكرام لرتبته المستقبلة · فجثا على ركبتيهِ ومدَّ يديهِ الالهيتين ليمسك قدمي التلميذ الذي اشتدت عليه الدهشة حتى انه لم يصدق ما كان يراه بعينيه فصاح بملء فيه قائلاً : « أ أنت يارب تغسل رجليّ » اجاب يسوع

بلطف عظيم: « ان الذي اصنعه انا لا تعرفه انت الآن ولكنك ستعرفه فيما بعد » فهو يطلب الطاعة اولاً ويعد بالايضاح فيما بعد ولكن بطرس لم يشاء ان يرى شيئاً ولا ان يسمع شيئاً سوى ان سيده يريد ان يصير خادمه واشتد صياحه كرجل يبغي ان يملص قدميه اللتين قبض عليهما يسوع فقال له : « لن تغسل رجليّ ابداً » وحينئذٍ تعجب الرب من عناده وسأل نفسه اذا كان يتركه مجتازاً الى غيره ثم قال له : « ان لم اغسل فليس لك نصيب معي » فالتهديد كان مفحماً ودار في خلد بطرس دون ان يدرك غور هذه المسألة ان التمادي في الرفض سببٌ لقطع الصلات مع المعلم فكفاه ذلك سبباً لتغيير قصده ودون ان ينتظر برهاناً آخر صاح بصوت امرىءٍ يزداد تهيجاً وقال: « يارب لا تغسل رجليّ فقط بل يديّ ورأسي ايضاً » فاجابه يسوع برزانةٍ ولطفٍ : « ان الذي قد اغتسل لا يحتاج الا الى غسل الارجل لانه كله نقيٌّ » وعلى الفور انتقل فكره بسرعةٍ من فعل الحقارة الذي به يغسل اقدام تلاميذه الى فعل التكفير العجيب ونكران الذات الهائل الذي به يفتدي نفوسهم في الغد. فان ذلك الذي يطهر اقدامهم بماء التطهير يسرُّ بان يطهر سابقاً كل اجسادهم باستحقاقات موته القريب فقال بابلغ معنى لهذه الفقرة وهي « انتم انقياء » كأن عاطفة مؤلمة كانت تستانفه الى الحقيقة او كأن نظره استقرَّ بالهامٍ طبيعي على يهوذا ثم اردف كلامه بكآبةٍ قائلاً : « ولكن ليس جميعكم » فالآن لم يتجاوز التلميح الى الخائن اكثر من هذا الحدّ ومع ذلك منحه يسوع نصيبه من اللطف والرأفة حتى انه لما كان يغسل له قدميهِ شعر بقلة تأثير نعمته في مثل ذلك القلب الفاسد .

ثم اخذ ثيابه وجلس على المائدة لمناولة الطعام وجلس التلاميذ ايضاً في مواضعهم دون ان يجسروا هذه المرة على ان يبدوا منازعات جديدة . لان المثال الذي بسط لديهم بشهامةٍ اثر فيهم كثيراً ولكي يزداد يسوع ثقةً

بتمام ذلك المثال قال : « أعلمتم ما صنعتُ بكم . انتم تدعونني معلماً وربا وحسناً تقولون لاني كذلك . فاذا كنت انا الرب والمعلم قد غسلت ارجلكم فيجب عليكم انتم ان يغسل بعضكم ارجل بعض . لاني اعطيتكم قدوة لتصنعوا انتم ايضاً ما صنعتهُ بكم . الحق الحق اقول لكم ليس عبدٌ اعظم من سيده ولا رسولٌ اعظم من مرسله . فاذا عرفتم هذا فطوبى لكم اذا عملتم به » وقد اتفقوا على القول ان الذي له المقام الاول يُقضى عليه ان يكون الاول في التضحية ثم استأنف يسوع كلامه قائلاً لهم : « ولا اقول هذا عن جميعكم — كأنَّ الخائن الطماع يستطيع ان يفهم هذا الكلام عن الكفر بالذات — فاني عارفٌ بمن اخترت » فيهوذا مع كل دهائه لم يتمكن من مخادعته ولم يكن فساد اخلاقه الملتحف بثوب الرياء قبل التأثير بذلك الذي ارتضى ان يطوي كشحاً عنه حتى النهاية فاردف يسوع مقاله بما يلي : « ولكن ليتمَّ ما كُتِبَ ان الذي اكل الخبز معي هو رفع عليَّ عقبهُ (مزمور ١١ : ١٠) اقول هذا لكم الآن قبل ان يكون حتى اذا كان تؤمنون اني انا هو » وفي الوقت نفسه ادار رحى الحديث على النصيب الذي يصيبه اصفياؤه الحقيقيون لكي يلقي الاضطراب في نفس المنكود الطالع بتحسر اخير فقال : « وانتم الذين ثبتم معي في تجاربي فانا أعدُّ لكم الملكوت كما اعدهُ لي ابي » فانهم ينالونه على الارض اولاً حيث يمثلون الله ذاته : « ان الذي يقبل من أُرسله يقبلني والذي يقبلني يقبل الذي ارسلني » وهم سيباشرونه في السماء : « لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسيَّ تدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر » وحيث كان يهوذا يتلقى كل هذه التلميحات بوجهٍ قد نضب منه ماء الحياء لم يخالج فؤاد احدٍ انه يريد به السوء فذلك الامر كان ولا ريبة لحسن حظه لانهم لو كانوا قد وقفوا على دخيلته لكانوا احتدموا غيظاً واقاموا العقبات في وجه تحقيق الخطة الالهية .

ومنذ ذلك الحين صار حضور السيء البخت يزعج قلب يسوع لانه لم يكن

يجب ان يكون مكتنفاً عند ساعة الوداع الاخير الا باصدقاء امناء ومن ثمَّ صار يكثر من التلميحات الشديدة الشفافة حتى ان الخائن كشف صدره وصمم على مغادرتهم بغتةً نخاطبهم يسوع قائلاً : « الحق الحق اقول لكم ان واحداً منكم سيسلمني » فهذا التصريح بنوع قطعيّ قذف الرعب الى افئدتهم وجرَّ اليهم الكآبة ولما لم يتعين المتهم كانت الظنة واقعة على كلٍّ منهم فاخذ كلٌّ منهم يرنو الى الآخر بناظريهِ كأنَّ الاعين مرآة الانفس . وبهذه اللحظات كانوا يقصدون تبرير ذواتهم والتنقيب عن المجرم . وحينئذٍ كان كلٌّ واحدٍ منهم متشجعاً بشهادة ضميره الحسنة وراغباً الوصول الى الحقيقة بطريق النفي فقال مستفهماً : « لعلي انا هو يارب » فاجاب يسوع : « هو واحدٌ من الاثني عشر الذي يغمس يده معي في الصحفة » واذ اورد هكذا كلام المرنم اكتفى بان يحقق ان الخائن كان مؤاكله . ففهم الرسل ذلك وعيل صبر اصفاهم مودة واخلاصاً . القديس يوحنا يروي ما يبرهن لنا عن هذا الامر فيقول : ان احد التلاميذ — انه يتكلم عن ذاته — كان متكئاً على صدر يسوع وهو الذي كان يسوع يحبه . اما بطرس فانه لم يتيسر له الوقوف على جلية الامر الذي كان يبتغيه لبعد مكانه فاومأ الى ذلك التلميذ ان يسأله سرًّا مَن مِن التلاميذ كان يعني بقوله . فبطرس و يوحنا الواحد رأس عصابة الرسل والاخر قلبها قد نالا امتيازاً الاول بالوظيفة التي نالها والثاني بمودة يسوع له وكانا عائشين بالمصافاة والموالاة ولذلك كانا يتفاهمان بادنى اشارة . فعلى الفور جلس التلميذ المحبوب على مقعده واستند على صدر يسوع و بينما كان الاخرون يتبادلون تأثراتهم همس في اذن يسوع قائلاً : من هو الخائن يا رب . فرضي يسوع ان يقول له عنه باحتراز لكي لا يعلم سمعان بطرس الحاد الطباع بشيءٍ من ذلك فقال له يسوع بكل تؤدة : « هو الذي اغمس لقمةً واناوله » وكانوا ولا ريب قد انتهوا في ذلك الحين من وليمتهم الى الوقت الذي يأخذ فيه رب العائلة بعض الاعشاب المرة و يضعها في الخبز الفطير

فيغمسها في الصحفة ويوزعها بالتناوب على المدعوّين . فاللقمة المقدّرة قُدِّمت ليهوذا الاسخريوطي بن سمعان واذ راى يوحنا ان المعلم لم يشاء ان يفوهَ باسم المجرم فكر في نفسه انه من المقضيّ عليه ان يكتم ذلك أجل ان قلبه انسحق بذلك التصريح المرعب ولكنه طوى ذلك تحت ستار الكآبة وبقي بطرس متحيرًا شأنه من قبل

ولكن لم يكن الامر كذلك مع يهوذا الاسخريوطي الذي كان قريبًا جدًّا من يسوع بحيث كان يستطيع ان يتناول من يده قطعة من الخبز المغموس. ويتبع بعينيه كل حركات المعلم فلا بدَّ من انه يكون قد سمع جوابه على سوال يوحنا . ولعمري انه كان اقل اهتمامًا من الآخرين لابداء شكوكه او لاظهار دهشته اوكان يرقب كل شيء بعينيه واذنيه . ولما علم بانحسار اللثام عن دخيلته لم يبقَ له الاَّ ان يخرَّ ساجدًا قدام المعلم او ان يفرَّ هاربًا . وان قطعة الخبز التي تناولها كانت تدل على ان كل شركة بينه و بين يسوع لم تفسخ بعد وان الصفح كان لا يزال مستطاعًا ولكن كان يقتضى لنيل ذلك قوةٌ عظمى ونفس كريمة واما التاعس الحظ فلم يكن متصفًا بسوى اخلاق فاسدة . فاصمَّ اذنيه عن سماع نداء ضميره وانتهى به ما بذله للتصدّي لالهامات النعمة الى فتح قلبه لتأثيرات الشرّ الاخيرة . ومن المرجح ان هذا الامر جعل القديس يوحنا يقول انه بعد تناوله اللقمة دخل فيه الشيطان . وقد ظهر اضطراب نفسه للعيان فصارت هيئته مدعاةً الى المقت واذ لم يعد يسوع قادرًا على ضبط حنقه قذفه بغتةً بهذه الكلمة التي كانت تتمة محاورة صامتة تجري منذ حين بين الضحية والقاتل : « ما انت صانعه فاصنعه عاجلاً » ولما لم يكن للآخرين سابق معرفة بما قد جرى قبلاً لم يفهموا معنى هذه العبارة . فظنَّ التلاميذ ان المعلم يأمر وكيل نفقة الرسل ان يشتري ما كان ضروريًا للعيد وان يوزّع على الفقراء الصدقات كمألوف عادته . اما يهوذا فقد زال اغتراره اذ احس بهبوب العاصفة

ولما لم يعد يتمكن من احتمال تلك النظرة التي كانت تخرق فؤاده تهيأ للخروج. فاتخذ حينئذ يسوع لهجة عظيمة ونبوية فقال: « وابن البشر ماض كما هو مكتوب عنه لكن الويل لذلك الرجل الذي يسلم ابن البشر قد كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد » وفي الوقت عينه نهض يهوذا وصدع حجاب الكتمان بجرأة وخاطب يسوع قائلاً: « لعلي انا هو يامعلم » فقال له يسوع: « انت قلت » وفي اثناء الرعب والصمت اللذين يعقبان انقضاض الصاعقة خرج الخائن قبل ان تهب زعازع الغضب في قلوب ذوي الطباع الحادة منهم. وكان الوقت ليلاً. فكلمة القديس يوحنا البسيطة هذه تنهي ذلك المشهد المخيف. فالظلمة المحزنة والباردة قد حلت في النفس حلولها في اسوار المدينة.

فخروج يهوذا كان راحة للمعلم لانه ابقى لديه اصدقاءه فقط وكشف لهم منذ ذاك الحين مكنونات قلبه. اذا لم يكن شيء اشد تأثيرًا من وصية الانسان الذي اوشك ان يموت فينبغي ان يقال لم يكن شيء اقدس من وداع يسوع العظيم. وكما ان العامل يتوقع عند نهاية النهار نتيجة تعبه كذلك المعلم القى نظرة على مجموع حياته عند نهاية خدمته واقتداء بالآب الذي سرَّ بعمله عند مساء يوم الخليقة حقق هو بذاته بعد رسالته المتعبة والمقابلة بنكران الجميل انه كان دائمًا امينًا ولم يخز عزمه فقال: « الآن تمجد ابن البشر وتمجد الله فيه. فان كان الله قد تمجد فيه فالله يمجده في ذاته وسريعًا يمجده » فالحياة المملوءة فضائل هي الذ ترنيمة يستطيع الانسان ان يترنم بها لمجد الله. وان حياة يسوع بقداستها ومحبتها وتضحيتها لم تكن سوى مديح دائم مرفوع للآب. ولقاء ذلك تحرى الآب المغبوط ابداء شكره للصنيع وتمجيده على الارض وفي السماء. وان ما كان يراه يسوع بنوع جلي عن مكافآته السماوية وفعله القطعي بالعالم حينما يصير على الصليب صار تعزية نفسه في ابان تألمه

فظهر انه كان يعلل نفسه حينًا من الدهر بتلك العاطفة العذبة ولكنه كان

فكرًا مرًا من فجاءة بخاطره فصار كلامه مرطبًا بالحنان والانفعال فانه قابل الموت وجهًا لوجه ولذلك قال : « يا اولادي انا معكم زمانًا قليلاً وستطلبونني وكما قلت لليهود حيث اذهب انا لاتقدرون انتم ان تأتوا كذلك اقول لكم الآن » فيالها من جودة مدهشة انه يهتم بالحسرات التي يشعر بها اولاده حينما يطلبونه ولا يجدونه . وهو يساعد ولا شك اولئك الذين يطلبون باسمه وبتعليمه قوته ونعمته ولا ينقطع عن المقام معهم . وان السر الذي سيرتبه بعد قليل من شانه ان يبقيه معهم جوهريًا حتى منتهى الاجيال . ولكن لا شيء من ذلك يمثل يسوع منظورا محسوسًا وشاملا بنظره قطيعه الصغير ومنعشًا اياه بمحبته ومحرضًا اياه بمثله وسائرا امامه كالزعيم الآمر والاب المحامي . وكان قد قضي على الرسل ان يقوموا باود ذواتهم ويلقوا في اعماق قلوبهم قوة شديدة تضمن للكنيسة الحياة والنموّ التامّ . وهو الآن يجدّد هذه القوة ويخصصها بعد نعمته تعالى فيقول : « اني اعطيكم وصية جديدة ان يحبّ بعضكم بعضًا وان يكون حب بعضكم لبعضٍ كما احببتكم انا . وبهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضًا » انه لا يوجد اغرب من هذه في تاريخ الانسانية وهو تأسيس جمعية على المحبة كعلامة يمتاز بها اعضاؤها وكواسطة عظمى لنجاحها والدفاع عنها . ومع ذلك هذا هو الامر الذي اصدره يسوع . ففي مدة حياته في الكنيسة كان هو الرابطة الحية المنظورة الفعالة وحين لا يعود موجودا ثمت بنوع منظور يقتضي ان يقوم مقامه عاطفة قوية كريمة وهذه العاطفة التي بقيت بينة على ذاته ليست سوى المحبة . وفي الواقع ان شريعة المحبة هذه صارت قوة عجيبة انمت الكنيسة الحديثة النشأة . وبموجب رواية مينوسيوس فيلكس اندهلت الوثنية من مرأى اولئك الرجال الذين كانوا يتوادون قبل ان يتعرفوا الى بعضهم وبعد ان رصدت حركاتهم وسكناتهم صارت من شدة اندهالها مسيحية اقتداءً بهم

فبطرس الذي لم يكن قلبه مشغولاً بالقيام مقام المعلم المتغيب ولكن في ايجاد

الوسائل ليمنعه عن المضي لم يقف عند تلك الوصية السامية بل قال: «الى اين تذهب يارب» فاخلاصه لم يكن يقف امام الموانع القوية التي تصده عن اقتفاء اثره اينما سار فاجابه يسوع : « حيث اذهب انا لا اقدر ان تتبعني لكنك ستتبعني بعد حين » ففي شدة تحمسه فات بطرس انه كان من المفروض عليه ان يتولى دوراً الهياً بين اخوته قبل الانطلاق لموافاة السيد ٠ وفضلاً عن ذلك لو كان قد كشف له عن اسرار النعمة لكان عرف انه قبل ان يموت عن المعلم كان ينبغي له ان ينتظر ان يموت المعلم عن الجميع فقال له يسوع : «سمعان سمعان هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة ٠ لكنني صليت من اجلك لئلا ينقص ايمانك وانت متى رجعت فثبت اخوتك » فسقياً لسمعان لانه كان يجد بازاء قوة الشيطان فعل المخلص الشديد العذوبة والعظيم القوة ٠ فالله يستطيع ان يسلم للفعل الشيطاني الرسل الذين كانوا لا يزالون ضعفاء في الايمان ٠ اما يسوع فقد صلى لاجلهم ومهما كان سقوطهم مجلبة للعار فانه لا يبقى طويلاً ٠ وبطرس الذي اتى في نكرانه بما يدل على جبانة لم يظهرها سواه من الرسل سيفوز بتوبة شريفة وثابتة ٠ وايمانه الذي اعتراه موقتاً شيء من الوهن الادبي لم يعد يعتري بدره في المستقبل خسوف ابداً لكنه سيقوّي ايمان اخوته الذي لم يعرّض للتجربة نظير ايمانه

وقال لهم يسوع : « كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة لانه مكتوب اضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية ٠ ولكن متى قمت اسبقكم الى الجليل» خاطبهم بهذا الكلام لانه عرف ان ما يسلم اليه من الاهانات سوف يكون سبباً للشكوك التي تعرض للهوان امانة ذويه ولذلك بادر المعلم الى استدعاء شعاع النور قبالة الظلمة فكانه يبشر بقيامته ومقامه في الجليل غد الآلام والجلجلة بيد ان بطرس لم يسمع شيئاً من كل ذلك فاجابه قائلاً : « لو شكَّ فيك جميعهم لا اشك انا ٠ يارب انا مستعد ان امضي معك الى السجن والى الموت » فقال له يسوع بتهكم ظاهر في رواية القديس يوحنا : « أأنت تبذل نفسك عني ٠ الحق الحق اقول لك انه

لا يصيح الديك مرتين حتى تنكرني ثلاث مرات » فكان الاقدمون يعرفون وقتين لصياح الديك الاول بعد نصف الليل والثاني عند تبلج الصباح فعليه في بضع ساعات قبل انبثاق الفجر يكون بطرس ذلك الرجل العزوم والصديق الشجاع والتلميذ الشهم والامين قد انكر سيده بدناءة . ويكتفي الاخرون بالفرار اما هو فيمكث ولكن ليس للقتال كما وعد بذلك بل ليلاقي السلاح امام خادمة . ليس ليدافع عن يسوع ولكن ليحتج انه لا يعرفه . فالمدّعي المسكين صاح بقوة زائدة : « لو اكرهت على الموت معك لما انكرتك » وهكذا قال جميعهم . فلم يزد المعلم شيئاً على مقاله لانه كان يقصد ان يحطم تلك الكبرياء المبنية على الجهل في سقوط مخزٍ لكي يعلم بالاختبار المؤلم ذلك الذي كان مزمعاً ان يتولى شؤون كنيسته . فالانسان قبل ان يصير راعياً للانفس يستفيد من مرارة التجربة . فبتحسراته الشخصية يشتري المعرفة والشجاعة والشفقة على ضعف الاخرين

وكانت العاصفة تزداد هبوباً فوق ما كانوا يتوهمون فقال لهم يسوع : « لما ارسلتكم بلا هميان ولا مزود ولا حذاء فهل اعوزكم شيء » قالوا « لا » والحق يقال ان ذلك الحين كان حين الرسالة الجميل اذ استقبلهم في طريقهم عدد عديد من اصدقائهم لان شهرة المعلم كانت تعضدهم ولذلك لم يجسر احد ان يلحق بهم ضرراً ولكن سيعقب تلك الايام السعيدة ساعات خطرة للغاية ثم قال لهم يسوع : « اما الآن فمن له كيس فليأخذه وكذلك من له مزود ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترِ سيفاً . اني اقول لكم ينبغي ان يتم فيَّ ايضاً هذا المكتوب « اشعيا ف ٥٣ عدد ١٢ » ان قد احصي مع العصاة لأن ما يختصُّ بي اخذٌ في التمام » فاللعنة التي قُذِف بها المعلم ستتناول تلاميذه ويصير اعداؤه الدّ خصومهم .

والتلاميذ اتخذوا معنى وصية يسوع الحرفي ودار في خاطرهم انه قصد بقوله هذا ان يتسلحوا بالاسلحة القاتلة على انه لم يكن يريد بذلك الا التسلح بالقوة الادبية . وبكل سذاجة قالوا له ان عندهم سيفين لخدمته فقال لهم « يكفي »

وكان في ذلك الحين صارفاً همه الى امر آخر مهم ·

§

ترتيب سرّ الافخارستيا المقدّس

ولئن كانت محبة الله للبشر عميقة جداً حتى يتعذر ادراك غورها فقد يخالج افئدة القوم انه بعد الصليب لم يعد شيء مستطاعاً للجود الالهي بيد ان يسوع كان يفكر في تحقيق امر يفوق مدارك البشر واحلامهم الا وهو ترتيب سر الافخارستيا المقدس · ولما كان يرى في بذل نفسه مرة واحدة فدية عن الجميع امراً تافهاً لابداء حنانه عقد النية على بذل نفسه عن الجميع بنوع دائم وان يخصص ذاته قوتاً حقيقياً للانسانية المتضورة جوعاً · ويمكن ان يكرر عن الشركة الافخارستية القول الذي كتب عن التجسد : « ان الله مهما كان حكيماً وقوياً وغنياً لا يستطيع ان يسنح في ضميره ان يرتب او يعطي شيئاً من الاشياء اغرب من هذا السرّ »

وكانوا قد اوشكوا ان يفرغوا من الاكل ومن المحتمل ان يكونوا قد سكبوا الكأس الاخيرة التي كان يجب ان تختتم بها الوليمة · فمنهم من كان لم يزل على الطعام ومنهم من كان قد فرغ منه وكانوا جميعاً يتأملون في المعلم الذي كانت كآبته المقرونة بالصبر تزيد هيبته بهاء · فصمت وبينما هو كذلك اتقدت عيناه بغتة وكانت تلوح على وجهه عظمة تفوق التي كانت تنجلي عليه حينما كان يأمر الامواج في بحر الجليل والموت امام قبر لعازر · فتناول خبزاً فطيراً عن المائدة ورفع عينيه الى السماء فشكر وبارك ومن شدة المحبة ومعرفة الجميل للمعجزة التي كان موشكاً ان يصنعها ارتفعت نفسه الى الله ثم نزلت على ذلك الخبز الذي كان مزمعاً ان يتحول جوهرياً فبحركة شديدة هيأته للكلمة السرية التي كانت معدة لابدال جوهر بجوهر اخر فقال بصوت جهير « هذا هو جسدي الذي يبذل لاجلكم ثم اخذ كأس الخمر التي كان يجب بحسب الطقس الفصحي ان تكون

كأس الشكر وبفعل قدرته العظيمة حول ما فيها بقوله :« اشربوا من هذه كلكم لان هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يهرق عن كثيرين لمغفرة الخطايا »

والكنيسة الكاثوليكية قد فهمت دائماً ان الخبز في تلك الدقيقة لم يبق خبزاً بل تحوّل الى جسد يسوع والخمر تحوّل الى دمه . وان كليهما المتحدين ضرورةً بنفسه والوهيته لبثا ولا شك محتجبين تحت اعراض الجوهر الذي قاما مقامه . والاعجوبة الغريبة لم يخرجها عن حدّ الحقيقة كونها مغشّاة بستار تقوي ومحقق بل يجب ان تكون غرابتها ولا محالة برهاناً على حقيقتها لانه لا يمكن التصديق ان الرسل لم يبحثوا كما بحث كثيرون بعدهم في ان ينسبوا معنى مجازياً لكلام المعلم . واذا كانوا قد فسروا الكلام المذكور تفسيراً حرفياً وفرضوا على الجيل المسيحي الاول ان يعتقد بالوجود الحقيقي كما نعتقد نحن الآن فما ذلك الا بعد ان سألوا يسوع جلية هذا الامر وسمعوا من فم يسوع ذاته تصريحات جديدة قطعية بهذا الصدد . لانهم لم يكونوا اكثرمنا تقاعداً عن تصديق اعمى وكانوا يعترضون نظيرنا . وان شهادة التقليد الاصلي يلزم ان يكون لها اهمية جازمة حينما تقتضي الحال المناظرة واقامة البرهان على حقيقة وكيفية الوجود الحقيقي — فالبروتستانتية خرجت عن الكنيسة بنفيها ذلك وانكرت جهة من اعمق الجهات الالهية في ديانة يسوع المسيح . وفي الواقع يوجد شيء آخر اعجب من معجزة استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه وذلك هو فكر الاستحالة ذاته الذي خطر على بال يسوع بهذا الشان . وحين تأمل في موته القريب برباطة جأش اعتبر ذاته كانه على خشبة الصليب وقد بذل نفسه فدية عن الخطية وخلاصاً للانسانية لكي يؤكل في ذلك الفعل الذي هو اعظم شيء في حياته واعظم كفارة فعليه قدم ذاته مرتضياً بان يحوّل جسدهُ المهشم وان ينقل دمهُ المبذول الى الخاطىء الذي يبتغي التبرير . لا يوجد سوى بارّ واحد وهو هو . وكفيل واحد لنا عند الآب وهو هو . وشفيع واحد أهل بان يستجاب طلبه وهو هو . ومن ثم

يجب ان يؤكل . واذا كان من شيء الهي فهذا هو ولذلك نرى امام مظاهر تلك المحبة والحكمة المدهشتين حقارة المصاعب التي تقيمها فلسفة لا تستطيع الاتفاق على تحديد كلمات الجوهر والمادة والاعراض والفسحة التي تروم ان تبني عليها اعتراضاتها . فبساطة الكلام الالهي التي لا يمكن مقاومتها وهي: هذا هو جسدي . هذا هو دمي . ستنتصر على كل المقاومين . وهي غنية عن كل شرح تفهمت كل ما تعني ولا تعني شيئاً آخر سوى ما تفهمته

ان تقديس الكأس كان التتمة الرمزية لتقديس الخبز . وحينما اراد يسوع ان يبذل نفسه عن الاجيال المستقبلة اراد ان يخلد تقدمته على الجلجلة . وان الجوهر المزدوج الذي كان موشكاً ان يكون الغذاء الروحي المعروض على تلاميذه كان يجب ان يذكّر بانفصال الجسد والدم بالموت . فالكنيسة الكاثوليكية وحدها ادركت عمق فكر المعلم كله باثباتها ان الافخارستيا تخلد مدى الازمان ذبيحة الصليب . فان قلنا انها ليست سوى تمثيلها فذلك غير كافٍ وان قلنا انما هي تجديدها المحض كان ذلك زائداً عن الحقيقة لانه لا يمكن ان يكون شيء دموي حيث تكون الضحية السرية الممجدة بالموت ولا يمكن بعدئذٍ جرحها ولا تاليمها ولكن يجب ان يُعلم ان سرّ الافخارستيا هو انتشار ذبيحة الصليب انتشاراً سلمياً مملوءاً حناناً . فالشعاع المنير لا يخفي الكوكب الذي يبعثه ولكن يفترضه مبدأً وسبباً . فبإعلان حقيقة الذبيحة الافخارستية لا ننكر فضل ذبيحة الصليب التكفيري لاننا نثبت مع الرسول ان يسوع المسيح لم يبذل نفسه الأمرة واحدة عن خطايا الجميع وانه بتقدمة واحدة قدس المختارين ابداً (عبرانيون ف ١٠ : عد ١٠—١٤) بل نقول فقط ان الاستحقاقات المذكورة قد خصصت بنا بذبيحة المذبح لان استحقاقات هذه الكفارة الجلجلية التامة والوحيدة التي بها تمّ كل شيء قد صرّح بها يسوع انه لا ينقصها شيء . فالفكر اللاهوتي الجليل الذي يجول في خاطر النصرانية هو ان يسوع المسيح يؤبّد حياته في وسط

البشرية بقوته الحقيقية والشخصية في الكنيسة · فهو وحده فيها وبها لا يزال معلماً · وهو وحده يبارك ويقدس ويحلّ او يشجب كما كان يفعل في اثناء حياته الزائلة · وهو وحده يصعد الى المذبح كما صعد الى الجلجلة ليقدم ذبيحة التكفير والشكر او الاستعطاف لانه اذا كان وجد تعاقب في الحبرية حتى ايامه بعد ان كان الموت يخلعهم الواحد بعد الآخر فقد دشّن هو باحتفالِ الكهنوت الجديد الوحيد الابدي الذي لا يمكن ان ينقطع عن الوجود

اي شيء يحول دون التصديق ان هذا الوسيط الحيّ الذي لا يعتريهِ نَصَب يسرّ بان يشفع فينا تحت رمزٍ يذكّرنا توسّط الصليب العظيم والبات · انه لم يعد في الامكان ان يموت عنا ولكن يمكنهُ ان يظهر كذلك وهذا هو معنى هذه القسمة التي تحدث بكلام الكاهن كانها بمدية تضع الجسد الى هذه الجهة والدم الى الجهة الاخرى الواحد منسحقاً والآخر مسفوكاً لاجلنا فهكذا يستمر الذبح تحت هيئة سرية وليس تحت هيئة دموية بحقيقةٍ تضطرّنا الى ان نعترف انّ في الافخارستيا تجديداً او بالاحرى انتشاراً وتطبيقاً دائماً لذبيحة الصليب · والفعل عينه الذي به يخضع يسوع المجد في السماء لحالة سرية تذكّرنا بالصليب هو قوام جوهر الذبيحة الافخارستية · والحقّ يقال انه يلقى على المذبح شيئاً يمثل حالته المحتقرة على الجلجلة فيصير ضحية ليس ليكتسب لنا حق الغفران الذي اكتسبه لنا منذ عهد بعيد ولكن لكي يسهل لنا الشركة بهذا الغفران باستمراره على التشفع لاجلنا ويبذله نفسه عنا كعربونٍ وواسطة لمصالحة انفسنا المشتاقة الى الله

وبذلك تمت نبوة ملاخيا (١ : ١٠—١١) القائل انه لما كانت قد الغيت منذ ذلك الحين كل الذبائح الموسوية وكان اسم يهوه لا يزال ممجداً في الشرق والغرب تمجيداً خاصاً ستذبح في كل مكان ذبيحة بغير عيب وتقدم اكراماً له · وهذه الذبيحة تذكرنا ايضاً بتقدمة ملكيصادق الذي كان مثال الرب كما يذكر

ذلك القديس بولس عند تفسيره آية من المزامير فالخبز والخمر هما هنا كعنصري الذبيحة التي يمتاز بها الكهنوت الخاص الذي لملك سالم وفي آخر الامر قام مقام ذبح الحمل الفصحي وختم باحتفال ميثاق العهد الجديد

وهذا الامر كانت تدلّ عليه كلمة المعلم حينما قدّم الكأس فقال: «هذه هي الكأس العهد الجديد بدمي الذي يسفك من اجلكم» ثم امرهم امرا تقارنه قوة ممنوحة فقال: «اصنعوا هذا لذكري» لحفظ الرسل هذه الوصية الثمينة واننا نراهم تارةً يقدمون بذواتهم الذبيحة الافخارستية (اعمال ١٣ : ٢) طوراً يقابلون بين مائدة المسيحيين ومذبحهم وبين مائدة الوثنيين ومذبحهم (كورونثوس ١٠ : ١٨) اي بين ذبيحة هؤلاء وذبيحة اولئك . ولما كتب القديس بولس الى العبرانيين مثبتاً ان الكنيسة تقيم مذبحها حيث تقدّم الذبيحة دون ان يتمكن اليهود خدام شريعتهم المنسوخة من مشاركتها (عبرانيون ١٣ : ١٧) فالمؤمنون يعترفون بصوت حيّ ان لهم كهنة واحباراً . وكيف يفهم (حسب كلام آخر للقديس بولس عبرانيون ٨) وجود احبار بلا ذبيحة . والحق يقال ان المذابح المشار اليها هي بمثابة مائدة وذلك هو برهان كافٍ على انه لا بدّ من وجود ضحية تقدم عليها

ولما انكرت البروتستانتية حقيقة الذبيحة الافخارستية شرعت تصرّح بان كل اباء الكنيسة قد انخدعوا . وكلّ يعلم ماذا ينبغي ان نستنتج من مثل هذا الاقرار وهنا يمكن ان تذكر كلمة القديس ايرونيموس للشماس لوسيفير: «لا افخارستيا بلا كاهن ولا كنيسة بلا افخارستيا» اجل لقد تمّ اعظم حادث في تلك الليلة وقد جرى ببساطة تزيده عظمة فالسيد لم يسمح ان تنظر المهوبته في حياته عن قرب مثل ذلك الحين

§

خطبة الوداع

فبينما كان الرسل يشعرون بالعواطف اللذيذة الناجمة عن اتحادهم بالله كانوا في حالة الانخطاف التي تعتري البشر الذين يصيبون سعادةً جديدةً في حياةٍ جديدة· وكان يسوع يعلم حسناً ان ذلك السكون لم يكن طويل الاجل فكان خاطره معلقاً على الحوادث التي ستجري في الساعة المقبلة ولذلك قال : «لا تضطرب قلوبكم انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي ايضاً· ان في بيت ابي منازل كثيرة والأ لقلتُ لكم اني منطلقٌ لاعدَّ لكم مكاناً · واذا انطلقتُ واعددت لكم مكاناً آتي وآخذكم اليَّ لتكونوا انتم حيث اكون انا» ان الافتكار بالسماء في ابان التجربة هو افضل معزٍ· فالانسان يقاتل من كل قلبه يوماً واحداً لينال الراحة في الانتصار الدائم · وكان يتكلم يسوع بكل مسرة عن بيت ابيه كما يتكلمون عن قصر فسيح حيث يوجد غرفة لكل ابن من ابناء الملك مهما كانت اسرة الملك كبيرة· فالسماء ليست فقط حالة سعيدة فهي ايضاً مكانٌ وما هو هذا المكان فالجواب عن هذا السؤال لم يعطَ للفضول البشري· واما الامر الحقيقي فهو ان كلَّ مكانٍ يسرُّ الله ان يتراءى بهِ بنوعٍ عياني ومحبة كاملة وملك تامّ يجب ان يسمى السماء· وقد راق يسوع ان يشعر تلاميذه انه لو لم تكن السماء موجودة لما تكلم معهم عن العروش التي تنظرهم فيها والتي سيعدُّها لهم · وهذا الاعداد متوقفٌ على موتهِ التكفيري الذي يقسر العدل الالهي على ان يفتح السماوات في وجه البشرية التي اعيدت اليها حقوقها وعلى الفوز الابدي الذي فاز بهِ زعيم هذه البشرية· انه لا يكفي المعلم ان يعدَّ المكان فانه يأتي بذاتهِ ليطلب ذويه قصد ان يدخلهم الى الوطن المفتتح · وهنا لا يراد بهذا الكلام مجيئهُ الاحتفالي في آخر الازمان فان وعده يتضمن شيئاً اقرب حدوثاً من ذلك ويحقق لنا انه عند ساعتنا الاخيرة نقدر

ان نرى صورة يسوع الجميلة آتية لتأخذنا بيدنا وتقودنا الى ابيه · ثم قال لهم: « انتم عارفون الى اين اذهب وتعرفون الطريق » فتكلم توما عن الجميع قائلاً: «يارب لسنا نعرف الى اين تذهب وكيف نعرف الطريق» فاجاب يسوع بسلطة وعظمة عجيبتين: « انا الطريق والحق والحياة لا يأتي احدٌ الى الآب الأ بي» فهو الطريق لانه يصل السماء بالارض وانه لا يستطاع العبور بتلك الوحدة التي تفرّق بين هذين الطرفين الأ بالاجتياز على هذا الجسر الذي هو عملٌ عجيب من اعمال الحكمة والرأفة الالهيتين · فالدخول الى الطريق ان هو الا الدخول يسوع المسيح ذاته بالايمان والمحبة والاعمال وبما انه هو الطريق فهو ايضاً الحق الذي يجب ان يكون لنا بمقارنتنا له وبناء عليه ان هذا الحق كما هو معطى لنا هو ايضاً حياة معدة لانعاش النفس التي تقبلها بنوع ان هذه الكلمات الثلاث: طريق وحق وحياة تستلزم الواحدة منها الاخرى وان يسوع المخلص الحقيقي هو وحده التحقيق الكامل والسرّي لكلٍ منها وقد قال: لو كنتم تعرفوني لعرفتم ابي ايضاً » والحق يقال ان الابن ليس سوى انبساط الآب ومن ثمَّ الطريق المستقيم المؤدي اليه · فاذا كان النظر الى يسوع هو النظر الى تشعع الآب فالتعلق به هو الوصول الى الاب وامتلاكه وبناء عليه فهو ليس فقط الطريق المؤدي الى الآب ولكنه مقدس الآب ومرآته وصورته الواضحة «ومن الان تعرفونه وقد رأيتموه »

ففيلبس الذي لم يحسن فهم البرهان تكلم مقترحاً على يسوع ببساطة ان يجز ذلك بظهور عجيب يكون ملائماً لرغبة الجميع فقال: « يارب أرِنا الآب وحسبنا » فالتلميذ الذي لم يتعمق في التأمل كان يرى الله في قوته العظيمة وليس في حقيقته وجودته ولم يكن يسنح في باله اصلاً انه يجب ان يعلن ذاته للبشر بوجود بشري وان التجسد قد أيّد بالحقيقة هذه الغاية · وهذا الاله قد جعل حقيقته تتكلم بفم يسوع · وبنفسه قد ابدى قداسته وباعماله قد برهن

عن جودته . ولا يجب ان نرغب في رؤية الآب بجانب يسوع ولكن يسوع . وان الابن قد صار انساناً ليصير الآب منظوراً من البشرية جمعاء . أليس من العجب ان تطلب البشرية بفم فيلبس ان ترى الاب ثم قال يسوع : « انا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفوني . يا فيلبس من رآني فقد راى الآب فكيف تقول انت ارنا الاب . اما تؤمن اني انا في الآب . وان الآب فيّ . الكلام الذي اكلمكم به لا اتكلم به من عندي بل الآب الذي هو مقيم فيّ هو يعمل الاعمال »

ففي الانجيل كله لا تلقى صفحة يثبت فيها يسوع الوهيته بنوع واضح وغير قابل المجادلة اكثر من هذا الموضع . ثم اردف كلامه قائلاً : « آمنوا اني انا في الآب وان الآب فيّ والاّ فآمنوا من اجل الاعمال عينها . الحق الحق اقول لكم ان من يؤمن بي يعمل الاعمال التي انا اعملها ويعمل اعظم منها لاني ماضٍ الى ابي . فكلّ ما تسألون الآب باسمي فانا افعله ليتمجد الآب في الابن . وان سألتم شيئاً باسمي فاني افعله » ولا يخفى ان الرسل والمؤمنين في الاجيال التالية تجدوا بتحقيق اعمال خلاصية تفوق الاعمال التي فعلها يسوع ذاته . وان حياة السيد كلها ومعجزاته واقواله لم يكن لها سوى غاية واحدة وهي تغيير البشرية الديني . ومعلوم ان الغاية تكون دائماً اعظم من الواسطة . فتأسيس الكنيسة كان مزمعاً ان يصير حادثاً اهم من جميع الحوادث التي تقدمته . وحيث انه لم يتحقق الا بعد موت المخلّص حينما ارتفع عن الارض وجذب كل احد اليه وهذا ما يفرض على الرسل عمله . الا انهم لم يصنعوا معجزاتهم الا بعد ان يطلبوها باسم المعلم . وحين كان الآب يسمع بصلاتهم صوت ابنه كان يشير الى ذلك الابن ان يحقق رغبتهم . فالرسل هم القني التي تجري فيها مياه الخصب ولكن يسوع هو الينبوع المنفجرة منه وان قوة رسالتهم تتعلق بارتباط القني بالينبوع

ومن هذا الارتباط يتصل بهم غوث البارقليط الحامي والمعزّي كمبدأ حياة للكنيسة الحديثة النشأة . فالمسيح قال لهم : ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي . —

كان قبلاً ينوّه بذكر ارتباط العقل بالايمان والآن ينوّه بذكر ارتباط الارادة بالاعمال « وانا اسأل الآب فيعطيكم معزّياً آخر ليقيم معكم الى الابد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم ان يقبله لانه لم يرَه ولم يعرفه اما انتم فتعرفونه لانه مقيمٌ عندكم ويكون فيكم » ان روح الله لا تأتي الا للانفس التي تشتاق اليها

وعليه فالعالم ليس له حق ان ينتظرها واما الرسل فبعكس ذلك لانهم يتأملونها في يسوع منذ ثلاث سنوات ويرمقونها بانظارهم ويتعجبون من اعمالها الالهية ولذلك لم يبقَ عليهم الا ان يحافظوا على ارتباطهم بالمعلم. ومكافأةً لامانتهم تأتيهم تلك الروح كمحام قدير يتكلم عنهم في الدعوى الكبيرة المقامة على الوثنية وكمعزٍّ ينشف دموعهم ويضمد جراحهم ويشجعهم وفي الوقت ذاته يجري توًّا فعلها المنعش على العالم الذي زعزعته الكرازة بالحق. وكما انه جعل يسوع يولد من احشاء مريم فكذلك جعله ان يولد ايضاً ولكن بنوع آخر في البشرية المتغيرة. وحينما شعر يسوع بعاطفة الحنان المتزايدة فيه تحرك وقال: «لا ادعكم يتامى اني آتي اليكم بعد قليل لا يراني العالم اما انتم فترونني لاني حيٌّ وانتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون اني انا في ابي وانتم فيَّ وانا فيكم » فبذلك التصريح الروحي الذي ابرزه يسوع من اعماق قلبه. يرى الرسل ان النور يزداد كمالاً كلما ازدادت فضيلتهم قوةً: « من كانت عنده وصاياي وحفظها فهو الذي يحبني والذي يحبه ابي وانا احبهُ واظهر له ذاتي » فهذه هي المظاهرة الالهية الوحيدة التي ينبغي للرسل ان يتوقعوها

واما بعض الرسل فلم يسهل اقناعهم لانهم كانوا يتوقعون حدوث امرٍ حسيٍّ. فهل تغيرت الخطة المسيحية ؟ وحينئذٍ قال له يهوذا تدَّاوس او لبَّاوس: « يا رب كيف انت مزمع ان تظهر لنا ذاتك ولا تظهرها للعالم » فجواباً على ذلك كرَّر له يسوع ما كان قد قاله قبلاً ولكن باكثر ايضاح: « ان احبني احدٌ يحفظ كلمتي وابي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا » فالسماء برمتها تنزل

الى نفس المؤمن لكي تتم فيها الارتباط الفائق الوصف اكثر من سواه : « من لا يحبني لا يحفظ كلامي والكلمة التي تسمعونها هي ليست لي بل للآب الذي ارسلني » وهذا هو اثم العالم فانه اذ لم يصغ لكلماته يحتقر سلطة الله ذاته الذي يمليها عليه . ولهذا السبب لا يظهر الله له . واذا كان الرسل لا يفهمون هذا الكلام فالاختبار سيعلمهم واستاذ اخر سيفتح اذهانهم

« كلمتكم بهذا وانا مقيمٌ عندكم . واما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الاب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم » وبعد وقفةٍ اقتضتها ولاءمها احدى رتب الوليمة النهائية استأنف يسوع الكلام قائلاً : « السلام استودعكم سلامي اعطيكم انا » فبعكس سلام العالم نرى ان سلام يسوع المسيح يسير من الداخل الى الخارج ولذلك يلقي السكينة الحقيقية في النفس ذاتها الاكثر اضطراباً والاكثر شقاء وفي الحين الذي يتكلم فيه اليس هو ذاته البرهان على ذلك : « لا تضطرب قلوبكم ولا تجزع . قد سمعتم اني قلتُ لكم اني ذاهب ثمَّ آتي اليكم فلو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون باني ماضٍ الى الآب لان الآب هو اعظم مني » ان يسوع يتكلم هنا بحسب كونه انساناً لانه يجني المكافأة الابوية بعد الموت وان الطريق التي يسير عليها الى ابيه هي مؤلمة جدًّا ومع ذلك يدعو خاصته الى ان يتهللوا بانطلاقه . ومن ثم يجب الا يعتبر موت البارّ شرًّا ولكن طريقاً لاعادة الحقوق وللظفر . ثم اردف يسوع كلامه قائلاً : « والان قلتُ لكم قبل ان يكون حتى اذا كان تؤمنون . لا اكلمكم ايضاً كلاماً كثيرًا لان رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء لكن ليعلم العالم اني احبُّ الآب واني كما اوصاني الآب هكذا افعل . قوموا ننطلق من ههنا »

فنهض الرسل اجابةً لدعوة المعلم لكنهم لم يظهروا التسرُّع الى مغادرة ردهة الوليمة لان الخوف والمحبة والشك جعلتهم بدون حراك حتى ان يسوع نفسه اسف لانقطاع اسباب مثل تلك المحادثة . وحينما ابصرهم واقفين حوله صامتين

خطر له ان يلقي اليهم بوصية اخيرة متذكرًا الاسرار الافخارستية التي رتبها كعلامة للارتباط معهم وما يبذلهُ العدوُّ من الجهد لحل الروابط التي اراد تمكينها. فدمه المقدَّم تحت اعراض الخمر لكي ينقل حياته الى اوردة البشرية ذكرهُ بالمهمة التي عينها الله له في الهيئة الاجتماعية الجديدة. ومن المحتمل انه يكون قد اتخذ صورته من جفنة كرمة كانت اغصانها تغشي السطح الذي تطلُّ عليه العلية فقال: «انا الكرمة الحقيقية وابي الحارث. كلُّ غصنٍ فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه وكلُّ ما ياتي بثمرٍ ينقيه ليأتي بثمرٍ اكثر» ان المشابهة لا تتناول سوى الانفس الملقحة بالاتحاد بالمخلص وبتعليمه ولكنها متفاوتة بالتأهب لذلك. فمنها ما يعطي ثمرًا ويدل على ارتباطه بالجذع الالهي بايمانه الذي يظهر باعماله فهذه يُسَرُّ الآب بان يعتني بها بصرامةٍ ظاهرة لانه لا يخشى ان يخضعها للحديد القاتل لكي ينقيها ويشذبها ويقوّيها. وان التجارب المتنوعة تأتيهم ولا تزال تتوالى عليهم حتى ينفصلوا عن غرور هذه الحياة ولا يعملوا الا لمجده تعالى. ومنها ما يتصل بالجذع ولكن ايمانه العقيم ايمانٌ مائت فالآب الذي يراه يثقل منذ زمن طويل على الكرمة السرية بعدم فائدته يتركه ينفصل بالهرطقة والكفر والموت

ان الرسل اغصانٌ حيةٌ مفعمةٌ آمالاً ويسوع يشجعهم باعلانه لم ان الله قد شرع يفعل بهم فعل الكرامين فقال لم: «انتم الآن انقياء من اجل الكلام الذي كلمتكم به» فالكلام الالهي قد دخل انفسهم كمنجل قاطع لمحبة الذات وعدم الاكتراث وغيرها من الشهوات التي تشوّهها. وهذا العمل لم يتم بعد لان ذلك الكلام لا يزال يعمل في تلك الطبائع القوية الى ان تظهر يوم البنديكستي بثمارٍ مملوءةٍ غنىً ولذة. والان ليس لهم الاَّ ان يعتصموا بالجذع بايمانٍ حيٍّ. وان الايمان هو في الواقع اللقاح الذى يلقحهم بيسوع المسيح. فالمفصل هو الذي يربط العضو بالجسم ويؤدّي اليه الحياة وقال لهم المعلم: «اثبتوا فيَّ وانا فيكم. كما ان الغصن لا يستطيع ان يأتي بثمرٍ من عنده ان لم يثبت في الكرمة

كذلك انتم ايضاً ان لم تثبتوا فيَّ. انا الكرمة وانتم الاغصان من يثبت فيَّ وانا فيه فهو يأتي بثمرٍ كثير لانكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً » ومعلومٌ ان الشرط الاول لحياة الغصن وخصبه هو الاتحاد مع الكرمة وهذا ما يكون من امر الانسان في علاقاته مع العالم الفائق الطبيعة فهو لا يستطيع شيئاً اذا لم يكن ذا علاقةٍ دائمةٍ مع العصارة الحية الخارجة من يسوع ذلك الجذع الالهي المُعَدّ ان يحمل كل البشرية

ومع ذلك فالتأكيد البات عن ضرورة النعمة لا يستلزم نفي الحرية. وبجانب الصورة التي فيها نرى الاغصان المتصلة بالكرمة تأتي باثمار كثيرة عجيبة يضع يسوع صورةً نشاهد فيها الاغصان منفصلة عن الجذع الذي كان مقضياً عليه ان يعطيها الحياة : « ان كان احدٌ لا يثبت فيَّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف فيجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق » فالانسان متى انفصل عن يسوع انفصل عن نفس الكنيسة وحيث ان النعمة تبطل عن معاضدة حياته الروحية يجف بدلاً من ان يزداد إزهاراً وإثماراً فيضمه الموت بعد ذلك في فخه ويطرحه الشيطان في النار فيحترق

فيا له من فرقٍ بين هذا ونصيب المؤمن فيقول يسوع : « ان انتم ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم. بهذا يتمجد ابي ان تأتوا بثمرٍ كثيرٍ وان تكونوا لي تلاميذ. كما احبني الآب كذلك انا احببتكم. اثبتوا في محبتي. كما اني حفظتُ وصايا ابي وانا ثابتٌ في محبته. كلمتكم بهذا ليكون فرحي فيكم ويتم فرحكم » وكما انه قد اعطى سلامه منذ هنيهةٍ فانه يعد الآن بفرحه. فهو خاصته لانه يذوقه. وقد تبين بالاختبار ان اسعد النفوس هي تلك التي تبقى متحدة بالمخلص اكثر من سواها. فهي تلذ بالسعادة التي يمنحها يسوع بمجرد حضوره وبالمسرة التي تسببها لهُ بتعلقها وشجاعتها وكرمها. بنوع ان هذا الفرح يزداد كلما نمت فيها قوة محبة المخلص وتحقق محبتهِ لها

«هذه هي وصيتي ان يحب بعضكم بعضاً كما انا احببتكم » فكيف احبهم؟
انه يقول : « ليس لاحد حب اعظم من هذا ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه انتم احبائي ان صنعتم ما انا موصيكم به. لا اسميكم عبيداً بعد لان العبد لا يعلم ما يصنع سيده ولكني سميتكم احبائي لاني اعلمتكم بكل ما سمعت من ابي. ليس انتم اخترتموني بل انا اخترتكم واقمتكم لتنطلقوا وتأتوا باثمار وتدوم اثماركم لكي يعطيكم الآب كل ما تسألونه باسمي » وحينما يحب الواحد انساناً على هذا النمط يستطيع ان يظهر ذاته له كمثال للمحبة ثم استانف المعلم مقاله قائلاً : « بهذا اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً. ان كان العالم يبغضكم فاعلموا انه قد ابغضني قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحب ما هو له لكن لستم من العالم بل انا اخترتكم من العالم لاجل هذا يبغضكم العالم . اذكروا الكلام الذي قلته لكم ان ليس عبد اعظم من سيده. ان كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم وان كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم . وانما هم سيفعلون بكم هذا كله من اجل اسمي لانهم لم يعرفوا الذي ارسلني » أجل ان بغض العالم للتلاميذ اصله بغضه ليسوع المسيح وهذا البغض ذاته مسبب عن نكران الجميل نحوه تعالى . فكما ان الاثم الناجم عن احتقار الرسل هو كبير لاحتقارهم فيهم المعلم الذي يرسلهم كذلك الكفر بيسوع يزداد جرماً لانه يفضي الى الكفر بالله ذاته ويسوع يقول لهم « لو لم آت واكلمهم لم تكن لهم خطيئة واما الآن فليس لهم حجة في خطيئتهم. من يبغضني فانه يبغض ابي ايضاً . لو لم اعمل بينهم اعمالاً لم يعملها آخر لما كانت لهم خطيئة اما الآن فقد رأوا وابغضوني انا وابي . كان ذلك منهم لتتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم . انهم ابغضوني بلا سبب »

ومهما كان خبث العالم كبيراً فانه لاينال خصل السبق ففي وجه الثورة الكفرية يوجد شهادة عظيمة لاتدفع منتمية الى الايمان الذي يخزي الاشرار « ومتى جاء المعزي الذي ارسله اليكم من عند الآب روح الحق الذي

من الآب ينبثق فهو يشهد لي. وانتم تشهدون لانكم معي منذ الابتداء» فالروح هو الرباط الذي يربط بتوثق الابن والآب والذي بانبثاقه من الاثنين معاً يضمهما في ذاتية واحدة غير متناهية. فسيكون هذا الروح شاهداً فصيحاً موثوقاً بشهادته وكلمته ترن في بادىء الامر في قلب الرسل الذي سينار و يعزز بكل قوى الحق ولكن سيكون له ايضاً صوت خارجي يبلبل نظام العالم ونسمة حياة تحيي الامم المائتة في الضلال. حقاً ان الرسل سيشهدون شهادة شخصية لانهم شاهدوا يسوع منذ بدايته و يستطيعون ان ينشروا اعماله وذلك بدون معاونة الروح القدس ولكن قوة كلمتهم الفعالة تصدر بنوع خاص عن رنة اللهجة المقنعة ووضوح الكلام اللامع اللذين يمنحهم اياها الروح. فالظفر النهائي يبقى الى الحق والفضيلة وان الكافرين رغما عن قوتهم ينسحقون تحت الشهادة الالهية. والى هذا يستلفت يسوع انظارهم قائلا:

«كلمتكم بهذا لكي لاتشكوا. انهم سيخرجونكم من المجامع بل ستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم انه يقرب لله قرباناً. وانما يفعلون هذا بكم لانهم لم يعرفوا ابي ولم يعرفوني. لكني كلمتكم بهذا حتى اذا جاءت الساعة تذكرون اني قد قلت لكم. ولم اخبركم بهذا من قبل لاني كنت معكم واما الآن فاني منطلق الى الذي ارسلني وليس احد منكم يسألني الى اين تنطلق. ولكن من اجل انني كلمتكم بهذا ملأت الكآبة قلوبكم. الا اني اقول لكم الحق ان في انطلاقي خيراً لكم لاني ان لم انطلق لا يأتكم المعزي ولكن اذا مضيت ارسلته اليكم. ومتى جاء يبكت العالم على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة. اما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي. واما على البر فلاني منطلق الى الآب ولا تروني بعد. واما على الدينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين.» فخطية العالم هي بكفره الذي بعد اعمال يسوع يظل بدون معذرة. و يزداد كاس شره طفوحاً حينما يلعن يسوع و يقتله. وان الروح القدس بفم الرسل بعنف بصرامة اليهود على قلة ايمانهم وسيتمكن

أكثر من مرة من افهامهم ضرورة التوبة · ولعمري انه يوجد فرق بين الحجة التي يقيمها الروح على العالم والحجة التي يصدرها على الشيطان فيقنع العالم بخطيئته والشيطان بدينونته · فالخطيئة لاتنفي بنوع جازم التوبة واعادة الحقوق بينما ان الدينونة تؤيد الشقاء · وعليه ستتأيد برارة يسوع بقيامته · أجل ان البشر حكموا عليه كمجرم الا ان الله سيمجده كبارّ فاولئك قتلوه وهذا سيقيمه من الموت ولكي يتحقق الجميع تمجيده يُسلَب جسد ذلك القتيل نفسه من يد القتلة · فيسوع يرجع الى ابيه مكافأة عن برارته وسيمجد في حضرة الآب فلا يعود يتسنى للبشر ان يروه · فهل تناجي البشرية نفسها المقتنعة بغلطها على هذا الوجه بنكرانها المرسل من السماء بالسجود لذلك الذي صلبته و بالعبادة لذلك الذي لعنته ؟ ولاريب ان يدفعها الروح القدس على الاقل الى ذلك الاقرار الشريف والخلاصي · واما سلطان الظلمة فيؤكد الروح انه قد دين نهائياً فالشيطان الذي اصيب بالعجز في خبثه وغلب عند اسفل الصليب وصرع بذبح ضحيته التي لم يتمكن من منع قيامتها ستسقط قوته الجائرة · والعالم لايبقى عليه سوى ان يفغر مقلتيه ليتحقق ذلك فمن الواضح ان قتال الجحيم مع يسوع المسيح قد انتهى وان المبارزة قد تمت وانه بحكم غير قابل الاستئناف قد اعلن بان الشرير قد غلب ·

واردف المعلم كلامه قائلاً « وان عندي كلاماً كثيراً اقوله لكم ولكنكم لا تطيقون حمله الان · ولكن متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لانه لايتكلم من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما ياتي · هو يمجدني لانه يأخذ ممالي ويخبركم · جميع ما للاب فهو لي من اجل هذا قلت لكم انه ياخذ مما لي ويخبركم »

وحبس يسوع الكلام عند هذا الحد وظهر انه يعد الاهبة للسفر ولكنه قبل ان يزايل الموضع الذي كانوا فيه قال : « عما قليل لاترونني ثم عما قليل

تروني لاني منطلق الى الآب » فبهذه العبارة المبتهجة كان السيد يقصد تحريك استغراب التلاميذ مرة اخرى بغية ان يصل الى ايضاح جديد لنقطة جازمة في ايمانهم وفي الواقع قال التلاميذ بعضهم لبعض : « ماهذا الذي يقول لنا عما قليل لاترونني ثم عما قليل ترونني ولاني منطلق الى الآب . قالوا فما معنى قوله عما قليل إنا لانفهم ما يقول » واذ علم يسوع انهم يريدون ان يسألوه استدرك ذلك قائلاً لهم : « اتتساءلون عن هذا اني قلت عما قليل لا ترونني ثم عما قليل ترونني . الحق اقول لكم انكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح وانتم تحزنون ولكن حزنكم يأول الى فرح . المراة حين تلد تحزن لان ساعتها قد اتت لكنها متى ولدت الطفل لاتعود تتذكر شدتها من اجل الفرح لانه قد ولد انسان في العالم . وانتم الآن محزونون لكني سأراكم فتفرح قلوبكم ولاينزع احد فرحكم منكم . وفي ذلك اليوم لاتسالونني عن شيء » ففعل القيامة العظيم وخصوصاً مجيء الروح القدس يجلوان كل الشكوك و يلقيان في النفوس اليقين في الحق الواضح وبما ان يبدهم حق الله فانهم يتصرفون ايضاً بقدرته ومن ثم لايستطيع شيء ان يؤخر انتصارهم عن العالم ولا يقلق مسرتهم الرسولية : « الحق اقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه . الى الآن لم تسالوا باسمي شيئاً . اسالوا تعطوا ليكون فرحكم كاملاً » ولكي نسأل بنوع فعال باسم يسوع او بالاحرى لكي نجعل يسوع يسأل بافواهنا يجب ان نكون قد وضعنا يسوع في قلوبنا . ان الرسل لم يكونوا بعد قد طلبوا شيئاً باسم يسوع لانهم لم يكونوا بعد يحملون يسوع حياً فيهم اذ كان قد حفظ لاعجوبة القيامة العظيمة وللظهور البنديكستي الغريب تكميل ايمانهم وتصييرهم قادرين علي التكلم باسمه . « قد كلمتكم بهذا بامثال ولكن تأتي ساعة لاأكلمكم فيها بامثال بل اخبركم عن الآب علانية في ذلك اليوم تسألون باسمي . ولست اقول لكم اني اسأل الآب من اجلكم ان الآب هو يحبكم لانكم احببتموني وآمنتم اني من الله خرجت . قد خرجت من

الاب واتيت الى العالم وايضاً اترك العالم وامضي الى الاب » ففي هذه الكلمات الاربع يختصر كل الديانة الجديدة . ان الابن خرج من الاب وليس من العدم كخليقة بسيطة و بناء عليه فهو اله . قد خرج منه برأفة لاتحدّ لانه غادر المجد الابدي لكي يصير انساناً و يصلح البشرية بآلامه فهذان هما الدوران الاولان لحياته ولهما معادلة في الدورين الاخيرين . وهما ارتفاع يسوع عن الارض بالطبيعة البشرية التي كان متشحاً بها ورجوعه الى حضن الاب الذى تركه مستصحباً معه غنيمته التي مجدها بتاليهه لها . وفي اخر الامر فهم الرسل واعتورتهم الدهشة لان يسوع اصاب دخيلتهم واجاب عنها بوضوح فقالوا : « ها انك تتكلم الان علانية ولا تقول مثلاً ما . الان علمنا انك عالم بكل شيء ولست بمحتاج ان يسألك احدٌ بهذا نؤمن انك من الله خرجت » وهذا يعني ان يسوع كان بحسب اعتقادهم المسيح ابن الله الحي . فطابق اعتقادهم ايمان بطرس . وهذا ما اجتهد يسوع ان يسمعه منهم قبل هزيمتهم وقد سرَّ بتصريحهم هذا ولو لم يحصل عليه الاَّ بصعوبة فقال : « أتؤمنون الان . ها انها تاتي ساعة وقد اتت تتفرقون فيها كل واحد منكم الى خاصته وتتركوني وحدي ولا اكون وحدي لان الاب هو معي . قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام . انكم في العالم ستكونون في ضيق ولكن ثقوا فاني قد غلبت العالم »

§

صلاة يسوع

وحينئذٍ رفع يسوع عينيهِ الى السماء وتكلم بذلك الابتهال الكهنوتي الفاقد المثال الذي يجب ان نوردهُ بدون تفسير لكي نترك له كل حياتهِ وكل جمالهِ الالهي :

«يا ابتِ قد اتت الساعة مجّدْ ابنك ليمجدك ابنك . كما اعطيته السلطان على كل بشر ليعطي الحياة الابدية لكل من اعطيتهُ لهُ . وهذه هي الحياة الابدية

ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك والذي ارسلته يسوع المسيح. انا قد مجدتك على الارض واتممتُ العمل الذي اعطيتني لاعملهُ. والان مجّدني انت يا ابتِ عندك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم. قد اعلنت اسمك للناس الذين اعطيتهم لي من العالم. هم كانوا لك وانت اعطيتهم لي وقد حفظوا كلمتك والآن قد علموا ان كل ما اعطيتهُ لي هو منك. لان الكلام الذي اعطيتهُ لي قد اعطيتهُ لهم وهم قبلوا وعلموا حقًّا اني منك خرجت وامنوا انك انت ارسلتني انا اسأل من اجلهم لا اسأل من اجل العالم بل من اجل الذين اعطيتهم لي لانهم لك. كلُّ شيءٍ لي هو لك وكلُّ شيءٍ لك هو لي وانا قد مجّدت فيهم. ولست انا بعد في العالم وهؤلاء هم في العالم وانا آتي اليك. ايها الاب القدوس احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحدًا كما نحن واحدٌ. حين كنت معهم كنت احفظهم باسمك. ان الذين اعطيتهم لي قد حفظتهم ولم يهلك منهم احد الا ابن الهلاك ليتم الكتاب. اما الآن فاني اتي اليك وانا اتكلم بهذا في العالم ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم. اني اعطيتهم كلمتك وقد ابغضهم العالم لانهم ليسوا من العالم كما اني انا لستُ من العالم. لست اسأل ان ترفعهم من العالم بل ان تحفظهم من الشرير. انهم ليسوا من العالم كما اني انا لست من العالم. قدسهم بحقك ان كلمتك هي الحق. كما ارسلتني الى العالم ارسلتهم انا الى العالم. ولاجلهم اقدس ذاتي ليكونوا هم ايضًا مقدسين بالحق. ولست اسأل من اجل هؤلاء فقط بل ايضًا من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم. ليكونوا باجمعهم واحدًا كما انك انت ايها الآب فيَّ وانا فيك ليكونوا هم ايضًا واحدًا فينا حتى يؤمن العالم انك انت ارسلتني. وانا قد اعطيتُ لهم المجد الذي اعطيتهُ لي ليكونوا واحدًا كما نحن واحد. انا فيهم وانت فيَّ ليكونوا مكملين في الوحدة حتى يعلم العالم انك انت ارسلتني وانك احببتهم كما احببتني. يا ابتِ ان الذين اعطيتني اريد ان يكونوا معي حيث انا ليروا مجدي الذي اعطيتني لانك احببتني قبل انشاء العالم. يا ابتِ

العادل ان العالم لم يعرفك اما انا فعرفتك وهؤلاء عرفوا انك انت ارسلتني ٠ وقد عرّفتهم اسمك وسأعرّفهم لتكون فيهم المحبة التي احببتني بها واكون انا فيهم »

ولما فرغ من هذه الصلاة التي لم يرتفع الى السماء اجمل منها لم يبقَ لكاهن الشريعة الحديثة العظيم الأ ان يقدِّم ذبيحته فاشار الى ذويه ان يخرجوا

الفصل الثاني

القاء القبض على يسوع

بستان جتسماني — الكربة — وصول يهوذا — يسوع قُبِض عليه وسيق الى عظيم الكهنة — طالع يوحنا ١٨: ١—١١ ومتى ٢٦: ٣٠—٥٦ ومرقس ١٤: ٢٦—٥٢ ولوقا ٢٢: ٣٩—٥٣—

§

بستان جتسماني

كانت الساعة العاشرة مساء لما برح يسوع والتلاميذ غرفة العشاء فتوجهوا مجتازين ازقة المدينة الخالية ويممين جبل الزيتون وكانت تلك الطريق تؤدي الى بيت عنيا غير ان المعلم لم يكن يبتغي في تلك الليلة ان يمضي الى اصدقائه

وبعد ان عبروا عقيق قدرون الجافّ وصلوا الى بستان يدعى جتسماني وتفسيره معصرة الزيت وربما كانت الحديقة مسوّرة وقد كان فيها بيت للاستغلال وليس للنزهة ومن المحتمل ان صاحب ذلك الموضع كان صديقاً ليسوع ٠ ومهما كان من الامر فان السيد لم يطلع على ذلك المكان للمرة الاولى وكان له عادة ان يجتمع مع تلاميذه فيه عند خروجهم من اورشليم قبل ذهابهم الى قرية مرثا ومريم ٠ فدخل يسوع البستان واوعز الى التلاميذ ان ينتظروه عند المدخل وربما كان ذلك في البيت المشار اليه آنفاً ٠ ثم انفصل عنهم سائراً الى طرف الحديقة

وآخذا معه بطرس و يعقوب و يوحنا ليصلي

وهنا ابتدأت المأساة العظيمة فحينما شعر الفادي بدنو الساعة المكتوبة سعى ان يلقى الآب وجهاً لوجه لكي يشافهه . فصوت الله الصارم الذي به انتهر الانسان الساقط « ادم ادم اين انت » كان باقياً منذ اربعة الاف سنة بغير جواب وقد ازف الحين الذي فيه قرع الاذان فوجد الآن مجيباً وبهذا تقدم الانسان الجديد البار المستعد ليدفع عن الجميع وقال للغضب الالهي « هاءنذا » فقد رضي ان يأخذ فيه البشرية برمتها بمساوئها وآثامها وان يتكلم و يتصرف و يكفر كانه وحده كان تلك البشرية وعليه فان الجرائر التي صار مسئولاً عنها بتلك النيابة كانت لا تحصى واذا كان احد ما يطلب تعويضاً خاصاً فاي ضربة لم تكن موشكة ان تضرب الجميع معاً في جسد وقلب ونفس ذلك الذي بذل نفسه للتكفير عنها في وقت واحد

الكربة

ان الذي زاد آلام يسوع كان تجربة لا تطاق عنده بمقدار ما هي خفية عندنا . اذ حدث فجأة كسوف غريب في نفسه التي كانت طبعاً ومنذ ولادتها تتمتع برؤيا الله السعيدة . والاله باحتجابه عنها اظهر انه يسلم الانسان لذاته بدون شفقة حتى انه استدعى ذلك الصراخ النهائي الذي رنّ على الصليب : « الهي لماذا تركتني » فكيف السبيل الى فهم هذا الحادث اذا كان الارتباط الاقنومي غير منفصم . ترتب على انظارنا الا تخرق هذه الغيوم وعلى فضولنا الا يتجاوز الى مسائل ذات نظام سام . فهذا هو السر وكل ما يُستطاع ان يقال لا يفسره بل يعرض الباحث للخطر . فلنقتصر على التمسك في الامرين الواقعين في هذي المسألة اللذين لا يقبلان الاعتراض وذلك ان الطبيعة الالهية كانت في يسوع غير منفصلة عن الطبيعة البشرية ومع ذلك ان هذه الطبيعة البشرية قد المت بها التجربة فقاتلت وقاست العذابات كانها كانت منفصلة عن الطبيعة الالهية . والحق يقال

انه لا يمكن ان يُتصوَّر كربة اعظم واحق من تلك التي تسيل عرق الدم

اجل ان المشهد الذي تشخصه لنا الاناجيل المختصرة عن حالة يسوع حينما ابتعد عن تلاميذه هو موثر للغاية. فالرعب المهم يثقل عليه ويسحقه والكره يتلوه عن قرب و يستدعي كآبة عميقة عقبتهما تلك الرجفة الطبيعية التي ترافق حوادث الحياة المهمة . وكلما ازدادت البشرية صفاء وتحفظاً من الشهوات الشديدة ازدادت لطفاً وشعوراً تحت ضغط الحزن الادبي. واذ لم يعد المعلم يقوى على ضبط انفعاله قال « ان نفسي حزينة حتى الموت » ولكي يخفي على التلاميذ الثلاثة الممتازين مشهد كربته تباعد عنهم قليلا . وقد فضَّل يسوع انحيازه عنهم خوفاً من ازعاجهم على تلك التعزية البشرية التي كان يجدها في قربهم اليه. فقال لهم: «امكثوا هنا واسهروا وصلوا معي لئلا تدخلوا في تجربة »

واذ ابتعد عنهم مرمى حجر خرَّ على ركبتيه وكانت عيناه النبوية قد سبرت حينئذ وهدة الآلام التي كان مزمعاً ان يقذف اليها. وكلما كان يتمثل ذلك التمثيل الفظيع كانت حركة الخوف الاولى تتحول الى عاطفة الاشمئزاز والدهشة التي كانت تفقده الحركة. وفي الوقت ذاته ظهر الشيطان المجرب انه يلقي على نفسه الطاهرة كل خطايا البشرية واحدة فواحدة و يريد ان يسحقه تحت ثقل تلك الرذائل العديدة. فالبار عند نظره الى يديه كان يراهما مغشاتين بالدم الذي سفكه القتلة في كل العصور. وكان يسمع في باطنه ورغما عنه دوي اصوات الكفر والتجديف. وكان قلبه النقي يرتجف منذهلا كل الانذهال من ضوضاء الشهوات الشديدة. على ان مقدس نفسه العميق بقي ولا امتراء بكليته لله. وكأنَّ جوًّا ثقيلا من الشر كان محدقاً به و يساوره بغية ان يستولي عليه غير ان قداسته المنزهة عن كل ضعف كانت تدفع بنشاط رداء الجرائم الشنيع الذي القته على منكبيه الخبائة البشرية. فيرده الشيطان اليه مرة اخرى بقوله : « ان شئت ان تغسله فينبغي لك ان تحمله» فالابن المشوه على هذه الصورة لم يكن يستحق سوى قساوة الاب. فالمحبوب صار ملعوناً

ثم ان يسوع احني رأسه الى الارض تحت الحمل المبهظ الذي كان يدعيه لذاته فضعضع نفسه بغتة وجه الله الغضوب الذي شاهده وحينئذ لم يعد يستطيع المقاومة فنهض وقال: «ايها الاب ان كل شيء مستطاع عندك فاجز عني هذه الكأس» ان الشيطان ليس له دخل هنا لان يسوع عقد الشروط مع ابيه وحده وعليه ألا يستطيع العدل الالهي ان ينقص شيئاً من تلك الكاس الدهاق؟ وهل تُعدُّ الخطية اهانة عظمى بهذا المقدار حتى يجب التكفير عنها بتعويض هكذا مريع. انه يرضى بالموت ولكنه هل يستطيع ان يحمل لعنة الآب ومع ذلك فلا بد من هذه لانه ولو كان حمل الله ولم يعرف الخطية ابدا فهو يقوم مقام الخطاة. و بما انه قام مقامهم لم يدخل صراخه والتماسه السماوات وان اسم الاب الملفوظ بمحبة عظمى بقي على شفتيه دون جدوى. و يقال ان المخلص قاسى حينئذ كل عذابات الجحيم ما عدا اليأس. ومن المحقق ان انفعال نفسه نهك قوى جسده كلهُ. فدمه الذي غلى في عروقه ادى به الامر الى التملص من الشرايين مع العرق الغزير الذي كان يتحلب من كل جسده وصار النزاع يتزايد رعباً شيئاً فشيئاً. فالجسد والنفس والروح وكل شيء اراد ان يفر من الذبيحة الفظيعة ولم يبقَ معه سوى الارادة ومن ثم قبضت هذه بيدها على الضحايا الثلاث وساقتها قسراً الى الذبح امتثالاً لمشيئته تعالى. ولعمري انه لا يوجد شيء في حياة يسوع اعظم من هذا الكفاح الفائق الطبيعة الذي يسمى بعدل نزعه

فاملاً ان يجد المعلم تعزية و يتشجع برؤية اولئك الذين يحبهم والذين يخاطبونه دون شك بكلام المحبة وهو في ابان البغض والحنق المحيطين به نهض ومضى الى التلاميذ الثلاثة الذين دعاهم الى السهر والصلاة معه فوجدهم نياماً. فخاطب بلهجة المعاتب الرقيق اشدهم اخلاصاً اعني بطرس الذي آلى على نفسه ان يموت اذا دعت الحال الى الموت والذي لم يستطع ان يسهر معه فقال له «ياسمعان هل انت نائم او لم تقدران تسهر ساعة واحدة. اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. اما

الروح فمستعد" واما الجسد فضعيف » فهذا الكلام كان يدل على التجربة المائلة التي سيختبرها بذاته . فلو لم تكن اعين التلاميذ مثقلة بالنوم لكانوا رأوا على نور القمر الضئيل وجه المعلم المجيد ووجدوه متجلي لبس بالمجد كما كان على الجبل ولكن بالحزن . فحيث شع قبلا النور كان يشع الان عرق دم . ومن ثم كان محقاً بقوله ان الجسد ضعيف وان لا بد من ارادة قوية لتقوده الى الموت

ورجع يسوع الى الله نابذاً مساعدة الرسل الذين تركهم مرة ثانية فخرّ ساجدا لكي يتذال امامه بمحبة نفسه الكئيبة و يسترضيه تعالى بصلواته الحارّة . فدمعه ودمه غسلا وقدّسا الارض الملعونة منذ اربعين قرناً ولكن مهما كان حزن ذلك المتوسل المجيد شديدا لم يصادف اذناً صاغية فصرخ حينئذٍ مرة ثانية الى السماء وهو يبالغ باظهار خضوعه وصبره لان قساوة الآب كانت قد صيرته جلوداً فقال : « يا ابت ان كان لايستطاع ان تعبر عني هذه الكاس الا بشربها فلتكن مشيئتك » نعم كان ذلك مستحيلاً . ولهذا تشاغلت السماء عن سماع نداه . ومن المحتمل ان الشيطان قد مثل له ذلك الحين عدم جدوى ذبيحته فالبشر الذين سيموت عنهم سيضحكون من آلامه حول الصليب عينه . ويأتي العدد النزر فقط و يصلّي تحت شجرة الحياة . فهل كان من الواجب ان يغرسها بهذه الآلام العديدة و يسقيها بدمه . فيجيب يسوع قائلا . لابأس من ذلك فاني اموت فيتمجد ابي و يخلص اصدقائي

وحينئذ نهض ووافى التلاميذ الثلاثة الذين كانوا رمز منشأ الكنيسة المستقبلة وكان يجد لذة في التامل فيهم ولوكانوا نياماً لان ذلك الصمت الليلي الذي لم يكن يسمع في اثنائه سوى خفقان قلبه الشديد لم يكن يطاق . فبطرس و يعقوب و يوحنا كانوامستغرقين في النوم اكثر من قبل اذ يلذّ الرقادو يثقل عادة على الانسان بعد تهيج ادبي شديد . فانفعالات المساء والكآبة وساعة الليل المتقدمة قد آلت الى تثقيل اجفانهم . وحين خاطبهم المعلم لم يعلموا بماذا يجيبونه .

فثار ساكن غم يسوع من ذلك المنظر ولم يعد يلحّ ابداً

فمضى يصلي مرة اخيرة . وربما كان يوجد علاقة حقيقية بين هذه الصلاة الثلاثية و بين عواطف الذعر والكراهة والكآبة التي سطت على قلبه كتجربة ثلاثية . فالاب لبث صامتاً وقاسياً محتجباً عن انظار الضحية المسكينة التي كان القلق يساورها . ولكن لما كانت قد اوشكت ان تتلاشى ارسل ملاكا ليشجعها . وهكذا تفعل عظماء الارض فانهم اذا ارادوا رفض نعمة برقة حجبوا ذواتهم اتقاء ازعاج المتوسلين وارسلوا وزراءهم ليشجعوا تشجيعات غيرمفيدة اولئك المعهود اليهم صرفهم . فصرح الملك ان يسوع كان ظافرا وفي الواقع كانت قد انتهت المعركة . واستسلمت الطبيعة بعد رفضها الى العدل السماوي اذ لم تصادف عنده رحمة . فالارادة البشرية انسحقت كل الانسحاق امام الارادة الالهية . فنهض للحال يسوع بعزم وعاد الى تلاميذه واثار المعركة الدموية بادية عليه كالمصارع العائد ظافرا من القتال فاظهر انه استعاد كل سكينته وقوة نفسه فقال : « ناموا الآن واستريحوا بكف » فالانتقال من اليأس الى الشجاعة كان بسرعة الانتقال من السكينة الى الكربة ثم صاح قائلاً :« قد اتت الساعة هوذا ابن البشر يسلّم الى ايدي الخطاة . قوموا لننطلق فقد قرب الذي يسلمني »

§

وصول يهوذا

كانت وادي قدرون في منتصف ذلك الليل ساكنة وكان اخف صوت كافياً لترجيع الصدى فيها واذا وقع النظر عليها في ليلة مقمرة في غرة نيسان لايلبث ان يرى حتى يومنا هذا جوّها مدلهما . فقد سمع يسوع ولا ريب صوت الجنود المسلّحة الذين كانوا نازلين من اورشليم . فتوجه حالاً الى الرسل الآخرين الذين كانوا عند مدخل البستان وكان في نيته ان يقيهم من العدوّ الذي كان يدنو وفي طليعته يهوذا

فهذا لما خرج من العلية حنقاً مضى الى رؤساء الكهنة واخبرهم انه كان موشكاً ان يقوم بوعده ٠ وظهر ان الوقت كان موافقاً كل الموافقة لانه كان يعرف هذه المرة اين يجد يسوع وفي مثل تلك الساعة اذ كان كلٌّ آوياً الى منزله مع عائلته إن في اورشليم وان في المضارب المنصوبة حوالي المدينة لم يخشَ الفضيحة ٠ فاستحسن رؤساء المجمع رأيه واغتنموا تلك الفرصة وجمعوا جنودهم وخدمهم وحراس الهيكل وسلحوهم بسيوف وعصي ٠ وتلافياً للقتال افترضوا حدوثه مع جبليين جليليين موصوفين بالبأس طلبوا نجدةً لجنودهم الذين لم يكونوا مسلحين تسليحاً كافياً ومنظمين تنظيماً جيداً من الجنود الرومانية ٠ فبيلاطس الذي جاء من قيصرية لمحافظ على السكينة والامن خلال الاعياد الفصحية عدّ ذاته سعيداً لأن يظهر للمجلس رغبته في خدمته واعطاه فصيلة وقائداً يتولى امر الجنود ٠ فأخذ هؤلاء معهم المشاعيل والمصابيح وذلك لسببين اما ان وجه السما كان متلفعاً بالغيوم مع ضياء القمر واما انهم كانوا يخافون ان يقتفوا اثر يسوع في العقبات والحزون وبين القبور المفتوحة في منحدر جبل الزيتون الغربي ٠ وتجنباً لكل خطأ وتخصيصاً لذلك الذي يجب ان يلقى القبض عليه اتفق يهوذا مع رجاله على علامة خاصة فقال لهم: « ان الذي اقبله هو هو فامسكوه » ترى هل كان التلاميذ قد تعودوا ان يقبلوا المعلم عند التقائهم ٠ تلك مسألة لا يقطع بترجيح وقوعها ٠ وفي كل الاحوال كانوا يقبلونه على يده اوعلى صدره علامة الاحترام ولكن لم يكن يجرأ يهوذا ان يتخذ تلك الدالة دون توطئة بعيد الحوادث التي جرت في العلية ومع ذلك ليس الامر هنا قبلة بسيطة ٠ ومن المرجح ان التاعس الحظ باضافته الى جريمته رداءة غريبة جال في خاطره ان يتزلف الى المعلم ليس كصديقٍ ولكن كتائب ٠ وبتظاهره بطلب نعمته كان ينتحل لنفسه سبباً طبيعياً لوقوعه على عنق يسوع وتقبيله اياه بمحبة ٠ ومعلوم ان الاشرار متى اقدموا على اقتراف المنكرات لا يهملون شيئاً

توصلاً الى امانيهم . ولذلك اوصي يهوذا الجنود ان يحيطوا يسوع بتحفظ حينما يلقون القبض عليه وان يسوقوه بكل احتراز اذ كان يخاف ان تتغلب محبة التلاميذ الحقيقين على بغضه وان تربو امانتهم على خيانته

وعلى هذا المنوال وصل الجنود الى جتسماني مخفورين بالخداع ومعضودين بالقوة العامة حين وافى يسوع سائر التلاميذ وقد جرى المشهد عند مدخل البستان .

وحسب رواية القديس لوقا كان الخائن يتقدم الجمع وربما كان يتقدمهم عن بعدٍ ليتظاهر بانقطاعه عنهم ولينفي كل علاقة معهم لانه لو جاء معهم لكانت المظاهرات الودية التي ابداها ليس فقط غريبةً ولكن على التقريب صعبة وعديمة الجدوى . فمجيئه زعيماً لفريقٍ من الجنود الاعداء وتقدُّمه الى المعلم ليقبله كانا امرين متناقضين . فالجنود المسلحون لبثوا بعيدين وربما وقفوا وراء السياج اوجدار الحديقة راصدين ما كان مزمعاً ان يحدث فجاء يهوذا وحده وقال : « يا معلم يامعلم السلام عليك » فجاء هذا التكرار برهاناً على اضطراب نفسه ودنا اليه ليقبله فاراد يسوع بكلمةٍ واحدة ان يوقفه و يكفيه موْنة ذلك الانتهاك الفظيع لشخصه المقدس فقال له : « ياصاحب لاي شيء جئت » فالمنكود الطالع لم يعد يسمع شيئاً ولكنه مدَّ ذراعيه الى رأس المخلص المجيد كانه يمدهما الى الضحية التي كان مزمعاً ان يخنقها . ويتوضح من الآية الانجيلية ان القحة دفعته الى ان يطيل معانقته كأنه لم يرَ في ذلك علامة كافية عن محبته وندامته . واذكان يسوع ضاماً اياه ضماً الياً قال له كلمة كانت له استدعاء اخيرا للنعمة . لايقابل ذلك البغض والرياء العظيمين بمزيد الوداعة والحنان الا من كان كيسوع الحمل : « يا يهوذا ابقبلة يسلم ابن البشر » فيا له من تقريع بليغ لمن كان له قلب اذ يذكر يسوع المنكود الحظ من هو : فيهوذا احد الاثني عشر الذي ادخله منذ عهد بعيد الى سر صداقته يخونه : ابن البشر وابن الله

معاً المسيح الذي خدمه واكرمه الى تلك الساعة والذي كان ملكه موشكاً ان يبتدي . فكيف خانه : بقبلة الغادر . والجمع الذي راى كل شيء اقترب حالاً وكان يسوع قد صار معروفاً عنده . فاحتشدوا وتهيأوا للاحاطة به وحينئذٍ استيقظ بذلك الصوت الرسل الذين كانوا بين راقدين وراقدين . واولئك الذين لم يكونوا نائمين ابتدأوا ان يشعروا بالخطر . فحركتهم الاولى كانت الاستعداد الى المقاتلة ولكن يسوع اوقفهم بحركة واحدة . ولما كان يحرص على حياتهم أبى ان يعرضها للخطر فالتفت الى الجمع والى يهوذا الذي كان مختلطاً معهم وقال : « ومن تطلبون » فجنود المجلس لم يجسروا ان يقولوا له بجرأة انت فقالوا : « يسوع الناصري » واذ صاروا يخاطبونه وجهاً لوجه لم يعودوا يشكون ابداً ان يسوع كان هو الذي يخاطبهم « انا هو قال لهم المعلم بتلك الهيئة والاشارة المفعمتين عظمة واللتين ستخزيان الهالكين في يوم الدين . فارجعتهم هذه الكلمة والقتهم على الارض

وحين نهضوا وثاب اليهم روعهم قال لهم يسوع بوادعة و بعاطفة انتصار ظاهرة تدل على ثبات جاشه : « من تطلبون » فأجابوه ايضاً : « يسوع الناصري قد قلت لكم اني هو » ثم ختم كلامه بما كان مهتماً به اولاً قائلاً : « فان كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون » فكأنه اراد بذلك ان يحترموا حياة تلاميذه وشهوده وواعظيه في المستقبل لانه هو وحده المدعى عليه . وهولاء كانوا مع ذلك مملوئين عزماً فبينما كان يسوع يتداول مع العدو طالباً اليه الامان لحياتهم وحريتهم كانوا متأهبين للمهاجمة واذ شاهدوا ماكان موشكاً ان يحدث قالوا للمعلم : « يارب انضرب بالسيف » و بطرس دون ان ينتظر الجواب حملته حدته الطبيعية على ان يضرب ادنى خصومه اليه وهو ملكس عبد عظيم الكهنة . فالضربة المصوَّبة الى الرأس قد طاشت عن موضعها ولعل يسوع قد حوَّلها بيده فلم تصب الا الاذن اليمنى . ولما كانت ضعيفة لم تقطع الاذن كلها . فلم يحتج يسوع لشفائها

الا ان يمسها ويثبتها مرة اخرى وهذا العمل الكلي القدرة الدال على المحبة يبين كيف ان بطرس لم يقبض عليه ولم تساء معاملته من الجمع حالاً. فقال المعلم بصوت الامر: « اردد سيفك الى غمده لان كل من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك. اتظنني عاجزاً عن سؤال ابي ان يقيم لي في الحال اكثر من اثنتي عشرة جوقة من الملائكة. ولكن كيف تتم الكتب هكذا ينبغي ان يكون. الا اشرب الكاس التي اعطانيها الآب »

§

القبض على يسوع واخذه الى عظيم الكهنة

وبينما هو يلقي على الرسل هذه الامثولة العظمى قدم اناس جدد مدفوعين بعاطفة البغض ورغبة انجاز مشروع الاثم سريعاً. وهؤلاء كانوا بعض رؤساء الكهنة ونظار الهيكل وشيوخ الشعب. فهل كانوا قد وصلوا ام كانوا متوارين في الحشد حتى الوقت المعين. ليس في ذلك موضع اهتمام فان يسوع حين ابصرهم خاطبهم معنفاً ومحتجاً جهرة لبراءته والغض من شرفه: « كانما خرجتم الى لص بسيوف وعصي لتأخذوني. اني كل يوم عندكم في الهيكل جالساً اعلم ولم تمسكوني. وانما كان هذا كله لتتم كتب الانبياء » وهكذا اسمعهم يسوع انه لايمنع روح الشر من انجاز الاثم الذي سينتج عنه خلاص الجنس البشري الا ان الشر ينحر ابان انتصاره ويختنق في خلال نصرته ذاتها. فالرسل خارت عزائمهم عند ما رأوه مذعناً ومن المحتمل انهم ذعروا من حنق الجمع المتزايد فاركنوا الى الفرار. ويروي لنا القديس مرقس حادثاً يبرهن لنا ان الخطر كان حقيقياً وانه لم يكن في الامكان تأجيل الفرار دقيقة واحدة للنجاة. وهذا مفصله. كان شاب قد حضر عند سماعه الضوضاء وعليه ازار طويل من الكتان كان الشرقيون يتزرون به في اثناء الرقاد فلم يشاء بداءة بدء ان يترك يسوع في تلك الحالة الكئيبة. فاخذ يتبعه لما جروه الى المدينة فدرى به

الجمع وارادوا ان يوقعوا به سوءا لكنه ارتاع من ذلك وهرب تاركاً ازاره الرقيق بين ايدي اولئك الذين كانوا يسيرون وراءه · ويظن انه كان يوحنا مرقس مصنف الانجيل الثاني

وبقي يسوع وحده في قبضة اعدائه فاوثقوا يديه كشرير وعاد الظافر الى المدينة بين الصياح والتجديف وكان روساء الكهنة يتهللون بتلك اللقطة السعيدة ويتبعون الموكب بعد ان امروهم بالذهاب به حالاً الى حنان حمي قيافا · وكان قد انتصف وقتئذ الليل

الفصل الثالث

دعوى يسوع

المرافعة الدينية عند حنان وقيافا — الدعوى المدنية في حضرة بيلاطس — حادثة امام هيرودس — الحكم بالعقاب —

(طالع يوحنا ١٨: ١٢ – و١٩: ١٦ — ومتى ٢٦: ٥٧ — و٢٧: ٣٠ — ومرقس ١٤: ٥٣ — و١٥: ١٩ — ولوقا ٢٢: ٥٤ — و٢٣: ٢٥)

§

المرافعة الدينية عند حنان وقيافا

ان حنان عظيم الكهنة القديم الذي سلبت منه الحكومة الرومانية سلطته كان لم يزل عند اليهود رئيس دينهم الحقيقي فهذا الرجل كان حاذقاً معظماً مكرماً من الشعب وكان له خمسة اولاد يتولون بالتناوب منصب رئاسة الكهنة الرفيع وكان رئيس الكهنة في تلك السنة يوسف قيافا وهذا كان صهره · ويحتمل ان يكون قد دبر بنفسه ونفوذه الاثيم القاء القبض على يسوع · وفضلاً عن ذلك يظهر انه كان هو وقيافا ساكنين في دار واحدة · ان للدور في المشرق

ساحة واحدة او اكثر في الوسط تتصل باجنحة البناء المختلفة . ففي احدى تلك الساحات اجتمع الخدم حول نار اوقدوها بسرعة للاصطلاء . لان البرد يشتد اخر الليل في فلسطين حتى في شهر نيسان فأدخل يسوع الى دار حنان وخرج الجنود الرومانيون لان عملهم انتهى بتسليم المتهم الى السلطة الدينية . و بينما هم يهتمون لجمع اعضاء المجلس عاجلا عند قيافا اراد حنان ان يهيء المرافعة بوضع المقدمات فظن الشيخ الماكر ان من الواجب اولاً ان يسال يسوع عن تلاميذه وتعليمه وربما كان يفترض له تعليماً سرياً محفوظاً للخاصة وكان يريد ان يستفسر عن نوع الجمعية السرية التي كان يظنها اكبر واسطة ثورويه لمفتن الشاب . فلم يقل يسوع شيئاً لمن كان يساله خارجاً عن كل حق . فبسكينة غريبة تجنب الجواب عن ذلك السؤال وعهد الى الاخرين بالجواب عنه فقال : « انا كلمت العالم علانية وعلمت في كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث تجتمع كل اليهود ولم اتكلم بشيء خفية . فلم تسالني انا . سل الذين سمعوا ما كلمتهم به فانهم يعرفون ما قلته » فإحالة الجواب على الشعب لم يكن سوى عرقلة لاولئك الذين كانوا يطلبون ابراز الحكم بالموت على يسوع خفية عن الشعب . وفي كل الاحوال لم يكن في ذلك الجواب الواضح والبسيط شيء مما كان يتوقعه ذلك القاضي المبتدء . فبدلاً من ان يعرض للخطر ذلك الذي القاه كان يجبر السائل بانكار صلاحيته بنوع واضح . وقد لجا المتهم عمداً الى صورة المراوغة التي لم يستعملها امام قيافا ولا امام بيلاطس القاضيين المفوض اليهما من قبل الشريعة القاء الاسئلة عليه

واصبحت حالة حنان حرجة وكانت الامثولة قاسية جداً حتى انها اقلقت خاطره وخامر حينئذٍ فؤاد احد الخدام انه يجب احداث ضوضاء حفظاً لمقام ذلك الشيخ . فرفع يده و بتعصب دبني وحشي لطم يسوع على وجهه صائحاً به : «اهكذا تجاوب رئيس الكهنة » فلم يضطرب المخلص من تلك الشراسة واكتفى بالقول « ان كنت تكلمت بسوء فاشهد عليَّ بالسوء وان بخير فلماذا تضربني »

وكانت هذه السكينة تظهر حق المدعى عليه وتبشر باثبات انتصاره اذا استمر الاستنطاق جارياً على ذلك الوجه. فصرخ حنان ان الدعوى يشوبها التباس وانه قد آن الوقت لرفعها الى محكمة اخرى وربما كانوا قد نبهوه على ان المجلس قد عقد جلسة فاوثق يسوع مبيناً بذلك جريمته وارسله الى قيافا. ولم ينجم عن هذه المرافعة الاولى نتيجة اخرى. فواعجباً من ذلك الاتفاق الغريب وهو انه بينما كان يسوع يطلب شهادة ذويه و يقول لحنان: « سلهم » سال الخدام بطرس زعيم الرسل فاجاب: « لست اعرف هذا الرجل » واليكم قصة هذا الانكار المحزن الذي وان كان يبرهن عن سابق معرفته تعالى الكاملة كان من اشد الآلام التي شعر بها في تلك الليلة قلبه الذي هو قلب صديق واب

حين أُسلم يسوع الى اعدائه استولى على الرسل كما ذكرنا خوف عظيم فهربوا جميعهم بيد ان بطرس استرجع اليه شيئاً من رباطة الجاش وتبع عن بعد ذلك المحفل الاثيم رغبة منه في الوقوف على ما سيحدث وكان معه تلميذ اخر وهو يوحنا. ولما وصلا الى دار رؤساء الكهنة افترقا هنيهة من الزمان فدخل يوحنا وحده لانه كان معروفاً من عظيم الكهنة و بقي بطرس عند الباب لسببين الاول لانه لم يكن على ثقة من الاجازة له بالدخول والثاني بعلة ما فعله مع ملكس لانه كان يخشى ان يعرفوه فيقبضوا عليه. اما يوحنا فرجع الى بطرس ليدخله فادخله بكلمة القاها الى البوابة. ثم ان ابن زبدى سار توا الى الموضع الذي كانوا يستنطقون فيه يسوع غير هياب ولا وجل لكن بطرس الذي بقي وحده اختبأ في اول الامر تحت جنح الظلام بغية الاطلاع على كنه الحالة ولما خاف ان تنمّ به مظاهر الجبانة فتكون مجلبة للخطر عليه عدل الى الجراة او على الاقل الى ان يتخذ هيئة الطمانينة. فدنا من النار التي كان الخدام مجتمعين حولها وجلس بينهم. فاختلاطه بالاعداء كان بلا مراء دلالة ابتداء الجبانة. وكانت البوابة وحدها عالمة بكنه امره اذ لم تتركه يمر الا بكلمة يوحنا فدخلت الى ساحة الدار لكي تعلم ماذا حدث له

وهناك وجدته ما بين الخدام فتبادر الى ذهنها ارتياب في حقه بالدخول الى الدار لانه كان جالساً بين تلك الزمرة الحقيرة وخافت ان تكون خدعت بادخالها ذلك الدخيل فبادرت الى القيام بكل جسارة بالواجب الذي اهملته اولاً مراعاة ليوحنا . فتفرست فيه دون الاخرين وقالت له : «اما انت من تلاميذ هذا الرجل» فكان لهذا السوال تاثير على بطرس يحكي تاثير الصاعقة . الم يكونوا على وشك ان يتعرفوا به ذلك المقاتل الشديد الحمية الذي منذ عهد قريب قد استل سيفه على اولئك الذين كان جالساً بينهم الآن . فرنت اليه كل الابصار اماهو فحول وجهه البادية عليه آثار القلق بانعكاس الضوء المنبعث من الموقد الى جهة الظلمة ليواري محنته واجاب بكلام اقرب الى الكذب منه الى الحقيقة قائلاً : «لست ادري ماتقولين» وفي شدة اضطرابه كان يظن انه بتلك الحجة لا يحط من شرف استقامته ولا من شان الحقيقة . ولكن البوابة العنيدة لم تحول عنه ولكثرة اسئلتها اضطر الى ان يجيبها اجوبة عديدة سلبية : «لست انا منهم» كما في انجيل يوحنا «يا امراة اني لست اعرفه» كما في انجيل لوقا . فالانكار الاول الذي بُدىء به بتردد صار اوضح بعدئذٍ واخيراً صار كاملاً من كل وجوهه ودالا على القحة او قد تم علانية

وفي ذلك الحين نزل يسوع الى فناء الدار حيث مكث هناك ريثما يلتئم المجلس باحتفال عند قيافا فسمع انكار الجاحد الاخير . والحق يقال ان بطرس تحين ازدحام المتفرجين على المتهم خارجاً من عند حنان لينزاح عن الجمع ولكنه حين وصل الى الرواق المؤدي الى مدخل الدار وقف وقد شعر ان القوة قد عادت اليه في الظلمة . و يقول القديس مرقس ان انفراده في هذه الساعة قد مكنه من استماع صياح الديك فتذكر به نبوءة السيد وعراه القلق والاضطراب ولنكد طالعه كانت تلك البوابة الفظة موقنة ان سهم ظنها قد اصاب كبد الغرض فاخذت تتهمه ولكن لم توجه الكلام اليه بل الى الخدام الذين سمعوا انكاره فدلتهم على بطرس الواقف في الظلمة وصاحت قائلة ان هذا من تلاميذ يسوع

وكانت تلح بشكواها الى ان راى التاعس الجد ذاته مدفوعاً الى المعترك فرجع الى المصطلى ليدافع عن نفسه مكرراً النكران فزاد برجوعه الحال ارتباكاً · ويقول القديس متى ان خادمة اخرى من اعوان البوابة اشتبهت بالرجل الذي وجهت اليه التهمة فاقبلت وابدت القول على مسمع الجميع ان بطرس كان مع يسوع الناصري · فانكر بطرس وحلف انه لم يكن يعرفه ابداً · ويروي القديس لوقا ان واحداً من الحضور انتصر للخادمتين وقذفه بالشكوى ذاتها فازداد بطرس جراة وقال : « يارجل انا لست منهم » فعند سماع الجنود والخدام هذا الانكار الصريح الذي وضحت عليه مسحة من الصدق شكّوا في الامر · ولكنهم ارادوا ان يتتبعوا الحقيقة الى آخرها ويرفعوا عنهم ستار التمويه فقضوا سواد تلك الليلة بمناظرة بطرس · ويذكر القديس يوحنا ان كل واحد من الحضور اخذ يخاطب بطرس بكلام الخبث وكان الرسول يجيبهم بالانكار

وفي تلك الاثناء جرى ما اوجب امساك الخدام عن الجدال وهو ان رجلاً سمع المرافعة امام حنان فاخذ يقصها على الخدام ويحتمل ان بطرس قد غير موضوع الحديث فراراً من الاسئلة العدوانية التي كانت تزعجه ومهما كان من الامر فان الصياد الجليلي لم يستطع ان يخفي لهجته ولا لغته وقد لاحظ ذلك واحدٌ من الحاضرين وكلهم وافقه حالاً على ملاحظته : وهي ماذا يبغي في تلك الساعة رجلٌ جليلي في دار عظيم الكهنة لو لم يكن تلميذاً للناصري · وكلما كانوا يوقنون انهم على وشك اقناعه بالكذب كانوا يزيدونه غيرةً على تقديم البراهين الجديدة · ولما اُسلم بطرس الى ذلك الجمع الذي بدأ بالضوضاء حوله وامسى هو بينهم كالطريدة التي تحصرها كلاب الصيد ضمن دائرة تزداد ضيقاً مع الوقت تبلبل فكره ولم يعد يلقي سوى اجوبة تزيده تعرضاً للخطر فادعى انه لا يفهم ما يقولونه له ولم ينتبه الى ان ذلك الادعاء هو اثبت برهان على كونه كان جليلياً · فقلة دربته التي نمّت باضطرابه ودلت على جريمته اثارت حدة الجميع على خزيه · فاقترب وامنه وصاح واحد منهم

شاهدا عليه «اما رايتك انا في البستان معه» وكان المتكلم بهذا الكلام نسيب العبد الذي قطع بطرس اذنه فعظم الخطر على بطرس فعدل اذ ذاك عن المخاتلة وجعل يلعن و يحلف قائلاً: « انني لا اعرف هذا » وللحال صاح الديك ثانية واتفق انه صاح عندما كان الرجل ذاهباً الى قيافا بين الجمع المتهيج او عندما كان واقفا على مقربة منه ليسمع كفر زعيم الرسل الفظيع فالتفت ناظراً اليه. وليس الا بطرس قادراً على وصف ما تضمنته تلك النظرة من الحزن والعتاب. فانسحق قلبه من جراء ذلك وادرك حينئذٍ شدة سقوطه وما من شيء اعظم من السقوط على نفس الكريم وكان بطرس ذا نفس كريمة فاستحوذ عليه الخجل وستر راسه بردائه وخرج من الدار. ولم يجسر احد ان يسد الطريق في وجه تلك الكآبة الرائعة التي لم تعد منذ ذلك الحين تبالي بالاخطار والاعداء والموت ولكن كانت تهرب ماضية الى الظل والوحدة لتذرف امر العبرات واسخنها. وقد صلى يسوع لكي لا يفشل ايمانه بعد ذلك السقوط. وقد استعاد الرسول بالندامة الصادقة حقوقه بمودة يسوع و بالولاية السامية على كنيسته

ان غاية المجلس من الخطة التي كان يبتغي الجري عليها لم تكن فقط موت يسوع — فان عملاً عنيفاً يكفي لذلك — ولكن فضيحته بحضرة المحكمة وتسليمه بعدئذٍ الى الرومانيين كشرير حقير فمن ثم كان من الضروري الحصول على حكم نظامي و بالتالي محاكمة منظمة وشهود وقضاة. ولما كان يسوع قد طلب شهادة السامعين له في حضرة حنان استحضروا كل الاشخاص المجردين من الضمير المستقيم والمستمالين قبلا الى الحزب الكهنوتي. وحين أُدخل المتهم الى حضرة قيافا افتتح هذا المجلس باستنطاقه الشهود ولما كانت شهاداتهم متباينة غير كافية لاصدار الحكم عليه بالموت اغتاظ القضاة كثيراً. واخيراً حضر رجلان وشهدا على يسوع في وقتٍ واحد هذه الشهادة « انا سمعناه يقول: اني اقدر ان انقض هيكل الله وان ابنيه في ثلاثة ايام. اني انقض هذا الهيكل المبني بايدي البشر وابني في ثلاثة

ايام هيكلاً آخر غير مصنوع بايدي البشر» وكانت الشهادة زوراً ظاهراً و باطناً وكانت الكلمة الصحيحة التي كانوا ينوهون بها والتي كانت تنتمي الى سنتين قبل ذلك العهد تولي يسوع وظيفة مخالفة للوظيفة التي ينسبونها له فانه لم يقل استطيع ان انقض ولا سانقض الهيكل ولكن انقضوه اعني: « ستنقضون الهيكل وفي ثلاثة ايام اقيمه» انه من الممكن ان يكون اخطأ يسوع بالادعاء ولكن في الحقيقة لم يقل شيئاً مخالفاً للديانة · و بناء عليه جاءت الشهادة غير كافية ومن جهة اخرى انهم لم يكونوا يفهمون مفاد هذه الكلمة و بالنتيجة لقد ظهر ظلمهم · وفي الواقع لم يكن يسوع الذي فاه بتلك الكلمة قد فكر في ان يقيم في ثلاثة ايام حجارة الهيكل الذي شيده هيرودس وزينه · فالهيكل كان يقصد به دين اليهود الذي كانوا موشكين ان يبيدوه بقتلهم المسيح والذي كان يجب ان يقيمه بالصورة المسيحية بقيامته ذاته في اليوم الثالث

ولم يكن المتهم يجيب بشيء على كل ما تقدم لان الحال لم تكن تقتضي منه ذلك لمناقضة الشهود الواحد الاخر وخلو شهادتهم من اثبات ما يبتغيه المجلس وكانت هيئة يسوع الغير المتأثرة وصمتهم يزيدان في قلق القضاة فنهض قيافا بغتة وهو يكاد يتميز من الغيظ وتقدم الى وسط الردهة وقال: « اما تجيب بشيء عما يشهد هذان عليك » بيد ان هذه الحدة لم تحمل المتهم على الكلام ففهم قيافا حينئذٍ انه لم يكن بالامر السهل تخويفه او اخراجه عن حدود الادب وقد اختلفت ايضاً الادوار فظهر يسوع بعظمة قاضٍ لا ياخذه الخوف وابدى عظيم الكهنة اضطراب المدعى عليه

ولكي ينتهوا الى غاية ما قال واحدٌ من معاوني عظيم الكهنة: « قل لنا هل انت المسيح » فاجاب يسوع موضحاً بجوابه اللطيف عدم لياقة صمته: « ان قلت لكم فلا تؤمنون · وان سألتكم فلا تجيبوني ولا تطلقوني» وما هي الفائدة من المرافعة اذا كانوا لا يدرون بذلك سوى دسيسة · فصاح حينئذٍ به رئيس الكهنة: اقسم

عليك بالله الحي ان تقول لنا هل انت المسيح ابن الله المبارك»

فاجابه يسوع : « انا هو »

فلما كانوا يريدون ان يحملوه ظافرًا وان يضطروه الى ان يفتح ملكه ابى ان يصرح بانه هو المسيح واما الآن فبما ان هذا الاقرار يجب ان يقوده الى الموت اظهره ببساطة سامية ولكي يكون الاعتراف بالايمان اكمل اردف كلامه قائلاً: « وايضاً اقول لكم انكم من الآن ترون ابن البشر جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سحاب السماء » فالذي يتكلم بهذا الكلام لم يكن يتكلم كمتهم ولكن كملك بعظمة كبيرة فذلك الذي هو مدعى عليه اليوم سيصير غداً قاضياً واولئك الذين هم قضاة سيقفون مرتعدين عند قدميه كمجرمين مسؤولين امام عدالة اعظم من عدالة الارض

فاستشاط قيافا غيظاً وشقّ ثيابه قائلاً : « لقد جدّف فما حاجتنا الى شهود » فتمت هذه الكلمة من جهةٍ برغبته في ان يقضي بالموت على المدعى عليه ومن جهةٍ اخرى بالخوف لعجزه عن الاهتداء إلى شهود مخمين. فالحدة التي حملته على شقّ ثوبه الكهنوتي جهاراً افتتحت عهد تلاشي الديانة الموسوية

ثم اردف كلامهُ قائلاً : « ها انكم قد سمعتم تجديفه فما ترون » وبالحقيقة انه لم يقصد التجديف بل كان يطلب انفاذ الشريعة على يسوع مُعرِضاً عن كل جدالٍ بشأن الجريمة وهذا كان من الاستبداد. فاجابه القضاة بصوتٍ حيّ رائع : « انه مستوجب الموت » وبعد ذلك فضّوا الجلسة وخلّوا يسوع عرضةً لاهانات الجمع. ترى هل كانوا ذاهبين ليناموا وهم في اثمهم حتى النهار ام كانوا مهتمين بانفاذ حكمهم. فالافتراض الثاني كان مرجحاً على الاول لان النهار كان على وشك الدخول كما يستدلّ على ذلك من صياح الديك المتكرّر ومن جهة اخرى كان يبين لهم انه من الامور المفيدة ان يمهدوا بدون تأخير السبيل لتنزيه حكمهم عن الخطأ الذي اتسم به. وهذا الحكم قد اصدرته ليلاً على عجلٍ محكمة

وان كان عدد اعضائها نظامياً فانها نفت اصدقاء يسوع . وما خلا ذلك فان المجلس لم يشتكِ على المُتهم الاَّ بالتجديف و بالتعليم الكاذب فكان مستطاعاً له ان يقضي عليه بالعقاب التأديبي ولكن ليس له ان يقضي عليه بالموت . ولاصدار مثل هذا الحكم العظيم لم يكن بدٌّ من السلطة الرومانية و بناء عليه لم تكن السلطة الموما اليها تهتمُّ الاَّ بالجرائم السياسية وكان يسوع يتجنب دائماً التدخل في الشؤون السياسية . فكان يجب ايجاد واسطة لتغيير الشكوى المرفوعة والمقبولة عليه ولا ريب ان الساعات الاخيرة من الليل صُرِفت في ذلك الامر . واما يسوع فانه قضاها بنوعٍ اخر لان القضاة اسلموه الى ايدي خدام رئيس الكهنة وهؤلاء بعد ان احاطوا به وأهانوه وسخروا منه بصقوا في وجهه وضربوه بقساوة فبقي غير متأثرٍ من هبَّات العاصفة الاولى وتمَّ بنوعٍ عجيبٍ ما قاله النبي (اشعيا ٥٠:٦): « بذلتُ ظهري للضاربين وخدي للناتفين ولم استر وجهي عن التعييرات والبصق » فعصبوا على عينيه وتألفت حوله عصابة من الاشرار جهنمية واخذوا يلطمونه بالتناوب قائلين له : « تنبأ لنا ايها المسيح من الذي ضربك »

و بقي مشهد العنف والتجديف القبيح حتى مطلع الشمس وعند تبلج محيا النهار التأم المجلس ثانيةً التئاماً كان اكثر احتفالاً منه في الليل في الموضع الذي تعقد فيه جلساتهم الحافلة . وكان الاجتماع مؤلفاً من رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والكتبة لانه كما يقول القديس مرقس اجتمع جميع اعضاء المجلس وحينئذٍ استنطق يسوع ثانيةً استنطاقاً يحاكي الاستنطاق الاول كما يظهر جلياً من رواية القديس لوقا . و يحتمل حدوث ذلك . ومهما كان من الامر فان الحال كانت تقتضي قراءة صورة وقائع الدعوى عن الجلسة الليلية والتصديق عليها من القضاة ومن المدعي و يقول القديس متى انه لما تجدَّد ابراز الحكم كانت الغاية من ذلك الحصول على تنفيذه بالموت . وكان يجب ايجاد واسطة لحمل بيلاطس على التصديق على الحكم بالموت . وقد تداولوا في شأن الخطة التي رسمها اسدهم

رأياً فكان الواجب اظهار ذنب سياسيّ في الجرم الديني وكان يُستطاع ذلك بقولهم ان المسيح هو ابن الله وان المسيح هو ملك اليهود وبالنتيجة هو عدو قيصر. ولكي يجعلوا الحاكم الروماني ان يتأثر تأثراً عظيماً تألف المجلس في محفل حافلٍ وبدون ان يأنف من التنازل مضى اعضاؤه الى دار الولاية عند بيلاطس

§

الدعوى المدنية في حضرة بيلاطس

وكان يسوع يتبعهم موثق الايدي وهو في هيئة المحكوم عليه بالقصاص. فاسرائيل كان موشكاً ان يسلم بهيئة رسمية مسيحه الى الامم

انه منذ خلع ارخيلاوس فقدت اليهودية استقلالها كالسامرة وتولى ادارتها رأساً نائب كان مرجع امره الى حاكم سورية وليّ الامر في البلاد. وكانت جميع الدعاوى المهمة تحوَّل الى عهدة هذا الحاكم الاخير فكان يصدر احكاماً قطعية وكان تحت امره فيلق من الجنود شأنه المحافظة على تنفيذ اوامره وكان من عادته ان يقيم في قصرهِ على شاطىء البحر لكنه كان يمضي الى اورشليم بجنودهِ في اعياد اليهود للمحافظة على الراحة

وكان بيلاطس البنطي سادس الولاة الذين تولوا ادارة اليهودية في عهد الرومانيين ومكث في الولاية من السنة ال٢٦ الى السنة ال٣٧ بعد يسوع المسيح في ايام العاهلين طيباريوس وكاليغولا وقد مثله لنا فيلون بصورة الرجل المتكبر العنيد. فمضى اعضاء المجلس والمحفل المتهيج الى القصر الذي كان يقيم فيه والذي يسميه الانجيليون دار الولاية

ولا يبعد انها كانت الساعة السادسة صباحاً ولم يكن من عادة القضاة الرومانيين ان يعقدوا مجلساً قضائياً قبل الساعة التاسعة. فبيلاطس الذي كان قد امر جنوده ان يلقوا القبض على المتهم كان هذه المرة قد وقف على كل ما حدث في الليل. كما تبين ذلك من مخاوف زوجته ومن ثم كان يتوقع بدون

تمهل وصول رؤساء اليهود ولا بدَّ من أنَّ هؤلاء كانوا يرغبون في حسم المسألة سريعاً لكي لا يدعوا لاصدقاء يسوع الفرصة للتدخل في دعواه وينقذوا المتهم وفضلاً عن ذلك كان العيد على وشك الابتداء. وكان من الامور المهمة ان ينهى كل شيء حالاً لكي يستطيعوا ان يتفرَّغوا لمزاولة الرتب الدينية التي تفرضها الشريعة. والقديس يوحنا ينبه على ان اليهود المرائين بينما كانوا يثيرون الهياج والضوضاء حول دار الولاية أبوا ان يدخلوها لئلا يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح. فانقاد بيلاطس الى اوهامهم وخرج الى سطح قصره ولكن ليس بدون موجدة كما يستدل على ذلك من صفة خطابه الاول المختصر والفظ لانه لم يكن يروق لدان يقلق على هذا النمط وان يجد عند استيقاظه نوعاً من الهياج الثوروي حول داره فقال لهم: «اية شكاية توردون على هذا الرجل» فالدخول على هذا الوجه في الدعوى دون مقدمة اخرى كان يظهر انه يبتغي الفراغ منها سريعاً. وان ما كان عنده من الدعوى مما كان قد ورد عليه من الانباء في الليل يستطيع ان يحقق هذه اللهجة الفظة التي كانت موافقة كل الموافقة لخلقه. ويقول القديس متى انه كان عارفاً ان رؤساء الشعب كانوا قادمين اليه بيسوع مدفوعين ببغض يثيره الحسد فاحتدم غيظاً من رؤيتهِ اياهم قضاةً وخصوماً في دعوى تتوقف عليها حياة انسان. وكان اعضاء المجلس يؤملون انهم ينالون من الوالي بدون مجادلة تصديقاً بسيطاً على حكمهم. فاحترامهم لسلطته ومظاهرات الشعب حول القصر وحضورهم بانفسهم كل ذلك كان يستحق ان ينقاد بيلاطس بدون ادنى مرافعة الى انصافهم ووجدان ضمائرهم ولذلك كانت دهشتهم عظيمة عندما آنسوا في سؤال الوالي الروماني المتعجرف اسقاط اعمالهم الليلية بغتة وتحويل القضاة الى مشتكين فاغتاظوا من تلك الهيئة التي لم يكونوا ينتظرونها واجابوه بحدة وفخة: «لو لم يكن هذا عامل سوء لما كنا اسلمناه اليك» وكان الامر في غاية الوضوح فانهم لم يأتوا الى محكمة الوالي الا لكي يطلبوا منه ان

يرضى بوظيفة الجلاد حافظين لذواتهم وظيفة القضاة. فلم ينخدع بيلاطس بذلك واظهر انه مشترك معهم في افكارهم وحينئذٍ قال لهم بفظاظةٍ وتهكم: « خذوه انتم واحكموا عليه » ولما كانوا يريدون ان يكونوا وحدهم قضاةً على المدّعى عليه كان يجب عليهم ان يعاقبوه كما يرشدهم اليه استحسانهم المبني على الحكمة واما هو فلم يُرِد ان ينفذ الحكم الا على المجرمين الذين سمع الدعوى عليهم بوجهٍ شرعي. ومن جهةٍ اخرى بما ان لحقوقهم حدوداً معينة يقضى على يسوع بموجبها ان يحرّم او على الكثير ان يُجلَد من المشتكين عليه لم يهتم بيلاطس بالسلطة التي منحها لهم ولا بنتائجها!

ومع ذلك لما وجد اليهود انفسهم متحيرين بين امرين اما تسليم المدعى عليه ليحاكم امام بيلاطس معتبرين ما حدث في الليل كانه لم يكن واما معاقبته بموجب الاذن الذي نالوه منه' ولكن دون ان يقتلوه لانه لم يكن لهم الحق بذلك ففضلوا تجديد المرافعة. وحين ارتضوا جهاراً بسقوط حقهم المدني صاحوا قائلين: « لا يجوز لنا ان نقتل احداً » فمثل هذا الاقرار كان يجب ان يذكرهم بنبوّة يعقوب القديمة بحيث ان قضيب الملك قد زال من يهوذا لماذا لا يطالبون المسيح في اسرائيل. ويجب ان نلاحظ ان رؤساء اليهود بتركهم حقوقهم لم يتركوا بغضهم. واذا كانوا قد فوضوا الدعوى الى الوالي فانهم فعلوا ذلك لكي يحكموا بها قبل البحث عن كنهها لان جوابهم كان يشير الى الحكم بالموت. وعليه متى نالوا الحكم عليه بالموت يصير كل واحدٍ عارفاً قبل حين نوع العذاب الذي يعذّب بهِ. ويروي القديس يوحنا انهم دخلوا هكذا دون ان يريدوا ذلك في الطريق التي كان يجب ان يحقق وقوع نبوّات السيد عن موته على الصليب

وحينئذٍ شرع الثائرون يقذفونه بالشكاوى الكاذبة قائلين. « انا وجدنا هذا يفسد امتنا ويمنع من اداء الجزية لقيصر ويدّعي انه هو المسيح الملك »

وهكذا بعد ان انتقلوا من القضاة الى المشتكين تجرأوا على ان يشهدوا عليه شهادة زورٍ وكان بيلاطوس ذا دهاء فلم يُموَّه عليه بتظاهرهم بالغيرة على الدفاع عن حقوق قيصر. واذ لم يرد ان يفتح الدعوى في اثناء صخب الجمع وربما فعل ذلك اكراماً للمدَّعى عليه ادخل يسوع دار الولاية وسأله قائلاً: «أأنت ملك اليهود» وكان التهكم واضحاً في سؤاله ولا ريب انه دُهش من رؤيته نسبة الآمال بالعظمة والملك الوهميين الى انسانٍ ذي ظواهر بسيطة حقيرة فاجابه يسوع: «أمن عندك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني» ولكي يُحْسن يسوع الجواب كان محتاجاً الى ان يعلم على ايّ محملٍ كان بيلاطس يحمل كلمة ملك هل كان يتكلم كيهودي ام كوثني. فاذا اعتبر المعنى المطلق كان يقضي على يسوع ان يجاوب نعم واذا نُظر الى المعنى السيامي كان يجب ان يقول لا. فبيلاطس الذي لم يكن يدرك هذا التمييز والذي كان منتظراً جواباً سلبياً صاح وهو مقطب الوجه: «ألعلّي يهودي انّ امتك ورؤساء الكهنة هم اسلموك اليّ فما الذي صنعتَ» وعلى هذه الصورة ظهرت عجرفة الوالي وفظاظته بغتةً. فبدون ان يتأثر يسوع استأنف تصوره وشرع يميز بين مملكتين احداهما مملكته الخاصة وهي النظام الفائق الطبيعة والاخرى اقيصروهي مملكة النظام العالمي فقال: «ان مملكتي ليست من هذا العالم ولو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يحاربون عني لئلاً أُسلَّم الى اليهود» وهذا هو البرهان الواضح على انه ليس ملكاً كملوك الارض فلم يكن عنده جنود مُطيفون به للمدافعة عنه وقد قبض عليه اليهود بدون ادنى مقاومة وبناء عليه لا تستطيع مملكته في حالةٍ من الاحوال ان تزري بمقام سيادة قيصر فقال وهو مصرٌّ على انكاره «ان مملكتي ليست من هنا» قال له بيلاطس مندهشاً: «أفملكٌ انت إذَن» اجاب يسوع: «انت قلت اني انا ملك اني لهذا وُلدت ولهذا اتيتُ الى العالم لاشهد للحق فكلُّ من كان من الحقِ يسمع صوتي» فكان ولامراء موشكاً ان يستنتج

قائلاً : من يسمع صوتي هو من رعيتي » فقاطعه يلاطس الكلام قائلاً :« وما هو الحق » قال هذا وخرج دون ان ينتظر الجواب

ان ذلك الرجل الروماني الذي سؤالاً لم يكن يرغب في الحصول على الجواب عنه لانه كان يتظاهر نظير الخاصة في عصره وبلاده بالكفر وعدم اليقين في كل شيء ولذلك كان يأبى الارتشاد . فكل ما كانوا يطالبونه به هو ان يصدر الحكم في دعوى ما وها هو موشك ان ينتهي من هذه الدعوى التي كان عارفاً حقيقتها حق المعرفة فحسب وجدانه لا يمكن ان يكون المدعى عليه مهيجاً سياسياً كما يزعمون ذلك بل هو غريق في تيار الاوهام وفيلسوف من مذهب جديد وبناء عليه يجب اشهار براءته امام الشعب والانتهاء من ذلك فخاطب الجمع قائلاً: « اني لم اجد على هذا الرجل علة » وقد ادّى بذلك شهادة ليسوع قاطعة بمقدار ما هي منزهة

وحينئذٍ ارتفعت اصوات الجمع بالوعيد وكان زعيم الثائرين يتكلم ورؤساء الكهنة وشيوخ الشعب يقدمون عليه شكاوى جديدة . فدهش يلاطس من ذلك واضطرب وكان يرغب في ان يعترض المدعى عليه على خصومه الا ان يسوع كان يرتإي خلاف ذلك فصمت صمتاً مفعماً عظمةً وسلطةً . ولما كان قد اجاب بسداد وعظمة حين سئل عن صلاحية ارساليته ظنّ انه لا يليق به ان يحامي عن براءته وفضيلته فقال له يلاطس « اما تجيب بشيء انظر كم يشكونك » فلم يعد المدّعى عليه يقول شيئاً والحاكم الذي لم يكن يريد منه سوى كلمة واحدة ليخلصه تعجب من عدم نيله ذلك وصار يتذهل منه

ومع ذلك كان هذا الرجل طماعاً اكثر منه كريماً فوقف متردداً في الامر وكان الجمع يشتكي على يسوع انه يهيج الشعب بتعليمه وقد تناولت سلطته الثوروية الجميع من الجليل الى اورشليم . فبذكرهم اسم الجليل كانوا يدعون بنوع خاص انهم يؤثرون على عقل يلاطس لانه من الجليل كان يخرج دائماً

ذوو الفتن الذين كان يدفعهم حبهم الوطن الى طرح نير الرومانيين — فهذه الدلالة اثرت بالوالي ولكن من وجه آخر وذلك انها سنت له وسيلة فرأى ان يرسل المدعى عليه من دائرة المدينة التي أُلقي القبض عليه فيها الى دائرة المدينة التي وُلد او قطن فيها وذلك كان مطابقاً للقانون الروماني. وفي الواقع بعد ان استخبر عن ذلك بسرعة وتحقق أن يسوع كان جليلياً ومن ايالة هيرودس بادر الى ارساله الى محكمة مولاه — فهذا الاتفاق كان للوالي الحاذق ذا منفعتين : التخلص من دعوى دقيقة لا تنجو سياسته وضميره من غوائلها واغتنام الفرصة لمصالحة هيرودس الذي كان قد اغتاظ منه منذ عهد قريب بتقديمه له برهاناً على تكريمه

§

حادث لدى هيرودس

كان رئيس الربع في اورشليم في اثناء الاعياد الفصحية وربما كان نازلاً في قصر ابيه الفخيم فيمم الجمع تلك الجهة آخذين معهم الاسير. وكان هيرودس متمذهباً بمذهب ابكيروس المادي ولكنه كان متخلقاً باخلاق اليهود فلما رأى يسوع قادماً فرح جداً لانه من زمان طويل كان يسمع الناس يتحدثون عنه انه عجائبي شهير وكان يؤمل ان يراه عاملاً بعض الاعمال المدهشة. ان الناس العظام يرغبون وهم في عطلة من العمل ان يروّحوا خواطرهم باشياء جديدة فرأى رئيس الربع ان قبوله رجلاً من اشهر رجال عصره حظٌّ عظيم فالقى على يسوع عدة اسئلة مآلها الوصول الى تحقيق رغبته وتسلية الاعوان الذين يحيطون به. فلم يرَ هيرودس في اول رعاياه سوى عرّافٍ او ساحر مشعوذ وكانت الاهانة للمعلم عظيمة فلم يجب بشيء على ذلك الاستنطاق المهين بل صمت. ان بيلاطس الوثني قد دهش من صمته ولكن هيرودس الضعيف الحواس احتقره وكان حينئذٍ رؤساء الكهنة والشعب يقذفونه بشكواهم ولكن دون ان يخرجوه

عن دائرة الصمت الدال على قوته وكرامته واستنتج هيرودس وذووه من ذلك انه كان ابله او احمق واستهزؤا به والبسه رئيس الربع ثوباً ابيض وردّه على تلك الحال الى بيلاطس مجتازاً به ازقة المدينة

فالثوب الابيض كان قبل كل شيء رمز براءة المدَّعى عليه ومن ثم صار هذا المرء بريئاً من جرمه بواسطة سلطة ثانية. فكونه متعصباً او ملحداً او مملوماً لا يثبت عليه جرم كبير. وازداد اضطراب الحاكم الروماني عند رؤيته يسوع عائداً اليه ولم تنجح طريقته الاولى بشيء فاعمل رويته في ايجاد وسيلة اخرى ادنى من الاولى لا اقل كراهةً منها فعاد فاتخذ وظيفة قاضٍ وخاطب رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب الذين كانوا يكتنفونه قائلاً لهم: « قد قدمتم الي هذا الرجل كانه يفتن الشعب وها انا قد فحصته امامكم فلم اجد عليه علةً من العلل التي ترمونه بها. ولا هيرودس ايضاً لاني ارسلتكم اليه وهوذا لم يصنع به شيءٌ من حكم الموت » وكانت نتيجة التحقيقات المتعددة قد حصلت قانونياً فان يسوع لم يكن قد اضرم نار الثورة لا في اليهودية ولا في الجليل وبناء عليه كان القضاء عليه بالعقاب الاخير يظهر مستحيلاً فقال بيلاطس: « انا أؤدبه واطلقه » فاذا كان صاحب خيالات واعتقادات تنجع فيه هذه الامثولة. أجل ان مثل هذه المعاملات الشرسة تكفي الجمع ولا تلحق بالوالي التبعة ووخز الضمير على جوره الكبير

§

القضاء بالقصاص

ولما كان يريد مسرة الجمع اعمل الدهاء الى النهاية وفتق له العقل حيلةً ثالثة متممة للثانية ولاح له انها تقنع الشعب بدون تضحية حياة المدعى عليه. انهم يطلبون معاقبة يسوع بالصلب وبيلاطس يمنحهم سؤلهم في الظاهر لكنه في الحقيقة كان يبتغي خلاص البري. فالعقاب الشديد يتألف من نوعين الجلد والصلب فالاول كان موشكاً ان يجرى بصرامةٍ والثاني سيعاقب به يسوع ادبياً

فقط فيُعتبر كأنه حكم عليه بالموت فيلحق به عار الجرم. ولما كانوا في ابان الاعياد الفصحية وكانت العادة الجارية عندهم تذكارًا لتحرُّر اسرائيل من نير عبودية الفراعنة ان يطلقوا اسيرًا عال الوالي نفسه بالاهتداء الى وسيلة لانقاذه. أجل انه كان في السجن رجلٌ يقال له برابا وكان ذلك قد قبض عليه والقي في السجن لاجل اشتراكه في فتنة حدثت. فاذا قوبل بين المتهمين كان ولامراء بذلك خلاص حياة البري، فقال: «قد جرت العادة ان اطلق لكم في العيد رجلاً» فصاح الجمع: «نعم ان هذه هي العادة والحق» وحينئذٍ ترجح عنده نجاح ما كان دبره من الوسائط فقال لهم: «من تريدون ان اطلق لكم أبرابا ام يسوع الذي يُقال له المسيح ملك اليهود» فبان له من المستحيل ان لا يكون بين الشعب عديدٌ من حزب يسوع يلتمسون العفو عنه وان رؤساء الكهنة الذين دفعهم القلق الى كل ما فعلوه في هذه الدعوى قد تركهم الجمع في تلك الساعة الاخيرة. والحق يقال انه حدث مناقشة في ذلك الحين في هذا الشان وكانت الظروف موافقة لاصدقاء يسوع المختلطين بالشعب وبالمقابلة بين المحكوم عليهما يظهر الفرق لكل ذي عينين وفي كل الاحوال لم يكن يجسر احدٌ ان يدعي ان في يسوع روح الثورة كما كان في برابا القاتل. ولكي يظهر اكثر عظمة جلس على كرسي الرئاسة لكي ينتظر آخر جواب من قبل الشعب وبينما هو كذلك ارسلت امرأته اليه رسولاً تخبره عن مخاوفها التي شعرت بها بخصوص يسوع وتقول له: «اياك وذاك الصديق فاني قد توجعت اليوم كثيرًا من اجله في الحلم»

وكل هذه الامور كانت تزيد وساوس الوالي وتقنعه في ضميره كقاضٍ على نبذ الصخب الذي كان يرتفع من جديد على المدعى عليه. وكان الجمع الذي اقنعه رؤساء الكهنة والشيوخ يزدادون صياحاً «ويقولون اصلب يسوع وطلق بارابا» وقد يحدث احيانًا مثل هذا الظلم في احكام الجمهور — فهنا اجد رجلان للمقابلة ولنكد الطالع يطلق عليهما اسم واحدٌ لان احدهما يسمى

يسوع ابن الله والآخر يسوع ابن الآب فالاول يكرز على امثاله بالسلام والثاني يثير عليهم حرباً دموية ومع ذلك فانهم يطلبون العفو عن القاتل ويلتمسون موت البارّ

فالوالي دُهش واضطرب وكانه لا يصدق ما يسمعه باذنيه فالقى على الجمع للمرة الثانية السؤال الذي كان سمع الجواب عنه بحنقٍ عظيم قائلاً: «ماذا تريدون ان اصنع بملك اليهود الذي يقال له المسيح» فصاحوا كلهم: «ليصلب اصلبه اصلبه» ولم يبقَ في قوس سياسة بيلاطس منزع. واذ كان متردداً في ان يضطرهم الى اتباع مشيئته راى ذاته مكرهاً على المسير بموجب ارادة الشعب الذي استشاره. ومع ذلك كان يرى انهم يطلبون منه امراً اعتسافياً فشعر انه يجب ان يقاوم اكثر ولو كان بمجبانة تزداد ظهوراً شيئاً فشيئاً. وكان في ذلك المشهد شي من الغرابة فان الوثني يدافع عن المسيح بازاء اليهود الذين يهينونه ويقتلونه. وللمرة الثالثة قبض بيلاطس على دعوى يسوع وقال: «وايّ شرّ صنع هذا اني لم اجد عليه علةً للموت فانا أؤدبه واطلقه» فرجع هكذا الى الذريعة الثانية المذكورة قبلاً ولكن دون ان تنفذ

وحينئذٍ لما راى الجمع ضعف عزمه الحوا عليه في الطلب قائلين: «الصليب الصليب» فعند عودتهم الى أبداء تحدّم حنقهم وعند تردد بيلاطس نفسه شعر هذا انه لم يبقَ املٌ بنجاة يسوع فمنذ ذلك الحين صارت نفسه معتركاً جرت فيه معركة مؤلمة بين اعتقاده ومصالحه لم يستطع الانجيليون وصفها. فطلب ماء وغسل يديه امام الشعب وقال: «اني بريء من دم هذا الصديق أبصروا انتم» ولكي يجعلهم ان يفهموا حق الفهم عواطف قلبه الحقيقية ويدفع كل تكافل ومسئولية في مثل هذا الجرم التجأ الى علامة رمزية كان مقضياً على كلٍّ منهم ان يعرفها لانها كانت مستعملة عند اليهود (تثنية ٢١: ٦) وفي الحين نفسه اخذ الشعب على عاتقه المسؤولية التي رفضها الروماني وقالوا: «دمه علينا وعلى بنينا» ولا حاجة الى بيان كيف ان الله قد استجاب ذلك الدعاء الكفري

فدم هذا البار لا يزال على ابناء المجرمين دون ان تستطيع ان تمحوه العصور ولا التمدن الحديث ولا مذهب اللاأدرية العام

ان بيلاطس الذي صرّح ببراءة الضحية المسكينة ووسم فعل القتل الذي طلبه الثائرون بميسم الاثم الفظيع امر مع ذلك ان يجلد يسوع فهذا العذاب كان الاعداد للصلب وقد واطأ الوالي رعاع الشعب على رغائبهم الدموية ولكن على امل ان يتصدّى لهم فيخلص من ذلك المدّعى عليه المنكود الحظ

فجلد يسوع . وكانت تلك المعاملة ذات فظاعة كبيرة لا يحتمل معها بقاء الشهيد حياً . وكان الرومانيون يجلدون تارةً بالعصي وطوراً بسياط ذات سيور من الجلد عقد على اطرافها عظام صغيرة مربعة الشكل او قطع من الرصاص . وكان المحكوم عليه بالاعدام مشدوداً الى عمودٍ بنوع ان ظهره يكون محنياً وجلده ممتدا ويرجح ان يسوع جلد بالسياط لان الجلد بالعصي كان من خصائص الجلادين وبيلاطس الذي لم يكن سوى نائب لم يكن في خدمته جلادون . فانفذ الجنود بكل صرامةٍ الامر المعطى لهم لان الشراسة التي اظهروها بعد قليل لكي يزدروا بملكه الوهمي تحملنا على افتراض ذلك

والحق يقال انه بينما كان بيلاطس راجعاً الى غرفته جذب الجنود يسوع الى دار الولاية وجمعوا حوله كل الجمهور واتفق انهم عثروا على ثوب احمر خلق فالقوه على منكبيه بمثابة رداء ملكي واحتاجوا الى اكليل فضفروا على راسه اكليلا من شوك وجعلوا في يده اليمنى قصبة على شكل صولجان ثم جثوا على ركبهم بالتناوب في حضرته قائلين: « سلام ياملك اليهود » وكانت العادة الجارية عندهم ان يقبلوا جبين الملك الجديد الممسوح اما هم فكانوا يأخذون القصبة من يده ويضربون بها راسه . وفي آخر الامر ارادوا ان ينجزوا ذلك الاستهزاء القبيح بافضح المعاملات فاخذوا تارة يجثون امامه ليعبدوه وطوراً ينهضون ليبصقوا في وجهه ولم يكن يسوع ليفوه ببنت لسان

فهل كانت عينه تنظر في مستطرف الايام الى جيش جنود المؤمنين الذين سيعترفون به ملكاً وان كلل بالشوك كما عرف موسى الله في العليقة الملتهبية او الى اولئك الشهداء الذين يسفكهم دمهم لمجده كان يقضي عليهم ان يتسبحوا له في مستانف الدهر رداء ملكه الابدي الارجواني . وهل كان يرى صولجانه القصبي يسحق عروش ملوك الارض . يا للعجب العجاب انه يبقى واقفاً في ضعفه القوي بينما تواري نسمة الثورات كل الممالك . او هل يفكر انه سيكون وحده في العالم ذا رعية تحبه كآب وتخدمه كملك وتعبده كاله دون ان يقدر احد ان يغير او يخفف او يفشل ولجة الشرف هذه في ابان الاجيال الآتية . او هل التفت الى السماء وقدم ذاته للاب كالحمل الناشب في الاشواك والمعد للقيام مقام اسحق في ذبيحته . وكآدم الجديد المجتني الاشواك النابتة على الارض الملعونة واخيراً كالمسيح المغطى بالعليق الذي قدمه اسرائيل الكرمة المجدبة لسيده القادم ليجني ثمارها . كل هذا يحتمل حدوثه ولكن الامر الحقيقي هو بما انه الضحية التكفيرية وملك المستقبل قدم لعبادة البشر رأسه المجيد المزين بالاكليل المضرج بالدم كشمس باشعتها وتحت ذلك الاكليل المضيء الذي لا يستطيع ان يكسفه ظلام تبصر عين الابرار و يحيي قلبهم كل يوم محبة الله وعظمته

وكانت قد دنت الساعة التي فيها يناصب بيلاطس المناصبة القطعية ذلك الجمهور القاسي . فخرج اول الجميع وشرع يدافع عن دعوى الشهيد مكرراً ما كان قد قاله : « ها انا اخرجه اليكم لتعلموا اني لا اجد فيه علة » وكان لمدافعته الاخيرة برهانان وهما : انه قد اساء معاملة يسوع اكثر مما كان قد وعد بذلك ومن ثم كان جديراً بالشعب ان يكون مسروراً من ذلك العقاب الصارم ومن جهة اخرى انه اقتنع اكثر من الاول ببراءته . وعليه أليس من اللياقة ان يراعي الآن ذلك الشعب احساسات بيلاطس و يوقف عند الحد هذا تلك الدعوى الجائرة .
وكان يسوع يتبعه وعلى راسه اكليل الشوك وعلى منكبيه رداء الارجوان فاراه

بيلاطس للشعب مشيرا اليه بشفقة وقال: « هوذا الرجل» فانه كان في الحقيقة الرجل الفادي المنتظر من البشرية. الرجل الممثل آدم الحقيقي وقد نطق بيلاطس بكلمة لم يكن مستطيعاً ان يدرك معناها السري. فهو كان ايضاً الرجل الذي لم يعد بعد رجلا لان قوة اعدائه قد شوّهته وقد تحققت فيه بنوع مرعب نبوءة اشعيا (٥٣: ٣) كما تحققت نبوءة صاحب الزبور (٢٢: ٧). وهو كان اخيرا الرجل المائل الذي كان روساء الكهنة يشكونه كثائر خطر مدع بالملكية وكعدو لقيصر. ولم يكن يشعر بيلاطس عند النظر اليه الا بشفقة فائقة الوصف ومع ذلك لم يكن من دينه ولا من مواطنيه وكان يظن ان المدعين عليه كانوا مزمعين ان يعفوا عنه متحننين عليه من ذلك المشهد المحرك ساكن الشفقة. على ان مهم ظنه اخطا المرمى لان الوصول الى العدالة الطبيعية والشفقة والنعمة اصعب على القلب الثائر في الدين منها على الوثني. فالبغض الديني الذي يزرعه الشيطان في القلب لا يعرف الشفقة ولا شيء اقسى من الانفس التي رأت عن قرب البرارة الحقيقية والجمال الادبي ولم تشعر بقيمتها التي لا تماثل. ومع ذلك ان هذا المشهد المؤثر كان يتهددهم بتحريك عواطف الشعب الذي اذا خلي وشأنه لم يحرم عواطف حسنة فبادر رؤساء الكهنة وخدامهم الى الجواب صائحين قبل سواهم وقائلين: « اصلبه اصلبه » فاغتاظ بيلاطس من تلك القساوة وقال لهم: « خذوه انتم واصلبوه فاني لا اجد فيه علة » وكان كالمرة الاولى يأبى ان يقضي عليه بالموت ويصرف الجمع بتفويض لم يكن كافياً لهم. ولسوء الحظ عرف احذق زعماء الثائرين ان ضمير الوالي وان اظهر شهامة كان على وشك الاذعان لهم فاجابوه قائلين: « ان لنا ناموساً وبحسب ناموسنا يستوجب الموت لانه جعل نفسه ابن الله » فهذه الكلمات التي تشف عن قحة كانت تدل على ان اذا كان اليهود يقبلون السلطة الرومانية فعلى شريطة ان الرومانيين يحترمون الناموس اليهودي. وفضلا عن ذلك كانت ترجع الدعوى الى محورها الاول بترك الجهة السياسية

التي لم يظهر لبيلاطس فيها شيء من الجناية

ان الشكوى الدينية الجديدة المبسوطة على المنوال المتقدم ذكره اقلقت خاطر الوالي بنوع غير منتظر فانه لم يحكم كاليهود بان هذه الكلمة « انا ابن الله » الخارجة من فم الرجل العجيب الذي كان يقضي عليه كانت تجديفاً بنوع مطلق. لكنه توقف عندها وخامره الخوف من انه اذا لم يكن في حضرة ابن الله الحقيقي فعلى الاقل في حضرة بار صديق السما. تستطيع الالهة ان تدافع عنه وتنتقم له بطريقة صارمة. فالوساوس كانت تثير امام عيني الوثني اقتم الاشياء المستقبلة فدخل حالا دار الولاية آخذاً يسوع معه وهناك قال له وهو متأثر كل التأثير: « من اين انت » فهذا السؤال لا يمكن ان يكون له سوى معنى واحد وهو: « هل من الارض ام من السماء. هل انت انسان ام اله » لانه كان يعرف حسناً ان يسوع كان جليلياً. فلم يجب يسوع بشيء. وحينئذٍ قال له بيلاطس منذهلا: « الا تكلمني اما تعلم ان لي سلطانا ان اطلقك او ان اصلبك » اجل انه كان له سلطان ولكن لم يكن له حق بذلك ولما كان السلطان الذي ينوه به ضد العدل والحق كان لا محالة سلطان الاثم والقتل. وبناء عليه اقتصر يسوع على القول بعظمة قاضٍ يزن في ميزانه بيلاطس والمجلس والعالم: « ما كان لك عليَّ من سلطان لو لم يعط لك من فوق من اجل هذا كانت خطيئة الذي اسلمني اليك اعظم »

وبدلا من ان يتبع الوالي ايضاحاً باتاً لم يطلب سوى تكثير الوسائل والذرائع لانقاذ البار بيد ان اليهود لم يعودوا يصيخون سمعاً لمطالبه ومع ذلك فقد اصر على الميل الى تبرئة جهارية بسبب نقصان الشكاوي المهمة. وكان خلقه الشرس والحاد موشكا ان يحسم تلك المرافعة واذ اوهم الجمع خيبة الامل صاحوا حينئذٍ بالوالي مقدمين له برهانهم الاخير. والحق يقال انه ولو كان البرهان قاطعاً يظل يدل على حقارة اولئك الذين تجرأوا على ابرازه لان الوطنيين

المتكبرين قد داسوا باقدامهم قبل تقديمه كل آمالهم بالاستقلال ورجاهم بالمسيح وقد ارتضوا بنيل الغلبة حالياً بتضحية كرامتهم الوطنية فصرخوا قائلين: «ان انت اطلقته فلست محباً لقيصر لان كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر» فيا لتعاسة ذلك الشعب فانه لم يعش الى تلك الساعة الا بانتظار محرّر و بغضاً ليسوع انكر الى الابد كل من يريد ان يكون محرراً له. وفي الحقيقة ان البرهان كان قويا ضد سياسي ينظر الى حفظ مركزه اولاً وثانياً الى صوت ضميره فلم يقو بيلاطس على المظاهرة بعدم الاكتراث بقيصر نظير طيباريوس شديد الغيرة على سلطته. فهذا الوعيد الاخير افقده كل ثباته فطلب يسوع الذي كان قد غادره في دار الولاية. و بموجب العادة الرومانية كان يجب على المدعى عليه ان يسمع بذاته الحكم عليه وكانت الشريعة تقتضي ايضاً اصدار الحكم جهاراً ومن محل مرتفع. وهذا المحل كان عبارة عن ساحة ذات فسيفساء تدعى في اللسان الارامي جبعتا و باللغة اليونانية ليتستروتس وكان كرسي القضاء في تلك الساحة وكان الوالي قد جاس عليه في المرة الاولى لكي يبرىء ساحة يسوع والان صعد عليه لكي يقضي عليه بالموت

والقديس يوحنا يلاحظ بدقة عظيمة توضحها اهمية الحوادث انهم كانوا يهيئون الفصح وكان نحو الساعة السادسة. فلما ظهر يسوع صاح بيلاطس قائلاً: «هوذا ملككم» ألم يكن في تلك الكلمة الأ تهكمًا مرًّا من المحتمل انه لم يكن غير ذلك. على ان تلك الكلمة اصابت المرمى فصاح الشعب المائج: «ارفعه ارفعه اصلبه» فالح عليهم بيلاطس قائلاً: «أأصلب ملككم» وفي ذلك الحين ختم رؤساء الكهنة الذين كانوا من حزب الاستقلال القديم واجابوه بمنتهى الدناءة: «ليس لنا ملك غير قيصر»

وحين رأى الوالي ان الحزب الكهنوتي يستسلم الى قيصر لم يتأخر عن تضحية يسوع فان مثل ذلك التنازل الجهاري كان يستحق ان يكافأ بتلك

المكافأة وحينئذٍ نطق بذلك الحكم المشؤوم فقال بيلاطس للجلاد الكلمة الاصطلاحية او العرفية او المصطلح عليها «هلمَّ هيّء مشنقة» وللمحكوم عليه «وانك متصلب»

الفصل الرابع

في عذاب يسوع وموته

يسوع حاملٌ صليبه — ما جرى على الجلجلة — يسوع دُفن في قبرٍ مختومٍ ومخفور

(طالع متى ٢٨:١—١٥و٢٨:١٦—٢٠ ومرقس ١٤:١—١١و١٦: ١٢—١٨ ولوقا ٢٤:١—١٢و٣٦ و٤٩و٢٦:١٣—٣٥و يوحنا ٢٠:١—٢٩ و٢١:١—٣٤)

§

يسوع يحمل صليبه

انه بموجب ناموس موسى كان يقضى على الجاني بقطع رأسه او بخنقه او بحرقه او رجمه ولكن لم يكن يجوز ابداً ان يصلب. فلم يكن يعمد الى الصلب الا للجثث كاهانة عظمى للميت الذي كانوا يريدون ان يذيعوا عاره. وان عذاب الصلب الحقيقي الذي استنبطته قساوة بعض الظلمة الشرقيين استعملته رومية لمعاقبة العبيد. فكانوا يأخذون شجرة متشعبةً ويعلقون عليها الجاني بذراعيه وكتفيه وساقيه فكان ثمتَّ يموت جوعاً وعطشاً ويأساً. وحينما لم يكن لديهم شجرة على الشكل الملائم للصلب وكثيراً ما كان يحدث ذلك كانوا يتخذون لهم عموداً كبيراً ويسمرون عليه خشبة عريضة. ولم يكن على الغالب ذلك العمود عالياً جداً ولا متناهياً في الثقل لان العادة كانت جاريةً ان المجرم يحمل بذاته

على منكبيه خشبة العذاب ويظن ان السلطة الرومانية كانت مهيئة باستدراك ممقوت في اورشليم كما في غيرها من المحال التي تتناولها ادارتهم مواضع لعذاب المجرمين

وبدون ان يضيعوا دقيقةً واحدةً نزعوا عن يسوع رداء الارجوان الذي كانوا البسوه اياه وامروه ان يحمل صليبه ويمشي . وكانت العادة تقتضي ان يحملوا قدامه او يعلقوا على ظهره كتابةً بحروفٍ غليظةٍ تدل على علة الحكم عليه بالموت . وكان شقيان حكم عليهما بالعذاب عينه يحفان به ليزيدوا ذلك المشهد احتقاراً . وحيث ان بيلاطس لم يكن عنده جلاَّدون كان جنود يتولى امورهم قائدٌ قد عُهد اليهم ان ينفذوا الحكم

ولما خرج المحفل المحزن من دار الوالي توجه الى احد ابواب المدينة ويرجح انه كان الباب الاقرب وبعد ان اجتازوا ساروا في طريق توءدي الى الحقل

وبعد قليل من الزمن بدت على المحكوم عليه دلائل الانحطاط بالرغم من شجاعته ولا غروَ فان ما قاساه من الانفعالات في الليل والجلد والتكليل بالشوك قد اضعفه كثيراً . فلما راى الجنود تهاديه في مشيهِ اضطروا الى الوقوف هنيهة ليأخذ روعه اذ كانوا يريدون ان ينتهوا الى موضع العذاب . وكان رجل راجعاً من الحقل فرقَّ قلبه على نكد طالع ذلك الشهيد فمن ساعتهم سخروه ليحمل الصليب فاضطرَّ الى الاذعان لذلك مربداً او مرغماً . وكان يسوع يسير امامه كأنه يجعلهم يعلمون انه كان مزمعاً ان يكفر ليس عن جرائمه الشخصية ولكن عن مآثم البشرية التي كانت تسير وراءه وتلك البشرية المجرمة اذ لم يعد عليها ان تقاسي العذابات بذاتها كانت تحمل آلة العذاب . وكان ذلك الرجل يقال له سمعان وهو او ابوه كانا ينتميان الى المستعمرة اليهودية التي انتقلت قبلاً الى القيروان في لبية الافريقية على عهد بطليموس لاغوس ولذلك بقي لقب قيرواني مطلقاً عليه . ويُرجح انه كان قاطناً اورشليم وكان له ابنان الاسكندر وروفوس

اللذان كان لهما شان مذكور في تاريخ الكنيسة الاولية . ولما لم يكن سمعان بطرس في الموضع الذي كان يجب عليه ان يكون فيه قام مقامه سمعان آخر وهذا سيكون الشرف الابدي لهذا الرجل لانه اشترك عن قرب بفعل التكفير العظيم

وكانت الساعة الحادية عشر صباحاً وكانت المدينة الكبيرة التي شاع فيها خبر الحكم على يسوع بالموت مضطربةً لكي تقف على اخبار حقيقية عن ذلك الشأن . فكانوا يتقاطرون من كل وجهة و ينضمُّ المتطفلون منهم الى المحفل وحين انتشروا في الحقل كانوا يتقدمون الجنود لكي ينظروا المحكوم عليه عن قربٍ . ومعلومٌ ان النساء يتشوقنَ بنوع خاص الى هذه المناظر وانهنَّ يبدين للشهداء المساكين عواطف الشفقة . والعديد الاكبر منهنَّ اللواتي قد سمعن الواعظ الشاب ولُعجبنَ منه كنَّ ينتحبنَ و ينحنَ وكان نوحهنَّ اول علامة محبة رآها يسوع منذ هبَّت عليه تلك العاصفة الهائلة التي لم تكن اذناه في ابَّانها تسمعان سوى التجديف واللعن . وهكذا خرج من دائرة الصمت التي كان محصوراً فيها منذ مكالمته الاخيرة لبيلاطس وتنازل بانذار مبنيٍّ على التعقل ان يكافئ شفقتهنَّ الطبيعية فقال لهنَّ : « يا بنات اورشليم لا تبكينَ عليَّ بل ابكينَ على انفسكنَّ وعلى بنيكنَّ . فها انها تأتي ايامٌ يقال فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدى التي لم ترضع . حينئذٍ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللآكام غطينا . لانهم اذا كانوا قد صنعوا هذا بالرطب فماذا يكون باليابس » فاذا كنَّ يبكينَ عند رؤيتهنَّ الجور يرتكب فانهنَّ سيبكينَ اكثر عندما آهنَّ معاقبة الجور . ان نكبة رجلٍ واحد تحرّك ساكن عواطفهنَّ فماذا تكون عليهنَّ تأثيرات نكبة شعبٍ برمتهِ وهذه النكبة سوف تكون هائلة لانه اذا كان قد قاسى بصرامة غضب السماء فذلك عن رضى منه بحمل خطايا البشر مع بقائه باراً فما قولك بالامة اليهودية تلك الشجرة اليابسة التي كان الانتقام السماوي موشكاً ان ينزل بها

§

الحوادث التي جرت على الجلجلة

ومع ذلك وصلوا الى الموضع المعين للعذاب وكان الاقدمون قد تعودوا ان ينفذوا الاحكام على المجرمين في الطرقات المطروقة اكثر من سواها وعلى الربى القريبة منها· لانهم كانوا يبتغون بذلك التأثير على الشعب باراءته عن كثب مشهد العقاب وفظاعة الاثم· وليس من المحقق ان الموضع المنتخب لصلب يسوع كان الموضع لتنفيذ الاحكام بالاعدام· لانه كان في ذلك الموضع بستان للنزهة خاص برجل غني يدعى يوسف الاريماتي· ومهما كان من الامر فان اليفاع الذي أدّى بهم المسير اليه كان يسمى الجلجلة او الجمجمة وربما سُمي ذلك الموضع بهذا الاسم لان شكل اليفاع الصخري والرمادي العديم النبات يمثل في الخاطر صورة جمجمة مجرّدة

وبينما كان بعض الجنود يهيئون الصليب ويحفرون الحفرة التي كان يجب ان يُنصَب فيها كان غيرهم يقدّمون للمحكوم عليه شرابًا مخدّرًا معدًّا لان يخفف عنه العذاب الاخير وذلك الشراب كان مزيجًا من الخمر والمرّ وكان طعمه يحكي كثيرًا طعم المرارة في الخلّ او الافسنتين الخالص· فذاق يسوع الشراب لكي يتمّ قول النبي ولكنه اكتفى بان يمسهُ بشفتيه مريدًا بان يبقى له استحقاق التلذّذ بآلام الموت الفظيعة الى الساعة الاخيرة

ثم انهم صلبوه·

ان صلب المحكوم عليهم بالموت كان على نوعين فانهم كانوا يربطونهم على الشجرة المشؤومة بالحبال او كانوا يسمرونهم بالمسامير وكلا النوعين كانا مستعملين في ايام يسوع فآثرت قساوة القَتَلَة النوع الثاني ولذلك عرّي يسوع من ثيابه واضطرّ الى ان يضطجع في موضع العذاب عاريًا وامتدّت ذراعاه مختارًا الى فرعي العمود المشؤوم· وبما ان ادم الاول فقد العالم بمدّه يديهِ الى شجرة الفردوس

في فعل المعصية فان الانسان الجديد مدّ يديه في فعل المحبة على خشبة الفداء وقدسمرت يداه ورجلاه على الخشبة بمسامير ضخمة٠ وكان في ذلك الحين مشهد فظيع للناظرين حتى ان الذاهبين مذهب الارتياب شعروا بالامر نفسه وكان ذلك حينما ارتفعت شجرة الحياة الحاملة ثمرتها الدموية وسقطت في الحفرة معلقاً عليها البار الوديع الشجاع العالي الهمة المصلح السامي بين الله والبشرية٠ وان اللصين اللذين كانا رفيقيه في العذاب صلبا الواحد منهما عن يمينه والآخر عن يساره فاكملا المشهد المذل وتمما كلمة اشعيا (١٢:٥٣) واحصي مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرة وشفع في الخطاة٠» وفي ذلك الحين اشتدّ كثيراً الحزن الطبيعي فالشهيد المجيد صاح بصوتٍ كان اخر بينة على الحماسة والقداسة فقال: «يا ابتِ اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يعملون» ولذلك كان يسير حرفياً بموجب التعليم الذي علمه وهو صلّوا «لاجل من يضطهدونكم»

ووضعت بامر بيلاطس فوق الصليب كتابة كانت ولاءراء الكتابة التي حملت على بطاقة امام المحكوم عليه عندما كان ذاهباً الى العذاب٠ وكان الوالي الروماني واضعها وكان فيها شيء مذل لليهود:

يسوع الناصري ملك اليهود

وكانت هذه الكلمات مكتوبة بالعبرانية اللغة الوطنية واليونانية لغة العامة واللاتينية لغة القياصرة الفاتحين٠ وهكذا سمح الله لوثني ان يعلن ملكية يسوع العامة على طريقة الهجو المفطور عليه وذلك في لغات العالم المتمدن الثلاث

ان المارّين والفضوليين المتقاطرين من المدينة ليشهدوا ذلك المشهد المرعب كانوا يقرأون صورة الحكم ويلاحظون التهكم المرّ والمذل٠ فتأثر زعماء الكهنة واحتجوا على بيلاطس قائلين: «لا تكتب ملك اليهود بل انه هو قائل انا ملك اليهود» فتبرّم بيلاطس من كثرة طلباتهم ولما لم يعد وقتٌ للخشونة

التي كانت من دأبه صرفهم مجيباً اياهم بفظاظة : « ما كتبتُ فقد كتبتُ » فثبت ان اعداءه استطاعوا ان يميتوه ولكنهم لم يستطيعوا ملاشاة لقب ملكيته

وكانت الشريعة الرومانية تملك الجلادين ملابس المحكوم عليه بالاعدام وكان هؤلاء اربعة ففكروا للحال في اقتسامها فيما بينهم فاقتسموا عصابته ونعليه ومنطقته بطريقة حبية وسهل عليهم اقتسام الرداء ذاته الذي كان مؤلفاً من اربع قطع (تثنية ٢٢ : ١٢) غير ان قميصه الذي كانت امه قد نسجته بصبر وكان هبة من قلب كريم كان ذا قيمة كبيرة ولذلك لم يرتضوا ان يقع في حصة واحدة فانه كان مخيطاً منسوجاً كله من الاعلى الى الاسفل. فقر رأيهم على انه يجب الا يقسم ولكن يقترع عليه . فبعض الحجارة الملقاة في خوذة ما او علامة اخرى متفق عليها فصلت الخلاف وهكذا تمت كلمة المرنم : « اقتسموا ثيابي فيما بينهم وعلى قميصي اقترعوا (مزامير ٢١:١٣) » وعلى هذه الحال لم يحصل شعبه على اسلابه وقد نال الجنود الوثنيون الاشياء الوحيدة التي كانت له في هذا العالم . و بعد ذلك غرز الجنود حرابهم في الارض وجلسوا يحرسونه فان عذاب المشرف على الموت لم يكن عندهم بذي اهمية ولذلك نهضوا غير مبالين بالامر الذي كان مفوضاً اليهم . ان الاعداء الحقيقيين لم يكونوا محافظين على تلك الهيئة فان بغضهم الذي فاز اخيراً لم يكن يقف عند حد معين و بينما كان فريق من الشعب واقفاً بعيداً عن يسوع ينظرون اليه بدهشة يخامرها الاضطراب كان الرؤساء يمرون امام عينيه ساخرين منه و يلعنونه و يهزون رؤوسهم قائلين : « يا ناقض الهيكل و بانيه في ثلاثة ايام خلص نفسك . ان كنت ابن الله فانزل عن الصليب » فهولاء الاغبياء لم يكونوا يدرون ان ايديهم ذاتها هي التي كانت تنقض هيكل الله في تلك الساعة بقتلهم يسوع وان يسوع كان موشكاً في ثلاثة ايام ان يبنيه ثانية بقيامته . وكان كثير من رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب الذين كانت تدفعهم القحة الى ان يأتوا و يتاملوا في ضحيتهم يقولون بتهكم اشد

من الاول : « خلص آخرين ونفسه لم يقدر ان يخلصها » فهكذا كانوا ينكرون معجزات يسوع او كانوا يثبتون انها صادرة عن قوة غير قوته ثم انهم ارووا غليلهم من الكتابة التي كان بيلاطس قد ابقاها رغماً عنهم فقالوا :«ان كان هو المسيح فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به » وآخرون كانوا يقولون ساخرين منه : « انه متكل على الله فلينقذه الآن ان كان راضياً عنه لانه قال انا ابن الله » والجنود انفسهم خرجوا من دائرة السكون وعدم الاكتراث و يحتمل انهم خرجوا بعد ان تناولوا طعامهم نحو الساعة الثانية بعد الظهر واختلطوا مع الساخرين وكانت سخريتهم موجهة بالاحرى الى ملكية اليهود ذاتها وسقوط الشعب المغلوب اكثر مما كانت موجهة الى المصلوب فكانوا يقولون:« ان كنت ملك اليهود نخلص نفسك » وكما انهم كانوا يقدمون للملك كأس الوليمة فقدموا الى يسوع الشراب المقوي الذي كان قد رفضه

وبالنتيجة لم ينقص اولئك الاشرار شيئاً من الاعمال الممقوتة التي يشبهها المرنم بحق (٢٢:٢١) بالثيران الهائجة ووحيد القرن الغضوب والاسد الزائرة المتسارعة لمناصبة البار المنفرد . وكان احد اللصين المصلوبين عن يمينه و يساره يشارك الجمع في التجديف قائلاً :« ان كنت انت المسيح نخلص نفسك وخلصنا فهذه الكلمة التي كانت تعلن مكنونات نفسٍ خسيسة تلتها كلمات اخرى مهينة لم يكن يسوع ليجيب عنها بشيء . ولا ريب ان صمت يسوع وصلاته من اجل قاتليه اثر في قلب اللص الاخر فقال في نفسه ان هذا الانسان الذي يدعو الله اباه في الوقت الذي كان يشدد الله عليه العذابات فيحتملها ساكن الجأش ثبت الجنان كان لابد مترفعاً عن ان يكون مرائياً او مجرماً فقال لرفيقه وهو يشهد ليسوع بجرأة في ابان تلك الاهانات التي كانوا يقذفونه بها :« اما تخشى الله وانت مشترك في هذا القصاص » اذا جدف الاخرون فلهم ذلك لانهم ليسوا على شفير القبر ولكن هل يمكن لمن كان داخلا الى الحياة الابدية ان يهين الله ورسوله حتى على

عتبة الحياة الآتية واستطرد الكلام الى ان قال : « اما نحن فبعدل لاننا نلنا ما تستوجبه اعمالنا واما هذا فلم يصنع شيئاً من السوء » فكان في هذا الكلام علامة الندامة والاكرام المستلزم للحق وللبرارة كأن الكلمة الحسنة التي نطق بها او بالاحرى العمل الحسن الذي عمله كان يضرم في قلبه سعير الرجاء ثم قال بصوت المتضرع الذي يلطف لحة صلاته : « يا رب اذكرني متى جئت في ملكوتك » انه يقنع بالذكر وان هذا اللص على ما هو عليه من قبح السيرة والسريرة يرجو ذلك من الذي صلّي لاجل قاتليه . وان هذا الذكر ذاته يمكن ان يكون له غناء حينما يدخل يسوع مجده . فماذا كان يفهم اللص بذلك؟ ان الحال تقتضي منا الظن ان اللص كان قد سمع يسوع يكرز وانه اذ كان مجرماً رغما عن التعليم الذي سمعه علل النفس باسترجاع حقوقه بواسطة المخلص فاجابه يسوع : « الحق اقول لك انك اليوم تكون معي في الفردوس » ان ملكوت المسيح لا يأتي بعد زمن طويل ولكن في الحال . وفي ساعات قليلة حينما يطبق الموت اعين الاثنين يقذف بهما الى ذلك الهناء السامي الذي يكافىء قداسة الواحد الطبيعية وقداسة الآخر المكتسبة . وهكذا شرع يسوع من اعلى صليبه يزاول وظيفة القاضي فابان الى اي حد تنتهي الرحمة الالهية التي حركتها الندامة وقد صار اللص باراً في دقيقة واحدة . قال القديس اوغسطينوس لما كان لصاً الى النهاية تمكن من سرقة السماء ذاتها

ومع ذلك كنت ترى في سواد الجمع الكافر والعديم الاكتراث الذي كان يأتي لينظر الشهيد المقدس ويهينه بعض الاصدقاء القليلين المخلصين ينسلون حتى اسفل الصليب وكان الجنود يشربون و ياكلون و يلعبون وكانوا في خلال ذلك الحين ينهضون ليبعدوا النساء التقيات اللواتي كنّ يستلفتنّ انظارهم بنحيبهنّ . ولكن دون طائل لانهنّ كنّ بعدنَ مقتربات . وكانت في جملتهنّ امّ المصلوب واختها اي سلفتها مريم امرأة كلوبا ومريم المجدلية و يوحنا الذي لم يكن يعلن اسمه تحفظاً .

وهل من مشهد اشد وقعاً في قلب الام من مراها نزع ابنها. رأت وهي في ألم لا مزيد عليه ذلك الرأس المحبوب الذي كثيرًا ما ضمته الى صدرها لا يجد الان شيئاً يستند اليه عند رقاده الاخير. وتينك الشفتين اللتين رطبتهما بلبانها تحترقان بحمى محرقة . وذلك الدم الذي يسيل من كل جانب والذي هو دمها واخيراً تينك العينين اللتين كان برقع الموت مسدلاً على ناظرها الساحر. ومع ذلك لم ترزح تحت عبء ذلك الحزن لان الانجيلي يصفها لنا انها كانت واقفة وهذه هي حالة المضحي وهذه الحالة تلائمها كل الملائمة لان لها حقوقاً بالذبيحة التي كانت تقدم. فالقتيل لم يكن فقط ابن الآب الوحيد ولكنه كان ايضاً ابن مريم الوحيد وقد قدمته تلك الام الشريفة النفس بكل رضى لاجل خلاص العالم. وحيث انها اعطت بالحقيقة شيئاً ما من نفسها اي انها اعطت اعزّ شيء عندها وهو ابنها لاجل افتداء البشرية فانها بهذه التضحية المؤلمة اكتسبت لقب ام البشر الذي تلقبها به الكنيسة على ممر العصور . فهذه الصفة قد كرمها يسوع بكلمة واحدة في تلك الساعة العظيمة بقوله لحوَّا الجديدة ام الاحياء : « يا امرأة هوذا ابنك » واومأ لها بعينيه الى الرسول يوحنا الذي كان واقفاً بجانبها ممثلاً الكنيسة ثم قال للتلميذ : « هذه امك » وهذه كانت الوصية الاخيرة التي اوصى بها المعلم خاصته . ولعمر الحق انها وصية ثمينة جداً وقد ائتمر يوحنا بوصية المعلم واخذ مريم الى خاصته وأحبها كأمه

ومنذ ذلك الحين اخذ الموت يسعى الى ضحيته بينما كانت الطبيعة قد لاحت انها متشحة بالحداد فحدثت ظلمة على الارض كلها وظهر ان الظلمة ذاتها كانت تهاجم نفس يسوع . ولكي يستطيع المرء ان يدرك حقيقة هذه الكربة الادبية ينبغي له ان يكون حاصلا على سر الاتحاد الاقنومي وبناء عليه انه لم يعط لنا ذلك . فلنكتف بان نقول دون ان نفهم معنى هذه الكلمة الحصري ان الالوهية اعتزلت اكثر فاكثر في اعماق نفس المخلص واتخذت في الكلمة نفسها

مظاهر الصرامة التي كانت في الآب والروح القدس · ومن جهة اخرى كانت الآلام المادية لا تطاق وكان الدم في المصلوبين يجري في الشرايين بغزارة الى اعضاء الجسم الممتدة او المضغوطة حتى الاوردة لم تكن كافية لارجاعه وهذا الاضطراب كان ينشأ عنه الآم اشد من الموت ومن ثم تكاتف عدل السماء وخبث الجحيم وضرب كلاهما ضرباتهما الاخيرة بعنف لا يماثل · ففي تلك الشدة التي يعزّ وصفها صاح البار بمحبة عظيمة رغماً عن كربته الشديدة قائلاً: « الهي الهي لماذا تركتني » فيا له من اخلاص في تلك المحبة التي رغما عن كونها منكرة ومرفوضة ومعذبة لم تكف عن دعوة الله الهها دالة بذلك على ان يسوع لم يفقد ابدا عاطفة ارتباطه بالآب ارتباطاً وثيقاً لا يحل مع قساوة العدل الالهي العديمة الشفقة وفي الوقت الذي صار فيه لعنة لاجلنا

وحينما نطق بكلمة ايلي اي الهي في صراخه ظن بعضهم انه يستنجد بالنبي ايليا محامي اسرائيل في ضيقه فجعلوا يتساءلون بتهكم عما اذا كان ايليا يأتي لانقاذه · وغيرهم اعتراهم الدهش عند مشاهدتهم مشهد النزع وزد على ذلك انهم اضطربوا من اضطراب الطبيعة ذاتها ولم يكتموا خوف قلوبهم وارتعدت فرائصهم موجسين خيفةً من ان يكون يسوع هو المسيح حقيقةً فيبصرون المبشر به اي ايليا في عاصفة آتياً لينفي المجرمين

وحينئذٍ خرج من صدر يسوع صوت يقول فيه : « انا عطشان » والحق يقال ان العطش كان عند المصلوبين شديداً جداً حتى انه كان كثيراً ما يجر الموت · وكل شيء كان يؤول الى اثارته كالآلام المادية وتمدد الاجساد وفقدان الدم الزائد والعذابات والتجارب التي تقدمت ذلك في يسوع · فصراخ آلام الجسد بعد صراخ آلام النفس هاج شفقة بعضهم وسبب تهكم البعض الآخر وبينما كان هولاء يقولون · « لننظر هل يأتي ايليا ينجيه » اخذ الجنود اسفنجة وغمسوها في اناء فيه خل ووضعوها على راس عود من الزوفا وادنوها من فيه

وحين ذاق يسوع ذلك الشراب قال: « بهذا قد تم كل شيء » وكان ذلك الصوت صوت الانتصار فقد شرب الكأس حتى آخر نقطة وذاق كل العذابات وغلب كل التجارب واكمل كل النبوءات. وعند نهاية مثل ذلك العمل الشاق اذن له ان يقدم شهادة بانجازه كل ما تطالبه به مهمته الثقيلة. وانه كالعامل الذي يمضي ليستريح بالنوم يقول بفرح « قد تم » وهو قبل ان يرقد بالموت صرخ ان كل شيء قد تم وحينئذٍ صرخ بحرية تامة صراخاً اخيراً يعرب عن تقاه وثقته بالله ذلك الذي قال انه لا يستطيع احدٌ ان يأخذ حياتي فلي وحدي السلطان بان اعطيها والسلطان بان آخذها وقال: « يا ابتِ في يديك استودع روحي » وانحنى رأسه الذي كان مرتفعاً الى الدقيقة الاخيرة وأسلم الروح

وللحال انشق حجاب الهيكل الى شطرين من اعلاه الى اسفله. وكانت الذبيحة الحقيقية والقطعية دون سواها تبتدي هكذا على انقاض النظامات الموسوية. فمادت الارض وتشققت الصخور وانفتحت قبورٌ كثيرة وثابت الحياة الى اجساد كثيرين من القديسين فخرجوا من رموسهم وتراءوا في المدينة المقدسة. فهل ألفوا ذواتهم مضطرين الى ان يؤدوا المصلوب الكرامة التي كان الاحياء يضنون بها عليه ؟ او هل كانت سلالة الآباء والانبياء الذين كانوا يريدون ان يشاهدوا عن قربٍ ذلك الذي حيوه مراراً كثيرة عن بعد ؟ ومن المؤكد انه لم ينقص ذلك المشهد المحزن شيء يجعل كلا منهم ان يصرخ صراخ الايمان المعزّي. فيا لله ما كان اسهل على الجميع معرفة تلك الهيئة المجيدة هيئة الفادي في ابان الموت ومهابته. فاشعيا يستطيع ان يحيي بذلك الجسد الممزق بالعذابات رجل الالآم وبالدم الذي كان يغشيه البرهان الذي لا ينقض على انه دخل في معصار الغضب الالهي لكي يصنع وحده فعل الخلاص. وداود اذ نظر الى جروح رجليه ويديه واحصى عظامه المجردة ووجد على شفتيه اثار المرّ والخل كان الواجب عليه ان يعرف انه كان سليله ومسيحه. وعند حدوث ذلك البلبال

العام في العناصر والنفوس حينما كان قدس الاقداس يكشف الحجاب عن اعماق الهيكل السرية كان يستطيع ان يعرف دانيال رجسة الخراب . وكان ارميا يكرم في المصلوب الالهي زائره الضالّ على الارض. وحزقيال راعيه و يوئيل البار الاعظم وملاخيا ضحية الذبيحة العامة . وكان موسى ينحني امام مشترع المستقبل الاعظم الذي هو كبير بعظمة ذبيحته الاختيارية . ومن ثمّ ان يسوع الناصري كان ملكاً نظراً الى سلالته وان الكتابة الموضوعة فوق رأسه كانت تصيح بيعقوب قائلة انه اذا كان خرج قضيب الملك من يهوذا فقد تناوله انسان ما وهو المسيح المنتظر من كل الشعوب والمفتتح ملكه على العالم طرا منذ ذلك الحين فصاعداً . فاسحق وابراهيم وسام ونوح لم يكونوا مستطيعين ان ينكروا ثمرة احشائهم وموضوع ايمانهم ولم يبق لآدم الا ان يحتمي وراء ابن المرأة الذي محق راس الحية . وجميعهم لو مروا امام خشبة العار المخضبة بالدم لوجب عليهم ان يحققوا بدمهم بدم الى الضحية التي كانت لا تزال تختلج ان سر الفداء قد تم

وفضلاً عن ذلك ان فريقاً كبيراً من الاحياء قد راوا اصبع الله في هذه الشهادة المؤثرة المبرزة من الطبيعة المضطربة . وان قائد المائة الذي كان قد تولى امر الجنود الرومانيين تأثر قبل الجميع وقال : « في الحقيقة كان هذا الرجل صديقاً » ولكن اما ان يسوع ليس كذلك او انه اكثر من ذلك لانه ادعى بانه ابن الله والقائد نفسه سمعه مرتين يستغيث بابيه من على الصليب ولذلك حمل الجنود على فعل ايمان جديد وقال معهم : « في الحقيقة كان هذا الرجل ابن الله » وعليه فان يسوع لم يكد يرتفع عن الارض حتى جذب اليه باكورة الامم . وقيل ان كثيرين من اليهود انقلبوا راجعين وهم في غاية الاضطراب يقرعون صدورهم علامة الاسف . فاستولت على كل النفوس عاطفة رعب سري ولكن دون ان يصحبها عواطف اخرى . وكان معارف يسوع واصدقاؤه ينتظرون عن بعد نهاية المأساة وذلك اما لان الجنود ابعدوهم مرة ثانية واما انهم ارادوا

ان يكفوا مريم مؤونة ذلك المشهد المؤلم

§

دفن يسوع في قبر مختوم ومخفور

وكان النهار قد اذن بانصرام ولم يبق لدخول عيد في الفصح الأ ساعتان وكانوا ينكرون بقاء المجرمين على الصليب لئلا يكدروا بانتحابهم او بتجديفهم مهابة العيد. فكان يبين ان يوم الرب اذا كان شاملاً لشعب الله وللمصلوبين ينقدمن قداسته وجماله. وما خلا ذلك فان اعداء يسوع كانوا يحبون ان يسرعوا في اخفاء جثته ذاتها التي كانت في هيبة الموت المرعبة بعد تبلبل الطبيعة تلك المشتكية عليهم التي لا تعرف الرحمة

ولكي يدفنوا بسرعة في رمس النسيان الرجل ودعواهُ ذهبوا الى بيلاطس وطلبوا اليه ان يمنحهم الاجازة على المحكوم عليهم لكي تدفن اجسادهم حالاً بعد ازالها من عن الصليب و بموجب الشريعة الرومانية كان من اللازم ان تبقى على الصلبان حتى تخني عليها الطيور والوحوش الضارية والفساد. فامر بيلاطس الجند ان يكسروا سوق المصلوبين و يقول الانجيل: «فجاء الجند وكسروا ساقي الاول والاخر اللذين صُلبا معه» فيسوع وان كان له حق ان ينفذ عليه ذلك قبل رفيقيه فيسهل ايضاح السبب الذي من اجله بقي الى النهاية لان الجنود كانوا قد ابصروا ان نفسه قد فاضت ومن ثم لم يبق مجال لتعجيل موته وفضلاً عن ذلك انه كان يجب عليهم ان يحترموا ذلك المحكوم عليه الغريب

و بموجب مآل الامر المنفذ من بيلاطس وليس بموجب حرفيته عمد احدهم الذي كان يريد ان يحقق موت الشهيد المجيد او يعجله اذا كان رغماً عن كل الظواهر لم يكن قد تم بعد عمد الى حربته وطعن بها يسوع في القلب الذي هو مستقرٌ للحياة. فانه كان ولا امتراء واقفاً امام وجه المصلوب ليتأكد اذا كان لا يزال فيه رمق من الحياة وكان قابضاً على الحربة بيده اليمنى ولذلك كانت

الحال تقتضي ان يطعن الجنب الايسر . وكان الجرح عميقاً لان يسوع دعا توما بعد بضعة ايام ليدخل فيه اصبعه . فخرج منه دمٌ وماء وقد بان هذا الامر غريباً للناظرين وخصوصاً للقديس يوحنا الذي يورد ذلك بنوع خاص . اما لكي يظهر الاضطراب العميق الذي نال طبيعة يسوع اللطيفة بنوع استثنائي واما لكي يثبت ان جسد المعلم لم يكن معداً للفساد وانه في الواقع لم يلمّ به الانحلال الملازم الاجساد المائتة . وان الدم رغماً عن وقوف جريه كان لم يزل سائلاً في تحوّله الموقت منتظراً الحين الذي فيه ترجعه القيامة الى حالته الاصلية

وان العناية الالهية قد هيأت ظروفاً خصوصية لحفظ اعضاء يسوع سالمة من السحق رغماً عن كل العوائد المخالفة لذلك ورغماً عن نية اليهود الاثيمة الذين كانوا حاولوا تشويه يسوع الحمل الفصحي الحقيقي . وهكذا احترمت فيه وصية موسى (خروج ١٢ : ٤٦ وعدد ٩ : ١٢) وزد على ذلك ان طعنة الحربة بتجنبها تشويه معيب كانت تتمم صورة المسيح الميت التي رسمها الانبياء (زكريا ١٢ : ١٠) وعند هذه العلامة الاخيرة كان يقضى على اليهود ان يعرفوا الضحية المقدسة المطعونة بايديهم الاثيمة

ان تحقق هذه النبوءات بينما كان يسوع يلفظ الروح وكيفية موته ذاتها اثرت ليس فقط بيوحنا ولكن بالتلاميذ الآخرين الذين كان الخوف قد ابعدهم عن موضع الحادثة . وقد اخذهم العجب عندما رأوا اناساً لم يكونوا يجسرون ان ينادوا بالمسيح و يحدقوا به جهاراً ايام مقدرته يزدحمون حول جسده المائت في ساعة الإذلال هذه . ان اثنين من المهتدين الى مذهبه من ذوي الحسب الشريف دفعتهما الجرأة الى ان يثبتا انهما صديقان لذلك الذي خمدت انفاسه وان تناقضاً كهذا بين عملهما الحاضر وافعالهما السابقة ليس بنادر الوجود في تواريخ البشرية . فمضى احدهما بعزم ثابت الى بيلاطس و يقول القديس يوحنا . « ثم ان يوسف الذي من الرامة وكان تلميذاً ليسوع لكنه كان يستتر خوفاً من اليهود سأل

بيلاطس ان يأخذ جسد يسوع لكي يدفنه دفناً مكرماً » وكان ذلك الرجل يوسف الذي من الرامة وهو وطني غني بارٌّ فاضلٌ ومستشارٌ مكرَّمٌ وعضو من المجلس فلم يشترك مع رفقائه في تلك المجينة وكان يؤمن بمجيء ملكوت الله لانه تحقق تتميم النبوءات عن المسيح

وكان علماء اليهود يعلمون ان لعنة الله والنجاسة الشرعية تعلقان بعظام المحكوم عليهم بالعذاب . وها انا نرى عضواً من اعضاء المجلس الكبير يلتمس شرف دفن الناصري المصلوب ككنز ثمين . وان السلطة الرومانية لم تكن تهتم بدفن المجرمين الذين انفذ فيهم حكم الاعدام ولكنها كانت تسمح بدفع اجسادهم الى ذوي قرباهم الذين يطلبون ذلك . وعلى الفور استدعى اليه بيلاطس قائد المائة وساله اذا كان يسوع قد مات وحين اجابه القائد بالايجاب اعطى الجسد بدون ادنى بدل لذاك الذي كان يطلبه

واذ حصل يوسف على اجازة رسمية اهتم بانزال يسوع عن الصليب لكي يدفنه بكل مظاهر المودة المقرونة بالاحترام وان يهودياً اخر كان قبلاً جباناً نظيره مع انه كان من ذوي المكانة العالية جاء وساعده . ومن المحتمل ان هذين الرجلين اللذين كانا يزاولان الوظيفة القضائية ذاتها ويذهبان مذهباً واحداً كانا عائشين مرتبطين برباط المودة . وعليه فان محبة يسوع كانت تربطهما بعمل واحد يدل على الشجاعة والكرم . وكان الرجل الآخر نيقوديموس وهو الذي عرفنا انه كان قد جاء الى يسوع ليلاً وجرت بينه وبين المعلم محاورة كانت لها نتائج حسنة وهو الذي سعى في ان يقنع اعضاء المجلس بان يغيروا عواطفهم بخصوص يسوع . فابتاع يوسف كفناً من الكتان الناعم وجاء نيقوديموس بحنوط من مرٍّ وصبر يوازيان نحو مئة رطل . وانه اقتداء بمريم المجدلية كان يريد ان يصنع مع المعلم هذا العمل الخيري الاخير

فانزلت ايدي الاصدقاء والاتقياء يسوع عن الصليب . وملصت بكل احتراز

رجليه ويديه من المسامير التي كانت تثبتها على الصليب مخافة ان يزداد تشويهها . ونقل الجسد على الفور الى بستان يوسف حيث ادوا له الفروض اللازمة بعيداً عن انظار الوشاة . ولما كان الجسد ملطخاً بالدم اضطروا الى ان يغسلوه وهذا التطهير الاخير كان التهيئة للتحنيط وكان الوقت قصيراً فبادروا الى دهن الجسد بالاطياب ولفه باللفائف حسب عادة اليهود ثم انهم قبلوا للمرة الاخيرة جبين المعلم المجيد الذي كان مجملاً بعظمة الموت ولفوا في كفن ابيض الضحية المقدسة ووضعوها في قبر جديد محفور حديثاً في الصخر . وبينما كانت اشعة الشمس الاخيرة تتوارى وراء الجبال كان رب الحياة يرقد في القبر على فراش من الاطياب لم يكن محتاجاً اليه ليتقي اذى الموت . وفي اثناء ذلك كانت كل عائلة قد ذبحت في الهيكل الحمل الفصحي وتهيأت الى اكله دون ان يخامرها ادنى فكر بان قربان الجلجلة قد الغى فوائد كل القرابين . ومنذ ذلك الحين صار مختصاً بيسوع وحده حق الانقاذ من الموت لانه سوف يصير وحده ملك الحياة

وبعد ان دحرج الرجال على باب القبر حجراً ضخماً غادروا ذلك الموضع تاركين المكان لبعض النساء اللواتي كنَّ يتبارينَ مباراة مقدسة باظهار محبتهنَّ المخلصة للمصلوب . وقد شاهدنَ كيف ان يوسف ونيقوديمس قد حنطا الجسد فقلنَ انه من الواجب عليهنَّ ان يكملن العمل عند الفراغ من العيد . ولكي يتقيا التأخير ذهب فريق منهن لابتياع اطياباً اخرى افضل من الاطياب التي استعملها يوسف ونيقوديمس . وكانت ساعة العيد الاولى تقضي عليهنَّ بان يؤجلنَ الى مساء الغد تتمة الشراء . وكان يليق بهنَّ ولو كان ذلك يفطر اكبادهن ان يحفظنَ بدقة هذا السبت الاخير الذي هو آخر سبت للعهد القديم . فاثنتان منهن وهما المجدلية ومريم ام يوسي بقيتا آخر الكل عند القبر . ولقد فاتهما انه لكي تثبت حقيقة القيامة باكثر صراحة فقد كانت حراسة الميت موكولة الى البغض وليس الى المحبة . فجلستا منسحقتين بالحزن وكانتا تتاملان في الحجر الذي كان يغطي الجثة الثمينة .

فانهما كانتا صورة الفضيلة الحساسة تحت هيئة مزدوجة اذ كانتا تذرفان تمجيداً ليسوع المسيح الواحدة دموع الخاطئة المهتدية والاخرى دموع المراة الحسنة السيرة والسريرة و بقيتا باستحقاقاتهما المختلفة رمزاً ناطقاً عن المحبة المخلصة والتقوى التي لا تنفذ . وان الانجيل لا يقول الى اي ساعة بقيت الصديقتان تحرسان بجانب القبر

وان اعداء الميت لم يكونوا اهدأ بالاً من اصدقائه . فان ذكر الضحية كان يتبعهم بنوع مقلق وقاس وان تأثير الكآبة العام الذي كان سائداً في المدينة بعد حوادث الليل كان يزيد مخاوفهم المبهمة . وسواء كانوا قد سمعوا ذواتهم يسوع ينبىء مراراً جمة بقيامته المستقبلة او سواء كانوا قد خاطبوهم عن الآمال التي كان تلاميذه يعللون انفسهم بها فانهم كانو يخافون من ذلك الذي كان قد قضى نحبه

ومما زاد في الطين بلة هو ان يهوذا المنزعج بوخز الضمير اسرع الى الهيكل وتزلف الى رؤساء الكهنة بضوضاء قائلاً : « اني قد خطئت اذ اسلمت دماً زكياً » و بسبب عظيم اضطرابه خرج عن الهدى فالقى امام راشيه ثمن الدم الذي كان يحرق يديه فتدحرجت الفضة على الحضيض واثارت بذلك دفين انفعالات اولئك اللاهوتيين المرائين الطاعنين في السن . فجمعوا الفضة وقالوا للتلميذ الشرير الذي تهافت في المرة الاولى على قبضها : « ماذا علينا انت ابصر » فرجع ذلك المنكود الحظ دون ان يخفف سعيه الحمل الذي كان يثقل قلبه . و بعد ان تشاور اعضاء المجلس الكبير قرروا ان ثمن الدم لا يحلّ ان يدخل الخزينة المقدسة دون ان يدنسها (تثنية ١٨ : ١٨) فاشتروا بذلك المبلغ اليسير (٩٣ فرنكاً) حقل فخاري في وادي هينوم جنوبي اورشليم وجعلوه مقبرة للغرباء . واحسرتاه ان يهوذا كان مقضياً عليه ان يمتلكها اول الكل لانه بعد بضعة ايام شنق ذاته فيها . وذلك اما لان الشجرة قد انكسرت او الحبل قد

انقطع فسقطت جثته على الارض وانشقت احشاؤه وسقت تلك الارض بنوع انه صار عندهم سببان لنسبة الحقل الى الدم اولاً لانه اشتري بدم زكي وثانياً لانه سقي بدم كافر جاحد

فالشعب الذي راعته تلك الحادثة الفجائية ثاب اليه روعه شيئاً فشيئاً وكان يقول عن يسوع ما قد طالما قاله عن رجاله العظام انه كان مزمعاً ان يعود الى الحيوة وذلك الامر كان يزيد كثيراً اضطراب روساء الكهنة و بعد ان تخابر بعض ممثلي السلطة الكهنوتية ونمَّ كلٌّ منهم للآخر بمخاوف قلبه ذهبوا غداة الفصح الى بيلاطس وقالوا له: «ايها السيد قد تذكرنا ان ذلك المضل قال وهو حي اني بعد ثلاثة ايام اقوم . فمُر ان يضبط القبر الى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه و يسرقوه و يقولوا للشعب انه قد قام من الاموات فتكون الضلالة الاخيرة اشر من الاولى » ولذلك اذا قيل لهم ان يسوع قام من الاموات يكونون قد دبروا جوابهم

ان بيلاطس تبرم من مطالبهم واجابهم بفظاظة : « ان عندكم حراساً فاذهبوا واضبطوا كما تعلمون » وكان بذلك يتهكم بنوع خبيث على ما الم بهم من الرعب الوهمي فانه كان عندهم كتيبة من الجنود الم يكن ذلك كافياً لهم ليدافعوا عن انفسهم من ذلك الميت . فانه لم يسمع ابداً ان شريراً اشغل الافكار بهذا المقدار بعد عذابه . ومن المحقق انه لم يتح قط لمصلوبٍ شرف كهذا وهو ان يرى جثته مخفورة بفصيلة من الجنود . فانطلقوا وربما كان انطلاقهم بعد ان تحققوا ان الجسد كان موجوداً حقيقة في القبر . فختموا الحجر الموضوع على باب القبر جرياً على عادة الشرقيين بحبل يمتد على الصخر من الجهة الواحدة الى الجهة الاخرى وقد طبعت على كل من طرفيه آثار الختم . وما هدأ روعهم وسكن هائج بلبالهم الأ في ذلك الحين لما توهموا ان ضحيتهم صارت في قبضة ايديهم واذ دفنوا معها في الرمس كل آمال الامة اليهودية في مجيء المسيح مضوا ليحتفلوا بيوم الفصح العظيم . وبمسرة قد عهدوا الى خدام الهيكل او الى بعض الجنود الوثنيين

بالمدافعة عن الدين اليهودي من امر يقدم عليه هذا الميت او من جرأة بعض المتشيعين لهُ الذين كانوا في ذلك الحين غرقى في تيار احزانهم حتى انهم كانوا جاهلين الى الوقت الاخير وجود حراس عند القبر. وما علم اولئك الاغبياء انه لا يستطاع اسراشعة الشمس وانه حين دنو الساعة تفلت الحياة من قيد الموت ساطعة رغما عن كل شيء. ان الله لا يمكن ان يقيد بايدي البشر وان اولئك الحراس كان من شأنهم ان يبرهنوا عن قيامته من الاموات ليس ان يحولوا دونها. و بينما هم منهمكون في ذلك دون ان يؤدوا اتاوة الاحترام لذلك السبت الذي كان اخر سبت لهم كان يسوع يفتتح براحته في القبر السبت الابدي. وكما ان الآب استراح بعد ايام الخليقة الستة استراح الابن بعد عمل الفداء. فكان يستطيع ان يستريح عند مساء نهاره الطويل في مجده الابدي

وان الكتاب (افس ٤ :٨— ١٠ ورسالة بطرس الاولى ٣ :١٩ و٤ :٦) مع ذلك يخبرنا وقانون الايمان الكاثوليكي يكرر لنا ان يسوع لم يكن بلا عمل حتى في ابان موته. فلم يكن اهل الزمان الحاضر والمستقبل فقط مدعوين الى الخلاص لكن كل ابرار الازمنة القديمة كان من الواجب ان يقبلوا هذا الخبر السار فانه بينما كان جسد المخلص مستقراً في القبر نزلت نفسه الى الليمبس لتبشر الموتى فيه بالانجيل. وحين رآه الناس الصالحون الذين عاشوا في كل آن واين وتمنوا ان يشاهدوا المخلص طربوا من الفرح. فتشققت الابواب النحاسية وابواب المنازل السفلية كما يقول النبي ولقي الموت غالبه. ونحن لا ندري شيئاً عن عالم الارواح سوى انه موجود. ولا نعلم ايضاً شيئاً عن الحالة التي كانت موجودة فيها تلك النفوس الخالدة نفوس خيار العصور الخالية ومع ذلك فيقرب من الفهم بان نفوس الاباء والفلاسفة والابرار الذين عاشوا في كل العصور الماضية وفي جميع الامكنة كانت في حالة سعادة غير كاملة اي ممتلئة من الرغائب والاماني فهذه النفوس حينما شاهدت رجاء ومخلص الجنس البشري اتياً الى مقر الموت

هتفت بهتاف الفرح والابتهاج ٠ وعليه يقول القديس بطرس انه قد بشر الموتى بالانجيل وان اولئك الذين انبأوا بالانجيل تلقوه بفرح عظيم ٠ فبذلك انتهى النفي وعزيت الكآبة وأُعيدت السعادة ٠ فتألبوا حول مسيحهم وتلقوا تعاليمه منتظرين الساعة التي فيها يقوم من الاموات قبل الجميع اذ كان من المقضي عليه ان يفتح ابواب السماء للامر الذي صار اسيره المجيد والمنتصر

الفصل الخامس

في الحياة

يسوع اظهر ذاته حيا صباح اليوم الثالث بعد موته — بعد الظهيرة على طريق عمواس — المساء في العلية — ظهورات اخرى في اثناء اربعين يوماً

(طالع يوحنا ٢٠: ١و٢١: ٢٤ ولوقا ٢٤: ١و٢٦: ٣٥ ومرقس ١٦: ١— ١٨ ومتى ٢٨: ١—٢٠)

§

يسوع اظهر ذاته حياً صباح اليوم الثالث بعد موته

ان اصدقاء يسوع قضوا اليوم الاول من العيد في حزن وغم شديدين ٠ وقد ظهرت هذه العواطف مقرونة بالجزع ولا سيما عند النساء اللواتي ربما كنَّ اشد إخلاصاً فان تأدية الفروض الاخيرة للمعلم الحبيب بذواتهنَّ ومباشرة تجديد تحنيطه ونظرهنَّ اياه ومسّهنَّ اياه للمرة الاخيرة كل ذلك كان يبين لهنَّ تعزية سامية يُحسدنَ عليها ٠ ومن ثم بعد ان اعددنَ الاطياب مساء السبت بادرنَ صباح الاحد قبل الفجر مسرعاتٍ الى القبر — وكانت مريم المجدلية من عديد

تلك الصديقات الصدوقات فلم تكن تتخلى لاحدٍ عن مركز الشرف هذا وكان بجانبها مريم الاخرى ام يعقوب ويوسي التي صارت في ايام التجربة رفيقتها فلم تكن تفترق عنها — وكانت معها ايضاً سالومة وحنة امراة كوزى وكان يتبعهنَّ نساءٌ كثيرات كانت معرفة الجميل والتعجب منذ عهدٍ طويل جعلاهنَّ يتبعنَ آثار يسوع

واذ كنَّ يجهلنَ ان فصيلةً من الجند قد ارسلت الى القبر لتحرس الجثة قلنَ لبعضهنَّ: «من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر» وكان الله قد اهتمَّ بإلافاة ذلك الاهتمام الصوابي قبل ذلك الحين فانه بينما كان الحراس يسهرون وربما كان ذلك قبل الفجر بقليل من الزمن او حين تبلج وجه الصباح حرَّكت هزّةٌ عنيفة وجانية القبر والبستان الذي كان فيه . وذلك كان استيقاظ الميت الذي كان في قدرته الكلية ان يقطع الاربطة التي لفّوه بها — فملاك الرب نزل حالاً من السماء كالخادم الذي يفتح الباب ليدع سيده يمرُّ حينما يكون متأهباً للخروج ودحرج الحجر عن القبر وجلس عليه مملوءاً مجداً وجمالاً . وكان منظره لامعاً كالبرق وملابسه بيضاء كالثلج . فحينما شاهده الحراس اعترتهم الرهبة فسقطوا على الارض ولبثوا كالاموات حيناً من الدهر

ولم يكد روعهم يثوب اليهم ويهيمون على وجوههم في كل وجهةٍ حتى اقبلت النساء القديسات فالحجر الذي كان يسدُّ القبر كان كبيراً جداً كما يروي لنا القديس مرقس وقد سهل عليهنَّ ان ينظرنَ من بعيد انه قد دُحرج وبالنتيجة ان القبر كان مفتوحاً . فهذا الحادث غير المنتظر بل منظر الرجال المسلحين الذين رأينهم يهربون بعجلةٍ جعلهنَّ يفتكرنَ ان جسد المعلم قد المَّ به امرٌ ذو بال ومن الممكن ان يكون رؤساء الكهنة الحاسدون قد اختلسوا الجسد لكي يلقوه في الطرق والشوارع مع اجساد القتلة . فان تصور المجدلية الحاد والسريع جعلها ان تفترض التدنيس الممقوت . فهذه الصديقة التقية انتكصت حالاً على اعقابها

ومضت الى بطرس ويوحنا لكي تخبرهما بذلك الخبر الرائع . وان سمعان بطرس لم يكن فقط اول الرسل بسلطته ولكنه كان من طبعه اشجع الجميع واخلصهم وقد ابان في جثسماني انه يستطيع حالاً ان ينتقل من الكلام الى الاعمال وكان يستطاع الاتكال عليه في المقاتلة — وان الخاطئة المهتدية قد عرفت باختبارها الشخصي حاجة كل قلب شعور الى اظهار محبته بعد سقوطه . ومن المحتمل ان بطرس كان يساكن يوحنا وكانت المجدلية تعد نفسها ان تنبئ الاثنين معاً . ألم يكن يوحنا باقياً الصديق الصدوق حتى على الجلجلة . اما كان ملتزماً كرجل معروف من رئيس الكهنة ان يبذل قصارى الجهد ليمنع كل تعد على الجسد المقدس . ولما وجدت المجدلية من اتت تستنصر بهما هتفت قائلة « قد اخذوا الرب من القبر ولم نعلم اين وضعوه . » ومع هذا كله كانت بقية النساء قد وصلن قرب القبر وتشجعن فدخلن اليه لينظرن ما جرى هناك غير ان يسوع لم يكن فيه وكان ثم ملكان يحرسان المكان الموضوع فيه الجسد الواحد عن اليمين والاخر عن الشمال وكانا متشحين بالبياض يجللهما نور ساطع فاخذ منهن الرعب كل ماخذ حينما شاهدن بغتة هذا المنظر وسجدن معفرات الثرى باوجههن . ولكن احد الملكين خاطبهن قائلاً « لا تذهلن انكن تطلبن يسوع الناصري المصلوب لماذا تطلبن الحي بين الاموات انه ليس ههنا لكنه قد قام اذكرن كيف كلمكن وهو في الجليل اذ قال انه ينبغي لابن البشر ان يسلم الى ايدي الخطاة و يصلب و يقوم في اليوم الثالث فاذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس انه يسبقكم الى الجليل وهناك ترونه كما قال لكم » وهذا اول كلام قيل عن قيامة يسوع المسيح و بالحقيقة انه لم يوجد من ذلك الزمان حتى الان برهان اسهل واكمل منه لاجل اثبات هذه الاعجوبة التي هي ركن الدين المسيحي ان الدليل الاول الذي ظهر للشهود وسطع كالشمس في رائعة النهار هو ان يسوع قد وضع في القبر وليس يوجد هناك . والدليل الثاني الذي هو ثابت كالاول

هو ان يسوع كان قد تنبأ بذلك واخبر به قبل موته فقيامته ليست اذاً حادثاً فجائياً. والدليل الثالث الذي يبين البرهان ويظهره باجلى بيان لاكبر الكفرة هو مشاهدة المبعوث من بين الاموات عياناً ولمسه باليد

فالنساء القديسات اذ ذهب منهن الفرح كل مذهب عند سماع هذا الخبر المذهل خرجن فجأة من القبر وذهبن مسرعات الى المدينة يفتشن عن الرسل. وفضلاً عن اسراعهن لاندهاشهن كن صامتات ولم يعلمن بهذا الحادث المعجب الا الرسل الذين ما صدقوا كلامهن لظنهم انهن كن مخدوعات مغرورات. ومما يليق بنا ذكره حتى نوفق كلام الانجيليين هو ان بطرس ويوحنا لم يكونا مع الرسل في تلك الساعة ولكن مريم المجدلية كانت قد اخبرت كل واحد منهما على انفراد وبالفاظ مختلفة فحينئذٍ جدا في المسير نحو القبر الذي كان يظنان انه قد انتهكت حرمته بالسرقة. وبما ان يوحنا كان احدث سناً من بطرس وصل الى القبر قبله ولكنه لما راى القبر مفتوحاً لم يجسر ان يدخل اليه اما خوفاً منه او اجلالاً لرفيقه ولكنه اكتفى ان يتفرس في داخل القبر واقفاً على بابه فنظر الاكفان موضوعة على الارض. وبعد قليل وصل سمعان بطرس الذي ما عتم ان ولج القبر لانه كان ذا جرأة واقدام فوجد الاكفان موضوعة والمنديل الذي كان على راسه غير موضوع معها بل كان ملفوفاً في موضعه على حدة فهذا المشهد كان دليلاً قاطعاً لمن كان ذا بصيرة وانتقاد على استيقاظ طبيعي وليس على سرقة فجائية. ثم دخل يوحنا الى الجدث وشاهد بعينيه الحسيتين كل ما هو داخل القبر فشعر وقتئذٍ بتجدد الايمان في قلبه لانه نظير بقية الرسل لم يكن يفهم النبوات التي كتبت بان يسوع يقوم من بين الاموات فالرسولان بعد ان لبثا مدة كانا فيها هدفاً لتصورات وافكار منقلبة تارةً تنعشهما الامال وطوراً تضنيهما الريبة رجعا الى المدينة علهما يسمعان فيها انباء اكثر وضوحاً او يخبران بقية الرسل بما خامرهما لكي يتبصروا بما يجب عليهم فعله. فالمجدلية التي كانت ولا غرو قد شيعتهما عن كثب تركتهما

يرجعان وحدهما. ولم تشاء ان تفارق القبر لانه كان الذكر الوحيد الباقي من سيدها الحبيب واذ كانت واقفة ومتكئة على الحجر ضمته اليها بانعطاف حيث انه كان البقية الوحيدة والذكر الاخير من حبيبها الذي فقدته وقد سقته بدموعها تلك الدموع النفيسة التي كانت قد جلبت لها المغفرة سابقاً وستحق بها عن قريب ان تشاهد قبل الجميع يسوع الذي قد قام من بين الاموات. وقد احب الله ان يخصصها بذلك اما لانها كانت اكثر استعداداً من الرسولين لمشاهدة هذه المناظر السماوية او لانه لم يرد ان يحرمها لشوقها المضطرم مما انعم به على بقية النساء اللواتي جئن نظيرها اول الجميع الى القبر. فبينما هي تبكي انحنت نحو القبر فرأت ملكين بثياب بيض التي هي رمز المجد السماوي جالسين حيث وضع جسد يسوع احدهما عند الراس والاخر عند الرجلين وكانا بهيئة خدام قد اتموا شغلهم فحينما تفرست في مدخل القبر خاطباها قائلين « يا امرأة لم تبكين » وكأن سورة الحزن قد استغرقت حواسها فلم ترتعب من هذا الظهور ولكنها اجابت « انهم اخذوا ربي ولم اعلم اين وضعوه » فلما قالت هذا التفتت الى ما ورائها شأن من لا تستطيع النظر الى مخاطبيها او كمن يطلب عضداً فرأت شخصاً بقربها وهذا كان يسوع وبما انها كانت متأثرة اشد التأثر ومفتشة عن ميت وليس عن حيّ فلم تعرفه فقال لها يسوع مردداً كلامه « يا امرأة لم تبكين من تطلبين » واذ ظنت المجدلية انه البستاني اجابته باحترام دون ان تنظر اليه لان الحاظها كانت معلقة على الاخرين حيث كانت تنتظر جواباً اكثر وضوحاً « يا سيدي ان كنت انت حملته فقل لي اين وضعته وانا اخذه فقال لها يسوع بعتاب رقيق « يا مريم » فهذا الاسم كان كتاريخ حياة يحتوي على ما كان يسوع يريد ان يظهره لها ويذكرها في ماضي الزمان وان يبين لها معرفته بمحبتها له. فلما سمعت هذه الكلمة اخذتها هزة الطرب وارتقص فوادها والتفتت هاتفة من صميم قلبها « رابوني » الذي تفسيره يا معلم وكانها لم تصدق ان له جسماً بل

ظنت ان نفسه كانت تتراءى بهيئة هيولية فهرعت نحوه ثملة من حميا الفرح لتلمس بيديها جسمه او ثيابه فتتحقق اذا كان جسماً لانها لم تكد تصدق عينيها واذنيها · فقال لها يسوع لا تلمسيني لاني لم اصعد بعد الى ابي بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم» وتوارى يسوع بينما كانت المجدلية تسمع كلامه فهبت حينئذ غائبة عن الهدى لتبشر التلاميذ بانها رات بعينيها الحبيبتين السيد · فلا شك بان هذه التائبة قد استحقت بمحبتها لها ان تكون اول مبشرة بهذا النباء العظيم وهي التي انعشت في قلب الجميع الرجا والثقة في المستقبل وكما قال القديس مرقس فالمجدلية وجدت الرسل غارقين في لجج الحزن والدموع ولم يريدوا ان يصدقوا شهادتها · ورغما عن هذا كله فالسيد تراءى بعد قليل من الزمان لبقية النساء اعني لمريم ام يعقوب وسالومة اللتين كانت قد تركتهما المجدلية لتفتش عن بطرس و يوحنا وهما حينما سمعتا بداءة بدء بخبر القيامة لما ذهبتا الى القبر كانتا رجعتا الى المدينة فظهر لهما السيد وقال لهما (السلام عليكما) و بما انهما كانتا سمعتا بخبر القيامة من الملاك لم تاخذهما الدهشة نظير المجدلية واذ عرفتا يسوع من صوته ومن هيئته قبلتا رجليه وخرتا امامه منكستين وجههما الى الارض ولكنه شجعهما قائلاً لهما « لا تخفنَ »« اذهبنَ وقلنَ لاخوتي ليذهبوا الى الجليل وهناك يرونني » فهولاء الاخوة المذكورون هنا والذين امرت المجدلية بتبليغهم قول يسوع ايضاً ليسوا الرسل فقط الذين يشاهدون يسوع لكن بقية التلاميذ الذين كان ينبغي لهم ان يتنحوا عن اورشليم وان يختلوا في جبلهم دون ان يقنطوا من المستقبل ليستعدوا للمشاهدة يسوع لان حنق الفريسيين واضطهادهم كان من شانه ان يضعفا الايمان في هذه المدينة المحدقة بها الاخطار فلذلك كان عليهم ان يختلوا وحينئذ يشاهدون زعيمهم المزمع ان يشيد اركان ملكوت الله وكان قصد يسوع بذلك ان يظهر بانه كلما كانت النفس اكثر استعداداً فبقدر ذلك تستحق ان تشاهده و يظهر لها نفسه بزيادة فلذلك قد شاهدته

بادى، بدء المجدلية و بعد قليل بقية النساء القديسات ثم التلميذان الذاهبان الى عماوس وفي آخر الامر اظهر نفسه مليًا للاحد عشر تلميذًا وهكذا احب ان يظهر نفسه تدريجًا حتى يرسخ في القلوب الايمان بقيامته رويدًا رويدًا ويجعله اكثر توطيدًا. ان يسوع قد اثبت لاعداه دون ان يظهر ذاته لهم بانه حيّ وذلك بواسطة شهود عدل لا ترد شهادتهم لان الحراس الذين وضعوا حول القبر ليحرسوا الميت قد اضطروا الى ان يذهبوا و يخبروا اسيادهم ان الميت قد اختفى وعلى هذا المنوال كان اعداء يسوع واصدقاؤه قد هرعوا الى المدينة لان القبر كان فارغًا انما اصدقاؤه كادت تطير افئدتهم جذلاً عند سماعهم ذلك الخبر المطرب واما اعداؤه فكانت قلوبهم تهلع عند مشاهدة ذلك الحادث المذهل . وقد اخبر القديس متى انهم دخلوا في وقت واحد الى المدينة اذ قال« وفيما هنّ منطلقات تى قوم من الحراس الى المدينة فاخبروا رؤساء الكهنة بكل ما حدث » وهذا لخبر كان الاعلام الحقيقي الثابت عن القيامة . واما روساء اليهود فقد حفظوا لخبر جيدًا وكتموه عن غيرهم وازدادوا حنقا اذ راوا ان الميت قد قلب لهم ظهر المجن. و ياليتهم استفادوا منه ولكن الاشرار يزدادون بغضًا للخير والصلاح حينما يعرفونه وان المنافقين يبذلون اقصى الجهد لاخفاء الحقيقة واجتمع روساء الكهنة وتشاوروا فيما يجب عليهم ان يفعلوه و بماذا يجاوبون عن هذا الخبر المزعج لانهم اوجسوا خيفة من سوء العاقبة ومع انهم كانوا متاكدين كل التاكيد صحة الخبر لم يكن يمكنهم الا ان يكذبوه وان يملاوا الدلو الى عقد الكرب. فحدث ولا حرج عما الم بهولاء الظلمة الاثمة من الانخذال والهلع عندما رأوا مجد من كان فريسة ظلمهم . وفي اخر الامر عقدوا رايهم على ان يرشوا اولئك الحراس الادنياء لكي لا يخبروا بما شاهدوه وقد نالوا المنى بذلك لان الحراس ما كانوا الا يهودًا طبعوا على النفاق والخسة نظير روسائهم. ناهيك عن جبنهم الذي كان يجعلهم مناط الثريا عن العساكر الرومانية التي كانت تنشا على الشهامة

وكبح اهواء النفس · فارشوا الجميع وعلموهم ان يقولوا « ان تلاميذه اتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام» والانجيل يخبر ان روساء الكهنة اعطوا الحراس مالا وافراً يعادل افكهم لان الجزاء يزداد بقدر اهمية الامر المفعول واي شي او اي ذنب اعظم واقبح من انكار عمل الهي نظير هذا العمل · فياله من مدعى فاسد يناقض ذاته بذاته فكيف يمكن للحراس ان يكونوا نائمين وقد نظروا السرقة واذا كانوا قد نظروهم فلماذا لم يمنعوهم · فهذا التفسير ولا ريب خليق بمن يفسر الامور وهو مستغرق في سنة الكرى · وصباح اليوم الثالث سبت الفصح كان الخبر قد ذاع في المدينة بان جسد المصلوب لم يكن في القبر وكان البعض يزعمون ان تلاميذه اخفوه واخرون يقولون لا احد يعلم ماذا الم به ولكن نزراً منهم كانوا يثبتون انه قام من بين الاموات كما سمعوا من الملئكة واما النساء القديسات فكن يؤكدن انهن نظرنه حياً

وفي عصر ذلك النهار كان اثنان من التلاميذ يدعى احدهما كلاو يا سائرين الى قرية اسمها عماوس تبعد عن اورشليم ستين غلوة وكانا يتحادثان بتلك الحوادث كلها بكلام يعرب عما يكن فوادهما من الحزن والوجل · و بينما هما على تلك الحالة اذا بمسافر ثالث قد انضم اليهما بغتة وهذا المسافر كان يسوع ولكن اغمضت اعينهما عن معرفته وذلك لانه لم يكن يخطر ببالهما ان يسوع الذي كانا يظنانه بين الاموات ياتي ويحادثهما · ومن جهة اخرى فان يسوع كان قد تزيا بزي غريب واتاهما فجأة ولكنه ما عتم ان اخذ يحادثهما قائلاً لهما « ما هذا الكلام الذي تتحاوران فيه وانتما سائران مكتئبان » كأن لم يكن عارفاً بما كان يخامرهما من الانزعاج والقلق فاجابه كلاو يا متعجباً من سواله « انت وحدك غريب عن اورشليم ولم تعلم ما حدث في هذه الايام » فقال لهما « وما هو » متجاهلاً ما كان يخبره به هذان التلميذان اللذان لم يرقهما استفهامه · فاجابه كلاهما وقد اخذت منهما الحدة كل ماخذ لحديث رفيقهما « بما يتعلق

يسوع الناصري الذي كان رجلاً نبياً ذا قوة في العمل والقول امام الله والشعب كله . وكيف اسلمه روساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه » وكانت سرعة حديثهما تدل دلالة واضحة على ان فمهما كان يترجم عما ملأ قلبيهما وكانا يتقاطعان في الحديث ويتضافران حتى يوضحا باجلى بيان لرفيقهما ما كان يجهله من الحوادث العظيمة ثم قالا له وامارات الحزن واليأس تلوح عليهما « ونحن كنا نرجو ان يفدي اسرائيل ولكن مع هذا كله فاليوم هو اليوم الثالث لحدوث ذلك » ولم يجسرا ان يكشفا له كنه ضميرهما وهو ان يسوع كان وعد بان يقوم في اليوم الثالث وتحقيق هذا الوعد اصبح مستحيلاً وقد زادا على ذلك قائلين « غير ان نساء منا ادهشننا لانهن بكرن الى القبر فلم يجدن جسده فاتين وقلن انهن راين مظهر ملائكة فقالوا انه حيّ . فمضى قوم من الذين معنا الى القبر فوجدوه كما قالت النساء لكنهم لم يروه » فهذه الكلمات الاخيرة تثبت ما قاله الانجيليون عن عدم تصديق الرسل حينما اخبرتهم النساء عن ظهور يسوع المبعوث من بين الاموات حتى ان هذين المسافرين لم يذكرا اصلاً كلمة تدل على تصديقهما كلام النساء . فالسيد بعد ان تحدث معهما ملياً سائلاً اياهما ومستمعاً كلامهما شرع في مخاطبتهما بكلام كان من شانه ان يذهل مخاطبيه لو لم يكن منطبقاً على افكارهما وموافقاً لها اشد الموافقة وقد قال لهما بكلام قاطع « يا قليلي الفهم وضعيفي القلب في الايمان بكل ما نطقت به الانبياء . اما كان ينبغي للمسيح ان يتالم هذه الآلام ثم يدخل الى مجده » وبما انهما كانا قليلي الفهم لم يكونا يعرفان القصد الالهي الذي لم يكن شيء يغيره وهو ان المجد والانتصار كان يجب ان يكونا مسبوقين بالذل والاتضاع وان القيامة كان يجب ان تكون مسبوقة بالصليب والقبر ويظهر انهما كانا قد قرآ جزءا من النبوات التي تذكر عن انتصار المسيح ولم ينظرا الجزء الذي يذكر ان الاتضاع كان يجب ان يكون مقدمة للفخر

ثم اخذ يشرح لهما بالتفصيل كل الكتب المقدسة التي تتعلق به مبتدئاً من

موسى الى آخر الانبياء مبيناً لهم بالتدقيق كل ما قالته الانبياء في كل صفحة حتى دهشا من كلامه وقد بين لهما خاصة كيف قد تمت به هذه النبوات مع كل تفصيلاتها الدقيقة وكيف ان الامه كانت الركن الاساسي الذي لا بد منه لمجده وفداء العالم. وقد بان مسيرهم قصيراً اذ كانوا يتجاذبون اطراف حديث مفيد ولما اقتربوا من القرية التي كانا المسافران يقصدانها تظاهر يسوع بانه كان منطلقاً الى مكان ابعد و بما ان نفوسهما كادت تذوب شوقاً الى ذلك الحديث الذي كان منطبقاً كل الانطباق على افكارهما واشواقهما فقد الحا عليه اشد الالحاح ان يبقى معهما حتى قبل منهما قائلين « امكث معنا لان المساء مقبل وقد مال النهار » فدخل ليمكث معهما في البيت الذي نزلا فيه. وقد كانت العادة الجارية في ان رب البيت يترأس المائدة او يتنازل عن مكانه الى احد الشيوخ او احد معلمي الشرح اذ كان حاضراً فلذلك لما جاء وقت العشاء ترأس يسوع المائدة واخذ خبزاً و بارك وكسر واعطاهما وقد كانت صلاته ممتزجة بالطلاوة وصوته كان ذا قوة فعالة حتى ان التلميذين اللذين كان اخذ منهما الانفعال ماخذه ما عتما ان عرفا ذاك الذي كان يخاطبهما بلهجة سماوية. ومما زاد تصديقهما ايماناً كسر الخبز. ترى هل قدس يسوع الخبز كما قدسه في عشاء العلية او صدرت عنه نعمة التنوير حينما ناولهما الخبز فالنتيجة كانت هي نفسها. لانه لما ناولهما اياه اشرق النور عليهم فانفتحت اعينهما التي كانت حتى ذلك الوقت مطبقة وظهر يسوع منجلياً ولكن تلك الرؤيا لم يطل امدها لان السيد بعد ان قوى ايمانهم وعزى نفسهما توارى عنهما بسحابة من المجد. فحينئذ رجعا لنفسهما واخذا يظهران ما كان قد خالج فوادهما قائلين الواحد للاخر « اما كانت قلوبنا مضطربة فينا حينما كان يخاطبنا في الطريق و يشرح لنا الكتب » و بقي فوادهما معلقاً بتلك الدقيقة التي شعرا فيها بان ايمانهما كان يجدد وجذوة رجائهما تزداد اضطراماً حين سماعهما ذلك الكلام البهي. لان النفس وان كانت في اقصى

درجة من القداسة والبرارة فهي ترغب وتلذ في التفكر بتلك الدقيقة التي كانت مبدا تغيرها وانتقالها من حالة الى اخرى لانها كانت لها اونة الرحمة والنعمة

وفي الحال نهض التلميذان وذهبا مسرعين نحو اورشليم حتى يخبرا التلاميذ بهذا الخبر الجديد الذي لم يمكنهما كتمه عن البقية فوجداهم مجتمعين وهم من القلق في مكان وذلك لان بطرس كان قد اخبرهم انه راى السيد بعد ما بشرت النساء القديسات بقيامته. وهذه الشهادة هي ايضاً ذات اهمية كبرى لان القديس بولس يذكرها مراراً و يعدها كانها اول شهادة ومع هذا فلا نعلم شيئاً من هذا الظهور ولكن الاكثر احتمالا ان ظهوره له كان قبل سفر التلميذين الى عماوس. وان كان هذا الخبر لم يقنع جمعية الرسل اقناعاً تاماً فقد زادهم تاثراً ودهشة. ولم يكن لهم ثمت من شاغل الا الحديث بما سمعوه عن ظهور السيد المتعدد وزاد شوقهم اضطراماً ليس فقط ليسمعوا بنباء قيامته بل لينظروه باعينهم فالسيد له المجد لم يبخل عليهم بهذه التعزية

فبينما كانت الابواب مغلقة خوفاً من اليهود وقف السيد في وسط الرسل. فطارت افئدتهم هلعاً ومع هذا فقد عرفوه عاجلاً ولكن بما انه دخل والابواب موصدة ظنوا ان روحاً يخاطبهم فعاودتهم الرعبة التي تحدث عن مشاهدة المناظر السماوية. واذ اراد يسوع ان يشجعهم قال لهم « السلام لكم » لان هذا السلام كان متعارفاً عند اليهود واما يسوع فقد اراد ان يذكرهم فيه بوداعه الاخير لهم اي قبل موته. و بما ان الرعبة كانت قد اخذت ماخذها منهم لم يقدروا ان يتمالكوا انفسهم حتى يفهموا هذا الالماع الذي اراده السيد لانهم ظنوه شبحاً. فقال لهم يسوع « انا هو لا تخافوا » مبيناً لهم ذاته بكلام رقيق وحيث انه كان عارفاً بخجلهم لانهم تركوه شاء ان يزيدهم طمأنينة «فقال لهم ما بالكم مرتعدين ولماذا ثارت الاوهام في قلوبكم » فقد ظهر ان الموت لم يغير شيئاً من تلك العين التي تنظر خفايا النفس واعماقها. وبان جلياً ان تلك الشفقة وذلك الحنو الالهي الذي

يراعي ضعفنا لم يقو عليهما شيء فهذه العلامات الواضحة جعلتهم يعرفون السيد له المجد. ومع هذا كله فقد احب ان يعطيهم برهاناً اوضح واكمل منها حتى لا يدع مجالاً للريب

ومن ثم فقد ابان لهم ان ما كان يظهر لهم ليس فقط نفسه ولكن جسده ذاته. وهذا هو البرهان الراسخ الذي يثبت حقيقة القيامة . فان جوهر القيامة لم يكن قائماً بالبقاء بعد الموت او اعادة مبدا الحياة فقط ولكنه قائم بتجديد الحياة الجسدية. واما كون جسده هذا خاضعاً لنفسه وطوعاً لها تارةً يجتاز المسافة وطوراً يظهر وحيناً يتوارى على حسب ما تشاً فمع ذلك لم يفنأ يكون له وجود مادي حقيقي. نعم انه يعيش في حالة سامية لا نعرفها ولكنه يقدر متى شاء ان ياخذ حالتنا و يعيش عيشتنا في كل احوالها. فنوع وجوده قد تغير واما حقيقة وجوده فهي لم تزل كما كانت عليه فلذلك قال لهم يسوع « انظروا يديَّ ورجليَّ اني انا هو جسوني وانظروا فان الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون في » وفي الوقت نفسه اراهم يديه و رجليه وجنبه فقد بان جلياً انه كان هو نفسه. وقد حفظ اثار الاستشهاد المرة في حال انتصاره . فالرسل لفرط الفرح والدهشة ظنوا ان اعينهم تخدعهم وكانوا غير مصدقين. اذ اراد السيد ان يزيدهم تاكيدا قال لهم « اعندكم طعام » وكان هذا عند اخر العشاء فاعطوه قطعة من سمك مشوي وشهد عسل فاكلها ولكن ليس عن حاجةٍ للاكل لانه لو كان ذلك لامست لغواً الحقيقة اللاهوتية التي تثبت ان الاجسام الطوباوية لا تحتاج الى طعام وانما فعل هذا حتى يثبت حقيقة وجوده الجسدي . ولما راه الرسل قد تناول الطعام بيديه واكل امامهم واعطاهم زال عنهم كل ريب ولاسيما لما راوه يشاركهم في معيشتهم فحينئذٍ طفق يسوع يوبّخهم برقة على عدم ايمانهم وعلى قساوة قلوبهم بعد ما سمعوا من الشهادات العديدة منذ صباح قيامته واتضح لهم كيف تنبأ عن كل ما جرى له في زمان حياته قبل موته وكيف ان الانبياء من موسى والمزامير حتى

آخر الانبياء كانوا قد راوا ان الامه كانت المقدمة الضرورية لانتصاره السامي وبما ان فائدة البرهان تزداد بمقدار قربها من الفهم بوجه اجلى فقد فتح اذهانهم ليفهموا الكتب

ففي مساء ذلك اليوم يوم القيامة العظيم دخل الرسل ايضاً في حيوة جديدة ولم يكن فوادهم اقل اضطراباً حينما كلمهم يسوع من قلب ذينك التلميذين الذاهبين الى عماوس حتى شعروا بانهم قد تغيروا عما كانوا عليه وصاروا قوماً آخرين « وقال لهم ثانية (السلام لكم) كما ارسلني الاب كذلك انا ارسلكم » وبما ان عمله ومشروعه كانا قد انتهيا اعطى التلاميذ السلطان ليعملوا فلذلك نفخ فيهم وقال لهم « خذوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له ومن امسكتم خطاياه تمسك له » وبهذا قد خولهم الايد السماوي الذي يعوزهم ليبقوا منضمين ومتآزرين للدفاع الى ان يجيء الروح القدس الذي يؤيدهم بنعم غزيرة وكما ان الله (يهوه) حينما نفخ في الانسان الاول منحه الحيوة فيسوع الذي له كمال الالوهية حينما نفخ فيهم اعطاهم حيوة جديدة لانهم خلقوا خلقة جديدة وكما ان نفخة الله جعلت ادم على صورته فكذلك نفخة المسيح المبعوث من بين الاموات قد وسمت في انفس الرسل شبه المخلص وصورته وجعلتهم يشتركون في قوته الالهية

فبالحقيقة ان الرسل صاروا ذوي سلطان على ان يغفروا الخطايا او يمسكوها فالسيد قد استعمل هذا السلطان السامي في حياته لانه يمتنع تشييد مملكة الله بدون هذا السلطان الذي ينبغي ان يحكم باهلية من يشاء الدخول اليها او عدم اهليته . وبما ان هذه الجمعية الجديدة هي ذات حيوة خصوصية ومنفردة عن غيرها باحوالها ومرتبتها فيلزم من رام الاشتراك فيها ان يُقبل ولكي يقبل ينبغي ان يفحص ويحكم عليه اذا كان اهلاً لذلك ام لا وهذا هو الركن الوطيد المشيدة عليه عقيدة الاعتراف الكاثوليكي الذي لا يقدر على دحضه وانكاره الا من كان دابه الزيغ عن الجادة القويمة لانه كيف يمكن ان يقبل احد في شركة خيرات الكنيسة وهو مجهول . وكيف يمكن ان يعرف دون فحص

واقرار وبعد سماع الدعوى يقدر الرسول ان يحكم ذلك الحكم السامي وهو اما بالحياة او بالموت وبفتح الباب او بغلقه او انه يقضي بالخلاص او بالهلاك

وقد لفظ يسوع هذه الكلمات السرّية التي جعلت الرسل قضاة الكنيسة بكلام يدل على التعظيم ولما نفخ فيهم مرت تلك النفخة على رؤوسهم وخولتهم حياة جديدة شعروا اجمعهم بها حتى انه بعيد ما غادرهم كانوا يظنون انهم سامعون صوته ومقتبلون بركاته وقد قضوا ما بقي من تلك الليلة وهم سكارى من حميا الجذل والسرور لما نالوه من الانعامات السامية ومما زاد فرحهم اعتقادهم بخبر القيامة الذي ما عاد احد يقدر ان يصوب نحوه سهام التكذيب. وقد اصبح اوضح من الشمس في رائعة النهار: فتوما احد الاثني العشر الذي يقال له التوآم لم يكن معهم حين جاء يسوع فلربما كان قد اخذ الهلع من ضعيف نفسه ماخذه او انه كان انفرد عن البقية لان الكآبة قد ساورته فاستغرقت قواه او انه لم يكن يريد ان يظهر للرسل ما داخله من الشك لئلا يضعف ايمانهم او ان ما فعله كان محض صدفة في مساء ذلك اليوم الذي جرت فيه هذه الحوادث العظيمة اي في اثناء تلك الوليمة. ومهما كان من الامر فقد ابان لنا توما ان الانفراد لا يجدي نفعاً لمن كان قلبه قلقاً وهو في ريبة من امره على حين يُقضى فيه الامر. ثم عزم توما ان ينضم الى رفقته لما سمع من الاخبار المتكاثرة عن ظهور يسوع لحين وصوله قال له التلاميذ بفرح عظيم «انا قد راينا الرب» ولا ريب في انهم اخبروه عن زيارته لهم بالتفصيل. ورغما عن هذا لم يجدوا سبيلاً لاقناع ذلك العديم الايمان المتشبث برايه ولم يستطيعوا ان يجددوا في قلبه شعلة الايمان الحار الملهبة قلوبهم بل انه اخذ يلومهم على سذاجتهم وسرعة تصديقهم مزداداً تمسكاً باعتراضاته وقال لهم «ان لم اعاين اثر المسامير في يديه واضع اصبعي في موضع المسامير واضع يدي في جنبه «لا اومن» فيتبين من نسق

كلامه ومن الشروط الثلاثة التي اشترطها عليهم ما كان عليه من جسيم الشك وشديد العناد المستند على البرهان العقلي حيث انه ما كان يرضى ان ينظر فقط بل كان يتطلب أن يمس باصبعه علامات المصلوب الصريحة من هنا نقدر ان نستنتج ان مشهد الجلجلة كان حيًّا في تصور ذلك التلميذ الذي لم تتغير محبته ولو كان غير مصدق وان خوفه وهلعه كانا على قدر محبته

وقد لبث مذ ذاك توما مع اصحابه اسبوعاً كاملاً ولم يغير تيقنهم وفرحهم شيئاً من حالته ومع ذلك لم يكن يبتأ من سرورهم هذا . ولربما كان التلاميذ جميعاً يتوقعون ظهوراً جديداً بعد تسعة ايام من الظهور الاول الذي احيا امالهم وعزامهم . ومن جهة اخرى فقد كان ذلك في آخر اسبوع الفصح اي مساء اليوم الذي كانوا فيه مستعدين ان يذهبوا الى الجليل اذ لا يقدَّر ان السيد كان يشأ ان يذهب هذا العسكر الجديد الشجاع الى الجبل دون ان يامرهم امره الاخير

وفي مساء اليوم الثامن حينما كان التلاميذ مجتمعين مع توما في نفس العلية التي تناولوا فيها العشاء الفصحي اتى يسوع والابواب مغلقة ووقف في الوسط وقال « السلام معكم » فحدث اذ ذاك ولا حرج عما الم بتوما من الانذهال ولا سيما حينما وجَّه السيد اليه كلامه قائلاً « هات اصبعك الى ههنا وعاين يديَّ وهات يدك وضعها في جنبي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً » فهل من برهان اقوى من هذا البرهان على انه هو المسيح نفسه . فقد منح ذلك التلميذ المكابر والمتصلب في عناده كما تطلبه من الشروط واذا كان قد اظهر السيد بعض السخرية في خطابه هذا المملو لطافة ورقة فذلك لكي يحرك نفس ذلك التلميذ ويزيدها تقرباً الى الايمان اذ اظهر له في الوقت نفسه يديه مع اثر الجراحات الهائلة وجرح جنبه وكأنه كان ينتظر نتيجة الاختبار الحسي الذي كان طلبه توما . فكان لهذا المشهد تاثير خاص ولا سيما حينما قام توما واقترب من السيد مندهشاً منذهلاً لان النور السماوي جلله باشعته وابهره وضوح الحقيقة وصار ضميره

يكتنه لان مشاهدة الحقيقة نظير رؤيا الله تختطف الانسان وتفقده الهدى. وكان توما قد اختطف فخر ساجداً وقال له (ربي والهي)

فبلحظة واحدة تغيرت حال نفس توما وافكاره اذ انه انتقل من حالة الشك والمكابرة الى حالة الايمان الثابت الوطيد حيث قال في اليوم الاول (اني لا ومن ٠٠٠) واما الان فيهتف (ربي والهي) فبهذه الكلمة قدم لسيده اكبر اكرام قدمه له في حياته قبل موته وابان لنا كيف انه من الممكن ان يصير الآخرون بين المؤمنين اولين. واما السيد فقد اكتفى بان يقول له « لانك رأيتني يا توما امنت طوبى للذين لم يروا وامنوا » فقد بين لنا السيد بهذا الكلام نوعين من الايمان النوع الاول ايمان الذين لا يصدقون الا بعد ان ينظروا باعينهم ويلمسوا بايديهم ويتحققوا الاشياء بالاختبار. والنوع الثاني ايمان الذين يصدقون بمجرد الشهادة التامة الشروط المطلوبة. فالله لا يرفض النوع الاول من الايمان ويبين لنا من مثل توما انه يتنازل بعض الاحيان الى اجابة اصعب مطالب هذا الصنف من المؤمنين ومع ذلك فلربما كان هذا تخصيصاً يندر مثاله او شذوذاً والا لا يلتزم الله ان يصنع اعجوبة خاصة لكل فرد من المؤمنين واما الايمان الذي تقوم به الكنيسة المسيحية فهو الثاني الذي به نؤمن لان الآخرين قد عاينوا وشهدوا شهادة صادقة بان الله قد تكلم. وبعد هذه الامثولة المملوءة رافة توارى السيد عنهم ولم يكن من شاغل للرسل الا انتظارهم رؤيته ثانيةً في الجليل

وما انتهت الاعياد حتى توجه الرسل قاصدين الجليل وفي اثناء مسيرهم كانوا يبشرون بذلك الخبر العظيم خبر القيامة لكي يمحوا ما كان رسخ في الاذهان من خبر موت يسوع. ولكي يجعلوا كلامهم اكثر قوة وشهادتهم اكثر ثبوتاً فقد راوا من الصواب ان ينضموا الى بطرس رئيسهم ويكونوا تحت امرته لعلمهم ان تضافرهم يزيدهم نجاحاً في مشروعهم

وفي مساء احد الايام قال سمعان لاصحابه « انا ذاهب لاصطاد » وذلك

اما ترويحاً للنفس او انهم كانوا في حاجة الى الطعام « فقالوا له ونحن ايضاً نرافقك » فخرج بطرس مع توما الذي يقال له التوأم ونثنائيل وابني زبدى واثنين آخرين من التلاميذ وركبوا السفينة . ولا مرية انه كان يروقهم ان يتذكروا الايام القديمة وهم بمعية يسوع على مياه هذه البحيرة حيث دعاهم واتخذهم تلاميذاً له . وابدى لهم محبته . وبما ان نفوسهم كانت غارقة في لجج هذه التصورات التقوية يحتمل انهم لم يصيبوا نجاحاً وقد قضوا الليل كله ولم يصطادوا شيئاً وحينما لاح الصباح راوا رجلاً على الشاطئ . فلم يخطر ببالهم ان هذا هو يسوع بسبب الضباب المتكاثف الذي كان مخيماً فلم يروا الا خياله « فقال لهم يسوع يا فتيان هل عندكم شيء من الماكل فقالوا لا » ولربما ظنه التلاميذ صياداً او تاجر سمك واقفاً على الشاطي « فقال لهم القوا الشبكة من جانب السفينة الايمن فتجدوا » فهذه النصيحة كان من شانها ان تذكرهم بدعوته الاولى حينما دعاهم لكي يصطادوا الناس للخلاص . ثم انهم فعلوا كما قال لهم والقوا الشبكة فلم يعودوا يقدرون ان يجذبوها لكثرة السمك وطفق التلاميذ يتفرّسون وقد داخلهم العجب من ذلك الرجل الذي ارتأى لهم هذا الراي الموافق دون ان يعرفوه . لكن ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه « اعني يوحنا » بعين شبيهة بعين النسر او بالاحرى بعين القلب الذي من شانها ان تخرق السحاب وان تطوى لها المسافة قد عرف اول الجميع انه يسوع وقال « هذا هو الرب » فلما سمع سمعان بطرس انه الرب ائتزر بثوبه لانه كان عرياناً وطرح نفسه في البحر ليعجل المسير اليه . واما التلاميذ الاخرون فجاؤوا بالسفينة ولم يكونوا بعيدين من الارض الا نحو مئتي ذراع وهم يجذبون شبكة السمك

فلما نزلوا الى الارض رأوا جمراً موضوعاً وسمكاً عليه وخبزاً . فمن اين اتى هذا . فالانجيلي لا يذكر شيئاً ولم يُعْنَ في تبيين كيفية هذا الحادث كما انه لم يعن بالفحص عن دخول يسوع الى العلية والابواب مغلقة حيث انه يعرف ان يسوع

هو السيد الكلي القدرة ولانهم في غنىً عن ايضاح كيفية حدوث الاشياء حينما يكون مشاهداً لها. لانه ان كان في مدة حياته المائتة اعني قبل صلبه كان قد احال الماء خمراً وضاعف الخبزات والسمكات افلا يستطيع في مدة حياته السامية ان يخلق ويوجد كل ما هو ضروري لتعليم تلاميذه وتهذيبهم. وينبغي ان نعتبر ايضاً في هذا الحادث تعليماً رمزياً سامياً لان هذه الوليمة التي اعدها يسوع لتلاميذه هي صورة ورمز للتعزية المزمع ان يخولهم اياها حين رسالتهم واذا كان ظاهرها يدل على انها غير كافئة اذ ان سمكة واحدة لم تكن لتكفي كل ذلك الجمع فذلك لكي يعلمهم ويحرضهم على ان يقرنوا مساعيهم بسعيه وان يجدوا قسماً من مجازاتهم في الفرح المسبب عن اعمالهم وجهادهم « فقال لهم يسوع قدموا من السمك الذي اصطدتم الآن» فصعد سمعان بطرس وجر الشبكة الى الارض وهي مملوءة سمكاً كبيراً مائة وثلاثاً وخمسين ومع هذه الكثرة لم تتمزق الشبكة. وهذا رمز عن النجاح الذي يصيبه كلام بطرس واخوته ثاني يوم العنصرة حينما يلقون شبكهم بين الناس. فالسيد له المجد مع كل الاجتهاد الذي بذله في مدة حياته لم يصطد الا سمكة اعني عدداً قليلاً من الناس واما الرسل الملقنون من الروح القدس والمبشرون باسم السيد فيصطادون الوفاً من النفوس من كل الامصار الذين يمثلون كل الجنس البشري كما ان المائة والثلاث وخمسين سمكة تمثل كل سمك البحيرة

واما بقية التلاميذ فكانوا واقفين حتى تلك الساعة بعيداً عن يسوع احتراماً له « فقال لهم «هلموا تغدوا » فتقدموا وامارات الخوف تلوح على وجوههم وكما يخبر الانجيلي لم يجسر احد من التلاميذ ان يسأله من انت لانهم علموا انه الرب وربما لم يجسروا ان يكلموه ويحادثوه بتلك الدالة القديمة لانه كانت تلوح على محياه لوائح سماوية خارقة العادة. فتقدم يسوع واخذ الخبز واعطاهم وكذلك السمك كما فعل في مدة رسالته في الجليل حينما كانوا مجتمعين على شاطىء البحيرة في تلك الوليمة القشفة والاخوية. وقد ترأس السيد هذه الوليمة

بما انه رب العائلة ولانعلم شيئاً عما جرى فيها من الحديث والكلام الذي يزيدها بهجة وربما الصمت كان افصح دليل وابلغ تعبير عما كانوا عليه من البهجة والحبور

فبعد ما تغدوا نظر يسوع ان سيماء الكآبة والتواضع تلوح على محيا بطرس رغماً عما صنع من التوبة الشاقة فعنّ له ان يعيد اليه منزلته ومقامه الاول بين رفقته. ان السفينة المضطربة بالامواج وصيد السمك الكثير الذي غمره كان يذكر بطرس بذلك اليوم السعيد الذي غمره فيه السيد بنعمته ورحمته وجعله تلميذاً وفي الوقت نفسه كانت النار الموضوعة قربه تذكره بتلك. النار التي كان يصطلي عليها في دار رئيس الكهنة في تلك الليلة الهائلة التي كانت له نقطة سوداء في بياض حياته عندما جحد المخلص ثلث مرات. ولما شاء يسوع ان يمحو قدام الجميع هذا التذكار الذميم قال لسمعان بطرس « يا سمعان بن يونا اتحبني اكثر من هؤلاء » ففي هذا السؤال تلميح بيّن الى كلام بطرس لما قال اذا شك فيك الجميع فانا لا اشك والماعاً لاعتراضاته القوية الدالة على اتكاله الذاتي قبل سقوطه. فاجابه سمعان بتواضع عميق « نعم يا رب انت تعلم اني احبك » ولم يذكر ادنى مقابلة بينه وبين رفاقه حتى انه لم يتلفظ بالمقابلة التي صنعها المخلص لانه بعد ان اختبر ضعفه الذاتي لم يعد يتهور في كلامه واكتفى بمعرفة يسوع التي تسبر غور الضمير وتقرأ حركات النفس فقال له السيد بكلام يدل على السلطة الممتزجة بالرقة « ارعَ خرافي » فمن المؤكد بان الراعي سيكون دائماً وابداً هو نفسه اعني يسوع ولكن بما انه لا يكون بنوع منظور مع القطيع فقد اختار خليفته الخاص وذا الاولية الذي بواسطته يعتني كل الاعتناء بخرافه الضعيفة

وبعد ان سكت قليلا قال له ثانيةً بكلام اقوى من الاول « يا سمعان بن يونا اتحبني » ولم يذكر يسوع في هذه المرة شيئاً من المقابلة لانه عرف ان ذلك يسوء بطرس. ومع هذا فقوة السوال لم تزل كما كانت ولم يشاء يسوع ان

يكرر المقابلة لانه ربما كانت تهيج حسد التلاميذ بل اقتصر على السوال اذا كان يحبه. ولا شك في ان بطرس اخذته الدهشة من هذا الالحاح فاجابه كما اجابه في المرة الاولى بتواضع بليغ « نعم يا رب انت تعلم اني احبك قال له ارعَ خرفاني » لان هذه الخرفان تحتاج ليس فقط الى القوت ولكن الى التدبير لانها لا تستطيع ان تبقى ماكثة في الحظيرة

ثم قال له ثالثة « يا سمعان بن يونا اتحبني » وهذا كان نقيض نكرانه اياه ثالث مرة في دار رئيس الكهنة فحزن اذ ذاك بطرس اما لان التلميح الى جحوده المعلم كان اكثر وضوحاً او لان يسوع كان يشك في محبته له فاستنهض اذ ذاك شجاعته دون ان يخرج عن سياق كلامه الواضح وقال له « يا رب انت تعلم كل شيء وانت تعلم اني احبك » . فقال له ارعَ غنمي » مذيعاً وموضحاً مرة اخرى رئاسة بطرس وواكلاً اليه رعاية امهات القطيع وهذا يدل على انه يجب ان يكون الراعي الذي سلم الوكالة محترساً ومتيقظاً على ما اوتمن عليه وان الجميع يكونون تحت سلطته وعصا رعايته. واذ ذاك تحققت تلك المواعيد التي كان يظهر ان الرسول قد خسر تحقيقها بسقوطه ولكنه قد عوض عن جحوده يسوع ثلاث مرات باظهاره نحوه محبته ثلاث مرات. وقد قبل يسوع هذه المحبـة الصادقة مظهراً له تجدد ثقته فيه ولم يدعه ليدبر القطيع فقط ولكن ليموت من اجله وهذا ما تعنيه كلمات الانجيلي الاتية « الحق الحق اقول لك اذ كنت شاباً كنت تمنطق نفسك وتذهب حيث تشاء فاذا شخت فستمد يديك واخر يمنطقك ويذهب بك حيث لا تشاء » فقد قسم يسوع بهذا الكلام حياة بطرس الى طورين: ففي الطور الاول حينما كان بطرس مطلق الحرية يفعل ما يروقه اذ لا تعلق لاحد معه فهو حر في كل ما يفعله نظير شاب عاش وحده وليس مقيداً بواجبات نحو الغير. واما في الطور الثاني فقد اثقل عاتقه بالواجبات نحو العائلة الجديدة التي اصبح رئيسها وحجز حريته لان حرية

الانسان واستقلاله الذاتي ينقصان كلما ازداد سلطة سواء كان في عائلة او خارجاً والعكس بالعكس · وهذه الحالة هي غالباً حالة سن الكهولة · وهكذا فان بطرس سيصبح عبداً وخادماً لواجباته الجديدة بسبب سلطته التي تقلدها · والله يمد اليه يد المساعدة لكي لا ينثني عن عزمه فيبقى هدفاً للعذاب والاحتمال مرةً بعد اخرى الى ان يبذل حياته لاجل توطيد مستقبل القطيع · وهذا ما عناه السيد لان مؤدى كلامه المستعار يدل على العذاب المعد لرئيس الرسل · وبالحقيقة فالكلام النبويّ يكون له غالباً معنيان متشابهان وكلاهما صحيحان ومن الممتنع ان نفهم بهذا الكلام عن الشيخ الذي يمد يديه واخر يمنطقه الاسمعان بطرس رئيس العائلة المسيحية الذي يسلم نفسه للاستشهاد في اخر حياته بعد اتعاب رسالته الشاقة وسيقتفي اثر معلمه سالكاً باقدام ثابتة في الطريق التي تابى الطبيعة البشرية السلوك فيها اعني طريق الصليب المخيفة باسطاً يديه المرتعدتين على تلك الخشبة المرعبة حيث ينال اكليل الشهادة الممجد

وكان يسوع يريد ان يسلم بطرس بعض نصائح سرية فحينما انتهى من نبوته قال له « اتبعني » فتبعه سمعان بطرس لكن يوحنا الذي اضحى خجلاً لانه لم يقتفِ اثر بطرس باسراعه نحو معلمه لكونه بقي في السفينة لم يشأ ان يذهب يسوع دون ان يرافقه ولو دقيقة واحدة · وفضلاً عن ذلك فهو يذكر الاسباب التي حملته على هذه الجرأة وهي انه ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه · وهل يخال له ان السيد لا يريد ان يشركه في السر الذي كان مزمعاً ان يسلمه الى بطرس · فتقدم حينئذٍ اليهما وزد على ذلك انه من مدة لم يكن يفارق ابن يونا · فبطرس الذي كان يريد ان يدخله في المواجهة السرية بينهما او على الاقل ان ينال له كلمة مرضية لمّا شعر بتقدمه اليهما « قال ليسوع يارب ما لهذا » « فقال له ان شئت ان يثبت هذا الى ان اجي فماذا لك انت اتبعني » فذاعت هذه الكلمة في ما بين الاخوة ان ذلك التلميذ لا يموت ولكن

لاصحة لهذا التأويل لان غرض يسوع من هذا الكلام كان ان يبقى يوحنا بعيداً عنهما حتى يتنحى بطرس جانباً وان بطرس ملام عما ابداه من المحبة المفرطة الواقعة في غير موضعها· ومما حمل التلاميذ على هذا الظن هو انه بعد ما اخبر يسوع بطرس عن ميتته الشاقة فقد اعلم الثاني اي يوحنا بكلام نبوي انه لا يموت وهذا غرور لان يسوع لم يقل انه لا يموت بل ان شئت ان يثبت هذا الى ان ارجع فماذا لك والدليل على ذلك ان يسوع لما قال هذا ابتعد عنه مع بطرس· ومن المحتمل ان يسوع اعطى بطرس النصائح الشخصية التي تقوده في تشييد الكنيسة وتدبيرها ولربما عين له اليوم والمكان الذي ازمع ان يظهر فيه نفسه للتلاميذ في الجليل حيث يكونون مجتمعين لمشاهدته ولاكرامه

ولما اتى ذلك اليوم توجه التلاميذ الاحد عشر الى الجبل المعين لهم ورغماً عن ان الانجيلي لم يذكر سواهم لانه قد اعطيت لهم وحدهم في هذا الوقت السلطة الضرورية لاجل تأسيس وتدبير الكنيسة فمن المحتمل انهم كانوا قد اخذوا لفيف ذلك القوم المؤلف من خمسمائة اخ الذين يذكرهم ماري بولس في رسالته الاولى الى كورنش الفصل الخامس عشر عدد السادس حيث يقول « ثم ترآى لاكثر من خمسمائة اخ اكثرهم باقٍ الى الآن وبعضهم رقدوا » فهولاء التلاميذ حينما سمعوا كلام الرسل آمنوا مقتنعين به ولكن اقتناعاً متفاوتاً· فلم يكونوا كلهم في درجة واحدة· فحالما ظهر يسوع حياه كل الذين كانوا شاهدوه وآمنوا بقيامته نظير ربهم ومسيحهم ساجدين الى الارض ومعفرين الثرى واما القسم الاخر فاخذتهم الدهشة من منظره الجديد واذ شاهدوه عن بعد وقفوا متحيرين لكن يسوع تقدم نحو المؤمنين وصوب عواطفهم التقوية التي كانت تنعشهم قائلاً للرسل « اني قد أُعطيت كل سلطان في السماء والارض اذهبوا الان وتلمذوا كل الامم معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس » ففي هذا الغاء السلطان اليهودي بوجه نهائي· فكل الشعوب حتى المتوحشة قد دعيت لان

تدخل المملكة الجديدة وكل فرد له حق ان يسمع ذلك الكلام الجديد لان السيد اراد ان يتلمذ العالم كله٠ وقد اعطى الانجيل والمعمودية نظير وسائط لهذا الفتح الجديد والواحد منهما اعني المعمودية هو ختم للاول٠ فالانجيل هو كلام المسيح والمعمودية هي علامته الفعّالة التي تطهر النفس كما يستفاد من مدلول استعمال الماء فيها اذ بواسطتها يغتسل و يتطهر كل مؤمن جديد من خطاياه و يصير ابنا له يستحق المجد قبل ان يدخل في الجند المسيحي وحينما يُلفظ اسم الثلثة الاقانيم يكتسب الماء العادي القوة التي تطهر النفس وتنقيها من اثامها وعلى هذا المنوال فالثالوث الاقدس يحضر ويترأس ولادة المؤمن الروحية

فوالحالة هذه اعني حينما يتملك المعمد الجديد الاقانيم الثلثة يجب عليه ان يقدم لها الشكر عن حياته الجديدة وذلك بايمانه بحقائق الانجيل وبحفظة الشريعة المسيحية لان السيد قال للرسل « وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به فمن آمن واعتمد يخلص ومن لم يؤمن يدن وهذه الايات تتبع المؤمنين و يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بالسنة جديدة ويحملون الحيات وان شربوا شيئا مميتا فلا يضرهم و يضعون ايديهم على المرضى فيشفون » فقد اعطى اذًا يسوع سلطته السامية الى التلاميذ وهم يستطيعون ان يستعملوها كما يشاءون سواء كان في العالم الروحي او في العالم المادي اي على طرد الارواح الشريرة وشفاء الامراض الجسدية ولا خشية في ان تنقصهم ابدًا٠ وقد قال لهم حقًا « وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر » فكلمة انا في هذا المقام لها قوة خصوصية اعني ان غالب العالم والموت والكلي القوة سيد السماء والارض ابن الله سيبقى مع المؤمنين معينًا لهم حتى آخر الازمنة ٠ وقد اتت الحوادث مصداقًا على انه لم ينكث بوعده٠ ومن بعد ما كلمهم الرب يسوع بهذا الكلام تركهم في حالة سعيدة يجرون اذيال التيه لما سمعوه٠ واما بقية التلاميذ فكانوا في اقصى درجة من العجب

وشعرت تلك الكنيسة الصغيرة بانها تجدد قواها الادبية وكانت قد ازفت تلك الساعة التي كان مزمعاً ان يجدها فيها يسوع ذات عدد غفير في غاية الوئام وذات قوة وشجاعة لكي تدخل ميدان الجهاد في عيد العنصرة العظيم وصار يغادرها خليّ البال ناعمه

الفصل السادس

في مجد يسوع

الصعود· يسوع ملك السماء والارض لوقا ص ٢٤ عد ٥٠ الى ٥٣ مرقس ص ١٦ ع ١٩ الي ٢٠ واعمال الرسل ص ٢ ع ٨—١٢

§

الصعود

ومكث التلاميذ في الجليل زهاء شهر حيث كانت انفسهم تتعزى بظهور السيد المتواتر فضلا عن ان جميع مواطنيهم كانوا مشاركين لهم في عواطفهم ومع ذلك فقد حانت ساعة السفر الى اورشليم· وكما امرهم السيد اول مرة ان يغادروا المدينة المقدسة و يذهبوا مدة من الزمان الى جبال الجليل حيث تجدد فيهم الشجاعة بمباشرة السيد ومواكلته فكذلك قد امرهم ان يعودوا الى اليهودية ليقتبلوا فيها معمودية النار في عيد العنصرة

فهذه القافلة الصغيرة كانت مؤلفة من الرسل ومن مريم المغبوطة ام يسوع المبعوث من بين الاموات ومن اخوة يسوع الذين آمنوا ومن عدد غفير من بقية المؤمنين الذين لم تعرف اسماؤهم وكانت الحماسة بلغت منهم مبلغها لانهم كانوا متوقعين ان تتم عن قريب حوادث عظيمة مطابقة لامانيهم واشواقهم القلبية

فشتان ما بين هذا السفر الى اورشليم وبين السفر الذي تقدمه لانهم كانوا وقتئذٍ ذاهبين الى حضور استشهاد السيد واما الآن فالى تمجيده السامي

ولما وصل هؤلاء الانصار الجليليون الى المدينة المقدسة مكثوا فيها كما استطاعوا ولم يشاءوا ان يظهروا انفسهم بل لبثوا في ضواحي المدينة عند اصحابهم. وكان الرب يعيش غالب الاحيان بينهم و ياكل معهم ويدعوهم الى اجتماعات خصوصية متحدثًا معهم عن ملكوت الله وعن مستقبله وعن الشروط التي كان مزمعًا ان يظهر فيها ازدياد مجد محاربته وانتصاره . فيا له من فرح كان يفعم نفوس التلاميذ حينما كان السيد المبعوث من بين الاموات والمنتصر يوزع عليهم خبز الحياة اما بكلامه واما بسر الاوخارستيه كما وزعه عليهم سابقا— وان كتاب اعمال الرسل يخبر بكلام وجيز وغير كاف عن هذه الحالة الخصوصية التي مكث فيها يسوع بين تلاميذه

وكان يسوع قد اخبرهم بقرب تحقيق موعد الاب الذي كان قد كلمهم عنه مرارًا كثيرة والذي كان مزمعًا ان يجعلهم اناسًا جددًا في معزلٍ عن سفينتهم وشباكهم ووطنهم اي ارض الجليل وعيالهم المحبوبة والبحيرة التي قد قضوا فيها حياة هنيئة فكل هذه العلائق المقدسة والجديرة بالاجلال والتي كان قلبهم متعلقًا بها قد قطعت او اوشكت ان تقطع. ومن الان فصاعدًا لم يعد لهم لا وطن ولا اهل ولا شاغل الا تلبية ارادة الرب مضحين ذواتهم في سبيل خدمته

وكانت تلك الكنيسة القليلة العدد ملتزمة ان تسكن في وسط اورشليم بين اعدائها لان يسوع كان اوعز اليها ان تسكن هناك. اولاً حتى تقتبل عماد النار وثانيًا لكي تقاوم ببسالة اليهود المضطهدين لها « وقد قال السيد. ان يوحنا انما عمد بالماء اما انتم فستعمدون بالروح القدس بعد ايام قليلة » فالتلاميذ فضلا عن انهم لم يفهموا هذا الوعد كانوا يظنون بكل حق وصواب ان سيكون

مقترناً بمجيء مملكة الله

§

يسوع ملك السماء والارض

فيوماً ما اذ اخذهم يسوع الى جبل الزيتون بالقرب من بيت عنيا واخبرهم بعمودية النار « ساله المجتمعون قائلين يارب افي هذا الزمان ترد الملك الى اسرائيل » فماذا كانوا يعنون ياترى بهذا السؤال . هل كانوا يتوقعون ان يحررهم و يرفع عن اعناقهم نير الرومانيين راداً الى اليهود سلطتهم المدنية التي تمتد الى اطراف العالم؟ كلا . فمن المستبعد ان يكون هذا مقصدهم ولم يعنوا بالملك ما ذكرنا فان افكارهم كانت قد تغيرت ولا سيما بعد ما سمعوه من امد قريب من كلام السيد عن هذا الموضوع . ومهما يكن من هذا الامر فلم يشاء يسوع ان يجيبهم على هذا السوال الفضولي لكنه اكتفى بان يقول لهم « ليس لكم ان تعرفوا الاوقات والازمنة التي جعلها الآب في سلطانه لكنكم ستنالون من الروح القدس الذي يحل عليكم فتكونون لي شهوداً في اورشليم وجميع اليهودية وفي السامرة والى اقصى الارض » فالخادم ليس له ان يعرف اليوم الذي يتمم فيه سيده مقاصده والجندي ليس له ان يسال القائد عن الزمان والمكان الذي تلتظي فيه نار الوغى ولكنه يكفيهما ان يعرفا الخطة الواجب عليهما اتباعها والطريق التي يسلكانها . ومع كل ذلك فهذا الجواب الذي تخلص به يسوع بحذاقة من سائليه يدع مجالاً للظن بان ذلك اليوم هو قريب وكل من امعن النظر يعلم ان رسالته على الارض قد انتهت . ولم يبق عليه الا ان يخلي مكانه مهيئاً الطريق الى مدبر المملكة المزمع ان يأتي . ومن بعد ظهوره وتواريه المتواتر اصبح التلاميذ يشعرون بحضوره الغير المنظور الذي اضحى كافياً لان يجدد نشاطهم و يغنيهم عن حضوره المنظور . ومن جهة اخرى فلم يكن يقدر ان يرسل اليهم البارقليط قبل ان يصعد الى ابيه وفي غضون ذلك كانت الحاظ يسوع من جهة معلقة في اورشليم الكافرة

متاملاً بكآبة ذلك المشهد الذي قاسى فيه الالام ومن جهة اخرى كان يتفرس وعلامات الفرح تلوح على محياه في الرسل والتلاميذ الذين اضحوا ركن آماله وكان صامتاً. ثم رفع يديه و باركهم فصاروا يتسالون عما عساه ان يحدث و بينما كانت البركات تتساقط من فمه ارتفع رو يداً في الفضاء وكان جسده مغطى باكليل نور ساطع. وهكذا قد انتقل ابن الانسان الى الحالة الالهية المختصة به من حيث طبعه لانه ابن الله ومن حيث انتصاره لانه مخلص البشر وكانت تجلله سحابة ساطعة

وهكذ قد انتهى تاريخ حياته الدنيوية واصبح صعوده الى السماء مقابلاً للحبل به الفائق الطبيعة. والذي قد انحدر من السماء الى الارض قد صعد من الارض الى السما. وقوة العلي التي حلت على مريم لتخلق الانسان الجديد هي نفسها ترفع الان هذا الانسان المزين بالقداسة والمجمل بتضحية نفسه والممجد باستحقاقاته مبلغةً اياه الى مقر الافراح

فصعود يسوع هو في تاريخ حياته كنتيجة طبيعية وتتمة لقيامته. وجسده المبعوث من بين الاموات والذي لم يبق خاضعاً لحدود المكان والزمان لم ينتقل الى الحالة الروحية الآ لكي يبلغ في اخر طور من احوال مهمته الى الحياة الكاملة اعني الراحة في المجد[1] وما جلوسه عن يمين الاب الآ التسلط على مملكته الروحية مع بقاءه في الوقت نفسه وسيطاً بين الله والبشر. ومع انه الرب الممجد سرمداً والحبر الغير المائت مخلص العالم بتضرعاته المتواصلة فقد الفى في انتصاره الذي لا يغلب المكافاة والمجازاة على مشروعه الرسولي

وان هذا المشروع لعظيم وما ذكرعنه حتى الآن من التفصيل والوصف لم

---

(١) بولس: الاولى الى اهل كورنثس ف ١٥، عد ٢

الثانية " " ٣ و ١٧ و٤ و٦٤

يحط بكل تشعباته وتقسيماته ولكننا نقدر ان نقول بالاجمال ان يسوع بما انه ابن البشر وابن الله فقد امكنه ان يرفع الانسان الى مقام الله وان يحط الاله الى مقام انسان· وهذه اكبر آيات الاجيال

ولو كان يسوع احد ابناء الانسان فقط لما امكنه ان يكون مجملاً الاَّ بفضائل فردية وكمال شخصي يقدر بواسطتها ان يكون مثلاً حسناً وقدوة صالحة نظير باقي الناس ولكنه كان ابن الانسان اعني الانسان الجديد الانسان العمومي والمنتظر من الجميع آدم الثاني الممثل في نفسه الجنس البشري بامره اي الذي كان والذي سيكون لينقيه من كل شهواته و يرد اليه عظمة خلقته وشرفها اذ يخلقه بروحه خلقة جديدة وذلك باستحقاقات آلامه· وقد اتى ليردنا الى مقامنا الاول قبل السقطة وقد توصل الى ذلك ولكن بشروط وان خالفت شروط حالتنا الاولى فانها تفوقها فوقاً بيناً اذ رفع ابن البشر الانسان الى درجة هكذا سامية حتى جعله ان يجلس بقرب الله

وقد غادره في هذه الارض عارفاً بمقامه الادبي وتبنّيه الالهي و بما اعد له من العواقب السامية وهذا علة ما نشأ و ينشاء من التغيرات الفردية والعمومية· وتحقيقاً لهذه الاماني قد اعطاه ايضاً شريعة الحياة والحقائق الدينيـة المذاعة لكل البشر ووصية المحبة نحو الجميع اجل ان هذا العمل انما هو عمل اله وان يسوع كان الهاً

ولم يدعُ ذاته ابناً لله الذي كان يقدر غيره ان يتخذه لانه لا يدل الا على التبني فقط ولكن قد اتخذ اسم ابن الله الذي لا يوجد له نظير اي ابن الله الوحيد منذ الازل وهو الذي وحده دعا الله ابي تاركاً بقية البشر تدعوه ابانا لانه هو وحده اله بطبيعته وابن الله وليس احد غيره جدير ان يوحي اسرار السماء وان يتكلم عن الآب بمهارة ليجعله معروفاً ومحبو باً· وعليه قد اجتمع فيه النقيضان اعني الاله والانسان معاً وقد تصالحا به متآلفين

فيا ايها المسيح الفادي الملك والاله اذهب الى مقام الانتصار لان مهمتك قد انتهت ادخل الى السماء لانها مملكتك واحفظ الارض لانها ميدان جهادك . و بينما انت ممجد في علاك من الملئكة فالبشر في هذه الدنيا تنتصر لك مبشرة باسمك ومقدمة لك السجود وكلاهما اي الملئكة في السعادة والبشر وهم في غصص الجهاد يرددون وهم نشاوى من خمرة الفرح والمحبة والحماسة هذا الكلام : التسبيح والمجد والعظمة والافتخار للملك الجالس على عرشه وللحمل الذي خلص العالم الى ابد الابدين

وفيما كان يتفرس التلاميذ بهذا المشهد العظيم اخذت الدهشة منهم ماخذها واصبحوا كمن يرى رؤيا وكان يسوع قد توارى عنهم من زمن ليس بقليل بمركبة المجد وهم لم يزالوا يتفرسون علّهم يجدونه في ذلك الشهب الناري المنتشر في الفضاء و بينما هم على هذه الحال اذا برجلين وقفا عندهم بلباس ابيض وقد عرفوهما انهما ملكان من لباسهما الذي هو رمز عن طهارتهما السموية لانه كما نزلت الملئكة الى بيت لحم ورتلت مجد ابن الله حينما تجسد وصار انسانا فمن الواجب ان تنزل ايضاً الى جبل الزيتون لتذيع مجد الانسان الذي صار الهًا وقالا لهم « ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء ان يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سياتي هكذا كما عاينتموه منطلقًا الى السماء » فحينئذٍ رجع التلاميذ الى اورشليم ممتلئين حماسة مغبوطين من مشاهدة ذلك المنظر الذي ملأهم تعزيةً و به استنشقوا نسيم المدينة السماوية فاقاموا في العلية المكان الذي يحلو لهم ذكره مواظبين على العبادة حيث كانوا يتوقعون الدقيقة التي يشأ السيد فيها ان يبدي ارادته بواسطة حلول الروح القدس مشيرًا اليهم ان يشرعوا بتبشير العالم بالانجيل

انتهى

FIN

فهرس الكتاب

وجه

تقديم الكتاب ٢

مقدمة المترجم ٥

الكتاب الذي ارسله الى المؤلف قداسة الحبر الاعظم البابا لاون الثالث عشر ٦

رسالة غبطة البطريرك الياس بطرس الحويك الى المترجم ٨

دعاء ليسوع الناصري ٩

القسم الاول — حداثة يسوع الناصري

الفصل الاول — تمهيد ١٠

ظهور ابن الله متانساً — الكتب التي تخبر بذلك — مكان ظهوره جغرافياً ودينياً وادبياً

الفصل الثاني

ظهور نبي في برية اليهودية — تاريخ ولادته العجيب — وعظه ٢١
وتعميده على شواطىء الاردن — خروج اهل اورشليم وسكان اليهودية الى يوحنا — وفد من قبل المجلس اليه

الفصل الثالث

ظهور السيد المسيح لسابقه ٣٣

يسوع الناصري يطلب العماد من يوحنا — رؤيا سماوية فوق راس المعتمد بقين يوحنا بان يسوع هو المسيح

وجه

الفصل الرابع

ترجمة حياة السيد المسيح منذ نشأته الى الثلاثين من سنه — ٣٦

نسب يسوع المسيح — الحبل به العجيب — اقتران يوسف بمريم — ولادة يسوع في بيت لحم — ختانته — مجيء المجوس — تطهير مريم وتقدمة يسوع الى الهيكل — الهرب الى مصر — ايام حداثته في الناصرة وكيفية معيشته فيها الى الثلاثين من عمره

الفصل الخامس

تجربة المسيح الادبية واظهار ذاته رسميًا الى اسرائيل ٧٣

ذهاب يسوع الى البرية ليتاهب الى الدخول في حياته العمومية — ابليس هو العدو — التجارب الثلاث — اعتراف يوحنا المعمدان ان يسوع هو المسيح

القسم الثاني

حياة يسوع المسيح العمومية

الفصل الاول

شروع يسوع في عمله المسيحي ٨٣

انتخاب الرسل الاولين — المعجزة الاولى في قانا الجليل — طرد الباعة من الهيكل — المحاورة مع نيقوديمس — اخر شهادة من الصابغ — المسيح والسامرية

الفصل الثاني

نتائج التبشير المختلفة في الجليل وفي اورشليم ١٠٧

وجه

نشأة الايمان في الجليل — شفاء ابن رئيس للملك في كفرناحوم — عيد في اورشليم وابراء المخلع من بيت صيداء — حبس يوحنا المعمدان

الفصل الثالث

يؤلف يسوع في الجليل اول عصابة جمعها لتأسيس الكنيسة ١١٥
وعظه في مجمع الناصرة يذهب بلا ثمرة — اقامته في كفرناحوم — دعوة اربعة من التلاميذ ليصيروا صيادي الناس — شفاؤه المتشيطنين في كفرناحوم وضواحيها

الفصل الرابع

ان رافة وقدرة يسوع يؤكدان نجاح وانتشار بشارته ١٢٦
بيان كون يسوع قادرًا ان يحل الخطايا — فتح ابواب الملكوت الى العشارين — امتداد قدرة يسوع على شفاء الامراض وتسلطه على عناصر الطبيعة والشياطين والموت

الفصل الخامس

كيف ان يسوع يشرع في تنظيم كنيسته بنوع ظاهر ١٤٥
— لجاجة يوحنا المعمدان وهو في السجن — جواب يسوع — وضع مملكته — تعيين رؤسائها وتسميته الرسل الاثني عشر

الفصل السادس

تعاليم يسوع لكنيسته ١٥٥
خطبة يسوع على الجبل — مجلة الشريعة الجديدة — وصية الرحمة والخاطية في بيت سمعان الفريسي — جدال الفريسيين — التعليم بالامثال

وجه

على شاطىء البحيرة

الفصل السابع

معظم نفوذ يسوع عند شعب الجليل ١٩٢

عودة يسوع الى التبشير في الجليل—ارساله الاثني عشر — خوف هيرودس بعد قطعه راس يوحنا المعمدان — تكثير الخبز وميل الجمهور السياسي — كلام يسوع بخصوص خبز الحياة

الفصل الثامن

صعوبة الايمان في الجليل ٢٠٩

جدال عنيف مع الفريسيين — عزمهم على قتل يسوع — ذهاب يسوع نحو تخوم فينيقية — ايابه الى كفرناحوم مع استمرار وجود الخطر

الفصل التاسع

انتهاء الكرازة في الجليل ٢١٨

اختلاء يسوع في نواحي قيصرية فيلبس — اعلان ايمان الكنيسة بفم بطرس — توقع الصليب — التجلي — ظهور يسوع لآخر مرة في كفرناحوم

الفصل العاشر

مناقشة في اورشليم ابان عيد المظال ٢٣٨

عزم يسوع على الذهاب الى اورشليم لاجل مناقشة اخصامه — ظهوره الفجائي في عيد المظال — تصريح علني —المراة الزانية— المولود اعمى — الراعي الصالح

وجه

الفصل الحادي عشر

ايام الاختلاء والوحدة ٢٦٦

القريب — يسوع عند مريم ومرتا — يسوع يعلم تلاميذه كيف يصلون — مشورات خلاصية — مسامرات تقوية

الفصل الثاني عشر

مناقشة جديدة ابان عيد التجديد وتظاهر يسوع بالسخط على الفريسيين ٤٨٥

يعلن يسوع نفسه الهًا وهو في رواق سليمان — خصامه مع الفريسيين وسخطه عليهم — مثل الوليمة

الفصل الثالث عشر

يسوع في مقاطعة بيرية ٢٩٩

قلة المنتخبين ورذل اسرائيل — لا يكفي التحمس ليجعل التلميذ تلميذًا حقيقيًا — بيان رافة العلي بواسطة الامثال — الصدقة والحياة المزمعة — التواضع

الفصل الرابع عشر

في انبعاث لعازر ونتائجه ٣٢٥

رسول يخبر بموت لعازر — ذهاب يسوع الى جوار اورشليم غير خائف من اعدائه — حكم المجلس النهائي باهلاك يسوع

الفصل الخامس عشر

عزلة يسوع في تخوم افرام وبشارته الاخيرة ٣٣٢

وجه

ذهاب يسوع وانفراده في مدينة افرام — ارساله السبعين تلميذاً — الدعوة الى الخلاص — الزواج والتبتل — الاولاد في اعتبار المخلص

الفصل السادس عشر

في سفر يسوع الى اورشليم ٣٤٩

ان يسوع قر رأيه ان يصعد الى اورشليم في آخر فصح من حياته — اول مرحلة له في اريحا — الثانية في بيت عنيا

الفصل السابع عشر

دخول يسوع دخول الظافر الى المدينة المقدسة واستعمال القوة في الهيكل ٣٦٤

تسليم يسوع ذاته لتحمس الشعب — بكاؤه على اورشليم — دخوله بانتصار — طرده الباعة في الغد من الهيكل

الفصل الثامن عشر

اهم واخر يوم في حياة يسوع العمومية ٤٦٩

جواب يسوع للمجلس وامثال معنوية رمزية — اسئلة خداعة رجوع يسوع وافتتاحه الجدال — طلب اليونانيين المفاوضة معه — الخطب النبوية

القسم الثالث

نهاية حياة يسوع المسيح

الفصل الاول — المشهد الاخير ٣٩٠

يهوذا يقترح على المجلس تسليم يسوع — الوليمة الفصحية ومظاهرها

وجه

الاولى — ترتيب سر الافخارستيا المقدس — خطبة الوداع — صلاة يسوع

الفصل الثاني

القاء القبض على يسوع ٤٢٣

بستان جتسمانية — الكربة — وصول يهوذا — القبض على يسوع

الفصل الثالث

دعوى يسوع ٤٣٣

المرافعة الدينية عند حنان وقيافا — والدعوى المدنية في حضرة بيلاطس — حادثة امام هيرودس — الحكم بالعقاب

الفصل الرابع

عذاب يسوع وموته ٤٥٦

يسوع حامل صليبه — الجلجلة — القبر

الفصل الخامس

القيامة ٤٧٥

اظهر يسوع ذاته حياً صباح اليوم الثالث بعد موته — على طريق عماوس — في العلية — ظهورات اخرى في اثناء اربعين يوماً

اصلاح بعض ما وقع من الخطاء

صفحة	سطر	خطا	صوابه
٠٥١	١٢	السنة الثالثة	الشهر الثالث قبل
٠٥٦	١٤	٧٥ فرنكاً	١٥ فرنكاً

صفحة	سطر	خطا	صواب
٠٨٩	١٣	ستة	سبعة
١٠٧	١٧	الناصرة	السامرة
١١٣	١٤	اثني عشر	خمسة عشر
١٣١	٢١	عيمه وتين	عين تين
١٢٥	٠٧	ويمرض	ويبيض
١٩٨	١٤	اوتاس	ارثا
٢٣٥	١٦	ان نضع	ان لا نضع
٣٣٧	٠٩	البشرية الحقيقة	البشرية ٠ولم يدعُ الى التبشير بالحقيقة
٣٣٧	١١	الصالح	العالم
٣٤٠	٢٠	ملامة	ملالة
٣٤٢	٠٨	العلم	المعلم الصالح
٣٧٨	١٥	اللدين	الذي
٣٨١	١٤	بني	بين٠
٣٨٩	١٦	اليهودية	اليهود
٣٨٩	١٧	للاخرة	للاخر
٣٩١	١٤	تألف	تألفها
٣٩٢	١٨	الفريسي المتكبر	الكبرياء الفريسي
٣٩٣	٠٥	يرفعه	يقلقه
٣٩٦	١٦	ان الاب يرجع	انه من الاب ويرجع اليه
٤٢٩	٠٦	للقتال	للقتال الذي
٣٨٢	٠٧	سبت	بعد سبت

232.9:C21hAm:c.1
كامى ،أ.لا. (الاب)
حياة سيدنا يسوع المسيح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

232.9
C21hAm

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
BEIRUT